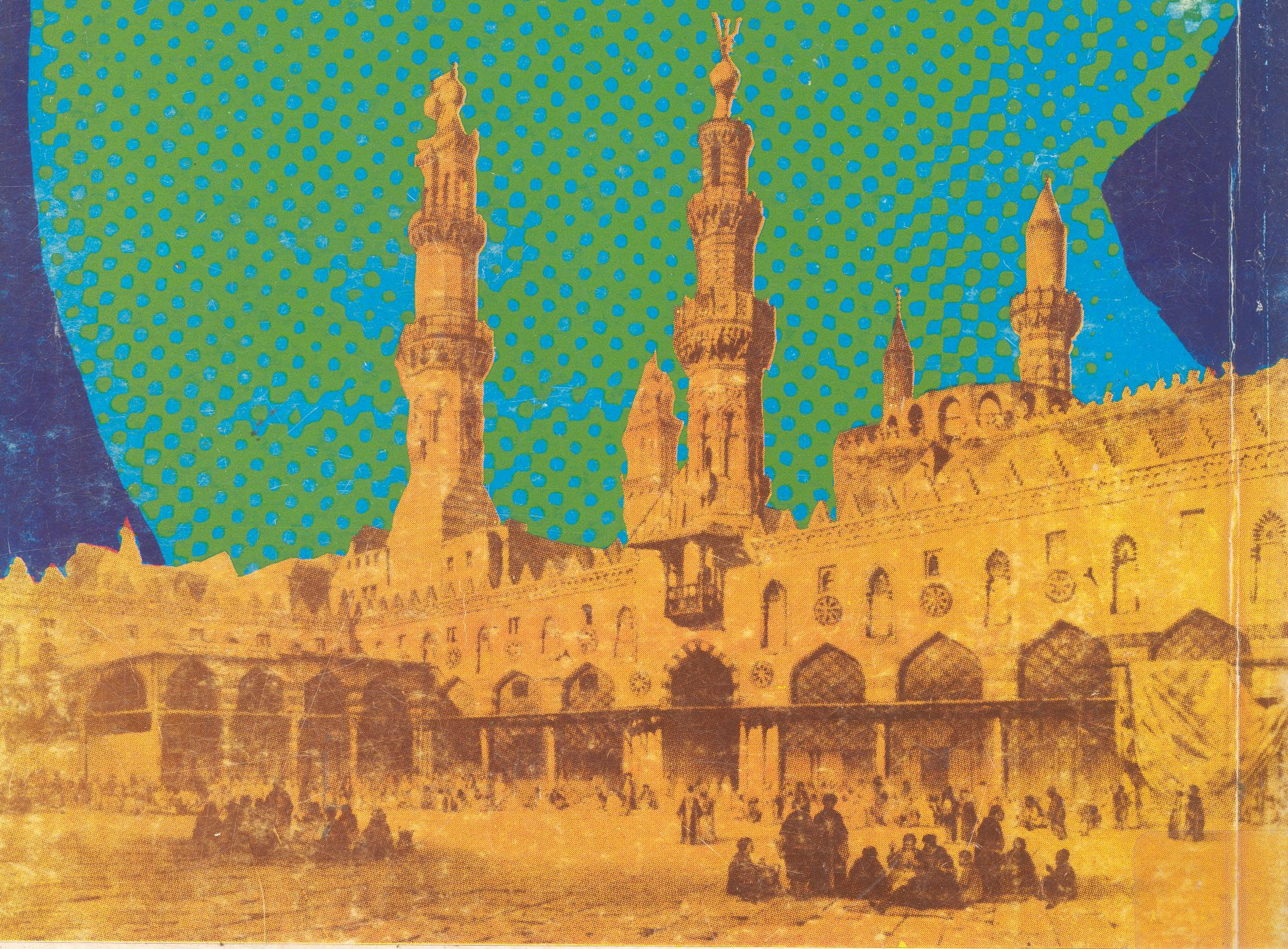


...ودخلت الخيل الأزهر

الطبعة الثانية

جلال كشك

الى سليمان الحلبي بطل الوحدة العربية

يوم كان طريقها عبر الازهر

خطبة الكتاب

في اكتوبر ١٧٩٨ دخلت الخيول الفرنسية الأزهر ، وأعمل الجند الفرنسيون السيف في طلبته وشيوخه ونهبت الكتب ومزقت مخطوطات عمرها عـــدة قرون ، القتها أرضاً ووطئتها بسنابك الخيل ، ونهب بعضها اليهود الذين كانوا في خدمة جيش الاحتلال . ثم اتخذ الجنود من المسجد ـ الجامعة ، اسطبلاً للخيل.. وظلت فيه حتى تشفع الشيخ « الجوهري » الذي لم يقابل في حياته حاكماً ، ظالماً كان هذا الحاكم أو عادلاً .. ولكنه خرج عن النهج الذي الزم نفسه به وتوجه الى « نابليون » .. طالباً خروج الخيل من الأزهر .. وأدرك نابليون خطورة احتلاله المهين للأزهر وعمق تأثيره في المصريين . فأمر بالجلاء عنه .. ليلقي القبض على عدد من مشايخه ويقطع رؤوسهم في سجون القلعة .

كانت هذه هي المرة الأولى في تاريخ مصر ، التي يمتهن فيها الأزهر على هذا النحو ، وأول مرة يتطاول فيها حاكم على شيوخه الى حد الاعدام .. ذلك لأنها كانت أول مرة يحتل فيها مستعمر أجنبي مصر منذ أن كان الازهر.

كان « الأزهر » هـــو رمز سيادة الأمة ، ومركز قيادتها .. وما ان سقطت « الدولة » المصرية في معركة امبابه ، حتى أصبح الغازي المحتل ، والأزهر ، وجهاً لوجه .. فقاد الازهر مقاومة الأمة على جميع المستويات . من المقاومة السلبية التي قادها الشيوخ الكبار داخل مجالس نابليون وداخـل التشكيلات الادارية التي اقامها لحكم البلاد .. الى المقاومة الوطنية العنيفة التي

قادها الشيوخ الصغار ، بتنظيم حركات سرية ، وأعمال المقاومة الشعبية ـ التي وصلت ذروتها بتنفيذ اهم ثورتين عرفهما الشرق في ذلك الوقت ـ الى أعمال الاغتيال التي نظمها ونفذها بنجاح طلبة الأزهر .. « المجاورون » ..

كان الأزهر يمثل الكيان المتميز لهذه الأمة ، يمثل ذاتها وتراثها ، وامكانية مستقبلها .. وأدرك المحتلون ذلك كله ، لذا نراهم في نفس الوقت الذي يجرون فيه المفاوضات والمساومات مع الباب العالي بهدف التفاهم معه ، ويعقدون الاتفاقيات مع فلول المماليك ، ويُصبح كبيرهم « مراد » بك بمثابة موظف أو قائد قوة بوليسية تابعة للمحتل الفرنسي .. في نفس الوقت كان الصدام يتصاعد يومياً بين جيش الاحتلال أو السلطة الفرنسية وبين الأزهر .. وانتهى ذلك الصراع باغلاق الأزهر وتسمير أبوابه بعد مصرع كليبر .. وفي عهد خليفته الذي أدعى الاسلام : « عبد الله جاك مينو » !!

نعم .. لقد فتح الأزهر أبوابه بعد ذلك ، لأن الحملة الفرنسية انتهت أيامها في مصر واضطرت الى الجلاء .. ولكن هذه الحادثة ، اعني اغلاق الأزهر ، عبرت عن طبيعة العلاقة الوحيدة الممكنة بين الاحتلال الغربي ، وقيادة الامة .

كانت الحملة الفرنسية هي طليعة الاستعمارية الغربية ، وكانت تجربة السنوات الثلاث التي قضتها في مصر ، كافية لاقناع هذه الاستعمارية انه ما لم تتم تصفية الدور القيادي الذي يلعبه « الأزهر » فلن يمكن لأي استعمار غربي أن يستقر على ضفاف النيل ..

لقد سقطت مصر خلال ساعات عندما كان امراء المماليك يتولون الدفاع عنها ، ودخل « نابليون » القاهرة سعيداً مستبشراً حالماً بامبراطورية « الاسكندر »...فلما برز « الأزهر » لأنه هو وحده الذي بقى في الساحة.. وتحمل شيوخه ، المنتشرون في كل قرية مصرية ، بالوجود أو بالفكر أو بالتوقير ،

مسؤولية قيادة مقاومة الامة ، لم يبت جيش الاحتلال ، ليلة واحدة هادئة طوال ثلاث سنوات .. ولم يسجل تاريخ الشعوب الشرقية ، قبل مقاومة الشعب المصري ، ولسنوات اخرى عديدة بعدها،مثل هذه المقاومة العامة والشاملة للوجود الغربي ، التي شهدتها مصر في الفترة من ١٧٩٨ — ١٨٠١ .

كان رفض الوجود الغربي على أرضنا رفضاً عاماً وشاملاً وعنيفاً .. وكان لا بد أن تصفى قيادة الأزهر .. لا عن طريق احتلاله بالخيل ، ولا بتسمير أبوابه .. بل بتسمير باب قيادته الفكرية للأمة.. بتغريب المجتمع من حوله.. حتى تقطع جذوره أو تذوى .. ويبدو نشازاً متخلفاً ، بل ويصبح رمزاً « للتخلف » .. ومثار السخرية والتندر ..

هذه هي المهمة التي تولاها بنجاح رجل الغرب وممثل مصالحه « محمد علي باشا » الملقب « بالكبير » مؤسس مصر « الحديثة » وباعث « نهضتها » ومسلمها فريسة عاجزة الى الاستعمار الغربي .

عندما جاء نابليون بجيشه ، واجه شيوخ الأزهر ، القيادة الشرعية والواقعية للأمة ، لذلك كانت سنواته الثلاث هي سنوات حرب متصلة .. ومقاومة لا تهدأ .. ولكن بعد ثمانين عاماً من تحضير وتمدين وتغريب أسرة « محمد علي » لمصر،انتقلت القيادة نهائياً من الأزهر،وأصبحت في هذه المرة في الجيش .. فلما سقط الجيش في معركة « التل الكبير » .. سقطت مصر ، ونعم الانجليز بهدوء دام أكثر من ربع قرن .. لأن الأمة كانت بلاقيادة .. لأن قيادتها الطبيعية كانت قد نُحيت وُصفيت .. لأن عملية التغريب كانت قد تمت بنجاح .. وأصبحت البلاد ناضجة لكي يتناولها السيد الغربي .. وقد كان ..

أين فلاحو دنشواي البؤساء المسالمون الذين شنقوا عقوبة على « ضربة شمس » .. أصابت جندي انجليزي .. اين هؤلاء العزل من الفلاحين الاشاوس المقاتلين ، الذين دوخوا نابليون وفرسانه ؟!..

كان الاسلام هو السد الوطني الذي تتكسر عنده أمواج الغزو الغربي،لأن الاسلام هو الرفض الحضاري للغزو الغربي . وكان الاسلام يتمثل في الرفض الغريزي من جانب الجماهير ، للغزاة الأجـــانب الذين يهددون وجودنا الحضاري ، ومستقبلنا ، ومصالحنا .. وكان يتمثل أيضاً في القيادة المثقفة للأمة .. أي في شيوخها وتجارها وأعيانها .. (وهي القوى التي صفاها محمد علي ، بإصلاحاته ، ونظامه الاقتصادي والطبقة الجديدة التي حلت محـــل الاعيان المصريين) . وما من أمة تحقق استقلالها وتقدمها الا تحت قيادة طليعتها المثقفة .. شرط ان ترتفع هذه الطليعة الى مستوى ثقافة عصرها ، وشرط أن تنجح في تجميع وتوجيه طاقات الجماهير في اتجاه التحرر وكسب القوة المادية القادرة على انجاز متطلبات المرحلة التاريخية .

لذلك كان على الغزوة الاستعمارية الغربية أن تفتت مقاومة أمتنا،بتجريدها من الاسلام . وقـــد جربت أوروبا ابادة الاسلام بقتـــل المسلمين في الحروب الصليبية ، لكنها اكتشفت فشل هـــذا الأسلوب . وحاولت مرة اخرى ان تخرج المسلمين من الاسلام بحملات التبشير ، هذه الحملات التي لم تكن عدواناً على الاسلام وحده بل وأيضاً عدواناً على كنائسنا العربية ، ذلك ان المسيحية في المشرق العربي ، كانت مـــن دعـــائم الرفض الوطني للغزو الغربي . فهذه الكنائس هي ثمرة وتجمع تاريخ دامٍ من مقاومـــة المؤمنين العرب للاستبداد الغربي قبل وبعـــد ظهور المسيحية في الغرب .. وكان أعيـــان النصارى في المشرق العربي ، وفي مصر بالذات جزءاً أساسياً من القيادة المثقفة للامـــة ، يتحملون مسؤوليتهم الى جانب شيوخ الأزهر ، والأعيان والتجار المسلمين .. وكانت الكنائس الغربية ، والكنيسة المصرية العريقة(*) بالذات، قلاعاً لمقاومة الغزو الاستعماري الغربي . وكتابات الاستعماريين الغربيين والمبشرين الغربيين،

(*) أقدم كنائس العالم على الاطلاق .

حافلة بالحقد على الاسلام وكنيستنا القبطية معاً ... الى نهـــاية القرن التاسع عشر .. والمؤرخون الاستعماريون ، لا يخفون مرارتهم وهم يتحدثون عن فشل جهود مبشريهم في كسب مسلم واحد أو قبطي واحد الى صفوفهم .

لكن التبشير لم ينجح .. فكان التغريب : أي دفع المسلمين والمسيحيين ، الى استبعاد الدين من حياتهم وتفكيرهم ، عزل القيادات المثقفـــة ، تصفية دورها في المجتمع ..

والآن ماذا نقصد بالتغريب ؟!..

انه الجواب الخاطيء الذي طرح على شعوب الشرق منذ صدامها مع الغزو الغربي ..

لقد اصطدم الغزو الغربي ، بثلاثة انواع من الشعوب :

● شعوب لم تكن لديها حضارة قادرة على المقاومة ، ولم يكن الاستعمار الغربي بحاجة الى استمرار هذه الشعوب .. فكان أسلوبه في مواجهتها هـو الابادة الشاملة ، أما من بقي بعد الذبح والحرق ، فقد تم فناؤه في الغزاة ، وتكون جيل جديد من الخلاسيين ، أو المولدين .. يتكلم نفس اللغة ، ويعتنق نفس الدين ، ولا يكشفه إلا لونه ، وتخلفه ، والبؤس الذي فرض عليه بصفة أبدية .. ذلك ما تم في شعوب العالم الجديد ..

● وشعوب كان الاستعمار الغربي بحاجة اليها، ولم تكن لديها حضارة ولا مقومات حضارية تمكنها من مقاومة الغزو الاستعماري ، فاكتفى الاستعمار باستئصال قسم منها ، وباستئناس القسم الآخر ، والحاقه بزرعته ، وتلقين هذا القسم الداجن لغته وأحياناً دينه ، وبالذات في المرحلة الأخيرة كاجراء وقائي لمواجهة تطورات الزمن المحتومة .. مع ابقاء حاجز أقوى من حائط الصين بين مجتمع السيد .. الانسان الأبيض ، ومجتمع الكائنات غير البيضاء هكذا جرى الحال بصفة أساسية في افريقيا ..

● أما الحالة الثالثة ، فهي حالة الشعوب التي كان لها تراث حضاري ، ومؤسسات حضارية ، رغم تخلفها ، لكنها تشكل عنصر رفض ومقاومة للوجود الغربي .. هذه الشعوب كانت ابادتها مستحيلة وغير مرغوب فيها ، لأن استثمارها هو جوهر الاستعمار وغايته ، (كيد عاملة رخيصة وكمستهلكة لمنتجات الدولة الاستعمارية) وكان تدجينها بأسلوب استئناس الحيوان ـ أي بالسوط وقطعة السكر ـ مستحيلاً ..

هذه الشعوب عندما فوجئت بتفوق الغرب ، الذي عاشت قروناً على احتقار شأنه ، والاستخفاف به ، الى ان روعتها مدفعية نابليون في عشية القرن الثامن عشر في الطرف الغربي من آسيا ، بينما أيقظت مدفعية الكومادور « ماتيو بيري » الامريكي ، الطرف الشرقي — اليابان — في عام ١٨٥٣ .. فكان السؤال .. كيف نواجه مدفعية الغرب ؟!

وبينما اخطأت آسيا وافريقيا الجواب ، عرفته اليابان وحدها .. « كان الهدف الرئيسي هو بناء قوة اليابان العسكرية ، ولكن لتحقيق ذلك كان على اليابان ان تنتج كل المنتجات الحديثة ، وان تمتلك كل المعرفة العلمية المتاحة للغرب[1] » ..

أدرك الشرق كله تلك الحقيقة التي وعتها النخبة اليابانية في عصر «الميجي» (أو الحكومة المستنيرة)انه « لكي تبقى اليابان فيجب ان تصبح في مستوى العصر » ... كل الشرق وعى هذه الحقيقة ، وكان أكثر الجميع وعياً بها ، هم أولئك الذين وعوا خطورة التفوق الغربي .. ولكن اليابان وحدها عرفت الجواب الصحيح : **التحديث لا التغريب .. لكي يتحقق التحديث لا بد من رفض التغريب..بل نزعم انه بقدر الاصرار والنجاح في رفض التغريب، يكون النجاح في تحقيق التحديث ..**

تمسكت اليابان بدينها ، واصبح المعبد أو الهيكل جزءاً أساسياً في كل

مصنع أو باخرة ... وتمسكت بنظامها الملكي واستمرت حتى الحرب العالمية الثانية تعامل امبراطورها كإله ! يُحظر النظر اليه من أعلى! وتؤمن الجماهير، وتسلك النخبة على اساس انه ينحدر من الشمس !

وبينما كان يجري التحديث بأعلى معدل عرفته دولة الى النصف الثاني للقرن العشرين كان الياباني محتفظاً بحياته العائلية والاجتماعية وتقاليده وتراثه، يرتدي القفطان (الكيمونو) والقبقاب .. ويأكل على الطبلية بالعصي .. محتقراً الجنس الابيض (*) ، مقتنعاً باصرار متزايد انه خير أمة على ظهر الارض .. محتفلاً بأعياده القومية ، عيد تكريم الامبراطور ، أو عيد البنات (٣ مارس) حيث تجري في كل بيت مراسيم احترام وتوقير لتماثيل صغيرة على شكل عائلة الامبراطور !! وعيد الاسلاف ، في يوليو ، حيث يجري استقبال ارواح الأسلاف وتكريمها .

ظل المسرح الياباني يقدم روايات التراث وبنفس الأسلوب منذ قرون .. وظلت المرأة في مكانها التقليدي ودورها الأساسي ، وظلت على احترامها للزوج وخلع حذائه بيديها .. واليابان هي البلد الشرقي الوحيد الذي لم تظهر فيه حركة « تحرير المرأة » .. لذلك أصبحت مجتمعاً حراً وحافظت على استقلالها ، لأنها عرفت ان المرأة لا تتحرر وحدها ، وأنه لا حرية لامرأة ولا لرجل في مجتمع ضعيف متخلف فاقد الاستقلال ، أو مهدد بفقده في أية لحظة.. وبعكس ما بُذل من جهد في بلادنا لتعليمنا استخدام الشوكة والسكين أو آداب المائدة ، لم يحدث قط ان حاول اليابانيون الأكل على الطريقة الغربية. فالأمة التي تُلقن انها بحاجة الى ان تتعلم آداب المائدة من عدوها هي أمة فقدت احترامها لنفسها ويستحيل ان تنجز أي تفوق ..

(*) الى جانب الكراهية الطبيعية للاستعمار الابيض فان التاريخ الياباني يقوم على احتقار اللون الابيض لأن السكان الاصليين لليابان الذين تمت ابادتهم كانوا بيض البشرة .

التحديث .. هو امتلاك كل المعرفة التي يتفوق بها الغرب، انتاج كل المعدات التي ينتجها الغرب . وكل ما تحتاجه أمة من الأمم لتحقيق هذا التحديث، هو ارادة قومية ، ونظام صالح قادر على تعبئة هذه الارادة وتوجيهها في طريق التصنيع أو التحديث إذا كانت البلد مستقلة ، أو في طريق تحرير الارادة القومية عبر حرب التحرير الوطنية ، التي يتم التحديث خلالها .

لكن يشترط قبل ذلك أن تؤمن الأمة ان تخلفها هو ظاهرة عارضة ، وان اصالتها تمكنها من تجاوز هذه المرحلة العارضة .

أما التغريب ، فيبدأ من اقناع الأمة الشرقية انها متخلفة في جوهرها ، متخلفة في تاريخها وصميم تكوينها ومن ثم فلا بد من انسلاخها تماماً عن كل ما يربطها بماضيها ويميز ذاتها ، واعادة تشكيل المجتمع على الطراز الغربي من ناحية العادات والمظاهر السلوكية مع ابقائه متخلفاً عاجزاً عن انتاج سلع الغرب .. عاجزاً عن اكتساب معرفة الغرب ، فإذا ما اكتسب بعض أفراده هذه المعرفة ، يجدون أنفسهم غرباء عاطلين عن العمل في مجتمعهم فيضطرون الى النزوح الى عالم المتفوقين .

المجتمع المُغَرَّب ، هو ذلك المجتمع الذي تزدحم طرقاته بأفخر واحدث السيارات **المستوردة** ، وتضم مدنه افخم دور عرض الافلام **المستوردة** ، ويرتدي أهله أحدث المنسوجات **المستوردة** ، وعلى أحدث الموضات الغربية ، ويثرثر مثقفوه في قاعات – مكيفة بأجهزة امريكية أو روسية – مشاكل المجتمع الغربي وآلامه .. ويملأون صفحات من ورق **مستورد** تطبع بحبر **مستورد** وبآلات **مستوردة** ، حول قضايا الوجودية ومسرح اللامعقول ، والجنس الجماعي، وتطور حركة الهيبيز، على بعد خطوات من كهوف مواطنيهم حيث البلهارسيا والكوليرا والتراخوما .. وكل تراكات التخلف منذ القرن السابع عشر ..

واذا كان الطرف الشرقي من آسيا – اليابان – قد شهد نجاح سياسة التحديث لا التغريب ، فان الطرف الغربي ، شاهد النموذج المضاد تماماً .. فتركيا بعد الحرب العالمية الاولى وبعد قرن كامل من العجز عن التحديث ، اندفعت – بأقصى ما استطاعت حكومة أن تجبر شعبها الشرقي – في سياسة التغريب .. كتبت من الشمال لليمين وبحروف لاتينية كالغرب ، وخلعت الاسلام وقرأت القرآن والأذان باللاتيني! ولبست البدلة والقبعة بأمر القانون .. وعطلت يوم الأحد وحولت المساجد الى متاحف ، وحررت المرأة على أوسع نطاق، وجعلت الزواج والطلاق على الطريقة الغربية المسيحية وحق الميراث ، واشترطت « فاميلي نام » (اسم عائلة) كما هو الحال في جوازات وبطاقات السياح الغربيين ! لم تترك صغيرة ولا كبيرة من مظاهر الغرب الا وقلدتها على نحو يفوق قدرة القرود .. وظلت دولة متخلفة يفتك بها الفقر، وترتفع نسبة الأمية بها عن سبعين بالمائة .. تغربت بكل طاقتها فبقت خارج نطاق الدول الصناعية أو المتمدينة .

كان التغريب هو الطريق المضمون لخسارة معركة التحديث ، وكل الدول التي تم تغريبها ، أو اختارت طريق التغريب وانشغلت في قضاياه ظلت على تخلفها .. بل وأخطر من ذلك ان « التغريب » يقضي على روح المقاومة في الأمة الشرقية ، فيجعل استعمارها من قبل الدول الغربية المتفوقة أسهل ، وحكمها أيسر ، ويجعل استغلالها أعمق وأكبر عائداً .. وأقل كلفة ومخاطر..

من هنا كان اهتمام الغرب بترويج فكرة التغريب بين صفوفنا .. فمنذ الحملة الفرنسية ، وهناك استثمارات فكرية ، الى جانب الاستثمارات المالية ، بل وكجزء منها ، تهدف الى اقناعنا انه لا تحديث إلا بالتغريب ..

وبعد الغزوة الغربية الأخيرة ، المتمثلة في الهجمة الصهيونية، ومع الالحاح المتزايد للجماهير في البحث عن حل يكفل لهم امتلاك المعرفة التكنولوجية

التي يمتلكها عدوهم الصهيوني والعالم المتقدم الذي يساند هذا العدو .. بادر أعداء التحديث ، اعداء استقلالنا القومي ، اعـداء كل حركة بعث قومية جادة ، بادروا يسدون الطريق على أية محاولة لاكتشاف الجواب الصحيح على تساؤلات الجماهير ، فكان الالحاح من جديد ، على ان الحل هو التغريب ، واننا لم نتغرب بما فيه الكفاية، ولذلك انهزمنا.. وان كل ما نحتاجه هو جرعة أكبر من القيم والتقاليد والعقائد القادمة من الغرب ، رأسمالياً كان أو شيوعياً، وان نقطع خطوات اكثر في الابتعاد عن تراثنا ومقومات شخصيتنا ..

وبدأت عملية تزييف التاريخ ، بهدف أجهاض موجة العداء المتزايدة ضد العدو التاريخي والقومي والحضاري،الذي شل تقدمنا وأبقانا في أسر التخلف خلال مائة وخمسين عامـاً حاسمة في تاريخ العالم ثم رمانا بابنته الشرسة المتوحشة المدججة بتكنولوجيته .. بدلاً من تنمية هذا الوعي ، وتوجيه هذا النفور من الغرب في اتجاه الحرب الوطنية ، بدأت محاولات « التحبيب » في الغرب .. فهو الذي حضرنا ، وهو الذي علمنا ، وهو الذي عرفنا لأول مرة معنى كلمـة « حرية » و « دولة » و « أمة » و « قومية » بل هو الذي أخرجنا من القرون الوسطى ، وحررنا من الاستعمار التركي .. وبعث فينا الروح القومية ، فعلى يديه عرفنا أننا مصريون !.. او عرب !..

والخلاف حول تفسير التاريخ ليس ظاهرة ترف ، ولا هو مجرد خلاف حول تفسير الماضي ، بل هو في الدرجـة الاولى خلاف حول الطريق الى المستقبل .. والامم دائماً تهرع الى تاريخها ، في لحظات محنتها — تستمد منه الالهام والدعم النفسي،بينما يلجأ خصومها دائماً الى تزييف التاريخ وتشويهه لتضليل الحاضر وافساد الطريق الى المستقبل .

والذين يروجون بعد هزيمة ١٩٦٧ للدور التحضيري والتحريري الذي لعبه غزو البلدان المتقدمـة ، للشرق المتخلف ، هم في الحقيقة يطرحون اجابـة — غير مباشرة — لحيرة الجماهير المعاصرة .

بل ان هذه الدراسات التي بدأ ظهورها قبيل هزيمتنا التاريخية الثانية (*) أمام الغزو الغربي المتفوق حضارياً ، ثم نُشرت على أوسع نطـاق بعد هذه الهزيمة ، هذه الدراسات لا تخفي هدفها،بل تقدم بهدف: « استقصاء مقومات الدولة الحديثةفي تاريخنا لنعرف أي شوط قطعنا فنعرف ما بقي أمامنا لبلوغ الهدف ».. والمفهوم الوحيد لمثل هذا النصح ، هو أن علينا ان نكمل ما بدأه الرواد مع الحملة الفرنسية .. منذ مائة وسبعين عاماً .. والرواد في مثل تلك الدراسات هم الذين تعاونوا مع جيش الاحتلال وعملوا في خدمته ، من امثال يعقوب ، بـل وطلائع حركة تحرير المرأة ، هن اللواتي « درن مع جيش الاحتلال » .. الجواب اذن هو ان ننفتح للحضارة المتقدمـة الغازية .. مثلما انفتح الرواد للحملة الفرنسية في مطلع القرن التاسع عشر ..

فالدولة الحديثة وضعت أسسها في عام ١٧٩٨ «عندما حطم نابليون ذلك السور العثماني العظيم الذي حال دون اتصال مصر بأوروبا ثلاثة قرون كاملة . « والذين اضطلعوا بمسؤوليـة الحكم في ظل المحتل وبمعونتـه ، كانوا أول من وضع اساس الدولة الحديثة في مصر قبل محمد علي باشا بسنوات »(٢)...

واضح الى أين يمكن أن يفضي مثل هـذا التفسير بالذين يبحثون منذ ٥ يونيه ١٩٦٧ عن طريق استكمال بناء الدولة الحديثة ..

تُرى — بموجب هذا الفهم — هل يمكن ادانة « الجعبري » الذي يضطلع بمسؤولية الحكم في الضفة الغربية ، والذي يرفض الحكم الأردني المتخلف ، ويتعاون مع الحكم الاسرائيلي « المتقدم » ؟!

ولمواجهة هذا الفهم الخاطىء الذي يروج له ، كانت هذه الدراسات التي

(*) باعتبار ان الهزيمةالاولى هي تلكالتي انزلها بنا الاستعمار الاوروبي فيالقرن التاسع عشر.

بدأتُ في نشرها منذ عام ١٩٦٤ (*) .. أما هذا الكتاب عن الحملة الفرنسية فقد شرعت في اعداده منذ عام١٩٦٧واستكملت خطوطه في أواخر عام١٩٧٠ وحالت مشاغلي دون اخراجه في عام ١٩٧١ .. الى ان فرغت له ففرغت منه . وقد حاولت ان أُبين فيه أبعاد الغزوة الفرنسية ، أو اللقاء الأول بيننا وبين الغرب المتقدم وأبعاد المقاومة التي شنها الشعب المصري ضد الغزاة المحتلين ، وكيف كانت هذه المقاومة رائعة وخالدة لأنها كانت رفض أمة سليمة العقيدة ، نقية الجوهر ، لم يتم ـ بعد ـ تغريبها ولا تدجينها .. ولأنها كانت بقيادة النخبة الشرعية للمجتمع .

وكيف أن بذور البعث الحضاري المنشود كانت موجودة في طيات هذه المقاومة ، وفي صفحات هذا الرفض للوجود الحضاري . ففي ثورة القاهرة الأولى ولدت التنظيمات الوطنية ،وفي الثورة الثانية أوشكنا أن ندخل عصر الانقلاب الصناعي ، عندما صنع اجدادنا المدفع والبارود .

وفي معارك الصعيد ودمنهور ولدت الوحدة العربية عندما اختلطت دماء المجاهدين من الحجاز وتونس بدماء المجاهدين المصريين ، وبلغت هذه الوحدة ذروتها بالبطل الشهيد « سليمان الحلبي » ، الذي جاء من حلب ليثأر لمصر من « كليبر » السفاح ..

كما كشفت زيف ما يروج عن الدور الحضاري الذي لعبته الحملة الفرنسية، ملقياً الضوء على أعمال التنكيل الوحشي التي ارتكبها جيش الاحتلال ضد المواطنين ، ثم كيف كان موقف الادارة الفرنسية استعمارياً تقليدياً عندما رفضت تشغيل المصريين في مصنع للجوخ خوفاً من ان يتعلم المصريون الصنعة !

(*) كانت البداية مقالاً في روز اليوسف . ثم سلسلة دراسات جمعتها في كتاب « دراسة في فكر منحل » . اعقبتها بكتاب « القومية والغزو الفكري » .

وكيف انه مع الحملة الفرنسية كانت بداية الاستغلال الرخيص من جانب الغرب، للانقسامات الدينية في الشرق، وانه مع الغزو الغربي زادت حساسية الشرقيين بتميزهم الديني، بعكس ما تزعم المدرسة الاستعمارية، من ان المفهوم القومي الذي لا يميز بين الاديان، جاءنا هدية من الغرب !..

لقد حاولت الحملة الفرنسية ان تمزق مصر والشام الى طوائف ومذاهب وجماعات عنصرية تحقيقاً للمبدأ الاستعماري القديم : « فرق تسد » كما كشفت الدور الذي لعبه المتعاونون مع جيش الاحتلال، وبالذات ركزت على « جعبري » الغزوة الاولى : المعلم « يعقوب » . ذلك المسخ الذي يراد له ان يُنصب رائداً للقومية المصرية، وأول داعية لاستقلال مصر ؟..

كما ناقشت موقف « الجبرتي » من الحملة الفرنسية، والخلفية الحضارية المتفوقة في قيمها التي واجه بها الجبرتي، غزاة الحضارة المتفوقة **تكنولوجياً** ..

كذلك كشفت فضيحة « مطلق الانثى » .. إذ تزعم المدرسة الاستعمارية، ان الحملة الفرنسية أحدثت في مصر ثورة نسائية، أو حركة تحرير المرأة، من خلال النساء اللاتي عشن مع الجنود .. موضحا ان الطليعة الحقيقية للمرأة المصرية هن المصريات الباسلات اللاتي أعدمهن نابليون بالعشرات، لاشتراكهن في قيادة وتنظيم وتنفيذ ثورتي القاهرة..هن الفلاحات الباسلات اللاتي اشتركن في قتال جيش الغزو الفرنسي ..

وأحسبني قد أوضحت بهذا العرض، المنهاج الذي أنطلق منه في تفسير التاريخ، والذي أسميه منهاج « المدرسة الوطنية » في مواجهة تفسير « المدرسة الاستعمارية». فبينما ترى « المدرسة الاستعمارية » ان القومية والتقدم والتحديث والتحرر كلها معان ومفاهيم وسلوك تكتسب من خلال التعاون مع المحتل، وبمعونته وإرشاده ..

ترى المدرسة الوطنية ان هذه المفاهيم لا معنى لها إلا إذا كانت مرتبطة

بسلوك وطني مقـاوم للوجود او النفوذ الأجنبي بـكافة أشكالها ، وانها لا تكتسب إلا من خلال مقاومة هذا الوجود أو هذا النفوذ ..

فالتقدمية أو الرجعية ليست موقفاً معلقاً في الهواء ، ولا قضية فكريـة خارج إطار الزمان والمكان .. بل هو موقف يتحدد بأحـداثي ؛ حركة التاريخ ، ومصلحة الأمة المعنية . فلا يجوز أن نصف بالتقدمية ، المستعمر الفرنسي الذي كان يمزق حجاب المرأة الجزائرية ، ولا أن نصف بالرجعية المجاهدة الجزائرية التي كانت تتمسك بالحجاب طوال زمن الاحتلال ، كرمز للمقاومة ، وكوسيلة لها في المرحلة الأخيرة .

هناك خط عـام يرسمه التاريخ في اللحظة المعينة والمكان المعين ، تنقسم بموجبـه القوى ، الى قوى المستقبل ، قوى الحق والعدل .. قوى تعمـل في اتجاه التاريخ .. هذه هي قوى التقدم .. وهنـاك على الجانب الآخر القوى المضادة المعادية لمصالح الشعوب ، المعادية للحق والعدل .. المعارضة لاتجاه التاريخ ..

وعلى ضوء هذا التقسيم تندرج كل القضايا .. ويصنف موقع الجزئيات .. فالاستعمار ضد التاريخ .. ضد أمتنـا .. ضد مصالحهـا .. ضد وجودهـا ومستقبلها..ومن ثم فكل اصلاحاته وكل حسناته يجب ان تفهم في ضوء هذه الحقيقة .. والقوى المتعاونة معه هي الرجعية، هي المعادية لحركة التاريخ في المدى البعيد ، هي المعادية لمصالح أمتنـا ، فمهما تكن أفكارها أو مواقفها الجزئية من بعض القضايا ، فهي قد اختارت معسكرها بتعاونها مع المستعمر، أو حتى بسلبيتها من حركة مقاومته ، ولا يجوز ان تنسب للتقدم بأي حال، لأن من يمنع عربة التاريخ من السير بأمته ، لا يمكن ان يوصف بالتقدمية اذا ما لهث خلف عربة المستعمر ..

فالتقدمي هو من يقاوم الغزو الأجنبي لبلادنا شيخاً كان أو درويشاً ، وبصرف النظر عن الشعارات التي ينطلق في مقاومته تحتها ، وبصرف النظر

عن الموقف الذي يفجر مقاومته في شكلها المباشر ، والرجعي هو من يتعاون مع المستعمر أو يمكن لوجوده في بلادنا ..

هذا حكم عام وصحيح طالما ظل هناك استعمار ، ومستعمرات .. صحيح بالنسبة للحملة الفرنسية ، صحيح بالنسبة للحملات التي أعقبتها والتي نجحت في احتلال الوطن العربي من الرباط الى الخليج ومن حلب الى عدن .. صحيح بالنسبة للغزوة الثانية ، التي يشنها الاستعمار الصهيوني ، آخر امبراطوريات الغرب .

وقد ركزت في هـذه الدراسة على تفنيد كتاب « بونابرت في مصر » «لكرستوفر هيرولد» ، وفضح وكشف مؤلفات « لويس عوض »، كما ناقشت بعض آراء « الرافعي » غفر الله له .

ولا شك انه اذا طال الأجل ، ويسر الله سبحانه وتعالى ، فلا بـد ان تعقب هذه الدراسة ، دراسة أخرى ، أو أكثر عن مرحلة « محمد علي » ثم عن مرحلة الاحتلال البريطاني ، ثم عن مرحلة الدستور والاحزاب حتى نصل باذن الله وتوفيقه الى العصر الناصري .. ويخلق ما لا تعلمون ..

وبعـد ..

فما حيلتي .. وقد حرمت من فرصة تغيير التاريخ بالوسيلة الحاسمة والفعالة — أي السيف — ما حيلتي الا أن أعين اولئك الذين فضلهم الله على القاعدين، الذين يقفون اليوم أو غداً للذود عن حرية الوطن ، وسيادتـه واستقلاله .. ما حيلتي الا ان أعين هؤلاء الذين يصنعون مستقبلنا المشرق ، وينسجون من حلكة الواقع فجر الغد المنتصر .. أقول ما حيلتي أنا العاجز عن القتال ، الا أن أعينهم على فهم التاريخ .. أجاهد معهم بقلمي .. أعرفهم بأن أجدادهم قاتلوا وانتصروا .. لأنهم آمنوا ...

« وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » ...

اللهم فاغفر لي ضعفي وعجزي ، ويسر لي من القراء من اذا انتفع عمل ، ومن اذا وجد خطأ نبه اليه .. واغفر لي ما أكون قد نسيت أو تأولت فأخطأت .

محمد جلال كشك

رمضان ١٣٩١ بيروت

اكتوبر ١٩٧١

مدخل

المدرسة الاستعمارية في تفسيرها للتاريخ ، تجعل من الحملة الفرنسية ، بداية تاريخنا القومي .. بداية تحررنا من الاستعمار التركي وخروجنا من القرون الوسطى .

ولكن الحملة الفرنسية باتفاق جميع المؤرخين هي بداية غزو الامبريالية الغربية الحديثة للشرق .. فكيف يمكن ان تصبح الامبريالية داعية تحرر ، وأداة التقدم والانعتاق ؟

ولمعالجة هذا التناقض تتقدم المدرسة الاستعمارية بثلاثة مزاعم :

الاول : هو عزل الحملة الفرنسية عن المجرى العام لحركة التاريخ ، فهي ظاهرة منعزلة عن تاريخ الاستعمار الفرنسي ، وعن تاريخ العلاقات الغربية بالمشرق الاسلامي .

فالحملة الفرنسية — بموجب هذا الزعم— ظاهرة مرتبطة بالثورة الفرنسية، وليس بالاستعمارية الفرنسية، فالثورة الفرنسية عبّرت عن نفسها في «نابليون» الذي راح يبذر مبادئها حيثما جرت خيوله..ومن ثم فجيش الاحتلال الفرنسي.. ليس في اوروبا وحدها ، بل وأيضاً في الشرق ، لم يكن جيشاً استعمارياً تقليدياً .. بل كان جيشاً ثورياً ، كان جيش تحرير ، التعاون معه هو تعاون

مع الثورة، او انتماء لها،هو تعاون مع اتجاه العصر،وركوب لقاطرة التاريخ.. وبالتالي فرفض الوجود الفرنسي، او مقاومة هذا الوجود، هو موقف رجعي، ورفض للتحرر والتقدم وتشبث بالقرون الوسطى .

هذا التفسير لم يكن مطروحاً على هذا النحو في عهد سيطرة الامبريالية ، بل هو تفسير حديث متأثر بالأفكار الماركسية ، وبالذات « بالمفهوم الأممي » كما فسّرته وروّجته واستغلته الدولة السوفيتية . فقد دار النقاش طويلاً حول موقف الشيوعي ، من الجيش السوفيتي .. يوم كان هذا الجيش يعتبر طليعة الثورة البروليتارية العالمية ، الذي تتكوّن كتائبه من الشيوعيين في كل بلد .. ومن ثم فواجب هؤلاء الشيوعيين هو الانضباط خلف القيادة .. ولأن المفهوم الشيوعي ينفي الامكانية —ولو النظرية— لوقوع اي تناقض بين المصالح البروليتارية ، فلا مجال للحديث عن خيانة المصالح الوطنية ، او تغليب المصلحة الروسية !

هذا المفهوم الذي أجاد بناة الدولة السوفيتية توظيفه لتحقيق مهمتهم .. لم يعش طويلاً إذ سرعان ما تمزق بفعل نيران التناقضات القومية ، وتعارض المصالح ووقوع الانشقاق العالمي في الحركة الشيوعية ، واتفاق الجميع على وجود مصالح وطنية، لا يجوز التضحية بها باسم «الأممية» ، بل اعتبار الأممية الحقة هي الاعتراف بتعدد وتناقض الخصائص والمصالح القومية ! وانه ما ان قامت علاقة بين دولتين شيوعيتين ، حتى أثبت قانون الاستغلال بين الأمم ، أنه مـــا زال فعالاً .. وأن علاقة استعمارية تقوم حتماً بين الدولة الشيوعية الكبرى ، والدولة الصغرى ، شيوعية كانت او رأسمالية .. ومن ثم يهبط شيوعيو الدولة الصغرى الى مرتبة العملاء للدولة الشيوعية الكبرى .

إلا أن البعض يصر، ليس فقط على صحة قانون الأممية الماركسي — الذي ينكره على الماركسيين في نفس الوقت ! — بل ويريد ان يجعله بأثر رجعي بحيث يشمل الثورة البورجوازية ! وبما ان الثورة الفرنسية هي طليعة الثورة

البورجوازية العالمية (الماركسيون عادة لا يعترفون لثورة كرومويل بدور عالمي) .. فلا شك ان المتعاونين مع جيوش الثورة الفرنسية ، هم طلائع حركة التطور في مجتمعهم ، وهم قد تعاونوا مع المحتل الفرنسي في القرن التاسع‌عشر بنفس المفاهيم والدوافع التي حركت الشيوعي البولندي او المجري للتعاون مع الجيش‌الاحمر، الذي‌كان يحتل بلادهما، «محرراً» لها ، او «يحررها» محتلاً لها !

إلا أن هذا الزعم تواجهه حقيقتان.. **الاولى:** هي ان الجميع يتفقون اليوم على الطابع الاستعماري للثورة البورجوازية، وأن دورها داخل بلادها يختلف عن دورها — وإن يكن مكملاً له — الاستعماري خارج وطنها .. الحقيقة **الثانية** : هي ان الحملة الفرنسية لم تكن ظاهرة منفصلة عن التاريخ السياسي الاستعماري الفرنسي .

ذلك ان فرنسا ما قبل الثورة ، كانت تخطط باهتمام بالغ لغزو مصر ، وقد قام الملكيون الفرنسيون بدراسات واتصالات ، وزرعوا جواسيس وأعواناً . واستعان نابليون بذلك كله في إنجاز مهمته « الثورية » .. ومن ثم فليس من الحقيقة ، ولا من العدل والانصاف أن يستأثر نابليون او تختص الثورة الفرنسية « بشرف » الرسالة الحضارية التي تمثلت في استعمار مصر ، بل لا بد لنا أن نشرك في الشرف حتى انطوانيت واللويسيين .

يشير « كرستوفر هيرولد » (*) الى الرواج الذي حظيت به الترجمة الانجليزية لكتاب البارون « دتوت » المسمى « مذكرات عن الترك والتتار » الذي راج بين الامريكيين في نيويورك عام ١٧٨٩ . ويستشهد بذلك على ان « الاهتمام بأحوال‌الدولة العثمانية المفككة الأوصال قد انتشر واستقر في جميع أرجاء العالم في اواخر القرن الثامن عشر » (١) .

(*) ج . كرستوفر هيرولد مؤلف كتاب « بونابرت في مصر » .

ويمكننا ان نستدل ايضاً على هـذا الاهتمام من انتشار الغربيين في جيش وأجهزة هذه الدولة المفككة الأوصال ، حيث كانوا يبذلون جهدهم في زيادة تفككها .

والبارون « دتوت » هذا كان ضابطاً فرنسياً عمل مدة كمستشار عسكري للجيش التركي . وفي عهد لويس السادس عشر طالب « سان بريست » سفير فرنسا في الاستانة بفتح مصر، وعلى أثر إلحاحه ارسلت فرنسا البارون دتوت الى مصر لدراسة ثغورها ومواقعها . ووصفت مهمته بأنها « مهمة سرية لشرقي البحر المتوسط » . وكانت مهمته الحقيقية « استطلاع إمكانية الاستيلاء على مصر وإحالتها الى مستعمرة فرنسية ، لذلك أبحر الى الاسكندرية في صحبة العالِم الطبيعي « سونيني » (فليس نابليون هو أول من اصطحب العلمـاء) على ظهر الفرقاطة « اطلانط » وواصل رحلته الى رشيد في فلوكه بعث بها اليه شيخ البلد ابراهيم بك ، وانطلقت بـه صعداً في النيل الى القاهرة بكل مظاهر الأبهة الشرقية ، وهنالك كانت الفوضى الضاربة أطنابها تنتظره » .

وبدأ « دتوت » مهمته، فعهد الى فرنسي يدعى « لالون » بمهمة التجسس على السويس وساحل الدلتا . وقام « لالون » بمهمته خير قيام .. وعلى أساس مشروعه كتب « دتوت » تقريره لوزير البحرية الفرنسية . وأكد « دتوت » ان الاستيلاء على مصر لن يكون إلا « احتلالاً سلمياً لبلد أعزل » وأنه يرى إذاعة منشور يُطمئن الاهالي الى ان الفرنسيين قدموا بوصفهم أصدقاء وحلفاء للسلطان ومحررين لهم من ربقة المماليك » [٢] .

ونسجل هنا ملاحظتين :

● ان « لالون » وهو يقوم بمهمته التجسسية قد استعان ــ بدون شك ــ بعملاء محليين ، فهل نضم هؤلاء الى رواد القومية ، كما يخلع البعض هذه الصفة على المتعاونين مع الحملة الفرنسية بقيادة نابليون ؟! أم نصنفهم حيث وضعوا انفسهم، مجرد جواسيس خونة لبلادهم.. وهل لأن مصر كانت مرتبطة شكلياً

بالسلطان .. يعفيهم ذلك من الولاء لها ، ويبرر اطلاعهم العدو المتربص على عورات وطنهم ؟

واذا سلمنا بعمالة هؤلاء هل تتغير صفتهم بتغير صفة الغازي . أي هل ان سقوط الملكية في فرنسا ، وتحولها الى النظام « الجمهوري » .. وقيام نظام « ثوري » في باريس ، يغيّر صفة العملاء في السويس ، ويحولهم هم او ورثتهم الى « ثوريين » اصحاب قضية ؟

● النقطة الاخرى التي تستوقفنا في فقرة «دتوت» هي نصيحته بإصدار منشور « يطمئن الاهالي الى ان الفرنسيين قدموا بوصفهم اصدقاء وحلفـــاء للسلطان ومحررين لهم من ربقة المماليك » .

ان اهمية هذه الفقرة المكتوبة من « داسوس » (*) ملك الفرنسيس ، هي فضحها لكل محاولة للربط بين مبادىء الثورة الفرنسية ، ومنشور نابليون أو الزعم بأن له اهمية خاصة ، فالخط العام للمنشور وُضع في العهـد الملكي ، وقبل طباعته بعشرين عامـــاً .. وضعه جاسوس للعهد الملكي .. واذا كان التقرير«ظل في وزارة الخارجية الفرنسية يتراكم عليه الغبار عشرين عاماً»[٣]. حتى جاء نابليون بعد الثورة الفرنسية ينفض عنه الغبار ويستفيد منه وينفذه بغزو مصر .. ولا غرابة في ذلك ، فحتى الثورة الروسية نفضت الغبار عن تقارير القياصرة، ووضعت بعضها موضع التنفيذ.. بل ها هي الصين الشيوعية ذاتهـــا تنفض الغبار عن ملفات وتقارير « ابناء السماء » وتخرج من الخزائن الامبراطورية خريطة الصين القديمة .. **ان الثورة لا تغير مصالح الدول ، بل على العكس، هي في الغالب، تعطي دفعة قوة جديدة لتحقيق هذه المصالح.** ان النظام القديم ينهـــار عندما يعجز عن تحقيق مصالح الدولة . ولكن مـــا من ثورة حتى الآن (ثورة تنبع من المجتمع وليست مؤامرة مفروضة

(*) جاسوس بلغة العصر . ولعلها الاقرب الى الصحة لأنه مدسوس .

عليه من الخارج) قد تنكرت لمصالح الدولة . لذلك كانت الثورة البورجوازية الفرنسية هي استمرار للمصالح الفرنسية ، التي أصبح النظام الملكي عاجزاً عن تحقيقها .. كانت مصالح فرنسا تحتل مكان الصدارة بين المصالح الغربيـة في مصر قبيل الحملة الفرنسية ، كان لها قنصل عام في القاهرة ، وقنصليتان في الاسكندرية ورشيد .

« والتجار الفرنسيون الذين كانوا في القاهرة منذ العهد الملكي ، كانوا أول المرحبين باستيلاء فرنسا الثورة على مصر » [٤] .

ويقول « هيرولد » ان سيلاً من المذكرات عن المسألة الشرقية ظل يغمر وزارة الخارجية الفرنسية طوال عشرين عاماً (١٧٧٠ — ١٧٩٠) : اما « عن مصر فان جميع المذكرات تقريباً أيدت الاستيلاء عليها » [٥] .

وتاليران العاقل الوحيد ، وسط منشدي المارسيليز ، يؤكد **ان الاستيلاء على مصر هو جزء من سياسة « الدولة الفرنسية »** . وليس ظاهرة مرتبطة بالثورة .. بل من سياسة الدولة المتطلعة الى السيطرة على التجـارة ولا شيء اكثر من ذلك . فهو يكتب بعد فتح مصر الى ممثل فرنسا في الاستانة يقول له : « ان جميع تجارة البحر المتوسط يجب أن تنتقل الى ايدي الفرنسيين . تلك هي الرغبة الخفية لحكومة الادارة ، ثم انهـا ستكون النتيجة المحتومة لمركزنا في ذلك البحر . ومصر التي كانت فرنسا تتمنى دائماً الاستيلاء عليها ، هي بالضرورة من نصيب الجمهورية . ومن حسن الحظ ان أتاح لنـا موقف الأمراء المماليك ، الذي غلبت عليه الوقاحة والوحشية باستمرار ، وعجز الباب العالي عن الانتصاف لنا منهم ، أن ندخل جيشنا في مصر. وأن نثبت أقدامنا فيها دون ان نعرض انفسنا لتهمتي الاغتصاب والجشع . ان الادارة مصممة على الاحتفاظ بمركزها في مصر بكل الوسائل الممكنة » [٦] .

وكتب الكونت « جوفييه » : ان مصر تقع على عتبة دارنا .. ولم تعد ملكاً للأتراك . فالباشا صفر ، ومصر ليست ملكاً لأحد » [٧] .

من هنا نرى ضعف حجة الذين يحاولون إعطاء الحملة الفرنسية طابعاً خاصاً بسبب من صلتها بالثورة الفرنسية كما ان التشبث بهذا الطابع الخاص، لا يخدم الهدف الذي تروج له المدرسة الاستعمارية ، وهو تبرير الاستعمار الغربي بصفة عامة ، والدعوة الى الانفتاح للحضارة الغربية ، وقبول الارتباط بها باعتبار ان ذلك الارتباط هو الطريق الوحيد للتقدم والعيش في «مستوى العصر» .. لذلك سرعان ما ينتقل دعاة الحضارة الغربية الى الزعم الثاني .

وهو تعميم الطابع التحريري والتقدمي ليشمل الغزو الغربي كله .. فيصبح الغزو الاوروبي للشرق عامل خير ، وعنصر تقدم محتوم .. حتى ولو لم يكن مرغوباً .. اما الآلام التي صاحبته فهي آلام التغيير التي لا سبيل الى تفاديها ، إلا بمعاناتها ! ولا أمل في التقدم دون هذه المعاناة !

وهكذا تتطور النظرة الى الحملة الفرنسية ، من اعتبارها ظاهرة خاصة ، او حادثاً تاريخياً نادراً .. الى اعتبار الغزو الاوروبي كله ، ابتداء من ابادة سكان العالم الجديد الى مذابح « ليوبولد » في الكونغو.. تطوراً تقدمياً لصالح « الحضارة » التي هي في مفهومهم كل لا يتجزأ .. هذه الحضارة التي صنعتها الانسانية بشقيها : الشق المعذِّب والشق المعذَّب .. الشق القاتل والشق المقتول .. فالقاتل كان يحضر الجنس البشري من خلال ابادة الاجزاء المتخلفة وصنع الحضارة على انقاضها .. والمقتول ساهم في الحضارة من خلال ابادته . ولا شك أن طليعة المقتولين التي أعانت القاتل في ابادة شعبها المتخلف واحتلال وطنها .. قد لعبت دوراً حاسماً وايجابياً في « البناء الحضاري » !

انهمّ يفسرون علاقة الغرب بالشرق على ضوء النموذج الاميركي .. فهناك كانت ابادة الهنود الحمر هي الثمن الذي دفعه المتخلفون لكي تقوم على انقاضهم الحضارة الاميركية بكل المنجزات التي حققتها للانسانية وللتقدم البشري . ولا يستطيع مؤرخ غربي ان يقول الآن: ليت الهنود الحمر لم يبادوا.. ولم تقم الحضارة الاميركية .

وفي حالتنا نحن ، ولو ان الغزو لم يكن يحتم الابادة الشاملة ، كما حدث في حالة الهنود الحمر ، إلا أنه ما من دليل يثبت ان شعوبنا كانت قد وصلت الى حالة « الهندية – الحمراء » بمعنى انه كان يستحيل علينا أن نلحق بحضارة العصر .. (هذا اذا افترضنا ان الاختلاط السلمي بين « الهنود الحمر » والعالم القديم ، لم يكن ليفضي الى تطور مجتمعهم وتمثلهم للحضارة الحديثة . فالحق ان « الهنود الحمر » لم تتح لهم فرصـــة امتحان قدراتهم الحضارية إذ جرت ابادتهم فور وطوال احتكاكهم بالحضارة الأكثر تفوقاً) .

هذا الزعم بأبدية تخلفنا ، واستحالة تخلصنا من هذا التخلف إلا بقبول السيطرة الغربية والخضوع لها ، والتتلمذ على يد المحتلين بنفس راضية .. مناقشة هذا الزعم هو موضوع الكتاب بالطبع .. لذلك ننتقل الى الزعم الثالث :

وهو القول بأن مصر (والوطن العربي بصفة عامة) كان مستعمرة تركية ، ومن ثم فكل الذي حدث هو استبدال استعمار متقـدم باستعمار متخلف .. فمن الناحية الوطنية لم يخسر الوطن شيئاً ، ومن الناحية الحضارية استفاد الكثير !

والوطنيون بموجب هذا التفسير ، كانوا منقسمين الى فريقين : متعاونين مع الاتراك بدوافع دينية او مصلحية .. ومتعاونين مع الغرب بدوافع دينية وقومية ومصلحية .. تقدمية .. نزعات استقلالية او انفصالية ضـد السيطرة التركية .. فان جاز ان نُسمي المتعاونين مع الغرب عملاء .. تحتم ان نسمي كذلك المتعاونين مع الاتراك .. او بمعنى أصح الرافضين للتعاون مع المحتل الغربي ، تحتم أن نخلع عليهم صفة عملاء الاستعمار التركي !

هـذا الزعم اذن ، يقوم على افتراض ان مصر كانت مستعمرة لتركيا ، ومن ثم فانها كانت تنتقل من مستعمر الى مستعمر .. فمـا من موقف وطني في مقاومة الانتقال كما أنه لا موقف « خياني » في العمل لتحقيق هـــذا الانتقال او الاستفادة منه .

ولنبدأ بمناقشة هذا الزعم : هل كانت مصر حقاً مستعمرة تركية ؟

الفصل الأول

قبل ان يختل الناموس

هل كانت مصر مستعمرة تركية ؟

لا شك ان البعد التاريخي الذي يفصل بيننا وبين عصر الحملة الفرنسية ، ثم الظروف الخاصة التي تحيط بتاريخ الاتراك في الشام – والجزيرة الى حد ما – قبيل زوال دولتهم، تتيح لمثل هذا التصور، عن العلاقة الاستعمارية بين تركيا والعرب ، أن يوجد في عقول الدارسين للتاريخ .. خاصة وان هـذا التاريخ قد كُتب في ظل السيطرة الغربية .

وعندما يقول « محمد كريم » لرسول « الاميرال نلسن » : « هـذه بلاد السلطان » فان مثل هذه العبارة ترنّ في أذن العربي المعاصر وكأنها اعتراف بالاستعمار التركي .. وأن «محمد كريم» رفض الحماية البريطانية وقاوم الاستعمار الفرنسي ، لشدة تمسكه بالاستعمار التركي !

واذا كان جهلاً علمياً أن نصف السلطة العثمانية بالاستعمار ، لأن الاستعمار هو حالة معينة من التطور الاقتصادي لم تصل اليهـا الدولة العثمانية (*)

(*) من المدهش ان يرد بهذا القول « جاك بيرك » على لويس عوض عندمـا تحدث الاخير عن الاستعمار العثماني ! فرد جاك بيرك : « انا اعتبر ان الامبريالية معاصرة لظهور رأس المال وبدايتها الاولى كانت في عصر نابليون اما الاتراك العثمانيون فليسوا امبرياليين » نشرت المحاورة في الكاتب عدد (اغسطس) ١٩٦٥ .

ابداً (ولا حتى في فترة الانتعاش التي حاولت ان تمارس فيها سيطرة حقيقية على ما بقي تحت سيطرتها من الدول العربية في اواخر عهد عبد الحميد) . بل لعل بعض الاسلاميين يعتصر قلبهم الحزن لعجز الدولة العثمانية عن بلوغ هذه المرحلة ، ويعتقدون انها لو استطاعت حقاً ان تتحول الى قوة استعمارية لكانت قد احتلت مكانها في نادي الكبار، ولحال ذلك دون تمزيق اوصالها.. ولكانت أمام المسلمين فرصة بناء دولة عصرية كبرى . ولكنه أسف في غير محله ، فلا الاستعمار ممكن في دولة اسلامية ، ولا الأتراك كانوا قادرين على دخول عصر الامبريالية كإمبرياليين !

وسواء قبلنا تفسير المدرسة الاسلامية الذي ينفي امكانية قيـــام علاقة استعمارية بين دولتين اسلاميتين .. او داخل المتحد الاسلامي .. او اكتفينا بالتفسير «العلمي» الشائع للتاريخ الذي لا يقبل خلع صفة استعمارية على دولة لم تحقق ثورتها الصناعية ، ولا استطاعت ان تبدأ مسيرتهـا البورجوازية ، ولا كانت تجارتها تشكل نسبة يعتد بها في التجارة المصرية، بل كانت تستورد من مصر اكثر مما تصدر لها.. وصادراتها لمصر خامات.. وصادرات مصر لها سلع مصنعة (نسبياً) . واستعانت حضارتها بالفنيين المصريين الذين اصطحبهم جيشها بالقوة من القاهرة الى اسطنبول .. سواء قبلنا هذا المفهوم أو ذاك يستحيل علينا وصف علاقة مصر وتركيا بعلاقة المستعمرة بالدولة الاستعمارية.. فلا رؤوس اموال تركية كانت مستثمرة في مصر ولا صناعات تركية كانت تصدر منتجاتها الى مصر ، ولا خامات مصرية كانت تصدر الى تركيا ، بحكم العلاقات السياسية. ولا علاقة دولة متقدمة بدولة متخلفة تفضي الى استغلال الأولى للثانية ، دون حاجة الى اخضاعها بجيش احتلال ، ولا الانتقاص من شكليات الاستقلال السياسي.. فاذا ما نحينا هذا الشكل من الاستعمار المتقدم الذي لم تصل اليه الدولة العثمانية، لا نجد حتى الصورة التقليدية لعلاقة التبعية، فلا جيش احتلال تركي مقيم في البلاد ، بل سنرى أن وصول حملة تركية الى

مصر كان يعني الحرب ، ويتحتم على هذه الحملة ان تشق طريقها عنوة الى القاهرة وتنتزعها بالقوة من المماليك .

اما العلاقة الرسمية الوحيدة التي كانت تربط مصر بتركيا ، فهي الخطبة للسلطان، وحق السلطان في تعيين الباشا او الوالي ثم « الميري » أو الجزية .

فهل كانت هذه المظاهر تعني أن مصر تابعة لتركيا ، وأنها كانت تخضع وتدار لحساب الأتراك المستعمرين في الآستانة ؟!

لقد ظل الدعاء للخليفة العباسي على منابر القاهرة الى يوم وصول السلطان سليم ! وظل الدعاء للسلطان العثماني الى الحرب العالمية الاولى ، وما من مؤرخ جاد يأخذ بهذا الدعاء غير المستجاب كمظهر من مظاهر التبعية .

أما الباشا فكان يعينه السلطان في اسطمبول . ويحضر هذا الباشا الوالي، الى مصر ، في موكب واحتفالات وطقوس تجيد تمثيلها البيروقراطية المصرية منذ تتويج اول فرعون . ومهمة الباشا هي أن يبقى في مصر أطول مـــدة ممكنة ، محارباً ضد مؤامرات البلاط في اسلامبول او الآستانة ، وضد قرار العزل المتوقع ، بـل المحتم صدوره من المماليك . فلم يكن ثمة فعل اسهل من ان يجتمع الامراء فيقترح احدهم : « قوموا بنا نعزل الباشا » (*) !

ويلخص لنا « الرافعي» الحالة التي وصل اليها وضع الباشا الممثل للسلطان ورمز النفوذ العثماني بما لا يترك مجالاً للحديث عن استعمار عثماني ، أو سيطرة عثمانية على مقادير مصر :

« وعظم نفوذ البكوات والمماليك واسترجعوا مع الزمن سلطة الحكم التي كانت للسلاطين البحرية والشراكسة . وصار لرئيس المماليك الذي يختارونه زعيماً لهم ويلقبونه « شيخ البلد » ، النفوذ الذي لا يعـــارض والكلمة التي

(*) قالها عثمان بيك في عزل سليمان باشا ابن العظم .

لا تردّ ، وصارت « مشيخة البلد » ، بمثابة امـارة مصر ، وعبث المماليك بالولاة وأخذوا يعزلون من لا يرضون عنه . فـاذا اجتمعوا على عزله انفذوا اليه رسولاً اسمه « اوده باشي » (اسمه عند العامة ابو طبق) — من ضباط الوجاقات — يذهب اليه حاملاً قرار الديوان بعزله فيدخل الى مجلسه ويحييه بكل احترام ثم يثني طرف السجادة التي يجلس عليها الباشا ويعلن اليه قرار العزل بقوله : « انزل يا باشا » فتكون هذه الكلمة بمثابة أمر الخلع . وينزل الباشا من القلعة ويصبح كأحد الأفراد لا حول له ولا طول . وصارت القلعة في خلال القرن الثامن عشر بمثابة السجن للباشاوات الذين كانت تعينهم تركيا ولاة لمصر .. وأصبح الديوان مؤلفاً من الأربعة والعشرين بيكاً الذين كانوا زعماء المماليك ، وعبثت المماليك ايضاً بالجزية فكانوا لا يدفعون منها إلا ما يروق لهم دفعه، ويقتطعون منها ما يشاءون بحجة الانفاق على مصالح البلد».

وقال الرحالة فانسليب يصف ما شاهده في مصر سنة ١٦٧٣ من استئثار المماليك بالحكم : « ان كلمة البكوات في الديوان كانت نافذة بحيث لم يكن الباشا يخالف لهم امراً ، وكانوا يملكون عزله » .

وقال المستشرق مارسل : « انحصر تاريخ مصر في منتصف القرن السابع عشر الى آخره في تعاقب الباشاوات على ولايتها فتولاها ٢٢ والياً لم يكن لهم شأن يذكر في حكومتها » (١).

والباشا هو الوالي الذي يعينه السلطان العثماني لحكم مصر باعتبارها احدى ولايات الدولة العثمانية .. ومن هـــذه الصورة التي يقدمها مؤرخون عرب وأجانب ، نجد ان الجهل وحده ، او الجهل وسوء النية معـاً خلف القول « باستعمار تركي » او ان مصر كانت مستعمرة لتركيا .. وان مشكلتها كانت: « التحرر الوطني من حكم الأتراك » .

لنتخيل وضعاً يستطيع فيه البكوات المصريون او اي قوة مقيمة في مصر، غير انجليزية ، تستطيع ان تجتمع وتقرر عزل المندوب السامي البريطاني ،

ثم لا يكلفها ذلك إلا ارسال رجل هزلي الثياب ، هزلي التسمية ، الى قصر الدوبارة فيقتحم غرفـــة المندوب السامي ، ويحييه بكل احترام ويطوي السجادة الفاخرة التي تغطي غرفة مكتبه ويقول بكل هدوء وبرود: « انزل يا لورد » ! فـاذا باللورد « كرومر » ، أو « مايلزلامبسون » .. أو حتى «تريفيليان» مجرداً من كل اختصاص ، بل ومذعوراً على حياته يترقب اللحظة التي يُسمح له فيها بركوب الباخرة الى بريطانيا .. وبكل سماحة صدر ، أو صفاقة ، يعين ، الباب العالي في لندن ، مندوبـاً آخر يأتي الى مصر ينتظر مصيره على يد المماليك ، ذلك المصير الذي يقول « مارسيل » انه « لم يكن يخرج منه إلا مسجوناً ، او مطروداً او منفياً او مقتولاً » [٢] ... هل يمكن عندئذ أن نتحدث عن استعمار بريطاني لمصر ؟! ان حكومة بريطانيا لم تكن تعيّن والياً على مصر ، ولكن ممثلها لم يكن سفيراً بالمعنى المعروف.. لأن مصر لم تكن تملك طرده او رفضه .. ولأنه كان فعلاً يحكم مصر .. أما الباشا العثماني ، فلم يكن يملك في مصر ولا حتى البساط الذي يجلس عليـه ، وبكوات مصر يملكون اخراجه في اي لحظة شاءوا .

وبعض الباشاوات حاول ان يستخدم ذكاءه في ضرب المماليك ببعضهم لكي تطول مدة ولايته .. ونجح احدهم فعلاً في قطع رأس « ايواظ بيك » وسلخ هذه الرأس . ولكن سرعان ما انقلب عليه تدبيره ، واحتل أتبـاع « ايواظ بيك » جبل الجيوشي .. وركبوا مدافع على محل الباشا ومدافع على قلعة المستحفظان وأحاطوا بالقلعة من اسفل وضربوا ستة مدافع على الباشا ، ورموا بنادق ، فنصب الباشا بيرقاً ابيض يطلب الأمان، وفرّ من كان داخل القلعـــة من العسكر ، فبعضهم نزل بالحبال من السور وبعضهم خرج من باب المطبخ ، فعند ذلك هجمت العساكر الخارجية على الباب ودخلوا الديوان ، فأرسل الباشا القاضي ونقيب الأشراف يأخذان له أماناً من الصناجق والعسكر فتلقوهما وأكرموهما وسألوهما عن قصدهما (بكل براءة !) فقـالا لهم ان الباشا يقرئكم السلام (وعليكم السلام !) ويقول لكم إنا كنا اغتررنا بهؤلاء

الشياطين وقد فروا والمراد أن تعلمونا بمطلوبكم فلا نخالفكم فقالوا لهم اعلموه ان الصناجق والأمراء والأغوات والعسكر قد اتفقوا على عزله وأن قانصوه بيك قائمقام ، وأما الباشا فانه ينزل ويسكن في المدينة الى أن نعرض الأمر على الدولة ويأتينا جوابهم . فأرسل القاضي نائبه الى الباشا يعرّفه عن ذلك فأجابه بالطاعة واستأمنهم على نفسه وماله وأتباعه وركب من ساعته ونزل من باب الميدان وشق من الرميلة على الصليبة والعامة (الذي يبدو أن طباعهم لم تتغير كثيراً) قد اصطفت « يشافهونه بالسب واللعن الى ان دخل بيت علي اغا الخازندار بجوار المظفر .. وهجم العسكر ... الخ » [٣] .

كان ذلك في سنة ١١٢٣ والباشا كان اسمه خليل ولم يسمح له بالعودة الى استامبول إلا بعد ان « حاسبوه » !

وودعه الشيخ حسن الحجازي بقصيدة في مستواه (الباشا طبعاً) :

قد جاء مصر باشه — ايامه ليست ملاح
ضرب مدافعاً بهـا — كذا رمـاح وصفاح

وقال ايضاً :

والباشا المعكوس قهراً أنزلوا — من قلعة ولعنة قد زودوا [٤]

ولا يذكر الجبرتي بيتاً واحداً للشيخ « حسن » هذا يستنكر فيه ضرب المماليك المدافع او الرمح واستخدام الصفاح ! ولكنه محقّ في اعتراضه على الباشا ، لأن سلوك الباشا هـذا يشكل اخلالاً بقانون العلاقات الذي يحكم المجتمع المصري ، فليس للباشا ان يتدخل في السلطة ، ولا ان يكون طرفاً في الصراع !

وعندما كان الوالي يتفق مع المماليك المتغلبين ويسود الوئام بينه وبينهم كانت الدولة تتآمر على واليها ! كما تآمرت على « علي باشا » فان اهل الدولة

عينوا رجب باشا امير الحاج الشامي ورسموا له عند حضوره الى مصر ان يقبض على علي باشا (الوالي !) ويقتله » .

وقد نفذ « رجب باشا » المؤامرة بإحكام وقتل ممثل الدولة «وقطع رأسه ظلماً وسلخها وأرسلها الى الباب (العالي) ودفن علي باشا بمقام ابي جعفر الطحاوي بالقرافة ويعرف الى الآن قبره بعلي باشا المظلوم » (٥) .

وهذه التسمية تسجل مرة اخرى احتجاج العامة المصريين على إخلال الدولة العلية بقانون العلاقات بمصر .

ولإعادة الاحترام للناموس سرعان ما اتفق المماليك على « رجب باشا » فأمروه بالنزول ، وأنزلوه الى بيت « مصطفى كتخدا » ، فاجتمعت عليه الاولاد الصغار تحت شباك المكان وصاروا يقولون :

باشا يا باشا يا عين القمله
من قال لك تعمل دي العمله
باشا يا باشا يا عين الصيره
من قال لك تدبّر دي التدبيره

« فضاق منهم فأرسل الى احمد بيك الأعسر فنقله الى بيت ابراهيم جربجي الداودية واستلم اسماعيل بك ماله وخيوله وجماله وكتبوا عرض محضر كما ذكر وأرسلوه وبعد ايام وصل مرسوم بالأمان والرضا لاسماعيل بك وجماعته وولوا مصر محمد باشا النشانجي الذي عزله المماليك وأنزلوه وأسكنوه في بيت ابن الدالي » (٦) .

« وسافر رجب باشا من حيث أتى (!) بعدما دفع المائة وعشرين كيساً التي اخذها من دار الضرب » (٧) .

تأمل تعبير الجبرتي « من حيث أتى » اي من الاستانة عاصمة الدولة العلية او الخلافة كما نطلق عليها اليوم !

وأراد « محمـد باشا راغب » أن يدبر مؤامرة مع حسين بيك الخشاب « فحصل بينهما محبة ومودة وحلف له أنه لا يخونه ثم أسر اليه أن حضرة السلطان يريد قطع بيت القطامشة والدمايطة فأجاب الى ذلك » .

ولكن التدبير لم ينجح ، فبعد قتل حفنة من المماليك بلغ الخبر بقية البكوات ، فاجتمعوا واستعدوا للهجوم على « حسين بيك الخشاب » ، « وأرسلوا يطلبون فرماناً من الباشا بالركوب على بيت حسين بيك الخشاب (صديق الباشا !) الذي جمع عنده المفاسيد اعداءنا وقصده قطعنا فلما طلع كتخدا الجاويشية ومتفرقة باشا الى راغب باشا وطلبوا منـه فرماناً بذلك فقال الباشا رجل نفذ أمر مولانا السلطان وخاطر بنفسه ولم ينكسر عليه مال ولا غلال، كيف أعطيكم فرماناً بقتله، الصلح أحسن ما يكون، فرجعوا وردّوا عليهم بجواب الباشا فأرسلوا له من كل بلك اثنين اختيارية بالعرضحال فان أبى فقولوا له ينزل ويولي قائمقام ونحن نعرف خلاصنا مع بعضنا فنزل بكامل اتباعه من قراميدان لما صار في الرميلة فأراد ان ينزل على شيخون الى بيت حسن بيك الخشاب يكرنك (*) معـه فيه واذا بالعزب المرابطين في السلطان حسن ردوه بالنار فقتل آغا من اغواته فنزل على بيت آقبردي الى بيت ذي عرجان تجـاه المظفر فأرسلوا له ابراهيم بيك بلفيه صحبة كتخدا الجاويشية خلع عليه قفطان القائمقامية ورجع الى بيته وأخذوا منه فرماناً (من القائمقام) بجر المدافع ... (٨) » الخ .

« فلما تكامل المجلس أوقف طوائفه ومماليكه بالأسلحة ثم قال لهم: تدرون لأي شيء جمعتكم؟ قالوا : لا . قال: تكونوا معي او اقتلكم جميعاً، فلم يسعهم إلا أنهم قالوا له جميعاً : نحن معك على مـا تريد ، فقال : أريد عزل الباشا ونزوله ، فقالوا : نحن معك على مـا تختار ، ثم انهم كتبوا فتوى مضمونها

(*) يكرنك يعني يتحصن .

ما قولكم في نائب السلطان اراد الافساد في المملكة وتسليط البعض وتحريك الفتن لأجل قتلهم وأخذ اموالهم فماذا يلزم في ذلك ، فكتب المشايخ بوجوب إزالته وعزله قمعاً للفساد وحقناً للدماء ، فأخذ الفتوى منهم وقام فلما أصبح صباح يوم الجمعة عاشر القعدة أرسل احمد بيك الأعسر الى الباشا يقول له : أنت تنزل او تحارب ، فقال : بل انزل (!) وانظروا لي مكاناً انزل فيه ونزل ذلك اليوم قبل الصلاة الى بيت محمد آغا الوالي بقوصون » [٩] .

والجبرتي في يومياته او تاريخه يؤرخ عام ١١٨٨ (١٧٠٦) بعبارة تكاد تكون كليشيه :

« **استهلت (السنة) ووالي مصر خليل باشا محجور عليه وليس له في الولاية إلا الاسم والعلامة على الاوراق** . والتصرف الكلي للأمير الكبير محمد بيك ابو الذهب والأمراء وأعيان الدولة مماليكه وإشراقاته والوقت في هدوء وسكون وأمن والأحكام في الجملة مرضيه والأسعار رخيه وفي الناس بقيه وستائر الحياء عليهم مرخيه شعر :

ما الدهر في حال السكون بساكن   ولكنه مستجمــــع لوثوب (*)

كان الناموس في احسن حالات تطبيقه .

ولنتأمل عدد الولاة الذين عزلهما الشقيان ابراهيم ومراد منذ صعود نجمهما :

« الباشا المتولى سنة ١١٩٢ (١٧٧٨) وهو المشهور بعبارة بليغة الدلالة على وضع الدولة « الاستعمارية » في «مستعمراتها » ! وهي قوله عندما ابلغ بقرار العزل : « وأنا أيش ذنبي ! » .

(*) لعل المؤرخين الجدد الذين يتكاثرون في مصر الآن بمعدل اكبر من معــدل المواليد ! يكتشفون لنا في هذا البيت صلة فكرية بين ماركس وهيجل والشيخ الجبرتي !

مرة اخرى نسترجع صورة السفير البريطاني ونتخيله يقول للبكوات الوفديين وهو يتسلم قراراً بالعزل : « وأنا أيش ذنبي ؟! » (*) .

« ركب الأمراء وطلعوا الى باب النيكجرية والعزب وأرسلوا الى الباشا كتخدا الجاويشية وآغات المتفرقة والترجمان وكاتب حواله وبعض الاختيارية يأمرونه بالنزول الى بيت حسن بيك الجداوي وهو بيت الداودية . فلما قالوا له ذلك قال : وأي شيء ذنبي حتى أعزل ؟ فرجعوا وأخبروهم بمقالة الباشا فأمروا اجنادهم بالركوب فطلعوا الى حوش الديوان واجتمعوا به حتى امتلأ منهم فارتعب الباشا منهم فركب من ساعته ونزل من القلعة الى بيت الداوودية وأحضروا الجمال وعزلوا متاعه في ذلك اليوم فكانت مدة ولايته سنتين وثلاثة اشهر » (١٠) .

١١٩٤ (١٧٩٠) « عزلوا اسماعيل باشا عن ثمانيـة اشهر تنقص ثلاثة أيام » .

وقصة عزله ولو انها واحدة من مئات .. إلا أنها تنفرد بلمحة طريفة .. فاسماعيل باشا الذي عزله مراد كان « اصله رئيس الكتّـاب باسلامبول من ارباب الاقلام وكان مراد بيك هذا اصله من مماليكه فباعه لبعض التجار في معارضة وحضر الى مصر ولم يزل حتى صار اميرها وحضر سيده هذا في ايام امارته وهو الذي عزله عن ولايته ولكنه كان يتأدب معـــه ويهابه كثيراً ويذكر سيادته عليه (!) وكان هذا الباشا اعوج العنق للغاية ... وكان عنده أصناف الطيور المليحة الصوت يطرب لأصواتهم اللطيفة وأنغامهم العذبة » فلما « اجتمع الأمراء وأرسلوا الى الباشا ارباب العكاكيز وأمروه بالنزول من القلعة معزولاً فركب في الحال ونزل الى مصر العتيقة ونقلوا عزاله ومتاعه

(*) يمكن وقوع حالة مماثلة اذا ما فهمنا الباشا كسفير لتركيا في مصر وليس والياً ، وهو يتسلم قراراً بابعاده من دولة مستقلة ذات سيادة كاملة .

في ذلك اليوم ... ولما أنزلوه على هــذه الصورة انتهب الخدم تلك الطيور والأقفاص وصاروا يبيعونها في أسواق المدينة على الناس » « وحضر من الديار الرومية (اي من عاصمة الدولة) أميراخور وعلى يده تقرير لاسماعيل باشا على السنة الجديدة فوجده معزولاً (ولا السلطان داري !) وأنزلوه في بيت بسويقة العزى » (١١) .

هذه قصة مغامرات رومانسية .. المملوك باعه سيده ، ثم ذهب كل في طريقه .. أصبح السيد والياً على مصر وهو أحد المناصب الهامة في الدولة ، وأصبح المملوك المباع سيد المماليك في مصر .. ورغم كل الاحترام الذي كنه المملوك القديم لسيده، فانه لم يتردد في خلعه، ولا حالت مكانة السيد الجديدة باعتباره ممثل الدولة العلية ، دون خلعه ونهب طيوره على يــد أتباع عبده السابق !

أما الوالي التالي فعزله السلطان نفسه إذ استدعاه ليتولى الصدارة ، وقد أكرمه المماليك للغاية ، ربما لمنصبه الجديد . والدليل على هــذا الاكرام يثبته الجبرتي : « لم يحاسبوه على شيء ونزل في غاية الاعزاز والاكرام » (١٢) .
والذي بعده استبدله السلطان .

« وصل واحد آغـــا من الدولة وبيده مقرر للباشا على السنة الجديدة فطلب الباشا الأمراء لقراءته عليهم فلم يطلع منهم أحد وأهمل ذلك مراد بيك ولم يلتفت اليه » (١٣) .

وبعد خمسة عشر يوماً من صدور فرمان الباب العالي او سلطان تركيا بتجديد ولاية الباشا: « أرسل مراد بيك الى الباشا وأمره بالنزول فأنزلوه الى القصر العيني معزولاً وتولى « مراد بيك » قائمقام وعلق الستور على بابه (!) فكانت ولاية هذا الباشا احد عشر شهراً سوى الخمسة اشهر التي اقامهـــا بثغر الاسكندرية » (١٤) .

ولم يكن المماليك يرتاحون للعــامة الذين يتصلون بالسلطان ، او « ملك

الروم » بلغة العصر .. فاذا ما خرق واحد من الاهــالي الناموس واستطاع ان يحصل على مرسوم من السلطان كان بوسعه ان « يبله ويشرب ميته » – كما يقول المصريون – .

« فلما توجه السيد عبد الفتاح البكري الى ملك الروم فأكرمه ووجه له بعناية بعض الأعيان نقــابة الأشراف [*] بمصر وحضر الى مصر وقرأ المرسوم الوارد بذلك وكاد ان يتم له الأمر فلم يمكن من ذلك بتقوية بعض الأمراء وحنقوا عليه حيث توجه من مصر الى بلاد الروم خفية ولم يأخذ منهم عرضاً وجعل له شيء معلوم من بيت النقابة وبقي ممنوعاً عنها » [١٥] .

فالسلطان لم يكن يملك ولا حتى أن يعيّن نقيباً للأشراف . والوالي ، كما رأينا ، هو « طرطور » حقيقي .. مما يؤيد مــا ذهب اليه « جوفييه » : «إنمصر لم تعد ملكاً للأتراك..فالباشا صفر،ومصر ليستملكاً لأحد»[**]. او كما يقول « هيرولد » : « ان مصر قد استقلت استقلالاً فعلياً ، شأنها في ذلك شأن الجزائر وتونس وطرابلس » .

لذلــك لم يكن غريباً أن تفكر الدولة الفرنسية بالعمل المشترك مع تركيا لفتح مصر .. ففي عهــد لويس الخامس عشر : « كان الدوق دي شوازل » كبير وزرائه من انصار فكرة احتلال فرنسا لمصر بالتراضي مع تركيا التي : « لم يبقَ لها في مصر سلطة فعلية في ذلك الحين » [١٦]. ويقول « مورهيد » ان نابليون الذي كان يعرف حالة الدولة العثمانية ، ونبذ المماليك كل ولاء للقسطنطينية ، كان يرى من الطبيعي أن يذهب الى السلطان ، او يبعث اليه من يعرض عليه **أن يستعيد الفرنسيون له ولايته الكبيرة التي سلبت منه**[١٧].

(*) نلاحظ ان عائلة البكري تستعين غالباً بقوة خارجية للحصول على نقابة الاشراف .

(**) في قاموس الاستعمار الغربي ، ان البلد الشرقي لا يمكن ان يكون ملكاً لأهله . فهو اما مملوك لدولة كبرى او No man's land اي مباحاً ينتظر من يتملكه !

بل كان على ثقة من أن « تركيا سترحب باستئصال شأفة المماليك » [١٨]. وفي وصايا « نابليون » التي تركها لكليبر : « ان تركيا لم تعد دولة ، بل مجموعة من الولايات المستقلة » . « ان الدولة العثمانية تنهار » [١٩] . ويقول مورهيد: «وكان المماليك من الوجهة النظرية البحتة ـ ما زالوا خاضعين للسلطان العثماني في القسطنطينية ، مرتبطين بأداء جزية سنوية اليه بمثابة منحة ، وبقبول والي عثمان يعينه الباب العالي ويوفده اليهم . والواقع انه كانت قد انقضت سنوات طويلة لم يدفع فيها المماليك الجزية للسلطان . أما الوالي وقت وصول نابليون ـ وكان اسمه « ابو بكير باشا » فلم يكن اكثر من دمية او ألعوبة في يد المماليك الثلاثة والعشرين من البكوات الذين كانت تتألف منهم حكومة مصر » [٢٠].

هـذا الاستقلال الفعلي بمصر ، والذي مارسه المماليك منذ القرن السابع عشر ، لم يعدم من يحاول تحويله الى وضع رسمي ، بل وتوسيع دائرة استقلال مصر ، ومد حدودها على حساب الدولة العثمانية وسيادتها الوهمية .. ولنذكر دائماً انه منذ أواخر القرن الثامن عشر كان الخطر الأكبر هو الذي تمثله قوة مصر على الدولة العثمانية وليس العكس (*) .

(*) الحق انه يصعب جداً تسمية احد الافراد كأول من فكر في الاستقلال بمصر .. فما من حاكم قوي حكم مصر الا وفكر في الاستقلال بها ، وما من حاكم استقل بمصر الا وتطلع الى حدودها العربية.. حتى نابليون ! ففي مذكرات نابليون ما يكفي لمنحه شرف اكتشاف« القومية العربية » قبل ساطع الحصري على الأقل ! فهو يتوقع اذا مـا استقلت مصر أن تستقل « المملكة العربية التي تتألف من امـة تخالف الأمم غيرها مخالفة كلية بعقليتها وأوهامها ولغتها وتاريخها ، وشملت مصر وبلاد العرب وشطراً من بـلاد افريقيا » . « تتمنى ولايات الدولة العثمانية من صميم فؤادها وقوع تغيير عظيم وتنتظر الرجل الذي يقع هذا التغيير على يديه » .

فالدور يبحث عن بطل منذ زمن بعيد او قل ان البطل يجد دائماً دوراً في انتظاره ! بل ان نابليون يتخطى حتى آفاق القوميين العرب المعاصرين ، ويسبق محاولات شريف مكة .. ان صحت الاتهامات التي تنسب له بأنه تطلع الى خلافـة عربية فقبل قرن وربع قرن من محاولات الشريف حسين كتب بونابرت في مذكراته : « ان الاستانة لم تعرف الاسلام إلا بعد ثلاثـة او اربعة قرون من وفاة الرسول (حتى نابليون كان ضعيفاً في التاريخ) وأنـه لو بعث الرسول من جديد فلن يختار الآستانة لرسالته بـل يختار القاهرة تلك المدينة المقدسة على ضفاف النيل ، وان الرئيس الديني للاسلام هو صديقنا شريف مكة » (٢١) .

وقبيل الحملة الفرنسية ، وقبل « بعثها » للقومية المصرية بتسعة وعشرين سنة (١٧٦٩) استقل علي بك الكبير بمصر وطرد الوالي وضم معظم الجزيرة العربية وسوريا حتى باعه نائبه وخلعه وقتله (على شكوك الجبرتي) وانفرد هو بحكم مصر .

وقامت تركيا بمحاولة لفتح مصر في عهد « مراد وابراهيم » وجردت حملة على ولايتها .. واستطاعت أن تحتل مصر مدة خمس سنوات .. لتفشل .. وتعود مصر لحكم الشقيين مراد وابراهيم ..

أما « الجزية » او « الميري » .. فقد تناقصت بعد استئثار المماليك بحكم البلاد حتى انه في بعض السنين لا يكاد يبقى منها شيء يذكر . وانقطع فعلاً إرسال الخزانة في عهد علي بك الكبير ، وكان صافي ما يرسل سنوياً الى الاستانة ٣٦٤،٥٥٠ فرنك وسنرى ان كليبر قد جمع من غرامة واحدة عشرة ملايين فرنك .

ثلاثمائة ألف فرنك هي كل ما كان يطمع فيه الباب العالي اذا ما صفت الريح ودانت له البلاد من دخل سنوي « مقداره ما بين ٣٥ الى اربعين مليون فرنك في السنة »[٢٢].. أي أقل من واحد في المائة .. لذلك لم يكن عرض نابليون مغرياً للسلطان عندما عرض أن تكون علاقته بالباشا ، هي نفس علاقة المماليك . وإن كان هو أصدق وعداً ، عندما عرض دفع الجزية .

وأول خاطر ذهب اليه تفكير المماليك عندما بلغهم نبأ الغزو الفرنسي ، هو اتهام السلطان بتدبير هذا الغزو !! فواجهوا مندوبه البائس ، أي الباشا، باتهامهم هذا . ولا شك ان هذا الظن من المماليك ومحاولة الباشا نفيه، تعطينا صورة حقيقية لطبيعة العلاقة التي كانت تربط تركيا بمصر ، ويعطي عبارة « هذه بلاد السلطان » بعدها الحقيقي ، إذ أن السلطان لا يغزو بلاده اذا كانت « بلاده » حقاً !

ففور وصول انباء الغزو الفرنسي الى القاهرة ، عقد الديوان واجتمع البكوات والمشايخ والباشا التركي ، وفتح مراد بيك المناقشة بقوله : « ان الافرنج ما حضروا الى هذه البلاد إلا بإذن من الدولة العلية . ولا بدّ انت أيها الوزير عندك الخبر والعلم بذلك ولكن القدرة تساعدنا عليكم وعليهم » .

تخيل « علي ماهر » او « النحاس باشا » يعقد مجلس الوزراء ويستدعي اللورد « كليرن » عام ١٩٤٢ ويقول له : « ان الطليان او الالمان ما حضروا الى هذه البلاد إلا بإذن من الامبراطورية البريطانية وأنت أيها السفير عندك الخبر والعلم بذلك . ولكن القدرة تساعدنا عليكم وعليهم » !

اعتقد ان هذا الشك الذي ساور « مراد بيك » لا يترك مجالاً للبس حول طبيعة العلاقة بين مصر وتركيا . وتؤكد ما ذهب اليه كل المؤرخين من أن مصر كانت مستقلة ، في هذا الوقت ، استقلالاً فعلياً عن تركيا .

بل وعندما بدأ مراد بيك – قبل ذلك – يبني اسطولاً ، ويصنع المدافع « اختلفت آراء الناس في ذلك ، فمن قائل ان ذلك خوفاً من خشداشينه وقائل من مخافة العثمانية كما تقدم في قضية حسن باشا » (٢٣) .

لم يكن للوجود العثماني من مظهر إلا الباشا الهزلي .. ومبلغ الجزية الذي قلما كان يدفع ، لذلك فإن احتمال وصول حملة عثمانية على مصر من جنود عثمانيين خلص ، او بمعونة أجنبية ، كان احتمالاً وارداً او متوقعاً من الجانب غيرالتركي وسنرى ان الاتراك لميعودوا الىمصر إلا كنتيجة للحملة الفرنسية، ولو أنها كانت عودة مؤقتة إلا ان طبيعة المناقشات التي دارت في الديوان قد أكدت ان الباب العالي ، لم تكن له قوة مادية يحكم بها مصر ، وانها كانت من «املاكه» كفرضية قانونية ، وباعتبارها لم تصبح بعد من املاك الآخرين الذين كانوا يتسابقون على امتلاك العالم .

وقد نفى الباشا التركي هذا الاتهام قائلاً : « لا يصح منك هذا الكلام

أيها الأمير . ان الدولة العلية لا يمكن أن تسمح بمثل هـــذا الأمر على بلاد الاسلام فدعوكم من هـــذا الحديث والكلام ، وشدوا همتكم وصمموا بينكم ، وانهضوا نهضة الأبطال واستعدوا للحرب والقتال ، وقدموا ذواتكم للمغازاة وفوضوا الأمر لله » (٢٤) .

ولا شك ان التاريخ الآن في صف الباشا ، الذي نفى – رغم افتقاره للمعلومات المادية – إمكانية تآمر الدولة العلية مع الفرنجة على غزو بـــلاد الاسلام .. ولكن المناقشة توضح ان نابليون كان أحرص على تأكيد الولاء للدولة العلية من المماليك ، وهو يدعو المصريين في نهـاية منشوره الى الهتاف بصوت عال: «أدام الله جلالة السلطان».. هذا المنشور الذي يصفه«مورهيد» بأنه من اعمال الرياء والخديعة .. الخ وأنه جاء تأكيداً حماسياً لمشاعر الصداقة والتحالف التي يكنها بونابرت للسلطان قاطعاً العهد على نفسه بـــأن تخفق الرايتان التركية والفرنسية جنباً الى جنب فوق كل قرية (٢٥) .

بل نستطيع أن نتصور طبيعة هذه الصلة التي كانت تربط بين الآستانة او الدولة العثمانية وبين « مستعمراتها » المفترضة : مصر والشام، من تلك المعاملة التي لقيها الجيش العثماني الذي جاء في أواخر عام ١٧٩٩ لتحرير مصر ، وكان لا بـــدّ له أن يمر عبر الشام التابع وقتها للدولة العثمانية والذي يعتبر ضمن املاك السلطان . ولكن « رفض الجزار باشا التعاون مع الصدر الأعظم، على أية صورة (فالباشا عدو لكل الدخلاء ، أتراكاً كانوا او فرنسيين) جعل الجيش في حالة يرثى لها، فكان الجنود يتضورون جوعاً ويموتون ظمأ » (٢٦).

ولنـا ان نفترض ان هذا الموقف « السلمي » من جانب الجزار يعود الى ان جيش الصدر الاعظم كان مجرد عابر سبيل في اراضي الجزار. لذلك اكتفى بحثه على سرعة العبور، بالجوع والعطش. أما لو كان في نية «الصدر الاعظم» البقاء في سوريا لكان للجزار موقف آخر ، ولجرع الجيش العثماني وقائده من نفس الكأس التي جرّعها للدخلاء الفرنسيين .

ولم تكن هذه هي حالة مصر والشام وحدها ، بل سائر البلدان العربية، ففي نفس الوقت الذي كانفيه نابليون يشن هجوماً وحشياً على عكا ويحتل من املاك السلطان الأرض الممتدة من أسوار عكا الى النوبه .. كان احد ولاة السلطان في اقليم آخر من امبراطوريته الوهمية يتلقى مكاتيب من : « طرف أمير العساكر الفرنساوية محبنا بونابرته » بل ويقوم لحبه هـذا بدور مصلحة البريـــد فيفحص مكاتيب محبنا بونابرته ويوزعها كالآتي : « فما كان لنا منها فتأملناه وصار اليه الجواب نوصله اليه » . « ومـا كان منها معولاً في ارساله علينا الى نواحي الهند وابن حيدر وامام مسكت ووكيلكم الذي في المخـــا فجميعاً اصدرناها من طرفنا مع من نعتمده الى أربابها وإن شاء الله عن قريب يأتيكم الجواب » .

أما ساعي البريد هذا فـلم يكن إلا « الشريف غالب بن مساعد شريف مكة المشرفة » والخطاب موجه الى « عين أعيانه وعمـــدة اخوانه برسليك مـدبر أمور جمهور الفرنساوية ممهد بنيان السياسة بسداد همته الوفية » . ممـا يكشف أي قدر من النفاق كان في دعاء أئمـة المساجد للسلطان العثماني بوصفه حامي الحرمين ! وأي قدر من الصفاقة كان في حمل السلطان للقب !

وفي نفس الخطاب يطلب شريف مكة من الجيش الذي يحتل مصر ويفتح الشام ، أن ينظم معه حراسة قوافل البن .

« والمطلوب في حـــال وصول كتابنا اليكم إرسال عساكر من لديكم الى بندر السويس لأجـــل حفظ اموال الناس ويصلوا بالابنان الى مصر ويبيع التجار ويزول وقف الأسباب والباس. وتهتموا فيرجوعهم كذلك قبل بأوان. كذلك تصحبوهم بالعسكر من طرفكم الوثيق ليكونوا محافظين لهم من شرور الطريق لأن هذه المرة ما ارسل اليكم هـــذا المقدار إلا تجربة واستخباراً من اعيان التجار وعند مشاهدة الاكرام والاحتفال بهم في كل حال يرسلون اليكم نفائس أموالهم ويهرعون بالجلب لطرفكم ويزول الريب عن قلوبهم ونرجو الله

بهمتنا تسليك الطرقات وتنجيح المطالب وتحصيل الميرات بأحسن مما كانت من الامان . وأعظم ممـا سبق في غامر الأزمان . ويكثر بحول الله الوارد اليكم من الاسباب الحجازية . وكذلك لنا ُبن في المراكب فمأمولنا منكم القاء النظر على خدامنا وبذل الهمة على ما هو من طرفنا . وأنتم كذلك لكم عندنا مزيد الاكرام في كل مرام » (٢٧) .

يبدو ان نابليون ليس وحده الذي خابت آماله في مستقبل المنطقة تحت أسوار عكا ... كما يبدو واضحاً ان الدولة العثمانية كانت أبعد مـا تكون عن شكل الدول المتعارف عليه ، فضلاً عن ان تمثل امبراطورية ، او وحدة مـا قادرة على التحرك في اتجـاه واحد .. ومهما قيل عن نوع الرابطة التي تربط حكومات الاقاليم – العربية بالذات – بالسلطان ، فهي أبعد ما تكون عن صلة حاكم المستعمرة ، بالدولة الاستعمارية .

فلا مجال للحديث عن دعاة استقلال عن تركيا .. فمصر لم تكن مستعمرة تركية ، ولا كانت سياستها تدار من تركيا ، ولا كان ارتباطها بتركيا يشكل أي قيد حقيقي على حركتها او إمكانيات تطورها .. ومن ثم فـإن مشكلتها الوطنية بـدأت مع الطلقة الاولى التي صوبت للشاطىء المصري من الاسطول الفرنسي . وأصبح كل من يقاوم الغزو الفرنسي في جانب التحرر الوطني ، في جانب مصر المستقلة .. أما الذين اختاروا الراية الفرنسية فكانوا يعملون ضد استقلال مصر .

نظرة على المجتمع المصري

كانت مصر ذلك الشريط الأخضر المحيط بالنيل والذي يفتح ذراعيه للبحر ، يعيش فوقها مجتمع يتكون من :

- المماليك .. وهم السلطة الحاكمة .

- الشيوخ .. قيادة العامة ، وهم من شتى أقطار العالم الاسلامي .

- التجار والأعيان ، ومساتير الناس من المصريين والمسلمين ، وبالذات العرب .

- عامة المدن .. وأهمهم بالطبع سكان القاهرة .

- الفلاحون .

- وعلى هامش الوادي الأخضر ، توجد الصحراء ، وبين الصحراء والوادي حرب لا تنقطع .. وفي الصحراء يعيش البدو ، أو العرب .. وهم في حرب دائمة مع الفلاحين .. أبناء الوادي ..

« فسألوهم عن العرب .. فقالوا لهم الوادي في أمن وأمــان بحمد الله لا عرب ولا جرب ولا شر » .

ولكل جماعة حدودها المرسومة ، وكأي قانون ، لا بد أن يقع اختلال مؤقت ، فتصطدم القوى ببعضها ليعود توازن القوى من جديد . فالقوة التي تجاوزت حدها تصدها القوى الأخرى ، وتعيدها الى مواقعها بالردع ، بعنف يصل أحياناً الى التقاتل ، أو بالتهديد والمساومة .

ولنبدأ بالمماليك .

أصبحت السلطة حقاً مشروعاً للماليك بعد انهيار كل القوى المتصارعة في المشرق العربي وعجزها عن مواجهة خطر الغزو الخارجي ، أو الابادة الشاملة التي كان يمثلها الغزو الصليبي ، ثم الاعصار التتري .. فعلى يد « شجرة الدر » والذين قتلوها وخلفوها ، تم سحق محاولة « لويس التاسع » وطرد الصليبيين من الشام ، ثم هزيمة التتار وانحسار موجتهم . واستحق المماليك — بذلك — أن يتربعوا على قمة المجتمع ، وأن تكون لهم السلطة ، وأن يشكلوا وحدهم السلطة العسكرية الحاكمة، وقد ظلوا في مواقعهم هذه ثلاثة قرون لا تنازعهم قوة أخرى ، يعترف الجميـع لهم بحق مشروع في ثروة البلاد مقابل حمايتهم لها من الخطر الخارجي الى ان سقط هذا الحق ، في موقعة « مرج دابق » بهزيمتهم أمـام السلطان العثماني .. يومهـا فقط رفض الفلاحون المصريون دفع الضرائب وقالوا لهم : « ما نعطي خراج حتى تتبين لنا ان كانت البلاد لكم أو لابن عثمان فنبقى نوزن الخراج مرتين » (*) .

وأصبحت البلاد لابن عثمان ، بشنق طومان باي ، ودخول السلطان

(*) راجع القومية والغزو الفكري — الفصل الثاني .

« سليم » القــاهرة بمدفعيته المتفوقة ، وحماسة « مماليكه » أو انكشاريته الفتية .

ولكن السلطان العثماني لم يستطع أن يحتفظ بحقوقه ، فلم يكن بوسعه أن يبقي في مصر قوة عسكرية دائمــة بحجم يستطيع فرض سلطته ، ومعاركه لا تنقطع في أوروبا ، والخطر الروسي يتفاقم ، وينهـك قواه في حروب متصلة ، ويقتطع كل يوم قطعة من أرض السلطان .

وهكذا سرعان مــا نبتت من جديد رؤوس « الهيدرا » ، وانتزعت السلطة من السلطان العثماني وحولت واليه الى « طرطور » لا قيمة له .. وهنا تبدأ المرحلة الثانية من التاريخ المملوكي ، ففي المرحلة الأولى التي تبدأ بهزيمــة لويس التاسع وتنتهي بالغوري . كان المماليك يحكمون البلاد بحق النصر ضد العدو الأجنبي . مقابل حماية الاستقلال والوجود من خطر الابادة الأجنبية . ولكن في المرحلة الثانية أصبحوا يحكمون بحق الانقلاب،بحق انتزاع السلطة.. ولعل ذلك هو العامل الرئيسي في التباين بين عصر المماليـك المزدهر ، عصر السلاطين العظــام الذين هزموا الصليبيين والتتار ، وبنوا حضارة رخــاء وازدهار وتقدم معماري نادر .. وبين عصر الانحطاط ، عصر « مشايخ البلد » المستمر في انحطاطــه حتى وصــل الى الحضيض في صورة « مراد بيــك » و « ابراهيم بيك » وانتهى خلال ساعات أمام مدفعية ومربعات نابليون .

إنه الفارق بين حكم الطبقة المنتصرة وطنيــاً ضد عدو قومي ، والطبقة المتآمرة ، المنتصرة داخلياً في مجتمعها وعلى مجتمعها . وقد ساعد على انهيــار المماليك وفقدانهم صفاتهم النبيلة،التي اكتسبوها بدفاعهم عن الوطن الاسلامي — أو المشرق العربي بالذات — سنوات الأمن الطويــل الذي وفرتــه الانتصارات العثمانيــة فأعفوا من مهمة الذود عن الوطن الذي ينهبونه ، إذ كانت هذه مسئولية السلطان — ولو نظرياً — على أية حال لم يقع هجوم حقيقي على مصر في هذه الفترة . لذا انقلب المماليك من مقاتلين الى قتلة متآمرين .

ومهما تكن قسوة التاريخ عليهم ، كظـاهرة منقرضة ، فيجب أن نذكر دائماً ، انه بفضل سيوفهم وشجاعتهم النادرة ، بقي المشرق العربي ، عربياً ، فلولاهم لاحتل « لويس التاسع » مصر ، ولاستقر الصليبيون بالشام ، ولكنا اليوم شيئاً شبيهاً بأمريكا اللاتينية على أفضل الفروض ..

بل لولاهم ولولا سيوفهم لما بقت الحضارة الإنسانية أو لتأخر ازدهارهـا عدة قرون ، فهم وحدهم كانوا الصخرة التي تحطم عليهـا الاعصار المغولي ، فردوه على أعقابه الى وسط آسيا ، ولو انتصر المغول على جيش المماليك ، في عين جالوت ، لوصلوا الى البحر الأبيض ، ولانطلقوا الى بقية العالم ..

فلنحتفظ بهذه الملاحظة ، ونحن نقلب الصفحة الأخيرة من تاريخ المماليك في المجتمع المصري خلال القرن الثامن عشر .

الصفحة الاخيرة

لا شك ان مصر – قبيل الحملة الفرنسية – كان يحكمها أسوأ مملوكين في تاريخ هذه الظاهرة التي دامت خمسة قرون .

والمماليك ظاهرة نادرة ، عجيبة ، ومثيرة .. لم تكتب عنها الى اليوم ، الدراسة الوافية التي تفسرها او حتى تقدم لهـــا صورة موضوعية ، واضحة التفاصيل (*) . فذلك الصبي او الغلام الذي يخطف او يشترَى في صفقة حرة مع اهله في آسيا الوسطى غالباً ، او اي مكان في العـــالم يسكنه الجنس غير الاسود .. إذ كان المماليك من كل الجنسيات والأديان البيضاء .

هذا الغلام الذي نقل الى القاهرة ليلتحق بخدمة مملوك سبقه على الدرب ، وأصبح الآن فارساً وقائداً لمجموعة تدين له بالولاء المطلق ، هــذا الفارس هو استاذ المملوك الغلام ، المجلوب حديثاً ، اشتراه رأساً من مسقط رأسه، او من التاجر .. « الياسرجي » الذي سيتحمل بعد ذلك لعنات المصريين ، الذين لا يعرفونه بالطبـع ، ولكن كلما استبد المملوك او أساء التصرف ، فسيلعنه المصريون ، ويلعنون « اليسرجي الذي جلبه وباعه » .. كلون من المعـــايرة والتذكير بوضاعة الأصل .

(*) وليس هذا الحديث هو الدراسة المنشودة . راجع كتابنا : «القومية والغزو الفكري» .

وفي ظل حضارة عجيبة ، لم يلق الضوء بعـــد على روعة نظامها الذي لا يعترف بأية حواجز اجتماعية ، بسبب اللون او الجنس او العنصر او الأصل الطبقي والديني (*) .. في ظل هذه الحضارة تتاح للمملوك فرصة الارتقاء الى السلطة .. وهو ليس رقيقاً بالمعنى المفهوم حالياً لهذه الكلمة ، او الذي يفهم من تاريخ الزنوج في اميركا .. ابداً بعضهم كان يتحول الى صنجق خلال ثلاث سنوات ليس اكثر من مجيئه الى القاهرة ، اي من تاريخ شرائـه . ومعظمهم كانوا يبعثون فيحضرون اهلهم الى القاهرة ، عندما يصلون الى السلطة . أما من بلدهم الأصلية ، أو حيث طوحتهم المغامرات . ففرصة النجـاح في مصر هي الأكبر ، والنجاح في مصر هو الأمل الذي يستحق المغامرة . وبعضهم كان يصل الى منصب سلطان ، قبل أن تتم الاجراءات الشكلية لتحريره !

وفي اعتقادي انه خلال القرون الخمسة التي ازدهر فيهـا حكم المماليك في مصر ، كان هناك اندفاع حقيقي في مسقط رأسهم نحو «الاسترقاق» للوصول الى مصر بإغراء الأساطير التي تحكي عن النعيم والمجد الذي ينتظر كل مملوك يوقعه حظه الحسن في يد تاجر ينقله الى القاهرة (**) .

ونستطيع ان نتصور بعض الاهالي الاذكياء او الصبية الطموحين ، يغرون « اليسرجي » بأنفسهم ويستعطفونه لكي ينقلهم الى عالم المغامرات والطموح والمجد .. اما حكاية الاسترقاق والبيع هذه ، فكانت أشبه بحـــالة الصبي

(*) « الامير يوسف بك المسلماني وكان اصله اسرائيلياً وأسلم وحسن اسلامه ولبس آغات جراكسة ثم تقلد كتخدا الجاويشية وانفصل عنها وتقلد الصنجقية سنة سبع ومائة والف (١٦٩٥ م) وتلبس كشوفية المنوفية ثم امارة جده ومشيخة الحرم (!!) وجاور بالحجاز عامين ثم رجع بالعسكر الى الروم ورجع سالماً . وأخذ جمرك دمياط وذهب اليها وأقام بهـــا الى ان مات سنة عشرين ومائة والف » (٢٨) .

(**) امتد الاغراء الى الاوروبيين فكانوا يطرحون انفسهم على تجار الرقيق .

الاوروبي ، او الارمني المغـامر ، الذي يبيـع نفسه ـ مدة الرحلة ـ لربان السفينة المبحرة الى اميركا .. مقابل نقله الى العالم الجديد حيث احلام الثراء في انتظاره .. مع فارق ، أن الرحلة الى اميركا كانت ولا تزال ، مغامرة مع المجهول ، وأن ملايين عبروا المحيط كانوا يعتصرون الى الموت ، ويسقطون في هاوية الفشل ، مقابل كل حالة نجاح .. أما رحلة المملوك الى القاهرة فكانت رحلة مصير معروفة بدقة قاتلة ، ومرسوم بحتمية قوانين صـــارمة .. حتى لكأنهم شخصية واحدة تتكرر آلاف المرات منذ أن يصل الى القاهرة الى أن تقطع رأسه وهو بلقب بيك !

فالمملوك ينضم فور وصوله الى خدمة استاذ مـــا .. وهو أصله مملوك استطاع أن يتقدم عبر بحر الدم والولاء والخيانة والتآمر .

وعلاقة المملوك باستاذه تقوم على الولاء المطلق وتنفيذ جميـع مؤامراته ضد « الاساتذة » الآخرين ، والرعاية الشاملة من جانب الاستاذ .

وهنا يحلو لبعض المؤرخين ان يتوقف عنـد نوعية العلاقة الشخصية بين المملوك واستاذه .. ومعظم المعلقين تستهويهم فكرة العلاقة الجنسية المفترضة بين الاستاذ ، وغلام صغير جميل (في الغالب) مملوك له .

ورغم ان معظم المعلقين ـ كما قلنا ـ وخاصة الغربيين قـــد أشاروا الى ذلك ، إلا أنني أميل الى استبعاد اعتبار اللواطة علاقة طبيعية ـ كما تصورها هذه التعليقات ـ بين صفوف المماليك . فلا شك انها كانت موجودة في بعض الحالات ، ولا شك ان نسبة كبيرة من الغلمان البيض الذين كانوا يسترقون في عصور الانهيار الحضاري (*) ، كانوا يسترقون لهذا الغرض بالذات . غير ان من يدرس تاريخ المماليك ، لا يجد ان المؤرخين العرب يتحدثون عن هــذه

(*) الانهيار الحضاري الذي نعنيه ليس الانهيار المادي، فقد تكون الحضارة في ذروة تألقها المادي ولكنها في دور الانهيار .

الظاهرة كعلاقة أساسية في صلة المماليك ببعضهم .. بل بالعكس نجد هؤلاء المؤرخين يشيرون الى حالات بعينها ، مارست هذا الشذوذ .. ويعلق المؤرخون بوضوح على ميول هذه « الحالات الشاذة » . وصحيح أنه في دور الأفول لحضارتنا كان الشائع هو التغزل بالغلمـــان .. بل لا يكاد يوجد في تاريخ المتأخرين شيخ إلا وله قصيدة غزل في غلام ، لكن ذلك كان العرف الأدبي ، دون أن تكون له — والعياذ بالله — أية علاقة حقيقية بعالم الواقع . والمؤرخون العرب ، الذين يمتازون بالصدق المطلق ، وهذه ايضاً من خصائص حضارتنا ، ما كان ليفوتهم تسجيل هذه الظاهرة ، إذا كانت تمثل قانوناً عاماً كما يفهم البعض الآن من تاريخ المماليك .. ولا شك أن تشنيع العامة المصريين ، قد لعب دوره في خلق هذه الشائعة عن الشذوذ الجنسي بين المماليك ، بل ان تركيز المصريين ، لسنوات عديدة بعد زوال المماليك ، على التشهير الجنسي بالطبقة الحاكمة ، ربما يرجع الى جذور مملوكية .. فأي انتقام — على الطريقة المصرية في المقاومة — من حاكم مستبد متكبر وحشي السلوك ، أكبر من أن ترسم له صورة غلام فراش !

ولكننا — مرة أخرى — نستبعد أن يكون المماليك قد أنجزوا « ثورة جنسية » بحيث كانت هذه علاقتهم الطبيعية ! كما يستحيل تصور مجموعة كهذه ، تتحول في سنوات ، من « غلمان مخدع » الى فرسان محاربين من أعلى طراز ، تتسم علاقتهم بدموية نادرة .. ويمارسون الحكم بشموخ وعنجهية .. هذه صفات تتنافى مع الصفات التي يختار من أجلها غلام المخدع ، أو الفتى الاغريقي ثم الروماني المعروف ، أو غلمان قصائد أبي نواس. فصفات المملوك المقاتل تتنافى مع صفات هذا اللون من الغلمان ، الذين تتم تنمية صفات خاصة فيهم فترة استخدامهم لارضـاء هوايات أسيادهم ، ويستحيل تخلصهم منها بسهولة ليتحولوا الى مقاتلين عند سن معين !

فمع التسليم بوقوع هذه العلاقة في حالات خاصة ، نعتقد انها لم تكن

القانون العام لعلاقة المملوك باستاذه .

يتحول المملوك اذن الى محارب من الطراز الأول ويبدأ العمل تحت قيادة استاذه في مغامرة السلطة ، وهي قصة تتكرر طبق الأصل في جميع الحالات .

فسيده صنجق .. وعلى قمة الصناجق يتصارع أميران ، يتمكن أحدهما من الآخر بشراء أعوانه ، او اغتيال مماليكه ، فإما أن يهزم في حرب تكون نتيجتها مدبرة سلفاً من خلال « المتآمرين » عليه . أو يستدعى بحيلة الى الصيد ، أو اجتماع للمسامرة ، أو لبحث بعض القضايا الهامة ، أو قراءة مراسيم « مزورة » وردت من الباب العالي .. وقد يتنبه الأمير المغدور فيبادر بنقل عزاله ويفر الى الشام أو الى الصعيد . أو يذهب بجواده الى حتفه .. وهناك يجرد من حصانه بالحيلة أو وفقاً للبروتوكول إذا ما كان الاجتماع في داخل القاعات ، أو يتخلى هو عن الجواد بحكم الضرورات إذ يتحتم عليه أن ينزل ليأكل أو يزيل ضرورة . وإذا كان المملوك على ظهر جواده يعادل فرقة فرسان كاملة من أي جنس غير مملوكي ، فهو على قدميه أضعف من فلاح أعزل من السلاح .. بسبب الملابس والدروع والجواهر التي يثقل بها نفسه .

وعندما يعطي الأمير المتآمر الإشارة المتفق عليها ينقض المماليك على الفريسة المتآمر عليها ، ينقضون بلا شفقة ولا عاطفة ولا حتى حقد في الغالب وسرعان ما يُقطع رأسه (وبعضهم كان ينجو بقفزة حب بقاء، تحطم أي رقم اوليمبيادي) (*) فإذا ما قطعت رأسه سُلخت .. واهتم القتلة – بعكس ما يجري في ايامنا هذه – بإعلان جريمتهم .

(*) كما يروى عن « المملوك الشارد » الذي قفز من فوق سور القلعة في مذبحة « محمد علي » الشهيرة .

والرأس ذات اهمية بالغة إذ أن احرازها وإعلان امتلاكها ينقل حقوقاً قانونية ودستورية وشرعية لمالكها، فما ان تبرز الرأس المقطوعة، حتى تنتهي فوراً مقاومة الاعوان والتابعين فإما ان ينضموا في الحال الى حائز رأس سيدهم، او يبادروا بالفرار ونقل متاعهم والخروج من القاهرة، اذا كان تركيب القوى المتصارعة لا يتسع لهم .

لذلك كان المنتصر يحرص دائماً على « عرض الرأس » الذي يشبه في ايامنا هذه البلاغ رقم واحد ، او اعلان نتائج الانتخابات ، بمجرد اذاعته تنتهي عملية الاستيلاء على السلطة وتسقط شرعية المقاومة من جانب القوى الاخرى التي كانت في السلطة الى ما قبل دقائق من إذاعة البلاغ رقم واحد .. أقصد قطع الرأس .

وأحياناً كان « عرض الرأس » يتخذ شكل استعراض فكه ، فالمماليك يحملون رؤوس الفريق المهزوم على الصواني الفضية الفاخرة ، ويطوفون بها في الشوارع بالوقار اللازم.. وأمامهم الخدم يصيحون: « صلوا على النبي » .. « صلوا على محمد » .. كأنهم يحملون صواني الملبس او يتقدمون موكب طفل تم ختانه للتو .. والعامة يقفون على الصفين يتفرجون بلا مبالاة ، كما هي عادتهم الى اليوم !

« ورجع محمد بيك وصالح بيك والتجريدة ودخلوا المدينة من باب النصر في موكب عظيم وأمامهم الرؤوس محمولة في صوان من فضة والخدم يقولون صلوا على محمد وصالح بيك ظاهر بوجهه الانقباض والتعبيس (له حق فرأسه قطعت بعد ستة عشر يوماً فقط من انتصاره !) وعدتها ستة رؤوس وهي رأس حسين بيك وخليل بيك السكران وحسن بيك شبكة ، وحمزة بيك واسماعيل بيك مدفع وسليمان آغا الوالي » (٢٩) .

فإذا فر المملوك المنهزم او الجريح خارج القاهرة تلقفته ذئاب البرية .. العرب !

تخيل «حسن بيك الجداوي» الذي فرّ من الموت بسلسلة مغامرات تزري بـأي جيمس بوند .. ليصل الى الصحراء ، حيث تتولى الذئاب مطاردته .. شيخ العرب يتبعه كما يتبع الضبع الفريسة في انتظار سقوطها، يلاحقه بقوله: « وين تروح يا ملعون » ! وطالما ظل « حسن » بيك على ظهر جواده ، فإن ابناء آوى هؤلاء لا يقدرون على الاقتراب منه ، ولكنهم يعلمون ان قـدرة الحصان على البقاء محدودة ، مهما تكن طاقـة المملوك .. لذلك يستمرون في مطاردته بصبر والحاح ، مـــع الاحتفاظ بمسافة مناسبة تبعدهم عن ضربات سيفه .. وتبقيهم في دائرة القدرة على الازعاج بحجر او سهم او قطعة خشب او مجرد السباب والتوعد .. وأهم من ذلــك منعه من الانطلاق الى الصعيد او غزه ..

وأخيراً يقع الحادث المنتظر ويتعثر جواد « حسن بيك الجداوي » فيقع هو من فوقه او « يتقنطر » — كما يقول الجبرتي — وينقض عليه العرب ..

أما في القاهرة ، فيبدأ الأمير المنتصر عملية تصفية سريعة لأنصار المنهزم فيخنق من يخنق، ويذبح من يذبح.. وتقطع رؤوس الجميـع، وبعضها يسلخ.. أما الجثث او « الرمة » باصطلاح العصر فتنقل الى البيوت مع الاحترام اللازم وتسلم للأهل . وبعد عرض الرؤوس يهـتم اهتماماً مبالغ فيه بتغسيل وتكفين ودفن « الرمة مع الرأس » باحترام شديد (*) .. فـإذا انتهى الأمير المنتصر من خصومه ، بدأت عملية تصفية الانصار للقضاء على المنافسين والذين يُخشى انقضاضهم.. وفي ايام ينتقل المملوك منخانة أصدق الاوفياء وأخلص الاعوان الى خانة المشكوك فيهم ، والمطلوب تصفيتهم ، ويقتل من يقتل ويفر من يفر ويستتب الأمر للأمير المنتصر .. ولكنه مجرد منحنى للسلطة يمرق فيه .. فما

(*) ربما كان هذا الاهتمام الشديد بالجثة والمقبرة الفخمة، يعود الى التقاليد التي تعلمها المماليك من المصريين .

أن يصل الى نقطة الذروة حتى يبدأ في الانحدار بموجب قانون صارم كقوانين الطبيعة، يخضع له الجميع ، ويتصرفون بموجبه .. وما من محاولة جادة بذلت لتغييره .. كأن هناك حجماً معيناً من القوة ، يبذل الجميع جهدهم للوصول بسيدهم اليه ، فما ان يصل اليه – وهم معه – حتى يبدأون عملية اسقاطه ، وينقلب عليه اقرب اعوانه اليه ، وهذا طبيعي ، لأنه الرجل الثاني والمرشح لخلافته اذا ما سقط .. فإما ان ينقض عليه ويقتله ، ويطالبه المجمع المملوكي، بإثبات انه قاتله فإذا أثبت ذلك باحراز الرأس او وجود الدم على سيفه .. تولى السلطة مكانه.. وبسقوط الأمير ، يبدأ تابعه الأمير الجديد رحلة الصعود.. ويخلع عليه الباشا خلعة المنصب ، ويصبح له الحق في نهب بيت المخلوع القتيل .. ومصادرة جميع ثروته ومتاعه والتزوج بأرملته .. ليقتل هو بعد فترة ، ويمكن القول أن تسعين بالمائة من المماليك ماتوا مقتولين إلا من سبق الطاعونُ السيف الى انتزاع حياتهم . ويصعب أن نجد مملوكاً بارزاً في القرن الثامن عشر بالذات ، عندما وصلت الظاهرة المملوكية الى أبشع حالاتها ، مات حتف أنفه – كما يقول التعبير العربي الغريب – !

هذا الطابع الوحشي في صراع المماليك .. والنهاية الدموية لجميع الأمراء ترجع بالطبع لأسباب عديدة في التكوين الشخصي لأمراء الحرب هؤلاء ، وفي التكوين الفكري والنظام الاجتماعي الذي أقاموه ، ورفضهم الاعتراف بمبدأ الوراثة ، ونظرتهم العجيبة لحق الملكية (*) . ولكنها ترجع في اعتقادي لسبب اساسي هو : مركزية مصر ، استحالة قيام النظام الاقطاعي فيها ، على النحو الذي ساد اوروبا وآسيا في العصر الوسيط . فلو كان بوسع أي مملوك ان يستقل بالفيوم او بالجيزة او طنطا ، لما حرص على قتل خصومه ومنافسيه من أمراء المديريات الاخرى . ولا عرض نفسه للقتل المحتوم بالإصرار

(*) « وفي طريقتهم انهم يرثون من يكون منتسباً اليهم او جاراً لهم » (٣٠) .

على دخول القاهرة . ولا خاطر المسيطر على القاهرة بقتال الفارين خارجها . ولكن تكوين مصر (بسبب النيل حيث يحتـاج نظام الري لحد أدنى من المركزية على نطاق القطر كله) يستحيل معه ، قيام اقطاعيات منفصلة ذات اكتفاء ذاتي ، لذلك كان لا بد للسلطة في القاهرة ، لكي تحكم ، من إخضاع الاقليم كله الى حد أدنى من سيطرتها، يضمن حداً أدنى من الوحدة الاقتصادية. فلا سبيل الى الامارة إلا في القاهرة .. ومن هنـا كان هذا الصراع الوحشي وتبادل الأدوار ، من مطارد الى هارب ومن قاتل الى مقتول .. كانوا مجموعة عجيبة تعيش حياة سريعة قصيرة يظللها حكم بالاعدام يوقن الجميـع بحتميته ، وينالهم مهما كانت قوتهم ، ومهما كانت براعتهم في الاختباء ، او نجحوا في الفرار .. وكان في كل قصر « باب السر » يمتد تحت الأرض مسافات ليست بالقصيرة ، تسمح للأمير المحاصَر بالافلات ، من حصـــار المتطلعين الى سلخ رأسه ، والانطلاق الى الصعيد . وكان لبعضهم اكثر من بيت ، غير مشهور، يخفون فيه جانباً من الثروة .. حتى اذا نهب قصره الرئيسي، وجد ما يستعين به على مواصلة الصراع. فاذا سقط في يد خصمه لم يكن له ان يتوقع الرحمة. فلما طلب « احمد افندي » ان يركبوه حصاناً بدلاً من الحمار ، هذا المركب السوقي الطابع والمتعب .. وأن يخرج عنه هذا الحديد من رجله ، رد عليـه « علي بك الهندي » : « لو رحمتونا كنا رحمناكم » ! (٣١) .

والأمير « عبد الرحمن آغا » « آغاتا مستحفظان » الذي اشتهر بالعدل وكان نقمة الله على المعاكيس وخصوصاً الخدم الأتراك المعروفين بالسراجين .. والذي اكتشف انهم غير مسلمين، بل مندسين!.. لما جاء دوره وتحول الى فريسة مطارَدة ولحق به مراد بيك بعد ان عرف مكان اختبائه « وأخذوه قبضاً باليد وعرّوه ثيابه حتى السراويل وسحبوه بينهم عرياناً مكشوف الرأس والسوأتين وأحضروه بين يدي مراد بيك فلما وقعت عينه عليه أمر بقطع يديه وسلموه لسواس الخيل يصفعونه ويضربونه على وجهـه ثم قطعوا رقبته

حزاً بسكين (!!) ويقولون له أنظر قرص البرغوت . يذكرونه قوله لمن كان يقتله لا تخف يا ولدي انما هي كقرصة البرغوت .. فكانوا يقولون له ذلك على سبيل التبكيت .

« ودخل مراد بيك في صبحها برأسه امامه على رمح » [٣٢] .

وخلال فترة حياة المملوك القصيرة العنيفة والدموية ، نرى جانباً عجيباً من هذه الحضارة التي استطاعت أن تصقل حتى أشد الحجارة صلابة .. فهو مؤمن متدين — بمعنى احترام شعائر الاسلام — يحترم اهل العلم ورجال الشرع، ويتخضع لهم ، ويتحمل تأنيبهم وزجرهم ، يعشق الحضارة والفن ، ويجمع الأموال بكافة الأساليب الظالمة والوحشية . ولكنه لا يكاد ينفق منها شيئاً على الشهوات الجسدية ، بل لا يتردد في اعتصار آخر مليم مع الفلاح ، أو سلخ جلد أمير منافس ونهب امواله ، لكي يكمل بناء تحفة معمارية ، مسجد أو مدرسة أو بيمارستان ، أو سبيل يسقي الظامئين ..

ويشهد لين [٣٣] للماليك « بذوق مترف في الفن، وحرص شديد عليه.. » ويؤمن « مورهيد » على ذلك مستدلاً بأضرحة البكوات المماليك « ذات القباب الضخمة والمنائر العالية ، تقوم الى اليوم في الصحراء ، خارج اسوار القاهرة ، مثلاً باهرة على التقدم المعماري العظيم ، فلم يستطع الغبار ولا حقارة ما كان يحيط بهذه الأضرحة من الأكواخ والأطلال ، أن تطمس ما تشهد به هذه الصروح العظيمة من سمو فني» [٣٤]. وكمثال على هذا الوله بالبناء والعمارة نأخذ الأمير عبد الرحمن كتخدا الذي حكم في فترة الانهيار من ١١٥٢ الى ١١٧٨ (١٧٣٩ — ١٧٦٤) اي مدة ربع قرن.. فرغم انشغاله بالمؤامرات، ورغم ظلمه وحماقاته ، يشهد له الجبرتي بهذه الانشاءات :

« السبيل والكتاب الذي يعلوه بين القصرين وجاء في غاية الظرف وأحسن المباني .

« وأنشأ جامع المغاربة وعمل عند بابه سبيلاً وكتاباً وميضأة تفتح بطول النهار .

« وانشأ تجاه باب الفتوح مسجداً ظريفاً بمنارة وصهريج وكتاب .

« ومدفن السيدة السطوحية .

« وانشأ بالقرب من تربة الازبكية سقاية وحوضاً لسقي الدواب ويعلوه كتاب وفي الحطابة كذلك .

« وعند جامع الدشطوطي كذلك .

« وانشأ وزاد في مقصورة الجامع الأزهر مَقدار النصف طولاً وعرضاً ويشتمل على خمسين عاموداً من الرخام تحمل مثلها من البوائك المقوصرة المرتفعة المتسعة من الحجر المنحوت وسقف أعلاها بالخشب النقي وبنى به محراباً جديداً ومنبراً وأنشأ له باباً عظيمة جهة حارة كتامة وبنى باعلاه مكتباً بقناطر معقودة على أعمدة من الرخام لتعليم الايتام من أطفال المسلمين القرآن وبداخله رحبة متسعة وصهريج عظيم وسقاية لشرب العطاش المارين . وعمل لنفسه مدفناً بتلك الرحبة وعليه قبة معقودة وتركيبة من رخام بديعة الصنعة وبها ايضاً رواق مخصوص بمجاورين الصعائده المنقطعين لطلب العلم يسلك اليه من تلك الرحبة بدرج يصعد منه الى الرواق وبه مرافق ومنافع ومطبخ ومخازن وخزائن كتب . وبنى بجانب ذلك الباب منارة وانشأ باباً آخر جهة مطبخ الجامع وعليه منارة أيضاً .

وبنى المدرسة الطيبرسية وأنشأها نشؤاً جديداً وجعلها مع المدرسة الاقبغاوية المقابلة لها من داخل الباب الكبير الذي انشأه خارجها جمعة القبو الموصل للمشهد الحسيني وخان الجراكسة وهو عبارة عن بابين كل باب بمصراعين وعلى يمينها منارة وفوقه مكتب أيضاً وبداخله باب الميضأة درج يصعد منه للمنارة . ورواق البغدادين والهنود فجاء هذا الباب وما بداخله من الطيبرسية والاقبغاوية والأروقة من أحسن المباني في العظم والوجاهة والفخامة .

« وجدد رواقاً للمكاويين والتكروورين .

« وبنى المشهد الحسيني على هذه الصفة وعمل بها صهريجاً وحنفياً بفسحة ولواوين في غاية الحسن ورتب له تراتيب وزاد في مرتبات الأزهر والأخباز ورتب لمطبخه في خصوص أيام رمضان في كل يوم خمسة ارادب ارز أبيض وقنطار سمن ورأس جاموس وغير ذلك من التراتيب والزيت والوقود للمطبخ.

«وانشأ عند باب البرقية المعروف بالغريب جامعاً وصهريجاً وحوضاً وسقاية وملعباً ورتب فيه تدريساً .

« وكذلك جهة الأزبكية بالقرب من كوم الشيخ سلامه جامع ومكتب وحوض وميضأه وسقاية ومنارة .

« وعمر المسجد بجوار ضريح الامـــام الشافعي رضي الله عنـه في مكان المدرسة الصلاحية .

« وعمل عند باب القبة الصهريج والمقصورة الكبيرة التي بهـا ضريح شيخ الاسلام زكريا الانصاري . وفرش طريق القبة بالرخام الملون يسلك اليـه بدهليز طويل متسع وعليه بوابة كبيرة من داخل الدهليز البراني وعلى الدهليز البراني من كلتا الجهتين بوابتين .

« وعمر أيضـاً المشهد النفيسي ومسجده وبنى الصهريج على هذه الهيئـة الموجودة . وجعل لزيارة النساء طريقاً بخلاف طريق الرجال .

« وبنى أيضاً مشهد السيدة زينب بقناطر السباع .

« ومشهد السيدة سكينة بخط الخليفة .

« المشهد المعروف بالسيدة عائشة بالقرب من باب القرافة .

« والسيدة فاطمة والسيدة رقية .

« والجامع والرباط بحارة عابدين .

« وكذلك مشهد ابي السعود الجارحي على الصفة التي هو عليها الآن .

« ومسجد شرف الدين الكردي بالحسنية .

« والمسجد بخط الموسكي .

« وبنى للشيخ الحفني داراً بجوار ذلك المسجد وينفذ اليه من داخل .

« وعمر المدرسة السيوفية المعروفة بالشيخ مطهر بخط باب الزهومة وبنى لوالدته بها مدفناً .

« وانشأ خارج باب القرافة حوضاً وسقاية وصهريجاً .

« وجدد المارستان المنصوري . وهدم أعلى القبة الكبيرة المنصورية والقبة التي كانت بأعلى القسمة من خارج ولم يعد عمارتها بل سقف قبة المدفن فقط . وترك الأخرى مكشوفة ورتب له خيرات وأخبازاً زيادة على البقايا القديمة .

« وله عمائر كثيرة وقناطر وجسور في بلاد الارياف وبلاد الحجاز حين كان مجاوراً هناك .

« وبنى القناطر بطندتا (طنطا) في الطريق الموصلة الى محلة مرحوم .

« والقنطرة الجديدة الموصلة الى حارة عابدين من ناحية الخلوتي على الخليج.

« وقنطرة بناحية الموسكي .

« ورتب للعميان الفقراء الاكسية الصوف المسماة بالزعابيط. فيفرق عليهم جملة كثيرة من ذلك عند دخول الشتاء . وكذلك المؤذنون يفرق عليهم جملة من الاحرامات الطولونية. وكذلك يفرق جملة من الحبر المحلاوي والبز الصعيدي والملايات والاخفاف والبوابيج القيصرلي على النساء الفقيرات والأرامل .

« ومن عمائره القصر الكبير المعروف به بشاطىء النيل فيما بين بولاق ومصر القديمة . وكان قصراً عظيماً من الأبنية الملوكية ..

« ومن عمائره أيضاً دار سكنه بحارة عابدين وكانت من الدور العظيمة

المحكمة الوضع والاتقان لا يماثلها دار بمصر في حسنها وزخرفة مجالسها وما بها من النقوش والرخـــام والقيشاني والذهب المموه واللازورد وانواع الأصباغ وبديـع الصنعة والتأنق والبهجة وغرس بها بستاناً بديعاً بداخله قاعة متسعة مربعة الاركان بوسطها فسقية مفروشة بالرخام البديـع الصنعة . واركانهـــا مركبة على أعمدة من الرخام الأبيض وغير ذلك مـــن العمارات حتى اشتهر ذكره بذلك وسمي بصاحب الخيرات والعمائر في مصر والشام والروم .

« وعدد المساجد التي أنشأها وجددها وأقيمت فيها الخطبة والجمعة والجماعة ثمانية عشر مسجداً وذلك خلاف الزوايا والسقايات والمكاتب والاحواض والقناطر .... وكان له في هندسة الابنية وحسن وضع العمائر ملكة يقتدر بها على ما يرومه من الوضع من غير مباشرة ولا مشاهدة ....

« ومن مساويه قبول الرشا (*) والتحيل على مصادرة بعض الاغنياء في أموالهم واقتدى به في ذلك غيره حتى صارت سنة مقررة وطريقة مسلوكة ليست منكرة . وكذلك المصالحة على تركات الاغنياء التي لها وارث . ومن سيئاته العظيمة التي طال شررها وتضاعف ضررها وعم الاقليم خرابها وتصدى الى جميـع الدنيا هبابها معاضدته « لعلي بيك » ليقوى به على ارباب الرآسة . فلم يزل يلقي بينهم الفتن ويغري بعضهم على بعض ويسلط عليهم علي بيك المذكور حتى أضعف شوكات الأقوياء وأكد العـــداوة بين الأصفياء واشتد « علي بيك » فعند ذلك التفت اليه وكلب بنابه عليه وأخرجـه من مصر وأبعده عن وطنه فلم يجد عند ذلك من يدافع عنه وأقام هذه المدة في مكة غريباً وحيداً .. ولمـا رجع من الحجاز متمرضاً ذهب اليه ابراهيم بيك ومراد بيك وباقي خشداشينهم ليعودوه ولم يكن رآهم قبل ذلك فكان من وصيته لهم كونوا مع بعضكم واضبطوا أمركم ولا تدخلوا الأعادي بينكم .

(*) الرشوة ..

وهذا بدل عن قوله أوصيكم بتقوى الله تعالى وتجنبوا الظلم وافعلوا الخير فإن الدنيا زائلة وانظروا حالي ومآلي او نحو ذلك (*) . هكذا اخبرني من كان حاضراً في ذلك الوقت. وكان سليط اللسان ويتصنع الحماقة فغفر الله لنا وله. رأيته مرة قبل ان ينفى الى الحجاز وهو ماش مربوع القامة ابيض اللون مسترسل اللحية ويغلب عليها البياض مترفهاً في ملبسه معجباً بنفسه يشار اليه بالبنان » (٣٥)

كانوا صناع حضارة وحماتها ، حتى في في أحلك عصور حكمهم ..

وكان المملوك متأنقاً في ثيابه ، متأنقاً في معيشته .. وبعضهم استطاع ان يتذوق الأدب والشعر .. وبعضهم كان يجمع الى جانب الحياة المادية العنيفة ، ايماناً عميقاً بالروحانيات والحياة الصوفية .

وفي فترات التألق كانوا يشتهرون بالعدل.. ولعلهم اكثر الطبقات الحاكمة في تاريخ مصر ، حرصاً على استقلالها ودفاعاً عن هذا الاستقلال ، وأقدرها على حمايته. ولعلها اكثر الطبقات الحاكمة في تاريخ مصر تشبثاً بهذا البلد وحباً له ، حباً كلف الجميع حياتهم وكلف مصر اكثر!.. ولكنهم ما كانوا يطيقون البعد ساعة واحدة عن مصر .. عن القاهرة بالذات التي لم يعرفونها ، ولا معاصروهم ، الا باسم « مصر » ..

كانوا جزءاً من نظام اجتماعي محددة اختصاصات كل أجزائه بدقة تامة ..

فالسلطة هي حق مطلق للماليك ، لهم وحدهم حق نهب البلاد ، مقابل توفير الامن الداخلي والخارجي ، والشيوخ يقيمون الشريعة ويحددون ما هو قانوني ، وما هو ضد الشرع ، ويتولون قيادة العامة والدفاع عن مصالحهم .

(*) لو قال ذلك لكف عن ان يكون مملوكاً ، ولما استمعوا اليه .

ومن خلالهم وحدهم يحق للعامـة ان يخاطبوا السلطة ، ويحق للسلطة ان تتصل بالعامة .

وليس للسلطة ان تتعدى على الشيوخ ، أو أن تهين الشرع ، كما يحدده ويفهمه هؤلاء الشيوخ ، أو ان تتدخل في التشريـع . وليس للماليك ان يتجاوزوا في نهبهم للعامة حداً معيناً ، وإلا ثار العامة ، وطالبوا الشيوخ باداء واجبهم .

عندها يقود الشيوخ حركة مقاومة ، تتفاوت .. من منـع الأذان ، او الأذان في غير أوقات الصلاة .. الى القتال الحقيقي .. أو شن ما يمكن وصفه بثورة .

وليس للماليك ان ينقلوا قتالهم على السلطة الى حياة العامة ، لأن ذلك يهدد حياة الجماهير ، ويعطل انتاجهـا . بل عليهم ان يتقاتلوا بعيداً خـارج المدينة اذا امكن ، أو في معركة ، أو في معركة قصيرة حاسمة حول القلعة. فلما طـال قتال « اسمعيل بيك » ضـد الشقيين « ابراهيم ومراد » .. وجبن « اسمعيل بيك » عن الخروج اليهم ، وعجزا هما عن احتلال القاهرة تعطلت الأحوال ووقع :

« ضيق في المعـايش وانقطـاع للطرق وعدم أمن ووقوف العربان ومنع السبل وتعطيل أسباب وعسر في الاسفار براً وبحـراً فـاقتضى رأي الشيخ العروسي انه يجتمع مع المشايخ ويركبون الى الباشا ويتكلمون معه في شأن هذا الحال » .

فلمـا زعم « اسمعيل بيك » انـه مكلف من السلطان بمحاربـة « ابراهيم ومراد » .. رد عليه الشيخ « العروسي » :

« وما المانع لكم من الخروج وقد ضاق الحال بالناس ولا يقدر أحد من الناس أن يصل الى بحر النيل وقربة الماء بخمسة عشر نصف فضة وحضرة

اسمعيل بيك مشتغل ببناء حيطان ومتاريس وهذه ليست طريقة المصريين في الحروب بل طريقتهم المصادمة وانفصال الحرب في ساعة اما غالب أو مغلوب وأما هذا الحال فانه يستدعي طولاً وذلك يقتضي الخراب والتعطيل ووقف الحال » (٣٦) .

فانتقال السلطة ، يستحسن ان يتم بمؤامرة داخل البلاط . فإذا كان لا بد من القتال،فبعيداً عن حياة العامة. وعندما ينتهي القتال،يتقدم المنتصر وينال حقوق المنهزم كاملة . فبعد ان قال أهـل « الحل والعقد » للأمير « قطز » : « ليس لهـا غيرك » . وكان عند حسن ظنهم ، فقهر التتار ، وخلد التاريخ اسمه ، ووصل الى الذروة التي لا بد ان يبدأ عندها منحني الانحدار ، تولى أخلص اعوانه ، مهمة دفعه في طريق الانحـدار .. فاحتال عليه كبار مماليكه ، واحتاطوا به بعـد أن بعد عن معسكره محاولاً صيد أرنب ! ثم تقدم منه « الظاهر بيبرس »، بالحيلة التقليدية ، متظاهراً بالرغبة في تقبيل يده . وسرعان ما جذب هذه اليد وقلبه عن فرسه ، وانهالت عليه سيوف اتباعه .. اعوانه .. اصدقائه . رفاق لعبة الموت والمجد الرهيبة ..

« ورشقوه بالنشاب فقتلوه ، ثم حملوا على العسكر شاهرين سيوفهم حتى وصلوا الى الدهليز السلطاني بالصالحيـة ، فنزلوا ودخلوا والاتابك على باب الدهليز ، فأخبروه بما فعلوا » (!!)

ترى ماذا كان رد « الاتابك » المنتظر على باب الدهليز للاحتفاء بسيده « قطز » سلطان مصر والشام .. قاهر التتـار .. محرر دمشق وحلب ! بل منقذ الانسانية كما يتحمس بعض المؤرخين !

هكذا كان رده !

فعندمـا « ابلغوا » الاتابك « بمـا فعلوه » .. أي قتل السلطان . سأل سيادته : « من قتله منكم ؟! » (لم يـدر بخلده ان يسأل لماذا ؟) فرد عليـه

« بيبرس » : « أنا » ! قـــال الاتابك : « يا خوند ، أجلس على مرتبـــة السلطان [٣٧] » . ولم يطل حكم قطز اكثر من سنة واحدة الا يوم !

ودخل « بيبرس » القـاهرة على رأس الموكب ذاته الذي كان يرأسه « قطز » ، وعبر الزينـة التي رفعت لاستقبال المقتول فتحولت الى الترحيب بالقاتل ! دون ذرة واحدة من النفاق ، بل عن تسليم مطلق بقانون الصعود والهبوط المملوكي .

المتعممون

كانت هذه الدموية ، تدور داخل دائرة المماليك ، وكما قلنا ، كان العرف الاجتماعي الصـارم ، أو الناموس ، يستنكر انتقالها خـارج هذه الدائرة ، ويرفض التعرض للفئـات الاجتماعية الاخرى بالتدخـل في صميم حياتها ودورهـا الاجتماعي ، أو بنقل التقاتل الى حياة هذه الفئات مما يعرضها للمخاطر ، ويهدد نشاطها وانتاجها بالتوقف . فاذا مـا وقع ذلك ، كانت العامة تتحرك وتطلب من المشايخ قيادة احتجاجها ومواجهة المماليك لاعـادة الامور الى نصابها .. ولم تكن قوة المشايخ شكلية بأي حال من الاحوال . فقدرتهم على تحريك العامة وإصابة البلاد بشلل عـام أما بالتوقف عن الانتاج والتوقف عن ممارسة شعائر الدين .. أو حتى بقيادة مقاومة مسلحة . هذه القدرة كانت عاملاً لا يمكن لاي أمير عاقل أن يغفله، أو يسمح لخصومه بالاستفادة منه في لعبة السلطة . ولم يكن المشايخ يجهلون قوتهم ، ولاعدمت مصر في أحلك العصور شيخاً صريحاً لا يخاف في الحق لومة أمير ، ولا حتى السلطان ذاته ..

ولا شك ان التربية الاسلامية ، والعقل الاسلامي المفتوح بغير حـد ، بحكم مفاهيم الفلسفة الاسلاميـة ، التي لا تسلم بالصواب المطلق لأي انسان ، ولا تعترف بالعصمة لأي حاكم أو مسؤول أو فرد غير الانبيـاء . لا شك ان

لهذا التكوين الفكري اثره في المواقف المتحررة المدهشة — حتى بمقاييس اليوم — التي يسجلها التاريخ لشيوخ الأزهر .. وأيضاً كان للتركيب الاجتماعي في مصر ، والمكانة التي احتلها الأزهر ، بمرور السنين ، كمركز قيادة الأمة والمعبر عن ارادتها ، والقادر وحده على تحريكها . هذه الحقيقة التي ستنفجر في عصر الحملة الفرنسية ، والتي ستتنبه لها القوى التي مثلتها الحملة الفرنسية أو التي زرعتها اوروبا في مصر ، بحيث يصبح شغلها الشاغل ، هو تنفيذ مخطط دوؤب ، شديد الصبر ، شديد الفعالية ، لتحطيم مكانة الأزهر ..

هذه المكانة كان معترفاً بها في عهد المماليك ، ولم يكن المملوك يتجرأ على المشايخ الا بجرأة المشايخ على الدين وتكالبهم على الدنيا الى حد الاستهتار الفاضح بتعاليم الدين ، وارتكاب السلوك المعيب في حدود فهم المملوك .

وحتى اذا وقع ذلك من بعض المنتسبين الى المتعممين ، وحاول مملوك ان يستغله فتعدى الحدود ، وتطاول أو « تجارى » .. فانه يجابه بمقاومة صلبة من كبار المشايخ وموقف عنيف يصل الى سب الأمير وابطال قراراته بالقوة .

فالمملوك « يوسف بيك الكبير » كان به لوثة ، وكان يحقد على المشايخ ، أو « طائفة الفقهاء والمتعممين » كما يسميهم الجبرتي . وكان لديه سبب وجيه جداً لنقمته هذه ، وهو سبب كاف لاثارة أي عسكري في أي عصر وأي بلد ، بل لاثارة أي رجل حتى ولو كان من انصار «الثورة الجنسيه» المعاصرة! ذلك ان احد « المتعممين » قد وقع بامضائه في آخر مكان يتوقع الرجل ان يرى آثار غيره هناك .. فضلاً عن التوقيع والكتابة !

والحكاية كما يرويها الجبرتي : « ان الأمير المذكور أختلى بحظيته فرأى على سوأتها كتابة (!!) فسألها عن ذلك وتهددها بالقتل فأخبرته ان المرأة الفلانية ذهبت بها الى هذا الشيخ (*) . وهو الذي كتب لها ذلك ليحببها الى

(*) الشيخ « احمد صادومه » « وكان رجلاً مسناذاً شيبة وهيبة وله شهرة عظيمة وباع طويل في الروحانيات » .

سيدها فنزل في الحـال (اي في عنفوان الغضب) وأرسل فقبض على الشيخ « صادومة » المذكور وأمر بقتله والقائه في البحر. ففعلوا به ذلك . وأرسل الى داره فاحتاط بما فيها . فأخرجوا منها أشياء كثيرة وتماثيل منها تمثال من قطيفة على هيئة الذكر.. فأحضروا تلك الأشياء . فصار يريها للجالسين عنده والمترددين عليه من الامراء وغيرهم . ووضع ذلك التمثال بجانبه على الوسادة. فيأخذه بيده ويشير لمن يجلس معه ويتعجبون ويضحكون ويقول انظر أفاعيل المشايخ. واتفق أيضاً ان الشيخ عبد الباقي طلق على زوج بنت أخيه في غيابه على يد الشيخ حسن الجداوي المالكي على قاعدة مذهبـه وزوجها من آخر . وحضر زوجها (الأول) من الفيوم وذهب الى ذلك الأمير وشكا له الشيخ عبد الباقي . فطلبه ووجده غائباً في منية عفيف . فأرسل اليه اعواناً أهانوه وقبضوا عليه ووضعوا الحديد في رقبته ورجليه وأحضروه في صورة منكرة وحبسه في حاصل ارباب الجرائم من الفلاحين » .

رغم كل مبررات الأمير في الشك بالمشايخ ، ورغم شكوى زوج المرأة ، ورغم وجود مصلحة شخصية للشيخ ، مما يريب فتواه، اذ ان الزوجة المطلقة هي بنت أخيه . الا ان الأمير تجاوز اختصاصاته اذ تدخل في الفقه،وشؤون المشايخ .. اختل الناموس : « فركب الشيخ علي الصعيدي والعدوي والشيخ الجداوي وجماعة كثيرة من المتعممين وذهبوا اليـه وخاطبه الشيخ الصعيدي وقال له ما هذه الأفعال وهذا التجاري فقال له افعالكم يا مشايخ اقبح . فقال له هذا قول في مذهب المالكية معمول بـه فقال من يقول ان المرأة تطلق زوجها اذا غاب عنها وعندها ما تنفقه وما تصرفه (*) ووكيله يعطيها مـا تطلبه، ثم يأتي من غيبته فيجدها مع غيره (؟) .. فقالوا له نحن أعلم بالاحكام

(*) واضح خطورة فتـوى الشيخ ، على امراء الحروب الذين أخترع اقرانهم في اوروبا حزام العفة كحل لمشكلة غيابهم الدائم في الحروب في مجتمع لا طلاق فيه . فماذا يحدث لو ان كل امير فر الى الصعيد أو الى غزة .. طلق الشيخ زوجته وزوجها بآخر !

الشرعية . فقال لو رأيت الشيخ الذي فسخ النكاح . فقال الشيخ الجداوي انا الذي فسخت النكاح على قاعدة مذهبي . فقام على اقدامه وصرخ وقال والله أكسر رأسك . فصرخ عليه الشيخ الصعيدي وسبه وقال له لعنك الله ولعن اليسرجي الذي جاء بك. ومن باعك ومن اشتراك ومن جعلك أميراً. فتوسط بينهم الحاضرون من الامراء يسكنون حدته وحدتهم . وأحضروا الشيخ عبد الباقي من الحبس فأخذوه وخرجوا وهم يسبونه (أي الامير) وهو يسمعهم »[٣٩] .

اظن انها صورة لا تحتاج لتعليق لتوضيح المكانة التي كان يتمتع بها الشيوخ ، وهي بعيدة كل البعد عن تصور قارىء اليوم لكتابات الغربيين وتلاميذهم عن مجتمع مسحوق تحت استبداد المماليك !

الحق ان مكانة الأزهر لم يُتطاول عليها ، ولم تمتهن الا على يد نابليون وجيش الاحتلال الفرنسي ، الى أن انجز المهمة ، الحكم المتغرب الذي بدأه محمد علي وأكمله من جاءوا بعده ..

ولكن الأمير المجنون ، المطعون في شرفه من « المتعممين » والذي يعترض على فتوى خطيرة تبيح تطليق جميع نساء الامراء . ولا يكاد يوجد مملوك مشهور لم يفر الى الصعيد أو يختفي لفترة قد تمتد عدة سنين . وهو يتدخل بناء على شكوى مواطن عاد من غيبة فوجد زوجته زوجة لآخر !

حتى هذا الأمير يتوجه اليه المشايخ في عقر داره فيسبونه على مسمع من الامراء المماليك ، ويعيرونه بوضاعة أصله كعبد ، ويلعنون من اشتراه ومن باعه ، وكله كلام يمس بقية الامراء الحاضرين بشكل مباشر . فيتوسط هؤلاء الامراء لتهدئة حدة المشايخ ، ويفرج فوراً عن الشيخ السجين ، بل ويؤتى به الى مجلس الأمير نكاية به ، ويأخذ المشايخ سجينهم الطليق ، وينصرفون ، لا شاكرين ولا هاتفين بحياة العدل ، بل ينصرفون وهم « يسبون » الأمير « وهو يسمعهم » !

وعندما لجأ « حسن بيك الجداوي » اثناء مطاردتـه الدموية ، الى بيت الشيخ « احمد الدمنهوري » « فركب جماعـة كثيرة من المحمدية (امراء محمد بيك ابي الذهب) وذهبوا الى بولاق وطلبوه فامتنع عن اجابتهم فلم يجسروا على اخـــذه قهراً من بيت الشيخ » وكان الشيخ « علي الصعدي » يمنع شرب الدخان في حضرته . وبحضرة أهل العلم عموماً « تعظيماً لهم . واذا دخل الى منزل من منازل الامراء ورأى من يشرب الدخان شنع عليه وكسر آلته ولو كانت في يد كبير الامراء . وشاع عنه ذلك وعرف في جميع الخاص والعام وتركوه بحضرته فكانوا عندما يرونه مقبلاً من بعيد نبه بعضهم بعضاً ورفعوا شبكاتهم وأقصابهم وأخفوها عنه وان رأى شيئاً منها انكر عليهم ووبخهم وعنفهم وزجرهم حتى ان علي بيك (*) في ايام امارته كان اذا دخل عليه في حاجه أو شفاعة . أخبروه قبل وصوله الى مجلسه فيرفع الشبك من يـــده ويخفوه من وجهه وذلك مع عتوه وتجبره وتكبره . واتفق انه دخل عليه في بعض الأوقات فتلقاه على عادتـــه وقبل يده (**) وجلس فسكت الأمير مفكراً في أمر من الأمور فظن الشيخ اعراضه عنه . فأخذته الحدة . وقال مخاطباً له باللغة الصعيدية يا مين يا مين يا من هو غضبك ورضاك على حد سواء بل غضبك خير من رضاك. وكرر ذلك وقام قائماً وهو (أي الأمير) يأخذ بخاطره ويقول أنا لم أغضب من شيء ويستعطفه فلم يجبه ولم يجلس ثانياً وخرج ذاهباً ثم سأل علي بيك عن القضية التي أتى بسببها فأخبروه . فأمر بقضائها واستمر الشيخ منقطعاً عن الدخول اليه مدة »[٤٠] . حتى توسط والد الجبرتي.

وعندما اختلف المغاربة ، وحكمت المحكمة لصالح الشيخ « عباس » ضد الخصم الملتجىء الى الامير يوسف ، حنق الامير ونسبهم الى ارتكاب الباطل « وأرسل من طرفـه من يقبض على الشيخ عباس المذكور من بين المجاورين .

(*) علي بيك الكبير اعظم مماليك هذه المرحلة .

(**) سلطان مصر والشام والحجاز هو الذي يقبل يد الشيخ الصعيدي .

فطردوا (المجاورون) المعينين وشتموهم وأخبروا الشيخ أحمد الدردير فكتب مراسلة الى يوسف بيك تتضمن عدم تعرضه لأهل العلم ومعاندة الحكم الشرعي وأرسلها صحبة الشيخ عبد الرحمن الفرنوي وآخر فعندما وصلوا اليه وأعطوه التذكرة . نهرهم وأمر بالقبض عليهم وسجنهم بالحبس . ووصل الخبر الى الشيخ الدردير وأهل الجامع . فاجتمعوا في صبحها وأبطلوا الدروس والأذان والصلوات . وقفلوا ابواب الجامع . وجلس المشايخ بالقبلة القديمة وطلع الصغار على المنابر يكثرون الصياح والدعاء على الأمراء وأغلق أهل الاسواق القريبة الحوانيت . وبلغ الامراء ذلك فأرسلوا الى يوسف بيك . فأطلق المسجونين . وأرسل ابراهيم بيك من طرفه ابراهيم اغا بيت المال فلم يأخذ جواباً . وحضر الآغا الى الغورية ونزل هناك ونادى بالأمان وأمر بفتح الحوانيت فبلغ مجاوري المغاربة ذلك . فذهب اليه طائفة منهم وتبعهم بعض العوام وبأيديهم العصي والمساوق ، وضربوا أتباع الآغا ورجموه بالاحجار فركب عليهم وأشهر فيهم السلاح هو ومماليكه فقتل من مجاوري المغاربة ثلاثة انفار وانجرح منهم كذلك ومن العامة . وذهب الاغا ورجع الفريق الآخر . وبقي الهرج الى ثاني يوم فحضر اسمعيل بيك والشيخ السادات وعلي اغا كتخدا الجاويشية وحسن اغا اغات المتفرقة والترجمان وحسن افندي كاتب حواله وغيرهم فنزلوا الاشرفية وأرسلوا الى أهل الجامع تذكرة بانفضاض الجمع وتمام المطلوب . وكان ذلك عند الغروب فلم يرضوا بمجرد الوعد وطلبوا الجامكية والجراية فركبوا ورجعوا وأصبح يوم الأربعاء والحال على ما هو عليه واسمعيل بيك مظهر الاهتمام لنصرة أهل الأزهر فحضر مع الشيخ السادات . وجلسوا بالجامع المؤيدي . وأرسلوا للمشايخ تذكرة صحبة الشيخ ابراهيم السندوبي ملخصها ان اسمعيل بيك تكفل بقضاء اشغال المشايخ وقضاء حوائجهم وقبول فتواهم وصرف جماكيهم وجراياتهم . وذلك بضمان الشيخ السادات له . فلما حضر الشيخ ابراهيم بالتذكرة وقرأها الشيخ عبد الرحمن العريشي جهاراً وهو قائم على اقدامه . فلما سمعوها أكثروا من الهرج واللغط

وقالوا هذا كلام لا أصل له . وترددت الارساليات والذهاب والمجيء بطول النهار ثم اصطلحوا وفتحوا الجامع في آخر النهار وأرسلوا لهم في يوم الخميس جانباً من دراهم الجامكية . ومن جملة ما اشترطوه في الصلح عدم مرور الأغا والوالي والمحتسب من حارة الأزهر وغير ذلك شروط(*) ... » الخ (٤١)

وبالطبع عاد العسكر فنقضوا ما اتفقوا عليه .. ولكن تأزم الوضع والمفاوضات وقدرة المشايخ على منع مرور الوالي والاغا والمحتسب من حارة الأزهر مدة أربعة أيام تكفي للدلالة على قدرة المشايخ على المقاومة . وقدرتهم على وضع حد لطغيان العسكر ، واحترام العسكر للشيوخ وخوفهم من قدرتهم على تحريك العامة ..

كل هذه الحقائق واضحة من تفاصيل الحادث وتكشف حقيقة المكانة التي كانت للشيوخ في مجتمع يسير في طريق الزوال واختلال كل العلاقات والقيم .

ولما اشتط امير الحاج في فرض الضرائب اثناء مولد سيدي احمد البدوي في طنطا. « ركب الشيخ الدردير(**) بغلته وتوجه الى خيمة كتخدا الكاشف واستدعاه اليه « فحضر اليه والشيخ راكب على بغلته فكلمه ووبخه وقال له انتم ما تخافوا من الله . ففي اثناء كلام الشيخ لكتخدا الكاشف هجم على الكتخدا رجل من عامة الناس وضربه بنبوت فلما عاين خدمه ضرب سيدهم هجموا على العامة بنبابيتهم وعصيهم » « وهاجت الناس على بعضهم ووقع النهب في الخيم وفي البلد » (٤٢) .

« ومولاي عبد الله صاحب المغرب » يستنكر ان يسكت شيوخ مصر

(*) سنة ١١٩١ هـ (١٧٧٧) .

(**) الشيخ الدردير له مقام ويزار في حي الأزهر كأحد الأولياء الى الآن.وهذه هي طريقة المصريين في تحويل من يقود صراعهم ومن يدافع ويتبنى قضاياهم الى ولي بعد وفاته وتخليده .. والعكس صحيح !

على تجاوزات الامراء : « فكيف بعلماء مصر ومن بها من اعيانها لا يقومون بتغيير هذا المنكر الفادح بشيوخها وشبانها » (٤٣) .

وبالطبع كانت مكانة الأزهر تنسحب على شيوخه جميعاً بصرف النظر عن جنسيتهم — بالفاظ عصرنا — فالأزمة التي اشرنا اليها حول حادثة الشيخ « عباس » ، كانت بسبب الاعتداء على الازهريين المغاربة .

ولما اهين الشيخ الشريف السيد « قاسم بن محمد » التونسي من طرف بعض الأمراء : « أغربت له العلمـــاء وكادت ان تكون فتنة عظيمـة (*) ولكن الله سلم » (٤٤) .

واذا تدخل الامراء في تعيين شيخ الأزهر ابطل المشايخ تدبيرهم وثاروا عليهم . فلما تدخل ابراهيم بيك (احد الشقيين مراد وابراهيم) . وعين الشيخ عبد الرحمن بن عمر العريشي الحنفي « انتدب لنقض ذلك بعض الشافعية الخاملين (!) وذهبوا الى الشيخ محمد الجوهري وساعـــدهم وركب معهم الى بيت الشيخ البكري وجمعوا عليهم جملة من أكابر الشافعية وكتبوا عرضحال الى الامراء مضمونه ان مشيخة الأزهر من مناصب الشافعية وليس للحنفية فيها قديم عهد أبداً » .

« وانهم اتفقوا على ان يكون المتعين لذلك الشيخ أحمد العروسي وختم الحاضرون على ذلك العرضحال وأرسلوه الى ابراهيم بيك ومراد بيك فتوقفوا وأبوا . وقـال ابراهيم بيك أي شيء هذا الكلام . أمر فعله الكبار يبطله الصغار ولأي شيء ان الحنفية لا يتقدمون في المشيخة على الشافعية(؟) الحنفية ليسوا مسلمين (؟!) ومذهب النعمان أقدم المذاهب والامراء حنفية . والقاضي حنفي والوزير حنفي والسلطان حنفي . وثارت فيهم العصبية وشددوا في عدم النقض » .

(*) سنة ١١٩٣ هـ (١٧٧٩ م) .

شرعاً وفقهاً ، الحق مع الأمراء . . ومن زاوية السيادة لديهم كل الحق . اذ لا يعقل ان تحرم مشيخة الأزهر على المذهب الذي ينتمون اليه وينتمي اليه السلطان نفسه !

لكن القضية هنا ، ليست قضية فقهية .. انها قضية احترام الناموس الاجتماعي ، والتزام الجميع بتوزيع الاختصاصات الذي استقر عليه توازن القوى في مصر .

«ورجع الجواب للمشايخ بذلك فقاموا على ساق وشدد الشيخ محمد الجوهري (الذي لم يقابل حاكماً في حياته.. الا نابليون ليرجوه اجلاء الخيل عن الأزهر) في ذلك وركبوا بأجمعهم وخرجوا الى القرافة وجلسوا بجامع الامام الشافعي وباتوا به وكان ذلك ليلة الجمعة واجتمع الناس للزيارة فهرعت الناس واجتمع الكثير من العامة ينظرون فيما يؤل اليه هذا الأمر.وكان للامراء اعتقاد وميل للشيخ محمد بن الجوهري . وكذلك نساؤهم واغواتهم بسبب تعففه عنهم وعدم دخول بيوتهم ورد صلاتهم (عطاياهم) وتميزه بذلك عن جميع المتعممين فسعى اكثرهم في انفاذ غرضه وراجعوا مراد بيك وأوهموه حصول العطب له ولهم أو ثوران فتنة في البلد . وحضر اليهم علي أغا كتخدا الجاويشية وحاججهم وحاججوه ثم قام وتوجه وحضر مراد بيك أيضاً للزيارة فكلمه الشيخ محمد وقال لا بد من فروة تلبسها للشيخ العروسي وهو يكون شيخاً على الشافعية وذلك شيخاً على الحنفية كما ان الشيخ أحمد الدردير شيخ المالكية والبلد بلد الامام الشافعي وقد جئنا اليه . وهو يأمرك بذلك . وان خالفت يخشى عليك . فما وسعه الا انه أحضر فروة وألبسها للشيخ العروسي عند باب المقصورة. وركب مراد بيك متوجهاً.وركب المشايخ وبينهم الشيخ العروسي وذهبوا الى ابراهيم بيك ولم يكن الامراء رأوا الشيخ العروسي ولا عرفوه قبل ذلك فجلسوا مقدار مسافة شرب القهوة »[٤٥] . ولم تكن الا جولة ، وتابع المشايخ زحفهم فخلع العريشي وتثبت العروسي في المشيخة بل وتدهور حال العريشي الى ان مات قهراً !!

وكما لم يفد « العريشي » من كون السلطان والامراء والوزير والقاضي على المذهب الحنفي ، وانه هو مرشحهم المختار .. بل صرعه الناموس المصري ، كذلك فإن التعلل بأن هذه أوامر السلطان لم يكن ليمنع الشيوخ من الاحتجاج والاعتراض .

ففي سنة ١١٤٨ هـ (١٧٣٥) أصدر السلطان مراسيم وأوامر منها : « ابطال مرتبات اولاد وعيال . ومنها ابطال التوجيهات . وان المال يقبض الى الديوان ويصرف من الديوان . وان الدفاتر تبقى بالديوان ولا تنزل بها الافندية الى بيوتهم . فلما قرىء ذلك . قال القاضي (التركي) أمر السلطان لا يخالف ويجب اطاعته » .

فماذا كان موقف الشيوخ في مواجهة هذا التهديد ؟!

« فقال الشيخ سليمان المنصوري . يا شيخ الاسلام هذه المرتبات فعل نائب السلطان وفعل النائب كفعل السلطان . وهذا شيء جرت به العادة في مدة الملوك المتقدمين وتداولته الناس وصار يباع ويشرى ورتبوه على خيرات ومساجد وأسبله ولا يجوز إبطال ذلك . واذا بطل بطلت الخيرات وتعطلت الشعائر المرصد لها ذلك . فلا يجوز لأحد يؤمن بالله ورسوله ان يبطل ذلك. **وان أمر ولي الأمر بابطاله لا يسلم له ويخالف أمره . لان ذلك مخالف للشرع . ولايسلم للامام في فعل ما يخالف الشرع ولا لنائبه أيضاً ....** فسكت القاضي . فقال الباشا هذا يحتاج الى المراجعة » [٤٦] .

هذه السطور الأخيرة من المرافعة الدستورية للشيخ المنصوري ، أليست كافية وحدها لكشف زيف كل ما يكتب عن الدور التحضيري الذي لعبته الحملة الفرنسية او الاستعمار الغربي ، أو أوروبا . في المفاهيم السياسية بالعالم الاسلامي ؟!

هل هناك حكم بعدم دستورية مرسوم سلطاني أوضح وأجرأ وأكثر دقة

من هذا الحكم الذي أصدره الشيخ المنصوري . فأسكت القاضي ، بل والزم الباشا ان يقول ان الامر يحتاج لمراجعة !

هذا المبدأ الخطير الذي يعلنه الشيخ «المنصوري» ببساطة في مواجهة نائب السلطان ، والذي يسقط الشرعية عن أي مرسوم سلطاني يخالف الشريعة ، أي يخالف الدستور .. الشرع .. يعلنه الشيخ الأزهري في سنة ١١٤٨ هـ . (١٧٣٥) ، أي قبل سقوط الباستيل بأكثر من نصف قرن ! قبل أن يفكر أي عقل غربي في القارة الأوروبية بجواز معارضة الملوك فضلاً عن ان يجرؤ على اعلان ذلك في مواجهة السلطة وبمثل هذا الوضوح والتحدي .

إن آخر ما يمكن ان تعلمه اوروبا للشرق الاسلامي ، هو فكرة بشرية الحاكم ومن ثم افتراض الخطأ او الصواب في احكامه . الأمر الذي ينبني عليه حق الاعتراض والنقد وبطلان الاحكام الخاطئة .

وهناك الحادثة المشهورة التي كان بطلها الشيخ « الشرقاوي » . عندما جاء الفلاحون من الشرقية يشكون ظلم اتباع محمد بيك الالفي ، وطلبهم من الفلاحين ما لا قدرة لهم عليه . « واستغاثوا بالشيخ فاغتاظ وحضر الى الأزهر وجمع المشايخ وقفلوا ابواب الجامع وذلك بعد ما خاطب مراد بيك وابراهيم بيك فلم يبديا شيئاً . ففعل ذلك في ثاني يوم وقفلوا الجامع وأمروا الناس بغلق الاسواق والحوانيت . ثم ركبوا في ثاني يوم واجتمع عليهم خلق كثير من العامة وتبعوهم وذهبوا الى بيت الشيخ السادات وازدحم الناس على بيت الشيخ من جهة باب البركة بحيث يراهم ابراهيم بيك . وقد بلغه اجتماعهم فبعث من قبله ايوب بيك الدفتردار فحضر اليهم وسلم عليهم ووقف بين يديهم وسألهم عن مرادهم . فقالوا نريد العدل ورفع الظلم والجور واقامة الشرع وابطال الحوادث والمكوسات التي ابتدعتموها وأحدثتموها » .

وكان المملوك رائعاً (*) في صراحته ووضوحه فقال: «لا يمكن الاجابة على هذا كله فاننا ان فعلنا ذلك ضاقت علينا المعايش والنفقات . فقيل له هذا ليس بعذر عند الله ولا عند النـــاس وما الباعث على الاكثار من النفقات وشراء المماليك والأمير يكون أميراً بالاعطاء لا بالأخذ (مغالطة !) فقال حتى أبلغ . وانصرف . ولم يعد لهم بجواب . وانفض المجلس وركب المشايخ الى الجامع الأزهر . واجتمع أهل الأطراف من العامة والرعية وباتوا بالمسجد وارسل ابراهيم بيك الى المشايخ يعضدهم ويقول لهم انا معكم . وهذه الأمور على غير خاطري ومرادي . وارسل الى مراد بيك يخيفه عاقبة ذلك . فبعث مراد بيك يقول أجيبكم الى جميع ما ذكرتموه إلا شيئين ديوان بولاق وطلبكم المنكسر من الجامكية . ونبطل ما عدا ذلك من الحوادث والظلم . وندفع لكم جامكية سنة تاريخه أثلاثا ثم طلب أربعة من المشايخ عينهم باسمائهم . فذهبوا اليه بالجيزة . فلاطفهم والتمس منهم السعي في الصلح على ما ذكر . ورجعوا من عنده وباتوا على ذلك تلك الليلة . وفي اليوم الثالث حضر الباشا الى منزل ابراهيم بيك واجتمع الأمراء هناك وأرسلوا الى المشايخ فحضر الشيخ السادات والسيد النقيب والشيخ الشرقاوي والشيخ البكري والشيخ الأمير . وكان المرسل اليهم رضوان كتخدا ابراهيم بيك . فذهبوا معه ومنعوا العامة من السعي خلفهم ودار الكلام بينهم وطال الحديث . وانحط الأمر على انهم تابوا ورجعوا والتزموا بما شرطه العلماء عليهم وانعقد الصلح على ان يدفعوا سبعمائة وخمسين كيساً موزعة (المماليك يدفعون) وأن يرسلوا غلال الحرمين ويصرفوا غلال الشون وأموال الرزق ويبطلوا رفع المظالم المحدثة والكشوفيات والتفاريد والمكوس ما عدا ديوان بولاق . وأن يكفوا اتباعهم عن امتداد ايديهم الى أموال الناس . ويرسلوا صرة الحرمين والعوائد المقررة من قديم

(*) وهو الوحيد الذى فاز بالشهادة – كما يشهد له الجبرتي – في الدفاع عن مصر أمام الغزو النابليوني .

الزمان ويسيروا في الناس سيرة حسنة . وكان القاضي حاضراً بالمجلس فكتب حجة عليهم بذلك وفرمن عليها الباشا وختم عليها ابراهيم بيك وأرسلها الى مراد بيك فختم عليها أيضاً وانجلت الفتنة ورجع المشايخ وحول كل واحد منهم وأمامه وخلفه جملة عظيمة من العامة وهم ينادون حسب ما رسم سادتنا العلماء بأن جميع المظالم والحوادث والمكوس بطالة من مملكة الديار المصرية وفرح الناس وظنوا صحته وفتحوا الأسواق وسكن الحال على ذلك نحو شهر (*) ثم عاد كل ما كان مما ذكر وزيادة (٤٧) » .

غير ان تعليق الجبرتي ، ومزاجه النكد ، يجب ألا يفسدا علينا نحن ابناء القرن العشرين مغزى الحادثة . فليس المهم ان الاتفاقية نقضت ، فتاريخ الأمم يكاد ينحصر في اخلال الحكومات بالاتفاقيات أو الدساتير التي تجبر على اصدارها تحت الضغط .

ولكن المهم هو ان مجرد اقرار الاتفاقية ، وصدورها باسم العلماء : « على حسب ما رسم سادتنا العلماء » . والوصول اليها عبر ضغط وتحرك العامة ، وبعد مفاوضات ، كل ذلك يدل على أن الشيوخ والعامة لم يكونوا مجرد قوة رمزية ، بل كانوا يستطيعون دائماً تحويل كل مظهر سخط الى اضراب عام يتطور الى مواجهة شاملة تطالب باصلاحات أوسع من حدود المشكلة المباشرة التي أثارت الحادث . وانهم كانوا يستطيعون مواجهة الأمراء وفرض مطالبهم واجبارهم على التراجع والتسليم ولو بنية الغدر . « فالكواكبي » بعد مائة سنة سيعلمنا ان « ملكة بريطانيا لو استطاعت أن تستبد ولو ساعة من عمرها لما ترددت (٤٨) » . فنية الغدر والتطلع الى الاستبداد والتهرب من التشريعات واصدار القوانين بنية نقضها صفة طبيعية في الحاكمين . ولكن أهمية هذه الحادثة التي وقعت عشية الحملة الفرنسية أهميتها في أن ابطالها هم ذات المشايخ

(*) سنة ١٢٠٩ هـ (١٧٩٤) .

الذين سنراهم في مقدمة المجتمع في ظل الاحتـــلال الفرنسي ثم في بداية عصر « محمد علي ». ومن هنا فأي تهتك فكري ، أن يأتي كاتب يدعي أنه مؤرخ، فيزعم ان هؤلاء المشايخ لم يشتركوا في قضايا المجتمع،ولم ينالوا مكانة إلا بفضل الديوان الذي اخترعه نابليون !

هؤلاء المشايخ الذي تركهم « كليبر » يبولون على أنفسهم ! بسبب فداحة الضريبة التي فرضها عليهم ، واكتفى بأن أعلنهم بها ، ثم انصرف ، وتركهم في حالة يرثى لها ، لا يملكون حتى حق التبول ! هم أنفسهم الذين يثورون قبل بضع سنوات من حملة نابليون بسبب ظلم وقع على بعض الفلاحين في مديرية الشرقية ، فيجبرون الأمراء على التفاوض معهم ، والنزول على ارادتهم وإلغاء جميع التشريعات الضرائبية ، بل وتمتد مطالبهم لتشمل السياسة الخارجية (ما دمنا نلعب بالكلمات !) فيقررون ميزانية الدعم للحرمين . ويستصدرون بذلك وثيقة يوقع عليهـــا القاضي والأمراء ، ويخرجون الى الطرقـــات يعلنون باسم « السادة العلماء » صدور الدستور أو اللائحة أو الاتفاقية !

هؤلاء الشيوخ كان خلفهم العامة في مصر مستقلة .. ومن ثم فقد فرضوا ارادتهم.. ولكنهم في المرة الثانية، كانوا يمثلون ثورة مهزومة، في بلد محتل..

ولا شك ان الدور القيادي الذي لعبه شيوخ الأزهر ، يعود الى العقلية الاسلامية المتفوقة دائماً على انهيار العصر . والى الفهم الاسلامي المتقدم لدور الدين ورسالته في حياة الناس .. فهم لم يكونوا أبداً رجال كهنوت منعزلين عن مجرى الحياة العامة ، ولا كانوا كما تصورهم بعض الأقلام المعاصرة غارقين في الروحانيات ، لا يعلمون شيئاً عن العلوم الوضعية وأحوال المادة شيئاً ! ولا يقبلون أن يدرسوا هذه العلوم أو أن تدرس .

إن هذه الصورة الخاطئة ، المستوحاة من ثقافة وتفكير رجال الدين في أوروبا القرون الوسطى ، لا تنطبق على شيوخ الاسلام ولا في أحلك سنوات

انهيار حضارتنا وتخلفنا . لأن الشيوخ لا ينعزلون عن الحياة العامة . ولأن هذه الصورة الهزلية التي تحدثنا عن انقسام العالم الى حضارتين : حضارة روحانيات وغيبيات ، لا تشتغل بأمر مادي ولا بعلم وضعي .. وأخرى حضارة مادية تختص وحدها بعالم المادة . هي صورة لا تتفق مع الواقع ولا تؤيدها الحقائق ، ولا تستقيم مع المنطق، فالعالم لم يشاهد هذا الانقسام قط ، وأشد الحضارات بدائية مضطرة الى معالجة المادة لكي تكفل لنفسها الاستمرار .. والفارق هو في مدى حجم التقدم .

أما السبب الخاص بحضارتنا فهو طبيعة الدين الاسلامي التي تحتم دراسة العلوم . فعلم المواريث ، أعجوبة الاسلام ، يحتم دراسة الحساب بل ويقود الى الجبر ، وكذلك الزكاة . وضبط الكيل والميزان يفتح الباب لدراسة الاثقال والحجوم والروافع وخواص المواد التي تصنع منها . ومراقبة الهلال لمعرفة أوائل الشهور ودراسة حركة الشمس والظل لتحديد مواقيت الصلاة ، والعدة وتحرير القبلة .. كلها تحتم الاهتمام بدراسة الفلك وتقسيم الزمن وتفتح الباب لدراسات عن الضوء والجغرافيا والهندسة وتقود الى اكتشاف البوصلة، أو كما قال الوزير التركي، في تأكيد أهمية العلوم الوضعية : « وعلم الوقت من العلوم الشرعية بل هو من شروط صحة العبادة كالعلم بدخول الوقت واستقبال القبلة وأوقات الصوم والأهلة [٤٩] » .

ولأن الاسلام ليس فيه اكليروس يملك ان يحلل أو أن يحرم دراسة علوم بعينها ، وأيضاً لهذه الطبيعة الخاصة بالفكر الإسلامي ، نجد أنه في أحلك عصور الانهيار كان البارزون من المشايخ يدرسون هذه العلوم ويمتلكون الآلات التي تعينهم على الدراسة .

ولا جدال ، في أن الفترة التي سبقت الغزو الفرنسي ، كانت المرحلة التي وصل فيها تخلفنا الى أبشع صوره ، ومع ذلك فتاريخ الجبرتي حافل بالمعلومات عن نوعية اهتمامات الشيوخ في هذه الفترة ، مما ينفي تماماً الصورة

الهزلية التي يقدمها مؤرخو الحملة وتلاميذهم ، عن انبهار الشيوخ بتكنولوجيا الفرنسيس من حيث كونها تكنولوجيا ، وان كانوا قد انبهروا – فعلاً – بتفوق الفرنسيس .

ان الشيخ سليمان بن طه ينصح تلميذه بتنوع المعرفة وتعدد الدراسات : « ان مثلك لا يقتصر على فن من الفنون فالاقتصار ضياع » [٥٠] .

ولنتأمل نوعية العلوم التي درسها الشيخ أحمد الدمنهوري ، ولنتعرف على اساتذته :

ولد الشيخ الدمنهوري سنة ١١٠١ هـ (١٦٨٩ م) ومات سنة ١١٩٢ هـ (١٧٧٨ م) (اي عاش قرابة قرن .. هو القرن السابق على قرن الغزو الأوروبي .)

درس الفقه على أفقه الشافعية في عصره ، عبد ربه بن احمد الديوي ، وعلى الشهاب الخليفي درس نصف المنهج وشرح الفية العراقي . وعلى ابي الصفاء الشنواني شرحي التحرير والمنهج وعلى عبد الدائم الاجهوري ابن قاسم والاجرومية .. (سنختصر في هذه العلوم وننتقل الى العلوم « المادية ») وأخذ عن الزعتري الميقات والحساب والمجيب والمقنطرات والمنحرفات وبعضاً من اللمعة . وعلى « السحيمي » منظومة الوفق المخمس ، وروضة العلوم . وعلى الشيخ سلامه الفيومي ، اشكال التأسيس والجغميتي . وعلى عبد الفتاح الدمياطي لقطة الجواهر ورسالة قسطا بن لوقا في العمل بالكرة ، ورسالة ابن المشاط في الاسطرلاب وابن المجدي » [٥١] .

واذا تتبعنا وفيات الجبرتي سنجد باستمرار شيوخاً يهتمون بدراسات الفلك والكيمياء والرياضيات :

ففي وفيات ١١٢٢ (١٧١٠) أي قبل الحملة الفرنسية بتسعين سنة يحدثنا الجبرتي عن وفاة : « الاجل الفاضل العمدة العلامة رضوان افندي الفلكي

صـاحب الزيج الرضوانى الذي حرره على طريق الدر اليتيم لابن المجدي على اصول الرصد الجديد السمرقندى . وصاحب كتاب أسنى المواهب وغير ذلك تآليف وحسابيات وتحقيقات لا يمكن ضبطها لكثرتها و كتب بخطه ما ينيف عن حمل بعير مسودات وجداول حسابيـات وغير ذلك وكان يسكن بولاق منجمعـاً عن خلطة الناس مقبلاً على شأنه . وكان في أيامـه حسن افندي الروزنامجي وله رغبة ومحبة في الفن.فالتمس منه بعض آلات و كرات فأحضر الصناع وسبك عدة كرات من النحاس الأصفر ونقش عليها الكواكب المرصودة وصورها ودوائر العروض والميول و كتب عليها اسماءها بالعربي ثم طلاهـا بالذهب وصرف عليها أموالاً كثيرة وذلك في سنة اثنتي عشرة أو ثلاث عشرة ومائة والف (قبل مائة عـام من انشاء المجمع العلمي الفرنسي في القاهرة) واشتغل عليه الجمـالي يوسف مملوك حسن افندي المذكور وكلارجيه وتفرغ لذلك حتى أنجب وتمهر وصار من المحققين في الفن واشتهر فضله في حياة شيخه وبعده وألف كتابا عظيما في المنحرفات جمع فيه ما تفرق من تحقيقات المتقدمين وأظهر مـا في مكنون دقائق الأوضاع والرسومات والاشكال من القوة الى الفعل . وهو كتاب حافل نادر الوجود . وله غير ذلك كثير . ومن تآليف رضوان افندي المترجم النتيجة الكبرى والصغرى. وهما مشهورتان متداولتان بايدي الطلبـة بآفاق الأرض . وطراز الدرر في رؤية الأهلة والعمل بالقمر وغير ذلك » (٥٢) .

في سنة ١١٥٨ (١٧٤٥) مات «الامام العمدة المتقن المتفنن الشيخ رمضان ابن صالح بن عمر السفطي الخوانكى الفلكى الحيسوبى(*)... حسب المحكمات وقواعد المقومات على أصول الرصد السمرقندي الجديد . ومن تصانيفه نزهة النفس بتقويم الشمس بالمركز والوسط فقط . والعلامـة بأقرب طريق وأسهل مأخذ وأحسن وجه مع الدقة والأمن من الخطء وحرر طريقة أخرى

(*) وهو صديق حميم لوالد الجبرتي .

على طريق الدر اليتيم يدخل اليها بفاضل الايام تحت دقـائق الخاصة ويخرج منها المقوم بغاية التدقيق لمرتبة الثوالث في صفحات كبيرة متسعة في قالب الكامل . واختصرها الشيخ الوالد في قالب النصف . ويحتاج اليها في عمـل الكسوفات والخسوفات والاعمـــال الدقيقة يوماً يوماً . ومن تآليفه كفاية الطالب لعلم الوقت وبغية الراغب في معرفة الدائر وفضله . والسمت والكلام المعروف في اعمال الكسوف والخسوف والدرجـــات الوريفة في تحرير قسي العصر الأول وعصر ابي حنيفة . وبغية الوطر في المباشرة بالقمر . ورسالة عظيمة في حركات الافلاك السيارة وهيآتها وحركاتها وتركيب جداولها عـلى التاريخ العربي على اصول الرصد الجديد . ومطالع البدور في الضرب والقسمة والجذور . وحرك ثلثمائة وستة وثلاثين كوكباً من الكواكب الثابتة المرصودة بالرصد الجديد بالاطوال والابعاد ومطالع الممر ودرجـــاته لاول سنة تسع وثلاثين ومائة والف . والقول المحكم في معرفة كسوف النير الاعظم . ورشف الزلال في معرفة استخراج قوس مكث الهلال بطريقي الحساب والجداول. وأما كتاباته وحسابياته في أصول الظلال واستخراج السموت والدساتير فشيء لا ينحصر ولا يمكن ضبطه لكثرته » (٥٣) .

وفي سنة ١١٥٣ (١٧٤٠) مات «الاستاذ النجيب الماهر المتفنن جمال الدين ابن يوسف . قرأ القرآن وجود الخط وتوجهت همتـه للعلوم الرياضية كالهيئة والهندسة والحساب والرسم فتقيد بالعلامـة الماهر رضوان افندي واخذ عنه واجتهد وتمهر وصـار له باع طويل في الحسابيات والرسميات ، وساعده على ادراك مأموله ثروة مخدومه ، فاستنبط واخترع ما لم يسبق به وألف كتاباً حافلاً في الظلال ورسم المنحرفات والبسائط والمزاول والاسطحة جمع فيه ما تفرق في غـــيره من أوضاع المتقدمين بالاشكال الرسمية والبراهين الهندسية والتزم المثال بعد المقال . والف كتاباً أيضاً في منازل القمر ومحلها وخواصها وسماها كنز الدر في احوال منازل القمر . وغير ذلك واجتمع عنده كتب

وآلات نفيسة لم تجتمع عند غيره . ومنها نسخة الزيج السمرقندي بخط العجم وغير ذلك».(٥٤)

وفي وفيات سنة ١١٩٢ (١٧٧٨) يحدثنا الجبرتي عن الوجيه المبجل عبدالسلام افندي مدرس المحمودية. كان إماماً فاضلاً محققاً له معرفة بالأصول وكان يقرأ فيها الدرر لمنلا خسرو وتفسير البيضاوي ، وكان له تعلق بالرياضيات وقرأ على المرحوم الوالد اشياء من ذلك واقتنى آلات فلكية نفيسة بيعت في تركته » (٥٥) .

وفي نفس السنة مات « الوجيه المبجل بقية السلف سيدي عامر ابن الشيخ عبدالله الشبراوي تربى في عز ودلال وسيادة ورفاهية . وكان نبيلاً نبيهاً إلا أنه لم يلتفت الى تحصيل المعارف والعلوم ومع ذلك كان يقتني الكتب النفيسة ويبذل فيها الرغائب واستكتب عدة كتب بخط المرحوم الشيخ حسن الشعراوي ومن ذلك مقامات الحريري وشرحها للزمزمي وغيرها وجلدها وذهبها ونقشوا اسمه في البصمات المطبوعة في نقش الجلود بالذهب . وعندي بعض على هذه الصورة . **ورسم باسمه الشيخ محمد النشيلي عدة آلات فلكية وأرباع وبسائط** وغير ذلك. وأعتنى بتحريرها واتقانها وأعطاه في نظير ذلك فوق مأموله » (٥٦) .

وفي ١١٩٤ (١٧٨٠) مات « الفقيه العلامة الصالح المعمر الشيخ عبد الله خزام الفيومي ، تولى الافتاء . وكانت له معرفة تامة في علم المذهب وغيره من الفنون الغريبة كالفلك والهيئة والميقات وعنده آلات لذلك » (٥٧) .

بل نستطيع أن نقف طويلاً عند فقرات أثبتها الجبرتي في ترجمة أبيه :

« درس أشكال التأسيس في الهندسة وتحرير اقليدس ، والمتوسطات والمبادى والغايات والأكر وعلم الارتماطيقى. وجغرافيا وعلم المساحة » (٥٨).

وكانت مكتبته تضم كتباً « بهــا من التشاويه والتصاوير البديعة الصنعة

الغريبة الشكل. وكذلك الآلات الفلكية من الكرات النحاس التي كان اعتنى بوضعها حسن افندي الروزنامجي بيد رضوان افندي الفلكي كما تقدم. ولما مات حسن افندي المذكور اشترى جميعها من تركته . وكذلك غيرها من الآلات الارتفاعية والميالات وحلق الأرصاد والأسطرلابات والأرباع والعدد الهندسية وأدوات غالب الصنائع » (٥٩) .

بل نقف أمام نقطة هامة جداً وردت عرضاً في ترجمة الجبرتي لوالده ، ولا ندري لماذا لم تستوقف الباحثين عن كل شاردة وواردة تثبت تخلفنا المتأصل وليس العارض !

والد الجبرتي كان أشبه الرجال بعلماء اوروبا في عصر النهضة فقد كان « فريداً في صناعة التراكيب والتقاطير واستخراج المياه والادهان » .

وهنا يخبرنا الجبرتي بالواقعة المثيرة.. وهي حضور بعض طلبة الافرنج (أي من الأوروبيين وربما من الفرنسيين بالذات) الى القاهرة حيث درسوا على الشيخ الجبرتي الكبير ، وتبادلوا معه المعلومات والآلات العلمية بل ويعتقد الجبرتي ان هذه المعلومات التي تلقوها عن والده كانت الأساس في التطبيقات او الإنجازات التكنولوجية التي تحققت في اوروبا . ولعلنا نجد في هذه الفقرة من تاريخ الجبرتي ، أول تعريف عربي ، بل — وربما أدق تعريف حتى اليوم رغم تعدد القواميس العصرية — للتكنولوجيا .. عندما يتحدث الجبرتي عن الدور الذي قام به هؤلاء الطلبة في الانتفاع بالمعلومات النظرية التي تلقوها من والده فيقول انهم اخرجوا العلم من « القوة الى الفعل » . وفي اعتقادي ان هذا هو التعريف الذي نطلبه لكلمة : « تكنولوجيا » .

وحتى اذا كان تدهورنا الحالي لا يسمح لنا بالتشبث بفرضية الجبرتي عن الدور الذي لعبته معارف والده في تطور الصناعة الأوروبية ، ولا شك أنه غالى بعض الشيء ، إلا أنه لم يذهب بعيداً في تصور المسار الذي سلكته الحضارة . فما من شك في أن اوروبا قد نقلت المعرفة النظرية المتقدمة التي

وصل اليها العقل العربي . ولكن ظروفاً عديدة أشرنا الى بعضها (*)، جعلت اوروبا هي المكان الذي طبقت فيه هذه الحقائق العلمية على الصناعة ، فكانت النهضة والصناعة الحديثة فالثورة الصناعية .

يقول الجبرتي :

« وحضر اليه طلاب من الافرنج وقرؤا عليه علم الهندسة وذلك سنة تسع وخمسين (١١٥٩ هـ ١٧٤٦ م) وأهدوا له من صنائعهم وآلاتهم اشياء نفيسة . وذهبوا الى بلادهم ونشروا بها ذلك العلم من ذلك الوقت. وأخرجوه من القوة الى الفعل . واستخرجوا بـــه من الصنائع البديعة مثل طواحين الهواء وجر الاثقال واستنباط المياه وغير ذلك » (٦٠) .

هل يمكن أن يتفق هذا الشموخ والاعتزاز من جانب الجبرتي بحضارته ، وهذا الوعي بتطور المعرفة ودور أمته في البناء الحضاري والعلمي للانسانية.. هل يتفق ذلك وهذه الصورة المزرية التي يرسمها له بعض المؤرخين كأنـــه استرالي أصلي او هندي أحمر يدخل معملاً اليكترونياً ، عندما يتحدثون عن انبهاره في المجمع العلمي الذي اقامه نابليون .

لا شك أن « الجبرتي » أعجب بالآلات الفرنسية والانجليزية ، واعجابه بالثانية كان دائماً اكبر ، ولكنه لم يقف ابداً موقف المسحوق حضارياً ، او الأبله الحائر يفتش عن سبب خفي لتقدمهم وتخلف قومه، فضلاً عن أن يرجع ذلك الى الايديولوجيات ! بالعكس.. ان تفسيره للفارق الحضاري بين الغرب والشرق أسلم وأصح من كل التفسيرات التي تشيد بدور الحمـلة الفرنسية . فهو يشير الى انهم في الغرب درسوا عـــلم الهندسة ، وطبقوه واستخرجوا منه الصناعات البديعة . ونحن لم نفعل.. فتقدموا وتخلفنا .. وإذا فعلنا نتقدم .. فلا ألغاز ولا تحاليل .

(*) راجع كتابنا : « طريق المسلمين الى الثورة الصناعية » .

ونتابع ترجمة والد الجبرتي — اصل الحضارة في اعتقاد ابنه — « وفي ايام اشتغاله بالرسم . رسم ما لا يُحصى من المنحرفات والمزاول على الرخام والبلاط الكذان ونصبها في أماكن كثيرة ومساجد شهيرة » [٦١] .

« وحتى ان الخدم تعلموا ذلك (من والده) فصاروا يقطعون البلاط بالمناشير ويمسحونه بالمماسح الحديد والمبارد . ويهندسون اعتداله بالمساطر والقياسات بالبياكر بل ويرسمونه ايضاً . وأما ما كان على الرخامات فيباشر صناعته وحفره صناع الرخام بالأزميل بعد التعليم على مواضع الرسم ومقادير ابعاد المدارات والظلال . وما عليها من الكتابة والتعاريف . ولما تمهَّر الآخذون عنه والملازمون عنده ترك الاشتغال بذلك وأحال الطلاب عليهم واشتغل هو بدراسة الفقه واقرانه » .

ومن مؤلفات والد الجبرتي ، او تراثه العلمي الذي خلفه :

« براهين هندسية شتى وما له من الرسومات المخترعة والآلات النافعة المبتدعة ومنها الآلة المربعة لمعرفة الجهات والسمت والانحرافات بأسهل مأخذ وأقرب طريق . والدائرة التاريخية . وبركار الدرجة . واتفق انه في سنة اثنتين وسبعين (١١٧٢ هـ — ١٧٥٨ م) وقع الخلل في الموازين والقبانين وجهل أمر وضعها ورسمها بعد تحديدها وريحها ومشيلها واستخراج رمامينها . وظهر فيها الخطأ واختلفت مقادير الموزونات وترتب على ذلك ضياع الحقوق وتلاف الأموال وفسد على الصناع تقليدهم الذي درجوا عليه فعند ذلك تحركت همة المترجم لتصحيح ذلك .. وأحضر الصناع لذلك من الحدادين والسباكين وحرر المثاقيل والصنج الكبار والصغار والقرسطونات ورسمها بطريق الاستخراج على اصل العلم العملي والوضع الهندسي وصرف على ذلك اموالاً من عنده . ابتغاء لوجه الله . ثم أحضر كبار القبانية والوزانين مثل الشيخ علي خليل والسيد منصور والشيخ علي حسن والشيخ حسن ربيع وغيرهم وبيَّن لهم ما هم عليه من الخطأ وعرَّفهم طريق الصواب في ذلك

وأطلعهم على سر الوضع والصنعة ومكنونها . وأحضروا العدد وأصلحوا منها ما يمكن اصلاحه وأبطلوا ما تقادم وضعه وفسدت لقمه ومراكزه وقيدوا بصناعة ذلك الأسطى مراد الحداد ومحمد بن عثمان حتى تحررت الموازين وانضبط أمرها وانصلح شأنها » .

هل يختلف تاريخ الجبرتي الوالد ، عن تاريخ اي عالم من علماء عصر النهضة في اوروبا ؟! لولا ان تاريخهم كأمم سار الى الأمام فازداد تألق الأفراد والرواد .. فما يحيي ذكرى الأسلاف إلا نجابة الأحفاد . وتاريخنا كأمة تدهور الى الحضيض فمحت ظلاماته المعاصرة حتى نجوم الفجر الذي لم يكتمل. وهل نحن إلا الخلف الذي يأتي لأهله باللعنة !

لولا ان علماء اوروبا وجدوا نظاماً ومؤسسات اجتماعية شجعتهم واحتضنت أبحاثهم . ووالد الجبرتي ، وأمثاله ، بددت اعمالهم على يد سلطة سفيهة منهارة ، أبدع ابنه المؤرخ ، في عرض جريمتها عندما تحدث عن مصير المزولة التي وضعها بأعلى القصر فقال :

« واخرى عظيمة بسطح الجامع بقي منها قطعة وكسّر باقيها فراشو الامراء الذين كانوا ينزلون الى هناك للنزاهة (النزهة والتمتع) ليمسحوا بها صواني الأطعمة الصفر » .

ولولا اننا رزئنا بالاحتلال الغربي ، وممثله « الوطني » « محمد علي » ، الذي عزل العلم عن الأزهر ، لا حرصاً على التقدم العلمي ، بل لتأكيد تخلفنا النهائي في السباق الحضاري . إذ أنه — كما سنرى — كان يستحيل تحقيق نهضة حقيقية بمعزل عن الأزهر .. ولذلك كان قرار انشاء المدارس الحديثة موجهاً ضد الأزهر . وأهم من ذلك ضد كل المحاولات الجادة لتحقيق النهضة . وسنتناول ذلك بالتفصيل في موضعه بإذن الله .

بل كان الجبرتي في صباه يسهر الليالي مع زملائه (سيدي محمد وهو الاكبر

وسيدي ابو بكر اولاد الشيخ ابو عبد الله محمـد بن الطالب بن سوده المري الفاسي التاودي المولود بفاس سنة (١١٢٨ هـ - ١٧١٥ م) :

« نرعى المطالع والمغارب وممرات الكواكب بالسطح حذاء خيط المساترة . ونراجع الشيخ فيما يشكل علينا فهمه . وهو معنا في ناحية اخرى . وأوقفت سيدى ابا بكر على طريق رسم ربع الدائرة المقنطر والمجيب » .

حتى بين المماليك يحدثنا الجبرتي عن الذي « أنجب وحسب ورسم واشتغل فكره بذلك ليلاً ونهاراً ورسم الأرباع الصحيحة المتقنة الكبيرة والصغيرة والمزاول والمنحرفات وغير ذلك من الآلات المبتكرة والرسميات الدقيقة »(٦٢) .

ولنتأمل هذه اللمحة من روح او بقايا « عطر هذه الحضارة التي كان قـد فرغ الوعاء منه منذ قرون » .. من تلك الوثيقة التي كتبها الشيخ « محمـد مرتضى » للترخيص بصنع السلاح .

فبعد أن أشار الى ضرورة أخذ الفن والصنعة عن اساتذتها « إذ أن صنعة بلا استاذ يدركها الفساد » . وبعـد ان يشرح مشروعية صناعة السلاح .. ويؤكد صلاحية المرخص له واتقانه لهذا الفن، يشترط عليه : « تواضع النفس وحملها على مكارم الأخلاق وأن لا يرفع نفسه على أحد وأن لا يحقر احداً من خلق الله وأن يجعل دأبه لزوم الصمت والإدمان والقناعة بالقليل مع المداومة على ذكر الله بالسكينة والوقـار وأن يسمي الله في اول مسكه في صنعته ويستمد من الله القوة والحول ولا يضجر ولا ييأس من روح الله ولا يسب نفسه ولا قوسه ولا سهامه ولا يحدث نفسه بالعجز فانه يصل الى ما وصل اليه غيره فان الرجال بالهمم ففي الحديث: المؤمن القوي أحب الى الله من المؤمن الضعيف وفي كلٍ خير . وأن يديم النظر الى معرفة العيوب العارضة للقسي والسهام وعقد الأوتار ويتعاهد لذلك . وكيفية إزالة العيب ان حدث ويعرف من أي حدث وأن لا يبيع سلاح المجاهد لكافر . ويفتش عن دين من يشتري ان كان رجلاً او صبياً ، فيحتاج ذلك الى أذن والده . فاذا علم اسلامه ووثق فيـه

فيأخذ عليه العهد أن لا يرمي به مسلماً ولا معاهداً ولا كلباً ولا شيئاً من ذات الأرواح . إلا أن يكون صيداً او ما يجب قتله . وأن لا يعلم صنعته إلا لأهله الذي يثق بدينه ، فقد روي أنـه لا يحل منع العلم عن مستحقه . ويجب اعطاؤه بحقه سيما ان كان عارفاً بقدر العلم راغباً فيه طالباً لوجه الله تعـالى لا للمباهاة والمفاخرة ويجب عليه ان يروض تلامذته ويؤلف بينهم ويحرضهم على العمل . ولا يعاقبهم إلا في خلوة وهو مع ذلك لازم الهيبة كثير السكوت متأن في الأمور غير عجول للجواب. والتقوى اصل كل شيء » (*).

(*) عن وفيات سنة ١٢٠٦ هـ ١٧٩١ م .

العـامة

أمـا عن العامـة ، فبالنسبة للفلاحين لم تتغير صورتهم كثيراً .. وان كان بؤسهم يزداد باستمرار .

ولعلنـــا نتعرف على ملامحهم في صورة مصرع « جركس بيك » حيث المعركة الطاحنة تدور بين المماليك ، والفلاحان في حقلهما يديران الشادوف ويغنيان في هدوء وعزلة مطلقة .. يزرعان القمح الذي سينهبه الأمير المنتصر، والكتان الذي سيكفن به الامير المنهزم .

فلما انهزم « جركس » وعثر جواده في الترعة وغرق .. استخرجا جثته وجرداه من كل ما له قيمة ،وقاما بدفن ما سلباه في الارض. ثم حملا الجثة وسارا الى البيك المنتصر فقبلا يده . وقالا : « هــذا من المهزومين فلعله مطلوبك يا بيك ! »

وبلا كلمة واحدة ولا سؤال..أُخذ أحدهما ووضع في الحديد واطلق الآخر ليخرج المخبآت ! ولو كانا مملوكين لمـا استخدم معهما هذا الأسلوب أبداً لأن الثاني كان سيبادر فوراً بالافلات مغتبطاً بمضاعفة نصيبـــه بمصرع شريكه . ولكن الفلاح المصري لا يفعلها ولا يستطيعان يواجه القرية أو الكفر بعارها.

فسرعان ما ذهب وعاد بالكنز .

هذه هي العلاقة التي قامت بين المماليك والفلاحين . فالفلاح مالك حقيقي لانتاج حقله . والمملوك مهمته بل حياته تتوقف على نجاحه في نهب اكبر قدر ممكن من هذا الانتاج..تحت شتى الاسماء القانونية أو بالنهب الصريح.. والفلاح يخفي انتاجه وثروته ، في اعماق الارض أو الزيلع المدفونة في الجدران «يليس عليها بالطين » . ولا سبيل لاخراجها الا بوضعه في « الترسيم » . أي القيد والضرب.وكما قيل كان الجميع يدفعون ويخرجون المخبآت ولكن بعد الضرب. وكانوا يتباهون من الذي « أقر » بمكان المال بعد ضرب اكثر (والمفروض أن تكون الشطارة . ما دام الجميع سيعترفون . المفروض ان تكون الشطارة في تجنب الضرب !) ولكنها وسيلة الفلاحين في الرفض . فضلاً عن ان الدفع بسهولة يغري بالمطالبة اكثر .

والفلاحون بعد ذلك يقاومون اذا ما تجاوز النهب حده الممكن المتعارف عليه،يقاومون بأنفسهم أو يستغيثون بالمشايخ . أو يهجرون الأرض ويزحفون على المدينة . وهذه في الحالات التي يختل فيها الناموس تماماً . فلما زاد عسف الصنجق « ابراهيم جربجي » تربص الفلاحون من اهالي سندبيس ومنية خلفه، حتى سقط حاميه ، فاجتمعوا « وقتلوه وحرقوه بالنار » .

وقد رأينا كيف كانت شكوى فلاحي الشرقية للشيخ الشرقاوي سبباً في الاضراب الكبير الذي انتهى بأشهر وثيقة حقوقية لهذه الفترة — عند بعض المؤرخين — .

كذلك كان انضمام الفلاحين وترحيبهم بـ « حسن باشا القبطان » سبباً في انتصاره على « مراد بيك » و « ابراهيم بيك » ..

كان الفلاح يواصل مهمته التاريخية التي لم تتغير منذ ظهور أول فرعون .. وهي مهمة اطعام كل البنيان الفوقي ، أو كل الفئات التي يتكون منها المجتمع

المصري ولا تعمل بالزراعة (*) .

ويساهم الفلاح ـ بنفس الطريقة ـ منذ فرعون الأول الى اليوم ، في تحقيق « رخاء » مصر العجيب أو رخص الاسعار المذهل . لا بتفانيه في الانتاج فحسب بل وأهم من ذلك ـ في نظري ـ امتناعه عن الاستهلاك ، فالفلاح كان ولا زال هو المنتج الاول والمستهلك الأخير (**). وهذا هو سر رخاء مصر حتى عندما تصل الاوضاع في المدينة الى أسوأ مستوى اداري ممكن، حتى حينما تبددت أموال مصر بسفاهة الحاكمين . ولا تقع المجاعة الا عندما يصل السفه الى حد التدخل في انتاج الفلاح ذاته ، أو تنهار الادارة الى حد منعه من الانتاج . وقتها حتى مصر تعرف المجاعات : « استهل المحرم ١٢٠٧ (١٧٩٢) بيوم الخميس والأمر في شدة من الغلاء ، وتتابع المظالم وخراب البلاد وشتات أهلها وانتشارهم بالمدينة حتى ملؤا الاسواق والأزقة رجالاً ونساء وأطفالاً يبكون ويصيحون ليلاً ونهاراً من الجوع ، ويموت من الناس في كل يوم جملة كثيرة من الجوع ، وكثر الصياح والعويل ليلاً ونهاراً فلا تكاد تقع الأرجل الا على خلائق مطروحين بالأزقة واذا وقع حمار أو فرس تزاحموا عليه وأكلوه نيئاً ولو كان منتناً حتى صاروا يأكلون الاطفال » (٦٥) .

وعندما يصل نظام حكم بمصر الى المجاعة فلا بد أن ينهار.. وفعلاً لم يعش النظام بعد هذه المجاعة الا ست سنوات واندثر الى الأبد ..

اما العامة في المدن ، وفي القاهرة والاسكندرية بالذات، فهم يشكلون قطاع التجار والحرفيين واولاد البلد ، والى جانبهم يعيش قطيع هائل من

(*) هذه هي المهمة الرئيسية للفلاح ، ولكن ليس صحيحاً انه كان معفياً من الخدمة العسكرية . فرسوم سنة ١١٤٨ هـ (١٧٣٥) يطلب جنوداً ويستثني مناطق : « ولا يرسلوا عسكراً من فلاحين القليوبية والجيزة والبحيرة وشرق اطفيح والمنصورة (٦٣) .

(**) ولا يخلو تاريخ الفلاحين في هذه الفترة العجيبة من نماذج شاذه فهناك الفلاح الذي اصبح استاذاً اي يملك مماليكاً واصبح مماليكه امراء (صالح الفلاح) (٦٤) .

الدراويش والمجاذيب ، تحدوا السلطة بالانجذاب ، وحلوا مشكلة الارتزاق برفض الانتماء الى المجتمع المنتج .. وانضموا لطابور آكلي انتاج الفلاح. ولو ان هؤلاء يأكلونه برضاء الفلاح وتبركه !

« ليتنا لم نعش الى ان رأينا
كل ذي جنة لدى الناس قطبا
علماً هم به يلوذون بل قد
تخذوه من دون ذي العرش ربا
هكذا المشركون تفعل مع أصـ
نامهم تبتغي بذلك قربا (*)

« مات الاستاذ بقية السلف . الشيخ مصلح الدين .. كان رجلاً مهيباً مجذوباً » (**) .

كان العامة يحيون حياتهم الخاصة ، محافظين على تقاليدهم ، يحترمون الشيوخ ويسخرون من المماليك بأسلوب المصريين من خلال اطلاق الألقاب الهزلية عليهم : « بارم ذيله » « المنفوخ » « ابو نبوت » لأن « علي بيك الكبير » ضربه بالنبوت . « صنجق سته » لأن أم عمر بيك ، تزوجت به وقلدته الصنجقية مكان سيده . وهي تسمية لا يمكن ان تنطلق من تركي أو مملوك ، حتى لو تعلم العربية لعدة اجيال، بل تسمية مصرية أصلية .. « جلب القرد » « ابو مناخير فضة » . « السبع بنات » وهي افظع تشنيعه على جنرالات أو صناجق علي بيك الكبير !

(*) من شعر الشيخ حسن البدري المتوفي سنة ١١٣١ هـ (١٧١٨)

(**) لغز حقيقي بمفاهيمنا الآن ان يكون الرجل مجذوباً مهيباً ولكن اغرب منه ان يكون « المجذوب الصاحي » .

أو باطلاق الامثال : « آخر خدمة الغزعلقة » « العبد وسيده على باب الله » .

فاذا تجاوز الاستبداد الملوكي حده .. ثار العامة وتظاهروا ونهبوا وحرقوا وقتلوا ..

فلما نهب حسين بيك بيت « احمد سالم الجزار » « حتى مصاغ النساء والفراش ورجع والناس تنظر اليه ». « ثارت جماعة من أهل الحسينية بسبب ما حصل في أمسه من حسين بيك وحضروا الى الجامع الأزهر ومعهم طبول والتف عليهم جماعة كثيرة من اوباش العامة والجعيدية وبايديهم نبابيت ومساوق . وذهبوا الى الشيخ الدردير فونسهم وساعدهم بالكلام . وقال لهم انا معكم فخرجوا من نواحي الجامع وقفلوا ابوابه وصعد منهم طائفة على أعلى المنارات يصيحون ويضربون بالطبول وانتشروا بالأسواق في حالة منكرة(*) واغلقوا الحوانيت وقال لهم الشيخ الدردير في غد نجمع أهالي الأطراف والحارات وبولاق ومصر القديمة وأركب معكم وننهب بيوتهم كما ينهبون بيوتنا ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم . فلما كان بعد المغرب حضر سليم آغا مستحفظان ومحمد كتخدا ارنؤد الجلفي كتخدا ابراهيم بيك وجلسوا في الغورية ثم ذهبوا الى الشيخ الدردير وتكلموا معه.وخافوا من تضاعف الحال . وقالوا للشيخ اكتب لنا قائمة بالمنهوبات ونأتي بها محل ما تكون . واتفقوا على ذلك وقرؤا الفاتحة . وانصرفوا وركب الشيخ في صبحها الى ابراهيم بيك وأرسل الى حسين بيك فأحضره بالمجلس وكلمه في ذلك . فقال في الجواب . كلنا نهابون انت تنهب ومراد بيك ينهب وانا انهب كذلك وانفض المجلس وبردت القضية »(٦٦) .

(*) يجب ان نلاحظ من الآن ان الجبرتي ضد تجاوز العامة للمشايخ . فهو الملتزم الاول بالناموس .

كان المماليك قد اكتشفوا واستفادوا من صفة أساسية في تحركات شعبنا ، هي الانفعالية وانعدام التنظيم الذي يتابع المقاومة .. لذلك كان اجتهادهم دائماً ، هو صرف الجماهير المنفعلة و « تبريد » القضية . فإذا ما انصرفت الجماهير ، صعب ان لم نقل استحال تحريكها مرة أخرى . لذلك كان القصاص الرادع هو ما تنزله العامة قبل أن تبرد القضية .

فلما قتل اتباع السردار(*) « قتيل من أهل البلد (الاسكندرية) ثار العامة وقبضوا على السردار وأهانوه وجرسوه على حمار وحلقوا نصف لحيته وطافوا به البلد وهو مكشوف الرأس وهم يضربونه ويصفعونه بالنعالات » (٦٧) .

كان اولاد البلد يعيشون في حارات وصفها الشيخ حسن البدري :

« حارات اولاد العرب سبعا حوت من الكرب
بولاً وغائطاً كذا ترب غبار سو أدب
وضجة وأهلها شبه عفاريت الترب

إلا ان المساتير كانوا يعيشون في بيوت نظيفة أنيقة وكان التجار منهم يمتلكون ثروات هائلة هي بقايا الثراء الذي حققه احتكار التجارة بين الشرق والغرب لعدة قرون . ثروة كانت تتجلى في القدرة على الانفاق في الافراح ، والقدرة على اشباع سعار المال لدى الحاكمين ، مماليك كانوا او محتلين أجانب — كما كان الحال مع الحملة الفرنسية — القدرة على الاستمرار بعد كل المصادرات والفرد والمكوس والميري والاكياس التي لا حصر لها والتي يدفعونها لعدة سنوات مقدماً .

وكانت لهم مكانتهم وقدرتهم على الاحتجاج والمقاومة . علاقتهم بالسلطة والقانون هي ما أعلنه السيد « باكير » من أكابر التجار في مواجهة الباشا الذي اتهم التجار بأنهم « تختلسون الكثير من المحزوم والبضاعة وتأتون بها من

(*) سنة ١١٩٩ — ١٧٨٤ .

غير جمرك ولا عشور . » فرد السيد « باكير » : « يا مولانا الوزير جرت العادة ان التجار يفعلون ذلك ويقولون ما أمكنهم وعلى الحاكم التفتيش والفحص » !

وعندما فرض اسماعيل بيك (*) ، ضرائب فادحة على التجار اجتمع جملة منهم ، وحضروا الى الجامع الأزهر وضجوا واستغاثوا من هذا النازل وحضر الشيخ العروسي فقاموا في وجهه وأرادوا قفل ابواب الجامع لمنعهم من ذلك فصاحوا عليه وسبوه وسحبوه بينهم الى جهة رواق الشوام فمنع عنه المجاورون وأدخلوه الى الرواق ودافعوا عنه الناس وقفلوا عليه باب الرواق وصحبته طائفة من المتعممين وكتبوا عرضاً الى اسمعيل بيك بسبب ذلك وأرسلوه صحبة الشيخ سليمان الفيومي وانتظروه حتى رجع اليهم ومعه تذكرة من اسمعيل بيك مضمونها الامان والعفو عن الطوائف المذكورة (وفيها) ان هذا المطلوب انما هو على سبيل القرض والسلفة من القادر على ذلك . فلما قرئت عليهم التذكرة قالوا هذه مخادعة وعندما ينفض الجمع ونفتح الدكاكين يأخذونا واحداً بعد واحد. ثم قام الشيخ وركب وحوله الجم الغفير والغوغاء وبعض المجاورين يدفع الناس عنه بالعصي والعامة يصيحون عليه ويسمعونه الكلام الغير اللائق الى ان وصل الى باب زويلة فنزل بجامع المؤيد وأرسل الى اسمعيل بيك يخبره بهذا الحال فحنق اسمعيل بيك وظن انها مفتعلة من الشيخ . وانه هو الذي أغراهم على هذه الأفعال فأجابه الرسل وحلفوا له ببراءته من ذلك وليس قصده الا الخلاص منهم . فقال أنا أرسلت اليهم بالأمان ودعوهم ينفضوا وما أحد يطالبهم بشيء فانفضوا وتفرقوا ومضى على ذلك يومان فأرسلوا الىأهل الصاغة والجواهرجية والنحاسين وطالبوهم بالمقرر والموزع عليهم فلم يجدوا بداً من الدفع ثم طالبوا وكالة الجلابة وتطرق الحال الى باقي الناس حتىبياعين الفسيخ ومجموع ذلك نحو اثنين وسبعين حرفة »[٦٨].

(*) سنة ١٢٠٢ هـ (١٧٨٧) .

وكانت هناك محكمة تملك أن تحكم للتجار على الأمراء وعلى الباشا . حتى «الباشا الحقيقي» الذي حكممصر فعلاً بحق الفتح! فعندما اختلف الباشامع تجار البن ، واشتكوا الى « حسن باشا القبطان » قـائد الحملة التركية التي أعادت فتح مصر ، نصح القبطان باشا، التجار بأن « يترافعوا الى الشرع . فاجتمعوا يوم الاحد في المحكمة وأقام الباشا من جهته وكيلاً وأرسله صحبة انفـار من الوجاقليه ، واجتمعت التجار حتى ملأوا المحكمة وطلبوا حضور العلماء فـلم يحضروا وانفض المجلس بغير تمام . ثم حضر التجار في ثاني يوم وحضر العلماء ولم يحضر وكيل الباشا . ثم أبرز التجار رقعة بختم ابراهيم بيك وتسلمه المبلغ مؤرخـــه في ثاني عشر شعبان أيام قائمقاميته ووكالته عن الباشا . وأبرزوا فتاوى ايضاً . وسئل العلماء فأجابوهم بقولهم حيث ان للباشا أرسل فرماناً لابراهيم بيك ان يكون قائمقامه ووكيلاً عنه الى حين حضوره فيكون فعل الوكيل كالأصيل وتخلص ذمة التجار وليس للباشا مطالبتهم . ومطالبته على ابراهيم بيك على أن ذلك ليس حقـاً شرعياً . وكتب القاضي اعلامـاً بذلك وأرسله الى الباشا وانفض المجلس على دماغ الباشا » .

المحاولة الاخيرة

وفي نهاية القرن الثـامن عشر دخلت تركيبة المجتمع المصري امتحانهـا الأخير .. اذ أتيحت لكل من المماليك والدولة العثمانية ، الفرصـة الأخيرة لتبرير وجودهما .. وقد فشل الفريقان ! فشل المماليك في محـاولة « علي بك الكبير » .. التي سحقت أو وئدت بيد المماليك أنفسهم . وفشل العثمانيون في محاولة « حسن باشا القبطان » . ولو أنهـا فشلت « تاريخياً » بسبب متاعب الدولة في مواجهة الغزو الروسي ... الا انها «واقعياً» كانت فاشلة منذ اليوم الأول بسبب نوعية الجند العثماني ، وعجز الطبقة الحاكمة في الدولة العثمانية .

وقد يدهش بعض المحللين لموقف الجبرتي من تجربة « علي بك الكبير » . فهو يعتبر السنة التي بدأ فيها ظهور نجم علي بيك ١١٨١ هـ (١٧٦٧) « ابتداء نزول البلاء واختلال أحوال الديار المصرية » .

« ذلك انه اذا لم يكن في الناس من يصدع بالحق ويأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ويقيم الهدى فسد نظام العـالم .. ومن المعلوم المقرر ان صلاح الامة بالعلماء والملوك . وصلاح الملوك تابع لصلاح العلماء » (٧٠) .

وبعد هذه المقدمة يؤرخ : « وملك على بيك وفعل ما بدا له . فلم يجد

رادعاً ايضاً . ونزل البلاء حينئذ بالبلاد المصرية والشامية والحجازية. ولم يزل يتضاعف حتى عم الدنيا وأقطار الأرض » (٧١) .

وسنجد تناقضاً — او مـا يبدو كتناقض — في تأريخ الجبرتي لعلي بيك الكبير ، فهو يمتدح خصومه ويترحم عليهم ويعتذر عنهم « أمـا الظلم فهو قدر مشترك في الجميع » (٧٢) ويتهم علي بيك الكبير « بأنه هو الذي ابتدع المصادرات وسلب الاموال من مبادىء ظهوره واقتدى به من بعده » (٧٣) . ولكن ترجمته التي اوردها في وفيات عام ١١٨٧ (١٧٧٣ م) تعكس اعجاب « الجبرتي » بل وحماسته « لعلي بيك » ... فكيف نفسر هذا التناقض ؟!

في اعتقادي ان « الجبرتي » انتقد في « علي بيك » دمويته في تصفيـــة منافسيه وخصومه وأنصاره .. هذه الدموية هي اشد ما يبغض « الجبرتي » وهي ما يرفضه ولا يغفره ابداً المصري الأصيل . وهـذا يفسر الكثير من مواقف «الجبرتي»، ولعل اشد ما اعجبه في «اسمعيل بيك» او«قشطه(*) بيك» هو أسلوبه السلمي وكراهيته للتصفية الدموية نوعاً ما .

والخطيئة الثانية التي لا يغفرها « الجبرتي » ابداً ، حتى ولو تغاضى قليلاً في الاولى .. هي فتوحات « علي بيك الكبير » خارج مصر . هذه الأطماع التوسعية التي لم يتحمس لهـا المصري قط ، عبر تاريخنا كله . ومهما انتشت أجيال مقبلة بقراءة فتوحات مصرية ، فان التاريخ يؤكد ان الأجيال المصرية المعاصرة لهذه الفتوحات ، كانت لا تنفعل بها ولا تتحمس لهـا .. وفتوحات علي بيك في تلك المرحلة لم تكن تبدو كخطوة وحدوية،ولا ضرورة مصرية. كان النظام الذي اقـامه « علي بيك » في مصر ، مطلوباً ومرغوباً ويمثل مصلحة مصرية . بل وبداية تطور ربما تحول الى بعث شامل ومحاولة للحوق

(*) هو اسمعيل بك بن ايواظ الكبير احبه المصريون وسمته المصريات قشطه بيك لجماله وصغر سنه عندما تولى امارة مصر .

بالعصر ومواجهة التحديات التي كانت تتفجر بها اوروبا وتطوق العالم الاسلامي، وتستعد لضربه في قلبه باختراق الوطن العربي .

كانت مصر بحاجة الى نظام « علي بيك الكبير » ومركزيته وقبضته القوية، شرط ان يتم ذلك في إطار الوحدة الاسلامية . اما كيف ؟.. فذلك ما لم يجب عليه « الجبرتي » ولا أجيب عليه الاجابة الواضحة حتى الآن . ولكن لا اعتقد انه كان من المستحيل الوصول الى تسوية مع السلطان ولو بدفع بعض الاكياس .. ربما تم عملية التطوير المصرية .. ولكن فتوحات « علي بيك » في الشام والحجاز جعلت الدولة منشغلة بــه وظهرها مكشوف في مواجهة الموسقو . بــل وجعلت علي بيك يستعين بالموسقو . أي بأسوأ الفرنجة ، وأشدهم عداوة للمسلمين . وما كان الجبرتي ليغفر ذلك ابداً حتى ولو كان من « علي بيك الكبير » الذي ما كان يجالس الا أهل الوقار والحشمة والمسنين.. ويتتبع المفسدين والذين يتداخلون في القضايا والدعاوى ويتحيلون على ابطال الحقوق بأخذ الرشوات والجعالات وعاقبهم بالضرب الشديد والاهانة والقتل والنفي الى البلاد البعيدة ولم يراع في ذلك أحداً سواء كان متعمماً أو فقيهاً أو كاتبــاً أو قاضياً او غير ذلك بمصر . او غيرهــا من البنادر والقرى وكذلك المفسدون وقطاع الطريق . من العرب واهل الحوف . والزم ارباب الادراك والمقادم بحفظ نواحيهم وما في حوزهم وحدودهم وعاقب الكبــار بجناية الصغار . فأمنت السبل وانكفت اولاد الحرام وانكمشوا عن قبائحهم وايذائهم بحيث ان الشخص كان يسافر بمفرده ليلاً راكباً أو ماشياً ومعه حمل الدراهم والدنانير الى اي جهة ويبيت في الغيط او البرية آمناً مطمئناً لا يرى مكروهاً ابداً . وكان عظيم الهيبة اتفق لاناس ماتوا فرقاً من هيبته . وكان صحيح الفراسة شديد الحذق يفهم ملخص الدعوى الطويلة بين المتخاصمين ولا يحتاج في التفهيم الى ترجمان او من يقرأ له الصكوك والوثائق بــل يقرؤها بنفسه كالماء الجاري ولو كان خطها سقيماً ولا يختم ورقة حتى يقرأها ويفهم مضمونها ثم يمضيها أو يمزقها » (٧٤) .

ما من شهادة لحاكم مصري أعظم من شهادة « الجبرتي » هذه. وما كانت مصر تطمح في نظـــام أفضل من هذا النظام ، في تلك الفترة . فهو الذي سيحقق الاستقرار والازدهار ومن ثم ربما التصنيـع .. ولكن يقول «الجبرتي» مباشرة بعد اشادته بما أقامه « علي بيك » في مصر من عدل يقول: «فلم يقنع بما اعطاه مولاه وخوله من ملك مصر بحريها وقبليها الذي أفتخرت به الملوك والفراعنة على غيرها من الملوك وشرهت نفسه وغرته أمانيه وتطلبت نفسه الزيادة وسعة المملكة » [٧٥] .

واذا كان الجبرتي ضد سياسته التوسعية فهو معـه الى حد خلع الطاعـة للسلطان داخل حدود مصر : « وكان يطالع كتب الاخبار والتواريخ وسير الملوك المصرية ويقول لبعض خاصته. ان ملوك مصر كانوا مثلنا مماليك الاكراد مثل السلطان بيبرس والسلطان قلاوون وأولادهم . وكذلك ملوك الجراكسة وهم مماليك بني قلاوون الى آخرهم كانوا كذلك . وهؤلاء العثمانية اخذوهـا بالتغلب ونفاق أهلها وينوه ويشير بمثل هذا القول بمـا في ضميره وسيرته ولو لم يخنه مملوكه محمد بيك لرد الامور الى اصولها » [٧٦] .

هذا التناقض الذي مـــا زال يحكم الفكر المصري حتى اليوم . نلمسه في كتابات « الجبرتي » ، وفي ملاحظات « عرابي » عن فتوحات « محمد علي » (النسخة المتفرنجة من « علي بيك الكبير ») وأعنى بـه التناقض بين العمل داخل حدود مصر أو الانطلاق الى ما يسمونه حدود الوجود المصري .

ومهما قيل عن وجاهة الرأي القائل: «مصر أولاً » .. فان الذين استطاعوا توحيد مصر والانفراد بحكمها ، وجدوا ، أو هكذا اقتنعوا ، انـه يستحيل عليهم الاستمرار في السلطة بالقاهرة دون أن يمتد وجودهم بصورة ما ولو الى الشام على الأقل، ليكتشفوا ــ متأخراً جداً ــ ان اهتمامهم بهذا الوجود خارج مصر قد زعزع وجودهم في القاهرة . فإن لم يوجد « ابو الذهب » يخلعهم ، فلا شك ان مغامرات الخارج تصيب تجربتهم في مصر بالعقم وتحكم عليها بالفناء

ولو بعد سنين تطول بقدر قوة قبضتهم الداخلية .

ولا شك ان خروج علي بيك « المبكر » الى الشام قد جند الدولة العلية ضده ، وعجل بنهايته ونهاية التجربة .

على اية حال لقد استطاع « علي بيك الكبير » في ست سنوات أن يوحد السلطة في مصر ، وأن يطرد الصحراء بعيداً عن الوادي الأخضر . وان يحقق الأمن والاستقرار . بل وأن يفتعل — نفس الأزمة التي اثارها «محمد علي» بعده بنصف قرن — وهي الاحتجاج على ايواء حكام الشام لخصومه والهاربين من سطوته في القاهرة ، ليمد دولته الى حلب ،ويبسط نفوذه على الاراضي الحجازية ليهوي بسرعة تفوق سرعة صعوده . وبسبب خيانة مماليكه الذين كانوا أخلص منه لناموس الصعود والهبوط المملوكي . فخانه — كما هو الحال — أخلص اتباعه ورجله الأول . تآمر مع الدولة عليه ، وعاد الى مصر وأخرجه منها الى الشام ليعود علي بيك،فيهزم بخيانة آخر من بقي حوله من الامراء(*) الذين انحازوا الى « محمد أبي الذهب » مثبتين عن جدارة انضباط سلوكهم المملوكي !.. وهكذا مات « علي بيك الكبير » مهزوماً مجروحاً مأسوراً مقهوراً..« والله اعلم بموته » .. على حد قول أو « اتهام » الجبرتي الواضح.

كانت هذه هي الفرصة الاخيرة للماليك لكي يقيموا دولة قوية مستقرة تستطيع ان توفر مناخ التطور المنشود. ولكنهم اثبتوا عجزهم عن القيام بهذه المهمة، واكدوا انهم قد خرجوا نهائياً من مسيرة التاريخ .. وانهم قد تحولوا الى مجرد نفايات في انتظار مكنسة التاريخ تقذف بهم الى مزابل النسيان . ولعل ابلغ عبارة تسجل انتهاء دورهم التاريخي ، وعجزهم حتى عن حماية

(*) كان رأي المصريين في صناجقة علي بيك — كما قلنا — أدق واصح من رأيه فيهم فقد سموا صناجقته السبعة الذين اعدهم لحرب « محمد بك ابي الذهب » سموهم : « السبع بنات » وفعلاً لم يحاربوا !

مصالحهم كطبقة حاكمة . هي هذه اللفتة الذكية من مؤرخنا العبقري ، عن وضع المماليك عشية الحملة الفرنسية في السطور الاخيرة مـــن الجزء الاول : « ولكن لما فقدت منهم القابلية واستولى عليهم الطمع والتفاخر والتنافس والتغاضي خوف الفشل وتفرق الكلمة . مع الانحراف عن الاوضاع . ظهر الخلل في كل شيء **حتى في الامور الموجبة لنظام دولتهم واقامة ناموسهم** »[٧٧].
« الى ان حصل ما حصل ونزل بهم وبالناس ما نزل »[٧٨] .

المحاولة العثمانية

حكم « محمد بيك ابو الذهب » بعد غدره « بعلي بيك الكبير » . وتطلع بدوره الى الوجود بالشام (!) رغم انــه كان يعلم بحكم تجربته الشخصية ، ان هــذا التطلع ، كان المقتل الذي ضُرب منه سيده وعلى يــده هو بالذات .. ولكنه حاول أن يتفادى المصير ، بأن يوجد في الشام باسم السلطان . وسبق نابليون في تنفيذ مذبحة يافــا إذ « جمعوا الأسرى خارج البلد ودوروا فيهم السيف وقتلوهم عن آخرهم ولم يميزوا بين الشريف والنصراني واليهودي والعالم والجاهل والعامي والسوقي ولا بين الظالم والمظلوم وربما عوقب من لا جنى » . وإذا كان تاريخ « محمد بيك ابو الذهب » العسكري يتميز عــن تاريخ نابليون بنجاحه في الاستيلاء على عكا. فتاريخنا الاخلاقي يفخر ـ أيضاً ـ على جميع مؤرخي الغرب الذين ما زالوا يلتمسون الاعذار لجريمة نابليون في « يافا » بينما استنكر الجبرتي بوضوح وصراحة جريمة « ابي الذهب » .

وصل « ابو الذهب » الى القمة « وأذعنت له باقي البــلاد ودخلوا تحت طاعته وخافوا سطوته وداخل محمد بيك من الغرور والفرح ما لا مزيد عليه وما آل به الى الموت والهلاك » (٧٩) .

كان المرشحان لقتل « محمد بيك ابي الذهب » ووراثته وفقاً للناموس هما

« مراد بيك وابراهيم بيك » ولكنهما كانا أعجز وأفشل من أن يحققا مثل هذه المهمة . فمات « محمد بيك ابو الذهب » حتف أنفه . وأنطلق قانون الناموس يحقق نفسه ، فإن الجيش لم يعرف خبر موت الأمير ، إلا على رؤية النهب قد قام على قدم وساق في متاعه وخيمته . « قال الناقل وأقمنا على ذلك الثلاثة ايام التي تمرض فيها وأكثرنا لا يعلم بمرضه ولا يدخل اليه إلا بعض خواصه ولا يذكرون ذلك إلا بقولهم في اليوم الثالث انــه منحرف المزاج . فلما كان في صبح الليلة التي مات بها نظرنا الى صيوانه وقد انهدم ركنه وأولاد الخزنة في حركة . ثم زاد الحــال وجردوا على بعضهم السلاح بسبب المال . وظهر أمر موته وارتبك العرضي . وحضر مراد بيك فصدّهم وكفّهم عن بعضهم وجمع كبراءهم وتشاوروا في أمرهم وأرضى خواطرهم خوفــاً من وقوع الفشل فيهم وتشتتهم في بلاد الغربة (!) وطمع الشاميين وشماتتهم فيهم. واتفق رأيهم على الرحيل وأخذوا رمة سيدهم صحبتهم لما تحقق عندهم انهم ان دفنوه هناك في بعض المواضع أخرجه أهل البلاد ونبشوه وأحرقوه » (٨٠) !..

وبقية المراسم معروفة ، غسلوه وكفنوه .. الخ ونقلوه الى القاهرة خوفاً من تمثيل أهــل البلاد ، ويزيــد الجبرتي ، انهم شيعوا جنازته وسط سحابة هائلة من البخور والعنبر « ستراً على رائحته ونتنه » .

وتهتك «مراد بيك وابراهيم بيك» في تربعهما على عرش السلطة في مصر . ولا شك ــ كما قلنا ــ انهما كانا اسوأ مملوكين حكما مصر .. وإن كان لا بدّ من التمييز فــإن المرتبة الأولى في السوء يحتلها مراد بغير منازع (*) . ورأت الدولة ان الفرصة سانحة لاسترداد مصر ، او تأكيد وجودها بعد مــا تسلى مراد بيك بعزل الولاة ، مع تزايد عجزه عن الحكم . وتأكد ان استمراره في

(*) بتولي مراد وابراهيم مركز محمــد ابي الذهب ، دون ان يقتلاه ، اختل الناموس نهائياً. وتحتم زوال دولة المماليك على يد الاميرين « غير الشرعيين » !

السلطة راجع الى الانهيار العام الذي لم يدفع الى السطح بمغامر جديد يزيحه عنها . وهو الذي — كما وصفه «الجبرتي» — لم ينتصر في حرب خاضها قط .

وأرسلت تركيا اسطولاً .. حملة لفتح مصر . وفي هذه الحملة تفاصيل عديدة من الممتع مقارنتها مع الحملة الفرنسية التي تلتها بـ ١٣ سنة .

ولما وصل نبأ الحملة الى مصر ، كشف مراد بيك عن جانب من اخلاقياته الخسيسة. فهذا المتكبر الذي عزل الولاة ، ورفض أن يصعد الى القلعة لسماع مرسوم تجديد ولاية الباشا .. ما أن سمع نبأ الحملة : حتى « انخضع في تلك الليلة للباشا جداً وقبّل اتكه وركبتيه (!) ويقول له يا سلطانم (!) نحن في عرضك تسكين هذا الأمر ودفعه عنا ونقوم بما علينا ونرتب الأمور وننظم الأحوال على القوانين القديمة » [٨١] . (أي مدة ما كانت مصر خاضعة فعلاً لإرادة السلطان) .

ولم يكن نابليون هو أول من استخدم المنشور في مخاطبة المصريين بل استخدمه قائد الحملة التركية بل وخلق منشوره تأثيراً أقوى وأنجح من منشور نابليون . فالجبرتي يقول : « وصلت الأخبار بورود حسن باشا الى ثغر رشيد يوم الأربعاء سادس عشره وأنه كتب عدة فرمانات بالعربي وأرسلها الى مشايخ البلاد وأكابر العربان والمقادم . وحق طريق المعينين بالفرمانات ثلاثون نصفاً فضة لا غير . وذلك من نوع الخداع والتحيل وجذب القلوب . ومثل قولهم انهم يقرروا مال الفدان سبعة انصاف ونصف نصف. حتى كادت الناس تطير من الفرح. وخصوصاً الفلاحين لما سمعوا ذلك وأنه يرفع الظلم ويمشي على قانون دفتر السلطان سليمان وغير ذلك . وكان الناس يجهلون احكامهم (*) فمالت جميع القلوب اليهم وانحرفت عن الأمراء المصرية وتمنوا سرعة زوالهم » [٨٢].

(*) لأنهم ما كانوا يحكون مصر ..

وهكذا نرى انه حتى « العثماني » عرف أهمية مخاطبة الشعب المصري مباشرة ، وضرورة تحريضه ضد المماليك . وان الاتراك سبقوا نابليون في ادعاء انهم جاءوا لتحرير المصريين من ظلم المماليك . فما الجديد الذي هز وجدان المصريين في منشور نابليون ؟!

وإذا كان المنشور التركي قد حقق لدى المصريين تأثيراً أفضل مما حققه منشور نابليون . فإن الاسطول التركي لم يقنع مراد بالتسليم ، كما لم يفعل الاسطول الفرنسي ، ولا أقنعه هو والشقي الآخر بعدم شرعية مقاومة جنود السلطان. لذلك استعدا لمقاتلة جيش السلطان، الذي يحكمان باسمه ، ومندوبه يحمل لقب الوالي ، ومـا زال في موقعه بالقلعة ! بـل لم يفتهم وهم يجهزون الحملة لمقاتلة السلطان ان يسلبوا ممثله ومندوبه ؛ الباشا « الدراهم التي كانوا استخلصوها من مصطفى بيك أمير الحاج وأودعوها عند الباشا . فدفعها لهم بتمامها [٨٣] » .

وإذا كان المشايخ قد اجتمعوا « بنابليون » بعد سقوط القاهرة ، فانهم اجتمعوا « بحسن باشا » قبل دخوله القاهرة ثلاث مرات. ولا يختلف أسلوب « حسن باشا » العثماني ، عن أسلوب نابليون « الثوري » في معاملة الشيوخ :

« الأولى للسلام فقابلهم بالاجلال والتعظيم وأمر لهم بمكان نزلوا فيه ورتب لهم ما يكفيهم من الطعام المهيأ في الافطار والسحور . ودعاهم في ثاني يوم وكلمهم كلمات قليلة . وقال له الشيخ العروسي يا مولانا رعية مصر قوم ضعاف وبيوت الأمراء مختلطة ببيوت الناس . فقال لا تخشوا من شيء فإن أول ما أوصاني مولانا السلطان أوصاني بالرعية . وقال ان الرعية وداعة الله عندي وانا استودعتك ما أودعنيه الله تعالى . فدعوا له بخير . ثم قال كيف ترضون أن يملككم مملوكان كافران وترضونهم حكاماً عليكم يسومونكم بالعذاب والظلم

لماذا لم تجتمعوا عليهم وتخرجوهم (*) من بينكم . فأجاب اسمعيل افندي الخلوتي بقوله : يا سلطاننا هؤلاء عصبة شديدو البأس ويد واحدة . فغضب من قوله ونهره وقال تخوفني ببأسهم فاستدرك وقـال انما أعني بذلك أنفسنا لأنهم بظلمهم أضعفوا الناس . ثم أمرهم بالانصراف . واجتمعوا عليه مرة ثالثة بعد صلاة الجمعة فاستأذنوه في السفر فقـال لهم في غد اكتب لكم مكاتبـة للرعية تقرؤنها على الملا في الجامع الأزهر . فقال له الشيخ العروسي : هـذا أمر لا يمكننا فعله في هذا الوقت . فقبل عذره (**) وقال يكفي الاستفاضة . ثم تركهم يومين . وكتب لهم مكاتبات وسلمهـا ليد سليمان بيك الشابوري . وأمرهم بالانصراف فوعدوه وساروا وأخفيت تلك المكاتبات (٨٤) » .

ونجـد « ابراهيم بيك » في نفس الموقف الذي وقفـه الجنرال بليار بعد ١٥ سنة ، فكلاهما دعا المشايخ الى تسكين الرعية وتجنب الفتن :

« ركب ابراهيم بيك في ذلك اليوم وذهب الى الشيخ البكري وعيد عليه ثم الى الشيخ العروسي والشيخ الدردير وصار يحكي لهم وتصاغر في نفسه جداً وأوصاهم على المحافظـة وكف الرعية عن أمر يحدثوه أو قومـة أو حركة في مثل هذا الوقت فانه كان يخاف ذلك جداً وخصوصاً لما أشيع أمر الفرمانات التي أرسلها الباشا للمشايخ وتسامع بها الناس » .

بل ويذهب التـاريخ في اعادة نفسه ، حـداً تكاد تختلط فيه الأسماء ، فسر عسكر نابليون ، سُر من البكري وضاق بالسادات ، ونفس الشيء مع سر عسكر التركي ! فقد نال البكري عنـده نفس الحظوة لأنه بات مع الباشا (!) شبه الأسير في القاهرة ليلة وصول الجيش الفاتح : « وكان له بهـا

(*) لسوء حظ الترك ان دولتهم انقرضت والا لتبنت مؤرخاً يؤلف عن اول دعوة للمصريين للثورة واختيار من يتولى السلطة !

(**) هذا هو شيخ الازهر يعتذر عن اعلان الولاء للسلطان العثماني من على منبر الازهر ويفهم القائد التركي عذره .. ثم يتحدثون عن مستعمرة تركية !

مندوحة ذكرها بعد ذلك الباشا لحسن باشا وشكره عليها وأحبه . وذهب للسلام عليه عند قدومه دون غيره من بقية المشايخ » . بينما غضب على الشيخ السادات الذي احتج على تصرفات الفـاتح التركي : « واغتاظ واحضر افندي ديوانه وقال له اكتب اسماء هؤلاء حتى أرسل الى السلطان وأخبره بمعارضتهم لأوامره.وتغير خاطره من ذلك الوقت على الشيخ السادات (٨٥) ».

واذا كان « نابليون » قد قال على « السادات » أنه ليس « بونو » ! فلا شك ان حسن باشا قـال : « سادات سيس خرسيس أدب سيس ! » ! لولا ان تاريخ نابليون حفظ بدقة أكبر !

واستطاع الباشا المقيم في القـاهرة أن يعزل المماليك عن المصريين ، بمـا أشاعه عن نية جيش السلطان في اقامة العدل ومنع الظـلم والجور ، وغير ذلك ، حتى ضرب قلوب العالم وتحولوا عن الأمراء ، وتمنوا زوالهم في أسرع وقت وهيج الناس وأثارهم قبل وصول حسن باشا (٨٦) » .

وانضم الشعب الى الباشا الوالي ، وساعده في تحرير القاهرة قبل وصول الحملة الى القاهرة . وفرحوا بانتصار « حسن باشا القبطان » واستبشروا به : « وفرحوا وظنوا أنه مهدي (*) الزمان (٨٧) » .

أما الجيش التركي الذي دخل المدينة ، فهكذا رآه الجبرتي :

« وهم بهيئات مختلفة واشكال منكرة وراكبون خيولاً واكاديش وبعضهم بطراطير سود طوال شبه الدلاة . والبعض معمم ببوشية ملونة مقشولة على طربوش واسع كبير مخيط عليه قطعة قماش لابسها في دماغه والطربوش مقلوب على قفاه مثل حزمة البراطيش . وهم لابسون زنوط وبشوت محزمين عليها وصورهم بشعة وعقائدهم مختلفة . وأشكالهم شتى وأجناسهم متفرقة ما

(*) يشير الى فكرة انتظار مهدي أو « المهدي المنتظر » .. قائد يخلص المسلمين من الظلم ويملأها عدلاً بعد أن ملئت ظلماً .

بين أكراد ولاوند ودروز وشوام . ولكن لم يحصل منهم ايذاء لأحد . وإذا اشتروا شيئاً أخذوه بالمصالحة فباتوا بالخيام عند سبيل قيماز تلك الليلة » .

نفس الملاحظة الأخيرة سيسجلها الجبرتي عند دخول الجيش الفرنسي القاهرة ، وهي عدم إيذاء أحد وشراء ما يحتاجونه ويدفعون ثمنه . وسرعان ما يكشف الجيشان عن طبعها الحقيقي : الخطف والنهب . مما يؤكد ان نابليون لم يكن هو وحده الذي يجيد الدجل .

وهكذا بدأ الحكم التركي بداية رائعة .. منتصراً في القاهرة ، محبوباً من الشعب ، تتعلق به آمال الاصلاح . وفرّ « مراد بيك » كما هي عادته — بل وعادة كل المماليك الفارين — الى الصعيد . وبدأ ساري عسكر التركي يجرد ضده الحملات في النيل والبر . ولكن مراد يبعث برسالة تنفي اتهامات الباشا له بالكفر ، ويعير الدولة بعجزها عن استرداد : « البلاد التي غصبها منكم الكفار. واستولوا عليها مثل بلاد القرم والودن واسمعيل وغير ذلك ». ولم يجد الباشا ما يرد به على هذا الاحراج إلا اتهام كاتب رسالة المماليك « بالجهل بصناعة الانشاء (٨٨) » !

ويخطب حسن باشا في الأمراء المماليك المتعاونين فيقول : « اسمعوا ربما تحدثكم نفوسكم وتقولون هؤلاء عثمانية **لا نملكهم بلادنا** .. أو انهم مقصرون معنا في النفقة . والمصرلية غرضهم مع بعضهم . فتذهبوا معنا ثم يقع منكم الخيانة والمخامرة . ثم حلف انه ان وقع منهم شيء من ذلك ليكون سبباً في خراب مصر سبع سنوات ولا يبقى بها أحد (٨٩) !!

وعرض على مراد بيك وابراهيم بيك أماناً شاملاً شرط أن يخرجوا « ويتولوا مناصب اينما يريدون في غير الاقليم المصري » .

فرد ابراهيم ومراد بالسمع والطاعة وانهم ممتثلون لجميع ما يؤمرون به ما عدا السفر الى غير مصر فان **فراق الوطن** صعب (٩٠) » .

وسرعان ما تكشفت نوعية جنود الدولة وتتابع النهب والظلم .. ولكن «الموسقو زحفوا على البلاد واستولوا على ما بقي من بلاد القرم وغيرها» (٩١).

بل وحاول الروس استغلال الموقف والاتصال بالمماليك واستخدامهم لحساب التوسع الروسي ضد الدولة التي كانت الامبراطورية الروسية تقوم وتمتد على انقاضها (*) . واضطر السلطان الى سحب الاسطول والجيش من مصر . « والعفو عن ابراهيم بيك ومراد بيك من القتل وأن يقيم ابراهيم بيك بقنا ومراد بيك باسنا » .

وكان مفهوماً بالطبع ان جلاء القوة العثمانية يعني عودة الشقيين للقاهرة وقد عادا ..

ويلخص الجبرتي هذه الغزوة التي تعد المحاولة الأخيرة لبعث الوجود التركي في مصر، أواخر محاولة تركية صرفه .. لاسترداد مصر. كما يلخص خيبة امل المصريين في هذه الدولة بقوله :

« وفي ثالث عشرينه (ذي الحجة ١٢٠١ هـ ١٧٨٦) سافر حسن باشا من مصر وأخذ معه الرهائن ولم يحصل من مجيئه الى مصر وذهابه منها إلا الضرر ولم يبطل بدعة ولم يرفع مظلمة بل تقررت به المظالم والحوادث » ثم يقول : « ولو مات حسن باشا بالاسكندرية او رشيد لهلك عليه اهل الأقليم أسفاً وبنوا على قبره مزاراً وقبة وضريحاً يقصد للزيارة » .

أي لو مات قبل ان يدخل القاهرة ويحكمها بل مـــات في الاسكندرية

(*) جاءت « مكاتبات من قرال الموسقو » : «بلغنا صنع ابن عثمان الخائن الغدار معكم ووقوع الفتن فيكم وقصده ان بعضكم يقتل بعضاً ثم لا يبقى على من يبقى منكم ويملك بلادكم ويفعل بهـــا عوائده من الظلم والجور والخراب فإنه لا يضع قدمه في قطر إلا ويعمه الدمار والخراب فتيقظوا لانفسكم واطردوا من حـــل ببلادكم من العثمانية وارفعوا بنديرتنا واختاروا لكم رؤساء منكم وحصنوا ثغوركم وامنعوا من يصل اليكم منهم إلا من كان بسبب التجارة ولا تخشوه في شيء فنحن نكفيكم مؤونته وانصبوا من طرفكم حكاماً بالبلاد الشامية كما كان في السابق (٩٢).

أورشيد، وهو ما زال فيمرحلة الوعود المعسولة والمنشورات والفرمانات المثيرة بالاغراءات لظل حلماً للجماهير بالعدل والاصلاح !..

كم من حكام المسلمين يصدق عليه هذا القول !!

وما ان غادر « قبطان باشا » القاهرة ، بعد أن ترك فيها بعض المماليك الذين يحكمون باسم السلطان . ويفترض فيهم ان يمنعوا عودة «مراد وابراهيم» حتى انتهى الوضع نهاية مملوكية عجيبة اذ « خامر » الذين في القــاهرة مع الشقيين « مراد وابراهيم » وفتحوا لهما القاهرة .. فدخلوها . وكان الطاعون قد حل مشكلة توفير مكان للوافدين اذ أصبحت القاهرة تتسع للجميع. فمات عدد كبير من الامراء المقيمين في القاهرة . وفي نفس الوقت مات عدد كبير من نساء الامراء الذين كانوا منهزمين هــاربين في الصعيد . فتزوج العائدون ارامل الهالكين !

« وأكثر البيوت كان بها الامراء الهالكون بالطاعون وبقي بها نساؤهم ومات غالب نساء الغائبين . فلما رجعوا وجدوهــا عامرة بالحريم والجواري والخدم فتزوجوهن وجددوا فراشهم وعملوا أعراسهم . ومن لم يكن له بيت دخل ما أحب من البيوت وأخذه بما فيه من غــير مانع وجلس في مجالس الرجال وانتظر تمام العدة ان كان بقي منها شيء وأورثهم الله أرضهم وديارهم وأموالهم وازواجهم » « وسكن مراد بيك بيت اسمعيل بيك وكأنه كان يبنيه من أجله » (٩٣) .

وهكذا حطم الشقيان الناموس مرة أخرى. اذ صعدا مرتين الى الذروة، وكان ذلك ايذاناً بسقوط الناموس كله .

أمــا قوات الدولة العثمانية التي كانت السبب في طرد « ابراهيم ومراد » فقد اصبحت في وضع المنهزم بعد دخولهما القاهرة . فرُحلت بطريقة لا تختلف كثيراً عــن ترحيل الفرنسيس . فقد نادوا عليهم : « بالسفر ولا يتأخر منهم

أحد وكل من وجد بعد ثلاثة أيام يستحق ما ينزل به . »

فلما استغاثوا بالباشا ممثل الدولة التي أرسلتهم والتي يتبعونها : « انزلهم الى بولاق في المراكب . وصار اولاد البلد والصغار يسخرون بهم ويصفرون عليهم بطول الطريق . » !!

هل هناك ثمة شك في طبيعة العلاقة بين مصر والدولة العثمانية ؟!

وهكذا فشلت آخر محاولتين :

محاولة « علي بيك » لتحقيق سلطة مركزية قوية وحكم مملوكي يستطيع اذا منح الوقت والاستقرار ان يبدأ تصنيع مصر وربما العالم العربي ، ومن خلفه العالم الاسلامي . انتهت بتغلب الانهيار المملوكي على ارادة الحيـــاة والبعث . وباخطاء « علي بيك الكبير » واستفزازه للمشاعر الاسلامية سواء في الداخل أو الخارج (بتعاونه مع العدو التاريخي للأمة الاسلامية:الموسقو).

كما انهارت آخر محاولة عثمانية لاخضاع مصر بصورة حقيقية لنفوذهـا . ولو ان هذه المحاولة كانت محتومة العقم من ناحية النتائج ، حتى لو نجحت ، لأن الاصلاح ، اذا كان مقدراً له ان يكون تركيّاً ، كان عليه ان يبدأ في الاستانة . وهذه قضية — كما اثبت التاريخ — كانت خارج نطاق الممكن ، بسبب التفسخ العثماني ، كمجتمع ، وليس فقط كدولة .. هذا من ناحية.. ومن ناحية اخرى بسبب الانهاك الروسي لطاقات الدولة واستنزافـــه لكل جهد يمكن ان يوجه للاصلاح الداخلي .

وهكذا ثبت عشية الحملة الفرنسية ان النظام المملوكي ليس اكثر من جثـة تاريخية تنتظر « التغسيل والتكفين والدفن » بعد « قطع الرأس وسلخها » . وثبت ان الدولة العثمانية عاجزة حتى عن اداء هذه المهمة .

وكان على نابليون ان يبدأ انجاز هذه المهمة ليتولى تلميذ الفرنسيس ، منفذ سياسة « الفرنجة » ، انهاء هذه المهمة وعلى الطراز المملوكي في مذبحة القلعة .

الفصل الثاني

نابليون .. والمهمة الحضارية !

سأستعمر مصر

رغم كل البيانات والمنشورات والتحليلات التي صاحبت وأعقبت الحملة الفرنسية (الى يومنا هذا) فإن نابليون كان صريحاً وواضحاً في تحديد مهمته في مصر . عندما قال : « سأستعمر مصر » !

« سأستعمر مصر ، واستورد الفنانين والعمال من جميع الأنواع والنساء والممثلين . ان ست سنوات تكفيني للذهاب الى الهند لو سارت الأمور سيراً طيباً » .

ولو سارت الامور سيراً طيباً . وحتى دون الوصول الى الهند ، لكان نابليون قد استورد المزيد من العمال والنساء .. ثم الفلاحين . ولكانت مصر قد واجهت مشكلة معمرين أعرق من مشكلة الجزائر بثلث قرن . وهذا المخطط للاستعمار البشري لمصر تحدث عنه نابليون صراحة في مذكراته في « سانت هيلانه » وهو يتحدث عن احلامه في مصر . وما يمكن أن يحدث فيها من رخاء وتقدم بفضل ضبط مياه النيل وتضاعف عدد السكان أربعة مرات بفعل المهاجرين الكثيرين من « اليونان وفرنسا وايطاليا وبولنده والمانيا »[1] .

لكن الأمور لم تسر سيراً طيباً . لاسباب عديدة أهمها وأخطرها . ان الشعب المصري .. ان اولاد العرب .. أمة الاسلام ، رفضت المهمة الحضارية

لنابليون . عرفت دون جدل ولا لجاجة انه قادم « لاستعمار مصر » فقاومت هذا الاستعمار وأفشلته .

وعندما قرر نابليون « استعمار مصر » كنقطة انطلاقه لبناء امبراطوريته الشرقية ، بدأ بدراسة الاسلام ، وطلب القرآن « وصنفه تحت قائمة الكتب السياسية »[٢] ويقول هيرولد انه « كان كلما دنا من الساحل الافريقي استغرق في دراسة الاسلام »

وهو سلوك طبيعي ومفهوم تماماً ، من قائد جاد يريد النجاح في مهمته . أمـــا كل الجهود التي تبذل منذ الحملة الفرنسية الى اليوم لتتفيه شأن الدين ، والبحث عن مكونات لشخصيتنا بعيداً عنه ، فليست الا أسلحة هـذا الغزو الغربي . بينما قادة الغرب عندما يواجهون الحقائق ويعدون الحملات ، فهم يعرفون ان الخط الحقيقي الذي يقسم العالم الى غرب وشرق هو الخط الديني. ويعرفون ان الغرب الأوروبي لم ير في الشرق منذ القرن السابع الميلادي إلا ظاهرة اسلامية ، ويعرفون أن القوة الحقيقية التي تواجههم في هذا الشرق .. هي الاسلام . فالعداء موجـه ضد الاسلام ، والخطر يتوقع من الاسلام . والحرب موجهة ضد المسلمين والمسيحيين الشرقيين المنتمين حضاريـاً للشق الاسلامي من العالم .

ومن اراد ان يتغلغل أو يسيطر فلا بد له من دراسة الاسلام .

كان «نابليون» يدرس الاسلام .. و « كليبر » يستأجر عدداً من الموظفين المصريين والشوام المقيمين في فرنسا .

ويبدو أن عـدداً من المصريين كان يقيم منذ زمن لويس الرابـع عشر في فرنسا . وسنجد ان «الوفد المصري» من ايتام المعلم يعقوب يشيرون الى جهود ذلك «العاهل العظيم» الذي طلب عدداً من شبان الاقباط لتدريبهم واعدادهم لغزو الحبشة .

ولا نستطيع ان نجد في التاريخ كله ما يشير الى تأثر هؤلاء المصريين (وليس لدينا ما يؤكد انهم كانوا من الاقباط فقط) المقيمين في فرنسا بالثورة الفرنسية . ولا بالتطورات الاجتماعة والفكرية الخطيرة التي وقعت في اوروبا وفي باريس بالذات . اذ أن شيئاً من آثار هذه التطورات لم يتضح في سلوكهم ولا في مواقفهم . بل المؤكد انهم قاموا بالمهام التقليدية للعميل الشرقي ، وهي صياغة البيانات بلغة محلية ركيكة . تغرر بالغازي « الافرنجي » اكثر مما تغرر بالأهالي ، بما تحتويه من آيات وعبارات تفخيم يقال للافرنجي ، انها ضرورية لكسب احترام الشرقي ! الى جانب ارشاد الغازي الى بعض نقاط الضعف في البلاد وترشيح الاسماء التي يجب اعتقالها . والاخرى التي يمكن ان يخطب ودها . وتوزيع الغرامات والاتاوات على التجار و « المساتير » .

ولا شك ان موقف هؤلاء العملاء سواء الذين جمعهم « كليبر » من حانات وأديرة فرنسا . أو الذين جمعهم جيش الاحتلال في مصر ذاتها . موقف هؤلاء جميعاً يختلف تماماً عن موقف احرار اوروبا الذين كانوا يتعاونون مع جيش الثورة الفرنسية أو يرحبون به أو ينضمون اليه كمقاتلين في سبيل انجاز ثورتهم الوطنية . لأن هؤلاء العملاء العرب ، لم يخطر ببالهم قط فكرة تحقيق اي انجاز ثوري ولا سجل لهم التاريخ شبهة من هذا النوع في سلوكهم !

انطلقت الحملة الفرنسية بما استطاعت براعة « نابليون » و « كليبر » ان تحشده من جنود ومدفعية وعلماء ومطبعة وكتب وعملاء وتراجمة ونساء في ثياب نسائية أو متخفيات في زي جنود .

ونقف لحظة عند مالطه حيث نجح نابليون في الاستيلاء « السلمي » على الجزيرة مستعيناً بسمعة الثورة الفرنسية ، والمسيحية ، والمال ، والمدافع . نقف قليلا مع « كريستوفر هيرولد » وهو يقارن بين الاسلوب الفرنسي « الفعال » في تصفية وجود فرسان « الاستبارية » وبين اسلوب الاتراك .. لنتأمل هذا الفارق بين السلوكين فهو يلقي الضوء على احدى الخصائص

الأساسية التي تميز حضارتنا عن الحضارة الغربية ، وأيضاً أحد العوامل التي رسمت نهاية حضارتنا في شكلها العثماني وحتمت سيطرة الحضارة الغربية ..

ففي عام ١٥٢٢ — ١٥٢٣ كانت السيادة العالمية معقودة لجيش الأتراك بلا منـازع . واستولى الجيش التركي على جزيرة رودس ، وأجبر فرسان « الاسبتارية » على التسليم . ولكن السلطان المنتصر سمح لهم بالجـلاء عن الجزيرة حاملين معهم اسلحتهم « وخلفهم رتل طويل من العربـات المحملة بكنوزهم وسجلاتهم تحت انظار القوات التركية .. وخرجوا من قلعتهم في احتفال عسكري وسط اجلال الفاتحين الاتراك الصامت » (٣) .

بينما صادر نابليون من « كنوز الفرسان ما بلغت قيمته زهاء سبعة ملايين فرنك فضلاً عن (٣٥٠٠٠) بندقية ، وبارجتين ، وفرقاطة وأربع سفن خفيفة « وانتدب من يفتش » على دار سك النقود وعلى كنوز كنيسة القديس يوحنا . وعلى «سائر الاماكن التي قد يعثر فيها على اشياء ذات قيمة»(٤) ومن الاشياء ذات القيمة التي عثر عليها ذهب قيمته ٥ ملايين فرنك ، وآنية فضية تقرب قيمتها من مليون فرنك وكنوز كنيسة القديس يوحنا المرصعة بالجواهر التي تقدر كذلك بنحو مليون فرنك ويسخر « هيرولد » فيقول : « وتعطف بونابرت فأذن للفرسان بأن يأخذوا معهم شظية من « الصليب الحقيقي » لا تقدر بمال .. ويداً من أيدي يوحنا المعمدان الكثيرة هي ورءوسه الكثيرة المبعثرة في جميع ارجاء الشرق الاوسط ، بعد نزعها من صندوقها المرصع بالجواهر ، ونقلت جميع قبضان الذهب والفضة والتحف الثمينة بعد جردها الى مأمور الصرف الفرنسي ، وأخذ منها جزء كبير الى مصر » .

وفي مقابل سماحة الاتراك أبلغ نابليون فرسان مالطة ان على كل من هو دون الستين مغادرة الجزيرة خلال ثلاثة ايام : « دون ان يحمل احدهم اكثر من ٢٤٠ فرنكاً لنفقات السفر ، واستثنى من قرار الطرد ثلاثة وأربعين فارساً كلهم من الفرنسيين دون الثلاثين . وكان بونابرت قد اقنعهم بالتطوع

في الجيش الفرنسي بمصر وسبعة عشر موظفاً آخرين في الطريقة (لم يكونوا كلهم فرساناً رسميين) ساعدوا الفرنسيين بطرق شتى في الشهور الماضية »[٥]. ويمكن اعتبار قائمة هؤلاء السبعة عشر اول قائمة مدونة للطابور الخامس في العصر الحديث — على حد تعبير هيرولد —

ولم يفز البارون « فون هومبش » حاكم الجزيرة ورئيس طريقة الفرسان الذين يحكمون الجزيرة إلا بوعد كاذب بمعاش ، ظل ينتظر ست سنوات الى ان تسلم الدفعة الاولى منه » .

نعود الى موقف الاتراك .. يقول « هيرولد » : ان فرسان القديس يوحنا بعدما انسحبوا هذا الانسحاب الكريم الذي تفضل به السلطان سليمان المنتصر انتقلوا من جزيرة رودس الى جزيرة مالطه ليصبحوا بعد ذلك شجى في حلق التجارة والأساطيل الاسلامية ، ومصدر خطر وقلق وقرصنة في شرق البحر الابيض المتوسط . ويقول «هيرولد» : ان السلطان «سليمان » ندم على سماحته وحاول غزو جزيرة مالطه في عام ١٥٦٥ وفقد تحت اسوارها ٣٠٠٠٠ تركي بطلقات الذين أطلق هو سراحهم . ثم أُجبر على رفع الحصار..وواصل احفاد « الطلقاء » حربهم الصليبية الدائمة على المسلمين في البحر الابيض المتوسط .

ربما ندم « السلطان سليمان » على استخفافه بشأن أسراه ، ولكنه لا يملك الندم على سماحته واحترامه للعهد الذي منحه . فهذا هو خلق أصيل من اخلاقيات حضارتنا . وهذا هو ما تعلمه الاتراك من الاسلام . ومهما تكن النتائج الوقتية ، فان اخلاقياتنا هي المبرر الاول لوجود حضارتنا ، ومبرر استمرارها وحافز السعي لبعثها .

نعود الى الحملة :

كان الغزاة قد فرغوا لتوهم من الاستيلاء على جزيرة مالطه ، وحرروا كشوفاً رسمية بما استولوا عليه من كنوز بعدما قاموا بنهب وسلب جزيرة

« جوزو » عن آخرها بعد ان اخلى السكان بيوتهم »[٦] . وعادوا الى السفن يحملون ما نهبوه « وينشدون الأناشيد الثورية الجماعية » مؤكدين بذلك هذه الازدواجية التي تتميز بها « الثورية » الغربية . فهم ثوريون يتغنون بالأناشيد الثورية في شوارع باريس،بل وعلى ظهر البوارج الفرنسية..ولكنهم لا يجدون أي تناقض بين المقاطع التي تتغنى بالحرية والاخاء والمساواة ، والتي ترددها حناجرهم الجماعية وبين ذبح الشعوب غير الفرنسية ، واحتلال بلادها ونهب ممتلكاتها .

هذه الازدواجية ،هي التي مكنت اوروبا من انجاز تطورها في اتجاهين: تحرير مجتمعها ، واستعمار مجتمعات الآخرين بذات الجماهير التي قاتلت الاستبداد في بلادها، وفرضت الاستبداد والعبودية على الشعوب الواقعة جنوب او شرق خط الجنس المتحضر .. او خارج خط الالتزام بالسلوك الانساني .

ويبدو أن صناع الثورة الفرنسية قد اضطروا الى وقف غنائهم ، وإنزال غنائمهم الى الأرض والوقوف بانتباه ليستمعوا الى المنشور الذي أصدره نابليون والبوارج تقترب من الاسكندرية (٢٨ يونيه ١٧٩٨) :

« ايها الجنود !

انكم موشكون على فتح له آثار بعيدة المدى في حضارة العالم وتجارته . وستطعنون انجلترا طعنة تؤذيها لا محالة في أضعف مواطنها (!) انتظاراً لليوم الذي تسددون فيه اليها الطعنة القاتلة » .

« ولن تنقضي على نزولنا البر أيام حتى نقضي على بكوات المماليك الذين لا يراعون غير التجارة الانجليزية ، والذين يظلمون تجارنا بمعاكستهم والذين يستبدون بأهل وادي النيل الأشقياء »[٧] .

ولا ندري كيف لم يجد « هيرولد » في هـذه الخطبة البليغة الجواب على تساؤله : « كيف كان يمكن لهذا المنشور ان يفسر للجندي العادي السر في إرساله الى مصر » .

الجواب واضح :

«لطعن» انجلترا منافسة فرنسا. لضرب البكاوات المماليك الذين «لا يراعون غير التجارة الانجليزية » .. أليس هذا سبباً كافياً لتبرير حملة اوروبية في القرن التاسع عشر، وإلهاب حماسة الجند حتى ولو كانوا هم ذاتهم الذين ساهموا في تحطيم الباستيل !

والمنشور بعد ذلك يدعو الجنود لاحترام دين البلاد كما يحترمون دين موسى ودين المسيح ، ويقنعهم بأن السلب الفردي « لا يثرى منـه إلا الأقلون » . بينما يقضي « على مواردنا » . وهو بذلك يشرح مزايا السلب المنظم الجماعي على مستوى الأمة ، بدلاً من السلب الفردي . ولا شك ان الحق مع نابليون في ذلك !

بلاد السلطان !

وقبل وصول الاسطول الفرنسي الى الاسكندرية ، وقعت حادثة توصف عادة بأنها غيّرت مجرى التاريخ ، اذا كان يمكن لحادثة أن تفعل !

فقد وصل اسطول « نلسن » الى الاسكندرية وأرسل الكابتن « هاردي » على ظهر السفينة « موتين » في ٢٧ يونيه ليعرض على المدينة حماية الاسطول البريطاني .

ولكن « محمد كريم » احدى الشخصيات المصرية النموذجية ، واسطورة من عصر الاعاجيب هـذا ، في عصاميته وذكائه ووطنيته وصلابته ونهايته المأساوية ، وحاكم الاسكندرية فوق ذلك كله .. رفض هذه الحماية . وأجمل تفسير لتلك الحادثة التي رواها الجبرتي ونقولا الترك.. هو ذلك الذي يطرحه « هيرولد » : « رفض « محمد كريم » حاكم المدينة الذي أتى ليتبين نيـات الرجل الانجليزي ، ان يقبل مساعدة الانجليز ضد الفرنسيين . واذا كان عديم الثقة في جميع الاوروبيين على السواء **فانه في حرصه وحذره تظاهر بالجهل .** وقال لهم في رواية نقولا الترك :ان الفرنساوية غير ممكن انهم يحضروا لبلادنا، ولا لهم في ارضنا شغل ، ولا بيننا وبينهم عداوة . وهذا كلام غير ممكن أن نصدقه . وأما أنتم فما لكم إقامة في ارضنا ، ولا معنا اجازة ان نقبلكم جملة

كافية. فانظروا الذي تحتاجوه من الماء والذخيرة خذوه واذهبوا عنا بالسلامة. وان كان الفرنساوية كما تزعمون قاصدين اخذ بلادنا فنحن منا لهم نصطفل»[٨].

وقد هدده الكابتن الانجليزي : « انتم ما صدقتم كلامنا . سوف تعاينوا ما يحل بكم . وتندموا على عدم قبولكم إيانا »[٩] .

ويعلق « هيرولد » بأنه في حالة «محمد كريم» بالذات . فقد صدقت نبوءة الانجليز يقيناً . مشيراً بذلك الى ان « محمد كريم » قد دفع رأسه ثمناً لرفض الحماية الانجليزية. فقد كان اول مسؤول مصري يعدمه الفرنسيون بعد انتصارهم، أعدموه بعد التعذيب والحبس والتشهير . فالذين جاءوا لتحرير المصريين من المماليك كان اول ضحاياهم هو الحاكم « المصري » لمدينة الاسكندرية .. ولولا « محمد كريم » ولولا مصرعه ، لانطلى على الكثيرين فرية ان نابليون هو اول من فكر في إمكانية ممارسة المصريين لشؤون الحكم !.. هـا هي أول مدينة تضربها مدافع الفرنسيين يتصدر الأمر والنهي فيها مصري من عامة الشعب ، صعد من اول السلم الاجتماعي .. ولم يسجل التاريخ ، حواراً او صراعاً او صداماً بين شخصية مملوكية وأسطول بريطانيا ثم أسطول فرنسا ونابليونها وجيشها .. وها هو الحاكم المصري لمدينة الاسكندرية اول من تقطع رأسه على يد الذي « ألهب حماستنا بحديثه عن الحكم المصري » !

أما عن تعليق «هيرولد» فحتى لو أضفنا الى كارثة «محمد كريم» الشخصية، النكبات والويلات التي نزلت بأبناء بلدته الاسكندرية ، وشعب مصر في مجموعه ، فاننا لا نستطيع —رغم ذلك— إلا أن نؤيد موقف الحاكم المصري . فلا شك ان رفضه هذا، الذي واجه به الاسطول الانجليزي، قد وفر على مصر احتلال ثمانين عاماً . فلو كان قد وافق على قبول الحماية الانجليزية ، وسمح بنزول الانجليز على البر ، وتمركزت بوارجهم عنـد الساحل . ونجحت خطة « نلسن » في الايقاع بالأسطول الفرنسي عند شاطىء الاسكندرية ، وقبل نزول جندي فرنسي واحد الى البر .. لما خرج الانجليز من مصر بعدها .

فليس في التاريخ البريطاني كله ما يوحي بأنهم كانوا سيتصرفون مع «محمد كريم» بشرف. او انهم كانوا سيلتزمون بأي وعد يقطعونه قبل انطلاق المدافع ورفع الراية على قلاع الاسكندرية العتيقة.

فمن الناحية التاريخية ، ليس هناك ما يؤسف عليه .. صحيح ان «نلسن» كان يستطيع أن يضرب عرض الحائط ، برفض وحجج « محمد كريم » ، ويحتل الاسكندرية . او حتى يقف على مقربة منها رغم أنف « محمد كريم » الذي لم يُشِن تاريخنا بقبول الحماية الاوروبية .

ولكن « نلسن » لم يفعل ، ولعله لم يشأ ـ وكان حصيفاً في ذلك ـ ان يبدأ معركته المنتظرة مع الفرنسيين بمقاتلة المصريين. ويتولى الدفاع عن مدينة تشعل ، هي ، النار في مؤخرته . بل لعله فضل ان يضع الفرنسيون في هذا الموضع ، اذا ما كانوا يتجهون لمصر .

وسواء أكان هذا التبادل في الأدوار ، قد تم باختيار واع من « نلسن » أو أن حسن طالع الامبراطورية المنتصرة هو الذي جعل « نلسن » يتقبل صاغراً رفض « كريم» وينصرف باحثـــاً عن الأسطول الفرنسي في البحر ، فلا شك ان المصير النهائي للفرنسيين لم يتغير كثيراً برحيل الأسطول البريطاني بل لعله قد ساء .. وان كانت « لغة » الأحداث في مصر قد تغيرت بفعل هذا الرحيل !

غير ان موقف « محمد كريم » يحتاج الى مناقشة ، ففي بعض الروايات انه قال : « هذه بلاد السلطان ، ولا دخل للانجليز او الفرنسيين فيها » . وقــد تشبث انصار تفسير « صراع الاستعمارين التركي والغربي » بهذه القشة ليدللوا على ان معارضي الغرب من المصريين ، كانوا يعارضون انطلاقاً من الولاء أو التبعية للاستعمار التركي . والرواية كما يحكيها الجبرتي الذي كان دقيقاً كعهدنا بأعظم المؤرخين المصريين .. إذ اوضح انه لا يورد النص الحرفي بل قــال : « وفي يوم الأحد العاشر من شهر محرم ١٢١٣ هـ (يونيه ١٧٩٨)

وردت مكاتبات على يد السعاة من ثغر الاسكندرية ومضمونها انه في يوم الخميس (*) ثامنه ، حضر الى الثغر عشر مراكب من مراكب الانجليز ، وقفت على البعد بحيث يراها اهل الثغر. وبعد قليل حضر خمسة عشر مركباً ايضاً. فانتظر اهل الثغر ما يريدون وإذ بقابق صغير واصل من عندهم وفيه عشرة أنفار فوصلوا الى البر واجتمعوا بكبار البلد . والرئيس إذ ذاك فيها والمشار اليه بالابرام والنقض . السيد «محمد كريم» الآتي ذكره . فكلموهم واستخبروهم عن غرضهم فأخبروهم انهم انكليز حضروا للتفتيش على الفرنسيس . لأنهم خرجوا بعمارة عظيمة يريدون جهة من الجهات ، ولا ندري اين قصدهم فربما دهموكم فلا تقدرون على دفعهم ولا تتمكنوا من منعهم ، فلم يقبل السيد « محمد كريم » منهم هذا القول وظن انها مكيدة . وجاوبهم بكلام خشن . فقالت رسل الانكليز نحن نقف بمراكبنا في البحر محافظين على الثغر لا نحتاج منكم إلا الامداد بالماء والزاد بثمنه فلم يجيبوهم لذلك وقالوا هذه بلاد السلطان وليس للفرنسيس ولا لغيرهم عليها سبيل . فاذهبوا عنا . فعندها عادت رسل الانكليز وأقلعوا في البحر ليمتاروا من غير الاسكندرية . وليقضي الله أمراً كان مفعولاً ثم ان اهل الثغر أرسلوا الى كاشف البحيرة ليجمع العربان ويأتي معهم للمحافظة على الثغر » (١٠) .

« هذه بلاد السلطان .. فاذهبوا عنها » سواء قيلت هذه العبارة فعلاً خلال مباحثات « محمد كريم » والكابتن « هاردي » او انها اضيفت الى المكاتبات الرسمية ، والتقرير الذي رفع الى السلطة في القاهرة والذي يقضي البروتوكول بتلاوته بحضور ممثل السلطان اي الباشا ، ورغم اننا نجد الحركة الوطنية تكثر من استخدام هذه العبارة حتى الحرب العالمية الاولى : « هذه بلاد السلطان فاذهبوا عنها » . إلا انها لا تعني اكثر من دفع بعدم شرعية

(*) هل هناك خطأ اذا كان الاحد هو العاشر فكيف يكون الخميس هو الثامن ؟!

وجود الآخرين . او مواجهتهم بحجـــة قانونية ، بالتمسك بالسيادة الوهمية « الشرعية » للسلطان في مواجهة اطماع الدول الاوروبية ، وما يعني ذلك من تدويل للصراع. بل طالما استخدمت هذه العبارة من جانب الدول الاوروبية لتبرير اطماعها ومصالحها .. ألم يستخدمها نابليون نفسه ليبرر حربه للمماليك الذين يتطاولون على حقوق السلطان !.. ألم يستخدمها الانجليز حجة لإخراج الفرنسيين من مصر ؟! لقد كانت سيادة السلطان ، خرقـة ، تصلح لمسح كل النوايا ! «ومحمد كريم» كان سيقاتل العمارة التركية لو انها جاءت تفتح مصر .

وأول ظن ذهب اليه المماليك – كما رأينا – هو تآمر السلطان مـــع الفرنسيين لفتح مصر . وما من « سلطان » يفتح « بلاده » ! ولكن الصورة الهزلية للاستعمار التركي لا تكتمل إلا بقصة الاسطول التركي الذي كان بالصدفة في مياه الاسكندرية – ونساه كل المؤرخين العرب ! – ففي الوقت الذي كان فيه الاسطول الفرنسي يعبر البحر الى الاسكندرية لغزو « بلاد السلطان » ، وكان الاسطول الانـكليزي يفتش البحر الابيض بحثاً عن الاسطول الفرنسي ، ويعرض خدماته للدفاع عن « بلاد السلطان » .. كانت هناك مركبة تركية راسية في الميناء :

« بينما كان الاسطول الفرنسي لا يزال امـام الاسكندرية يلقي الرعب في قلوب من كانوا يشهدونه على البر ، ارسل قائد سفينة راسية في الميناء ، وكان تركياً ، ضابطاً الى البارجة لوريان ، يحمل خروفين هدية ، واستفساراً عمـا يصنعه الفرنسيون هنـــاك . وسُلم الضابط التركي نسخة من المنشور المطبوع والموجه الى أهل مصر فهز رأسه قائلاً انه لا يقرأ العربية – ولعـله لم يكن يقرأ التركية أيضاً – فترجم له «فنتور» المنشور. وكان الزائر عند سماعه كل فقرة تنال من قـدر الأمراء المماليك يطفر سروراً .. فطلب مزيداً من نسخ المنشور لتوزيعها، وابتلع قدراً وافراً من القهوة والحلي، ثم قفل راجعاً بخطاب من بونابرت الى قائـده يقول فيه : « سأكون في الاسكندرية غداً فلا تخشى

بأساً ، لأنك من رجال السلطان صديقنا العظيم ، فاسلك كصديق .. ولكني سأعاملك معاملة العدو لو بدت منك بادرة عداء للجيش الفرنسي . وستكون انت الملوم لأن هذا أبعد الاشياء عن نواياي » [١١] .

ويعلق « هيرولد » بقوله : « ولسنا على ثقة من أن الضابط التركي راعه اخلاص بونابرت . ولكنه كتم السر ولم يفعل شيئاً » .

وهكذا طلب ممثل السلطان ، نسخاً من منشور إعلان « تحريرنا » ليتولى توزيعه نكاية بالمماليك !

ولم يكن بالمدينة قوة عثمانية ، ولا اكثر من عشرين مملوكاً .. وقد حاول المصريون الدفاع عن مدينتهم في أول مواجهة بين الشرق العربي والغرب الحديث ، وبعد ما أقام التاريخ فاصلاً حضارياً ، حسم مصير الصدام قبل أن يقع . وكانت النتيجة محتومة – عسكرياً – فإن قروناً طويلة من التآكل والانهيار ، قد جردت المدينة من كل عناصر المقاومة . فتعدادها يختلف فيه ما بين ثمانية وعشرة آلاف ! (تعداد بضع عمارات اليوم) .

ويعلق « هيرولد » على قول الجبرتي : « لم يشعر أهل الثغر وقت الصباح إلا وهم (الفرنسيون) كالجراد المنتشر حول البلد » يعلق بقوله وهي « مبالغة تصور حالة المدافعين النفسية » . ولكنه تعليق غير منصف . إذ أن التشبيه لا مبالغة فيه اذا ما تصورنا مدينة تستيقظ على مقاتلين يحيطون بها . هؤلاء المقاتلون المدججون بالسلاح تعدادهم اكثر من اربعة اضعاف سكان المدينة ، جميعاً بما فيهم المقاتلين والنساء والاطفال !.. تخيل ان القاهرة تستيقظ على جيش تعداده ٢٠ مليون مقاتل ! ولندن يهبط عليها اكثر من ثلاثين مليون مظلي !.. من الذي يلوم الانجليز اذا وصفوا الغزاة بأنهم « جراد منتشر » .

كانت قوات الحملة تتكون من٣٤٠٠٠ جندي بري و١٦٠٠٠ بحري وملاح. ان اوروبا لم تكن متفوقة في التكنولوجيا وحدها بل حتى في تعداد

البشر(*). وحتى في موقعة امبابة الحاسمة حيث قذف المماليك بالقوة الرئيسية، بل الوحيدة التي كانت لهم في مصر يشهد « هيرولد » بأن « الفرنسيين كانوا يمتازون بالتفوق العددي الحاسم » .

أما الفارق التكنولوجي فكان بشعاً ساحقاً ، رأى « محمد كريم » عند إشراقة الصباح خمسمائة سفينة تحيط بالميناء . فكتب الى مراد بيك في القاهرة : « ان العمارة التي حضرت مراكب عديدة ما لها أول يُعرف ولا آخر يوصف . لله ورسوله داركونا بالرجال » (١٢) .

أما عدة « محمد كريم » « فلم تكن اكثر من برميل واحد من البارود لمدفعيتهم . أما الخيالة إذا استثنينا البدو عديمي النفع ، فلم يكن منهم اكثر من عشرين مملوكاً » .

كان على « محمد كريم » ان يواجه أقوى جيش في العالم بهذه الإمكانيات . وكأروع ما يكون الجندي تأدية لواجبه ، مهما تكن الظروف ، قرر أن يقاوم . وأرسل الى القاهرة يطلب النجدة .

ونترك المواجهة التاريخية بين الشرق المنهار ، والغرب الزاحف كالجراد المنتشر .. لنلهث مع الخيالة والجمالة الذين هرعوا الى القاهرة برسائل تطلب النجدة .

وفي مثل هذا الظرف ظهر الباشا التركي ! ووجهت الدعوة الى عقد الديوان .. وفور انعقاده بادر « مراد بيك » — كما رأينا — باتهام الدولة العثمانية بتدبير هذه النازلة ، ونفى الباشا الاتهام ، وحثهم على القتال .

ويحكي لنا الجبرتي ببراءة المصري الذي يمسه الأمر في الصميم، مهزلة اجتماع الديوان :

(*) كان تعداد مصر حوالي ٢،٥ مليون يحكمها ويدافع عنها عشرة آلاف مقاتل من المماليك ويقدر عددهم بنسائهم وأتباعهم من المماليك بمائة الف. وسوريا كلها (سوريا + لبنان + الأردن+ فلسطين) اقل من ثلاثة ملايين .

« ثم ورد في ثالث يوم بعد ورود المكاتيب الأول . مكاتبات مضمونها ان المراكب التي وردت الثغر عادت راجعة فأطمأن الناس وسكن القيل والقال. وأما الأمراء فلم يهتموا بشيء من ذلك . ولم يكترثوا بـه اعتماداً على قوتهم وزعمهم انه اذا جاءت جميع الأفرنج، لا يقفون في مقابلتهم، وأنهم يدوسونهم بخيولهم » (١٣) . فلما جاءت المكاتيب بعد ذلك بوقوع غزو الاسكندرية واحتلالها . « ركب « ابراهيم بيك » الى قصر العيني وحضر عنده « مراد بيك » من الجيزه لأنه كان مقيماً بها . واجتمع باقي الأمراء والعلماء والقاضي وتكلموا في شأن هذا الأمر الحادث . فاتفق رأيهم على أن يرسلوا مكاتبة بخبر هذا الحادث الى اسلامبول . وان مراد بيك يجهز العساكر ويخرج لملاقاتهم وحربهم . وانفض المجلس على ذلك وكتبوا المكاتبة وأرسلها بكر باشا مع رسوله على طريق البر (وهنا تحبك النكتة مع ابن مصر الأصيل فيكمل) : ليأتيه بالترياق من العراق » (*) .

هذا التعليق البسيط .. او النكتة التي ذيل بها الجبرتي ، تأريخه للمؤتمر التاريخي ، او قرارات آخر ديوان قبل الاحتلال الفرنسي، يكشف عن القيمة الحقيقية التي كانت للدولة العلية ونجدتها لدى النخبة المصرية . بل عن مدى ما كانت هذه النخبة تتوقعه منها لحماية وجودهم واستقلالهم . وهذا الفهم ، ولو انه مبكر جداً ، ولكنه غير مستغرب من عبقري مثل الجبرتي، يعيننا على فهم المعنى العملي للرابطة الاسلامية او العثمانية التي رفعت كشعار في أواخر القرن التاسع عشر ، ومطلع القرن العشرين . فقد كان الذين يرفعون هذا الشعار ، لا يرفعونه عن وهم او تقدير مبالغ فيه لقوة الدولة العثمانية . بل على العكس عن ادراك حقيقي لمدى الضعف الذي تعانيه هذه الدولة . والوعي في نفس الوقت بأن اعلان هذا الانهيار او وقوعه يشكل الكارثة الكبرى

(*) المثل المصري يقول « على ما يجي الترياق من العراق يكون اللي انقرص مات »! والترياق هو الدواء المضاد للسم .

لوجودنا . وسنجد « الجبرتي » يفرح مع المصريين بعد ذلك ، بوصول الجيش العثماني ، ويدعو له ، ليسبه بعد ذلك ، بعدة سطور ، ليس إلا ...

نترك رسول « بكير باشا » ينطلق مسرعاً بقدر ما تسمح له امكانيات العصر ، وأيضاً اخلاصه في تأدية مهمته .. ونعود الى الاسكندرية التي كان عليها ان تواجه جيش نابليون بنصف برميل بارود وعشرين مملوكاً ! أما المدفع الوحيد الذي كان برشيد وهو من عيار ثمان وعشرين بوصة ، فقد لاحظ «دينون» ان الغرض الوحيد من وجوده لم يكن يتعدى «تيسير حالات الوضع العسيرة» للنسوة الحوامل اللواتي يذهبن بنية خالصة للخطو من فوقه ! » (١٤).

« وفي تقرير « فولني » : ليس بالاسكندرية اربعة مدافع صالحة للعمل . وكذلك لا يوجد بها مدفعي واحد يحسن التصويب . والخمسمائة انكشاري الذين تتكون منهم حامية الاسكندرية في الأصل — قد انخفض عددهم الى النصف ، وهم عمال عاديون لا يكادون يعرفون كيف يشعلون غليوناً ! » (١٥).

ولم تكن هناك فرصة لتضليل الجماهير او اخفاء طبيعة الصراع ، وانفجرت مع الطلقة الأولى ، ذكريات وتاريخ الحروب الصليبية بين الغرب والشرق . لذلك هبت الجماهير تدافع عن وجودها .. عن تاريخها .. عن مدينتها . وستمضى سنوات طويلة ، قبل ان يواجه نابليون مقاومة « شعبية » كتلك التي واجهها في الاسكندرية ثم في مصر كلها ، وستمضى سنوات حاسمة قبل أن تكتشف اوروبا زيف رسالته التحريرية ، ويضطر موسيقيوها الى تغيير ألحانهم . او قل قبل ان تنتهي هذه الرسالة في اوروبا ، وتدرك شعوب اوروبا أن عليها أن تتحرر من نابليون وجنوده ، بعدما تحررت فترة بهؤلاء الجنود .

ولكن في حالتنا نحن ، في الشرق ، لم يكن لهذه المهمة التحريرية أية وجود منذ اللحظة الأولى . ولم يكن للجيش القادم من اوروبا أية رسالة تحريرية ، بل كان استمراراً ، ولو بشكل جديد ، اكثر فعالية وأشد خطورة

للحرب المتصلة التي بدأت بأول حملة صليبية ، وأول غزوات الاستعمار الغربي بشكله الحديث .

ولا يفوت نابليون رغم انه يمثل الثورة الفرنسية . أن يعقد المقارنات بين حملته والحملة الصليبية التاسعة . وكل ما يلاحظه من فارق « حضاري » بين الحملتين هو : « ان لويس التاسع أنفق ثمانية اشهر في الصلاة ، وكان اجدى ان ينفقها في الزحف والقتال واحتلال البلاد » (١٦) .

لذلك كانت المقاومة الشعبية الشاملة هي الرد الوحيد على الغـازي الصليبي الجديد .

ومن فوق اسوار الاسكندرية « انطلقت صرخات مخيفـة ، من أفواه الرجال والنساء والأطفال ، وفي الوقت نفسه انطلقت نيران المدفعية صوبنا فعرفنـا نيات **العرب** . وأصدر بونابرت الأمر بأن ينفخ في الأبواق لدعوة الجيش للهجوم فتضاعفت قوة الصراخ » (١٧) .

وبالرصاص والأحجار دافع **العرب** عن مدينتهم واستقلالهم وشخصيتهم وكيانهم ووجودهم الحضاري . وأصيب كليبر ومينو» . ويسجل «هيرولد» : « انه من النادر أن يصاب قائدان هذه الاصابات في الدقائق الخمسة الأولى في أيـة حملة حربية » (١٨) . كما تعرض نابليون نفسه للقتل . « ولا شك في ان قلعة الفنار التي كان يتولى القيادة فيها السيد «محمد كريم» ، قاومت الى ساعة متأخرة من الليل . وما من شك ايضاً في ان قتالاً نشب في شوارع المدينة . ويؤخذ من تقرير بونابرت الى الادارة أن كل بيت كان قلعة » (١٩) .

وقتل اللواء « مـاس » وخمسة ضباط آخرون . وكتب الجنرال مينو : « ان الأعداء قد دافعوا عن المدينة بشجاعة كبيرة وثبات عظيم » .

وهكذا نرى ان «محمد كريم» لم يترك للسلطان مهمة الدفاع عن « بلاده » بل قاد مقاومة المدينة الى آخر طلقة .

مدينتي قاومت .. قاتلت .. لم تغرر بهـــا منشورات المستعمر التي تغرر اليوم ببعض المؤرخين .

مدينتي حاربت ولم تفتح ذراعيها للمتفوق تكنولوجياً .. ولا صدقت ان تحررها يتحقق على يدغاز اجنبي !

« وأطلق احد القناصة النار من النافــذة على نابليون نفسه ، فأصابه في حذائـــه ، ورد بعض الجند باطلاق النار وتسلق غيرهم الى داخل البيت عن طريق السطح ، فوجدو القناصة ، وكانا رجلاً وامرأة فقتلوهما فوراً » (*) .

ورغم مرور ثمانية قرون بـــين الحملة الصليبية الأولى التي اطلقها بطرس الناسك. وبين الحملة التي اطلقتها الثورة الفرنسية. فإن سلوك الجند في الحملتين لم يختلف كثيراً. ولعلنا نجد تشابهاً عجيباً بين الرسالة التي بعث بها المنتصرون في القدس منذ سبعمائة عـام إلا عاماً واحداً .. الى البابا الذهبي « اربان » يبشر بأن « خيلنا تغوص الى ركبها في دمـاء الشرقيين في بيت المقدس » . وبين رسالة « ادجوتانت جنرال بوايبه » احد هيئة أركان الحرب العامة الذي كتب لوالديه يقول :

« حـين دحر المدافعون على جميع الجوانب ، احتموا بإلههم ورسولهم ، فملأوا الجوامع . وذبح الرجال والنساء ، الكبار والصغار ، وحتى الاطفال ، عن بكرة أبيهم. وبعد نحو اربـع ساعات هدأت سورة جنودنا في النهاية»[٢٠]. وكتب جندي آخر فيمذكراته : «ظننا ان المدينة استسلمت، وشد ما ادهشنا أن ينهال علينا رصاص البنادق ونحن نمر أمام احد المساجد .. فأمرنا قائـد اتفق وجوده هناك ان نقتحم باب المسجد ولا نبقى على احد فيـه . وهكذا

(*) بونابرت ص ٩٦ « ذلك هو الحادث في رواية بوريين (المذكرات ١ — ٢٦١) أمـــا بونابرت فيقول انـه لم يكن في البيت سوى رجل واحد محاط بست بنادق (الحملة المصرية والسورية — في رسائل نابليون الأول ٢٩ ص ٤٣٤) .

هلك الرجال والنساء والأطفال بحد السناكي .. ولكن لما كانت العواطف الانسانية أقوى من الانتقام . فقد توقفت المذبحة حين تعالت اصواتهم طلباً للرحمة . فاستحيينا ثلثهم » [٢١] وليس هناك أبدع من تعليق « هيرولد » على «المهمة الحضارية والرسالة التحريرية» التي كان يجري تنفيذها في نساء وأطفال مصر بحد السناكي . يقول : « والمدنيون غير مفروض فيهم ان يطلقوا النار على الجنود . وعمل الفرنسيون قد يبرر ، حتى اذا أخذنا بقواعد الحرب المتعارف عليها بين الأمم التي تسمى متحضرة . وقد تلقى المسلمون، الجاهلون بقواعد حرب المتحضرين درساً نافعاً . كذلك تعلموا ان المرء يجب ألا يخلط بين الناس ، فيحسب محرريه اعداء » [٢٢]!

وعلى طول الطريق من الاسكندرية الى القاهرة كان جنود الراية المثلثة الألوان يواصلون مهمتهم التعليمية ورسالتهم التحضيرية (*) .

« يقول الجاويش فرانسوا ان قرية رفضت امداد الفرنسيين بالبضائع التي طلبوها فضرب أهلها بحد السيف وأحرقت بالنار، وذبح وأحرق ٩٠٠ رجل وامرأة وطفل ليكونوا عبرة لشعب همجي نصف متوحش » [٢٣] .

« وقد يكون «فرنسوا» مغالياً في تقدير عدد الضحايا ولكن هذا المشهد كان يقع مراراً وتكراراً ويصف الكولونيل « لوجيه » مشهداً منها في يومياته فيقول في ٢٦ سيدور (١٤ يوليو) وصلنا الى قرية « نكله »، وكانت فرقتا « بون وفيال » تعملان فيها النهب والسلب، وأحدثت صيحات الرجال وولولة النساء ضجيجاً رهيباً . وتسلقت النساء سطح منازلهن . وكلما رأينا

(*) وقد انصف المترجم اذا شفع هذه الجملة « بتوضيح » قال فيه : واضح سخرية المؤلف . للمترجم كل الحق في توضيح هذه البديهية لأن بعض الذين ابتليت بهم امتنا ، اخذوها على محمل الجد وأنشأوا نظرية عن المهمة التحضيرية لجيش التحرير الفرنسي !

فرنسياً على صهوة جواد نادينه وأظهرن له فجيعتهن بالتلويح خلفـــاً واماماً بطرح يمسكنها بكلتــا اليدين ثم يختمن شكواهن : « بالتعديد » الباكي . كل هذا يحدث تحت بصر القائد الأعلى »[٢٤] .

ويقول « هيرولد » : « ليس لدينا دليل على ان « بونابرت » كان يستمتع بأعمال الثأر او الانتقام او يمقتها فلا هو بالقاسي ولا الرحيم. ولا هو بالوحشي ولا الرقيق الطبـع . ولكن العدوان في رأيــه يجب ان يعاقب ، لئلا يكون اهمـــال عقابه تشجيعاً له : ومن ثم كانت جماعات وقرى برمتها تنهب وتحرق بأمره ، وقطعان الغنم والماشية – وهي مورد الرزق الوحيد لقبائــل البدو تنتزع منها ، والرؤس تطيح بالعشرات » .

محبنا السلطان العثماني

الفرق بين حملة لويس التاسع ، وبين حملة نابليون الأول ، أو بين الغزوة الصليبية ، وغزوة الثورة الفرنسية ، هو ان الثانية كانت تتمتع بقدرة هائلة على النفاق والدجل والادعاء . فلم يسجل التاريخ ابداً منشوراً صليبياً يتحدث عن الخير والنوايا الطيبة التي يضمرها الغزاة لسكان البلاد المنهوبة .. المقتولين والمحروقين !

ولكن نابليون بعد ان أخمد مقاومة المدينة بالرصاص والسناكي والقتل والحرق . قام بتوزيع منشوره الشهير . ولم يكن لدى المصريين الذين بقوا أحياء من سكان الاسكندرية حاجة الى قراءة المنشور ، حتى لو اتيحت لهم الفرصة .. فقد كانوا يرون المهمة التحريرية رأي العين وليس من رأى كمن قرأ ... ولكن يبدو أن بعض حفدة « التراجمة » الذين استأجرهم كليبر ، والذين صاغوا المنشور بلغة عربية ركيكة . يحاولون الآن ، وبعد كل هذه السنين ، التي عشناها ، في ظل « الرسالة الحضارية » للغرب الاستعماري ، يحاولون اليوم الدفاع عن مهمة اجدادهم بإعطاء اهمية خاصة لهذا المنشور ووصفه بأنه وثيقة خطيرة تعلن تحرر المصريين وقوميتهم..الخ،مع ان نابليون نفسه وصفه في سانت هيلانة « بأنه قطعة من الدجل ولكنه دجل من أعلى

طراز » [٢٥] واعترف انه « على الانسان ان يصطنع الدجل في هذه الدنيا لأنه السبيل الوحيد الى النجاح » [٢٦] .

ولنلق نظرة على هذا الطراز الرفيع من الدجل حتى يمكن ان نناقش الطراز غير الرفيع الذي يتعرض له تاريخنا في ايامنا هذه :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك له في ملكه » .

وهكذا نرى التخلي عن رسالة تحضيرنا منذ السطر الأول . فأول لقاء بيننا وبين الغرب « العلماني » يبدأ بالبسملة ! بل ها هو نابليون يحاول ان ينفذ الى ضمائرنا بإشهار إسلامه ! والنص بالذات على أن الله لا ولد له !

« من طرف الفرنساوية المبني على أساس الحرية والتسوية . السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابرته . يعرف أهالي مصر جميعهم أن من زمان مديد الصناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة الفرنساوية ، ويظلمون تجارها بأنواع الايذاء والتعدى. فحضر الآن ساعة عقوبتهم . وأخرنا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من بلاد الابازة والجراكسة يفسدون في الاقليم الحسن الأحسن الذى لا يوجد في كرة الأرض كلها . فأما رب العالمين القادر على كل شيء فانه قد حكم على انقضاء دولتهم . يا أيها المصريون قد قيل لكم انني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه . وقولوا للمفترين انني ما قدمت اليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين . واننى اكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن العظيم . وقولوا ايضاً لهم إن جميع الناس متساوون عند الله . وان الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط . وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا ان يمتلكوا مصر وحدهم

ويختصوا بكل شيء أحسن فيها من الجوارى الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة . فإن كانت الأرض المصرية التزاماً للماليك فليرونا الحجة التى كتبت لهم . ولكن رب العالمين رءوف وعادل وحليم . ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعداً لا ييأس أحـــد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية .. وعن اكتساب المراتب العالية . فالعلماء والفضلاء والعقـلاء بينهم سيدبرون الأمور وبذلك يصلح حال الأمة كلها . وسابقاً كان في الأراضي المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر . ومـــا أزال ذلك كله إلا الظلم والطمع من الماليك. ايها المشايخ والقضاة والأئمة والجربجية وأعيان البلد وقولوا لأمتكم ان الفرنساوية هم ايضاً مسلمون مخلصون . وإثبات ذلك انهم قد نزلوا في رومية الكبرى وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائماً يحث النصارى على محاربة الاسلام . ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكواللرية الذين كانوا يزعمون ان الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين . ومع ذلك الفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني وأعداء اعدائه أدام الله ملكه » .

وهكذا نرى أن الغزوة الحضارية لم تكتف فقط بتملق اسلامنا. بل حاولت أن تثير فينـــا مشاعر الحرب الصليبية من جديد بتذكيرنا بعداوة الصليبيين (الآخرين) والتحبب الينا بقتل النصارى وتخريب كرسي « البابا » « الذي كان دائماً يحث النصارى على محاربة الاسلام » ! كما لم يفتهم — في الطريق — إنزال القصاص بفرسان مالطه ، « الذين كانوا يزعمون ان الله يطلب منهم مقاتلة المسلمين » !

نتابع المنشور :

« ومع ذلك ان الماليك امتنعوا عن طاعة السلطان غير ممتثلين لأمره فما أطاعوا أصلاً إلا لطمع انفسهم. طوبى ثم طوبى لأهالي مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلى مراتبهم . طوبى ايضاً للذين يقعدون في

مساكنهم غير مائلين لأحد الفريقين المتحاربين. فاذا عرفونا بالأكثر تسارعوا الينا بكل قلب لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك في محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقاً الى الخلاص . ولا يبقى منهم أثر .

المادة الأولى : جميع القرى الواقعة في دائرة قريبة بثلاث ساعات عن المواضع التي يمر بها عسكر الفرنساوية . فواجب عليها أن ترسل للسر عسكر من عندهـــا وكلاء . كما يعرف المشار اليه انهم أطاعوا وأنهم نصبوا علم الفرنساوية الذي هو ابيض وكحلي وأحمر .

المادة الثانية : كل قرية تقوم على العسكر الفرنساوي تحرق بالنار .

المادة الثالثة : كل قرية تطيع العسكر الفرنساوي ايضاً تنصب صنجق السلطان العثماني محبنا دام بقاؤه .

المادة الرابعة : المشايخ في كل بلد يختمون حالاً جميع الأرزاق والبيوت والأملاك التي تتبع المماليك . وعليهم الاجتهاد التـــام لئلا يضيع أدنى شيء منها .

المادة الخامسة: الواجب على المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة انهم يلازمون وظائفهم وعلى كل أحد من أهالي البلد أن يبقى في مسكنه مطمئناً وكذلك تكون الصلاة قائمة في الجوامع على العادة . والمصريون بأجمعهم ينبغي ان يشكروا الله سبحانه وتعالى لانقضاء دولة المماليك قائلين بصوت عال أدام الله اجلال السلطان العثماني . أدام الله اجلال العسكر الفرنساوي . لعن الله المماليك وأصلح حـــال الأمة المصرية . تحريراً بمعسكر الاسكندرية في ١٣ شهر سيدور سنة ١٢١٣ من إقامة الجمهور الفرنساوي يعني في آخر شهر محرم سنة هجرية أه بحروفه » (٢٧) .

واذا كان نابليون قــد وجد في المنشور « دجلاً من أعلى طراز » ، فلعله على حق باعتبار تاريخ صدوره. ولكن هذا الدجل أصبح مألوفاً في كل غزوة

استعمارية على الطراز الغربي . بل نكاد نجــد نفس الألفاظ ، وذات اللغة الركيكة في المنشورات التي وزعها عدوان ١٩٥٦ على بور سعيد ... وفي بيانات « جيش الدفاع » العدواني الاسرائيلي . التي تمتاز بلغتها الأفضل !

وما من مؤرخ جاد يتوقف عند مثل هذه المنشورات او يحاول ان يستشف منها تطورات او يتعرف منها على النوايا الحقيقية للمستعمرين . فهي ليست اكثر من دجل . وأهميتها التاريخية انها تعكس مستوى فهم مصدريها لعقلية واتجاهات وميول الموجهة اليهم هذه المنشورات . وغالباً مـا يكون هذا الفهم خاطئاً وقاصراً .

على أية حال ان نابليون كان يعتقد أن غزوه لمصر يمكن ان يتم برضاء الباب العالي ، أو على الأقل يمكن لهذه الغزوة ألا تثير غضب السلطان أو تسبب عداوته لفرنسا ، فقد فكر فعلاً في ارسال «تاليران» لإقناع الباب العالي بأن فتح مصر يتم لمصلحة تركيا .. والمنشور يؤكد على صداقتـه للسلطان . ويعدد جرائم المماليك في حق السلطان . ومعروف ان من أهم أسباب الحملة ان فرنسا كانت تعتمد في حماية مصالحها في مصر على السلطان الذي لا قوة له.. بينما كان الانجليز أعرف بالسلطة الحقيقية في مصر لذلك وقعوا معـاهدة مع البكوات المماليك ، كانت أجدى من كل صداقة فرنسا مع الباب العالي (*) .

ولعلها أول مرة تجبر فيها السلطة العسكرية ، القرى المصرية ، على رفع الصنجق العثماني ، ولا نظن انه رفع في الريف المصري ، على نحو جدي قبل

(*) ورأي « مورهيد » في هذا البيان الذي اعده نابليون قبل غزو مصر ليوزع بعد فتحها هو : « من اعمال الرياء والخديعة مع المبالغة والاسفاف الخارق في النفاق ، وهو اسلوب صـار مألوفاً لشعوب العالم اجمع في الدعاية السياسية في القرن الحالي » (٢٨) . ويرى ان بذرة الصدق الوحيدة في هذا البيان هي ان نابليون كان يعتقد في هذه المرحلة « بأنه من الجائز ان يكسب العثماني الى صفه » (٢٩) .

الحملة الفرنسية . فمنذ حملة حسن باشا القبطان ، كان هـــذا هو أول تذكير عنيف للمصريين بأنهم يتبعون الباب العالي !

أما ما هو تأثير هذا المنشور في المصريين فالثابت ان الجمـاهير الشعبية لم تقبله . فلا هي قبلت أن تكون من المصريين « الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعـلى مراتبهم » ولا « الذين يقعدون في مسكنهم غير مائلين لأحـــد من الفريقين المتحاربين . فاذا عرفونا بالأكثر تسارعوا الينا بكل قلب » .

فعندمـــا زحف « علم الفرنساوية » الذي هو « أبيض و كحلي وأحمر » وقف المصريون ينتظرون أن يؤدى المماليك دورهم التاريخي الذي نالوا بموجبه حق نهب وسلب مصر .. ألا وهو القتـال عن مصر ضد الغـزو الافرنجي . وتفرغ العامة — حيث وجـــد المماليك — لاداء دورهم التاريخي في الدعاء والصياح والآذان .. والتموين .

ويشهد « هيرولد » للعامة المصريين بأنهم بذلوا أقصى جهدهم ، في حدود المقاومـة المسموح لهم بهـا في ظل احتكار المماليك لمهنـة السلاح . يشهد « هيرولد » : « لو كانت المعـارك تكسب بالضجيج أو كان في الإمكان نقل الحيرة والاضطراب الى صفوف الاعداء ، لكان للمصريين تفوق حاسم على الفرنسيين (*) » .

فلما دارت الدائرة على المماليك وعجزوا عن اداء مهمتهم وفروا هاربين ،

(*) ولا شك ان « هيرولد » قد استوحى ملاحظته هذه ، عن عدم جدوى الصياح ، من تعليق الجبرتي الذي انتقد الصياح بقوله : « وكأنهم يقاتلون ويحاربون بصياحهم وجلبتهم فكان العقـــلاء من الناس يصرخون عليهم ويأمرونهم بترك ذلك ويقولون لهم ان الرسول والصحابة والمجاهدين انما كانوا يقاتلون بالسيف والحراب وضرب الرقـــاب . لا برفع الاصوات والصراخ والنباح . فلا يستمعون ولا يرجعون عما هم فيه ومن يقرأ ومن يسمع (٣٠) » .

بل وقبلوا بعد ذلك العمل تحت حماية الفاتح الجديد..حمل العامة مسئوليتهم، وسجلوا صفحة رائعة في سفر المقاومة العربية ضد الغزو الأوروبي .

أما تأثير المنشور في « النخبة » التي تتعرض الآن لحملة افتراء تطعن في وطنيتها .. فلا شك ان الجبرتي هو خير من يعبر عن مشاعر هذه النخبة التي لم تتردد لحظة واحدة في تحديد موقفها ، واختيار معسكرها كما سنرى . ويرى « مورهيد » :

« وأما حديث الفرنسيين الثوري عن الحرية والاخاء والمساواة ، فلم يكن في نظر المصريين ، إلا شقشقة لسان . وتلك حقيقة كان على « بونابرت » أن يتعلمها عملياً على يد المصريين . فالأئمة المصريون والشيوخ الدينيون — الذين حيرهم وأثار ارتباكهم واضطرابهم شيء كثير مما أبداه الفرنسيون في حملتهم — لم يخدعوا دقيقتين اثنتين في حقيقة ذلك الاعلان الذي نشره « بونابرت » زاعماً أنه ما جاء بجيوشه الى مصر إلا ليخلصهم من نير المماليك . إذ أدركوا ببداهتهم السديدة ، أنه إنما يريد انتزاع السلطة لنفسه ، ولذلك ضنوا عليه بالصداقة والتعاون ، فلم يستطع أن يقيم ما يحلم به من مشاركة المصريين للفرنسيين في أعباء الحكم والادارة . فلم يكن في طبيعة المصريين — اذ ذاك (*) — أن يتعاونوا مع حاكميهم الطغاة ، بل كانوا يؤثرون ان ينفضوا ايديهم منهم ويقاوموهم بأسلوبهم الدمث ، مقاومة سلبية قوامها الانطواء على أنفسهم . وعدم الثقة بموظفي الحكومة وممثليها . وأما الحرية والاخاء والمساواة فكان للمصريين — في ذلك الحين — مفهومهم الخاص لها ، فكانوا يمارسونها بطريقتهم المتوارثة في مساجدهم ووراء أبواب بيوتهم المغلقة، حيث لم يكن لحكامهم شأن بهم ، ولم يكن لهم شأن بحكامهم » (٣١) .

(*) رائع ! تحفظ مورهيد : « اذذاك » . ولكننا نطمئنه ان هذا الاسلوب لم يتغير ، من جانب الجماهير على الاقل . وان كان قطاع كبير من المثقفين — لاسباب سنشرحها مستقبلا — قد تعفن الى الحد الذي تعاون فيه مع الحاكمين الطغاة منذ محمد علي .

أليس من المشين حقاً ، أن يكون هذا الفهم متوفراً لكاتب غربي ، بينما يصدع بعض المصريين والعرب رؤوسنا بالحديث عن الدور التاريخي للمنشور السخيف ؟! وعن آثار تعاون المصريين مع المحتلين !

اما الجبرتي ، فرأيه سيء في المنشور ، إذ يصف موزعيه وحملته بأنهم « جملة من الاسارى الذين وجدوهم في مالطة ، ومعهم منه عدة نسخ ومنهم مغاربة وفيهم جواسيس وهم على شكلهم من كفار « مالطه » ويعرفون اللغات » (٣٢) .

وقد أثبت الجبرتي نص المنشور « بحروفه » ولم يعلق عليه اكثر من هذا الوصف المشين للذين روجوه ووزعوه .. والذي يغني عن التعليق . ولكن رأي الجبرتي في هذه المنشورات بصفة عامة ، سنتعرف عليه بعد قليل ، وهو لا يخرج عن رأي نابليون ومورهيد ؛ أي دجل وتغرير .

اما الرافعي الذي يتمزق تحليله تحت وطأة تناقض مزعج بين « تطرفه » الوطني ومثاليته، وبين تأثره — في نفس الوقت — بأفكار وخرافات المدرسة الاستعمارية .. فهو يرى :

« ان فكرة انشاء حكومة اهلية من المصريين هي أظهر ما في المنشور من الوعود التي اراد أن يجتذب بها قلوب المصريين ، والواقع ان نابليون في هذا المنشور قد استثار الروح القومية المصرية » (٣٣) .

وبالطبع نحن نرفض هذا المفهوم لأننا نعتبر ان الغزو هو الذي استثار الروح القومية لا المناشير والوعود الجوفاء . ولا شك أنه توسع شديد في تفسير العبارات ان نقول ان المنشور يعد بإنشاء حكومة اهلية من المصريين. ولكن الرافعي لا تفوته الاشارة الى نقطة هامة في المنشور تغفلها المدرسة الاستعمارية في تعليقاتها وهي : « ان منشور نابليون مع ما فيه من الوعود والعبارات الجميلة قد حوى مبدأ التهديد والوعيد وإنذار المصريين باستهدافهم لأشد انواع الأذى اذا هم لم يذعنوا للحكم الفرنسي ، لأن انذار القرى بإحراقها بالنار اذا

هي خرجت على الجنود الفرنسية أمر لا يتفق والقواعد الانسانية في معاملة الشعوب ولم نرَ في منشورات نابليون للايطاليين اثناء حروب ايطاليا تهديداً من هذا النوع ، وسيرى القارىء في خلال الفصول القادمة ان الفرنسيين قد استعملوا طريقة إحراق القرى في كثير من المواطن ، فكان ذلك تنفيذاً لما حواه منشور نابليون من التهديد والوعيد ، ولنا ان نفهم من هذا ان نابليون كان ينظر الى الأمة المصرية بغير العين التي ينظر بها الى الأمم الاوروبية » (افهموها بقى !) ويستنتج الرافعي ان اشفاع نابليون وعيده بتهديده «وانذاره الرهيب» كان « وحده كافياً ليصرفهم (اي المصريين) عن الاطمئنان لوعود نابليون . وقد أورد « ريبو » في كتابه منشور نابليون وحذف منه هذه المادة وأشار اليها اشارة مبهمة ، ولعله تعمد حذفها ليكتم عن القارىء مبلغ ما فيها من القسوة والخروج على قواعد الحضارة والانسانية » [٣٤] .

وان كان الرافعي يتفق معنا ، ولو على لهيب حرق القرى المصرية ، والعقوبات الجماعية ، في ان منشورات نابليون كانت عاجزة عن إقناع المصريين بأي مضمون تحرري ازاء ما يلمسونه بحواسهم الخمس من سلوكه الاستعماري البربري . إلا أننا لا نعتقد أن القارىء الأوروبي كان سينزعج كثيراً اذا ما أثبت « ريبو » في كتابه نص الانذار او انه انزعج فعلاً عندما قرأ في مصادر اخرى تنفيذ الوعيد . لأن القارىء الأوروبي كان قد اعتاد منذ القرن السادس عشر ، ومنذ أن انتصر الانسان الأوروبي على انسان العالم الثالث .. اعتاد الانسان الابيض على حرق وإبادة هذا الانسان الملون . واعتاد على اعتبار أي تنكيل ينزل به غير مخالف للقيم الانسانية بل بالعكس جزء من رسالة الرجل الأبيض الانسانية .

اما عن الذين أصدروا المنشور فقد رأينا كيف اعتبره نابليون : « قطعة من الدجل » وكتب المندوب البحري جوبير الى وزير البحرية : « لعلكم أيها الباريسيون تضحكون حين تقرأون هذا المنشور الاسلامي الذي وضعه قائدنا الأعلى ، ولكنه لم يعبأ بكل سخريتنا من المنشور » [٣٥] فلنترك اذن الدجل الذي هو من أعلى طراز ، ولنتابع

سلوك الحملة الفرنسية الذي لا يختلف كثيراً عن سلوك سائر الغزاة إلا فيما أضافته الحضارة الحديثة من وسائل اتقان القتل الجماعي والتنكيل بالشعوب التي ترفض الاحتلال .

وبعكس صدق التوقعات السيئة للشعب المصري عن سلوك الفرنجة المحتلين.. خابت توقعات الجنود الفرنسيين . فالشعب الذي واجههم كان مختلفاً تماماً عن الصورة التي جاءوا بها ، او التي روجت بينهم عن قصد ، تشجيعاً لهم على تحمل مخاطر رسالتهم التحريرية والتحضيرية !

فنابليون الذي روعته مقاومة الاسكندرية والفلاحين على طول الطريق الى القاهرة يكتب الى حكومة الادارة : « هذه الأمة تختلف كل الاختلاف عن الفكرة التي اخذناها عنها من رحالتنا . انها أمة هادئة باسلة معتزة بنفسها » (٣٦) .

ويكتب أخوه : « ان في الشعب رباطة جأش مدهشة ، فلا شيء يهزهم ، وليس الموت عندهم اكثر من رحلة عبر المحيط عند الرجل الانجليزي .. أما طلعتهم فمهيبة . وسحننا نحن ، حتى أقواها وأبرزها ملامح ، تبدو كوجوه الأطفال اذا قيست بسحنهم » .

وتمكن نابليون من شق طريقه الى المدينة، بفضل التفوق الساحق لقواته. وتدخل الضابط التركي صاحب الخروفين ، والمعجب بالمنشور، لإقناع الاهالي، رعية سلطانه، بعدم المقاومة والاستسلام للغزاة الجدد.. فحمل رسالة نابليون التهديدية الى الشيوخ وأعيان المدينة .. وحضر هؤلاء لتسليم المدينة وحلف يمين الطاعة . وبينما استسلم الأعيان بمساعي المندوب التركي في الصباح ، تأخر استسلام « محمد كريم » الى اليوم التالي . وثبته نابليون في منصبه كحاكم للمدينة .

ولكن « محمد كريم » لم يضمر أية نية للتعاون او الاستسلام . كان ذلك واضحاً في ملامحه التي استشف منها «فيفان دينون» : « تبينت في التعبير الذي

ارتسم على وجـــه ذلك الرجل ، خداعاً ونفاقاً ، هزته ثقة القائد الأعلى ، وسماحته ، ولكنها لم تقهره » .

ويخطىء « فيفان دينون» مرة اخرى في فهم الروح الاسلامية ، والصلابة المصرية فيظن ان رفض « محمـد كريم » ينبعث من مجرد سوء تقدير لتفوق الغرب المادي، فيفسر ملامحه الخادعة هذه بأنه « لم يكن قد عرف بعد مدى مواردنا ولا تأكد من أن مـا وقع لم يكن نتيجة تهويش فقط . ولكنه حين رأى ان ٣٠٠٠٠ جندي ومدفعيتهم قد أنزلوا الى البر ، لم يأل جهـداً في الالتصاق ببونابرت،ولم يبرح مقر القيادة . وكان بونابرت قد ذهب الى فراشه « ومحمد كريم » لا يزال في الحجرة المجاورة » [٣٧] .

هكذا ظن « فيفان » وربما نابليون نفسه . ولكن الحقيقة كانت مخالفة تماماً لهذا التصور ، فكما قال « هيرولد » معلقاً على ظن « مينون » هذا : « ولكن الذي تبين فيما بعد انه كان مخادعاً حتى في ولائه هذا » .

وبدأت قوات « نابليون » تشق طريقها الى القاهرة وسط: « شعب معاد متعصب، عديم الثقة،سهل الانفعال»[٣٨] (كما يصفه مؤرخ غربي يعيش ويكتب في الستينات من القرن العشرين . ورغم معلوماته المدهشة في وفرتها وصدق معظمها . إلا أنه لم يستطع أن يتخلص من مفاهيم الحضارة الغربية وصليبيتها وميراثها المعادي) .

ورغم المنشور الاسلامي الذي وزعه نابليون ، فان استجابة البدو لنداء مشايخ القاهرة ، كان أقوى وأفعل، فقد بادروا الى قطع مساوماتهم التجارية مع جيش نابليون ، فور تلقيهم أمراً بالجهـاد من مشايخ القاهرة ، « وبدأوا يطاردون الجيش الغازي » [٣٩] .

ويبـــدو أن ظروف الزحف القاسية عبر الصحراء وفي فصل القيظ ، وبالذات في الشهر الملتهب (يوليو) كانت تغري افراد الجيش بالتخلف قليلاً، او التباطؤ في السير .. وكان بعض هؤلاء المتخلفين يقع في أسر قوات البدو

المطاردة، كرهاً او دون مقاومة جادة من جانبه ، فقد كان لدى آسريه ماء وغذاء ، وكانوا بدوا « متخلفين » ، لا يقتلون الاسرى ، بعكس ما كان يفعل ممثل الثورة الفرنسية ، ورمز اوروبا — التألق والمدنية ، بالأسرى والرهائن .

ولمواجهة تفشي حالة الرغبة في الاسر هذه ، عمدت القيادة الى ترويج او الى تضخيم أنباء تخيف بها غلمان فرنسا الذين جندهم نابليون وجاء يفتح بهم الشرق .

كانت هذه الانباء المروعة تتحدث عن ممارسة البدو اللواطه مع الأسرى من الجنود الفرنسيين . نفس القصة التي سيحكيها لورنس بعد ذلك بقرن وربع قرن ، ولكن عن الجيش التركي ! دون أن ينجح ذلك في وقف ولع المستشرقين بالشرق !

وحتى لو صحت هذه الروايات التي يهتم بها —ويا للغرابة— مؤرخ امريكي(*)، اهتماماً بالغاً . وفي عام ١٩٦٢ !.. بل ويفسرها تفسيراً يتسم بالعنصرية إذ يقول : « ويصعب تفسير سلوك قوم يتغذون بلبن الابل طوال العام » ولا ندري بماذا يفسر وجود ١٣ مليون لوطي في الولايات المتحدة ، لم يذوقوا لبن الأبل طوال الفترة التي عاشها انسان الغرب على ظهر هذا الكوكب ؟!

على أية حال — وبمقاييس الحضارة الغربية — كان هؤلاء البدو يسبقون رفاق السلاح الامريكيين بأكثر من القرن ونصف القرن الذي عيرنا بهم نفس الكاتب ! او كانوا في نفس المستوي الحضاري لنابليون الذي يروي عنه « هيرولد » انه انتهر جندياً أسيراً غلبه التأثر وهو يروي ما فعله به البدو . فانتهره نابليون قائلاً : « وما يبكيك .. أهذا كل ما تثير حوله هذه الضجة أيها الغبي ؟ لقد دفعت ثمن إهمالك . وكان يجب أن تلزم وحدتك . والآن كف عن البكاء وأجب عن اسئلتي » [٤٠]. واستنكر نابليون عفة احد الرماة

(*) كرستوفر هيرولد .

الفرنسيين الذي آثر الموت . ولا شك ان نابليون كان يفضل أن يعود اليه جميع الجنود أحياء ليواصلوا مهمتهم التحضيرية والتحريرية . بل لعله كان يرى ان هذه المعاملة التي يشنع بها المؤرخ الغربي اليوم ، لا تفقد مقاتليه القدرة على قتل المماليك والمصريين ، وهي كل ما كان يعنيه من كفاءات الجنود .

وأن صحت ادعاءات الفتيان الفرنسيين — ضباطاً وجنوداً — عن معاملة البدو لهم ، فهي تنتقص من ادعاءات المدرسة الاستعمارية التي يقول تلاميذها ان الحملة الفرنسية احدثت انقلاباً جنسياً في مصر ، فنقلت اهتمام المصريين من « الغلمان الى النساء » (*) (!!)

إن هذا الادعاء يتهافت ، فلو صحت الروايات الفرنسية ، لكان لنا أن نفترض ان « اللواطه » قد شهدت موسماً من اكثر مواسمها رواجاً وازدهاراً مع آلاف الفتيان الفرنسيين يبكون وهم يحكون مغامراتهم في خيمة العدو .. «وسر عسكرهم» ينهاهم عن الأسى والأسف على مثل هذه «الأمور البسيطة».

على أية حال سواء أكان استجابة لنداء الجهاد أم طلباً للبشرة البيضاء في جنود الثورة الفرنسية ، فقد استمرت مطاردة البدو للجيش الفرنسي « طوال الطريق من الاسكندرية الى القاهرة » . و « منعاً لتخلف المتخلفين (...) صدرت الأوامر للوحدات بأن تسير في مربعات بدلاً من الطوابير » (٤١) ورغم ذلك تخلف كثيرون لأنهم ماتوا من ضربة الشمس ، او أرادوا الموت . « أما الذين ظلوا على قيد الحياة فقد قتلهم البدو او اسروهم » (٤٢) .

وكان اللقاء الأول بين الجيش الفرنسي وقوات المماليك الرئيسية عند شبراخيت . ورغم ان نابليون قد أمر بعزف المارسيليز : « لأنه كان عليماً بتأثيره في الجنود فهذا النشيد الرائع يثير شجاعة الجند ويلهب وطنيتهم»(٤٣). إلا أن الذهب والجواهر في ملابس المماليك كانت أقوى تأثيراً من المارسليز في الهاب حماسة جيش التحرير الفرنسي . فما ان رأوا فخامة ثياب المماليك

(*) كما يتباهى لويس عوض .

واكتشفوا مـدى الثروة التي يحملونها معهم في ميدان القتال حتى التهبت حماستهم للفوز بها : « ومن تلك اللحظة صمموا على الظفر بهـذه المغانم من اعدائهم » [٤٤] .

وبالطبع لم تقتصر حماسة جيش التحرير على نهب المقاتلين وسلب جثثهم ، بل واصلوا مهمتهم التحضيرية حيثما اتيحت لهم الفرصة .

« وكان معظم الضباط قد استسلموا لما يقوم به جنودهم من اعمال النهب والسلب لأن نظام التموين انهار فعلاً . وكان الضباط العاجزون عن النهب ، يرقبون رجالهم في شيء من الحسد وهم يشون مـا سرقوا من حمام ودجاج وخراف » [٤٥] .

وكان اللقاء الثاني بين الشرق في أبشع صور تخلفه ممثلاً في مراد بيك ، والغرب في قمة تفوقه ممثلاً في نابليون ، عند امبابه ..

فقد جاء مراد بأوهام الشرق عن قوة الغرب ، التي زعزعتها بدون شك انباء المعارك التي سبقت امبابه .. ولكن الوقت كان متأخراً جـداً ، للندم على ضحكته التي اطلقها عندما حذره قنصل النمسا من احتمال غزو فرنسي ، وكان رد مراد : « ماذا تريـد من اخافتنا من الفرنسيين ؟ أليسوا أشباه الخواجات الذين نراهم بيننا ؟ انه ليكفيني إذا نزلوا الى سواحل مصر في مائة الف من رجالهم أن ابعث للقائهم ببعض صغار المماليك ليقطعوا رؤوسهم بحد الركاب » .

نعم بحد الركاب .. فلا حاجة لاستخدام السيف ! ولما ألحّ القنصل الذي كانت تحركه على الأغلب ثارات « انطوانيت » ملكة فرنسا النمساوية .. «جامل مراد، القنصل، بأن ارسل الى الاسكندرية قنطارين من البارود» [٤٦].

ويعلق « مورهيد » : على غفلة مراد التاريخية بقوله: « ولم يكن « مراد بيك » وحده في الانسياق الى هـذه الأوهام ، فقد انقضت قرون طويلة على انتهاء الحروب الصليبية بالفعل ، وقـد استقر في أذهان الناس — في طول الامبراطورية العثمانية وعرضها — ان اولئك المسيحيين الغربيين محاربون

فاشلون ، وان قيادتهم لا خبرة لها بفنون القتال. وقد لخص الاستاذ «توينبي» الموضوع بوضوح شديد ، حين قال « ان المفارقة الحريفة في الموضوع كله، ان الفرنسيين كانوا — في الواقع — قد هبطوا مصر من قبل بنية غزوها ، وذلك في القرنين الثاني عشر والثالث عشر في زمن كانوا فيه أدنى مرتبة من الشرقيين من حيث الحضارة العامة، ومن حيث اجادتهم لفن القتال . فالفارس الفرنسي في العصور الوسطى كان صورة ممسوخة — وأقل خبرة وبراعة — من الفارس المملوك ، ولذا حاقت بـه الهزيمة المرة عندما أقـدم على مواجهة المماليك في ساحة القتال. ورجع عن عزمه عن غزو مصر . واعتبر التفكير في ذلك غير مجد . وقد ظل المماليك مدة خمسة قرون ونصف قرن على حالهم (فيما عـدا انهم تخلوا عن قسيهم المجلوبة من آسيا الوسطى، واستخدموا البنادق الانجليزية الطويلة) وقد خيّل اليهم — بطبيعة الحال — ان الفرنسيين لم يتغيروا إلا بمقدار ما تغيروا هم أنفسهم . ولذا فإنهم عندما سمعوا بأن نابليون اجترأ على النزول في الاسكندرية ، حسبوا انهم سيذيقونه مـا اذاقوه من قبل للقديس لويس (لويس التاسع ١٢٤٩ م) وهكذا ركبوا خيولهم وهم خليوا البال ، وانطلقوا وفي نيتهم ان يطأوا الغزاة تحت سنابك خيولهم » (٤٧) .

« كانت مصر غـــير متأهبة اطلاقاً لصدمة نزول الجيوش الفرنسية على ارضها . ولم يكن لديها سبيل لمعرفة ان هذا الغزو لا يشبه في شيء أيما غزو حدث للبلاد في الماضي. وان هذه الحملة تعني انهيار العصور الوسطى في الشرق الأدنى » .

« ان سوء طالع المماليك قضى أن يكون لقاؤهم الأول مع الغرب ضد جيش تحت قيادة أعظم عسكري في زمنه كله . ولكن الفرنسيين مـا كانوا ليعجزوا عن تدمير مثل هذا العدو البدائي والقضاء على شوكته، ولو لم يكن نابليون هو القائد . فقد كان الفرنسيون — في ذلك الحين — متفوقين على اعدائهم هؤلاء ، في سائر فنون القتال ومعدات الحرب ، ومن حيث التدريب

والتنظيم ، تفوقاً لا حد له بحيث كانوا يبدون لهم وكأنهم مخلوقات خارقة للطبيعة » (٤٨) .

وارتكب « مراد بيك » كل الاخطاء الممكنة ، ولو ان نتيجة المعركة – كما رأينا – كانت مقررة سلفاً (رغم اعتراضات هيرولد) بين ٢٥،٠٠٠ جندي فرنسي، وأقل من ربعهم من الفرسان المماليك.. لم يكن نابليون بحاجة الى مربعات ، كان لديه من الجنود ما يكفي لعمل مربع فرنسي حول كل فارس مملوكي ..

وسُحقت قوة المماليك بعملية عسكرية سهلة ، تخللتها بعض بطولات من آخر فرسان العصور الوسطى .

وعكف جنود « ديزيه ورينيه » – كما يقول « هيرولد » – على تجريد جثث الاعداء المهزومين وسلب ما تحمله من غنيمة، وقد «ظفر الملازم ديفرنوا بعمامة صفراء مصنوعة من الكشمير ، وأكثر من خمسمائة قطعة نقود ذهبية مخيطة في طربوش عمامته (عمامة المملوك الذي استشهد) وسيف رائع رصع غمده وطرف مقبضه بالذهب ، ومقبضه مصنوع من قرن الخرتيت ، وسلاحه من الصلب الدمشقي» (٤٩) كل هذا كان مع جثة مملوك متقدم في السن، أبيض اللحية قاتل ببطولة او بعبارة أدق اندفع الى الذبح داخل صفوف الفرنسيين ببطولة أدهشت جنود الثورة الفرنسية ، وهم يندفعون من طوابيرهم لتحطيم رأس المملوك الشيخ الذي كان يزحف على يديه وركبتيه ولحيته تكنس الأرض بعدما سقط جواده(*) وأصر هو على الاندفاع داخل المربعات الفرنسية لقتل « ديفرنوا » وعرقلة « تحرير » مصر !

« وعكف الجنود في الأيام التالية للمعركة على تصيد الجثث من النيل ، وقد وجدوا مع كثير منها ٢٠٠ – ٣٠٠ قطعة نقود ذهبية . وكانت الأجسام

(*) هل يكون هو ايوب بك الدفتردار ؟

العارية تقذف في الماء ثانية بعد تجريدها مما تحمل تنقل نبأ هزيمة المماليك الى البحر المتوسط » (٥٠) .

ولكن الجثث العارية المسلوبة المنهوبة دون أي احترام للموت ، كانت تنقل أيضاً الى مئات القرى الواقعة على النيل ، وحدة السلوك في كل من الجيشين.. التتري، والجيش الفرنسي ذي الراية المثلثة الألوان. ولم يكن هناك مبرر واحد للذين يرون الجثث العارية لكي يتوقعوا ، من الغزاة الجدد، سلوكاً حضارياً مختلفاً عن سلوك الانكشارية في أحط مراحلها .

أما في القاهرة حيث كان اتجاه النيل لا يسمح بوصول الجثث . فقد كان الاحساس بالكارثة لا يقل عن احساس القرى الممتدة من الاسكندرية الى امبابة والتي أسعدها الحظ برؤية الراية المثلثة الألوان. كان المصريون العائدون الى المدينة « في بكاء ونحيب يلطمون وجوههم ويقولون يا ويلنا قد وقعنا في أسر الافرنج » (٥١) .

الفَصْل الثّالِث

المدفع والمنشور ..

الدجال يدخل القاهرة

لا شك انـه من دلائل الانهيار العام لواقعنا المعاصر ان أمتنـا لم يتح لها « جبرتي » معاصر ، يؤرخ معاركنا المصيرية .. فلو أتيح لنا هذا « الجبرتي » لما اختلفت ملاحظاته عن دور الجماهير اليوم ، عمـا سجله سلفه منذ مائة وسبعين عاماً !

وإذا كانت جمـاهير حرب ١٩٦٧ لم تضطر للخروج الى سينـاء والجولان والضفة الغربية لتتبـع انبـاء المعركة التي تقرر مصيرها ، فلم تكن بحاجـة لذلك الخروج بفضل التقدم التكنولوجي الذي أتاح لها متابعة الانباء من مقاهي القاهرة ودمشق وبلاجات الاسكندرية واللاذقية بواسطة الترانزستور .. بينما تولت الاذاعات مهمة الصياح والدعاء !.. أما جماهير معركة « الاهرام » ، فكانت مضطرة بحكم تخلف العصر ، الى الانتقال بنفسها والخروج الى «بولاق» لمتابعة المعركة . ولم يفكر أحد في تجنيدها للقتـال . بل كان هناك شبه اتفاق عام على أن دورهـا ينحصر في « الاهتمام » و « المتابعة » والتبرع بالأموال والاقوات للمقاتلين والدعـاء لهم بالنصر .. والثقـة في حكمة النخبة القائدة .

« الجبرتي » يصف لنا ما هي واجبات العامة عندما أعلن النفير العام ..

ويجب أن نتحلى بالتواضع ، فلا نسخر من أجدادنا ، إذ أن اعـــلان التعبئة العامة اليوم في أي بلد عربي ، لا يفرض على العامة أكثر ممـا فرضه النفير العـــام الذي أعلنه ابراهيم بيك والطرابلسي باشا ونصوح باشا منذ مائة وسبعين عاماً !

« نادوا بالنفير العام وخروج الناس للمتاريس وكرروا المناداة بذلك كل يوم . فأغلق الناس الدكاكين والاسواق وخرج الجميع لبر بولاق فكانت كل طائفـة من طوائف أهل الصناعات يجمعون الدراهم من بعضهم وينصبون لهم خياماً أو يجلسون في مكان خرب أو مسجد ويرتبون لهم قيماً يصرف عليهم ما يحتاجون له من الدراهم التي جمعوها من بعضهم . وبعض الناس يتطوع بالانفاق على البعض الآخر (*) . ومنهم من يجهز جمـاعة من **المغاربة او الشوام** بالسلاح والأكل وغير ذلك (!! كالتبرع والحماسة اليوم **للفدائيين الآخرين !**) بحيث ان جميع النـاس بذلوا وسعهم وفعلوا مـا في قوتهم وطاقتهم (!) وسمحت نفوسهم بانفاق أموالهم فلم يشح في ذلـك الوقت أحد بشيء يملكه ولكن لم يسعفهم الدهر (١) » .

وحتى يومنا هذا ما زالت العامة تشكو من عدم إسعاف الدهر ، رغم ما يبدو لها ، وكأنها قد بذلت كل جهـد ممكن لاستعجال هذا الاسعاف وتوفير شروطه !

« وخرجت الفقراء وأرباب الأشاير بالطبول والزمور والاعلام والكاسات وهم يضجون ويصيحون ويذكرون بأذكار مختلفة . وصعد السيد عمر افندي نقيب الاشراف الى القلعة فأنزل منها بيرقاً كبيراً أسمته العامة البيرق النبوي، فنشره بين يديـه من القلعة الى بولاق . وأمامـه وحوله ألوف من العامة بالنبابيت والعصي يهللون ويكبرون ويكثرون من الصيـاح ومعهم الطبول والزمور . وغير ذلك . وأما مصر فانهـا باقية خالية الطرق . لا تجد بها

(*) ربما كان اختفاء هذا التآخي هو التطور الوحيد الذي حققناه !

أحداً سوى النساء في البيوت والصغار وضعفاء الرجال الذين لا يقدرون على الحركة فانهم مستترون مع النساء في بيوتهم والأسواق مصفرة والطرق مجفرة من عدم الكنس والرش ». ويمضي الجبرتي فيعطينا صورة معاصرة في كل تفاصيلها : « وغلا سعر البارود والرصاص بحيث بيع الرطل البارود بتسعين نصفاً والرصاص بتسعين وغلا جنس انواع السلاح وقل وجوده وخرج معظم الرعايا بالنبابيت والعصي والمساوق وجلس مشايخ العلماء بزاوية علي بيك ببولاق . يدعون ويبتهلون الى الله بالنصر . وأقام غيرهم مع الرعايا . البعض بالبيوت والبعض بالزوايا . والبعض في الخيام . وحصل الأمر ان جميع من بمصر من الرجال تحول الى بولاق وأقام بها من حين نصب ابراهيم بيك العرضي هناك الى وقت الهزيمة سوى قليل من الناس الذين لا يجدون لهم مكاناً ولا مأوى فيرجعون الى بيوتهم يبيتون فيها . ثم يصبحون الى بولاق . فأرسل ابراهيم بيك الى العربان المجاورة لمصر ورسم لهم ان يكونوا في المقدمة بنواحي شبرا وما ولاها . كذلك اجتمع عند مراد بيك الكثير من عرب البحيرة والجيزة والصعيد والخبيرية والقيعان وأولاد علي والهنادى وغيرهم . وفي كل يوم يتزايد الجمع ويعظم الهول ويضيق الحال بالفقراء الذين يحصلون أقواتهم يوماً فيوماً لتعطل الأسباب واجتماع الناس كلهم في صعيد واحد [٢] » .

وهكذا تمت التعبئة العربية التقليدية التي لم يخرج عنها « الكفاح » العربي حتى اليوم. التعبئة التي تحشد الجميع للمعركة ولا تتيح لأحد أي دور حقيقي في المعركة . التعبئة التي تتيح للجميع أن يصرخوا ، ويهللوا ، ويهتفوا ، ويتألموا ، ويقاسوا من أجل المعركة دون مساهمة حقيقية في المعركة أو تحقيق أي نفع يخدم المعركة. ورغم ارتفاع سعر السلاح والاقبال على شرائه ، وكسب تجاره لثروات مفاجئة . فان هذا السلاح لا يستخدم في العادة ضد العدو ، وبالذات في المعركة الحاسمة حيث يتولى الجيش التقليدي مسئولية

القتال ، وتحقيق الهزيمة ، وحيث تحرص كل الأوضاع على إبعاد الشعب عن المعركة . أو عن الفعل الايجابي الوحيد المطلوب وهو : القتال ! بل ان هذا الابعاد لا يتم ساعة المعركة ، ولا في شكل قرار ، بل كنتيجة محتومة لسياسة طويلة الأجل تجعل الجماهير عاجزة — حتى لو أرادت — عن تخطي حاجز السلبية !

بل وتبلغ اعادة التاريخ لنفسه مرحلة المهزلة ، عندما يحدثنا الجبرتي عن اختلاف المصريين حول الجهة التي ينتظرون وقوع الغزو منها أو قدوم الفرنجة منها ، مع انه لم يكن لديهم أجهزة رادار يمكن تضليلها !

« وتختلف الناس في الجهة التي يقصدون المجيء منها فمنهم من يقول انهم واصلون من البر الغربي ، ومنهم من يقول بل يأتون من البر الشرقي ، ومنهم من يقول بل يأتون من الجهتين . هذا وليس لأحد من أمراء العسكر همة أن يبعث جاسوساً أو طليعة تناوشهم القتال قبل دخولهم وقربهم ووصولهم الى فناء المصر . بل كل من ابراهيم بيك ومراد بيك جمع عسكره ، ومكث مكانه لا ينتقل عنه. ينتظر ما يفعل بهم وليس ثمة قلعة ولا حصن ولا معقل. وهذا من سوء التدبير واهمال أمر العدو » ! « وقد كان الظن بالفرنسيس أن يأتوا من البرين . بل أشيع في عرضي ابراهيم بيك انهم قادمون من الجهتين . فلم يأتوا إلا من البر الغربي [٣] » (برضه !)

وإذا كان امراء العسكر العرب ، لم يختلفوا كثيراً في معارك ١٩٦٧ ، عن امراء العسكر المماليك في حرب ١٧٩٨ . فان الأمة قد اختلفت الى الأسوأ — فكما قلنا — لم ينجب عصرنا « جبرتي » آخر، له من دقة الملاحظة وصدق التعبير والاخلاص ما يمكنه من تسجيل الأخطاء ، كما سجل الجبرتي اخطاء الحاكمين ، أو طبقة المماليك المنحلة :« ولكن الأجناد منحلة عزائمهم . مختلفة آراؤهم . حريصون على حياتهم وتنعمهم ورفاهيتهم . مختالون في ريشهم . معتزون بجمعهم . محتقرون شأن عدوهم . مرتبكون في رويتهم .

مغمرون في غفلتهم . وهـذا كله من أسباب مـا وقع من خذلانهم وهزيمتهم[٤] » .

لا أظن ان محللاً ديالكتيكياً معاصراً يستطيع ان يقدم تشريحاً لطبقة منهـارة ، وجيش انتهى دوره كقوة مقاتـلة ، بمثل ما فعل الشيخ الجبرتي الازهري . ممـا يؤكد ان فهم قوانين التخلف ، وعوامل النصر لم تكن مستعصية على شيوخ الازهر .. ولكن « لم يسعفهم الدهر » !

والخلاف الوحيد الذى تسجله صورة الجبرتي ، عن الصور المعاصرة ، هو حالة النهب والسلب التي سادت الاقليم المصري بفعل انحسار قبضة الدولة ، وتمركزها عند شاطىء النيل في انتظار زحف الفرنجة .

والمعروف ان في الريف المصري طاقة هائلة مكبوتة بفعل أربعـة آلاف سنة من السلطة المركزية التي تفرضهـا طبيعة النيل — كما أشرنا من قبـل — وهذه الطاقة تشبه الغازات المخزونة لا تحتاج إلا لثقب صغير من الانفراج لكي تتفجر .. ولأنها ليست موجهـة فهي تتفجر في شكل أعمـال تدميرية غالباً . فما تكاد السلطة المركزية تنهار ، حتى ينفجر الريف في أعمال عنف جنونية ..

« وأما بلاد الأرياف فانهـا قامت على ساق يقتـل بعضهم بعضاً وينهب بعضهم بعضاً وكذلك العرب غارت على الاطراف والنواحي . وصار قطر مصر من أوله الى آخره في قتل ونهب واخافة طريق وقيام شر واغارة على الأموال وافساد المزارع وغير ذلك من انواع الفساد الذي لا يحصى[٥] » .

وعندما تمت الهزيمة فر مراد بيك الى قصره « حيث قضى بعض اشغاله في نحو ربع ساعة . ثم ركب وذهب الى الجهة القبلية ، وبقيت القتلى والثياب والأمتعة والأسلحة والفرش ملقاة على الأرض ببر انبابه تحت الأرجل[٦] » .

امـــا ابراهيم بيك والباشا وبقية القيادة فلم يتوقفوا إلا في العادلية في الطريق الى الصالحية .

فلما استقر هناك « أرسل يأخذ حريمه وكذلك من معه من الأمراء » .

ومرة اخرى تصدمنا نفس الصورة لسلوك هـــذه الجماهير التي تحشد على طبول المعركة ، ثم لا يسمح لها بالقتال دفاعاً عن وطنها ، فاذا وقعت الهزيمة تكتشف انها تقف وحدها دون اي تشكيل يرعاها ، او يدافع عنهـا ، او يوجهها ، او يقف معها . فلا يكون امامها إلا « الهرب » .. « الهجرة ».. « النزوح »... التحول الى لاجئين . ولأن نفس العوامل ما زالت تحكم علاقة الفئات الاجتماعية ببعضها، فان صورة اللاجئين عبر المائة وسبعين عاماً الماضية لا تختلف كثيراً عن مثيلتها يوم الثلاثاء الثالث من صفر ١٢١٣ هـ (يوليو ١٧٩٨) :

« فأركبوا النساء بعضهن على الخيول ، وبعضهن على البغال والبعض على الحمير والجمال والبعض ماشى كالجوارى والخدم . واستمر معظم الناس طول الليل خارجين من مصر البعض بحريمه . والبعض ينجو بنفسه ولا يسأل أحد عن أحد . بل كل واحـد مشغول بنفسه عن أبيه وابنه . فخرج تلك الليلة معظم اهل مصر . البعض لبلاد الصعيد والبعض لجهـة الشرق وهم الأكثر . وأقام بمصر كل مخاطر بنفسه لا يقدر على الحركة ممتثلاً للقضاء متوقعاً للمكروه. وذلك لعدم قدرته وقلة ذات يده وما ينفقه على حمل عياله وأطفاله. ويصرفه عليهم في الغربة . فاستسلم للمقدور ولله عاقبة الأمور » . « وخرج أعيـان الناس وأفندية الوجاقات وأكابرهم ونقيب الأشراف وبعض المشايخ القادرين . فلما عاين العامة والرعية ذلك اشتد ضجرهم وخوفهم وتحركت عزائمهم للهروب واللحاق بهم . والحال أن الجميع لا يدرون أي جهة يسلكون . وأي طريق يذهبون . وأي محل يستقرون . فتلاحقوا وتسابقوا وخرجوا من كل حدب ينسلون . وبيع الحمار الأعرج او البغل الضعيف بأضعاف ثمنه وخرج اكثرهم

ماشياً او حاملاً متاعه على رأسه وزوجته حاملة طفلها . ومن قدر على مركوب أركب زوجته أو ابنته ومشى هو على أقدامه وخرج غالب النساء ماشيات حاسرات وأطفالهن على اكتافهن يبكين في ظلمة الليل . واستمروا على ذلك بطوله . ليلة الأحد وصبحها . وأخذ كل انسان ما قدر على حمله من مـال ومتاع فلما خرجوا من ابواب البلد وتوسطوا الفلاة تلقتهم العربان والفلاحون فأخذوا متاعهم ولباسهم وأحمالهم بحيث لم يتركوا لمن صادفوه مـا يستر به عورته . او يسد جوعته . فكان ما اخذته العرب شيئاً كثيراً يفوق الحصر بحيث ان الأموال والذخائر التي خرجت من مصر في تلك الليلة اضعاف مـا بقي فيها بلا شك لأن معظم الأموال عند الأمراء والأعيان وحريمهم . وقد أخذوه صحبتهم . وغالب مساتير النـاس وأصحاب المقدرة أخرجوا ايضاً ما عندهم . والذى أقعده العجز وكان عنده ما يعز عليهم من مال او مصاغ أعطاه لجـاره او صديقه الراحل . ومثل ذلك أمانات وودائع الحجاج من المغاربة والمسافرين فذهب ذلك جميعه وربما قتلوا من قدروا عليه او دافع عن نفسه ومتاعه وسلبوا ثياب النساء وفضحوهن وهتكوهن وفيهم الخوندات والأعيان فمنهم من رجع من قريب وهم الذين تأخروا في الخروج . وبلغهم ما حصل للسابقين . ومنهم من جازف متكلاً على كثرته وعزوته وخفارته فسلم أو عطب . وكانت ليلة وصباحها في غاية الشناعة . جرى فيها مـا لم يتفق مثله في مصر ولا سمعنا بمـا شابه بعضه في تواريخ المتقدمين فما راء كمن سمعا » (٧) .

وبانهيار القيادة الرسمية، انبثقت قيادة جديدة من المشايخ الصغار. باعتبار ان المشايخ الكبار كانوا مع الخارجين ... أو يتعذر عليهم بحكم مكانتهم ان يبدأوهم الاتصال بالسلطة الجديدة. فاجتمع هؤلاء وتشاوروا وقرروا مفاوضة الغازي . وسنرى ان ذات الجماهير التي تصرفت على هذا النحو عندما سقطت قيادتها الرسمية ، او حتى في ظل هـذه القيادة ... ذات الجماهير تحولت الى قوة مقـاتلة متشبثة بأرضها تعرف كيف تستخدم السلاح ، بل وتصنعه .

وتواجه ذات الجيش الذي قابلته بالصياح ، وفرت فور انتصاره .. ستقاتل من بيت الى بيت ومن شارع الى شارع ، عندما تحمل هي مسئولية الدفاع عن وطنها . وستظهر قيادة جديدة من بينها ، وتقودها الى تحقيقه .

ودخل نابليون القاهرة واستطاع الدجال البارع أن يكرر لعبة « حسن باشا القبطان » فيحدث تأثيراً حسناً في الجماهير ، في اللقاء الأول . ففي الوقت الذي كانت فيه قواته تنهب وتسرق وتسلب الأحياء والأموات على طول الطريق من الاسكندرية الى القاهرة ، استطاع نابليون أن يحجز قواته خارج القاهرة ، ويكتفي بعدد محدود يدخلها : « من غير سلاح ولا تعد .. بل صاروا يضاحكون الناس ، ويشترون ما يحتاجون اليه بأغلى ثمن . فيأخذ أحدهم الدجاجة ويعطى صاحبها ثمنها ريال فرانسه ويأخذ البيضة بنصف فضه قياساً على أسعار بلادهم .. وأثمان بضائعهم . فلما رأى منهم العامة ذلك أنسوا بهم واطمأنوا لهم وخرجوا اليهم بالكعك وأنواع الفطير والخبز والبيض والدجاج وأنواع المأكولات وغير ذلك مثل السكر والصابون والدخان والبن. وصاروا يبيعون عليهم بما أحبوا من الأسعار وفتح غالب السوقة الحوانيت والقهاوى » [٨] .

لا شك ان هذا الاسلوب افضل من مطاردة الفلاحين وتفتيش البيوت بحثاً عن الطعام.. وبعد يومين فقط سيدفع المصريون العملة التي تكفي لكي يشتري جنود فرنسا نقداً.. وحينما لا توجد عملة، لن يتردد هؤلاء الجنود في اغتصاب الطعام او الانسان ذاته . وستتحرك المقاومة الشعبية في مواجهة هذا الغزو ، بالدوافع القومية التي أشرنا اليها ، وهي التي تحرك الأمم ، بفعل الفطرة السليمة ، لمقاومة الاخضاع لمصلحة الغازي.. كما ستتحرك هذه المقاومة بدافع العوامل المباشرة التي تستثير نقمة النـاس وتضعهم في مواجهة السلطة الاجنبية الغاشمة .

هب الشعب المصري يقاتل من اجل فرصته في « مسايرة الزمن » وذلك بالقتال ضد الوجود الفرنسي في مصر .

بدأ المقاومة « محمد كريم » الذي رفض ان يضع مصر في القبضة الانجليزية من خلال عرض « نلسن » بالدفاع عنها . وقاتل الفرنسيين الى ان نفذت ذخيرته ، وأُجبر على الاستسلام ، ولكن ليدير من خلال منصبه كحاكم للمدينة ، اول حركة مقاومة سرية شاملة استطاعت بتدبير « محمد كريم » أن تنزل خسائر موجعة بالفرنسيين الغزاة . فعُزل واعتقل وأُرسل مخفوراً الى « نابليون » وهنـاك قررت العدالة الثورية أن من يدافع عن وطنه يستحق الموت ، ولكن عدالة الحرية والآخاء والمساواة ، يمكنها ان تغض الطرف اذا ما دفع مبلغاً يعادل ١٥٠,٠٠٠ شلناً انجليزياً (بأسعار ١٧٩٨ م). ولم يدفع «السيد محمد كريم» .. سواء لأنه لا يملك المبلغ ، أو لأنه رفض شراء حياته من اعداء دينه ووطنه . المهم ان « الجبرتي» يروي كيف طاف به الفرنسيون يحاولون استجداء المبلغ بالتهديد بقتله .. وهو يقول : «اشتروني يا مسلمين» . وهي العبارة التي غاظت «عبد الرحمن الرافعي» . فمؤرخ البورجوازية المصرية يريد التاريخ نقياً ، أنيقاً ، ومن ثم « **فالبطل** » « محمد كريم » ، لا يجوز له ان يقول اشتروني يا مسلمين! بل الأحرى به ان يتوجه الىالاعدام وهو يهتف ثلاثاً بحياة مصر .. وحياة « الحركة القومية » ! ولأن «الجبرتي» كان صادقاً، استحق من « الرافعي » التأنيب بل والتشكيك في مجرد شهوده للحـادثة ، بل ورماه « الرافعي » بأنه كان « مختبئاً في منزله » رغم اننا لا نجد أية نبرة استنكار في رواية«الجبرتي». بل انه يتفوق بصدقه ،علىمؤرخ البورجوازية الذي قدم لنا التماثيل المصقولة « لمصطفى كامل » « ومحمد فريد » كأنبياء للوطنية، كما يسميهم .. ولحسن حظه انه مات قبل أن تنشر مذكرات محمد فريد .. ولم يقرأ الصورة الحقيقية للبشر الوطنيين ولو عاش ورأى ان اطلاع النـاس على لحظات الضعف في حياة الزعماء الوطنيين تزيد إعجابهم بهم .. لكان انزعاجه أشد !

«الجبرتي» كان اكثر صدقاً ووعياً وإنسانية.. فهو يسجل الموقف الوطني. ولكنه لا يهمل ابـداً ولا يخفي الدوافع الفردية ، وحتى الأنانية ! ولا يرى

عيباً او تناقضاً لا يُجبر، او يجب اخفاءه ، ان يكون المصري وطنياً يعرض حياته للموت في القتال ضد المحتلين، ولكن..اذا وقع في الأسر بذل كل جهده لكي يطلق سراحه. هذه قضية تجرح عفة من كان محور تقديسه «لمحمد فريد»، أنـــه هدد زوجته بالطلاق اذا كتبت التماساً للخديو بالافراج عنه . ولكن مذكرات « محمد فريد » حافلة بمواقف اكثر انسانية .. او اكثر ضعفاً من وجهة نظر « الرافعي » .. من صيحة : « اشتروني يا مسلمين » . ولم يكن المسلمون وقتها بحالة تسمح بشراء أحد ! فقطع الفرنسيون رأس اول مسئول مصري التقى بهم ، مؤكدين بذلك انهم جاءوا حقــاً لتشجيــع المصريين على ممارسة الحكم .. ومثيرين طموحهم لتولي المناصب !

وفرضت سلطات الاحتلال ادارة جديدة من المصريين لمدينة الاسكندرية. كان من أبرزها « المسيري» الذي عينه كليبر رئيساً للديوان بعد تحطم الاسطول في موقعة « ابي قير » . وهو منافق من الطراز الرفيــع جداً .. كان نموذجــاً للقادة الذين يبحث عنهم الفرنسيون ، بل وكل مستعمر . كان رائعاً في تمثله لروح العصر .. ومسايرة الزمن .. ولعله في الاسكندرية وحدها وعلى مائدة «المسيري» قدم الأرز في ثلاثة ألوان ! رمزاً لراية الثورة الفرنسية ! ولا شك أن « حلة » الأرز المثلثة الألوان ، وأطباقه التي كان يجري توزيعها بالمساواة والأخاء، كان كل ما فهمه المتعاونون عن الثورة الفرنسية ومبادئها. وأيضاً كل ما يود الفرنسيون ان يفهموه لهؤلاء المتعاونين (*) . ولكن قـــادة الشعب

(*) وكان النفاق المتبادل بين الشيخ المسيري ونابليون على مستوى رفيــع حقاً، ومفضوح للغاية في نفس الوقت . فـ «المسيري» يبعث السرور في نفس الجند بطبخ الرز الملون . وتقديمه في شكل العلم الفرنسي ! ونابليون يكتب له متمنياً اليوم : « الذي سيضع فيه نظاماً موحداً مؤسساً على مبادىء القرآن . تلك المبادىء الصحيحة التي تكفل للناس سعادتهم » (٩). واذا كان «المسيري» هذا هو جد «المسيري» الأفاق الذي يقال ان المسرح المصري خرج من تحت جلبابه . وهو الذي قدم لمصر اشهر ثلاثة بوهيميين، او قل افاقين، في تاريخها الفني وهم: الحمّيسي، وزكريا الحجاوي =

الحقيقيين كانت لهم وجهة نظر اخرى .. فعندما جمع نابليون المشايخ وأراد تكريمهم: «فلما استقروا عنده نهض بونابرته من المجلس ورجع وبيده طيلسانات ملونة بثلاثة ألوان كل طيلسان ثلاثة عروض أبيض وأحمر و كحلي فوضع منها واحداً على كتف الشيخ الشرقاوي فرمى به الى الأرض واستعفى وتغير مزاجه وانتقع لونه واحتد طبعه (حياه الله ورضى عنه) فقال الترجمان يا مشايخ أنتم صرتم أحباباً لساري‌عسكر. وهو يقصد تعظيمكم وتشريفكم بزيه وعلامته فان تميزتم بذلك عظمتكم العساكر والناس وصار لكم منزلة في قلوبهم.فقالوا له لكن قدرنا يضيع عند الله وعند اخواننا من المسلمين . فاغتاظ لذلك وتكلم بلسانه . وبلغ عنه بعض المترجمين انه قال عن الشيخ الشرقاوي انه لا يصلح للرياسة ونحو ذلك . فلاطفه بقية الجماعه واستعفوه من ذلك فقال ان لم يكن ذلك فلازم من وضعكم الجوكار في صدوركم. وهي العلامة التي يقال لها الوردة. فقالوا أمهلونا حتى نتروى في ذلك . واتفقوا على اثني عشر يوماً . وفي ذلك الوقت حضر الشيخ السادات باستدعاء (لاحظ باستدعاء هذه) فصادفهم منصرفين . فلما استقر به الجلوس بش له وضاحكه ساري عسكر ولاطفه في القول الذي يعربه الترجمان وأهدى له (أي نابليون هو الذي أهدى) خاتم الماس. وكلفه الحضور في الغد عنده . وأحضر له جوكار أوثقه بفراجته (الجبة) فسكت وسايره وقام وانصرف فلما خرج من عنده رفعه . على ان ذلك لا يخل بالدين » (الجبرتي يعلق أو يفتي !) .

« وفي ذلك اليوم نادى جماعة القلقات على الناس بوضع العلامة المذكورة المعروفة بالوردة وهي اشارة الطاعة والمحبة فأنف غالب الناس من وضعها . وبعضهم رأى ان ذلك لا يخل بالدين إذ هو مكره . وربما ترتب على عدم

= وسيد بدير . فان ذلك - لو صح - يؤكد ليس فقط صحة قوانين الوراثة في عائلة المسيري. بل ويؤكد ايضاً ان الدجل‌عندما يتطور يصبح فناً مسرحياً . ولاشك انجد المسيري، وتلاميذه قد اكتشفوا ان انجح المسرحيات ليست هي دائماً التي تمثل على خشبة المسرح !

الامتثال الضرر فوضعها . ثم في عصر ذلك اليوم نادوا بإبطالها من العـــامة وألزموا بعض الأعيان ومن يريد الدخول عندهم لحاجة من الحاجات بوضعها فكانوا يضعونها اذا حضر عندهم ويرفعونها اذا انفصلوا عنهم وذلك ايام قليلة. وحصل ما يأتي ذكره فتركت (*) » (١٠) .

وقد استاء امام المدرسة الاستعمارية(**) (الذي كان كل منظهوره ومصرعه مثيراً !) استاء من موقف الشيوخ هذا ، وعلق عليه بأن احرار اوروبا كانوا يتخاطفون هذه الشارة وقتها . نفس الشارة التي ألقاها المشايخ على الأرض . وأنف العامة المصريون من لبسها . ثم أفتوا بأن لبسها ليس من المحرمات، لأن لابسها مكره .. وأخيراً استخدموها كجواز مرور ، ولاتقاء شر الحاكمين !

أما نحن فنرى ان الحق مع المشايخ على طول الخط ، وموقفهم مفهوم على ضوء الحقيقة التي تعتبر الثورة ، أي ثورة اوروبية ، غـير قابلة لعبور البحر الأبيض مع سفن الغزاة، بل انها بمجرد هذا العبور تتحول الى غزو وسيطرة.

كانت الثورة الفرنسية تمثل مضموناً تحريرياً –لفترة ما– في كل اوروبا(***).. كانت تحطم الاقطاعيات وتطلق الفرصة امام النمو البورجوازي . ثم سرعان ما فقدت دورها التحرري هــذا في اوروبا ذاتها ، وأصبح على البورجوازيات الأوروبية أن تحمل السلاح ضد جيش نابليون .

هذه المرحلة التحريرية في تاريخ الثورة الفرنسية لا وجود لها في الشرق ، لأن جيش نابليون كان يمثــل الجانب الاستعماري من الثورة البورجوازية ، لا فرق بينه وبين جيش «كرومويل» الذي فتح « ايرلندا » ولا جيوش وحملات

(*) وما يأتي ذكره هو ثورة القاهرة، التي كانت من نتائجها الايجابية، ابطال اجبار المصريين على حمل رمز المستعمر .

(**) «صبحي وحيده» مؤلف كتاب «في اصول المسألة المصرية». سكرتير اتحاد الصناعات الذي اغتاله موظف بالاتحاد .

(***) هذا اذا ما نحينا وجهات النظر الاخرى عن طبيعة الثورة الفرنسية.

البرلمـان البريطاني على شعوب الشرق .. شارة الثورة الفرنسية عندنا لم تكن تعني إلا الاستعمار الاوروبي ، ومن ثم فإن القائها على الأرض هو رفض لشارة المحتلين ، رفض للتبعية ، رفض الانتماء الى المحتلين ، تشبث بالذات، وباستقلال هذه الذات .. وإصرار على الانتماء لهذه الذات.. إصرار على حق المصريين في إنجاز ثورتهم ، كما انجز الفرنسيون ثورتهم .

وكتّاب الحمـلة الفرنسية أصدق في الحديث عن شعور الشعب المصري ، وعن العلاقة التي قامت بين المحتل وشعب المستعمرة، لأن تجميل التاريخ مرحلة تالية لتزويره .

فالمسيو مارتان يقول : « لم يترك الأهـالي وسيلة لمقاومة السلطة الفرنسية إلا واتبعوها ، وقد ذهب كثير من الفرنسيين ضحية لهذه المقاومة » .

« وقـد اتخذ المصريون شعارهم ذلك المبدأ المشهور الذي أعلنته فرنسا ، وهو ان مقاومة الاضطهاد هي أقدس واجبات الشعب » (١١) .

وقال الدكتور ديجنت كبير اطباء الجيش الفرنسي في مذكراته « لقـد تكلموا كثيراً حـتى في اوروبا عن حفلات اول فنديمير (عيد الجمهورية الفرنسية) وتأثيرها في نفوس المصريين ، على ان كاتب هذه المذكرات يؤكد انها لم يكن لها أثر ما في سكان القاهرة » .

أما المسيو « ريبو » فقد رأى مـا عجز عن رؤيته مؤرخي المدرسة الاستعمارية (من العرب) حتى المعاصرون منهم . فقال :

« كانت هناك عقبات وطنية تحول دون ثقـة المصريين بحكامهم الجدد (الفرنسيين) فقـد كان من الصعب أن توجد أمة تبلغ بها السذاجة مبلغ ان تنتظر الخير من جيش يركب متن البحار ويستهدف للأخطار ويحتل بلادهـا ويخوض فيها غمـار الحرب لمجرد الدفاع عن مصالحها . ولا يمكن أن تؤثر المنشورات والكلمات الفخمة في تغيير حالة الشعب النفسية . لذلك كان الوجه البحري بالرغم من احتلاله وانهزامه ، غير خاضع ولا مستسلم ، وكثيراً مـا تمردت القرى التي مرّ بها الجيش الفرنسي ورفعت علم الثورة » (١٢) .

وقال : « كان الجنود يعملون على إخماد الثورة باطلاق الرصاص على الفلاحين ، وفرض الغرامات على البلاد ، لكن الثورة كانت كحية ذات مائة رأس ، كلما أخمدها السيف والنار في ناحية ظهرت في ناحية أخرى أقوى وأشد مما كانت ، فكأنها كانت تعظم ويتسع مداها كلما ارتحلت من بلد الى بلد آخر » .

وقال : « ان مصر قد فوجئت بالحملة الفرنسية ، فأخذت تنتفض وتجاذب للتخلص من قبضة الفاتح الحديدية ، لقد كنا نرابط في مصر ونحتلها احتلالاً عسكرياً ، وعلى الرغم مما بذلناه من الجهود ليقبلنا الشعب كما يتقبل محرريه ، فقد بقيت سلطتنا قائمة على القوة لا على الاقناع . وكان اختلاف الدين واللغة والطباع والعادات مما يجعل الامتزاج بين الغالب والمغلوب عسيراً بعيد الاحتمال، فكانت سياستنا قائمة على إكراه الشعب على الاذعان بالحزم مرة وبالقوة مرة وقمع كل ثورة ومكافأة من يخدم السلطة الفرنسية ولإدراك هذه الغاية وزع بونابرت الجيش على مختلف انحاء القطر لاخضاعها وجعلها موضع مراقبة دقيقة. وكان قواد الفرق فضلاً عن اختصاصاتهم الحربية ، يتولون الإشراف على الشئون الإدارية والمالية في مديرياتهم ويراقبون جباية الأموال والغرامات ويشرفون على مجالس الدواوين في الأقاليم حتى لا تتعدى اختصاصها » (١٣) .

والحق مع المسيو « ريبو » ، فالأمة الساذجة لم توجد قط . وإن وجدت فلم تكن أمتنا بأية حال .. أمتنا لم تتوقع خيراً قط من جيش الاحتلال ، بل قاتلته منذ اللحظة التي وطئت فيها أقدامه أرض الوطن الى يوم الجلاء . والسذج هم الذين يظنون انهم يستطيعون تزوير التاريخ !

وإذا كانت تجربة الحملة الفرنسية المريرة هي التي جعلت الحكمة تنطق على لسان « ريبو » فإن الاستعماريين قد انخدعوا قبل الغزو ، او صدقوا تقاريرهم ومنشوراتهم فظنوا انها ستكون « نزهة سهلة » ، اذا ما تمّ التخلص من قوة المماليك العسكرية . وهذا الخطأ الذي تقع فيه كل الاستعماريات ، بالتهوين من قدر مقاومة الشعوب . أخطأت حسابات الحملة الفرنسية تقدير مدى الرفض

الذي سيجابهها من الشعب المصري . كما اخطأت كمبيوترات البنتاجون تقدير المقاومة المتوقعة من شعب فيتنام .

تاليران توقع ، كما توقع هتلر ، ان الشعب المصري او الروسي – في حالة هتلر – سينتهز فرصة العدوان الأجنبي ليصفي حسابه مع مضطهديه في الداخل . وفي جميع الحالات كانت النتيجة عكس كل توقعات المعتدين . إذ كان لدى الشعب من الاصالة والوعي ما جعلاه يدرك أن الخطر الخارجي اكبر وأفدح من كل ما يعانيه في الداخل . وأن مقاومة هذا العدو الأجنبي ودحره تحتل الأولوية في قائمة الواجبات الوطنية . بل لم يتردد الشعب أبداً في تمني النصر لمضطهديه الوطنيين ضد غزاته الأجانب .. بل والقتال معهم من أجل تحقيق هذا النصر على الذين توهموا أنه سيرحب بهم كمحرريه !

« تاليران » رغم ذكائه الذي اشتهر به ، يقع هو أيضاً في هذا الوهم ، فيكتب لحكومته مغرياً بفتح مصر : « ان أهالي مصر قاطبة يكرهون حكامهم المماليك الذين يسومونهم الظلم والاضطهاد ، وهم عزل ، لا سلاح معهم ، وإذا اعطاهم المماليك سلاحاً بحجة الدفاع عن البلاد من الغارة الأجنبية ، فإنهم لا شك سيحاربون به طائفة المماليك أنفسهم (*) ، فليس ثمت خوف من مقاومة او وثبة من الأهالي » « ان الشعب المصري سيتلقانا باحترام لأنه يأمل من زمن مديد أن يتخلص من حكامه الظالمين » (١٤) .

وحتى نابليون ، رغم ما اشتهر به من فراسة في فهم الرجال ، ظن أن رجلاً مثل « محمد كريم » يمكن أن ينقل ولائه ، كما يفعل أشباه الرجال من طراز « يعقوب » و « نقولا » و « برطلمين » بل ظن أنه قد يكون أسعد في خدمة حكومة أفضل ، حتى ولو كانت أجنبية ! فيخاطب « محمد كريم »

(*) للأسف هذه الفكرة صدقتها الطبقات الحاكمة منذ نابليون فكانت تخشى دائماً توزيع السلاح على الشعب . مع ان تجارب التاريخ اثبتت ان الشعب لم يخطىء ابداً في استخدام السلاح اذا ما حصل عليه لحظة تعرض الوطن للغزو .

قائلاً : « لذلك أعيد اليك سلاحك وآمل ان تبدي للجمهورية الفرنسية من الاخلاص ما كنت تبديه لحكومة سيئة » (١٥) .

وكان رد « محمد كريم » بالفعل لا بالقول حيث اكد الموقف الوطني، الذي يتلخص في أن الحكم الوطني مهما يكن سوءه فهو أحسن من أفضل حكم أجنبي. والرافعي يعلق على مقاومة الشعب المصري للحملة الفرنسية بقوله :

« والوقع ان من يتبع سلسلة المقاومات التي لقيها الجيش الفرنسي من المصريين يعجب لشدة مقاومة الأمة وقتئذ للاحتلال الفرنسي واستمرار هذه المقاومة وانفساح مداها في انحاء القطر المصري ، حتى كأن ثورة عامة قد اندلعت في وجه الفرنسيين ، وامتد لهيبها من أقصى البلاد الى اقصاها ، ولو قلبت صحائف الحركة القومية المصرية في خلال المائة سنة الأخيرة لما وجدت لهذه المقاومة شبهاً سوى الحركة العامة التي ظهرت سنة ١٩١٩ عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى » .

ولكن الرافعي لا يقدم لنا تفسيراً لهذه الظاهرة العجيبة ، وهي قوة واتساع المقاومة المصرية للحملة الفرنسية .. ثم اختفاء هذه الروح مائة عام (حتى لو قبلنا تشبيه ثورة ١٩ بالحرب الفعلية التي شنها الشعب كله ضد الفرنسيين) فسيبقى السؤال .. لماذا لم يواجه الانجليز مثل هذه المقاومة بعد الاحتلال (١٨٨٢) ؟! ان « محمد عبده » حاول أن يجيب على هذا السؤال بنسبة ذلك الى استبداد محمد علي وقتله هو وأولاده لروح الأمة (*) . ولكن الرافعي المعجب بدور « باعث الأمة المصرية » « وباني مصر الحديثة » الى حد الغضب من الجبرتي لأنه انتقد محمد علي !.. يستحيل عليه أن يواجه نفسه بالسؤال عن حقيقة الدور الذي لعبه « محمد علي » في اعداد مصر لقبول الاستعمار او وضع الأمة المصرية في حالة القابلية للإستعمار . وذلك من خلال

(*) كان تفسير « الامام » « فتوى » مناسبة تقول جانباً من الحقيقة وترضى « أولي الأمر » في نفس الوقت .

عملية التغريب التي قام بها بنجاح ، واستحق عليها ثناء المدرسة الاستعمارية .

والفرق بين المدرسة الاستعمارية والرافعي ، هو ان « الرافعي » يريد أن يأكل الحلوى ويحتفظ بها ، فهو يريد التغريب ، ويريد بقاء الروح الوطنية ! بينما المدرسة الاستعمارية ، سرورها مضاعف ، لأن التغريب يـــتم ، والروح الوطنية المقاومة للوجود الغربي تضعف في نفس الوقت .

كانت مصر ما زالت بكراً لم تلوثها أمراض التحديث الكاذب . لذلـك هبّ شعبها ، في أروع مقاومة ، سجلها تاريخ القرن التاسع عشر كله ، للغزو الاستعماري الغربي .

المقاومة والتنكيل

كان الرفض المصري ، يشكل حركة وطنية عامـة ، تشمل الأمة بكل طوائفها وطبقاتها ، فالزعر والحرافيش والغوغاء ، في شوارع القاهرة يقاتلون ببسالة وتضحية تذهل نابليون رجل الثورة الفرنسية. والفلاحون يشنون أول حرب فلاحين في تاريخ الشرق ، أما الاغنياء ومساتير الناس فلم يكونوا أقل وطنية او أقـل استعداداً للبذل والتضحية .. رأيناهم في القاهرة يدعمون الحركة ويعتصرون حتى الموت من جيش الاحتلال ، وفي شمال الدلتا نجـد « حسن طوبار » الممثل المبكر للبورجوازية العربية — لو أتيحت لهـا فرصة النمو — وصفه الجنرال لوجيه بقوله : « هو غني تقـدر ثروته بالملايين (من الفرنكات) يملـك الاراضي الواسعة ومصانع نسج القطن ، ومصانع الصباغة والمتاجر الكثيرة » . وكان « محبوباً من الاهالي حباً شديداً » .

كانت الأمة تدرك بغريزتها الصادقة ، وبحكم مـا تراه من سلوك وقرارات الغزاة ، وبما ترسب في ذاكرتها من تاريخ الحروب والغزوات التي شنها الفرنجة طوال القرون التي انقضت منذ الحملة الصليبية الأولى على بلاد العرب (١٠٩٥). كانت تدرك انها مطالبة بالقتال دفاعاً عن وجودها وكيانها ومصالحها . وأهم من ذلك كله عن فرصتها في دخول عصر الحضارة الحديثة . ذلك أن فرصتنا الوحيدة بل وفرصة أي بلد شرقي لدخول عصر الحضارة الحديثة، كانت تبدأ

بنجاح هذا البلد في تجنب دخول واستقرار قوات هـذه الحضارة في بلاده ، فالبلد الشرقي الوحيد الذي حقق التحديث ، هو الذي نجا من الاحتلال الغربي ، والبلاد التي ما زالت تبحث عن طريقها للحضارة والتصنيع والتحديث ، هي البلاد التي سقطت تحت الاحتلال الغربي ، وتحكم الغرب في مصيرها خـلال قرون الاستعمار ، من الفلبين الى مراكش .

لذلك كانت أمتي على حق ، عندما رأت ان فرصتها الوحيدة في أن تصبح متحضرة كالفرنسيين ، هي في منع استقرار الفرنسيين في مصر ، رفض خدعة التحديث على يد جيش احتلال .

وتاريخ الحمـلة الفرنسية في مصر ، يسجل يومياً مدى المقاومة الباسلة التي بذلها الفلاحون المصريون ، والعامة في المـدن ، والنخبة الوطنية ، ممثلة في الشيوخ والتجار والاعيان . مدى المقاومة التي بذلوها ، ضد استقرار الجيش الفرنسي ، ولإفساد رسالة نابليون الحضارية . ورغم كل الحقائق المتاحـة « لكرستوفر هيرولد » والتي يعترف بكمية كبيرة منها ، إلا أنه لا يستطيع أن يتخلص من المفهوم الصليبي الغربي في تفسيره لمقاومة الشعب المصري وفشل الدجل النابليوني في خداعـه .. فهو يقول : « ولم يَفُق مستعمر أوروبي بونابرت في محاولاته لكسب الأهالي لصفه ـ بوضعهم في موضعهم الصحيح منه ـ فإذا كانت جهوده قد فشلت فشلاً ذريعاً ، فليس العيب في سياسته التي كانت تستحق النجاح . بـل هو أولاً وقبل كل شيء عيب استحالة المهمة التي كان عليه اداؤها . كان الاسلام بالطبع هو الحائل الاكبر دون هـذا الجو المنشود من الثقة المتبادلة » ...

ثم يفقد تفسيره كل قيمة علمية عندما يقول: «ولكن مع أن شعب مصر ، كباره وصغاره ، كان محقاً في التشكك في اخلاص بونابرت حـين أعلن على الملأ أنه مسلم فعلاً ، فـإن خوفه من أن يقضي على دينه لم يكن له أساس . فالذي كان بونابرت يريد القضاء عليه هو جمود الناس وتشبثهم بالتقاليد العتيقة ،

واستسلامهم لقضاء لم يكتب عليهم، وكراهتهم الخروج من العصور الوسطى، وعدم رغبتهم في مساعدته على النهوض بهم — وكون هـــذا التغيير المنشود سينفع المستعمرين الفرنسيين لا يدل على ان المصريين لن ينتفعوا به —ربما اكثر من الفرنسيين — وقد اقتضى العالم الاسلامي قرن ونصف من الزمان ليدرك أن المسلمين يستطيعون الاحتفاظ بدينهم وتقاليدهم سليمة لا تمس. ومع ذلــك يسيرون مـــع عجلة الزمن. ولكن بونابرت لم يكن في موقف يعينه على تلقين المصريين هذا الدرس ».

ولا ندري مـــا الذي يقصده مؤرخ كبير مثل « كرستوفر هيرولد » من طمئنة شعب مصر الى أن نابليون لم يكن يهدف الى القضاء على دينه ؟. هل يقصد تنصير المصريين مثلاً ؟. حتى هــذا حاوله الاستعمار الغربي في جميع البلدان التي استعمرها، وجميع المسيحيين الجـدد من اندونيسيا الى السنغال كانوا مسلمين، وقضى على دينهم على يد الغزاة .. بل حتى المسيحيين الوطنيين تعرضوا لمحاولات خطيرة لسلخهم عن الكنيسة العربية، وكل الانشقاقات التي اصابت الكنيسة الوطنية، في البــلاد العربية، هي بفعل النشاط التبشيري للغرب، هذا النشاط الذي اعتمد على التفوق الاستعماري اكثر مما اعتمد على الهداية والمنطق. إذن فحتى هــذا المفهوم الساذج للقضاء على الدين، جرت محــاولته، وكان خطره وارداً .. ولكن لا نظن ان الخطر التاريخي الذي هبّت الجماهير في مصر، مصرية وعربية وإسلامية لصده كان يتمثل في هــذا الخطر المكشوف والمفضوح الذي أثبتت خبرة الفرنجة، أنه اصعب السبل، وأبعدها عن النجاح. لأن وضوحه وطابعه الاستفزازي يسهل مهمة مقاومته، ويستثير الجميـع ضده. ولكن الجماهير كانت تقاتل عن دينها، باعتباره يمثل وجودها .. كيانها .. شخصيتها المستقلة .. سيادتها فوق أرضها .. حقها في اكتشاف طريقها للخروج من التخلف، وعبور هــذا الطريق لبناء قوتها المادية المستقلة.

كانت الصدمة التاريخية التي أحدثتها مدفعيته الفرنسيين، كافية لتبديد

ليل الغفلة والأمن الكاذب الذي عاشته الشعوب العربية مخدرة بانتصاراتها على الصليبيين وبالفتوح العثمانية. وكانت ردة الفعل الطبيعية هي الاستجابة للتحدي، ومحاولة التغلب عليه، بامتلاك وسائل المعرفة التي نقلت التفوق الى الجانب الآخر من البحر الأبيض، بعدما استقر على شواطئنا قروناً ليست بالقليلة.

فلم تكن المشكلة ابداً، هي اقناعنا بأنه يمكننا أن نساير عجلة الزمن مع الاحتفاظ بديننا وتقاليدنا سليمة لا تمس! إن هذه قضية لم توجد قط ولا طُرحت على هذا النحو، ولا كانت مقاومة المصريين نابعة من شكهم في إمكانية الجمع بين الاثنين.. واننا أخيراً فهمنا هذه الإمكانية واقتنعنا بها. بعد أن علمتنا الأيام والليالي! ولكن أين هي مسايرة الزمن التي حققناها؟ هل يمكن وصف أية دولة عربية بأنها قد حققت مسايرة الزمن؟ ان كان المقصود بمسايرة الزمن، شق الطرق لتجري عليها السيارات الامريكية والالمانية.. وبناء الفنادق لنزول رجال الأعمال والسياح الغربيين وإنشاء البرق والمطارات لتسهيل اعمال وحياة الانسان الغربي وتابعه الشرقي، ان كان ذلك هو مسايرة الزمن «فكرستوفر هيرولد» ومدرسته على حق في أننا سايرنا الزمن، أما اننا «احتفظنا بديننا وتقاليدنا سليمة لا تمس».. **فلا!**

وإذا كنا نفهم عبارة «مسايرة الزمن» كما يجب أن تفهمها كل أمة جادة، بمعنى انتاج ما ينتجه العصر. أي دخول عصر الصناعة، التحول من مستهلكين الى منتجين.. المساهمة في الانتاج العالمي بحصة انتاجية كاملة، فلا بد ان نعترف بأننا لا نساير العصر، فنحن لا صنعنا انتاجنا، ولا تثقفنا ولا تحضرنا. وما زلنا نبرر هزيمتنا بتخلفنا الحضاري، ما زلنا نستورد من الإبرة الى الصاروخ.. وأيضاً لا حافظنا على ديننا وتقاليدنا.

والحقيقة ان هذه القضية: مسايرة العصر والاحتفاظ بالدين والتقاليد.. هي وحدة لا تتجزأ. ولقد أدركت النخبة منذ زمن مبكر. ولو انها لم تستطع

ان تحول علمها الى عمل لأسباب عديدة ، أدركت هذه النخبة ، ان الحفاظ على الدين والتقاليد هو الطريق الوحيد أمام الشعوب الاسلامية لكي تحقق التجديد والتحديث ، وأدركت في نفس الوقت ان التمدين الذي يدعوها اليه الغرب هو عملية اعادة تنظيم المجتمعات الاسلامية ، لكي تصبح اكثر قابلية للاستعمار الغربي ، وأكثر قابلية لعملية الامتصاص . لأنها بالتغريب تصبح اكثر تقبلاً لادارته لها . ان غلي النبات وشي اللحم يجعله أكثر تحضراً ، ولكن لمصلحة الذي يلتهمه !

بل ان بعض الحيوانات والطيور قد تم تطويرها ، وربما على نحو كانت فيه فائدة لهذه الحيوانات أو الطيور ، ولكن المحرك والدافع والنتيجة النهائية لهذا التطوير ، كانت مصلحة المستهلك والمطور (بالكسر) .. للانسان الذي يعجز أو يصعب عليه تسخير أو الانتفاع من هذه الكائنات في حالتها الطبيعية « المتخلفة » ومن ثم يسعى الى تطويرها ، الى ترقيتها وتهذيبها لكي تكون أكثر قابلية للتدجين ، وأقدر على خدمته ، وأصلح لتلبية احتياجاته . فالتغريب الذي حمله وفرضه الغرب علينا هو تطوير لمصلحة الغرب أولاً وأخيراً وليس من باب تبادل المنافع . نعم هناك « مظاهر » تقدم يمكن الجدل حولها .. هناك طرق أكبر وسكك حديدية وتلغراف .. والآن مطارات وحتى رادار ومحطات نووية !.. ولكن لكي تشحن الخامات أسرع، ولكي يعرف السمسار الأوروبي فيأعماق الريف المصري، أسعار القطن في بورصة ليفربول ، ليتقن عملية سرقة الفلاح المصري .. والآن لبيع آلات ومنتجات الغرب البالغة التعقيد والثمن أيضاً !

وهناك « اوبرا » ولكن لتمثيل اوبريت ايطالية ! ولا بأس ان تكون حول اسطورة مصرية ، لتسلية امراء وملوك واباطرة أوروبا القادمين لافتتاح قناة السويس !

وتظل « الاوبرا » أكثر من نصف قرن لا يمثل على مسرحها مصري، تماماً

كقناة السويس ، فلا شك انها عمل حضاري من أرفـــع طراز ، ولكن من الذي يقول ان مصر استفادت منه ، وكم سفينة مصرية عبرتهـا خلال القرن التالي لشقها ؟... ألم تكن ترعة المحمودية ، اكثر ارتباطاً ونفعــاً للاقتصاد المصري ؟. وأكثر مساعدة له على « مسايرة الزمن » ؟..

هذا التغريب الذي يجعلنا أكثر قابليــة للاستعمار ، ويدمر إمكانيــة وفرصتنا في تحقيق التحديث الحقيقي ، كان يتطلب في نفس الوقت تجريدنا من ديننا وتقاليدنا حتى لو بقت اسماؤنا إسلاميــة ، وتحولت تقاليــدنا الى طقوس مشوهة بلا روح .

وليس من الانصاف ان نقول ان العالم الاسلامي احتاج الى قرن ونصف من الزمن ليتقبل هذا التغريب.. بالعكس هذا التغريب شرعنا فيه فور جلاء الفرنسيين ، وربمــا لو طــال العمر بنابليون أربعين سنة أخرى وزار مصر لأدهشته السرعة التي أنجز التغريب بهــا أفضل نموذج للنخبة التي كان نابليون يفتش عليها عبثاً بين شيوخ الأزهر .

هذا الألبــاني الذي التقطته سفينة انجليزية وقذفت بــه عند شواطئنا ، والذي نفذ بعبقرية نادرة عملية التغريب هذه . وقضى على أملنا في تحقيق الثورة الصناعية ، وأسلمنا فريسة معدة للابتلاع للاستعمارية الغربية ، التي كافأته بأن خلعت عليه صفات المجد والاصلاح ، وسمته باني مصر الحديثة . ثم يأتي اليوم « كرستوفر هيرولد » فيشجب كل ما كُتب عن « باني مصر الحديثة » . إذ يقول اننا لم نتعلم مسايرة الزمن إلا بعد قرن ونصف من الحملة الفرنسية ! إذا ماذا كان « محمد علي » وخلفاؤه يفعلون ؟. هل كان المؤرخون الغربيون يكذبون علينا ؟ نعم . وهم يكذبون اليوم أكثر ، عندما يحاولون التغرير بنا لقبول تجربة عاجزة مشوهة « لمحمد علي » .

وبينما كان « محمد علي » يتولى « تغريبنا » كان الطرف الآخر من آسيا

يشهد تحديثاً حقيقياً لأمة سعيدة الحظ ، وفقت الى قادة عرفوا ان الطريق الى التحديث الحقيقي ، هو الاحتفاظ بالدين والتقاليد .

الأصح إذن ان يقال انه خلال القرن ونصف القرن التالية لغزوة نابليون لم يفعل العالم الإسلامي – للأسف – إلا انجاز هذا التغريب .. أو التحديث المزيف الذي جاءت مدفعيه الغرب تفرضه .. ولم يكن هـدم بعض مظاهر التخلف وبناء مظاهر التقدم ، إلا نوعـاً من عمليـات هـدم الابواب القديمة والقلاع البالية وشق الطرق لكي تسهل حركة قوات الاحتلال الفرنسية .

أما تفسير تخلفنا عن مسايرة العصر بأننا أفسدنا نوايا نابليون الطيبة بسوء ظننا ، وسوء سلوكنا ، وغبـاءنا . فهو تفسير خاطىء وظالم .. فان بـلاداً إسلامية عديدة ، بل كل البلاد الإسلامية ، سقطت قبل حملة نابليون وبعدها تحت الحكم الغربي ، ومعظمهـا استسلم بعد مقاومـة طالت أو قصرت . واستقر حكم الغرب مطلق السلطة في سائر البلاد الإسلامية ، فترات تتراوح ما بين ثلاثة قرون .. ونصف قرن .. فلمـاذا لم يثبت الغرب حسن نيتـه وينجز التحديث المنشود ؟. أين هو البلد الإسلامي الذي خرج منه الاستعمار الغربي أو زال عنه الحكم الغربي فاذا به بلد يساير الزمن ؟.

وان كانت العقبة في الإسلام فقد استعمر الغرب شعوباً غير اسلامية ، بل وبلا دين جدي على الاطلاق ، فلماذا لم يحدثها ؟.

صحيح ان كل البلاد الاسلامية التي « حدثها » الغرب تعج بالكباريهات ، وتبيح الزنا برضاء الطرفين ، والمتشدد منها يشترط موافقة الزوج أو الزوجة. وبعضها يبيح اللواطة للراشدين (قبل اقرار ذلك في بريطانيا بنصف قرن) وكلهـا تشرب الخمر وتأكل لحم الخنزير ، وكلهـا يستطيع السائح الغربي ان يقضي فيها وقتاً طيباً .. وباختصار ان التقاليد والدين قد مسّا مسّاً عنيفاً ولكن أهذا هو التحديث المنشود ؟. ان كان ؟. فنحن إذن دولة عصرية .. فلماذا كل هذا الجدل حول الطريق الى دولة عصرية ؟.

أبداً ان شعبنا قد عرف حتى في هذا الوقت المبكر (عصر الحملة الفرنسية) انه من المستحيل ان تقوم منفعة متبادلة بين المستعمرات والمستعمرين . وان مسايرة الدول الاستعمارية للزمن ، بل وسبقها للزمن، قد تم على حساب الابقاء القسري للمستعمرات – أي نحن – في أسر التخلف .. إذ كان يستحيل في ظل الحضارة الغربية ان تتصنع المستعمرات طالما ظلت خاضعة لسيطرة الدول الاستعمارية ، واذا كنا قد تعلمنا خلال مائة وخمسين سنة ان الطريق الى التصنيع يبدأ بالتحرر من الاستعمار ، فلا شك في صحة موقف أجدادنا الذين حاولوا صد هذا الاستعمار قبل ان يستقر في بلادنا .

هذه الحقيقة التي اكدها التاريخ خلال المائة وخمسين عاماً ، كانت خلف مقامة الشعوب للاستعمار ، حتى دون أن تعيها وعياً كاملاً ، وذلك بموجب القوانين التي تحرك العناصر اللازمة لصنع التاريخ ، حتى دون ان تعي هذه العناصر انها تصنعه .

ولما كانت الجماهير تعرف بغريزتها ، ان الغزو الغربي يقضي على فرصتها في التحديث الحقيقي ؛ ويقضي على دينها وتقاليدها ، أي يفرغ هذا الدين وتلك التقاليد من روحها ، مع عملية نزح ثرواتها ونهب خاماتها .

وإذا كانت الجماهير تتحرك في اتجاه مقاومة هـذا الغزو مرة تحت اعلام الغضب للدين ، او الزود عن التقاليد ، ومرة للاحتجاج على لعبـة الأسعار والسوق التي تنظم نهب انتاجها. أو ضد عمليات السطو السافرة على الثروات، أو من أجل الحفاظ على لغة البلاد ، أو المطالبة بحق الأهالي في فتح بنك أو مصنع .. فان هذه المظاهر المتعددة والمعقدة هي طبيعة السلوك البشري ، والأسلوب الانساني الذي يتحرك من خلاله التاريخ ..

ولكن هذه الشعارات يجب ألا تضللنا عن جوهر الصدام .. فليس المهم الصيحة التي يوجهها الضارب ، ما دامت الضربة توجه للعدو الحقيقي ، وفي الاتجاه الصحيح .

على ضوء هذا الفهم ننظر الى مقاومة الشعب المصري لكل مظاهر الوجود والسيطرة والتحكم الفرنسية ، حتى ولو بدت أحياناً انها مقاومة لقرارات لا شك في فائدتها المباشرة للأهالي ، كرفض قوانين دفن الموتى خارج المساكن ، أو حتى الثورة ضد القوانين الصحية التي تحد من انتشار الأوبئة (*) .

وجهة نظرنا أن تعبئة الشعب وتحريكه ضد السلطة الأجنبية هو عمل وطني تقدمي ، هو المدخل الشرعي والوحيد للتحديث ومسايرة الزمن ومن ثم فكل ما يحقق تعبئة الجماهير وتحريكها ضد الوجود الاستعماري هو عمل تقدمي حتى لو اتخذ صورة الدفاع عن أوضاع خاطئة وسيئة، لأن هذه الجزئيات تحجبها الحقيقة الشاملة ، وهي أن مصلحة ووجود وتقدم وازدهار شعب المستعمرة رهين بزوال السيطرة الاستعمارية واختفاء الوجود الاستعماري. ومن الذي يرفض خطوة الى الوراء من أجل خطوتين الى الامام. بل من أجل قفزة حاسمة تنقله من عبودية المتخلفين الى تحرر المتقدمين ؟

كان استقرار مصر كمستعمرة يتطلب اخضاع شعبها بالقوة او الدجل او الاثنين معاً .. وكان مستقبل مصر وسيادتها وتقدمها رهن نجاحها في منع استقرار المحتل الأجنبي .. أي بمقاومة وجوده .. وجعله غير آمن في كل شبر من أرض مصر . ولقد حاول الفريقان بكل جهد متاح تحقيق اهدافها .

يقول « كرستوفر هيرولد » : « ولكن اكثر فلاحي الدلتا الذين كانت قراهم قلاعاً منيعة ، كانوا لا يرحبون على الاطلاق بالفرنسيين ، بل إن المدن لم تكن دائماً مكاناً مأموناً لهم . وإلى القارىء على سبيل المثال ، التقرير الذي قدمه الجندي « مورستون » أحد جنود فرقة الفرسان ، والوحيد الذي بقي على قيد الحياة من حامية المنصورة الى الكولونيل لوجيه » :

(*) من عادتنا ان نختار الامثلة الصارخة حتى نتجنب الجدل فيما دونها .

« ترك الجنرال فيال أثناء مروره بالمنصورة فصيلة من ١٢٠ رجلاً .. وفي اليوم التالي لرحيل الجنرال فيال بأورطته ، اغتال الاهالي ثلاثـــة من جنود الحامية ، رجموا واحداً منهم وهو يقف في نوبــة حراسته ، والثاني وهو يأتي بالحساء للديدبان ، والثالث وهو عائــد من مكان حراسته . وفي ذلك الوقت تحصنا في البيت الذي اخترناه ثكنة لنا .. (وبعد يومين) في حوالي الساعة الثانية صباحاً أحاط بالثكنة عدد كبير من المسلمين(*) يحملون مختلف الاسلحة. وحاول أحدهم أن يشعل النار في البيت .. ولكن احد جنود الفرسان قتله . فحاولوا بعد ذلك هدم البيت . وبالاختصار استمر القتال الى الرابعة مساء . وعندها خرجنا من ذلــك البيت الذي فقدنا فيه ثمانية رجال . وبينما نحــن سائرون في شوارع المدينة لنغادرها ، كانت الطلقات تأتينا باستمرار من نوافذ المنازل . فنرد عليها على قدر ما نستطيـع. فلما وصلنا الى الخلاء طاردنا هؤلاء الأفراد أنفسهم ، وظلوا يطلقون علينا النــار . وجرى بعضهم الى القرى القريبة في طلب التعزيزات. وفي الفجر كان منا على قيد الحياة خمسة وعشرون او ثلاثون، وما يزال العدو يطاردنا. وإذ فرغ رصاصنا فقد دافعنا عن أنفسنا بالسلاح الأبيض . وفضل الجرحى وعددهم عشرة ، أن يغرقوا أنفسهم عن أن يقعوا في قبضة العدو . فلم يبق منا غير خمسة عشر، ألقي حشد من الفلاحين الهائجين أنفسهم علينا ، وجردونا من ثيابنا وقتلونا كلنــا بالشوم . وألقيت بنفسي في النيل عرياناً لأنتحر غرقاً . ولما كنت اعرف السباحة ، فقد تغلبت غريزة حب الحياة على رغبة الانتحار ، ووصلت الى الضفة المقابلة .. ورحت اسير دون هــدف . فرأيت سبعة فرسان من المسلمين يدنون مني ، فألقيت

(*) رجال الثورة الفرنسية لم يروا في مصر إلا « المسلمين » ! وبعـد قرن ونصف قرن من مسايرة الزمن للحضارة الفرنسية (وليس العكس) فـإن بلاغات القيادة الفرنسية عن شهداء الجزائر كانت لا تجد ما تعرفهم بــه إلا كلمة « مسلمين » . وفي بورسعيد شاهد مقبرة وضعه الفرنسيون أثناء احتلالهم للمدينة سنة ١٩٥٦ وكتبوا عليه : هنا يرقـد ٢٦ « مسلماً » ! قتلوا في الحوادث ...

بنفسي في النيل ثانية . وإذ لاحظت ان اثنين منهم يشيران إليّ بالمجيء عدت الى الشاطىء ، فأطلق احدهما النـار عليّ رأساً ولكن الرصاصة لم تنطلق . وقال الآخر شيئاً معناه الابقاء على حياتي ، ثم سلمني الى فلاحين مسلحين .. فأوثقا يدي وقاداني الى قرية ، وأنا امشي على طريق كله شوك آلمني جـداً لأنني كنت حافياً مجروحاً. وفي القرية فك الاهالي وثاقي واعتنوا بي وأطعموني وترفقوا بي كثيراً » .

« وكان اقليم الاسكندرية ، بعد احتلال دام شهرين من الزمان ، غير مأمون شأنه في ذلك شأن اقليم الدلتا » (١٦) .

وكتب الجنرال «ديموي» : « قامت الكتيبة يوم ١٧ يوليو ١٧٩٨ – وعلى بعد نصف فرسخ من الكريون (من بلاد مركز كفر الدوار) هاجم الكتيبة عدد من العرب . وكان هذا العدد يزداد كلما تقدمنا في السير وقد شتتنا هذه الجموع بالرصاص ، ولم نفقد سوى قتيل واحد وجريح، وقد داخلني الشك من الاتفاق بين هجوم هـذا الجمع علينا ومغادرتنا للاسكندرية ، وخيل الى أن هناك اتصالاً بينهم وبين اهالي الاسكندرية . تابعت الكتيبة سيرها ووصلت الى دمنهور وكنا في خلال هـذه المسافة محرومين من الماء حرماناً تامـاً ، وكان من المستحيل علينا ونحن في الاسكندرية أن نحصل على جمل واحد او قربة واحدة لحمل الماء على رغم أوامر الجنرال كليبر ، وبلغت بنا الحال أنـه في يوم تحرك الفرقة اختفت الجمال من الاسكندرية ، ثم عادت الى الظهور في شوارع المدينة غداة سيرنا مما يدل على أن هناك تواطؤا بين الاهالي وأصحاب الابل » (١٧) .

أمـا الكابتن « جرليان » ياور نابليون فقد حدث له – على حد تعبير الرافعي – : « ما هو أشد وأدهى » ! « فقد اوفده نابليون من القاهرة الى الاسكندرية برسالة منـه الى الجنرال كليبر وأخرى الى الامـيرال برويس في « ابو قير » فاستقل سفينة ومعه بعض الجنود وجنحت به على الشاطىء الغربي

لفرع رشيد فما كاد ينزل هو وجنوده الى الشاطىء حتى هجم عليهم اهـــالي « علقام » فقتلوهم عن آخرهم ، فلما علم نابليون بنبأ هذه الحادثة أمر باحراق القرية عَقاباً لها على اعتدائها (*) فأحرقها الجنود وخربوها ولم يبقوا منها بيتاً قائماً » [١٨] . وأسف الجنرال « ديموي » كثيراً لأنـه : « لم أجد في جولتي هذه مصرياً واحداً يحمل الشارة الفرنسية ». « واستنتج من حوادث دمنهور ان هناك مخابرات سرية بين الاسكندرية والمدن للتي مرت بها الفرقة ولاحظ ان اهالي دمنهور كانوا على علم بقدوم الفرنسيين قبل وصولهم، معدين لحربهم» [١٩].

اما الكولونيل داماس ، فقد كان لديه الكثير مما يمكن ان يستخدمه ابنه في تأليف قصص المغامرات .. لولا أن الفروسية في الأدب الغربي، من صفات الانسان الأبيض وحده . فمـــا كادت سفينة الجنرال « داماس » تنحدر في النيل « يوم ٢٦ يوليه ١٧٩٨ ليصل الى القاهرة ، لكنـــه لم يكد يبتعد عن المدينة حتى هاجمه أهالي « مطوبس وأدفينا » فاضطر الى ان يعود ادراجــه الى رشيد ، ثم اعاد الكرة ثانية، ولكنه لم يكد يتجاوزها باثني عشر فرسخاً حتى أطلق الفلاحون على سفينته الرصاص من جانبي النيل فاضطروه الى الرجوع مرة اخرى » [٢٠] .

« قصدت الكتيبة الى كفر شباس عمير ، وكانت محصنة بسور عال يحيط بها ، وبهذا السور أبراج حصينة كان يحتلها الأهالي ويطلقون منهـــا النار ، فاقتحمت الكتيبة الفرنسية هذا السور . فلم يجد الأهالي بدا من اخلاء الابراج ما عدا برجا واحداً امتنع المدافعون عنه واخذوا يطلقون النـــار على الجنود الفرنسيين وأصابت رصاصـــة جواد الجنرال « مينو » فخر قتيلاً ، فأدرك خطورة الموقف (**) . وكان رجال البرج مستمرين في اطلاق الرصاص، فرأى

(*) (!)

(**) عادة يدرك « مينو » هذا .. خطورة الموقف متأخراً جداً !

من المجازفة الاقتراب منه، فأمر باضرام النار في القرية . وكان الليل قد أقبل وجاء كثير من القرى المجاورة لإنجاد اخوانهم، فأمر « مينو » جنوده باطلاق الرصاص في الظلام لمقاومة المهاجمين ، واندلعت النيران في القرية كلها، فاضطر الاهالي المدافعون عن البرج الى إخلائه،وكانت الجموع قد تكاثرت حول القرية حتى بلغ عددهم من الفين الى ثلاثة آلاف من الفلاحين ، فاضطر الجنرال مينو الى الانسحاب وعاد بكتيبته الى سنهور المدينة ثم الى دسوق ، بعد أن فقد بعض القتلى وتسعة عشر جريحاً ، ثم قفل راجعاً الى رشيد بعد أن عدل عن متابعة اكتشافه »[٢١]. وكتب الى نابليون والجنرال برتييه يعتذر عن أوهامه عن محبة الأهالي له !

« قصدت الكتيبة يوم ٤ أغسطس قرية ابي زعبل ولكن صدهم عنها جمع من العرب والفلاحين المسلحين بالبنادق والعصي (الشماريخ) فعادت الكتيبة ادراجها الى الخانكة وأخذ الأهالي من العرب والفلاحين يتعقبونها الى مستقرها وفي صباح ٥ أغسطس هاجم الأهالي المخافر الأمامية لمعسكر الخانكة بقوة أكبر من قوتهم الأولى إذ انضم إليها مائتان من المماليك . وبدأ الهجوم ، فبرزت من غابة ابي زعبل قوة من الفرسان العرب يتبعهم عدد حاشد من الفلاحين ، ولم يكن هؤلاء يحملون في الغالب إلا أسلحة ضعيفة فلم يتجاوز عدد حملة البنادق منهم السدس ، فأحاطوا بالفرنسيين من كل جانب ، تخفيهم الزروع والغيطان ، وانضم إليهم سكان القرى المجاورة . فأطلقوا النار على الفرنسيين من كل صوب . ولكن نيران المدفعية والبنادق أوقفتهم بعيداً عن المعسكر ، فأعادوا الهجوم بعد كرة ، وأضطر جنود المقدمة الى التراجع . وأدرك الجنرال لكلرك » الخطر من الاصرار على الدفاع عن قرية الخانكة ، فأجمع أن ينسحب منها ويرتد غرباً ، وفي أثناء المعركة ثارت قرية الخانكة نفسها فوثب أهلها برجال الحرس الفرنسيين الموجودين ، فجردوهم من السلاح وقتلوهم . واستولى الفزع على الجنود الفرنسية ولم يطيقوا البقاء معرضين للهجمات ، فجمع القائد ضباطه وتشاوروا في الأمر فاستقروا على اخلاء

الخانكة والتراجع عن القرية ، فتقهقروا بعد غروب الشمس ، وكان عددهم ستمائة مقاتل [٢٢] » .

« عندما انبثت فكرة الثورة في القاهرة ، وبدأت تذيع الدعوة اليها في الأقاليم ، فاجترأ الثوار على مهاجمة المخافر الفرنسية . وقتل الأهالي ترجمان الجنرال رينيه الخاص على مقربة من معسكر الفرنسيين في بلبيس . وقاوم أهل « بيشه » الفرنسيين عندما شرعوا في مصادرة خيولهم . وبدأ أهالي بلبيس وأعوانهم من العرب المجاوري لهم يهاجمون معسكر الفرنسيين في المدينة ... وتشجع الأهالي فهجموا على معسكر بلبيس فجر يوم ٢١ اكتوبر ١٧٩٨[*] فأقبل مائة من الفرنسان من قبيلة العائد ، قادمين من الصحراء فالتقوا بكتيبة من الفرنسيين وقتلوا منها بعض الجنود ، فرد الجنرال « رينيه » هجمة العرب ، ولكنه أضطر أن ينسحب الى « بلبيس » ليرد هجوماً آخر كان يتهدد مركزه في المدينة . وقد اشترك فيه ٢٥٠ من الفرسان و١٢٠٠ من المشاة . فرابط « رينيه » بالمدينة حتى أقبل اليه المدد ثم أخذ يهاجم الثوار الى أن ارتدوا عنها وسار بجنوده يتعقبهم حتى غابوا في الصحراء ، فعاد الى « بلبيس » ، وفي هذا الوقت كان عرب «بلي» قد أقبلوا من طريق «القاهرة» وهاجموا المعسكر ، فردهم الجنود الفرنسية ، ثم كروا بعد قليل ولهم قوة اكبر فكان عددهم كما قدر الجنرال « رينيه » ٥٠٠ فارس و١٢٠٠ الى ١٥٠٠ راجل . فمال عليهم « رينيه » بجنوده ومدفعيته ففرقهم بالبنادق والمدافع وردهم الى قرية « غيته » — في الجنوب الغربي من بلبيس — وفيما هو على أثرهم هجم الجمع الحاشد من أهالي البلاد المجاورة ـ قدرهم « رينيه » بألفين من المشاة و١٥٠ من الفرسان ـ على الفضاء الذي يفصل المعسكر عن «بلبيس» ولكن « رينيه » ردهم على أعقابهم عند عودته الى المدينة ، ثم عادوا الى

(*) لاحظ انه يوم ثورة القاهرة .

الهجوم ثانية ، وكذلك ردتهم الجنود الفرنسية ، ثم استمرت الحرب سجالاً بين الفريقين[٢٣] .

« ثار أهل القريتين (غمرين وتتـــا) ، شمالي منوف يوم ١٣ أغسطس ١٧٩٨ وحملوا السلاح وأغلقوا الأبواب في وجـــه الجنود ، فحاول الجنرال « فوجيير » عبثاً ان يكره البلدين على فتح أبوابها فلم يستطع ، ولمـا أعيته الحيل طلب المدد من الجنرال « زايونشك » الذي كان مرابطـاً « بمنوف » فأمده بقوة من جنوده . وتعاونت القوتان على اخضاع القريتين بعد ما دافع أهلها دفاعاً شديداً ، واشتد القتال خاصة في « غمرين » ، واشتبك الأهالي والجنود في طرقاتها ، فانهمرت فيها الدماء وغطيت الأرض بجثث القتـلى ، قال الكابتن «فيروس» يصف هذا الدفاع : « جاءنا المدد وتعاونت الكتيبتان على مهاجمة قرية غمرين فأخذناها عنوة بعد قتال ساعتين ، وقتلنا من الأعداء (الاهالي) من اربعمائة الى خمسمائة بينهم عدد من النساء كن يهاجمن جنودنا بكل بسالة واقدام [*] .

وهنا تبلغ الحماسة — وله الحق — « بالرافعي » الذروة فلا يملك الا ان يعلق : « فانظر الى هذا الوصف ، وتأمل كيف كان النساء يشاركن الرجال في مقاتلة الفرنسيين ودفاعهم ، وهذا لعمري (لعمر الرافعي) من أبلغ مـا يذكر عن استبسال شعب في الدفاع عن كيانه . وأبلغ منه ان الشهادة بـه جاءت من عدو » .

« وظهرت اعراض **الهيـــاج** (!!) والثورة في طنطا » في اوائل اكتوبر ١٧٩٨ وأجمع أهلها على الامتناع عن دفع أي ضريبة أو غرامة تفرض عليهم»[٢٥] .

(*) « لويس عوض » مؤرخ تاريخ البغـايا المتعاونات مع جيش الاحتلال والساقطـات اللاتي التحقن بمعسكرات الجنود والمواخير التي اقامها اليونانيون للترفيه عن الجنود . يفتش بين هؤلاء البغايا عن طلائع حركة تحرير المرأة ، ولا يهتم بهؤلاء المقاتلات الباسلات .

« وصل الكولونيل « لوفيفر » (*) تجاه طنطا يوم ٧ اكتوبر سنة ١٧٩٨ ورابط بجنوده وكلف حاكمها « سليم الشوربجي » ان ينفذ اليه أربعـــة من كبراء المدينة يكونون رهائن . فجـــاء بأربعة من أئمة مسجد السيد « احمد البدوي » ورفض أكابر المشايخ ان يحضروا معه ليعطوا القائد الفرنسي موثقاً بالمحافظة على السكينة في طنطا ، وكان المولد قائماً في ذلك اليوم ، وقد تجمع فيه خلق كثير من أرجاء البلاد ، فلم يكد « لوفيفر » ينزل الرهائن الأربعة الى المراكب ليبعث بهم الى القاهرة حتى هرعت الجمـــاهير مسلحين بالبنادق والحراب يصيحون صيحات الغضب والسخط ، رافعين الرايات والبيارق،فلما رأها أهالي البلاد المجاورة اقبلوا من كل حدب ، وانضموا الى الثائرين وفيهم ١٥٠ من فرسان العرب ، فاندفعت هذه الجموع على كتيبة الجنرال « لوفيفر » وكادت تأخذ المراكب التي معها فقابلتها الكتيبة بنـــار شديدة من البنادق الحديثة . فانهزمت الجموع الى المدينة ، وعادت غير مرة تهاجمهـا ثم ترتد الى داخل البلد . ورأي الكولونيل « لوفيفر » ان لا سبيل الى تعقب الثائرين في مدينة كبيرة كطنطا لقلة عدد جنوده ، وافتقاره الى المدفعية ، فلزم خطـة الدفاع وأقتصر على منع الثائرين أن يحيطوا بجنوده،وعلى الدفاع عن مراكبه، وتمكن من انزال معظم قوته بالسفن ومعهم الرهـــائن ثم اقلعت سفنه وترك قوة من رجاله على شاطىء الترعة بعد معركة دامت أربـع ساعات . وقد قدر الجنرال « فوجيير » عدد الثوار بعدة آلاف وقدر خسائرهم بثلثمائة بين قتيل وجريح ، وطلب من نابليون معاقبة اهالي « طنطا »، لأن معظم الثوار كانوا منهم ، وألح في طلب المدد من الرجال والمدافع لاخضاعهم » (٢٦) .

وكانت الجماهير معبـــأة باستمرار ضد المحتلين وعلى استعداد دائم للقتال ضدهم،فور وقوع أي حادث،حتى ولو لم يكن يحمل أي مغزى ولا أهمية .. فلما مرت طائفة من الفرنسيين بالمحلة الكبيرة « تعصب أهلهـا واجتمعوا

(*) هل هو جد الكاتب الماركسي هنري لوفيفر ؟!

الى قاضيها وخرجوا لحربهم فأكمن الفرنسيين لهم وضربوا عليهم طلقاً بالمدافع والبنادق فقتلوا منهم نيفاً وستمائة انسان ومنهم القاضي وغيره، ولم ينج منهم الا من فر وكان طويل العمر . وكذلك اهل طنتداء (طنطا) عند حضورهم اليهم وصل اليهم رجل من الجزاربن المنتسبين للعثمانية من جهة الشرق لزيارة سيدي « أحمد البدوي » وهو راكب على فرس وحوله نحو الخمسة انفار . وكان بعض الفرنسيس بداخل البلدة يقضون بعض اشغالهم فصاحت السوقة والبياعون عند رؤية ذلك الرجل بقولهم نصر الله دين الاسلام ، وهاجوا وماجوا ولقلقت النساء بألسنتهن وصاحت الصبيان وسخروا بالفرنسيس وتراموا بما على رؤوسهم (أخذوا البرنيطة ولعبوا بها الكورة !) وضربوهم وجرحوهم وطردوهم فتسحبوا من عندهم. فغابوا ثلاثة ايام ورجعوا اليهم بجمع من عسكرهم » [٢٧] .

« **ائتمر** (!) أهالي المنصورة والبلاد المجاورة بجنود الحامية واتفقوا على الفتك بهم فبينما كان الجنود في معسكرهم يوم ١٠ أغسطس ١٧٩٨ دخلت المدينة جموع كثيرة من أهالي البلاد المجاورة. وكان اليوم يوم السوق العامة ،فاختلطوا بأهل المدينة ، ووافقوهم على الفتك بجنود الحامية ، فهاجموا الجند ، ونادت المدينة بالثورة رجالاً ونساء ، وكان النساء يحرضن ازواجهن على أن يثوروا بالفرنسيين ، ولما شعر الجنود بالخطر ، امتنعوا في معسكرهم ، فحاصره الثائرون وشرعوا في دكه واشعلوا فيه النار فاضطر الجنود الى اخلائه هاربين وانحدروا الى السفن قاصدين الفرار ، ولكن الجموع تكاثرت عليهم وأبى رجال السفن ان يحملوهم ، فالتجأوا الى البر ، وقصدوا الى دمياط . ولكن الثوار أخذوا عليهم الطريق ثم قتلوهم عن آخرهم – التقارير الفرنسية تشير الى ان عددهم ما بين ١٢٠ – ١٦٠ مقاتلاً » [٢٨] .

بل وتركت الحامية المبادة زوجة أحد الضباط حية .. وتزوجت من شيخ العرب « ابو قورة » وساهمت في اعطاء بنات المنصورة هذا الطابع الفريد من لون العيون الذي يتميزن به .

« وَحَلَّت سفنهم في بحر « اشمون » من قلة الميـــاه ، وانتهزها الأهالي فهاجموا السفن الفرنسية ، وكانوا يتبعونها من بعيد ، واشترك في هذا الهجوم أهالي الجمالية . فأطلقوا النار على السفن وأمطروها وابلاً من الحجارة من أعلى سور بلدتهم . فـــأمر الجنرال « داماس » بانزال الجنود الى البر لرد هجوم الأهالي . وأمكنه ان يفرق الجموع التي أحدقت بالقوة الفرنسية، ولكنه بعد قتــال أربـع ساعات انسحب من الموقع الذي نزل بــه ورأى انه لا يستطيـع الثبات به ولا متابعة السير في بحر أشمون ، فأضرم النار في الجمالية ، وعاد أدراجه الى المنصورة ، ومعه جرحاه وقتلاه » (٢٩) .

وكتب احد ضباط الجنرال « داماس » تقريراً عن هذه المعركة جاء فيه :

« وقد رأيت بنفسي جماعة من الفلاحين ليس بيدهم سلاح سوى العصي ، يهاجموننا بحماسة فيستشهدون بين أسنة رماحنا » .

« وجاء في يوميات الجنرال « لوجييه » لقد تأكدنا ان « حسن طوبار » كان يجوب بنفسه البلاد الواقعة على بحر أشمون يحرض الأهالي على الثورة ، وكان يرسل الى بعض البلاد الأخرى رسله واتباعـــه لتنظيم المقاومـــة ضد الفرنسيين ، وانه هو الذي دبر واقعة الجماليـة .. وان الدلائل تدل على ان الثورة عامة » (٣٠) .

« امتدت شعلة الثورة الى دمياط من اوائل سبتمبر ١٧٩٨ فأرسل الجنرال « فيال » الى الجنرال «دوجا» ينذره بقرب هجوم الثوار على المدينة ويطلب المدد . وينبيء بـــأن « حسن طوبار » يحشد أسطولاً كبيراً في بحيرة المنزلة لمهاجمة المدينة. ووقع الهجوم المنتظر ليلة ١٦ سبتمبر سنة ١٧٩٨ واشترك فيه أهالي البلاد المجاورة لدمياط . واشترك فيه أيضـاً اسطول « حسن طوبار » الذي تحرك في بحيرة المنزله قـاصداً شطوط دميـاط . فوصـل الى ـ غيط النصـارى ـ شرقي المدينة . التقى الأهـالي القادمون من القرى بالنازلين من السفن ، وكانوا مسلحين بالبنادق والرماح ، وساروا قاصدين دمياط لمهاجمة

قوة الجنرال « فيال » فقتلوا الحراس الفرنسيين المرابطين في المخافر الأمامية للمدينة ، وظل القتال متواصلاً ليلة ١٦ سبتمبر إلى ان رتب الجنرال قواته فتحول موقفه من الدفاع الى الهجوم ، وتمكن من التغلب على الثوار وردهم على اعقابهم بعد ما كبدهم خسائر جسيمة . وفي خلال ثورة دمياط قام أهالي عزبة البرج وثاروا بالحامية الفرنسية فقتلوا من أدركوهم من رجالها » (٣١) .

وكتب الجنرال « لوجييه » في يومياته يقول : « لم تتحسن الحـالة كثيراً عما كانت عليه حينما جـاء الجنرال دوجا لأول مرة الى دميـاط ، والسلطة الفرنسية ما زالت منكورة في معظم جهات الدلتا التابعة لهذه المدينة ، وفي دمياط نفسها التي تعتبر من اعظم بلاد القطر المصري، لا يأمن الجندي الفرنسي على حياته اذا هو ذهب الى حي الوطنيين ، والحامية الفرنسية مقصاة في حي الاروام » (٣٢) .

حتى في البحر قاتل الفلاحون والصيادون :

« خرجت السفن من بوغاز دمياط ـ ٣ أكتوبر ١٧٩٨ ـ ثم عرجت على فم الديب ـ ١٦ سفينة منها ثلاث سفن حربية ـ فمرت منه الى بحيرة «المنزلة» ، وقطعت هذه المرحلة في ثماني ساعات، ثم اتجه الجنرال «اندريوسي» بقوته صوب المطرية ، ولكنهم شاهدوا في نحو الساعة الثالثة مساء اسطولاً من المراكب الشراعية متجهاً نحو الشرق ، تحجبه عن القوة الفرنسية، الجزائر التي في البحيرة ، فوصلت سفن الجنرال « اندريوسي » المسير حتى اقتربت من « المطرية » وقبل ان تصل اليها خرجت من مراكب الأهالي فجأة من خلف الجزر التي تحجبها، وأقبلت على السفن الفرنسية قاصدة الاصطدام بها واغراقها، فأدرك الجنرال « اندريوسي » خطورة الموقف ، وخشي عواقب الاصطدام لأن المراكب المصرية كانت تبلغ مائة مركب ، فنكص راجعاً الى دمياط ، وأطلقت المراكب المصرية النار على السفن الفرنسية . فأجابت هذه باطلاق الرصاص من البنادق والمدافع التي بها، وأخذت في الوقت نفسه تتراجع تفادياً

من الاصطدام بمراكب الأهالي ، وكانت هذه تتعقب السفن الفرنسية قاصدة احتلال دمياط، ورست بالقرب من المنية ـ جنوب دمياط بغرب ـ » [٣٣] .

« وأقبلت جموع الفلاحين المسلحين (*) تقتحم رصاص الفرنسيين، وأستمر الضرب والقتال مدة ساعتين ، وانتهت الواقعة بهزيمة الفرنسيين فولوا الادبار، وتعقبهم الأهالي حتى ردوهم الى بلبيس » [٣٤] .

« فهجم أهالي ميت غمر والبلاد المجاورة على المراكب واستولوا عليها وقتلوا من فيها من الفرنسيين وأخذوا ما بها من الذخائر والمدافع وارتدت السفينة الحربية التي كانت تحرسها الى القاهرة بعد أن عجزت عن رد الثائرين وجرح قبطانها وعدة من رجالها جروحاً بليغة » [٣٥] .

« معركة سنهور ٣ مايو ١٧٩٩ :

« وصل المدد الى الرحمانية، وانضم الى الجنود الذين بها ، وسارت القوات الفرنسية مجتمعة فالتقت برجال « المهدي » يوم ٣ مايو بسنهور البحيرة على مقربة من دمنهور ، ودارت معركة من أشد المعارك هولاً ، قال « ريبو » في وصفها ان عدد رجال « المهدي » كانوا خمسة عشر ألف مقاتل من المشاة وأربعة آلاف من الفرسان ، وان القتال استمر سبع ساعات كان فيها أشبه بمجزرة فظيعة ، وهذه الواقعة من أشد الوقائع التي واجهها الفرنسيون في القطر المصري ، أظهر فيها اتباع « المهدي » من الفلاحين والعرب شجاعة كبيرة واستخفافاً بالموت لا نظير له ، وبذل الكولونل « لفيفر » اقصى ما انتجه العلم والفن في القتال ، فجعل جيشه على شكل مربع ، على الطريقة التي ابتكرها نابليون وهجم على الجموع المقاتلة عشرين مرة ، فكان يحصد صفوفهم حصداً بنيران البنادق والمدافع ، وكان اتباع المهدي قد غنموا في دمنهور مدفعاً فرنسياً فاستخدموه في المعركة وركبوه على مركبة تجرها الثيران ، واخذوا يطلقون منه النار على الفرنسيين، واستمر القتال حتى جن

(*) في قرية « بردين » بمحافظة الشرقية .

الليل وكان الجنود الفرنسيون قد خارت قواهم من القتال . ففكر « لفيفر » في الانسحاب من الميدان والاتجاه الى الرحمانية ، ولكن جموع « المهدي » لكثرة عددها كانت تسد الطريق أمامه ، فأمر رجاله ان يضموا صفوفهم ويخترقوا الجموع التي طوقتهم وركب المدافع على رؤوس المربع لاقتحام هذه الجموع وانسحبوا من ميدان القتال بعد ان فدحتهم الخسائر »[٣٦] .

هكذا كان لقاء شعبنا للغزاة في الوجه البحري ، فاذا انتقلنا الى الصعيد حيث كان « ديزيه » وعميله « يعقوب » يشنون حملة اخضاع الصعيد ، كانت المقاومة الشعبية تعمّ كل قرى الصعيد ، حتى ليستحيل أن تذكر قرية على جانبي النهر لم تسجل صفحة بطولة في سجل مقاومة الغزو الفرنسي..ولم تقدم اكثر من شهيد وشهيدة : « صارت البلاد فيما بين أسيوط وجرجا شعلة من الهياج والثورة . شبت الثورة في نحو اربعين بلداً ، وانضوى الى علمها نحو سبعة آلاف من الاهالي »[٣٧] .

« واجه الفرنسيون في الصعيد فيما بين جرجا وأسيوط ثورة واسعة النطاق بعيدة المدى، ولكنهم عاجلوها قبل ان تجتمع قواها وتتحد عناصرها فكانت المعارك التي نشبت بينهم وبين الاهالي أشبه بمذابح فتكت فيها نيران المدافع والبنادق بجموع من الاهالي محرومين من النظام غير مزودين إلا بأسلحة قديمة » .

« ووصل الجنرال « دافو » الى « سوهاج » يوم ٣ يناير ١٧٩٩ حيث كانت تحتشد قوة من الثائرين قدرهم الجنرال « دافو » بأربعة آلاف من الفلاحين مسلحين بالبنادق والحراب يشد أزرهم سبعمائة من الفرسان ، ونشب القتال بين الفريقين. ولكن الاهالي على كثرة عددهم لم يكونوا معتادين خوض المعارك الحديثة فأصلتهم فرقة الفرسان ناراً حامية ، تراجعوا امامهم تاركين ثمانمائة من القتلى كما يقدرهم الجنرال « ديزيه » .

« وكانت هذه الواقعة كارثة أصابت الاهالي وكان طبيعياً أن تفضي الى

ارهاب البلاد الاخرى واخماد الثورة فيها ، لكنها على العكس لم تكسر شوكة الثائرين ، ولم تثنهم عن عزمهم ، واحتشدت جموعهم المسلحة على مقربة من أسيوط قادمين رجالاً وركباناً من مديريات «المنيا» و«بني سويف» و«الفيوم»، فكلف « ديزيه » الجنرال « دافو » ، التوجه ليهاجم هذه الجموع وليطمئن على الاسطول الفرنسي الذي انقطعت اخباره وتأخر وصوله الى « جرجا » ، وكان مركز هذا الاسطول محفوفاً بالمخاطر لأنه كان يتسحب في النيل بين بلاد ثائرة وجموع هائجة » .

« ووصل « دافو » « طهطا » يوم ٨ يناير .. وهجم الثوار على مؤخرة الجيش الفرنسي .. فأمر الجنرال « دافو » باطلاق النار عليهم ففتكت بهم فتكاً ذريعاً وخسر الأهالي عدداً كبيراً من القتلى قدرهم الضابط « راباس » ١٥٠ قتيلاً من الفرسان وثمانمائة من المشاة . وانتقم الفرنسيون انتقاماً فظيعاً من القرى التي اطلقت عليهم النار فقتلوا من أهلها خمسمائة رجل وأحرقوها » .

وعند جزيرة فيله « أنس الوجود » قال الجنرال « بليار » : «حمل الأهالي أسلحتهم وصاحوا صيحات القتال ، ورأينا النساء ينشدون اناشيد الحرب والهيجاء ويحثون التراب في وجوهنا ، أما الرجال فأطلقوا الرصاص على رجالنا الذين ركبوا البحر ، وكنت قد أحضرت معي مدفعاً لإخضاعهم فدعوتهم الى الصلح والسلام ، فكان جوابهم انهم لا يقبلون منا كلاماً **وانهم لا يفرون من امامنا كما يفر المماليك** .. (*) واستأنفوا اطلاق الرصاص فاضطررنا ان نرجىء احتلال الجزيرة » (٣٨) .

« فالتقى بهم في « الصوامعة » ـ جنوبي طهطا ـ يوم ٥ مارس ، وألفى نار الثورة مشتعلة ووجد بها نحو ثلاثة آلاف من الفلاحين يحتلونها ، فهجم

(*) البعض يفتري عليكم يا اجدادي انكم قاتلتم بتحريض المماليك او لإعادتهم !

على المدينة واحتلها ، ودفع الثوار الى النيل فقتل منهم عدد كبير قدرهم الجنرال « ديزيه » بألف قتيل وغريق »[٣٩] .

« وبينما كان الجنرال « بليار » يسمح لجنوده باغتصاب النساء ليرفع معنويتهم ، ويأمر بإتلاف المحاصيل ليهبط بمعنوية المماليك .. اضطر « ديزيه » الى ترك اسطوله قرب « قنا » حين زحف شمالاً بأكثر جيشه »[٤٠] .

« وبعدت الشقة بينهما فانتهز الاهالي هذه الفرصة لمهاجمة الاسطول . وكان عدده نحو ١٢ سفينة حربية تقل ذخائر الجيش ومؤونته ، تتقدمها السفينة الحربية « ايتاليا » . هاجم الأهالي هذه السفن يوم ٣ مارس (آذار) سنة ١٧٩٩ على مقربة من قرية « بارود » وأطلقوا عليها الرصاص فأجابت السفينة الحربية « ايتاليا » على هجمات الأهالي بإطلاق المدافع فقتلت منهم عدداً كثيراً ، لكن الأهالي ومعهم العرب القادمون من القصير تجمعوا وازداد عددهم ونزلوا النيل سباحة وهجموا على السفن فاستولوا عليها عنوة وأفرغوا شحنتها على شاطىء النيل ، ثم ركبوها وقصدوا الى السفينة الحربية «ايتاليا» للاستيلاء عليها ، وكان يقودها القومندان « موراندي » فضاعف اطلاق الرصاص على المهاجمين ولكنه رأى رجال مدفعيته قد اثخنهم الجراح على ظهر السفينة ، ورأى من جهة اخرى جموع الأهالي من الشاطىء الأيسر يتحفزون للهجوم عليه ، ففكر في الانسحاب ولكن الريح عاكسته فجنحت سفينته ، وإذ ذاك هرع اليها الأهالي والعرب من كل صوب وحدب وصعدوا على ظهرها ، فتحقق « موراندي » الخطر المحدق به ، ولكنه أبى التسليم ، فأشعل النار في مستودع البارود ، وألقى هو ورجاله بأنفسهم في اليم قاصدين النجاة ، وانفجر مستودع البارود فنسف السفينة نسفاً ، وتفجرت شظايا القنابل على الشاطىء فقتلت عدداً كبيراً من الأهالي ولكن الباقين منهم قاتلوا « موراندي » ورجاله في اليم فمات مثخناً بجراحه ، وقتل جميع الفرنسيين الذين كانوا على ظهر السفينة « ايتاليا » وعلى ظهر السفن الأخرى ، وكانت

خسارة الفرنسيين جسيمة فبلغ عدد قتلاهم من البحارة والجنود خمسمائة قتيل [٤١] .

وفي « ابنود » كان مع شعبنا مدافع حديثة « وكانت هـــذه أول مرة واجه فيها الفرنسيون مدفعية حديثة في صفوف المصريين » [٤٢] .

« وبعد ساعتين كان الفرنسيون قد فقدوا ستين قتيلاً ، وجرح منهم مثل هذا العدد امام هذا المنزل وحده . وتوقف القتال بعـد غروب الشمس .. ولكنه استؤنف في الفجر » [٤٣] .

« وتكبد الفرنسيون خسائر جسيمة فكفوا عن الضرب بعد أن أحرقوا المسجد وأخذوا يحاصرون المنزل طول الليل ، ونصبوا المدافع بحيث تشرف عليه»[٤٤]. «وأفلحنا في شق طريقنا الى الحوش وإشعال النار في البناء»[٤٥]. «ليكرهوا من فيه على التسليم» ولكن المقاومين كما تصفهم مذكرات«دينون»: «نزلوا عدواً الى الحوش وهم عراة يمسك كل منهم سيفاً بيد وبندقية بالأخرى. وهم يطلقون النـــار على جنودنا ويقفزون كالمجانين الى اللهب محاولين اطفاء النـــــار بأقدامهم .. وراحوا يخوضون النيران كأنهم الشياطين خرجت من الجحيم وأحسست وأنا أشهدهم بمزيج من الرعب والاعجاب . وتخللت المشهد فترات من السكون تسمع فيها صوتاً واحداً (يصلي) وتسمع رد الجماعة بالأناشيد الدينية ، وصيحات الحرب ، ثم يلقون بأنفسهم علينا رغم يقينهم من انهم ملاقون في ذلك حتفهم » [٤٦] .

كانت أمتنا مـــا زالت على فطرتها السليمة ، تحركها روح الاستشهاد التي قهرت الغرب وصدته ١٢ قرناً . لم يكن قد تم تغريبها بعد ، ولا تم تجريدها من روح العقيدة وروح الجهاد .

أما المماليك فيقرر «الرافعي» انهم « لبثوا يشاهدون هذه المجزرة بعيداً ، لم يأتوا شيئاً ولم يعملوا عملاً ، وعسكروا في الصحراء . ذلك كان شأنهم في كل المعارك التي اشتد فيها القتال .. فكانوا يضنون بأرواحهم ويعرضون

الأهالي فداء وضحية » . ونفس المعنى يؤكده « هيرولد » : « فبعد ان خدر المماليك الفلاحين بدعايتهم ، وضعوهم حاجزاً بينهم وبين الفرنسيين ثم انطلقوا هاربين على جيادهم الى الصحراء بينما كان الفرنسيون يذبحون نحو الف من الفلاحين » .

هذه الصورة اذا كانت معلوماتها صادقة من ناحية جبن المماليك وهروبهم وتجنبهم مقاتلة الفرنسيين(*) ، بل على العكس لقد سبق هذه المعركة انضمام عدد من المماليك الى الجيش الغازي ، بعضهم كان لديه شيء من الخجل ، جعله يدعي أنه من أصل أوروبي ومن ثم فوضعه الطبيعي أن يكون مع الجيش الغازي ! وبعضهم لم يفكر حتى في عذر .. إلا أن التحليل الذي يخرج به « هيرولد » عن « تحريضهم للأهالي » غير صحيح ولا دقيق ، وكذلك ملاحظة « الرافعي » : « ويعرضون الأهالي فداء وضحية » ! فداء لمن ، وضحية ماذا ؟!

فتحريض المماليك كان آخر عامل يمكن ان يستثير الفلاحين للمقاومة ، بل كان الأحرى به أن يحدث تأثيراً عكسياً .. «هيرولد» نفسه ، (ولو انه ينسى) يسجل عشرات الحالات التي قاومت فيها ، نفس القرية ، المماليك الفارين ، والفرنسيين المطاردين لهم .

و « الرافعي » يعلم ان الوجه البحري كان خالياً تقريباً من المماليك بعد الاحتلال . ومع ذلك لم تكن ثورة الأهالي فيه ، أقل من ثورتهم في الصعيد .

والذي حدث أنه لما سقط المماليك وأفاقت الجماهير على انهيارهم – بل وأصبحت تتبرأ من جبنهم وهربهم كما رأينا في ردهم على الجنرال بليارد – حملت هي مسئولية الدفاع عن وطنها ووجودها . ولأن الفلاحين والصعايدة

(*) كانت عبارة الجبرتي جامعة مانعة بليغة ومختصرة : « وانهزم الغز كعادتهم » !

وأولاد البلد في القاهرة ـ كما سنرى ـ قد محوا بالدم الأسطورة التي راجت قبل الحملة الفرنسية عن الشعب القطيع الذي ينتقل من يد غالب الى غالب ، ولا دخل له بقضية مَنْ يمتلك البلاد .. لأن شعبنا محق بالدم الفرية التي يريد البعض ترويجها اليوم بأنه لم يكن طرفاً في الصراع على السيادة ، بل كانت حرباً بين الفرنسيين..والسيادة العثمانيةوالعسكر المماليك .. لأن وقائع التاريخ تكذب ذلك الزعم ، نرى بعض المؤرخين يبحثون حائرين « عن تفسير » لاستشهاد المصريين دفاعاً عن وطنهم !!

كانت المقاومة عامة والرفض شامل ، ففي رسالة الى الجنرال « ديزيه » عن معركة ابنود : « اننا نعيش هنا عيشة ضنكا فإن جميع القرى تقفر من السكان كلما اقتربنا منها ولا نجد فيها شيئاً من القوت ولا نرى فلاحاً واحداً يدلنا أو يأتينا بالأخبار أو يحمل رسائلنا.ولا أدري السبب في هذه الحالة(؟!) على اننا مع ذلك لا نعمل عملاً ضاراً في البلاد التي نجتازها » (!!)

ويقرر الرافعي ان « الفرنسيين لقوا أشد الجهد في استخدام النوتية المصريين في مراكبهم لامتناع الكثير منهم واستعصائهم أن يخدموا المحتلين في منفعة أو ضارة » .

اما « ديزيه » (رغم خدمات العميل يعقوب) فهو يقر لنابليون : « لا اكتمكم الحقيقة وهي اننا مع ذلك لا نكون سادة البلاد ، لأننا اذا أخلينا بلدة لحظة واحدة من الجنود عادت الى حالتها القديمة » .

وفي بني « عدي » وصل «دافو» اليها يوم ١٨ أبريل ١٧٩٩ « الفى أهلها جميعاً يحملون السلاح ويتحضرون للوثبة والقتال.. فاشتبك الفريقان في معركة حامية دارت رحاها في طرقات « بني عدي » وبيوتها التي حصنها الأهالي وجعلوا منها شبه قلاع كان الرصاص ينهال منها على الجنود ، فلقي الجيش الفرنسي «ببني عدي» من المقاومة ما لم يلق مثله في كثير من البلاد . واستمر القتال الى الليل وانتهت المعركة بغلبة المدافع والنيران الفرنسية على مقاومة

الأهالي ، ذلك ان الفرنسيين لما عجزوا عن الاستيلاء على « بني عدي » لجأوا الى وسيلة الحريق التي اتبعوها في « ابنود » وغيرها ، فأضرموا النار فيها ، فأمتدت الى بيوتها كافة، وأصبحت البلدة كأتون من نار، وبهذه الوسيلة تغلب الجيش الفرنسي على مقاومة « بني عدي » واحتلها الجنود وأمعنوا في أهلها قتلاً ونهباً ..

قال الجنرال « برتييه » رئيس اركان حرب الحملة الفرنسية في مذكراته : « أصبحت بـ «بني عدي» اكواماً من الخرائب،وتكدست القتلى في شوارعها، ولم تقع مجزرة اشد هولاً مما حل بـ« بني عدي » وقدر الجنرال « دافو » عدد القتلى من الأهـــالي بألفي قتيل ، ويقدرهم « ديزيه » في تقريره الى نابليون بنحو ثلاثة آلاف » .

وهناك واقعة شهيرة ينتبه لها دائماً المؤرخون الغربيون، وبعض المصريين، ولو ان الاهتمام بهـا وقف عند حد « الاعجـاب » بغلام .. فلاح مصري ، يسرق بنادق الجيش الفرنسي،ويرفض الاعتراف على محرضيه ويتحمل الضرب بصبر عجيب !

ففي « الفقاعي » — قرية تابعة لمركز ببـا في مديرية « بني سويف » على الضفة الغربية للنيل — (بالصعيد) تقدم أحد غلمـــان القرية وتغفل جنود الجنرال « ديزيه »كما تغفل جواسيسه بقيادة «يعقوب» . واستولى على بنادقهم فرآه جندي آخر ، وتعقبه وهو يحمل بندقية الى ان ادركه وضربه بالسيف على ذراعه، وساقه جريحاً الى الجنرال « ديزيه » للاقتصاص منه ... » وهنا تسجل المصادر الفرنسية(وهي وحدها التي سجلت الواقعة) حواراً يبدو أنه أذهل قادة جيش الاحتلال من غلام لم يتجاوز سنه الثانية عشرة عاري الجسد تقريباً، حافي القدمين، على بعد مئات الاميال من الشاطىء الاوروبي ، جريحاً مضروباً بالسيف في ذراعه وساقه، يمسك به جندي فرنسي ووسط معسكر كامل من المقاتلين ، المسلحين بأسلحة اوروبا الحديثة ! فعندما سأله الجنرال

عما دعاه الى ارتكاب هذا العمل، أجاب الغلام رابط الجأش ناظراً الى السماء: « ان الله القادر على كل شيء قد أمره بذلك ، فسأله الجنرال عمن حرضه على فعلته ، فقال لم يحرضني أحد ، وانما الهمني الله ان أفعل ما فعلت ، ثم رفع رأسه ونظر اليه وقال في هدوء وثبات : دونك رأسي فاقطعوه ، فدهش الجنرال من شجاعته ، واكتفى بأن يجلده بالسوط ثلاثين جلدة (مثبتاً بذلك انه ارحم من القضاة الانجليز عندما واجهتهم فتاة فرنسية في زي غلام بنفس الكلمات) فجلد الغلام لا يتأوه ولا يتململ حتى استوفى الثلاثين سوطاً، وقد قص الجنرال « بليار » حكايته في يومياته قائلاً : ان هذا الغلام اذا عُني بتربيته كان ذا شخصية نادرة المثال ، وروى المسيو « فيفان دينون » حكاية هذا الغلام في رحلته » . اما رواية المسيو «دينون» التي يتحفظ عليها الرافعي بسبب أدبياتها فتقول ان : « الغلام جرى بأسرع ما يستطيع وهو يخفي السلاح تحت جلبابه ، ولم يقف الا بعد ان أصابه الجندي بجرح سيف في ذراعه . وجيء به أمام الجنرال « ديزيه » فاستجوبه . فأجاب وهو يتطلع الى السماء بأن الله أمره ان يسرق وأن « لديزيه » ان يفعل به ما يشاء . ثم خلع طاقيته وأعطاها للجنرال وطلب اليه ان يفصل في مصيره. وظل طوال الوقت هادئاً هدوءً عجيباً . وأبدى قوة خلق نادرة . أما الجنرال فقد راعى صغر سنه وخضوعه لحكمه،ثم حكم عليه بثلاثين جلدة . وانحنى الغلام طواعية وتلقى الجلدات على ظهره دون صوت أو دمعة . وعمره يتراوح بين الثامنة والعاشرة (!) وهو حلو الصورة . ولو اتيح له بعض التعليم لتقدم كثيراً » .

ونرجح أن الغلام كان يتبع تنظيماً ما .. اذ لا يعقل انه كان يسرق البنادق لحسابه الخاص ، ولا شك أن أهم ما كان يعنيه ، ونجح فيه، هو عدم افشاء سر هذا التنظيم ، كما يمكن أن نفهم من هذا الحادث ان التنظيم الوطني في الصعيد ، أو مصر كلها ، كان يعتمد - كما هي العادة في كل الحروب التحريرية - على مخازن العدوكمورد أساسي للسلاح.وقد ثبت دائماً ان الأحداث هم خير من يقوم بعمليات من هذا النوع .

ولا نجد في جميع الروايات المتاحة،ما يشير الى دين الفتى ، ولكن لانتشار الاقباط في الصعيد ، وملامح الفتى في الصورة التي رسمها « فيفان دينون » تتيح الظن بقبطيته (ان كان يمكن تمييز ملامح عناصر الشعب المصري) . وأهم من ذلك أغفال المصادر الغربية والمستغربة الاشارة الى دين الغلام ، ولو كان مسلماً لما فاتهم ذلك . والعبارات التي يتحدث بها ونظرته الى السماء لا تنفي اسلامه ، وان رجحت قبطيته . ولعل « هيرولد » قد أحس هذا الاحتمال ، لذلك بادر بعد قصة بطل « الفقاعي » فوراً، بالحديث عن مقاومة القرى بالصعيد ، التي يكثر فيها الاقباط ، « للماليك » !

اضف الى ذلك انه ما من مصدر من المصادر الفرنسية قد حرص على اثبات اسم الفتى ، ولو كان مسلماً ما فاتهم ذلك . فمن حقنا اذن ان نتخيله غلاماً قبطياً ، يضرب بجذوره في هذه الارض منذ آلاف لا حصر لها من السنين ، ويسمو باحساسه الوطني الى الآفاق الحضارية التي ترى في هؤلاء الفرنجة الغزاة، أحفاد الرومان الطغاة الذين نكلوا باجداده وطاردوا رهبانه واضطهدوا كنيسته ، واغرقوا تاريخها بدم الشهداء وأجبروا بطريركها على اللجوء الى الصحراء حتى اعاده العرب ...

هذه هي المقاومة الشاملة التي اجتاحت الريف المصري صعيده ودلتاه .. يلخصها الرافعي ، وهو الذي كان ـ بحق ـ خير من أرخها بدقة كاملة ، يلخصها بقوله :

« وصفوة القول انه لا يمكن لامة عزلاء لا سلاح معها ان تدافع عن كيانها ، بأكثر مما فعلت الامة المصرية في عهد الحملة الفرنسية » [٤٧] .

« حتى المؤرخ الصهيوني ناداف صافران يعترف بأن مصر شهدت ثورة فلاحين في ١٨٠٠ ضد المحتل الفرنسي » [٤٨] .

وهكذا كان تاريخ الحملة الفرنسية في الريف المصري من الدلتا الى الشلال، هو سلسلة متصلة شبه يومية من اعمال القمع والابادة والنهب والتنكيل الوحشي

يقوم بها جيش الاحتلال. وثورة دائمة ومقاومة متزايدة باستمرار من الفلاحين المصريين يعاونهم ابناء البلاد العربية والاسلامية من مكيين وجداويين ومغاربة وأحباش وتونسيين .. وطبعاً الشوام .. وكما سردنا بعض لمحات من بعض صفحات المقاومة التي اثبتها المؤرخون عن مقاومة الفلاحين، نستعرض بعض سطور من سفر التنكيل الوحشي لجيش البرابرة الفرنسيين بالفلاحين المصريين : ففور احتلال الاسكندرية ، أمر نابليون بهدم منزل الشخص المتهم بقتل جندي فرنسي ، سابقاً بذلك « المدنية » الاسرائيلية بقرن وسبعين عاماً !

وعندما ثار الفلاحون في الدلتا واستطاعوا تحرير « دمنهور » وحكمها خمسة عشر يوماً. كان الانتقام : « ان دمنهور زالت من الوجود ، وقد أحرق او ضرب بالنار الف ومائتان الى ألف وخمسمائة من أهلها » .

« وصلنا يوم ٢٦ مسيدور (*) (١٤ يوليو) الى قرية (النجيله) بينما كان جنود الجنرالين « بون وفيال » ينهبونها ، وكان صياح الأهالي وبكاء النساء ونحيبهم يصم الآذان » (٤٩) .

« صادرنا بعض المواشي التي وجدناها في طريقنا، وبينما كانوا يقيدونها كان الجنود ينهبون هذه القرية ويخربونها . ان فرقتنا لم تكن تعمل سوى اتمام خراب القرى التي كان يمر بها الجيش لأن الفرق التي تقدمتنا لم تترك فيها إلا ما لا يمكن حمله او تخريبه ، وفي بعض الأحيان كنا نرى النار مشتعلة في الغيطان قبل حضورنا بحيث لم نكن نعرف كيف نحصل على ما يلزم من التبن والشعير لخيولنا » . « ووصلنا الى وردان » . وبالرغم من ان الجنود كانوا في حاجة الى الراحة فإن ذلك لم يردهم عن النهب . « ووضعوا أيديهم على ما وصلت اليه من المتاع وأخذوا منها ما راق لهم أن يأخذوه » (٥٠) .

ومن الخطأ أن نتصور أن هذا الاسلوب كان يتميز به صغار القادة فإن

(*) تأمل مهزلة التناقض — او بالأحرى التوافق — بين التأريخ بالتقويم الثوري، وبين الفعل البربري!

« مينو » كتب الى « كليبر » بتاريخ ١٣ اغسطس يقول : « لقد قمت هـذا اليوم بجولة لمعاقبة قرية قتلت بعض الفرنسيين ، فأحرقت القرية وقتلت تسعة من الاهالي ، وسيعتبرون بهذا الدرس كما يعتبر به أهالي وادي النيل » .

وطبعاً لم يعتبر الطرفان ..

« فقامت كتيبة من ستمائة من الجنود وحاصرت بـلدة « بركة غطاس » وأحرقتها ونهبتها » .

وليس صحيحاً أن نابليون كان مستاءً من ذلـك ـ كما يشهد الرافعي ـ «إنصافاً للتاريخ»!! بل كان نابليون ـ الذي يبدو أن اهتمامه بالوثائق وتبرئة نفسه أمام التاريخ ، كان كل ما يشغل باله ـ فهو يكتب عبارات الاستنكار هـذه للنشر ليس إلا وأيضاً كان يرفض في بعض الاحيان أن ينشغل الجنود بالنهب عن الحرب ، او أن تمزق وحدتهم ، عملية الصراع على اقتسام المنهوبات ، ولكن تعليماتـه كانت تتضمن : « أن يأخذ أهل « دمنهور » أخذاً شديداً بسلكهم ازاء كتيبة الجنرال « ديموي » وتجريد الاهالي من السلاح وأعـدم خمسة من اعيان المدينة فيهم واحد من العلماء ممن اشتركوا في الواقعة، والأربعة الآخرون من المحرضين ، واعتقال خمسة وعشرين رجلاً يأخذهم رهائن فيرسلهم الى القاهرة بطريق النيل » (٥١) ..

لنتذكر دائماً أن نابليون هو أول حاكم لمصر تجرأ على اعدام « العلماء » المصريين . ونابليون هو الذي امر : « اغلظوا العقـاب للقرى بصرامة وقسوة » (٥٢) .

« إن الجنرال لتورك جمع الخيول والأموال من جميع القرى المجاورة لدمنهور وأنه ارسل الى الاسكندرية بستين جملاً محملة غلالاً ممـا صادره من البلاد » (٥٣) .

« ولكنه اسرف في التنكيل ولم يفرق بين القرى الثائرة والقرى الآمنة الهادئة ، وأوقع بهـا كلها نهباً وإحراقاً ، مرّ أولاً « بالظاهرية » ـ بمديرية

« الغربية » على الشاطىء الغربي لفرع « دمياط » شمال « شربين » وتسمى الضهرية ـ فوجدها خالية من السكان لأن أهلها اخلوهـا قبل أن تصل اليها الجنود الفرنسية ، كي لا يستهدفوا للانتقام ، ثم بلغ كفر المياسرة » فوجدها كذلك خالية .. ووصل الى «ميت الخولى» فاستولى الجنرال فيال على المدينة وعلى ما وجد فيها من الاسلحة ، ومنها ثلاثة مدافع قديمة وأمر جنوده بنهب البلدة وإحراقها . وفي اليوم الذي عاد فيه الجنود الى « دمياط » بعد هـذا النهب . كانت مدينة «دمياط» أشبه بسوق او مولد باع فيه الجنود الفرنسية الى الاروام مـا نالته ايديهم من النهب والسلب ، فكانوا يعرضون المواشي والطيور والثيران والبقر والخيول والحمير والغنم والدجاج والأوز وكثيراً من قطع الذهب والفضة التي كانت حلياً للنساء » (٥٤) .

« وطلبوا كلفـة من ابي زعبل ، فامتنعوا فقاتلوهم وضربوهم وكسروهم ونهبوا البلدة وأحرقوها وارتحلوا الى بلبيس » (٥٥) .

« ولمـا وصل الجنرال « لانوس » الى « ميت غمر » أراد أن يقتص منها انتقاماً لما حل بالفرنسيين والسفن الفرنسية تجاهها ، فأمر بإحراقها وتدميرها « حتى لم يبقَ منها حجر على حجر » كما يقول ريبو » (٥٦) .

« بعـد ان احتل الجنود دمنهور قتلوا من صادفوه من رجال « المهدي » جميعاً ، ولما كان أهل دمنهور هم أول من اتبع المهدي من سكان البحيرة، فقد أراد الفرنسيون أن يطبعوا هـذه المدينة بطابع الغضب والانتقام فأحرقوا مساكنهم بالنار ، وقتلوا كل من وجدوه من الشيوخ والنساء والاطفال بحد السيف وفي اليوم التالي كانت دمنهور ركاماً من الاحجار السوداء اختلطت بها اشلاء الجثث ودماء القتلى » (٥٧) .

« وذكر الجنرال « لانوس » في رسالة بعث بهـا من الرحمانية الى الجنرال «دوجا» شيئاً من الفظائع التي ارتكبها في دمنهور قال: «كانت مدينة دمنهور

وأهلها هدفاً لانتقام الجنود ، فقد قتلوا من الاهالي نحو ٢٠٠ او ٣٠٠ وبعد ذلك أمرت بتسليم المدينة لفظائع النهب وسفك الدماء. والآن لم يعد لدمنهور وجود ، وقد قتل من اهلها نحو ١٢٠٠ او ١٥٠٠ ماتوا قتلاً او حرقاً » .

وفي اليوم الذي وصل فيه كلهبر (كليبر) الى القاهرة ليتولى منصبه الجديد كخليفة نابليون . « قدمت طائفة من العسكر من جهة الشرقية وصحبتهم منهوبات كثيرة من بلد عصت عليهم فضربوها ونهبوها ومعهم نحو السبعين من الرجال والصغار وبعض النساء وهم موثوقون بالحبال فسجنوهم بالقلعة » (٥٨).

أما تعليمات نابليون فكانت : « ان الوسيلة الوحيدة لإخضاع هذه البلاد هي : أصدروا أوامركم بأن تقدم لكم كل قرية جوادين من خير الجياد ، وأيما قرية لم تفعل ، ومضت خمسة أيام من اعلانها بالأمر ، ضربت عليها غرامة الف ريال. وإن هذه لهي الطريقة الفعّالة للحصول على خمسمائة من الجياد تسد من حاجتكم . وعليكم عند طلب الخيل ان تطلبوا كذلك عدتها من الركاب واللجام لتتوافر لكم في الحال فرقة من الخيالة. فانها الوسيلة الوحيدة لإخضاع هذه البلاد » (٥٩) .

الفصل الرابع

وثارت مدينتي ..

تنظيم الثورة

أما في القاهرة ، فبعد ما أدت مسرحية .. الدخول بلا سلاح ، وشراء الدجاجة بريال فرانسة دورها في بلبلة القاهريين الفترة اللازمة .. بدأ الجنود يقومون بالمهام التاريخية لجيش احتلال تتري :

« وفي كل يوم ينقلون على الجمال والحمير من الامتعة والفرش والصناديق والسروج وغير ذلك مما لا يحصى ويستخرجون الخبايا والودائع ويطلبون البنائين والمهندسين والخدام الذين يعرفون بيوت أسيادهم بل ويذهبون بأنفسهم ويدلونهم على أماكن الخبايا ومواضع الدفائن ليصير لهم بذلك قربة ووجاهة وسيلة ينالون بها اغراضهم »[1] .

وأحقاد ابناء المهنة الواحدة معروفة ، والدولة التي تزور العملة بخفض قيمتها ، لا تألوا جهداً في مطاردة منافسيها من مزيفي العملة ، الذين يعملون لحسابهم الخاص ، كذلك فإن جيش نابليون الذي شن عملية نهب واسعة النطاق ، شن في نفس الوقت حملة مطاردة لمنافسيه من اللصوص غير الرسميين الذين ساهموا في استغلال الفرصة التاريخية بنهب جانب من بيوت المصريين . ولأن ساري عسكر الفرنسيس كان أقوى تسليحاً وأكثر جنداً من ساري عسكر اللصوص ، فقد تمّ القبض : « على شيخ الجعيدية ومعه آخر وبندقوا

عليها بالرصاص ببركة الازبكية ثم على آخرين أيضاً بالرميلة . وأحضر النهابون أشياء كثيرة من الأمتعة التي نهبوها عندما داخلهم الخوف ودلّ على بعضهم البعض » (٢) .

وتتابعت الغرامات او الفرد على زوجات الغائبين فدفعت السيدة نفيسة زوجة مراد بيك وحدها في إحدى الدفعات مائة وعشرين الف ريال أي ثمن مائة وعشرين الف دجاجة، بالسعر الوهمي الذي حاول الجند خداع المصريين به في الايام الاولى .

« وزوجة رضوان كاشف كانت صالحت على نفسها وبيتها بألف ريال وثلثمائة ريال وأخذت منهم ورقة وألصقتها على باب الدار وردت ما كانت وزعته من المال والمتاع عند معارفها واطمأنت » ولكن اطمئنانها كان على غير اساس ، فسرعان ما حضر العسكر ، وحفروا ونهبوا وأخذوا : « صاحبة الدار ومعها جارية بيضاء وأخذوهما مع الجواري السود وذهبوا بهن . فأقمن عندهم ثلاثة ايام ونهبوا ما وجدوه بالدار من فرش وأمتعة ثم قرروا عليها اربعة آلاف ريال اخرى . قامت بدفعها وأطلقوها . ورجعت الى دارها » (*) .

واضح ان نابليون كان يفضل أن يتم النهب بالوسائل العصرية اي بالفرد والضرائب والرسوم .. الخ .. ولكن ثورة القاهرة الاولى جاءت تكشف عن التتري المتخفي في ثياب القرن التاسع عشر ..

وإذا كان جميع المؤرخين يتفقون في اعتبار الحملة الفرنسية هي بداية المرحلة الحديثة من المسألة الاسلامية. إلا أن ذلك الاتفاق يقوم في نفس الوقت على خلاف جوهري بين المدرستين: الاستعمارية والوطنية.. فبينما ترى المدرسة

(*) وفي آخر رواية الجبرتي عبارة يبدو ان بعض سطورها سقط من الأصل تنتهي بقوله : « وحصل بينها (أي بين زوجة رضوان كاشف) وبين مباشرها القبطي منافسة فذهب وأغرى بها ودل على ذلك » (٣) .

الغربية الاستعمارية ، ان الحملة الفرنسية كانت بداية بعث القومية المصرية (بالذات) او بداية ذلك الطريق الذي عبدته بعد ذلك اقدام الانجليز والفرنسيين والطليان في الوطن العربي ، بحيث تحطمت الرابطة « الدينية » وظهرت الدول العربية ، بقومياتها المتعددة ومؤسساتها « العصرية » . ذلك الطريق الذي قطع فيه « محمد علي » خطوات حاسمة ، وأكمله الحكم «الوطني» منذ عام ١٩٢٤ .

ولكن المدرسة الوطنية ترى في الحملة الفرنسية بداية التحدي الحديث والحاسم الذي واجه الغرب به الشرق الاسلامي . التحدي الذي لم يُجب عليه الى الآن سواء بسحقه او الفناء فيه.. غير ان هذا التحدي قد استثار عناصر المقاومة في الأمة ، ولو أنه لم يصل بالاستثارة الى المستوى الذي يمكن الأمة من التغلب على التحدي وقهره ومن ثم تحقيق البعث وتخطي حافة الخطر. ولا نجح هذا التحدي في سحق مقاومة الأمة نهائياً .. وما زالت الأمة العربية والشرق الاسلامي كله يواجهان هذا التحدي في نوبات من الانفعال ، وارتفاع مؤقت في حرارة الرفض ، دون أن يصل الى الرفض الشامل والمقاومة الخلاقة . وقد شهدنا كيف قابلت الأمة من الاسكندرية الى النوبة ، الغزو الفرنسي بالرفض والمقاومة .. وكيف نكل الغزاة الفرنسيين بمقاومة الشعب مؤكدين بذلك الطابع الاستعماري للغزوة .

والمدرسة الاستعمارية التي تعتبر مقاومة الشعوب المستعمرة « ظاهرة شاذة » تحتاج الى تفسير ، وأحياناً الى تبرير ، تجهد نفسها دائماً في تحليل « اسباب » الثورة .. وآخر سبب تجده طبعاً هو التناقض المحتوم بين الاستعماريين والشعوب .. وهي تحاول دائماً أن تفتش عن سبب لثورة من « لا مصلحة لهم أضيرت بالغزو » !.. « فنابليون » فرض الضرائب على الاغنياء ، فلماذا يثور العامة ؟ والفلاح المصري أعفى من السخرة في ظل الانجليز فلماذا يثور ؟ وبالذات في السنة التي ارتفع فيها سعر القطن ؟! لا بد

أن السبب هو ارتفاع سعر القطن .. ومـــا أدى اليه من « بطر » وتطلعات !

ومنذ « ريتشارد قلب الاسد » الى « هيرولد » لا بـد ان تفسر مقاومة الغزو الغربي بأنها من فعل التعصب الديني .. وهذا التفسير يجب ألا يفزعنـا حتى نسقط في شراك نفيه ، فليس يعيب الامم أن تتعصب لدينها ، وقـد عرض المشايخ على نابليون ان يسلم ، فتدين له الأمة العربية بالطاعة، فرفض ! ولكن المهم هو ما هي المواقف الاجتماعية والسياسية والانسانية والخلقية التي تترتب على تعصب الأمة لدينها .. فاذا كان شيوخ الأزهر « يغزون » فرنسا ويبيدون شعبها لفرض الإسلام عليه بالقوة ، فهذا تعصب يحق للفرنسيين أن يستنكروه ، وأن يقاتلوه .. واذا كان شيوخ « الأزهر » يتعصبون لدينهم ومن ثم ينادون بقتل وإبادة غير المسلمين من ابناء مصر، فهذا تعصب ممقوت ، وكذلك لو جـــاء من المصريين غير المسلمين . ولكن اذا كان تعصب شيوخ الأزهر ورجال الكنيسة القبطية ، والعامة المصريين ، يقود حركة التاريخ في اتجاه مقاومة الاستعمار الغربي وتحرير الوطن من الاحتلال الأجنبي .. فهذا هو الجهاد بمفهوم المسلمين ، وهذه هي حرب التحرير الوطنية المعاصرة التي تساير الزمن، وخير ما يفعله المستعمرالاوروبي لكي لا يحترق بنيران هذا «التعصب»، هو الابتعاد عنه بالعودة الى وطنه !

ونحن نرى خطأ التفاسير التي تحاول ان تفسر ثورة القاهرة الاولى بأنهـا كانت ضد الاصلاحات الفرنسية ، كإلزام السكان بدفن الموتى خارج المنازل، او هدم البوابات او اجبارهم على تعليق الفوانيس . فان الثورة قد نشبت في شتى انحاء القطر المصري،وفي القرى حيث لم تصدر الاوامر بتعليق المصابيح، ولم تهدم البوابات ولا نبشت القبور .

والثورة لم تنشب فقط بسبب الضرائب ، فكما يعترف « هيرولد » نفسه ان الذين قاموا بها هم العامة الذين لا يدفعون ضرائب .

الثورة لم تقم بسبب ازمة اقتصادية بل كما يشهد المؤرخون المعاصرون كان « الطعام اوفر من العادة، وهبطت اسعار المواد الاساسية » بل أبدى جندي فرنسي دهشته من استمرار انخفاض الاسعار رغم وجود عدة آلاف من الجنود الفرنسيين كمستهلكين من الدرجة الاولى في احدى القرى !

الثورة قامت لهذه الأسباب كلها ، ولكن السبب الرئيسي الذي يجمع كل هذه الاسباب ، ويتغلب حتى على مـا قد يعارضها من عوامل ، هو التناقض بين الشعوب والاستعمار . فهي ثورة وطنية مصرية مائة في المائة وذلـك لا ينفي عروبتها ، واسلاميتها في نفس الوقت ، ولكنه ينفي السخف القائل بأنهـا كانت من تحريض ووعود ممثلي العثمانيين والمماليك . فهؤلاء كما يسجل «الجبرتي» لم يكن ثمة من يأمل جدياً في مساعدتهم ونجدتهم. وقد رأينا تعليق «الجبرتي» الساخر على نجدة السلطان المأمولة عندما أرسل يطلبها منه ، آخر ديوان ، فكان تعليق المؤرخ المصري، قبل وقوع الهزيمة ، بل حتى قبل وقوع القتال : « أرسلوا يأتون بالترياق من العراق » .. وبعدمـا اخمدت الثورة وصدر بيان نابليون لم يعجب « الجبرتي » فيه إلا وصفه الدولة العثمانية بأنهـا « المفعمة جهالة» . فهذه دولة لم يكن القادة الحقيقيون للأمة يتوقعون الكثير من نجدتها . وان كان هذا لا يمنع ان المصريين كانوا يتمسكون « بعلقة الدولة العلية » حتى ان نابليون حاول أن يمن عليهم بأنه أبقاها لهم .

ولا يمنع ان يثور بين المحاصَرين الذين يقاتلون تحت وابل من ضرب المدفعية « الذي ما كانوا قد عرفوه ، ولا من قبل قد عاينوه » لا يمنع انهم ينـادون خفي الألطاف ، ويأملون نجدة تصل اليهم من المماليك أو جيش السلطان فحتى الحرب العالمية الاولى كان الجزائريون الطيبون يأملون وصول اسطول السلطان ليخلصهم من الاحتلال الفرنسي، وكان المصريون يتابعون باهتمام انباء الحملة التركية التي يجري اعدادها في الشام لطرد الانجليز من مصر، ولا عجب فلطالمـا دعى الجزائريون والمصريون للسلطان بالنصر ، وإن كان دعاؤهم

لم يستجب .. وفي سنة ١٩٥٦ سرت في بور سعيد اشاعة بوصول الاسطول الروسي .. ولكن اي مؤرخ يحترم نفسه ينسب مقاومة بور سعيد لتحريض الروس !

فبعكس تفسيرات « هيرولد » لا نجد في ثورة القاهرة ظاهرة غريبة عن سائر الثورات ـ على الأقل ـ فيما يتعلق بحمل الجماهير للعبء الاكبر فيها ، ولذلك نستغرب ان يفسر « هيرولد » هذه الظاهرة الطبيعية جداً بأن « الاغنياء والمستنيرين استخدموا الفقراء المتحمسين والمحرَّضين مطية لبلوغ هدفهم » .

ربما كان هذا الوصف اقرب للصحة بالنسبة للثورتين الفرنسية والامريكية ، حيث كانت مصلحة الطبقة البورجوازية هي المعنية بالدرجة الاولى ، بينما كانت الدماء هي دماء الجماهير ، الأكثر عدداً ، والأكثر سخاء بدمها عادة ، والأكثر استعداداً للاستجابة لصيحة الاستشهاد .

ومع ذلك فما من مؤرخ يستطيع ان ينكر مصلحة الجماهير الفرنسية او الامريكية في مقارعة الأوضاع التي سقطت ، ولكن مصلحة الجماهير في ثورة وطنية بمستعمرة شرقية أكبر من ان تحتاج لإثبات ، وتنفي كل حديث عن التسخير والمطايا !

ولا شك ان سكرتير « بوسييلج » كان يعيش تحت اوهام هذه التحاليل التي يرددها بعده بمائة وسبعين عاماً المؤرخ الامريكي .. عن العامة الذين لا مصلحة لهم في عداء الاحتلال.. لا بد انه كان واقعاً هو والسلطة الفرنسية تحت هذا الوهم عندما كتب : « ان شعور الاطمئنان الكامل يسود جميع طبقات المجتمع بفضل اعتدال حكومتنا » .

وجميع المؤرخين المعاصرين للحملة الفرنسية ، والذين جاءوا بعد عشرات السنين ، يجمعون على وصف جماهير الثورة : « بالزعرنة » و « الغوغائية » و « الدهماء » .. وهذا يؤكد أصالتها !

او كما يقول هيرولد : « ولم يكن هذا الجمع يختلف كثيراً عن الجمع الذي سار الى فرساي في ٥ اكتوبر ١٧٨٩ (قبل تسع سنوات واسبوعين) او الذي جاب شوارع باريس في ٢ سبتمبر ١٧٩٢ وهو يرفع ثديي الأميرة دولا مبال على رؤوس الرماح » .

هل كان هناك تنظيم دبر ثورتي القاهرة، الاولى والثانية ؟ بمعنى الاعداد لها وتنسيق حركتها مع الاقاليم ، وقيادة معاركها في القاهرة ؟

هذه النقطة لا تقف المدرسة الاستعمارية عندها طويلاً .. لخطورة النتائج المترتبة على اثباتها .. ولكن وثائق الحملة الفرنسية تؤكد وجود هذا التنظيم . « ريبو » يحدثنا عن لجنة لتدبير الثورة :

« لقد اجتمع الى جانب تذمر الأهالي واستيائهم، نشر الدعاية الى الثورة، فكان في الجامع الكبير المعروف بالأزهر لجنة لتدبير الثورة تعمل على إثارة الكراهية في نفوس الناقمين » [٤] .

« ويقول نابليون في مذكراته ان الشعب قد انتخب « ديواناً » للثورة ونظم المتطوعين للقتال واستخرج الأسلحة المخبوءة ، وان الشيخ السادات انتخب رئيساً لهذا الديوان » [٥] وذكر في تقريره الى حكومة «الديركتوار» عن ثورة القاهرة ان (لجنة الثورة) كانت تنعقد بالازهر » .

و « الرافعي » يقرر أن « دعاة الحركة تعاهدوا على الاجتماع ليلة الأحد ٢١ اكتوبر ١٧٨٩ لرسم الخطة الواجب اتباعها : فاجتمعوا وكان عددهم في ذلك الاجتماع ثلاثين ، فاتفقوا رأياً على البدء بالعمل في اليوم التالي ، وأزمعوا اقفال الدكاكين ودعوة أكبر عدد من التجار والصناع للذهاب بجمع كبير من الشاكين الى مركز القيادة العـامة لرفع الصوت احتجاجاً على الضرائب الجديدة . وبذلك تحدث في المدينة حركة يكون منها الشغب والهياج فتكون مقدمة للثورة [٦] » .

فالثورة كانت مقررة، والاحتجاج على الضرائب لم يكن اكثر من مبرر أو ذريعة .. وهذا التدبير يدل على مستوى عال في الكفاءة والخبرة ، فان هذا هو الأسلوب الأنسب في تفجير الثورات . وتاريخ القاهرة حافل بهذا النوع من الاحتجاج الذي يبدأ به الاصطدام ، ولكن الجديد في ثورة « القاهرة » انها كانت اول صدام شامل على نطاق المدينة كلها ، وانه اتخذ شكل المقاومة المسلحة الدامية .

هذا التنظيم الذي دبر بكفاءة تفجير الثورة ، أثبت في نفس الوقت كفاءته في كتمان تدبيره ، وكتمان تشكيله والمنتمين اليه ، بل ونجاحه في الاستمرار حتى بعد ضرب الثورة اذا استمر التنظيم ، واستطاع ان يعد للثورة الثانية ، بل ونظم اغتيال القائد العام للحملة الجنرال « كليبر » كما سنرى (*) .

ولا بد ان « ديوان الشعب » هذا ، كان اكبر من الثلاثين عضواً الذين اجتمعوا لتحديد موعد الثورة ، ومن الطبيعي ان تكون هذه اللجنة التي اشار اليها الرافعي هي « اللجنة المركزية » او « الديوان المخصوص » الذي

(*) وكان المحروقي يدير شبكة في القاهرة والدليل على ذلك حادثة أو « كائنة » — بتعبير الجبرتي — سيدي محمود واخيه سيدي محمد المعروف بأبي دفيه ... الذي كانت تأتيه المراسلات بواسطة السيد « احمد المحروقي » فلما كان في التاريخ (رمضان ١٢١٥ ، مارس ١٨٠١) ورد عليه رسول ومعه جواب واربعة اوراق مكتوبة باللغة الفرنساوية وفيها الأمر بتوزيعها ووضعها في أماكن معينة حيث سكن الفرنساوية فوزع اثنتين وقصد وضع الثالثة في موضع جمعيتهم فلم يمكنه ذلك الا ليلاً فأعطاها خادمة وأمره أن يشكها بمسمار في حائط ذلك المكان وهو بالقرب من الحمام المعروف بحمام الكلاب (؟) ففعل وتلكأ في الذهاب فأطلع عليه بعض الفرنسيس من أعلى الدار فنزل اليه وأخذ الورقة وقبضوا على ذلك الخادم (٧) .. الخ الكاينة !

يحدد ساعـة الصفر والذي يتحتم ان تكون عضويته محدودة ، ولأن نابليون أعدم ثمانين عضواً من هذا الديوان !

ومن الطبيعي ان تكون قيادة الثورة ، او اللجنـة التنفيذية للديوان من المشايخ .. القيادة الشرعية للأمة . لكن عضوية الديوان لم تكن قاصرة على الشيوخ ، بل على جميع قيادات الأمـة ، ولا كانت قاصرة على الرجـال كما سنرى من عقوبات نابليون .

بل ان نقولا الترك ، الذي وان كانت كتاباته لا ترجح كتابات الجبرتي ولا مصادره، الا ان التزامه أقل، ومن ثم فهو يجاهر على الأقل بما وصلت اليه قناعة السلطة عن وجود تنظيم دقيق واتفاق مسبق لدى غالبيـة الشعب في انتظار اعطاء الاشارة فهو يقول :

« في ذات يوم نهار الأحد في عشرين ربيع آخر نزل احد المشايخ الصغار وكان من مشايخ الأزهر . وبدأ ينادي في المدينة ان كل مؤمن موحد بالله ، عليه بجامع الأزهر ، لأن اليوم ينبغي لنا ان نغازي في الكفار . **وكان اغلب اهل البلد معهم الأس بذلك ..** اما الفرنساوية فكانوا متغفلين عن ذلك » .

ولفظة « **الأس** » التي اختارها « نقولا الترك » تعني في العامية المصرية أمر متفق عليه مكتوم ، له رمز معين .. مما يؤكد وجـــود تنظيم وعلى مستوى جماهيري واسع ، وان كلمة السر كان متفقاً عليها .

ويقول الرافعي ان « ديوان » الشعب هذا ، قد نظم حملة دعائية ناجحة ضـــد اعضاء الديوان الرسمي « ويتهمونهم بممالأة الفرنسيين حتى لا يستمع الجمهور لنصائحهم في الاخلاد الى السكينة ، وقد افلحوا في احراج مركز اعضاء الديوان فأخذت منزلتهم تتضعضع في نفوس الشعب » .

وهذا الموقف طبيعي وضروري لكل قيادة جماهيرية ، اذ لا بد لها من عزل الاجهزة الرسمية ، التي مهما تكن عواطفها ، الا انها بحكم الضغط الواقع

عليها ، يمكن أن تكون عامل مثبط في مرحلة المد الوطني .. لذا وجب كشفها وعزلها ، وتجريدها من كل قدرة تأثير على الجماهير . مع استغلال مراكزها في فترات الجزر لتخفيف وطأة التنكيل .

واهتمامنا بجلاء نقطة التنظيم هذه ، ينبع من اهتمامنا بتحديد دور « الديوان » الشعبي الذي انتخبته الجماهير وقاد حركتها .. لكشف تهافت التحليل الغربي الذي يثير الضجيج حول الديوان الوهمي الذي اقامه نابليون « لتسكين الفتنة » و«تنظيم مالية البلاد» بما يعمر خزينة الاحتلال . هذا الديوان الذي سنرى كيف كان يعامله الفرنسيون ، بل كيف كان يتطاول عليه امثال «برطلمين ويعقوب وشكرالله» من الاعوان المفضوحين للاحتلال، والذي عوقب على فشله في تسكين الفتنة بحله ، وفرض الغرامات على اعضائه . ورغم ذلك يثير المؤرخون الغربيون وتلاميذهم ضجيجاً حول هذا الديوان الالعوبة ، لكي يحرفوا الانظار عن الديوان الحقيقي الذي مثل الشعب ونظم « الفتنة » وقادها . مجلس المقاومة الوطنية الذي قاد اول ثورة ضد الاستعمار الغربي ، وقاتل أقوى جيش في العالم ـ وقتها ـ ودفع اعضاؤه الثمن باهظاً في اول وأشنع مذبحة استعمارية عرفها الوطن العربي .

هؤلاء هم نواب الأمة وقادتها ، وتاريخ هؤلاء هو بداية تطورها الحقيقي ، وليس تاريخ العاملين في شرطة الاحتلال ، الهاربين مع الجيش المنهزم ..

ان الحركة القومية .. اي حركة قومية .. لا يمكن تتبع مولدها وتطورها الا في اطار صراعها ضد القوى الاجنبية التي تخضع هذه القومية لارادتها او تعترض نموها ، وما من بداية شرعية لمولد قيادة هذه القومية الا تلك اللجان الثورية التي تتكون خلال الثورة التحررية .. لذلك فان الديوان الوحيد الذي يجب اعتباره قيادة الامة ، وممثلاً لتلك الإمكانيات التي لا حصر لها ، التي فجرتها مقاومة الاحتلال الفرنسي ، واجهضها حكم « محمد

علي » . هو ديوان « الدفاع » الذي تزعم ثورة القاهرة ، والذي اعـدم نابليون ثمانين عضواً من أعضائه مرة واحـدة مبرراً ذلك : « بأنهم كانوا قوماً ذوي تفكير عنيف متطرف[٨] » . وهو تبرير مثير من ابن « الثورة » الفرنسية ، ومزعج حقاً للذين يحاولون نسبة اتجاه تحريري لحملته في مصر ! وهكذا رد ابن الثورة على « التفكير » العنيف ، للوطنيين المصريين ، « بالذبح » العنيف . ولا شك ان « اللواء » « سولكوفسكي » لو أخطـأته بنادق الثوار المصريين ، هو وحرسه الخمسة عشر ، لكان قـد ساهم في اعدام أبناء ثورة القاهرة ، وهو « الذي انضم الى حملة نابليون ، واحترف الجندية لا لشيء إلا لأنه حسبها معينة له في النهاية على القتال لتحرير بولنده . وكان مثالياً تغلب عليه المبادىء الراديكالية » .. ولكن لا مبـادئه الراديكالية ، ولا آمـاله في تحرير بولنده افادته في تحسس حق المصريين في تحرير مصر ، وحق المشايخ في ان تكون لهم نظرة « راديكالية » تتنافى مع قبول الاحتلال الاجنبي..أبى أن يكون للمصريين نفس الحق،الذي تطلع هو الى ممارسته ضد الذين يحتلون بولنده . وهذا طبيعي جداً ومتفق الى اقصى حد مع نظرتنـا الى طبيعة الثورات الاوروبية والخاصية التي تتميز بها ، وهو عدم قابليتهـا لعبور البحر الابيض المتوسط . ولذلك كان الوطنيون المصريون عادلين كل العدل ، عندما القوا بجثته الى الكلاب .. وهو نفس ما كان سيفعـله « سولكوفسكي » بالجنرال الذي يحتل وطنه بولنده .

ان « ديوان » هؤلاء المتطرفـين « ذوي التفكير العنيف » هو الذي يستحق الاهتمام من المؤرخين ، فالامم لا تولد بمرسوم يصدره قائـد جيش الاحتلال ، والقومية لا تبعث خلال احتفال يتلى فيه فرمان قائـد جيش الاحتلال بواسطة مترجم وتحت حراسة حراب المحتلين .. اي قومية هذه .. واي مولد مشبوه هذا ؟! انما تولد الامم في ساحة القتال ضد عدوها القومي.

مع الثورة

ويبدو ان « ديوان الدفاع » الذي قاد عمليات الثورة،قد سبقت ظهوره، عدة تشكيلات تولت التحضير للثورة ، وإثارة الجماهير ، ويبدو انهـا كانت تعمل في المراحل الأخيرة بشكل شبه علني مع دقة في التنظيم ، استحال على جواسيس نابليون من امثال برطلمين ويعقوب وشكر الله و « اضرابهم » ، استحال على هؤلاء ان يحسوا أو ينتبهوا الى خطورتها . وحادثة قراءة الفاتحة لنابليون تثبت ان عمليات الاثارة والتجنيد كانت قائمة على قدم وساق ، وان مناقشة قضية الثورة كانتمطروحة على نطاق الجماهير.وان المنظمين والداعين لهـا كانوا يتمتعون بسرعة خاطر مطلوبة دائماً في منظمي الثورات . وان التشكيل الداخلي كان بمنأى عن جواسيس نابليون .

فقد كان نابليون في زيارة مفاجئة للشيخ السادات ، ليسأله عن اخبـار شاعت عن منشور معـاد ، ولكنه فوجيء ـ كما فوجئت بدورها ـ بجماعة متجمهرة من المصريين ولغط شديد يدور بينهم ، ولم يكن يعلم ، ولا كان له ان يعلم ان ذلك من فعل الديوان الحقيقي ـ الذي ايقن هو بعد ذلك انـه برئاسة مضيفه فأي سخرية ! ـ « فلما نظروه وشاهد هو جمعيتهم داخله أمر من ذلك فصاحوا بأجمعهم وقالوا بصوت عال : الفاتحة . فشخص اليهم وصار

يسأل من معه عن ازدحامهم ، فلطفوا له القول ، وقالوا انهم يدعون لك . وذهب الى داره . وكانت نكتة غريبة . وساعـــة اتفاقية عجيبة كاد ينشأ منها فتنة » [٩] .

« اخذت الثورة بونابرت على غرة حين قامت . كان يشعر وهو مؤيد في الظاهر من اعضاء الديوان ، ومن كبار زعماء المسلمين ، انه من السهل السيطرة على الغوغاء ولكنه كان في هذا واهماً . واغلب الظن انــه لم ينخدع في ولاء المشايخ ، ولكنه كان يعتمد على خوفهم، وما من ريب في انهم غدروا به فقد أمسكوا عنه علمهم بالثورة الوشيكة . ولكن من المؤكد انه لم يكن لهم يد في التحريض على الثورة » [١٠] .

وهذا يؤكد تصورنا لطبيعة التنظيم ، وانه كان جهازاً مستقلاً ومنفصلاً عن القيادة الرسمية المجبرة على التعامل مع الفرنسيين ، هذه القيادة التي كانت تعطف على الثورة وتتجاوب معها،ولكن حماية الثورة وسلامتها حتمت عزلها وكتمان التفاصيل عنها .

ويقول « هيرولد » : « ان الفرنسيين غفلوا تماماً عما كان يبيت لهم » .. فالأمر لم يكن مصادفـة ولا انفجاراً عفوياً بل أمر يبيت ويغفل عنــه من يبيت لهم ..

ويقرر الرافعي « ان طبقات الشعب كلها اشتركت في ثورة القاهرة » ولم يكد يبدأ شهر اكتوبر حتى قامت الاضطرابات في الدلتا ، ففي منطقة المنزلة شن الفلاحون حرباً تشبه حرب العصابات بقيادة حسن طوبار الثري » [١١]. « وفي طنطا قام الاهالي بثورة في ٧ اكتوبر » [١٢] . ولكن الرافعي يرفض القول بوجود صلة تنظيمية بين تشكيل القاهرة ، والحركات الثورية التي قامت خارج العاصمة ، حفاظـاً على عفوية وطهارة الحركة .. كما يتخيلهـا مؤرخ البورجوازية المصرية :

«والواقع انك اذا استبقت الحركات التي قامت هنا وهناك من أقصى البلاد

الى أقصاها أخذتك الدهشة من تقارب تلك الحركات وتشابهها ، على انه ليس ثمة تدبير ولا اتفاق ، بل هي القاهرة عاصمة القطر السياسية والفكرية،تغذي البلاد بأفكارها وعواطفها ، وتفيض عليها من أمانيها وآمالها ، وتشركها في افراحها وأحزانها ، فكأن البلاد مرآة تنعكس عليها صورة القاهرة ، أو كأنها الأفق يتردد فيه صدى نداء العاصمة » (١٣) .

وبهذا التفسير (!) يعتقد الرافعي انه يمكننا « ان نفهم الحوادث التي وقعت في الوجه البحري في شهر سبتمبر وشهر اكتوبر من تلك السنة »(١٤) .

وهذا التفسير رغم ادبياته ، وصوره البلاغية ، لا يفسر لنا لماذا تظهر صورة الثورة في المرآه في سبتمبر بينما لم يظهر الأصل الا في اكتوبر!..وكيف ينطلق الصدى قبل ان ينطق الصوت ذاته ؟!.. ولا ما هو العيب في وجود تدبير سابق الا الكراهية البورجوازية المتأصلة للتنظيم .. لأنه يفرض الحضور الدائم للجماهير ، بينما كان الأسلوب المفضل للبورجوازية المصرية هو استدعاء الجماهير عند الحاجة اليها وصرفها فور الاتفاق مع المتجبرين .. على أية حال ان الطهارة البورجوازية مفيدة أحياناً ، فأمانة الرافعي تجعله يذكر بعد هذا النفي البليغ للتدبير: « ان وحدات من الجيش الفرنسي انطلقت تفتش القرى التي اشتركت في الثورة وتطالب مشايخ البلاد « بتسليم الرسائل التي وردت عليهم ليلة الثورة ، تدعوهم الى الانضمام لصفوف الثائرين بالقاهرة وشد أزرهم » (١٥) .

كما قبض على « سليمان الشواربي » شيخ الناحية وقيل انهم عثروا له على مكتوب أرسله وقت الفتنة السابقة الى «سرياقوس» لينهض أهل تلك النواحي في القيام ويأمرهم بالحضور وقت ان يرى الغلبة على الفرنسيس » . واعدموه بقطع الرأس (١٦) .

كانت هذه هي أول ثورة شعبية تواجه نابليون الذي أختص قبل ذلك وبعد ذلك — بفترة ليست بالقصيرة بمحاربة الاقطاعيين — والأسلوب الذي

واجه به الثورة يدل على ان ابن الراية المثلثة الألوان – كألوان اطباق الرز عند المسيري – لا يتردد في استخدام المدفع في دك حصون الاقطاع والنبلاء، أودك استحكامات « الزعر والرعاع والجعيدية والحشرات والبلضاشات » .. ما دام ذلك ضرورياً لمد خريطة فرنسا، ولا عجب فإن مجده كله يبدأ باستخدام المدافع في تفريق جماهير باريس ..

« اما بونابرت فقد ثار غضبه وهو في مقر قيادته بقصر الألفي . فأمر مدفعية القلعة المعززة بمدافع الهاويتزر والمورتار، بأن تسدد المدافع الى الجامع الأزهر وما حوله من أحياء هي مركز الثورة » (١٧) .

لم يكن الأزهر الذي صب نابليون نيران الثورة الفرنسية عليه، يمثل فقط القيادة المباشرة لثورة اكتوبر ١٧٩٨ .. بل كان قيادة الامة كلها ، تاريخياً وواقعياً ومستقبلياً. لذلك كان الحقد عليه والتركيز على سحقه مسجداً وجامعة ومجاورين ومشايخاً .. ونفوذاً ..

« وبدأ ضرب الأزهر بالقنابل حوالى الظهر واستمر الى المساء وأصدر بونابرت أمره الى الجنرال بون بأن « يبيد كل من في الجامع » (١٨) . « فعند ذلك ضربوا بالمدافع والبنبات على البيوت والحارات ، وتعمدوا بالخصوص الجامع الأزهر ، وحرروا عليه المدافع والقنبر، وكذلك ما جاوره من اماكن المحاربين ، كسوق الغورية والفحامين » (١٩) .. « وتتابع الرمي من القلعة والكيمان حتى تزعزعت الاركان ، وهدمت في مرورها حيطان الدور ، وسقطت في بعض القصور ، ونزلت في البيوت والوكائل ، وأصمت الآذان بصوتها الهائل . » والى جانب « الضرب في المليان » استصدر نابليون باسم العلماء بيانات ضد الثورة « الفتنة » تحض « على السكينة والهدوء » . وهي البيانات التي انتقدها « الرافعي » ورأى انه لا حاجة « الى تبيان ما بها من الاغلاط والعبارات الركيكة والأفكار السخيفة ، فإن مجرد تلاوتها يغني عن البيان .. « وهي مملوءة نفاقاً وسخفاً ».. وهو ينشرها « لتعرف منها الفرق

بـين موقف كبار العلماء في بياناتهم للشعب وموقف أواسط العلماء في قيادتهم للثورة » .

غير انه يكفينا مئونة الرد عندما يقول : « ومن الواجب تقريراً لحقيقة واقعة ان نقول ان هذه البيانات وغيرها مما نشر خلال الحملة الفرنسية على لسان العلماء قد أمليت تحت تأثير الضغط والإرهاب وهذا ظاهر مما ذكره الجبرتي عن طريقة تحريرها فقد قال عن البيان الاول « وفيه كتبوا » وظاهر انه يقصد الفرنسيين بكلمة « كتبوا » كما هو سياق العبارة في الكتاب. وقال عن البيان الثاني : « وفيه كتبوا » .. وقال عن البيانات التي نشرت باسم الديوان أثناء الحملة على سوريا : « اجتمع اعضاء الديوان فقرأ عليهم تلك الرسالة بعد تعريبها وترصيفها علىهذه الكيفية وهي عن رؤساء الديوان»[٢٠].

وهو هنا يتفق مع الرأي القائل بأن هذه البيانات كانت تحرر بواسطة الفرنسيين ومترجميهم ومستشاريهم . ويضيف « الرافعي » ان الشيخ « محمد المهدي » كان يتولى تدبير سجعها وترصيفها بالآيات والأحاديث والحكم :

« ولا يفوتنا في هـذا المقام ان نشير الى ما ورد في المراجع الفرنسية من أن الشيخ « محمد المهدي » سكرتير الديوان كان يتولى صوغ المنشورات التي يريد نابليون إذاعتها على لسان الديوان في قالب عربي مسجع ، ولعل هذا هو السبب في امتداح نابليون للشيخ « المهدي » وتفضيله على باقي الاعضاء ، فقال عنه في مذكراته : « انـه أذكى علماء الازهر وأفصحهم لساناً وأكثرهم علماً وأصغرهم سناً »[٢١] « وقد ذكر الجبرتي عن المنشور الذي أذاعه نابليون على لسان الديوان عقب عودته من الحملة على سوريا » انه من ترصيف وتنميق بعض الفصحاء والإشارة هنا الى الشيخ « المهدي » لا محالة ، لأنـه باتفاق المراجع الفرنسية هو الواضع لمنشور « نابليون » في قالبه العربي ، ولأن الثابت في رسالة نابليون التي بعث بها من « يافـا » بتاريخ ١٠ مارس سنة ١٧٩٩ الى المسيو « بو سيلج » مدير الشئون المالية بالقاهرة أثناء الحملة على سوريا قوله

فيها : « عليكم أن تأمروا بطبع كل المنشورات التي يبعث بها « فانتور » الى الديوان وان تضيفوا اليها المحسنات والتنميقات التي يرى الشيخ « المهدي » إدخالها عليها وأن تنشروها في أنحاء مصر » [٢٢] «فلم يبقَ شك في أن الشيخ المهدي هو الذي كان يتولى كتابة المنشورات التي يوعز بها الفرنسيون » .

لقد اطلنا في كشف حقيقة هذه البيانات ، لأن لنا عودة في هذا الشأن عند نقاش المكانة الحقيقية للديوان الرسمي .. ولكنها — أي البيانات — لم تؤثر في مجرى احداث الثورة ، ولا اهتم بها أحد من الثائرين .. أما عندما انتصرت مدفعية الحضارة الغربية على بقايا أسلحة القرون الوسطى ، وهزمت مقاومة الشعب، وقتها قام اعضاء ديوان نابليون بدورهم المنتظر وهو التدخل لمنع إبادة الشعب :

« فركب المشايخ الى كبير الفرنسيس ليرفع عنهم هذا النازل ، ويمنع عسكره من الرمي المتراسل ، ويكفهم كما انكف المسلمون عن القتال » .

ولكن أترانا نشرح مهمة المشايخ الكبار بأبرع وأوضح من عبارة الجبرتي التي لخصت هذه المهمة في ثلاث كلمات أنهى بها فقرته تلك التي أشرنا اليها فقال:

« ويكفهم كما انكف المسلمون عن القتال . **والحرب خدعة وسجال** » .

فالجبهة الوطنية واحدة . الشيوخ الصغار يقودون الجماهير المقاتلة ، والمؤذنون ينادون بالجهاد ، والشيوخ الكبار يتسترون على الحركة ، ويكتمون أخبارها عن نابليون ويسعون في الهدنة إذا ما بدا أن الثورة ستتحول الى مذبحة ، وتبين ان الاستمرار في القتال — في هذه المرحلة — يعني الانتحار ..

ويفهم نابليون هذا المبدأ كما يفهمه المشايخ .. فيقبل الهدنة على الفور .. وإذا كان المشايخ يكتمون نية التربص حتى تتاح فرصة أخرى.. فإن نابليون بتفوق مدفعيته لا يحتاج الى تربص بل يشرع فوراً في الاستفادة من الهدنة لكي يصفي الثورة بتجفيف منابعها : قطع الرؤوس وسلب الأموال . «ولا حرب بغير الرجال والمال» .. « استمر ضرب البنادق الموجه للبطاريات

الفرنسية من مآذن جامع السلطان حسن وقبته طوال العصر. ولما أقبل المساء وأحدثت القنابل فعلها أحدقت ثلاث أورط من المشاة و٣٠٠ فارس بالأزهر. وتقدم رجالها لا يعترض ضربهم وسيوفهم معترض ودخلوا الجامع عنوة » .

« وهم راكبون الخيول . وبينهم المشاة كالوعول ، وتفرقوا بصحنه ومقصورته وربطوا خيولهم بقبلته ، وعاثوا بالأروقة والحارات ، وكسروا القناديـل والسهارات ، وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة . ونهبوا مـــا وجدوه من المتاع . والأواني والقصاع . والودائع والمخبآت بالدواليب والخزانات . ودشتوا الكتب والمصاحف وعلى الارض طرحوها . وبأرجلهم ونعالهم داسوها. وأحدثوا فيه وتغوطوا . وبالوا وتمخطوا . وشربوا الشراب وكسروا أوانيه . وألقوها بصحنه ونواحيه . وكل من صادفوه بـه عروه . ومن ثيابه اخرجوه » (٢٣) .

نعم ويل للمغلوب . وكانت هـــذه هي أول مرة في التاريخ يُقتحم فيها الأزهر على هذا النحو ، وتهدر كرامته بهذا الاسلوب البربري الذي لا يشبهه إلا الاحتلال الصليبي لبيت المقدس في القرن الحادي عشر .. ولا يفوقـه إلا إحراق الاحتلال الصهيوني للمسجد الاقصى في القرن العشرين .

وفي كتاب « نقولا الترك » ان نابليون رفض الجـلاء عن الازهر ، وأن هذا الاحتلال قد أحدث أثراً فظيعاً في الجماهير المصرية وقياداتها (وما زال العامة في مصر حتى الآن يضربون المثل على أبشع مـا يمكن أن يقع بقولهم : « الخيل دخلت الازهر ») .

كان الازهر كما قلنا هو مركز قيادة وزعامة الأمة المصرية ، ورمز عزتها وسيادتها .. واقتحامه وإهانته على هـــذا النحو ، هو أهانة للأمة او اعلان لهزيمتها على يـد غاز بربري .. فهو ليس مجرد مسجد .. فالفرنسيون هدموا عدة مساجد وضربوا الازهر من مسجد السلطان حسن الذي احتلوه وركبوا المدافع في مآذنه .. ولا شك ان الاعتداء على حرمـة المساجد أثار المصريين

وأهان مشاعرهم، ولكن الازهر اكبر من ذلك .. وباقتحامه على هذا النحو، سقط كل زيف حاول الغزاة أن يستروا أهدافهم خلفه .. وأصبحوا وجهاً لوجه ضد الأمة .. ضد الشعب المصري .. فمها تكن خسائر ثورة القاهرة الاولى ، فإن مكسبها الاعظم ، هو كشفها طبيعة الصراع المصيري بين الغزاة والأمة ..

وقد سجل « نقولا الترك » ان « الشيخ محمد الجوهري » (وقد عرفنا مكانته وزعامته في الفصل الأول) دخل على نابليون قائلاً : « ما قابلت حاكماً عادلاً كان او ظالماً . والآن قد اتيت متوسلاً اليك أن تأمر بإخراج العسكر من الجامع الازهر . فقبل نابليون رجاءه وأمر باخراج الجنود من الازهر » ..

رحم الله الشيخ « الجوهري » .. عرف ان كرامة الامة وكرامة رموزها ومقدساتها فوق الكرامة الفردية .. وعرف ان مصر قد احتلها الاجنبي وأصبحت مستعمرة .. وانه لم يعد بالإمكان – كما كان الحال – أن يترفع قادة الشعب عن الحاكمين فيأبون زيارة الحاكم .. وغفر الله للشامتين بنا الذين يعتبرون ان مصر تحررت فيهذه الفترة بالذات وبدأت تمارس الحكم الوطني!!

وكانت نية نابليون متجهة الى هدم الجامع الازهر فقد أصدر الجنرال بريتيه رئيس أركان الحرب تعليمة (وهي صادرة بأمر القائد العام الى الجنرال بون بتاريخ ٢٣ اكتوبر) : « يهدم الجامع الاكبر ليلاً إذا أمكن ، وترفع الحواجز والأبواب التي كانت تسد الشوارع » (٢٤) .

ثم بدأت « العدالة » الثورية الفرنسية في الاقتصاص من «الثوار البلديين»! سواء في القاهرة او في الاقاليم : « بعقوبات رهيبة شرفتنا ورفعت قدرنا » (٢٥) . كما وصفها تتري فرنسي !

ومن أجل المزيد من التشريف ورفع القدر أصدر نابليون للجنرال برتييه : « تفضل ايها المواطن القائد بأن تأمر قومندان القاهرة بقطع رؤوس جميع

المسجونين الذين أمسكوا وبيدهم سلاح . فليؤخذوا الى شاطىء النيل بعد هبوط الظلام . ولتلق جثثهم المقطوعة الرؤوس في النهر » (٢٦) . وفضلاً عن هؤلاء المسجونين ، أعدم في القلعة ثمانون عضواً من « ديوان الدفاع (الذي تزعم الثورة) وهكذا نجد جهراً بالعفو عن الأبرياء وإعداماً للمعارضين في الخفاء ، وتحت جنح الظلام ، وهي سياسة خليقة بأن تحظى برضى ميكا فيللي » (٢٧) .

واستمرت عملية « التشريف ورفع القدر » فتم قطع رؤوس ستة من المشايخ الذين اتهموا بقيادة الثورة . والمؤرخون الذين يتشدقون بشكلية محاكمة « سليمان الحلبي » . لا يكلفون انفسهم عناء تبرير اعدام هؤلاء المشايخ بلا محاكمة معروفة ولا وقائع .. بل اعدام شيخ طائفة العميان بتهمة القيام بعمل مسلح ضد المدفعية الفرنسية . بل ولا يخجل إمام من أئمة المدرسة الاستعمارية مثل « هيرولد » من تبرير جريمة نابليون ، بأن يخلع على هؤلاء المشايخ أوصافاً تحريضية مثل « لا جدال في ان هؤلاء الرجال كانوا اشد رجال الدين المسلمين **تعصباً** وتهييجاً للجماهير » (٢٨) .

رجال دين .. متعصبون .. هه !

« وفي الصحف الفرنسية ان المشايخ الذين أعدموا لقيادة ثورة القاهرة الاولى كانوا ستة وليس خمسة كما قال الجبرتي » (٢٩) .

وهذا يعزز الظن بأن الجبرتي كان يفتقر الى المعلومات الكافية عن التنظيم الثوري وأشخاصه .

أما الشيخ عبد الله الشرقاوي رئيس الديوان (كما يعرفه الرافعي) فقد ذكر ان العلماء الذين اعدموا هم ثلاثة عشر عالماً . « ودخلوا بخيلهم الأزهر ومكثوا فيه يوماً وبعض الليلة الثانية وقتلوا فيه بعض علماء ونهبوا منه اموالاً كثيرة . وسبب وجودها فيه (اي الأموال) ان اهل البلد ظنوا ان

العسكر لا يدخله فحولوا فيه أمتعة بيوتهم فنهبوها ونهبوا اكثر البيوت التي حول الجامع الأزهر ودشتوا الكتب التي في الخزائن يعتقدون أن بها أموالاً. وأخذ من كان معهم من اليهود الذين يترجمون لهم، كتباً ومصاحف نفيسة» (*) .

وكانت هذه هي اول مرة يعدَم فيها مشايخ الأزهر كالمجرمين.. اول مرة يتجرأ فيها حاكم على اعدام قادة الأمة .

أما المشايخ الذين اعدموا .. فرغم تباين عواطف الجبرتي نحوهم، وهو الصادق مع نفسه الى اقصى حد، الموضوعي في الوقت نفسه .. إلا أن عرضه لتاريخهم ومعلوماته عن شخصياتهم، تضعنا أمام صفة مشتركة فيهم جميعاً هي : « **الجماهيرية** »، بكل ما يحيط بهذه الصفة من مواهب، وصفات مكتسبة، وغوغائية في بعض الأحيان، ان لم يقل البعض، في أكثرها ! المهم انهم كانوا طرازاً خاصاً من المشايخ يستطيعون مخاطبة الجماهير، وتحريكها.. بل وتنظيم الجماهير .

فالشيخ « العلامة الفاضل الفقيه الشيخ احمد بن ابراهيم الشرقاوي الشافعي الأزهري»... كان « يأتي اليه الفلاحون من جيرة بلادهم بقضاياهم وخصوماتهم وأنكحتهم فيقضي بينهم ويكتب لهم الفتاوي في الدعاوي التي يحتاجون فيها الى المرافعة عند القاضي وربما زجر المعاند منهم وضربه وشتمه ويستمعون لقوله ويمتثلون لأحكامه . وربما أتوه بهدايا ودراهم واشتهر ذكره . وكان جسيماً عظيم اللحية فصيح اللسان ولم يزل على حالته حتى اتهم في فتنة الفرنسيس المتقدمة . ومات مع من قتل بيد الفرنساوية بالقلعة ولم يعلم له قبر » .

أما « الشيخ الإمام العمدة الفقيه الصالح القانع الشيخ عبدالوهاب الشبراوي

(*) « تحفة الناظرين » للشيخ الشرقاوي .

الشافعي الأزهري » « فكان حسن الالقاء سلس التقرير جيد الحافظة جميل السيرة .. حتى اتهم في اثارة الفتنة وقتل بالقلعة شهيداً بيد الفرنسيس » .

و « الشاب الصالح النبيه الفالح الفاضل الفقيه الشيخ يوسف المصيلحي الشافعي الأزهري .. كان مهذب النفس لطيف الذات حلو الناطقة مقبول الطلعة خفيف الروح » .

« والعمدة الشهير الشيخ سليمان الجوسقي شيخ طائفة العميان » .

وهو شخصية ديكنزية او دستوفسكية ، استطاع ان ينظم العميان ، ويجعل منهم قوة ارهاب تخشى صولتها في القاهرة والأرياف . حتى أصبح بفضل هذا التنظيم المرعب من « اعيان الصدور المشار اليهم في المجالس تخشى سطوته وتسمع كلمته ويقال قال الشيخ كذا وأمر الشيخ بكذا .. ولم يزل حتى حمله التفاخر في زمن الفرنسيس على توليه كبر اثارة الفتنة وقتل فيمن قتل بالقلعة ولم يعلم له قبر » . والى جانب الجوسقي الارهابي نجد الغوغائي : « الأجل المفوه العمدة الشيخ اسماعيل البراوي ابن احمد البراوي الشافعي الأزهري كان قليل البضاعة إلا أنه تغلب عليه النباهة واللسانة والسلاطة والتداخل وذلك هو الذي اوقعه في حبائل الفرنساوية وقتل مع من قتل شهيداً ولم يعلم له قبر . وهو ابن اخي الشيخ عيسى البراوي غفر الله لنا وله » [٣٠] .

لقد كشفت ثورة القاهرة ودماء الشيوخ ، الحقيقة الاستعمارية للوجود الفرنسي ، وكشفت عن بربرية ووحشية الغزاة ، الذين طالبوا بأن « جميع الذين شهدت عيونهم ، الجنود الفرنسيين يستسلمون . كان يجب ان يعدموا دون استثناء [*] » [٣١] .

(*) ويقول « هيرولد » ان دينون (صاحب هذا القول المأثور) كان معروفاً بتسامحه ، وأنه كان يعبر بقوله عن حالة عقلية سادت وقتها بين العسكريين والمدنيين الفرنسيين .

أحس الفرنسيون المنتصرون ، ان هيبتهم الاستعمارية قد تحطمت . وان الاسطورة التي نسجتها هزيمة المماليك وجبنهم وهروبهم..زالت بفضل مقاومة شعبنا وتحت قيادة شيوخه . فوقفة الأزهر والأحياء الشعبية أثبتت ان الفرنسيين ليسوا فقط قابلين للقتل ، بل وأيضاً يحبون الحياة اكثر من شرف الراية المثلثة الألوان، الىحد انهم يرفعون ايديهم ويستسلمون لـ **«شرقي مسلم»!** يحتلون بلاده ويتفوقون عليـــه تكنولوجياً .. اذن فهزيمتهم ممكنة وجلاؤهم محتوم ، واستقلال بلادنا بحاجة الى ضربات جديدة مريرة ، ولكنها ضرورية وممكنة ، ومثمرة ، فما لا يزيد ينقص كما يقول « نقولا الترك » : ان الناس « فهموا جيداً .. انه انقطع أملهم (اي امل الفرنسيين) من امداد يأتيهم من بلادهم ، فقالوا في ذواتهم نحن نضاضدهم ونحاربهم ، ورويداً رويداً يخلصون، لأن الذي لا يزيد ينقص » لذلك اقترح الثوريون الفرنسيون ، اعدام كل مصري رأى السوبرمان الاوروبي في لحظة ضعف واستسلام !

واستمرت عملية « التشريف ورفع القدر » و « بعث القومية المصرية » فكتب نابليون لرينيه يقول : « في كل ليلة نقطع نحو ثلاثين رأساً اكثرها لزعماء الثورة ، وفي اعتقادي ان هذا سيعلمهم درساً نافعاً » (٣٢) .

وكما لم يتعلم نابليون .. لم يتعلم شعبنا فقبل انقضاء عام واحد كان نابليون قد غادر مصر الى غير رجعة ، وكانت مصر قد ثارت ثورتها الثانية الأعنف والأقوى .

وينقل الرافعي عن المراجع الفرنسية ان الكثير من المتهمين قـد أعدموا سراً (بلا محاكمة) بل يثبت الرافعي ان هؤلاء المتهمين قد قتلوا بحد السنك » (٣٣) .

ولنا ان نتخيل — ان تحملت اعصابنا — كيف تم هذا الاعدام ، وفرصة الاختيار امامنا ليست واسعة ، فالسنكي اما ان يذبح كما تذبح الخراف ، او يقتل طعناً في الجسد حيثما اتفق ، في انسان مدني أعزل أسير في يد جيش

منتصر !!.. بل وهذا المذبوح شيخاً في الأزهر ، او سيدة باسلة هبت تدافع عن وطنها .

انها حالة وحشية وكافية لفضح اي ثرثرة عن دور تحريري او تحضيري لجيش الاحتلال « الثوري » هذا .

قال المسيو « بوريين »(٣٤) سكرتير نابليون الخاص في مذكراته : « سيق المسجونون الى القلعة ، وكنت أتولى في مساء كل يوم كتابة الأوامر القاضية بإعدام اثنى عشر سجيناً كل ليلة ، وكانت جثث القتلى توضع في زكائب وتغرق في النيل . واستمر ذلك ليالي عديدة ، وكان كثير من النساء ممن نفذ فيهن احكام الاعدام الليلية » .

وهكذا نرى ان الدور « التحريري » الذي ينسبه مؤرخو المدرسة الاستعمارية الى جيش الاحتلال الفرنسي بالنسبة للمرأة المصرية ، لم يكن يشمل كفاحها من اجل التحرر الوطني ولا حتى من اجل تخفيف الضرائب . بل هو لا يتعدى خصرها ، وإلا لرحب الحكم الثوري «بانطلاق» المرأة من «عقالها» واشتراكها في الثورة .

واذا فهمنا دوافع جيش الاحتلال والسلطة الحاكمة في اعدام النساء الثائرات .. فأي عذر وأي منطق يخفي عار من يتصدون اليوم لتزوير تاريخ هذا الشعب فيجعلون من مظاهرة تطالب بفتح الحمامات (*) ، او الخروج مع العسكر الفرنسيين في ثياب خليعة ، وتهتك خلقي ، بداية حركة تحرير المرأة ! ويغفلون عن عمد ، اشتراك المرأة المصرية في اعمال المقاومة في الريف المصري ، واشتراكها في قيادة الثورة بالقاهرة ، على نحو دفعت معه حياتها ثمناً لهذا الاشتراك . فأُعدمت قيادة الثائرات ، بحد السناكي في القلعة ، أو أغرقن في النيل !

(*) راجع لويس عوض : قضية تحرير المرأة .

أين يمكن ان يبحث المؤرخ الشريف عن قيادة الحركة النسائية.. وطلائع تحرير المرأة ... في سجن القلعة بين النساء الثائرات ينتظرن الاعدام بسناكي جيش الاحتلال .. دون أن يسجل تاريخ الحملة الفرنسية حادثة انهيار واحدة للمجاهدات الباسلات .. أم يبحث عن هذه القيادة وهذه الطلائع في خمامير أشباه « برطلمين » ، وفي فراش جنود الاحتلال يقودهن امثال « يعقوب »؟! على أية حال ان ذلك المفهوم يلقي الضوء على طبيعة مفهومهم « لتحرر » المرأة .. — سنناقش ذلك بالتفصيل — المهم ان هذه السطور ليست الا تحية عابرة للمجاهدات جداتنا الباسلات اللاتي لم يخفهن نابليون ولا جيشه بل اشتركن في تنظيم الثورة وشنها .. يقول الرافعي :

« وقد اسرف الفرنسيون في القتل (بعد اخماد ثورة القاهرة الاولى) ولم تأخذهم رحمة حتى بالنساء ، فقتلوا كثيراً منهن، وهذا من أفظع ما سمع به من التنكيل وسفك الدماء » .

ومن أجلى المزيد من اعمال التشريف ورفع القـدر انطلقت قوات نابليون تنهب وتذبح العرب على طول الطريق من العريش الى عكا ..

فبعد معاهدة لم تحترم مع حامية العريش وبعد سلب ونهب غزة ، وقضاء يومين « مع المسيحيين في الرملة » أتم جيش «غلاة الجمهوريين» فتح يافا بنفس الاسلوب الذي تم به فتح القدس منذ ثمانيـــة قرون ! بل وبنفس الوصف « الشاعري » الذي تتحدث به كتب التراث اليهودي عن المعارك « الظافرة » والاعمال « النبيلة » التي قام بها جيش اسرائيل بقيادة مجرم الحرب يهوه :

« وحالما استولى هؤلاء الجنود البواسل على المدينة ودخلوها أعملوا السيف في نحو ٢٠٠٠ جندي من الحامية ، كانوا يحاولون التسليم . وراح الفرنسيون يقتلون اعداءهم كالمجانين طوال ذلك المساء كله ، والليل كله، وفي صباح الغد، فالرجال والنساء والأطفال والمسيحيون والمسلمون ، وكل من له وجـه انسان سقط صريع جنونهم ، كما قال «مالو» ، الذي ما زالت الصفحات التي كتبها

في وصف هذا المشهد البشع تتجاوب بشعور الفزع والخزي .. وفي يافا كان النهب والسلب وشق البطون وهتك اعراض البنات وهن ما زلن في احضان امهاتهن المائتات » .

« كل هذا ، وشر من هذا وقع في يافا في ٧ و ٨ مارس .. أما نابليون فكان تعليقه الهادىء : « بلغت سورة الجند قمتها : فأعملوا السيف في كل انسان،وقاست المدينةبعد نهبها جميع الأهوالالتي تقاسيها مدينة مقتحمة»(٣٥).

ونابليون لم يخطىء في اعتبار ما جرى في يافا قانوناً عاماً بالنسبة لسلوك الحضارة الغربية..ولكننا-وبكل تواضع-نرفض اعتبار ذلك السلوكالبربري، قانوناً عاماً للسلوك البشري ، وبالذات ، فإن حضارتنا اثبتت العكس .. حضارتنا عندما دخلت ذات المدن لم ترتكب هذه الأعمال .. وكان الفارق مجرد ١٢ قرناً .. الى الوراء !

واذا كان ذبح أهل يافا بالسيف لا يستوقف المؤرخين الغربين كثيراً ، لانشغالهم بما يسمونه « مذبحة يافا » فإن هذه المذبحة بدأت بـ « اثنين من ياوران بونابرت هما « بوهارنيه » و « كروازييه » ، ارسلها « نابليون » الى المدينة ليريا ما الذي يمكن عمله لاعادة النظام الى ربوعها ، وناداهما الجنود والترك من نوافذ القلعة بعد ان تبينوهما من حزاميها العسكريين . وصاح الترك بأنها على استعداد للتسليم اذا وعدوا بالا يعاملوا كا عومل بقية اهل يافا . وأعطى الشابان على مسئوليتها تأكيدات شفوية بأن رجال الحامية لن يقتلوا . وعلى هذا الوعد خرج الجنود وسلموا سلاحهم . فلما رأى « بونابرته » ياوريه يعودان مع بضعة آلاف من الاسرى أصفر وجهه وقال ساخطاً « ماذا يريدانني ان أفعل بهم ؟ ما هذا الذي صنعاه » (٣٦) .

وبقية القصة معروفة وشائعة: إذ أمر نابليون بذبح الثلاثة آلاف..الاسرى العزل .. الذين منحوا أماناً باسم الشرف الفرنسي .. ولكن في حضارة لا تؤمن بأن افرادها « سواسية كأسنان المشط يسعى بذمتهم أدناهم » ..

نفذ « الاعدام بدقة تامة » « ومن المسلم به ان ٢٥٠٠ شخص قتلوا لا لضرورة قاهرة ، بل تحقيقاً لراحة ، واحداثاً لتأثير متعمد » . ويترك لنــا الميجر « ديتروا » كشف حساب كذلك الذي نجده في أوراق ربة بيت مدبرة ، أو في دفتر توفير طالب نجيب.. ففي حسابات الميجر الفرنسي نجد هذه الارقام:

في ٧ مارس مات اثناء الهجوم اكثر من ٢٠٠٠ تركي	
في ٨ مارس رمى بالرصاص	٨٠٠ تركي
وفي ٩ مارس رمى بالرصاص	٦٠٠ تركي
وفي ١٠ مارس رمى بالرصاص	١٠٤١ تركي ...
الجملة	٤٤٤١ تركي

وكتب المواطن « بيروس » الى امه :

« ان قيام الجنود الحانقين ، بعد اقتحام مدينة ، والاستيلاء عليها عنوة ، بأعمال السلب والنهب والحرق والتقتيل كيفما أتفق ، أمر تقتضيــه قوانين الحرب . والانسانية تسدل قناعاً على هذه الفظائع . ولكن صدور الأمر بعد انقضاء يومين أو ثلاثة على الهجوم ، وبعد ان تهدأ سورة الغضب ، في وحشية هادئة ، بقتل ٣٠٠٠ رجل استسلموا لنا بسلامة نيــة ! تلك جريمة بشعة ستشجبها الاجيال القادمة مـا في ذلك ريب ... ان نحو ٣٠٠٠ رجل القوا سلاحهم ، فسيقوا على الفور الى معسكرنا وفصل عنهم بأمر القــائد الأعلى المصريون والمغاربة والاتراك .

« وفي صباح اليوم التالي أخذ المغاربــة جميعهم الى شاطىء البحر وبدأت كتيبتان في رميهم بالرصاص . وكان أملهم الوحيد في النجاة هو أن يلقوا بأنفسهم في البحر ، فلم يترددوا ، وحاولوا كلهم الهرب سباحـــة ، فضربوا بالرصاص على مهل ،ولم تمض لحظة حتى اصطبغ ماء البحر بدمائهم. وانتشرت جثثهم على سطحه. وأسعد الحظ نفراً قليلاً فوصلوا الى بعض الصخور ولكن الأوامر صدرت للجنود باقتفاء أثرهم في قوارب والاجهاز عليهم . اما وقد تم

اعدام هؤلاء الرجال فقد رجونا صادقين الا تتكرر هذه الجريمة وأن يعفى الاسرى الباقون من القتل .. ولكن سرعان ما خاب رجاؤنا حين اقتيد ١٢٠٠ مدفعي تركي في اليوم التالي ليعدموا ، وكانوا قد جُوعوا يومين امام خيمة الجنرال بونابرت . وصدرت التعليمات المشددة للجنود بألا يسرفوا في الذخيرة ، فبلغت بهم الوحشية ان أعملوا فيهم الطعن بالسنكي .. وقد وجدنا بين الضحايا اطفالاً كثيرين تشبثوا وهم يموتون بآبائهم.وسيعلم هذا المثال اعداءنا انهم لا يستطيعون الركون الى صدق نية الفرنسيين، وسيقع دم هؤلاء الآلاف الثلاثة الضحايا على رؤوسنا ان عاجلاً أو آجلاً » (٣٧) .

ويكشف « هيرولد » دجل نابليون، والتناقض الصارخ بين اقواله وافعاله عندما يقول : « كانت فرقة الساحل الرهيبة لا تزال تواصل مهمتها حين أصدر بونابرت في ٩ مارس منشوراً لأهالي فلسطين يقول فيه « الزموا الهدوء في بيوتكم .. وانا أضمن سلامة الجميع وحمايتهم . وسيكون الدين على الأخص موضع الحماية والاحترام لأن جميع الطيبات من عند الله والنصر من عند الله».

وفي اليوم نفسه كتب الى الجزار يقول «ما دام الله يهبني النصر فاني أحب أن أحذو حذوه تعالى فلا أكون شفيقاً رحيماً بالشعب فحسب بل بحكامه أيضاً » . والخطاب دعوة للتسليم .

« ومن المؤن التي استولى عليها الفرنسيون في يافا ٤٠٠,٠٠٠ جراية من البسكويت و ٢٠٠٠ قنطار من الأرز . وقد نهب الجنود اكثر من هذا كثيراً قبل ان يتمكن القومسير من الاستيلاء عليه ، ولكن الاسرى وجب ضربهم بالنار لأنه لم يمكن توفير الطعام لهم . » !

« وفي ٨ مارس وهو اليوم الثاني من ايام المذبحة ، ارسل الله — الذي من عنده تأتي جميع الطيبات — الطاعون على الجيش الفرنسي وصبه على رؤوسهم بسخاء » (٣٨) .

ويتساءل مؤرخ سيرة نابليون عن نوعية هذا الرجل الذي « أمر يوماً في

هدوء بقتل ١٠٤١ شخص بالسناكي ليحدث ضرباً من التأثير، وأتى في اليوم التالي بنفس الهدوء عملاً يحجم عنه أعظم القديسيين » (يقصد زيارة نابليون لمستشفى الجنود الفرنسيين المصابين بالطاعون وتطوعه لحمل جندي مصاب اصابة فادحة واضحة دون ان يتقزز أو يخاف من العدوى) (*) .

اما نحن فلا نجد أي حيرة الا إذا سمحنا لأنفسنا بالدهشة من اقدام المستر « هيرولد » على ذبح الدجاج وصيد العصافير والتهام شرائح اللحم الذي يعرف أنها انتزعت من اجساد كائنات حية ، وترقرق الدمع في عينيه اذا ما رأى طفلا يتألم من حذاء ضيق ! لا تناقض ولا حيرة .. ان ممثلي الحضارة الغربية لم يحسوا أبداً بأن الكائن الملون مكتمل الانسانية ، ومن ثم فذبحه لم يشكل أبداً جريمة انسانية ! ولا نفى عن الذابحين رقة مشاعرهم ، ولا شكك في حسن سلوكهم البشري ! بل اننا نجد صورة نموذجية لهذا التفكير الذي يدين قتل الهمج للبشر ، ويفخر بابادة المتمدينيين للهمج ، الذين هم نحن ..

نجد هذه الصورة في مذكرات مدرس ، كهل ، في إحدى قرى فرنسا يصف فيها ، هذا المدرس الفاضل ، ذكرياته في الشرق .. إحدى المعارك التي دارت على شاطىء طبرية ، حيث كان «الهمج» على وشك الانتصار على قوات كليبر ، عندما خف نابليون الى المعركة ، وقلب الوضع ، وحول هذا التطور يكتب « ميديه » في شيخوخة هادئة : « تذكر أيها القارىء – ما قلته لك – إننا كنا نموت ظمأ . ولكن ظمأنا للانتقام أطفأ ظمأنا للماء ، وألهب ظمأنا للدماء .. والواقع اننا رحنا نخوض الى خصورنا مياه هذه البحيرة التي كنا

(*) ابو عبيدة قائد الجيش العربي في الشام رفض كل محاولات امير المؤمنين عمر اخراجه من المنطقة الموبوءة بالطاعون وأصر على البقاء في جنده حتى أصيب ومات به قبل نابليون بألف سنة. فضلا عن أن أبا عبيدة لم يقتل أسيراً واحداً . ولا أعمل السيف في المدنيين .

نشتهي أن نشرب منها قدحاً قبل لحظات . غير أننا لم نعد نفكر في الشرب. بل في القتل ، وفي صبغ البحيرة بدماء هؤلاء **الهمج** الذين كانوا يطمعون منذ لحظـــة في قطع رؤوسنا وإغراقنا في البحيرة التي اغرقوا فيها هم ، والتي امتلأت بجثثهم » .

بل لعل هــذه التفرقة بين مشاعر الانسان شمال البحر الابيض ، وآلام الانسان جنوبه، هذه التفرقة التي تميز الحضارة الغربية، تحمل الجواب على سؤال هيرولد، الذي يبدو في تساؤله اكثر سذاجة من سذاجة شيوخ الازهر المزعومة !.. فهو عندما يناقش واقعة أمر نابليون بتسميم حوالي خمسين جندياً فرنسياً كانوا مصابين بالطاعون وميئوس من شفائهم وذلك قبيل اخلاء يافا ، ولعجز الجيش المنسحب او عدم استعداده لحملهم وهم يحملون هــذا المرض المرعب ، وتجنباً لوقوعهم في يـــد « الهمج » يتساءل « هيرولد » دهشاً عن اسباب اختلاف المؤرخين حول قرار الإعدام هذا واستنكار انصار نابليون اقــدام البطل على اتخاذ مثل هذا القرار .. يقول هيرولد : « من الصعب ان نفهم لمــاذا أثارت هذه المسألة كل هذا الجدل المشبوب، فحتى لو كان بونابرت قد أمر بقتل بضع عشرات من مرضى الطاعون الميئوس من شفائهم رحمة بهم ، فــلا ريب في أن عملاً كهذا يمكن تبريره اكثر من ذبح آلاف من أسرى الحرب ، وهو ما أمر به في يافا قبل ذلك بعشرة اسابيـع » .

ولا مجال للدهشة .. فالجدل مفهوم جداً ، والاستنكار طبيعي من جانب المعلقين الغربيين، فقرار نابليون المستنكر موجه ضد **«الانسان»** الغربي ولذلك يتعرض لنقد شديد لتحديد مدى انطباقه على المفاهيم الانسانية . أما القرار الآخر الصادر بذبح ٣٠٠٠ مسلم فهو يتناول الهمج ، الكائنات التي خلقت على هيئة انسان لتسهيل مهمة الانسان الغربي ، الانسان الحقيقي المكلف باستغلال هذه الكائنات وحسن الانتفاع بها !

« أما المسجونون المسلمون في القلعة فقد أنهى بونابرت متاعبهم بحل حاسم

على بساطته: فأمر بين ١٩ و٢٢ يونيه بأن يرمي بالرصاص أثنان وثلاثون منهم دون اتخاذ أي اجراء قانوني سوى توقيع بونابرت. وكان بعضهم أسرى حرب اخذوا في سوريا، استنفدوا أغراضهم بمجرد أن عرضهم في موكب نصره»[٣٩].

وفي ٢٣ يونيو اقترح ديجا على بونابرت هذا الحل: «بما ان حالات الاعدام تتزيد في القلعة فإني اريد أن اعين جلاداً - يقطع الرؤوس - ليحل محل فرقة اطلاق النار. وفي هذا توفير للذخيرة وتخفيف للضجة». وأشر بونابرت في الهامش «موافق»[٤٠].

الفصل الخامس

المؤسسات الاستعمارية

وايش يكون نفعكم ؟

وإلى جانب عمليات الاعدام بالرصاص والسونكي والأكياس المثقلة وخنق السيدات ، وإلقاء الجثث في البحر .. كل هـــذه الاجراءات التي « تشرف وتعلي القــدر » .. كان الاداري نابليون يجرب بعض التنظيمات الادارية التي تضمن ضبط الاهالي وتنظيم اعتصار مواردهم .

فلنقطع تتابـع المقاومة الشعبية والتنكيل العسكري لنتأمل هذه المؤسسات التي لم تكن اكثر من أجهزة ، تتم من خلالها السيطرة على الجماهير لمنع اخلالها بأمن المحتلين و« تنظيم مالية البلاد » او بعبارة اكثر صدقاً «نهب ثروة البلاد» وهما هدفان كانا من الوضوح في ذهن مُنشيء هذه التشكيلات بحيث لم يهتم باخفاء طبيعتها بل سارت الأمور على هذا الترتيب الذي يعرضه الجبرتي :

« وفي يوم الثلاثاء عدت الفرنساوية الى بر مصر ، وسكن « بونابرت » بيت « محمد بك الألفي » وفي يوم الخميس أرسلوا بطلب المشايخ والوجاقلية عند قائمقام ساري عسكر ، فلما استقر بهم الجلوس خاطبوهم وتشاوروا معهم في تعيين عشرة أنفار من المشايخ للديوان . وفي يوم السبت اجتمعوا بالديوان وطلبوا دراهم سلفة ، وهي مقـــدار خمسمائة الف ريال من التجار المسلمين

والنصارى القبط والشوام وتجار الافرنج أيضاً . فسألوا التخفيف فلم يجابوا فأخذوا في « تحصيلها » [1] .

وهكذا نرى ان الأمر شديد البساطة ، ولا حاجة الى فلسفته وتعقيده بالحديث عن برلمان وتجربة وديموقراطية ... الخ .

أبداً .. الأمر أبسط بكثير .. الثلاثاء عبروا .. الخميس جمعوا المشايخ ، وشكلوا الديوان ، الجمعة عطلة .. السبت طالبوهم بالدراهم .. فالتمسوا التخفيف ، فلم يجابوا .. وأجبر « مجلس الأمة » (!) على التنفيذ !!

الديوان اذن ليس اكثر من جهاز لجمع الضرائب والغرامات .

بل ان « الجبرتي » يسجل لنا في واحدة من عباراته البليغة العميقة الايحاء يسجل لنا فهم معاصريه لطبيعة الديوان ، وسلطات اعضائه الحقيقية أو بمعنى أدق حقيقة وضعهم اذ يقول : « فما تم هذا الأمر حتى زالت الشمس **فأذنوا** لهم بالذهاب » .

ألا توحي هذه العبارة : « فأذنوا » بانهم رهائن أو على أفضل تقدير مجرد موظفين لدى السلطة الحاكمة ، سلطة الاحتلال ... التي تملك ان تأذن لهم بالانصراف ، وتملك في نفس الوقت ان تحبسهم حتى تصل بهم الى حالة مزرية لا يفوت عبقري أمتنا في ذلك العصر أن يسجلها .

فبعد إخماد ثورة القاهرة الثانية جمع ساري عسكر الديوان « وجلس ساري عسكر على كرسي في وسط المجلس ، وقال كلاماً طويلاً بلغتهم حتى فرغ ، فالتفت الترجمان الى الجماعة ، وشرع يفسر لهم مقالة ساري عسكر ، ويترجم عنها بالعربي ، والجماعة يسمعون فكان ملخص ذلك القول أن ساري عسكر يقول لكم يطلب منكم عشرة آلاف ألف الى آخر العبارة الآتية » .

ثم يقول للمهدي عبارة تلخص المهمة الثانية التي قامت من أجلها هذه التشكيلات وهي اخضاع « العامة » لسلطة الاحتلال .. « واذا كان الأمر

كما ذكرتم ولا يخرج من يدكم تسكين الفتنة ولا غير ذلك فما فائدة رياستكم وايش يكون نفعكم ؟ »

ففائدة « رئاستهم » ونفع هذه الرئاسة المرجو هو تسكين الفتنة ، اي اخماد الثورة . ثورة جماهير الشرق المستعبدة ضد رجـال الثورة الفرنسية . وجمع الدراهم والاتاوات والغرامات من الشعب الجائع الذي لم يجد فرقاً بين نهب المماليك ونهب الفرنسيين الا ان الثاني اكثر تنظيماً ودقة ، ومن ثم فهو أقدر على اعتصار آخر قطرة دم ، وان الاول كان ينفق ما ينهبه في الداخل.

ثم يتابـع « الجبرتي » اعطائنا الصورة الدقيقة والنادرة في براعتها للوضع الحقيقي لهؤلاء الرؤساء :

« فبهت الجماعـة ، وامتقعت وجوههم ، ونظروا الى بعضهم البعض ، وتحيرت افكارهم ، ولم تزل الجماعة في حيرتهم وسكرتهم ، وتمنى كل منهم أن لم يكن شيئاً مذكوراً . ولم يزالوا على ذلك الحال الى قرب العصر ، حتى بال اكثرهم على ثيابه ، وبعضهم شرشر ببوله من شباك المكان [٢] » .

اي قلم فوتغرافي غير قلم « الجبرتي » يستطيع أن يمنحنا صورة معـــبرة مفحمة لوضعية « نواب البلاد وممثلي الشعب » . وهم يبولون في ثيـابهم .. والايجابي منهم « يشرشر ببوله من الشباك » ! ليس فيهم من يجرؤ على طلب السماح له بالتوجه الى دورة مياه ، رغم ان الحضارة الغربية تمن علينا بأنها هي التي علمتنا نظام المجاري !

غير ان المدرسة الاستعمارية في محاولتهـــا التدليل على الدور الحضاري والتحريري الذي لعبته الحملة الفرنسية تجد نفسها مندفعة في تعداد «الاولات» التي أدخلها الفرنسيون في بـــلادنا .. فهناك أول « برلمان » وأول « مجلس وزراء » وأول « حكومة مسئولة » وأول « محاكمة عادلة » وأول «مطبعة» وأول «عزل صحي» وأول «تحطيم للبوابات».. واول «فيلق من العملاء» ... واول «مشروع للاستقلال» .. اول «طلب للحماية الأجنبية» .. الخ .

وهذه المدرسة تصف هذا الديوان « المحصور » بأنه كان تدريباً للمصريين على النظام البرلماني ومسئولية الحكومة امام النواب وتجربة للحكم الذاتي ... ولا شك انها ان كانت قد فهمت — وهو ما لم يحدث لحسن حظ الديموقراطية — على هذا النحو ، من النخبة المصرية ، فلا شك انها قد تركت أثراً عكسياً ، ونفوراً من هذه التجربة .. وكيف يصدق «التلاميذ» المصريون ان «الحكومة مسئولة امام البرلمان » الذي هم اعضاؤه وهم يرون أنفسهم — ان صدقوا انهم نواب — لا يملكون حتى الحق الطبيعي الذي نالته سائر الكائنات الحية ، وهو حق افراز المواد السامة المتجمعة في الجسم !. وأي قاعة لدرس الليبرالية والديموقراطية وبعث القوميـــة ، تلك التي تحولت الى ما يشبه المراحيض العمومية ؟!

غير ان المدرسة الاستعمارية — كما قلنا — تنقسم الى الاكاديمية التي بالخارج، ومدارس الارساليات التي تعمل في بلادنا .. فالمدرسة التي تخاطب «الاجنبي» تضطر الى ذكر جانب من الحقيقة .. لذلك نجد « كرستوفر هيرولد » يرفض حكاية « أول » هذه بقوله : «ان موقفاً من المواقف لا يصبح تاريخياً الا لأحد أمرين : اما لأن المشاركين فيه على وعي بأنهم يصنعون التاريخ ، واما بفضل نتائج اعمالهم » .

ثم يطبق هذا القانون الصحيح ، على حالة الديوان الذي جمعه نابليون فور احتلال القاهرة ، والذي شرحنا الهدف من انشاءه فيقول :

« ولو كان النواب الذين حضروا افتتاح الديوان العام الذي عقد بالقاهرة في ٤ اكتوبر ١٧٩٨ يعلمون انهم يؤلفون اول مجلس نيابي في الشرق الأوسط او لو كانت اجتماعاتهم خلال الأسبوعين التاليين قد تمخضت عن أي نتائج ، لكان هذا الموقف تاريخياً » .

فعميد المدرسة يعترف ان الموقف لم يصبح تاريخياً ، فلا نتائج أعمال الديوان ، ولا الذين شاركوا فيه كانوا على وعي بأنهم يصنعون التاريخ ، بل لقد رأينا كيف سجل الجبرتي

نظرتهم الى هذا الديوان ، وسنناقش اسباب قبولهم لعضويته . وما حاولوا تحقيقه خلال هذه العضوية ، بل ونحن نذهب الى ان نابليون نفسه رغم كل مواهبه في تخيل نفسه كصانع للتاريخ ، ما كان يؤمن ولا يهدف الى اقامة حكم نيابي في مصر . والاحتلال الفرنسي حكم المغرب العربي منذ احتلال الجزائر الى استقلالها (١٨٣٠ – ١٩٦٢) اكثر من قرن وربع قرن فلم يقم حكماً نيابياً . والاحتلال البريطاني حل مجلس النواب الوحيد والأول من نوعه في الشرق كله ، فور احتلال مصر .

ومن المؤلم ان نجد أنفسنا في حاجة الى مناقشة عداء الاستعمارية الغربية للنظم النيابية في المستعمرات ورفضها قيام ممثلين حقيقيين للأمة . وخاصة في مراحل الغزو الأولى حيث يجري عزل الطبقات الحاكمة ، وحيث لم يكن الوقت قد اتسع بعد لفرض طبقات جديدة موالية قابلة وقادرة على التعاون .

ويعترف « هيرولد » نفسه بان الاجراء المالي الوحيد الذي أقترح هو فرض ضريبة على العقارات في المدن (٣) . ويقول ان نابليون بعد ما أحس بعجز الديوان عن تحقيق هدفه . أعطته الثورة التي قامت أثر ذلك ذريعة لحل الديوان . فلما أعيد تشكيله بعد شهرين، لم يبق له من أهميته الأولى غير ظلها.. ولما كانت مصر لم تنضج بعد لتقبل ما يجلبه الحكم الفرنسي من اصلاح ومزايا . لم يكن بد من كسب رضى الشعب بطرق أقل مباشرة فما داموا لا يحترمون غير القوة فيجب ان يحكموا حكماً حازماً (٤) » .

وهذه هي العبرة التي استخلصتها كل قوة احتلال عبر التاريخ كله ، فما من شعب على طول تاريخ الاستعمار . أثبت انه يتقبل «اصلاحات» المستعمرين وانه يستطيع ان ينفذ هذه « الاصلاحات » طواعية وبواسطة ممثليه . بل يتحتم أن يتجرعها بالسيف والمدفع والسوط . واذا كانت شخصية نابليون المنتفخة بالعظمة والاستاذية ، وايضاً لأنها كانت اول تجربة للغرب في العالم

العربي .. جعلته يفكر في تجربة دغدغة مشاعر « الوطنيين » بلبس عمامة ، وامساك مسبحة وتشكيل ديوان ، فقد كان رد الشعب على « دجله » قاسياً وعنيفاً، أجبره على ان يكشف عن أنيابه وان يتصرف كما تصرف الاسبان مع سكان العالم الجديد قبل الثورة الفرنسية بقرنين .

ولقد حاول نابليون ان ينتزع الاعتراف بشرعية احتلاله .. بتشكيل الديوان ، ثم باستصدار فتوى من المشايخ « أريد من الأزهر أن يصدر فتوى تأمر الناس بأن يحلفوا يمين الطاعة لي » ورغم ان المشايخ كانوا يعلمون انهم جميعاً — كما قال الجبرتي — « في القبضة مأسور » الا ان عملية التدجين والافساد التي تولاها « محمد علي » وخلفاؤه لم تكن قد أنجزت بعد . فكان المشايخ يحتفظون ببقية من صلابة الاسلام : « فأصفرت وجوههم لهذا الطلب فأنبأت برعب دفين . ثم غلبهم الوجوم والارتباك . وطلب الشيخ الشرقاوي كبير علماء الأزهر ، الكلمة ، وقال بعد ان استجمع شجاعته ، انك تطلب رعاية الرسول الذي يحبك ، وتريد العرب المسلمين ان ينضوا تحت رايتك وترغب في استرداد أمجاد العرب . وأنت لست مشركاً ولا وثنياً ، فاعتنق الاسلام اذن . لأنك لو فعلت لبادر الى الانضواء تحت لوائك مائة الف عربي من بلاد العرب ومن مكة والمدينة ، ولاستطعت — وانت قائدهم ومنظمهم — ان تفتح بهم الشرق وتسترد وطن الرسول بكل أمجاده ، فلما قال هذا علت الابتسامات وجوه الشيوخ ، وركع الجميع ضارعين الى الله أن يسبغ عليهم حمايته . وكانت الدهشة هذه المرة من نصيب الجنرال [٥] .

لا نظن ان هناك منطقاً اكثر انصافاً من منطق الشيخ الشرقاوي هذا .. بل ان كل النظريات التي تحاول ان تنسب لنا الموقف الديني ، تنقلب على مفسريها بهذه الواقعة. فنابليون هنا هو الذي يرفض هذا العرض السخي الذي يحقق له جميع آماله سواء الامبراطورية ، أو الاصلاحية ، ويمكنه من بناء مجده الشخصي أو تحقيق رسالته الانسانية.. كيفما اختار! ولكنه رفض لسبب

واحد ..هو سبب ديني، رغم كل علمانية الثورة الفرنسية! فلماذا يختص شيوخ الأزهر باللوم لرفضهم اغراءات نابليون واصرارهم على مقاومته لنفس السبب الذي جعل نابليون يرفض اغراءات الشيوخ ... وهو رفض التخلي عن الدين الموروث !

ربما يقال ان نابليون كان يحاول بناء امبراطورية عربية بسواعد العرب المسلمين، دون ان يغير دينه، وانه كان يحاول ان يثبت ان الامبراطور المسيحي.. يمكن ان يحكم الشرق دون ان يمس الدين المسيحي أو تقاليده ، تماماً كما كان يحاول ان يعلم المسلمين انه من الممكن ان يسايروا الحضارة الغربية ، وينضوا تحت لوائها دون أن يمس الدين الاسلامي وتقاليده . ويمكن أن نقول بدورنا ان نابليون والمسلمين اقتنعا باستحالة ذلك .

التفسير الاستعماري

فاذا انتقلنا الى التفسير الذي تروجه المدرسة الاستعمارية في بلادنا منذ أول محاولة لكتابة تاريخنا الى ان تتبلور هذه المدرسة بوضوح في المقالات الصحفية التي نشرها « لويس عوض » .. فاننا سنجد الألقاب تخلع بغير حساب على التشكيلات التي أقامها الاحتلال الفرنسي !...

« فلما أصدر بونابرت مرسومه في ٢٥ يوليو ١٧٩٨ بتشكيل أول مجلس للوزراء عرفته مصر من علماء الأزهر » [٦] .

اما « الشيخ محمد المهدي، فقد اختير **سكرتيراً عاماً لمجلس الوزراء** »[٧] .

« والمرة الاولى التي يرد فيها اسم الجبرتي **وزيراً** ، هي في تشكيل الديوان بعد مقتل كليبر » .

« كذلك لم يرد للجبرتي اسم في تشكيل **البرلمان الاول** الذي انشأه بونابرت » [٨] .

ولا شك ان « الديوان » كان موجوداً في مصر قبل الحملة الفرنسية ، وبصرف النظر عن أي جدل حول مدى تمثيله للشعب أو نوعية السلطة التي كان يمارسها، فان البحث إذا ما جرى وراء الاسماء، لرجحت كفة « ديوان »

المماليك على « دواوين » نابليون .. فلماذا هذا الافراط في خلع الاسماء والصفات .. «أول برلمان» «أول مجلس وزراء» «وزير» .. «سكرتير عام»!

كان في مصر قبل الحملة الفرنسية ديوان دائم هو الديوان الذي يتشكل من الوجاقلية (*) أو رؤساء الفرق ويكون « مجلس شورى الباشا المسمى بالديوان » واذا كان ثمة مقارنة يمكن ان تعقد بين الديوان العثماني ، والديوان الفرنسي أو كان ثمة مجال للحديث عن المجالس النيابية فإن الحقائق التاريخية في صف ديوان العثماني :

« ولهذا الديوان سلطة كبيرة في ادارة الحكومة ، لأن الباشا (الوالي) لا يستطيع أن يبرم أمراً الا بموافقة اعضائه ، واذا وقع خلاف بينه وبينهم يؤجل البت فيه الى ان يرفع الى الاستانـة ولهم أن يطلبوا عزله ، فكانت سلطة ضباط الفرق بمثابة رقابة وأشراف على سلطة الوالي » (١٠) .

وبهذا الوصف يصبح الديوان العثماني ، سلطة برلمانية حقيقية ،تعادل سلطة أرقى البرلمانات المعاصرة ، فهو له حق الفيتو على تشريعات الوالي، بل وحق طلب عزل الحاكم .

واذا أغرتنا لعبة الألفاظ فاننا نلاحظ تطور هذا « البرلمان » على النحو الذي تطورت اليه كل المجالس النيابية .

فقد « انشأ السلطان سليمان بدل مجلس شورى الباشا ، ديوانين ، الاول الديوان الكبير ، والثـاني الديوان الصغير ؛ فالديوان الكبير مؤلف من رؤساء الفرق (اغاواتها)ودفترداريها وروزنامجيتها وأمير الحج وقاضي مصر

(*) ويؤكد الرافعي ان هذه الوجاقات أو الفرق العسكرية التي كانت تشكل القوة الحاكمة لم تستمر تركية بل يؤكد انها:« بعد ان استقرت في البلاد انتظم فيها كثير من المصريين ودخلوا في عدادها فصار لها صبغةمحلية وبخاصة بعد أن انصرفت تركيا في عهد تقهقرها عن ارسال الجنود الى مصر فسد المصريون على توالي السنين ، الفراغ الذي حدث في صفوف الحامية العثمانية ، ومن بقي منها استوطنوا مصر واندمجت سلالاتهم في أهلها » (٩) .

ورؤساء المشايخ والأشراف . ورؤساء المذاهب الأربعة . ولهذا الديوان سلطة البت في شئون الحكومة الرئيسية . وله نقض أوامر الوالي » .

وهكذا نجد ان كل التغيير الذي أحدثه نابليون هـــو استبدال رؤساء الفرق الفرنسية برؤساء الفرق التركية والمصرية واضافـة نصارى الشوام والأروام وبعض المواطنين غير المسلمين .. أيساوي هذا كل تلك الضجة التي تثار حول « البرلمان الأول » ؟!

أما الديوان الصغير فكان ينعقد يوميـاً .. وكان الباشا يحضر جلسات الديوانين من وراء ستار . وللتسلية يمكن ان نشبه ذلك بتحريم الدساتير على الملك حضور جلسات مجلس الوزراء او البرلمان ! ولكنه كان ملزماً « بتنفيذ قرارات الديوانين » .

وأين من ذلك الوصف الهزلي للديوان المعتقل والذي لا يستطيع أعضاوه تجنب التبول على ثيابهم !. من اجتماع ديوان مصر المستقلة الذي بهر نفس قنصل فرنسا المسيو « دي مايليه » الذي لم يكن قد رأى حتى ذلك الحين (١٦٩٢) اجتماعاً مماثلاً في فرنسا .. فقال : « ان ديوان القاهرة أكثر أبهة من ديوان الاستانة.. وقد رأيت بقاعة الديوان نحو أربعة آلاف شخص مجتمعين وبعد تلاوة أمر السلطان وبيان الباشا ، صاح هذا الجمع بأن السلطان قـد خُدع . وانه من الواجب رفع الحقيقة اليه .. وانتهى الاجتماع بحسم الخلاف على طريقة رضيناها ورضوا عنها »(١١) .

فاذا كان الحديث عن مجالس تراجع قرارات الحاكمين فقد رأينا ان مصر لم يكن أول عهدها بهذه المجالس تلك التنظيمات التي شكلها نابليون، ولا كانت هذه التشكيلات تملك أي سلطة حقيقية ولا نظرية في عهد الاحتلال الأجنبي.. وكيف يمكن تصور سلطة شعبية في ظل المستعمر ؟!

اما المدرسة الاستعمارية التي يمثلها « لويس عوض » فترى ان : « الديوان

العمومي المكون من ستين عضواً ، وهو **أول مجلس نيابي** عرفتـه مصر في العصر الحديث » .

« والديوان الخصوصي المختار من بين أعضائه والمكون من أربعة عشر عضواً ، وهو أول **مجلس وزراء** عرفته مصر »[١٢] .

« أما عن موقف الشعب المصري من الحكم النيابي ، فقد بين الجبرتي فرح الشعب بعودة الديوان بعد تعطيله ، بما يدل على أنه برغم وجود رأي عـام متطرف يرى في هـذه الواجهة من الحكم المصري مجرد أدوات يمارس بهـا الفرنسيون السلطة المدنية في البلاد ، فقد كان هناك أيضاً رأي عام لا يقل عنه تبلوراً يؤمن بأن الحكم النيابي مجن يقي المصريين الكثير من بلايا الاستعمار الفرنسي ، ويحاول تقليم أظافره والحد من سلطاته المطلقة » (سنترك التعجب الى نهاية الاقتباس) يقول :

« وحتى في البيانات التي كان يصدرها الديوان لتهدئة الخواطر الثائرة ، كانت هناك أسس للحكم استخلصها الزعماء المصريون من بونابرت وخلفائه ، ففي البيان الذي أصدره الديوان الى الشعب المصري بتاريخ ٨ جمادي الثانية ١٢١٣ (١٧٩٨) لتهدئة الخواطر . وهذا يدل على ان العلماء ، قبل اصدار هذا البيان قد اشترطوا العمل بجملة مبادىء أساسية للحكم ، واستخلصوا من بونابرت تعهداً بها وهي احترام الدين وعدم المساس بأحكام الشريعة واقامة العدل والغاء مظالم المماليك (المماليك ؟!) واقتصار واجبات المصريين إزاء الدولة على دفع الضرائب .

والمنشور الذي يتحدث عنه صدر والديوان معطل في أعقاب ثورة القاهرة الأولى حيث « بطل الاجتماع بالديوان المعتاد »[١٣] .

يقول الجبرتي : « وفي يوم الخميس ١٦ ربيع الثاني ١٢١٣ أهمـل أمر الديوان الذي يحضره المشايخ ببيت قائد أغا . فاستمروا أياماً يذهبون فـلم يأتهم أحد فتركوا الذهاب فلم يطلبوا » .

ولم يصرخ عضو : « لن نتصرف إلا على أسنة الرماح » لأن ما من أحد كان يريد البقاء أصلاً . ورواية الجبرتي عن المنشور لا تترك مجالاً لمثل هـذا التفسير الذي يطرحه « لويس عوض » فالجبرتي يقول : « وفيه كتبوا (أي الفرنسيين) عدة أوراق وأرسلوا منها نسخاً للبلاد وألصقوا منها بالاخطاط والاسواق وذلك على لسان المشايخ ايضاً ولكن تزيد صورتهـا عن الأولى وصورتها .... الخ .

والجبرتي لا يلقي الكلام على عواهنه فهم الذين **كتبوها وألصقوهـا ووزعوها على لسان المشايخ**، وسياق الكلام يؤكد ان المشايخ لم يطلعوا عليها قبل أي مصري آخر، فضلاً عن ان يكونوا قد استئذنوا في اصدارها أو توقيعها، ودعنا من الهذر الذي يزعم ان مساومة أو مفاوضات قد جرت بينهم وبين السلطة المحتلة وانهم اشترطوا التعهد بكذا وكذا.. وقد استعرضنا رأي المؤرخين الذي أكدوا ان كل صلة المشايخ بهذه البيانات لا تزيـد عن استخدام اسلوب الشيخ « المهدي » في بعض الأحيان « لاضافة المحسنات » ! ونمضي مع مؤرخ المدرسة الاستعمارية(*) : « وبتحليل نصوص هذه الملصقات نخرج بنتيجتين على غاية قصوى من الأهمية : أولاهما ان هذه المجالس النيابية والتنفيذية المصرية كانت لها سلطة اصدار القوانين فيما لا يمس السياسة العليا . وثانيهما ان بونابرت كان يعد نفسه (شكلياً) مسئولاً أمام (محفل الديوان) المصري بمثل ما كان مسئولاً فعلياً أمام حكومة الادارة أو المؤتمر الوطني في بلاده، فكان يقدم التقارير للديوان أولاً بأول عن أعماله وتحركاته وانتصاراته وانسحاباته العسكرية بتفصيل شديد، بل لقد سمى في تقرير مشهور له جيشه المحارب في سوريا باسم (جيش مصر) . وتحدث عن انتصار هـذا الجيش تحدثه عن انتصار الجيش المصري(**) . ولا شك ان مراعـاة بونابرت ان

(*) لويس عوض .
(**) لا جدال في المهانة الفكرية التي تصيب جيلا بأكمله نتيجة قراءة هذا التحليل !

يحافظ على هذه المسئولية الشكلية أمر يلفت النظر حقاً » .

« وبهذا يكون قد استجد في مصر تقليد دستوري أساسه ان يقدم القائد مباشرة أو عن طريق نائبه تقريراً عن نتائج أعماله العسكرية الى « محفل الديوان » قبل نشرها على الناس . ومن العبث ان نظن ان هذه التقارير كانت تقدم سواء لمجرد « العلم » أو للتصديق عليها ، فكلا الفرضين يقوم على التعسف [*] وانما كانت تقدم كعرف دستوري شكلي يتضمن اعترافاً شكلياً بشخصية الديوان العمومي على انه سلطة نيابية شرعية وانه حلقة وصل بين السلطة العسكرية والشعب المصري . وفي كثير من الاحوال كانت هذه التقارير المقدمة الى البرلمان لا تنشر مباشرة ولكن تصدر في صورة بيان يصدره (محفل الديوان الكبير) للشعب المصري[١٤] » .

« ومن التقارير المؤكدة للصفة النيابية للديوان العمومي ، التقرير الوارد من السلطات الفرنسية الى هذا الديوان بشأن الاعمال الحربية في ابو قير . وهذا النص يؤكد أيضاً مسئولية الجيش أمام البرلمان من ناحية الشكل والتنظيم الدستوري ، وهو وضع مشابه للاوضاع في فرنسا ذاتها بعد الثورة الفرنسية » !!

« وأهم من هذا مبدأ « نشر » القوانين والاحكام كشرط نفاذها باستعمال الملصقات في الميادين وعلى رؤوس الشوارع والحواري ، لعدم وجود « جريدة رسمية » وقتئذ وكبديل لنظام المنادي الذي لم تكن العصور الوسطى تعرف سواه . فقارىء الجبرتي يرى بكل وضوح أن عملية النشر هذه لم تكن قاصرة على البيانات أو الانذارات السياسية أو العسكرية بل كانت تشمل أيضاً وبصفة أساسية القوانين واللوائح والاحكام[١٥] » .

يحاول ان يوهمنا ان هذا النشر هو المقصود حالياً بعدم سريان القانون إلا

(*) (!!؟!)

من تاريخ نشره في الجريدة الرسمية ! وهذا هو التعسف ، لأن الفرنسيين قد استخدموا اسلوب المنادين ، واستفادوا من المطبعة في اخطار المواطنين بقوانينهم أو قراراتهم . ومن قبلهم منذ عهد « خوفو » كان لا بد من اعلان القانون على الناس لكي ينفذوه ، ولا نعرف أمة قد اكتشفت وسيلة أخرى لتنفيذ القانون دون العلم به . ولكن الزعم بأن هذا شرط دستوري يمكن الطعن على أساسه في شرعية القانون هو زعم لا أساس له من الصحة ، ومجرد شقشقة ولغو ، تماماً كالقول بأن الفرنسيين قد حملوا الى مصر مبدأ مساواة المواطنين أمام القانون ، استنتاجاً من اصدارهم قانوناً يحتم على كل صاحب خمارة أو وكالة بالتبليغ عن الغرباء الذين يقيمون عنده !.. واضح طبعاً وكما قال الجبرتي ، ان الهدف كان ضبط الغرباء الذين يخشى من نشاطهم. ويستحيل طبعاً ان يستثنى الفرنسيون من هذا القانون إذ يفقد مفعوله ، من وجهة نظر المسئولين عن الأمن . إذ تصبح خمارات الفرنسيين ووكالاتهم ثغرة خطيرة ينفذ منها الغرباء .. فالحرص على إلزام الجميع بهذا الأمر لا يعكس أبداً الايمان بمبدأ المساواة ! ولا شك انه أجهد نفسه ليجد مثالاً آخراً يؤكد هذه المساواة ولكنه لم يجد ! لكنه لم يجهد نفسه ليقدم لنا مثالاً لعدم مساواة المصريين أمام القانون قبل الحملة الفرنسية ! حتى يحمل الينا المحتلون هذا المبدأ كما حمل الاسبان مرض الزهري الى أوروبا عند عودتهم من العالم الجديد !

أما وصف بيانات نابليون للشيوخ ، بانها اعتراف بمسئولية نابليون امام الشيوخ، وانه كان يسمي جيشه جيش مصر!! فهو خروج بالمناقشة عن حدود الجدية تماماً .. فهذه البيانات التي كانت ترسل الى الديوان لم تكن تفترق في شيء عن البيانات التي ينادي بها المنادي في شوارع القاهرة، وأزقتها ، وتشبه في غايتها وصحتها ، بلاغات اذاعة الشرق الأدنى وصوت الحق ، وراديو اسرائيل خلال حربي ٥٦ و ١٩٦٧ .. أو المنشورات التي وزعها الانجليز خلال

احتلال مصر سنة ١٨٨٢ أو خلال الحرب العالميـــة الاولى ، بيانات متصلة بالمجهود الحربي والحرب النفسية ..

اما البيانات الحقيقية التي يصح نسبتها الى الاحساس بالمسئولية والمحاسبة فهي تلك التي تضمنتها «المكاتبة» التي أرسلها « بونابرته الى الفرنساوية المقيمين بمصر يقول فيها ان الأمر الموجب للانتقال عن محاصرة عكا خمسة عشر سبباً».

وعبقرية مؤرخنا تتجلى في اتصالاته العجيبة (*) ، التي مكنته من الالمـام بالخمسة عشر سبباً كاملة ، وهي تختلف تمامـــاً عن الهذر والدعاية الساقطـة « بتفصيل شديد » التي يتضمنها البيـان الاول الذي يتحدث عن تدمير عكا وهروب أهلها الى البحر ..

ولم يجد الجبرتي ما يعبر به عن احتقاره لهذا المنشور أبلغ من أن يتبعه مباشرة بنشر الوثيقة المفترض انها سرية للغاية ، والتي لو كان لدى نابليون أي

(*) وأعجب من ذلك ان الجبرتي كان ملماً بالخلافات داخل القيادات العليا لجيش الاحتلال ، فهو يروي تفاصيل الخلاف الذي دار بين القياده العليـــا الفرنسية في الاسكندرية.. والرواية في جوهرها متفقة مع ما اثبتته المصادر الفرنسية بصرف النظر عن عباراتها : « وفيه سمع ونقل عن بعض الفرنسيس انه وقع الحرب بين الفرنساوية والانكليزية . وكانت الهزيمة على الفرنساوية وقتل بينهم مقتلة كبيرة. وانحازوا الى داخل الاسكندرية ووقع بينهم الاختلاف واتهم منوساري عسكر رينه وداماص . ورابه منهما ما رابه . وكانا سبباً لهزيمته فيما يظن ويعتقد فقبض عليهما وعزلها من امارتهما . وذلك ان رينه وداماص لما ذهبا على الصورة المتقدمة ونظر رينه وأرسل من كشف على متاريس الانكليز فوجدها في غاية الوضع والاتقان فاجتمعوا للمشورة على عـــادتهم ودبروا بينهم أمر المحاربة فرأى ساري عسكر منو رأيه . فلم يعجب رينـــه ذلك الرأي . وان فعلنا ذلك وقعت الغلبه علينا . وانما الرأي عندي كذا وكذا ووافقه على ذلك داماص وكثير من عقلائهم. فلم يرضى بذلك منو . وقال انا ساري عسكر وقد رأيت رأيي فلم يسعهم مخالفته وفعلوا ما امر به فوقعت عليهم الهزيمة وقتل منهم في تلك الليلة خمسة عشر الفاً وتنحى رينه وداماص ناحية ولم يدخلا في الحرب بعسكرهما فاغتاظ منو ونسبها للخيانة والمخامرة عليه وتسفيههم لرأيه » .

احساس بالمسئولية امام المشايخ لاهتم بتبليغهم ولو بسبب من الاسباب الخمسة عشر ! ولكن نابليون ذاته ما كان يصل في دجله الى حد اعتبار تسمية جيشه « جيش مصر » انـه اصبح جيشنا الوطني ! وانه مطالب بتقديم كشف سير الحملة الى المشايخ ! ولا حول ولا قوة الا بالله من هــذا التفسير الذي يحمل مشايخنا مسئولية الحملة على سوريا وما جرى فيها من أهوال ومذابح اشهرها مذبحة « يافا » الخسيسة . انظروا كيف أرخ الجبرتي بوعي من يفضح الزيف، ويسلح المستقبل بالقدرة على التقييم الصادق للماضي .. فبعد عبارة « الموجه للأهــالي » ، يورد نص بيــان نابليون المتسم بالاستهتار بعقليتهم والذي يبلغ فيــه « نابليون » « النواب » : « ومحقت سراية الجزار وسور عكا وبالقنبر هدمت البلد ما ابقيت فيها حجراً على حجر » يتابـع «الجبرتي» بوقار العلماء : « ولما عجز الفرنساوية عن أخـذ عكا وعزموا على الرجوع الى مصر . ارسل بونابرته مكاتبة الى الفرنساوية المقيمين بمصر يقول فيها ان الأمر الموجب للانتقال عن محاصرة عكا خمسة عشر سبباً » (١٦) .

وبعضها أسباب متفق عليهـــا في جميع الدراسات التي تؤرخ هذا الفشل البونابرتي ، وبعضها يوحي ان الجبرتي قد أطلع على ترجمة أو أخبر بمعلومات عن هذه الوثيقة ، معلومات دقيقة الى أبعد حد .

على أية حال لم يكن المشايخ غافلين عن حقيقــة الاوضاع ، ولا كانوا في وضع يسمح لهم بتصديق بيانات اللورد « هاوهاو .. فنتور » فضلاً عن اعتبارهـــا دليل مسئولية نابليون أمــامهم ! بل على العكس ان معلوماتهم الحقيقية كانت تثبت لهم ان نابليون يستهتر بهم اذ يوجه اليهم ويصدر باسمهم مثل هذه البيانات والمعلومات التي لا تقبلها عقول الأطفال ..

ولا شك ان من يعرف خمسة عشر سبباً لعجز نابليون عـــن أخذ عكا واضطراره للعودة الى مصر ، منها التأخر في مهاجمة عكا ستة ايام حتى وصلت الانـكليز وحصنوا عكا باصطلاح الافرنج .. وسقوط « المدافع الكبـــار التي

توجهت من الاسكندرية بيد الانجليز . ووفـــاة « ولدتيب » اكبر خصم للانكليز في الهند . « ونقض الصلح بين فرنسا والنيمساء » .. من يعرف هذه الأسباب يحتاج الى شجاعة أدبية نادرة وأمانــة تأريخية ، لكي يثبت السبب الهزلي الذي أورده « جوبلز بونابرت » في بيانه الذي « أصدروه على لسان الديوان المخصوص وعلقوه على الجدران»..فقد فسر نابليون رجوعه الى مصر بأنه « وعدنا برجوعه الينا بعد أربعـــة أشهر والوعد عند الحر دين ! » . وخير تعليق هو عبارة الجبرتي : « انتهى بحروفه » .

واذا كان ناقل الكفر ليس بكافر ، فناقل اللغو ليس بجاهل .

ويقارن الرافعي – بحق – بين رسالة نابليون الجـادة الى جنوده ، عن نتــائج حملتــه في سوريا ، تلك الرسالة التي طبعت بالفرنسية ووزعت عليهم عشية الارتداد عن عكا ، وبين رسالته الهزلية الى « محفل الديوان » فيقول : « هذا هــو موقف نابليون من جيشه . امـا موقفه من الشعب المصري فقد اجتهد في تعميته بستر الفشل الذي أصابه أمام عكا والظهور بمظهر المنتصر الذي أدرك غرضه من الحملة على سوريا، والاعلان عن سطوته وقوته . ولذلك بادر فهيـأ رسالة بعث بهـا الى ديوان القاهرة بتاريخ ١٦ مايو (١٧٩٩ م) حشاها بكثير من التمويهات وخلاصتها الزعم انه محق دار الجزار بعكا وهدم البلد بالقنابل . وأن أهلها فروا الى البحر وان الجزار جريح في خطر الموت. وقد وصلت هذه الرسالة الى مصر في أول محرم سنة ١٢١٤ (يونيه ١٧٩٩) وقرئت بالديوان . فلم يصدقها أحد » (١٧) .

« وغير ذلك من التمويهات التي كان يذكرها في منشوراته تارة على لسانه وطوراً على لسان أعضاء الديوان دون ان يأبه لها أحد » (١٨) .

وإذا كانت الحكومــات في المشرق بعد تعلمها تجربــة الديموقراطية ، قد اعتادت ان تقدم للبرلمانات بيانات كاذبة. ولعل ذلك هو وجه الشبه الوحيد الذي يمكن أن يستند اليه من يصف مهزلة البيانات التي كان نابليون يوجهها

الى الديوان ، لكي تعمم على الشعب. الا ان تزوير « نابليون » في بياناته كان مفضوحاً ومبالغاً فيه الى حد يفقده كل تأثير .. فأي حكومة هذه التي تزور على « ممثلي الشعب » حتى جنسية الجيش الذي يغزو بلادهم ! فعندما نزل الاتراك .. جيش الخلافة في أبي قير .. زعم نابليون في بياناته الى « محفل الديوان » انهم من « الموسقو الافرنج الذين كراهتهم ظاهرة لكل من كان يوحد الله ، وعداوتهم واضحة لمن كان يعبد الله ويؤمن برسول الله، يكرهون الاسلام ولا يحترمون القرآن وهم نظراً لكفرهم في معتقدهم يجعلون الآلهة ثلاثة وان الله ثالث تلك الثلاثة . تعالى الله عن الشركاء ولكن عن قريب يظهر لهم ان الثلاثة لا تعطي القوة وان كثرة الآلهة لا تنفع.. ونخبركم بالمسلمين ان كانوا بصحبتهم يكونوا من المغضوب عليهم لمخالفتهم وصية النبي عليه أفضل الصلاة والسلام . بسبب اتفاقهم مع الكافرين الفجرة اللئام . لأن اعداء الاسلام لا ينصرون الاسلام. ويا ويل من كانت نصرته باعداء الله وحاشا لله ان يكون المستنصر بالكفار مؤيداً أو يكون مسلماً »[١٩] .

وكان منطق « بوسليج » اكثر حكمة واكثر اقناعاً، من كل بيانات الدجل البونابرتيه التي ينمقها « فنتور » ويحليها بالسجع الشيخ « المهدي » .. فقد جمع الديوان وصارحهم بحقيقة الوضع ، ونزول الجيش التركي في « ابو قير ». « وانتم لا شك تعلمون ذلك، (مش موسقو !!) وقد سافر نابليون لقتالهم ونحن لا نعرف ولا انتم تعرفون نتيجة المعركة . ولكني اعتقد انه في انتظار نتيجة القتال يحسن بسكان العاصمة ان يلزموا الهدوء والسكينة ، لأن النتيجة لا تخلو من واحد من أمرين ، فإما هزيمة للفرنسيين وعندئذ يجلون عن البلاد، واما نصر لهم وفي هذه الحالة تستهدف العاصمة لأشد أنواع الانتقام اذا نشبت فيها الثورة »[٢٠] .

وأهمية هذا المنطق لا تنبع من طابعه العملي ، بل من الضوء الذي يلقيه على حقيقة العلاقة بين السلطة والديوان ، فهي علاقة تربص متفق عليها من

الجانبين. وهي أبعد ما تكون عن علاقة حكومة بمجلس تشريعي كما يصورها البعض . كما تلقي الضوء على اهمال الجانبين لبيانات نابليون .

وكل الوثائق تؤكد ان « بوسليج » كان يتمتع بنظرة صادقة لطبيعة العلاقة مع رجال الديوان ، ونوع المشاعر التي يكنونها للسلطة وأهم من ذلك انه كان يتمتع بقدرة نادرة على الصدق مع النفس ، وفي مواجهة الآخرين ، وخاصة الرؤساء الدجالين .. فقد كتب لبونابرت عن مشاعر أعضاء الديوان اثناء معركة ابي قير : « ان الشعب المصري بالرغم من ثوراته العديدة ضدنا يمكن اعتباره شعباً وديعاً ، على انه يكرهنا وهيهات ان يحبنا ، مع أننا نعامله بأحسن ما يمكن ان تعامل بلاد محتلة . ان اختلاف العادات ، وأهم منه ، اختلاف اللغة ، وخاصة اختلاف الدين ، كل ذلك من العقبات التي لا يمكن تذليلها ، والتي تحول دون ايجاد صلات الود بيننا وبين المصريين . انهم يمقتون حكم المماليك . ويرهبون نير الاستانة ولا يحبون حكمها . ولكنهم لا يطيقون حكمنا ولا يصبرون عليه الا بأمل التخلص منه »[٢١] .

اليس من المؤسف أن يكون « بوسليج » اكثر فهماً ، واصدق تحليلاً من بعض المصريين المعاصرين .. الذين يحدثوننا عن بيانات نابليون للديوان !

والحق ان هذه البيانات لم تكن تقدم لا للعلم ولا للتصديق[*]، بل للدجل الرخيص المفضوح الذي يكشف زيفه جميع الفرقاء .. ولكن مؤرخ المدرسة الاستعمارية يتشبث بالقشة ، ليثبت ان المنشورات كانت تقرأ اولاً في الديوان قبل لصقها على الجدران ! ليوحي بأن هنال موافقة ما على اصدارها من الديوان !.. وحجته هي تفسير عبارة الجبرتي « وقرىء بالديوان وألصقوا نسخه المطبوعة بالأسواق[٢٢] » . وهل كان يستقيم أن يقول الجبرتي ،

(*) والرافعي يقرر ان الأهالي اذعنوا لمنشور نابليون « لا قناعة به ولكن نزولاً على حكم القوة » .

« وألصقوا نسخه بالأسواق وقريء بالديوان » ! ألم يكن يستطيع – وهو المعروف بدقته – ان يقول : « وقرىء بالديوان ثم ألصقوا صوره المطبوعة » او « فلما قرىء بالديوان ألصقوا صوره » ... ولو اننا لا نعارض في ان يكون قد قرىء في الديوان قبل عملية اللصق ، ولكن المدهش هو أن يرتب مؤرخ على ذلك تنظيما دستورياً ! فرواية الجبرتي ان كان يستفاد منها شيء حول ترتيب الأفعال فهي تفيد ان المنشور صدر في غزه ثم جرى طبعه.. نسخه ، أو بصمه كما يقول الجبرتي . وبعد ذلك قرىء بالديوان الذي كان يعلم كذبه وتضليله كما عبر عن ذلك « الوزير » عبد الرحمن الجبرتي بنشره الأسباب والمعلومات الحقيقية !

أما حكاية ان نابليون سمى « جيشه المحارب في سوريا في تقرير مشهور له باسم (جيش مصر) وتحدث عن انتصار هـذا الجيش تحدثه عن انتصار الجيش المصري » فلا شك انه – كما قلنا – من المهانة الفكرية والتاريخية ان نناقش هذا الأمر كأنه قضية تاريخية تترتب عليها أية استنتاجات !

والرافعي يقول انـه « أراد ان يجتذب قلوب المصريـين وان يشعرهم بالسرور بانتصار الفرنسيين ، ولذلك نراه يعبر عن جيشه بأنه «جيش مصر» وانه انتصر على « أعداء المصريين » ويعلق الرافعي : « ولكن هيهات ان ينخدع الشعب عن ذات نفس بذات لسان » (٢٣) .

ترى هل صدق أحـد في مصر ان حملة نابليون على سوريا هي « حمـلة مصرية » ؟!.. وان جيش مصر حارب هناك ! وان السوريين هم أعـداء المصريين .. وان انتصارات نابليون كانت انتصارات لمصر وشعبهـا !.. ألم يصدر نابليون عدة منشورات بعد ذلك تحذر من الشماتة التي انتشرت بين صفوف المصريين ، عندما شاعت أنباء هزيمة « جيش مصر » !

ونابليون كان يتحدث في تقاريره ايضاً عن « جيش ايطاليا » و «جيش الصعيد» وكانت له باخرة اسمها « ايطاليا » أغرقها المصريون بالصعيد فتشاءم واعتقد بأن فرنسا خسرت « ايطاليا » البلد .

ما الأهمية التاريخية لمثل هذه القفشة » ؟

اننـا – في الحقيقة – امام إلحاح ذكي واع على انفصال المصريين عن العرب ، والعالم الاسلامي .. فالمصريون يمكن أن يسروا بذبح عرب « يافا » وتدمير « العريش » وحصار « عكا » .. حتى لو تم ذلــك على يد جيش فرنسي .. يكفيهم أن ينسب هذا « المجد » لجيش مصر !.

والديوان عند مؤرخ « المدرسة الاستعمارية » ، هو مجلس وزراء ، وبرلمان في نفس الوقت فهو يقرر ان « دراسة الجبرتي والوثائق الفرنسية ، تـدل على ان (الديوان) كان حكومة بالمعنى التام . إذ كان يدخل في اختصاص هـذا الحكم تعيين الموظفين وممارسة السلطة المدنية بوجه عام، أما السلطة العسكرية فبقيت في يد الفرنسيين » (٢٤) .

« ولم يكن مجلس الوزراء المصري مجرداً تماماً من الارادة المستقلة » (٢٥). « ويستدل على ان اختصاص المجلس النيــابي باصدار القوانين ، فواضح من الأمثلة التي ساقها الجبرتي وهذا نموذج منها خاص بفرض عقوبة الاعــدام في أحوال معينة منعاً لانتشار مرض السفلس » (٢٦) .

وصحة هذا المنشور انه يتحدث عن مرض الطاعون وليس السفلس (!!) « لمنع الخطر الضروري وهو تشويش الطاعون عدم المخالطة مع المشهورات ». اما الديوان فلم يكن له علم بالقانون أكثر من علمه بأسباب مرض الطاعون ، أو علم الذين أصدروا القانون. والجبرتي واضح في نسبة القانون الى الفرنسيين: « ففي سابع عشرين العقدة ١٢١٣ لخص الفرنساوية طومارا».. وفيه أي هذا الشهر كتبوا اوراقاً بأوامر ونصها : « من محفل الديوان العمومي الى جميع سكان .. الخ » .. ولا أظن ان مؤرخـــاً يمكن ان يكون أوضح من ذلك لتأكيد أصل ونسب المنشور .. فصلة محفـل الديوان العمومي بسن عقوبـة الاعدام ومسئوليته عن أى دم أريق تنفيذاً للقانون لا تزيد عن صلة مصر وجيشها بأعمال « جيش مصر » في سوريا !.

ولكن المدرسة الاستعمارية تصر على ان هذه الوثيقة (مرسوم تشويش الطاعون) ذات أهمية عظمى لأنها تثبت ان ولاية البرلمان المصري فيما يتصل بسن القوانين المدنية كانت نافذة لا على الرعايا المصريين فحسب ولكن على الأجانب أيضاً بما فيهم جنود وجيش الاحتلال » [٢٧] .. ثم ننحدر من الهزل الى التهريج عندما يقول : « بل ان الديوان الديموي لا يبعد أن يكون تسميته الأصلية من ديموس أي (الشعب) بمعنى ديوان الشعب » [٢٨] .

وهذا الاغداق في الاشادة بأهمية التنظيمات الادارية التي أقامها نابليون ، لا يقصد به « تمجيد » هذه التشكيلات ، بل يقصد به تأكيد فكرة اننا ندين بتفكيرنا السياسي وتعلمنا للديموقراطية .. بل واحساسنا القومي .. بل وتعلمنا لأول مرة فكرة اشتراك المصريين في الحكم أو المسئولية السياسية .. ندين بذلك كله للغزو الفرنسي . فإذا ما تحولت التجربة الى نظرية أو حتى قانون عام ، كان لنا أن نقول انـــه لولا الغزو الغربي للشرق لبقي الشرق محروماً من المؤسسات الدستورية ، ممنوعاً من ممارسة أية مسئولية أو المشاركة في السلطة ..

فهو يقول :

« كل هذه التنظيمات السياسية والتقليدية الدستورية التي استجدت في مصر خلال الحملة الفرنسية ، وفصل الجبرتي ذكرها تفصيلاً وافياً بالاضافـــة الى النظريات الأساسية الواردة في بيانات « بونابرت الأول » الداعية ضد فلسفة الحق الالهي والنظـــام الاقطاعي والامتيازات الطبقية الوراثية .. والمنادية بالمساواة أمـــام القانون ، وبتكافؤ الفرص وبكافـة حقوق الانسان وبتمجيد القوة المصرية (*) ، كانت بغير شك الدعائم الأولى للفكر السياسي والاجتماعي الجديد في مصر الحديثة » ولو انه يقرر بانه من « العسير العثور في الجبرتي على افكار سياسية واجتماعية بالمعنى المنظم المبلور في فلسفة نظرية » [٢٩] .

(*) يقصد الاشارة الى انتصارات « جيش مصر » في سوريا !!!

وهذا اتهام خاطىء لفكر « الجبرتي » الاكثر نضجاً وأصدق انتماء من فكر لويس عوض — كما سنرى — امـا القول بأننا كنا نرزح تحت فكرة « الحق الالهي » والامتيازات الطبقية الموروثة ، ونفتقر الى من يعلمنـا المساواة أمام القانون .. وتكافؤ الفرص وكافة حقوق الانسان ، واننا فوجئنـا بمن يذكر القومية المصرية لأول مرة ، وأسعدنا ان يشيد بقوة جيش مصر الفرنسي !! فذلك قول ان امكن اعفاء قائله من سوء النية ، فـلا يمكن نسبته الى العلم بواقع الفكر السياسي الاسلامي .. أو واقـع الوضع في مصر . لقد كانت فرنسا ترزح تحت وطأة الامتيازات الموروثة اكثر ممـا ترزح مصر ، رغم الثورة الفرنسية ، بل انها عادت الى الملكية الوراثية بعد ١٥ عامـاً ليس الا من « تنوير » المصريين ! بل ان نابليون نفسه الذي تولى تعليمنا فلسفة الغاء « الامتيازات الوراثية » سيطلق زوجته التي يحبها ، ويهين المشاعر الدينية في أوروبا ، ليتزوج من جديد بحثاً عن « ولي عهد » يرث امتيازات ومملكة نابليون ! وسيبعثر الملكيـات الوراثية في أوروبا ، وبعضهـا سيبقى الى اليوم !

الملكية الوراثية التي لم ينجح المماليك أبـداً في اقامتها في مصر ، ولا استقرت أبداً في الضمير الإسلامي .. حتى ولو قامت بالقوة ، لأن الفكر السياسي الإسلامي يرفض المفهوم الغربي لها،وهو المفهوم الذي يعتبر ابن الحاكم ولياً للعهد بمجرد ولادته.. فولى العهد في حضارتنا لا بد أن تتم له بيعة ، أي اختيار لشخصه ، حتى ولو كان ابناً للحاكم .. ورغم شكلية هذا الاجراء في معظم التاريخ الإسلامي منذ معاوية الى عبد الحميد ، إلا ان اشتراط البيعة ، ورفض مبايعة القاصر ، تعبر عن عدم اقتناع الحاكمين والمحكومين في الدولة الإسلامية ، بمبدأ الوراثة ، بالمفهوم الغربي ، وعدم اكتمال الشرعية للحاكم لمجرد انحداره من سلالة حاكم .. والمؤرخون يؤكدون ان احد اسباب انهيار دولة المماليك ، بل السبب الرئيسي الذي وصل بحكمهم الى هذه الهاوية من الصراع الوحشي.. هو عجزهم عن إقرار مبـدأ « الوراثة » ، انهم لم يؤمنوا لحظة واحدة بالامتيازات والحقوق الموروثـة ، بل الامتيـاز للسيف وللساعد الذى يحمـل

السيف ويقطع الرأس .. حتى الأموال التي جاءت الثورة الفرنسية لتؤكد تقديس حق ملكيتها وحق وراثتها بالطبع !.. لم يكن المماليك يؤمنون بهذا الحق كثيراً .. وقد رأينا (*) انه حتى في احلك عصور تخلفنا ، أي عشية الغزو الفرنسي ، لم يكن هناك من يجرؤ على اخافتنا بشعار « الحق الالهي » . فهذا الحق لا وجود له في الفكر السياسي الإسلامي .. فلو فرض وجوده ، لتمثل في السلطان أو نائبه .. ولكن ممثل السلطان كان يخلع في اليوم ثلاث مرات دون أن يجد من يعترض بان هذا عدوان على الحق الالهي ، بل ان اكثر من سلطان ، ومن قبل السلاطين أكثر من خليفه ، قد عزلوا وقتلوا .. بل أي افتراء وجهل ان ننسب « فلسفة الحق الالهي » لأمة قتل ثالث خلفائها (رضوان الله عليه) وتقاتل كبار الصحابة فيها حول الحكم (**)..وما فكر أحد منهم في أن يقهر الآخرين باسم « الحق الالهي » !

أما المساواة أمام القانون .. فأي مساواة أكبر من أن يتقدم أحد العلماء لبيع سلطان مصر ، تنفيذاً لحكم القانون ! في وقت كان النبيل الفرنسي أو بالأحرى الشعب الفرنسي ، يعتقد ان دم النبيل أزرق ، ويحاكم النبيل أمام محكمة خاصة من طبقته ، الأمر الذي لم يقم له مثيل ولا شبيه في حضارتنا. فليس في حضارتنا قضاء مخصوص !

ما هي الامتيازات الموروثة التي ازالتها الحملة الفرنسية .. وما هو تكافؤ الفرص الذي أتاحته ؟!

امتيازات موروثة ؟!

أين وجدها نابليون ؟! في قتيله « محمد كريم » الذي كان صبي قبان فجاء نابليون ليجده حاكماً للاسكندرية ؟! بعمامة اكبر من عمامة السلطان ولحية اكبر من لحية مراد بيك !

(*) الفصل الأول .

(**) راجع كتابنا « الحق المر » .

امتيازات موروثة ؟ من : الشيخ « المهدي » صديق « نابليون » ومحل اعجابه الذي كان صبياً مسيحياً ، وفي رواية يهودياً ، فأسلم وأصبح من المشايخ المتصدرين واستطاع ان يصل الى مشيخة الأزهر ؟!

امتيازات موروثة ؟!

من .. « مراد بيك » ؟ عن من ورث امتيازاته ؟ ومن هم آباؤه الصيد ؟!

كان عبداً مملوكاً عند الباشا التركي فباعه وجاء الى مصر فأصبح حاكمها المطلق وجاء الباشا والياً على مصر فعزله عبده السابق الذى أصبح « مراد » بيك .

امتيازات موروثة ؟! أيمكن أن يكون بحثاً علمياً ذلك الذي يقوم على ان أوروبا علمتنا نحن المسلمين رفض الامتيازات الموروثة ؟!

يقول : « ان المصريين قبل مجيء بونابرت لم يكن لهم مكان في نظام الحكم لا في الحقيقة ولا في الظل ، وكانوا يعيشون في عهد الاتراك والمماليك في عزلة مطلقة عن سلطات الدولة من حيث هي كيان سياسي ، أي ان الشعب المصري كله بكافة طبقاته كان معزولاً عزلاً سياسياً ايام الاتراك المماليك [٣٠] » .

ثم جاء الاحتلال الفرنسي ، الذي لم يفك العزل عنا فحسب بل « بعث القومية المصرية أولاً ، وثانياً أسس اول مجلس مصري للوزراء وأول برلمان مصري في القاهرة » [٣١] .

و « نقل اداة الحكم الى المصريين بدلاً من المماليك والاتراك ، وحاول تصفية أية جيوب غير فرنسية أو مصرية مستنداً الى بعث القومية المصرية في محاربة منافسيه من المستعمرين [٣٢] » .

« أما الخطوة التي اتخذها بونابرت نحو انشاء سلطة تشريعية في مصر فقد كانت فكرة ثورية أوروبية بغير جذور واضحة أو تقاليد معروفة في مصر ،

فكرة من وحي الثورة الفرنسية ذاتها التي كان بونابرت نفسه اداة من ادواتها حتى هذه المرحلة من تاريخها [٣٣] .

« وذلك بانشاء أول برلمان مصري عرف في أيامه باسم « الديوان العام » .

« خطبة افتتاح الديوان العام التي قرئت على الأعضاء في أول اجتماع لهذا المجلس النيابي وهي أشبه شيء بخطبة العرش في العرف الدستوري [٣٤] » .

« وتؤكد فكرة القوميـة المصرية التي رأينـا ان الفرنسيين ركزوا على ايقاظها في نفوس المصريين ليؤلبوهم على الامبراطورية التركية ليسلخوا مصر عن الجامعة الإسلامية التي كان مركزها اسلامبول [٣٥] » .

فالاحتلال الفرنسي اذن هو « بـدايات الديموقراطيـة المصرية ، فكرة وتنظيماً ، بل وبدايات الحكم الجمهوري [*] . وإذا كان من حقنا ان نستنتج شيئاً من شروط (الرؤساء المصرية) لقبول حكم بونابرت والحكم تحت بونابرت (!؟!؟) فإن اشتراطهم عدم المساس بالشريعة الاسلامية كشرط للقبول ، يوحي بان بونابرت كان يحاول جاداً ادخال القانون المدني والجنائي الوضعي في مصر ليقوم مقام الشريعة ثم عدل عن ذلك » .ويعلن ان المصريين بذلك الوقت «قبلوا النظام البرلماني من نابليون ولكنهم رفضوا فصل الدين عن الدولة » !

ومن العسير على النفس حقاً ، ان تناقش نظرية تجعل **احتلال** مصر بداية تاريخها الديموقراطي « فكراً وتنظيماً ».. ما من أمة ترضى أن تمتهن كرامتها ويشوه تاريخها على هذا النحو .. وأي سم يترسب في عقول الجيل الناشىء ، عندما يلقن ان الاحتلال بعكس – ما يقال – هو الذي حمل الديموقراطية الى مصر **فكراً وتنظيماً** .. وان المشاركة في الحكم لم يكن لها أي جذور في تاريخنا لا فكراً ولا ممارسة ؟!

(*) هل كانت مصر ملكية في عهد المماليك ؟!

امـا ان المصريين كانوا في عزل سياسي ، فقد رأينـا في الفصل الأول حقيقة الدور الذي كانت تلعبه كل فئة من فئـات المجتمع المصري ، والمكانة الخاصة التي كانت لقيادات الشعب المصري : الشيوخ والتجـار .. اما ان فكرة انشاء سلطة تشريعية كانت فكرة ثورية أوروبية بغير جذور واضحة أو تقاليد معروفة في مصر ، فيكفي للرد عليها أن نعرف ان المماليك والباشا لم يكن لهم أي حق في ممـارسة التشريع بأي شكل من الأشكال وان التشريـع بمعنى « الفتوى » أي تفسير النصوص الشرعية ، واصدار الاحكام في الحالات المعاصرة ، كان من حق الشيوخ وحدهم .. فضلاً عن ذلك فإن نابليون تعهد قبل أن ينزل الى البر بحماية الشريعة ! كاذباً بالطبـع فإن نزوله على بر مصر كان اكبر هدر لأحكام الشريعة ، ولكن المهم هو أنه لا مجـال لادعاء اشتراط الشيوخ ، وتقدم بمطالب .. ليبني على ذلك الفرض الكاذب ، فرية شنيعة تدعي ان الشيوخ قبلوا حكم نابليون أو قبلوا الحكم تحت نابليون عن اختيار حر .. وبموجب مفاوضات دستورية ، اشترطوا فيها عدم المساس بالشريعـة ، وان كانت حتى هـذه « المكرمة » لا يفوتـه أن يغمزهـا « فيستوحى » أن نابليون كان معتزماً وضع تشريـع مدني وجنائي – متقدم طبعاً – لولا تعصب الشيوخ !

شيوخ الديوان لا قبـلوا حكم نابليون ولا ساوموا عليه ، بل كانوا كما وصفهم الجبرتي :«في القبضة مأسور» . أما عن السلطة فكل الذي حدث هو أن السلطة المهترئة الضعيفة في مواجهة سطوة العلماء وزعماء العامة ، تلك السلطة التي كانت من نصيب المماليك الذين لم يحسوا ولا أحس معاصروهم ، أنهم أجانب قط .. بل ان هـذا الاحساس لم يستشعره إلا الأجانب ! فالمماليك عند الجبرتي هم « المصرلية » .. سلطات المماليك المتفاوتة شدة وانهياراً ، انتقلت الى المحتل الاجنبي ، الى الفرنسيين ولكن على نحو أكثر بطشاً ، وأكثر فعاليـة ، وأكثر وحشية في التنكيل بالشعب ، والتهجم على

مقدساته ، واعدام قياداته.. اي مشاركة وأي ديموقراطية في عهد كان **الأول** في اعدام الشيوخ .. قيادة الأمة « فكراً وتنظيماً » ، فهل كان غريباً أن يرفض الشعب الوجود الفرنسي بكافة مظاهره ، أو كما يقرر « وليم سليمان» : « ان الشعب ثار ضد الوجود الفرنسي ولفظه « وان قـــادة الشعب كانوا يتشككون في كل اجراءات بونابرت ، بل ويتحالفون مع المماليك والعثمانيين رغم كل مظالمهم » .. ويؤكد انه « فيما يتعلق بنظام الحكم فان الهدف من اقامة المؤسسات المحلية هو حكم مصر لصالح الاستعمار الفرنسي بأكثر فاعلية» « وان « بونابرت » يريد ان أعضاء الديوان يحكمون مصر لا باعتبارهم ممثلين لشعبها ولكن كممثلين للفاتح » (٣٦) .

امـــا الرافعي فرغم تأثره الى حد بعيد بتهويش المدرسة الاستعمارية ، واستجابته لإغراء الحديث عن « أول برلمان » ، و « أول حكومة » لإثبات عراقتنا الدستورية،وللتقليل من اهمية دستور١٩٢٤ الذي يأتي بالوفد الىالحكم! إلا أن الرافعي ، لا ينتمي الى هـــذه المدرسة ، بأي حال من الأحوال . وهذا يفسر التناقض بين بعض آرائه والحقائق التي يوردها كمؤرخ أمين .

فرأيه في الديوان « أن سلطته لم تكن تتعدى مدينة القاهرة وان هذه السلطة لم تكن إلا استشارية ومقيدة بتعهد الأعضاء أن لا يعملوا شيئاً مـا ضد مصلحة الجيش فضلاً عن انهم كانوا يعملون ويتداولون بعين من الفرنسيين تحت المراقبة (*) المستمرة » (٣٧) .

وهذا التناقض « غير الجدلي» يطالعنا بصفة عامة في تحليل الرافعي لدور الحملة الفرنسية . « فنابليون» وليد الثورة الفرنسية، كما كان جنود فرنسا ابناء ذلك الانقـــلاب العظيم الذي أعلن حقوق الانسان ، وقرر حرية الشعوب ،

(*) في تعليمات نابليون : « على الستوپان تاليان ان يحضر جميع جلسات الديوان وأن يسعى في معرفة اخلاق اعضائه ومبلغ الثقة التي يمكننا ان نوليها اياها » .

فعلم الثورة كان لم يزل يخفق على الجيوش التي ساقتها الجمهورية الفرنسية الى ميادين القتال .

« فنابليون قد استثار الروح القومية المصرية في منشوراته وبياناته للمصريين، على انه في الوقت نفسه قد أثارها باعتدائه واعتداء جنوده على البلاد وأهلها لأن هـذه الاعتداءات أثارت كراهية الأمة للاحتلال الفرنسي وحملتها على مقاومته بكل الوسائل ، فكانت هذه المقاومة هي النواة التي انبثقت منهـا الروح القومية المصرية » .

وهنا يتفق معنا في ان القومية تظهر خلال مقاومة القهر الوطني ، وليس خلال التعاون مع القاهرين .

« ومهما قيل في مبلغ ما كانت عليه الأمة المصرية في ذلك الحين من التأخر في العلم والمدنية، فان الحملة الفرنسية وما اهتاجته في نفوس المصريين من روح المقاومة قد هزّت أعصاب الأمة، هزة عنيفة أزاحت عن ابصارها شيئاً من الغشاوة التي رانت عليها في خلال العصور » .

« فالأمة المصرية لم تذعن للحكم الفرنسي ولم تطمئن اليه بحال من الأحوال ولم تُخدع في حقيقة الأغراض التي كان يرمي اليها نابليون من الحملة » (٣٨) .

ونحن نتفق مع الرافعي في هذا التحليل تمـام الاتفاق ، ولكن الرافعي – كانت نقيصته وميزته في نفس الوقت – أنه لم يكن يمتلك نظرية عامة أو موقفاً عامـاً من التاريخ ومن الصراعات التي تصنع هذا التاريخ .. بل كان ينطلق من حب شديد لمصر وكل ما يجلب لهـا الخير ويجنبها الشر ... ولعل ذلك يفسر موقفه العدائي من الثورة العرابية فهو يدين الظواهر بنتائجها .. لا يفترق في ذلك عن العامة .

فنحن ندهش مثلاً من دهشته للمقاومة المصرية وتأريخها بأنها « وتلك أول مرة من نحو مائة وثلاثين عاماً – في تاريخ مصر الحديث – ظهرت فيها الروح القومية المصرية لمقاومة اعتداء دولة اجنبية » (٣٩) ، ولمَ الدهشة يا استاذنا

ألم تكن هذه هي المرة الاولى منذ مائة وثلاثين سنة التي تعرضت فيها مصر لاحتلال اجنبي ؟!

اما الحقائق التي يوردها « الرافعي » عن الديوان فتقرر : « ان الديوان لم تكن له سلطة مـــا في منع الغرامات والقروض الاجبارية التي يفرضها الفرنسيون ، ولعل ذلك كان من أهم الأسباب التي دعت الى سقوط منزلته في نظر الشعب » [٤٠] . ويقول : « ان الديوان لم يكن في مقدوره رفــع المظالم ولا منع اقرار المغارم وتبين من تجربته انه لا حول (له) ولا قوة»[٤١].

ويرى ان الديوان تطور على عهد « مينو » فأصبح « بمثـابة محكمة » . وهذا أقرب وصف لطبيعة الديوان التي قدمها الجبرتي : « وصورته انه اذا اكتمل حضور المشايخ يخرج اليهم الوكيل فوربيه وصحبته المترجمون فيقومون له ، فيجلس معهم . ويقف الترجمان الكبير رفائيل ويجتمع ارباب الدعاوى فيقفون خلف الحاجز عند آخر الديوان وهو من خشب مقفص وله باب كذلك وعنده الجاويش يمنع الداخلين خلاف ارباب الحوائج .. ويدخلهم بالترتيب الأسبق فالأسبق فيحكى صاحب الدعوى قضيته فيترجمها له الترجمان فان كانت من القضايا الشرعية فإما ان يتمها قاضي الديوان بما يراه العلماء . أو يرسلوها الى القاضي الكبير بالمحكمة ان احتاج الحال فيها الى كتابة حجج او كشف من السجل . وان كانت من غير جنس القضـــايا الشرعية كأمور الالتزام أو نحو ذلك . يقول الوكيل ليس هذا شغل الديوان » [٤٢] .

وهي صورة بعيدة كل البعد عن مجلس وزراء وبرلمان ... الخ .

ورأي الرافعي صريح في ان التشريعات الصحية لم تكن تعرض على الديوان « لتعليق تنفيذه على اقرارها ، بل كان القصد استشارته ومجاملته ، وقد نفذ فعلاً » [٤٣] . فرأي الرافعي بصرف النظر عن حكاية « أول » ان الديوان لم يخرج عن كونه مجلساً بلديـاً لمدينة القاهرة عديم السلطات وذلك في بداية تكوينه فمحكمة في نهاية المطاف، تفصل في القضايا الفردية والأحوال الشخصية

أي في « جنس القضايا الشرعية » كما قال الجبرتي ، وما عدا ذلك يدفع بعدم اختصاص الديوان !

وقرار « نابليون » بإنشاء الديوان الاول ، يؤكد طبيعته هذه ، كمجلس بلدي خاص « بإدارة » مدينة القاهرة :

« معسكر القاهرة في ٧ ترميدور من السنة السادسة للجمهورية (٢٥ يوليو ١٧٩٨) بونابرت عضو المجمع العلمي الاهلي والقائد العام للجيش يأمر بما يأتي :

أولاً : تحكم **مدينة القاهرة** بديوان مؤلف من تسعة اعضاء » [٤٤] .

ومهام الديوان هي : الشرطة ومراقبة الاسواق وتموين المدينة ومراقبة دفن الموتى .

ولكن « لويس عوض » يرفض وصف الديوان بالمجلس البلدي ، ويرد على رأي الرافعي الصادق والمنطقي ، والقائل بأن هذا الديوان لا يمكن وصفه بأنه حكومة مصرية بل هو تشكيل للقاهرة وحدها ، يرد على ذلك بأعجب رد فيقول ان اختصاصات بعض اعضاء الديوان كانت تشمل مصر كلها ... اما مَن هم هؤلاء الاعضاء ؟! فهم « بالصدفة » .. الفرنسيون وحدهم؟! الذين تولوا ـكما يسميهاـ وزارات المالية والمواصلات والجمارك . ولاحظ انها الأعمال التي لا بد من المركزية في ممارستها ، والتي تتجسد فيها السلطة المدنية ، والتي تشكل في الحقيقة جوهر أي حكم في تلك الظروف ، ويفسر هـذا الوضع بقوله : « واذا كان الفرنسيون قد احتفظوا بهذه الوزارات الثلاث : المالية والمواصلات والجمارك ، في ايدي « وزراء » فرنسيين لاعتبارهم اياهـا لازمة للمجهود الحربي فهذا لا يغير من الامر شيئاً وهو ان هذه الاجهزة كانت ذات ولاية على البلاد كلها، وأن التنظيم هو التنظيم بغض النظر عن اشخاص الوزراء. ان كانوا من الاجانب أم من المصريين (!) وفي كل كلام عن ظهور الدولة الحديثة في مصر القائمة على الحكم المركزي من العاصمة ، لا يصح طرح هـذه

التجارب الاولى في اقامة حكومة مركزية تحكم البلاد من العاصمة وتمتد ولايتها على كل ارجاء البلاد »[٤٥] .

وهكذا نرى الاصرار على تنقيح حقائق التاريخ لتتفق مع وجهات النظر !.. فكل اقليم به ديوان .. وذلك يعني ان مصر كان بها ١٤ مجلس وزراء ! والسلطة المركزية هي تلك التي يتمتع بها الفرنسيون وحدهم ، ورغم ذلك يطلب منا أن تفترض ان ذلك الديوان كان مجلس وزراء ، وإن سلطاته كانت تشمل مصر كلها بصرف النظر عن من الذي يتولى السلطة ، أجنبياً كان او وطنياً ، وواضح ان هذا الفرنسي ليس مجرد أجنبي في مجلس مصري ، يستمد سلطاته من عضويته في المجلس ، كما كان الحال مع نوبار وأرتين في مجلس الوزراء المصري بعد ذلك بأكثر من سبعين عاماً .. بل هو يستمد سلطته من كونه ممثل جيش الاحتلال ، فهو لا يشرف على مالية البلاد بموجب كونه عضواً في الديوان ، وبالتالي فإن سلطاته تحسب للديوان ، بل هو يستمد سلطاته من مصدر خارج الديوان تماماً .. لأنه هو المحتل ، هو السلطة الحقيقية والوحيدة .

ولأن هناك اختلافاً في أسماء اعضاء الديوان إذ أن بعض الأسماء التي عينها نابليون في الديوان بمشورة مستشاريه الشوام والمتعاونين من أهل البلد والجواسيس الذين سبقوا الحملة ، وتضاعف نشاطهم بعد وصولها .. ويبدو أن القائمة كانت مع نابليون حتى قبل وصوله للقاهرة ، ولكن بعض الأسماء التي وردت بالقائمة ، كانت قد غادرت القاهرة قبل احتلالها ، وبعضها رفض الاشتراك وبعضها لم يعجب نابليون بسلوكه ، فأحلّ نابليون محلهم أسماء أخرى... وهنا يتحتم علينا أن نفترض — لحل الاشكال! — وجود « مرسوم بونابرتي ضائع» ! فيقول لويس عوض: «فمن غير المعقول أن يباشر الدمنهوري والشبراخيتي والدواخلي في التشكيل الجديد ، سلطة الوزراء عرفياً وبغير سند قانوني »[٤٦] .

مسلي جداً أن يندمج الممثل في دوره الى حد الانفعال والبكاء ، ومسلي اكثر أن يندمج المتفرجون مع الممثل الى جو الانفعال ، ولكنه يصبح مزعجاً للغاية إذا ما أصر الممثل على فرض روايته الوهمية كحقيقة من حقائق التاريخ! بل وأن يطعن في التاريخ بالتزوير والنقص والضياع لأنه لا يتفق مع روايته! ولا ندري لماذا فاته أن يشير الى « مرسوم ضائع » آخر يحدد اختصاصات بقية الاعضاء من غير الفرنسيين .. فالمرسوم الموجود — للأسف — يحدد سلطات من لهم سلطات وهم الفرنسيون. أما بقية المشايخ فلا نجد لهم سلطات محددة، فما من شيخ صدر مرسوم بتحديد اختصاصه ولو كمسئول عن الصحة، ما من شيخ مسئول عن الكنس والرش، وهي وظائف ليست « مهمة مباشرة للمجهود الحربي » ورغم ذلك ضن المرسوم حتى بتحديدها .. ولو فكر « نابليون » أنه سيأتي يوم ، يعتبر فيه ديوانه هذا أول مجلس وزراء مصري! لربما أهتم بتحديد اختصاصات الشيوخ ! ولكن حتى «الدجال من أعلى طراز» لم يصل في دجله الى هذا الخاطر!.. لذلك اقتصر التحديد على الفرنسيين الذين يتولون مناصب حقيقية .. وحتى هؤلاء لم يبلغ بهم الوهم حد تسمية أنفسهم وزراء .. لأن هذه الأوهام مصنوعة لنا وحدنا : « ثم أنه لا ينبغي أن ننسى أن الانتقال فجأة وفي كل شيء من الحكم المملوكي القائم على اللامركزية المطلقة او مـا نسميه اليوم الحكم المحلي الى نظام الدولة الحديثة القائم على المركزية المطلقة او على الأقل المركزية في كل مـا يتصل بالشئون العامة التي تمس جميع المواطنين ، لم يكن بالأمر الهين، أدركنا خطورة هذا التحول الجسيم في نظام الحكم في مصر » (٤٧) .

ويصعب على المؤرخ الجاد أن يلمس هذا التغيير من وجهة نظر المصريين على الأقل فيما يتعلق « بالوزارات » الثلاث: المالية والجمارك والمواصلات .. فهذه بالحتمية كانت تدار على مستوى ما من المركزية بدونه لا يمكن أن تستمر مصر او أن تحكم . فالمالية بصرف النظر عن وسيلة جمعها ، ومـا يتسرب منها في

الشقوق والقنوات التي تفصل بـين القاهرة والفلاح .. إلا أنها كانت تصب في النهاية في القاهرة . والجمارك كانت تخضع مباشرة لإشراف مركزي حتى ولو بيعت بعد ذلك . كل الذي حدث هو أن « المال » أصبح يجمع بكفاءة اكبر وبعسف اكثر تنظيماً ودقة . وإن كان بنفس العناصر وبنفس الاختلاسات ، بل وبنفس التقسيم الهرمي . فلم تكن هناك مركزية يمكن أن يحس بهـا المصريون .. بل عندما طلب المصريون ضم بولاق الى القاهرة في دفع الغرامة التنكيلية ، رفضت السلطات الفرنسية، ولم يملك الديوان او «مجلس الوزراء» حتى أن يصدر هذا القرار البلدي البحت ! فالمركزية المالية بمعنى أن تصب الأموال في النهاية في خزينة فرعون العاصمة بعـد أن تشرب منها كل ديدان المجتمع ، حقيقة ليست جديدة على المصريين ، بـل يعانونها من أيام مينا وإلى ما بعد نابليون بكثير (*) .

وهو يعتبرالتغيير الذي تم فيتكوين الديوان بعدثورة القاهرة الأولى: «هذا التعديل فينظام الحكم النيابي الذي صدر به مرسوم ٢١ديسمبر ١٧٩٨ انتصاراً ديموقراطياً محققاً للشعب المصري » . وهو ما اعتبره «هيرولد» الغاء للديوان !

« كذلك كان انتصاراً ديموقراطياً عدول بونابرت عن الاحتفاظ للقائـد العام بحق دعوة البرلمان للانعقاد ونقلهذا الاختصاص الى حاكم القاهرة»[٤٨].

وحاكم القاهرة فرنسي ! وهو ممثل سلطة الاحتلال ، وممثل القائـد العام فهل يعد انتصاراً ديموقراطياً أن يكلف نابليون أحـد معاونيه بالإشراف على دعوة الديوان بدلاً من دعوته هو بنفسه !

أما منصب « رئيس الوزراء » فهو حائر بين الشيخ الشرقاوي الذي يعلن

(*) مرة وصف أحد شيوخنا الاجلاء كتابات لويس عوض بأنهـا « سمادير » وذلك صحيح فبعد ٤ صفحات منالاطناب بالحديث عن أهمية المركزية التي ابتدعها نابليون يقول هو أيضاً «أما مجرد قيـام حكومة مركزية قوية او سلطة تنفيذية قوية فقد عرفته مصر في كل عصور مجدهـا ، فبونابرت لم يأت بجديد في هذا المضمار » !!

لويس عوض انــه « أصبح رئيس الوزراء » وبين « المهدي » الذي من وصف موكبه يرى أن من حقنا أن نستنتج أن « محمــد المهدي كان في حقيقة الأمر أول رئيس وزراء مصري » .

رغم أن « المهدي » لم يصدر بعضويته « مرسوم » ! ولكنهم اختاروه سكرتيراً للديوان .. « والجبرتي » كان واعيــاً بحقيقة الديوان .. ولا تعنيه هذه البحوث التي تنشغل بها اليوم.. فكل الشيوخ الذين يحضرون ويشتركون في هذه اللعبة يكونون الديوان . بل ان ذلك السكرتير الذي لم يرد اسمه في مرسوم نابليون بتشكيل الديوان، كان هوالكل في الكل، كما يقول المصريون، ونعني به علامة استفهام عصره ، الشيخ « المهدي » .. فهو لم يكن عضواً في الديوان ، ولكن الجميع يمشون بين يديه كما يعجب الرافعي !

فقــد ذكر الجبرتي : « ان الفرنسيين أحبوه وأكرموه وقبلوا شفاعته ووثقوا بقوله ، فكان هو المشار اليه في دولتهم مدة اقامتهم بمصر وعلى يــده تقضي عندهم حوائج الناس وقضاياهم وكانت أوامره نافــذة عند ولاة اعمالهم حتى لقب عندهم وعند الناس بكاتم السر ولما رتبوا الديوان كان هو المشار اليه فيه والموظفون في الديوان من دونه . وإذا ركب حفوا به ومشوا حوله وبين يديه . وفي أيديهم العصي يوسعون له الطريق » (٤٩) .

المتعاونون

والحديث عن « المهـــدي » يجرنا طبعاً الى اعضاء الديوان .. وبالذات المشايخ.. لأن المدرسة الاستعمارية تحاول من خلال خلع الألقاب على الديوان، أن تصورهم كشركاء ، او متعاونين مع المحتل في حكم مصر .. وما دام هؤلاء الشيوخ لا يرقى الشك الى وطنيتهم . فـإن ذلك ينفي صفة العمالة عن عملية التعاون مع المحتل ، او قبول العمل في خدمة جهازه الحاكم ، وبالتالي تسقط التهمة عن كل « المتعاونين » وبالطبـع فالهدف ليس « تبرئة الشيخ الشرقاوي » بل ادانة « الشرقاوي » بما يسمح بتبرئة العملاء من أمثال برطلمين وشكرالله ويعقوب .. والآغا عبد العال . ولأننا نرفض هـــذا الاسلوب فإن علينا أن نوضح الفرق بين موقف المشايخ ، وموقف العملاء ، بين علاقة الشيخ السادات بالمحتل ، وعلاقة يعقوب وفرط الرمان ونيقولا الرومي وعبد العال .

يقول « هيرولد » : « وقد ضمن « بونابرت » بانشائه الدواوين ، التأييد الظاهري من اكثر عناصر المجتمع المصري نفوذاً واستقراراً ، وإن لم يضمن قط ولاءهم او ثقتهم » .

هؤلاء هم المشايخ الذين بحـكم مراكزهم يمثلون قيادات حقيقية وزعامات موجودة قبل ظهور الاحتلال .. والاستعمار يحاول ـ إذا مـا استقر ـ خلق

زعامات جديدة ومنافسة ، وتحطيم الزعامات القديمة . ولكنه في البداية لا يستطيع تجاهل هذه الزعامات . وهي بدورها لا يمكنها ، بحكم بروزها على سطح المجتمع ، أن تتجاهل السيد الجديد ، فأما أن تقاتله وتنتقل الى مواقع المطاردين الخارجين على القانون الاستعماري . وبعضهم اختار ذلك فعـلاً ، وخرج الى المنفى باختياره لكي لا يكون تحت سيطرة المستعمر ، ولكي يدير المقاومة بحرية ، ويعود عندما تحين فرصته للانقضاض على المحتل . كما فعل السيد النقيب « عمر مكرم » وبعضهم يبقى الى جانب جماهيره وعلى رأسها ، وإن كان يرفض تلويث نفسه بالانتساب الىجهاز السلطة كالشيخ « السادات » الذي يقول الرافعي ، انه «رفض الاشتراك في مهزلة (*) الحكم مع الفرنسيين» ويفسر ذلك « لعله تورع عن قبول هذه العضوية لأنها لا تتناسب مع مقامه في البلاد » « ولم يقبل هذه العضوية أنفة وتورعا » (٥٠) .

وبعضهم يتمتع بمرونة تكفيه لكي يتعاون مع كل سلطة دون أن يهبط الى مستوى العمالة المفضوحة ، او أن يتدنس بالأعمال القذرة التي يقوم بها العملاء من مستوى الشرطة .. من هؤلاء المرنين الشيخ « البكري » مثلاً.. وإلى حد ما «المهدي».. ولو ان المهدي كان أبرع وأكثر احتراماً لنفسهفي نفسالوقت.

أما الفئة الغالبة في ظروف المجتمعات المجردة من وسائل الدفاع الفعالة ، المحرومة من التنظيمات الدائمة ، الفئة الغالبة مضطرة بحكم مركزها ، وبحكم مسئولياتها أمام جماهيرها مضطرة الى التعامل مع السلطة . (لا أن تعمل لحساب هذه السلطة) ويحركها في ذلك عاملان :

● الاول هو استحالة مقاطعة السلطة او تجاهلها ، لأن السلطة لن تتجاهلهم . ولأن العامة ، جماهيرهم ، ستطالبهم بمراجعة السلطة ، وحماية مصالحهم وقضاء حوائجهم .

(*) وهذه واحدة من تناقضات الرافعي ، فهو هنا يسمى الديوان – بحق – مهزلة .

● والثاني هو حماية الرعية من التنكيل والابادة ومنعاً لطغيان الذين تحركهم الاحقاد في حالة وقوع المقاطعة الوطنية الشاملة للسلطة ، وحتى في البلدان المتقدمة ، نوعاً ، عن الشرق الاسلامي في القرن التاسع عشر ، يدور الجدل حول مخاطر مقاطعة التنظيمات الادارية التي يقيمها الاحتلال.. إذ لا شك ان وجود الزعماء الحقيقيين يضمن مقاومة بعض الاجراءات او حتى فضح طبيعتها ، كما يضمن بعض الحماية والتغطية لقوى الثورة التي تعمل خارج هذه المؤسسات .

هذا الفريق هو الذي وصفه الجبرتي ، أصدق وصف عندما قال : « مَن هو في القبضة مأسور » .

هذا عن المشايخ ووجوه الناس . أما الفريق الآخر فهم نفايات المجتمع ، عملاء كل سلطة حاكمة .. وعمالتهم أشد وسرورهم اكبر اذا ما كانت هذه السلطة ، أجنبية عن البلاد .

انها النماذج التي عملت مع الفرنسيين ثم مع الانجليز بعدهم. بل وقبل ذلك، وفيما بين السيدين ، عملت لحساب المماليك ثم في خدمة أي مستبد .

من هؤلاء كان « برتلمي » فرط الرمان .. و « شكر الله » والمعلم « يعقوب » .

وعن هذا الفريق يتحدث « هيرولد » فيقول : « ولكن كان هناك مهام حكومية بغيضة كره الاضطلاع بها الفرنسيون والمسلمون من الأهالي على السواء.. وهي جمع الضرائب والبوليس . كان المماليك يستخدمون الصيارفة الاقباط في جمع الضرائب قبل وصول بونابرت وكان مما يؤهل الاقباط لهذا العمل تعليمهم . وطاعتهم وخبرتهم بشؤون المال . واضطر (؟!) « بونابرت » للمضي في استخدامهم لإداء هذه المهمة ، كما كانوا يؤدونها من قبل ، وأن قدّر أن جانباً كبيراً من الأموال التي يجبونها من الفلاحين يحتجزونه لأنفسهم . فوضع نظاماً يشتمل على مراتب ودرجات من الجباة الاقباط ». « وعلى رأس

هرم هؤلاء الموظفين الاقباط كلهم ، ملتزم عام هو المعلم «جرجس الجوهري». هؤلاء الصيارفة الذين خلعت عليهم الآن (أي في عهد الحملة) صفة رسمية كانوا يسلكون مسالك الحكام على حد قول الجبرتي الذي يقول: وقيدوا بذلك الصيارف من القبط ونزلوا في البلاد مثل الحكام يحبسون ويضربون ويشددون في الطلب » (٥١) .

أما المهمة الثانية .. المهمة البوليسية فيقول «هيرولد» : « انشأ «بونابرت» فرقاً من الانكشارية مؤلفة من الترك واليونان والمغاربة وغيرهم من السفلة (...) وشذاذ القوم (...) ومن أبرز هؤلاء وألفتهم للنظر أيام الاحتلال الفرنسي ، مغامر رومي مسيحي يسمى « بارتلمي » او « برتلميو » عينه « بونابرت » « كتخدا مستحفظان » القاهرة (أي نائب المحافظ) .. وكان هذا الضابط الزاهي المظهر والمسلك يقود سرية قوامها مائة من الاروام والجزائريين والمغاربة المتوحشين . وكان فارع القامة ، لا ينسى الناظر مظهره وهو يخرج على رأس اتباعه الاوغاد في عمامة بيضاء ضخمة تظهر بشرته البرونزية ، وعيناه تلمعان ، وعلى شفتيه ابتسامة يجمد لها الدم في العروق ، وقد ارتدى ثوبه اليوناني الموشي بالقصب ، وحزاماً أحمر ، وسراويل ضخمة ، ومعطفاً تعلوه رمانتان مما يضعها الكولونيل على كتفيه. وكانت زوجته العملاقة الرهيبة تركب أحياناً الى جواره . وكان « بارتلمي » يحب العراك ، لأنه يتيح له اظهار شجاعته والتباهي بشبابه ، ولكن أحب الاشياء الى قلبه قطع الرقاب بالجملة . روى انه إذا لم يجد من البدو المتمردين من يحمل رءوسهم الى القاهرة تذكاراً كان يعزى نفسه برءوس بعض الفلاحين العاثري الحظ الذين يصادفهم في عودتهم للمدينة . وقد قدم للجنرال « ديبوي » مرة زكيبة بأكملها مملوءة برءوس البدو بينما كان هو وضيوفه يتناولون طعام الغداء ، وقد آلمه أنه نغص عليهم طعامهم. يقول مؤرخ قديم للحملة المصرية : « كان في منظره وهو يسير الى القلعة وقد جرد سيفه في يده ومن خلفه ضحاياه المكبلين ، ما يكفي لإخماد كل النوايا الشريرة في قلوب الكثيرين » (٥٢) .

وسنرى أن نظرة المؤرخ القديم هذا ، غير صحيحة، « فالنوايا الشريرة » لم تخمد في قلوب الثائرين المصريين الذين لم يرعبهم هذا المرتزق « السافل » ، بل اطلقوا ضده لسان السخرية المصرية، فسموه «فرط الرمان » هزء بالشارة العسكرية التي يضعها على كتفيه. وصورته كما سجلها مؤرخ المصريين : « قلدوا برطلمين وهو الذي تسميه العامـــة فرط الرمان كتخدا مستحفظان وركب بموكبه من بيت ساري عسكر وأمامه عـدة من طوائف الاجناد والبطالين مشاة بين يديه . وعلى رأسه حشيشة من الحرير الملون . وهو لابس فروة بز عادة وبين يديـــه الخدم بالحراب المفضضة . ورتب له بيوك باشي وقلقات عينوا لهم مراكز باخطاط البلد يجلسون بها وسكن المذكور ببيت يحيى كاشف الكبير بحارة عابدين أخذه بما فيه من فرش ومتاع وجواري .. والمذكور من أسافل نصارى الأروام العسكرية القاطنين بمصر وكان من الطبجية عند محمد بيك الألفي . وله حانوت بخط الموسكي يبيـع فيـــه القوارير الزجاج ايام البطالة » (٥٣) .

هل هناك صورة نموذجية للعملاء اكثر كمالاً من الصورة التي قدمها الجبرتي لفرط الرمان هذا ؟!

هل كان «برطلمين» تحركه دوافع قومية او عقائدية او حضارية وهو يقوم بمهمته البوليسية ضد المماليك والبدو والفلاحين والعامة المصريين ؟.. هل يحترم مؤرخ نفسه اذا ما وصف برطلمين وبقية الأسافل بأنهم رواد القومية المصرية؟!

ولماذا نفتش عن صفات ودوافع مختلفة عن صفات ودوافع « برطلمين » عندما نتحدث عن المعلم « يعقوب » وتاريخ الاثنين واحد سواء في خدمـة المماليك او خدمة السيد الجديد ؟

« برطلمين » المرتزق في الجيش العثماني ، من نصارى الاروام العسكريين.. وأثناء التبطل يبيـع القوارير الزجاج .. ثم يخدم طوبجي عند المملوك « محمد بيك الألفي » ، فلما جاء الفرنسيون تألقت مواهبه في قطع رؤوس المصريين. نفس تاريخ « يعقوب » كما سنرى .

الفصل السادس

الثورة الخالدة

ثورة القاهرة الثانية

ومعروف كيف نشبت ثورة القاهرة الثانية، على أثر نقض الانجليز اتفاقية «العريش» التي نظمت جلاء الفرنسيين عن مصر بعد عودة «نابليون» الىفرنسا وتولى «كليبر» قيادة جيش الاحتلال الفرنسي وكان يائساً من جدوى الاستمرار في مصر.. ولكن الحكومة الانجليزية رفضت اقرار الاتفاق .. ومن ثم انقض « كليبر » على الجيش العثماني ، في عين شمس ، الذي جـــاء بموجب الاتفاقية وشرع في نهب البلد .. وكما هي العادة تمزق الجيش العثماني في ساعات .. وعاد « كليبر » ليجد القاهرة مدينة يحكمها الثوار ..

وثورة القاهرة الثانية صفحة مجد مصرية .. فالجيش العثماني كان قد سحق تماماً على يد « كليبر » خلال ساعات .. فلم يستغرق خروج كليبر من القاهرة وسحقه الجيش الذي كان يقوده الصدر الأعظم في « عين شمس » (٢٠ مارس ١٨٠٠) وعودته منتصراً الى القاهرة ، اكثر من خمسة عشر ساعة . بينما قاومته « قاهرة الشعب » خمسة اسابيع كاملة ..

والجماهير التي رأت سوء سلوك الجيش العثماني وبلغتها ابناء هزيمته الفادحة والمروعة ثم ثارت واستمرت في ثورتها.. لا يمكن اتهامها او اتهام قيادتها- على

الأقل ـ بأنها كانت تثور من فرط الحنين الى الحكم «العثماني» او بوعود وإغراءات العثمانيين والأمل في نجدة جيشهم القوي !

أما القول بأن القتال كان بتحريض المماليك او قيادتهم او لحسابهم فهو لا يصل حتى الى مستوى تزوير التاريخ .. انـه افتراء مفضوح ، لأن « مراد » بيك كان قد انحاز نهائياً وعلنياً الى الفرنسيين، وقد رفض حتى مقابلة مندوب العثمانيين إلا بعـد استئذان أسياده الفرنسيين .. وكوفىء هو وزوجته (*) . وأصبح يتقاضى مرتباً ثابتاً من الخزانة الفرنسية ، ويدفـع الجزية للفرنسيس ٢٥٠٠ كيس، ويحكم باسمهم الصعيد (**) واتفق مع الفرنسيين على تبادل الحماية والدفاع المشترك ، فتعهد الجيش الفرنسي بحمايته في حالة مهاجمته وإذ احصل هجوم على المنطقة التي يحتلها الجيش الفرنسي فعـلى « مراد بيك » أن يرسل اليها قوة من جنوده توازي على الاكثر نصف قواته . ويتعهد القائد العام بأن لا يقبل أي اتفاق فيه مساس بالمزايا المخولة لمراد بك في هـــذه المعاهدة » .

هذه المعاهدة التي يقول عنها الرافعي : « وتمت مفاوضات الصلح وشروط الاتفاق وأمضيت بينما كانت مدافع الفرنسيين تمطر قنابلها على سكان العاصمة »[٢] الثائرة .. ويأتي خلف المعلم « يعقوب » ، فيتهمون القاهرة المجاهدة ، بأنهـا كانت تثور باغراء وتحريض المماليك بل وقيادتهم !..

(*) بعد الصلح مع « مراد بيك » صرفت سلطات الاحتلال لزوجته المقيمة في القاهرة «مائة الف فضة كل شهر » .

(**) بدأ « نابليون » المفاوضات مع « مراد » ، ويعلق « الرافعي » على هـــذه المفاوضات بقوله : « وهذا ينافي ما اعلنه « نابليون » في منشوراته وبياناته للمصريين من أنه إنما جاء مصر لمحاربة المماليك وشل عرشهم وأنـه لا يستريح ولا يهدأ له بال إلا اذا قضى على دولتهم ومحـاهم من الوجود . ولنا أن نستنتج من ذلك أنه كان يخاطب المصريين بلغـة والمماليك بلغة أخرى . ولعمري ان اللغتين مشتقتان من نبعة واحدة . هي نبعة الفتح ولغـة الاستعمار . تلك اللغة التي مها اختلفت أساليبها فإنها تؤدي معنى واحداً لا يتغير وهو اخضاع مصر وجعلها مطية للمطامع الاستعمارية » (١).

كانت المعاهدة هي مكافأة المحتل لمراد بك على موقفه من ثورة القاهرة الثانية ، فهو قد ساهم في العمليات التي نفذها « كليبر » لاعادة سيطرته على البلاد ، ولعب الدور الأول في تجويع العاصمة الثائرة بمصادرة اربعة آلآف رأس من الغنم كانت في طريقها الى المدينة المحاصرة ، صادرها مراد ، واهداها للفرنسيين ، بل واشترك في القتال :

« وقد بالغ مراد بك في الولاء للفرنسيين بعد هذه المعاهدة ، فلم يكد يتم التوقيع عليها حتى انفذ الى معسكر الفرنسيين الهدايا والمهمات والغلال والمؤن، وسلمهم بعض العثمانيين اللاجئين اليه ، وطرد من الصعيد ، درويش باشا الذي جعله يوسف باشا الصدر الاعظم والياً على الصعيد ، وكان قد نزل الوجه القبلي طبقاً لمعاهدة « العريش » .. فطلب « كليبر » الى مراد بك مطاردته تنفيذاً للاتفاق المبرم بينهما ، فتعقبه مراد بيك واضطره الى الانسحاب شمالاً [٣] » .

بل كان مراد بك يُستشار في الأسلوب الناجح لاخماد ثورة القاهرة ، وقد بذل جهده لتخريبها من الداخل ، عن طريق الاتصال ببعض العناصر ، ومحاولة اقناعهم بالتسليم أو الانسحاب فلما أعيته الحيل اقترح الوغد على « كليبر » ولي نعمته الجديد .. اضرام النار في القاهرة لاخماد الثورة !

ويقول « ريبو » انه ارسل فعلاً الى « كليبر » عدة مراكب محملة مواد ملتهبة لاحراق العاصمة » [٤] .

وكل الروايات الفرنسية التي جمعها « الرافعي » تؤكد أن « مراد بيك » قدم الحطب اللازم للسلطات الفرنسية لحرق القاهرة لاخماد الثورة : « ولكننا ابقينا عليها حتى نحصل منها على الغرامة الحربية التي كنا في حاجة اليها [٥].

أي افتراء وتزوير معيبين اذن ، أن يقول البعض أن ثورة القاهرة الثانية كانت: «لحساب الاتراك والمماليك وبقصد اعادة مصر إلى حظيرة الامبراطورية العثمانية ».!

وأي عذر بارد أن تبرر خيانة « يعقوب » وتكوينه الفيلق القبطي تحت إشراف وقيادة جيش الاحتلال بأنه كونه لمقاتلة المماليك !

اين هم المماليك ؟ .. لقد عمل « مراد » و « يعقوب » معاً تحت امرة الفرنسيين .. « يعقوب » يطلق النار من داخل قلعته ضد مؤخرة الثوار ، ومراد يجمع الحطب ليحرق المدينة الثائرة !

المفاوضات مع « مراد » وانحيازه للفرنسيين بدآ قبل وصول الجيش العثماني بموجب اتفاقية العريش ، وكان معروفاً موقفه من القاهرة وسجله الجبرتي بعبارته الدقيقة :

« وفي شهر ربيع ثان ١٢١٤ (سبتمبر ١٧٩٩) ثامنه أرسلوا جملة عساكر من الفرنساوية الى مراد بيك بناحية الفيوم وعليهم كبير فوقع بينهم وبينه أمور لم اتحقق تفصيلها. وترددت بينه وبين ساری عسكر الرسل والمراسلات ووقع بينه وبينهم الهدنة والمهاداة واصطلح معهم على شروط منها تقليده امارة الصعيد تحت حكمهم [٦] » .

وسلوك الجيش العثماني المنحط كان معروفاً ومنتقداً بقلم مؤرخ عصره : « وفيه (اول رجب ١٢١٤ - نوفمبر١٧٩٩) كثرت الاقوال وتواترت الاخبار بوصول الوزير الاعظم يوسف باشا الى الديار الشامية وصحبته نصوح باشا و عثمان اغا كتخدا الدولة و حسين اغا .. وباقي رجال الدولة وعسفوا في البلاد الشامية وضربوا عليها الضرائب العظيمة وجبوا الأموال ، وفعلوا مالاً خير فيه من الظلم وقتل الأنفس بسبب استخلاص الاموال [٧] ».

بل أن فلول المماليك والعثمانيين الذين فروا من « كليبر » الى داخل القاهرة .. تحولوا الى عبء على الثورة وعنصر تخاذل يسعى طيلة الوقت للتسليم والمفاوضة أو يقوم بأعمال التخريب (وبالذات العثمانيين) ولكن مساعيهم فشلت تحت ضغط الشعب المسلح الثائر ، أو « حفنة من المهيجين

الشعبيين الذين طلعوا من حيث لا يدري أحد يهددون بقتل كل من يتحدث عن التسليم [٨] » .

ولكن كانت هناك عناصر مملوكية ، كما كانت هناك عناصر غير مصرية ، كان لها من دينها وشرفها وانتمائها ، ما جعلها تقاتل ببسالة وتقف الى جانب الجماهير وعلى رأسها في مواقع خالدة ضد طغيان المحتل ونذالة العملاء من امثال « يعقوب » .. « وبرطلمين » و « شكر الله » .. والمتخاذلين كالشيخ « البكري » ..

ثورة القاهرة اذن كانت وطنية مائة في المائة، قامت على أكتاف المصريين وساهمت فيها العناصر العربية والاسلامية الموجودة بالقاهرة ، قبل ظهور التقسيمات السياسية الحالية . وكانت اول ثورة في الشرق تواجه الاستعمار الغربي بهذا الشمول والصمود الذي دام اكثر من شهر كامل !.. بينما لم تستطع باريس بعد سبعين عاماً بقيادة كوميونها أن تصمد أطول من ذلك بكثير !

شهر كامل « وقاهرتي الحبيبة » تقاتل أقوى جيوش اوروبا .. والجوع يفتك بها .. « والقتال من بيت لبيت [*] وقذف بالمدافع لا يني ليل نهار . وأصبح حي الأزبكية بقصوره وحدائقه أطلالاً..واشتعلت النيران في المدينة كلها . يقول « نقولا الترك » : « وكانت النساء والأولاد يتخبون ويجتمعون تحت العقود الحجر خوفاً من القنابر .. وكنت تسمع في الليل صريخ النساء والأولاد » .

« وفي ١٤ ابريل أمر « كليبر » بهجوم كبير على المدينة . وفي رواية « الجبرتي » ان الفرنسيين استعملوا نوعاً بدائياً من قاذفات اللهب » [٩] (أو النابالم) : « وعملوا فتائل مغمسة بالزيت والقطران ، وكعكات غليظة

(*) هذا الشعار الذي طالما رددته اجيال لم تف به .. سجله كفاح اجدادنا البواسل في ثورة القاهرة الثانية الخالدة .

ملوية على أعناقهم معمولة بالنفط والمياه المصنوعة المقطرة التي تشتعل ويقوى لهبها بالماء » . وهــذا ولا ريب اختراع من بنات افكار عضو في اللجنة العلمية » [١٠] . يقول الجبرتي: ان الفرنسيين « كانوا يلهبون السقائف وضرف الحوانيت وشبابيك الدور، ويزحفون علىهذه الصورة شيئاً فشيئاً . والمسلمون أيضــاً بذلوا جهدهم وقاتلوا بشدة همتهم وعزمهم .. وزلزلوا في ذلك اليوم والليلة زلزالاً شديداً وهاجت العــامة وصرخت النساء والصبيان ونطوا من الحيطان ، والنيران تأخذ المتوسطين بين الفئتين من كل جهة . هذا والأمطار تسح حصة من النهار وكذلك بالليل من ليلة الجمعة . كذلك الرعد والبرق » وفي وسط هذا الجحيم مضت المفاوضات بين « ناصف » باشا و « كليبر » بواسطة مراد » [١١] . ها هو الباشا التركي يفاوض ، والمملوك الذي كان يحكم مصر قبل الاحتلال ، يتوسط .. ولكن : « ما زال اكثر القاهرة في ايدي الثوار .. وركز « كليبر » جهوده ضد حي « بولاق » الذي أبى التسليم بعد أن وعد بالعفو. وقاتل الفرنسيون كالمجانين في « بولاق » فاستولوا عليه عنوة . يقول الجبرتي : « وصارت القتلى مطروحة في الطرقات والأزقة واحترقت الأبنية والدور والقصور » .

« واستولى الجنود على ما استطاعوا العثور عليه بما في ذلك عدد كبير من النساء ظلوا يعاشرونهن معاشرة الأزواج طوال سنة الاحتـــلال الباقية » [١٢] .

جيش اجنبي يقتحم عاصمة الوطن ، يقتل ويحرق ويدمر وينهب ويسبي النساء .. أين يمكن أن تكون طلائع القومية ؟.. مع المقاتلين المدافعين عن النساء والأطفال ، المتصدين لقاذفات اللهب ؟! أم « تحت قيادة المعلم يعقوب الباسلة » ؟! الذي قاوم الثورة وطعنها من ظهرها !

اذا كان مفهوماً من مؤرخ غربي أن يقول : « ولم يقاوم (الثورة) سوى درب النصارى – القبط – تحت قيادة المعلم يعقوب الباسلة » . ولو انه حتى

« هيرولد » اضطر الى الاعتذار عن موقف يعقوب بمقدمة عن السلب والنهب الذي شن على الأحياء « المسيحية » . وهو اعتذار مفتعل شديد التلفيق ، فالقاهرة لم يكن فيها ما يمكن وصفه « بالأحياء المسيحية » بمعنى « الجيتو » الذي توحيه هذه الكلمة ، ومن الجبرتي تعرف أن بيوت المشايخ كانت تجاور بيوت النصارى . وأن أعمال الانتقام قد تناولت المتعاونين مع الفرنسيين سواء من النصارى أو شيوخ الأزهر .. ومن ثم فالزعم بأن « يعقوب » : خان الثورة وضرب الثوار «لأنه كان يدافع عن ابناء «طائفته»..هو زعم واه، لأن رأس يعقوب كانت مطلباً جماهيرياً عاماً من قبل الاقباط والمسلمين، منذ ان اختار « يعقوب » معسكره في خدمة جيش الاحتلال منذ لحظة وصول هذا الجيش .. وقام بكل العمليات القذرة التي يتورع المحتل نفسه عن القيام بها كما شهد « هيرولد » . ولأن تربص «يعقوب» سابق على وقوع الثورة بزمن .. فقد حول بيته الى قلعة ووضع فيه أسلحة ، وأقام فيه عدد من الجنود الفرنسيين.. مما مكنه من القتال ضد المصريين شهراً كاملاً .. فلمن كان يستعد قبل وقوع الثورة ، وقبل وقوع حوادث النهب والاعتداء ؟!

اذا كان هذا الموقف مفهوماً من مؤرخ غربي لا يفوته أن يضرب على وتر مقطوع .. هو الطائفية . فأي عذر لمؤرخين ينتسبون لمصر عندما يجعلون من « يعقوب » هذا .. رائد القومية المصرية ؟. يعقوب الذي « كرنك» في بيته « بالرويعي » وطعن مواطنيه في ظهورهم وهم يقاتلون جيش احتلال اجنبي.. ولا يجد أمثال هؤلاء من المؤرخين ما يعتذرون به عنه إلا أنه كان يتخذ موقفاً طائفياً يدافع فيه عن « حارة النصارى » ضد ثورة « المسلمين » .. أهذه هي بداية قومية ؟. أيمكن أن يكون رائد القومية المصرية ، التي تستبعد الدين هو من قاتل حرباً طائفية ؟.. بل وصبغ ثورة القاهرة بالطائفية ... وظهر وتألق ولمع خلال طائفيته ؟.

ولكن لأن السبيل الوحيد لتبرئة ابليس هو إدانة الكون كله .. فان جماعة « يعقوب » لا بد لهم ان يدينوا ثورة القاهرة الثانية لكي تتم تبرئة

يعقوب ، وذلك ما يحاوله « لويس عوض » : فثورة القاهرة الاولى « كانت **فيما يبدو** ثورة وطنية خالصة » (فيما يبدو .. والله أعلم !) .

ويرجح هذا الظن اننا لا نسمع فيهـا : « عن أي أذى نزل بالأقباط ، وانما اقتصر اعتداء الغوغاء على « نصارى الشوام والأروام » الذين تحزبوا للفرنسيين ولا سيا بعد ما نزل بهم من تنكيل » (١٣) .

والعبارة كما ترى زئبقية ، فهل اعتدى الغوغاء على « نصارى الشوام والأروام » لأنهم تحزبوا للفرنسيين .. أم أن « نصارى الأروام والشوام » تحزبوا للفرنسيين بعدما نزل بهم من تنكيل ؟!

ولكن هذا الاعتذار عن نصارى الأروام يقصد به في الحقيقة تبرير موقف « يعقوب » والتمهيد للطعن في ثورة القاهرة الثانية . ولو انه بهذا الثنـاء « الحذر » (فيما يبدو) على ثورة القاهرة الاولى ، يدين يعقوب ، فما دامت « **على ما يبدو** » وطنية ، وما دمنا لم نسمع بوقوع أذى ... الخ .. فلماذا لم يشترك فيها « يعقوب » ؟.

ولكن لأن خيانة « يعقوب » واضحة في ثورة القاهرة الثانية ، فالحل هو ادانة ثورة القاهرة الثانية وتوجيه التهم لها فتوصف بأنها : « حرب دينية صريحة جعلت من الأقباط هدفاً لها » .. كذب وافتراء رخيص .. وينشر قبيل وبعد نكسة يونيو ١٩٦٧ .. (!!)

« وكانت من الأسباب المباشرة لتكتل الأقبـاط وإنشاء الفيلق القبطي بقيادة المعلم الجنرال يعقوب » .

والذي يقرأ هذه العبارة يظن ان « يعقوب » لم يكن له نشاط سابق على الثورة ، ولا كان له عسكر.. بل ويظن انه أنشأ هذا الفيلق لحسابه وللدفاع عن الأقباط ، وهي صورة مشوهة مزورة تمامـاً لحقيقة دور « يعقوب » ولحقيقة تكوين ودور هذا الفيلق .

فالفيلق تكوّن بعد ثورة القاهرة الثانية ـ كما سنرى ـ ومن فتيان جمعوا قهراً ورغم احتجاجات أهلهم ، وسبقه انشاء فيلق آخر من أوباش المغاربة والشوام والانكشارية ، المسلمين بالطبع .

ولكن « يعقوب » بشهادة « الجبرتي » ، التي « لا يملك أحد أن يطعن فيها » كان في خدمة الفرنسيين منذ اليوم الأول للاحتلال ، وفي ثورة القاهرة الثانية : « كرنك في داره بالدرب الواسع جهة الرويعي . واستعد استعداداً كبيراً بالسلاح والعسكر المحاربين وتحصن بقلعته التي كان شيدها بعد الواقعة الأولى »[١٤] . والجبرتي لا يلقي الكلام على عواهنه ـ بشهادة ذات لويس عوض ـ « يعقوب » بنى قلعة وزودها بالسلاح والمحاربين ، في قلب القاهرة، بعد الثورة الأولى ، التي كانت « فيما يبـدو » وطنية ! ولكنها ـ فيما يبـدو واضحاً ـ لم تنجح في اثارة وطنية « يعقوب » وحميته .. « ممـا يبدو » معه ان يعقوب لم يكن وطنياً ..!! ثورة القاهرة الأولى دفعت « يعقوب » الى بناء « قلعة » استعداداً للوقيعة الثانية .. وقد أجاد استخدامها الى حد أنها استطاعت الصمود طيلة الثورة.. أو شهراً كاملاً.. وطبعاً لم يكن « يعقوب » يبني قلعته هذه لمواجهة المحتلين لبلاده فهو كان يعمل في خدمتهم ٢٤ ساعة في اليوم .. ولا حتى لمواجهة الاتراك اذا عادوا ، فهو أول فأر حمل متـــاعه وهرب فور غرق السفينة وعودة الاتراك. بل ويشهد محاميه « لويس عوض » ان « يعقوب » لم يكن يخشى الاتراك عند عودتهم ، لأنـــه يعرف حاجتهم لخدماته .. وانه كان بوسعه العيش بأمان ، بل ومواصلة اعماله لو عاد الجيش التركي الى مصر .. اذن ضد من كان يتحصن ؟! « فيما يبدو » لا بد انه كان يتحصن ضد ابناء وطنه من المصريين ؟! فمن كان يتنبـأ قبل الواقعة الثـانية باحتمال اشتراك عثمانيين في الثورة المقبلة ؟! من كان يتخيل وقـــوع الظرف النـــادر الذي أتى ببعض العسكر العثمانية والمماليك الى القاهرة ؟! بسبب حادث تاريخي عجيب ، هو اجراء مفاوضات وعقد صلح ودخول القوات العثمانية سلمياً الى القاهرة ، ثم نقض الانجليز للصلح ، واضطرار الفرنسيين

لمقاتلة الترك داخل مصر .. لم يكن هناك من يستطيع التنبؤ بهذه التطورات العجيبة حتى يُدّعى نيابة عنه ، انه كان يستعد لمقاتلة العثمانيين والمماليك ، هذه مهمة كان يتكفل بها الجيش الفرنسي ان حرباً أو صلحاً .. أما التصرف الطبيعي ، لكل من يتعاون مع المحتلين ، فهو الاحتياط بعد ثورة المصريين الأولى (المفاجئة للجميع) خاصة وان الثورة الأولى قد انزلت قصاصها بفئات من الطفيليين الأجانب الذين يعملون دائماً في خدمة المستعمر .. فئات من اسلاف المعمرين .. كان من الطبيعي أن يستعد كل اعوان الاحتلال ، عملاء الحكم الأجنبي لمواجهة ظروف صعبة، اذا ما قام الشعب بثورة أخرى، وكان « يعقوب » الأريب ، أول من أدرك ذلك ، فبنى قلعة وجمع فيها السلاح والمقاتلين .. وصب ناره في ظهر بني وطنه . ويأتي اليوم من يصب نار حقده على ثورة القاهرة الثانية، فيصفها بأنها « حرب دينية » . و«مسرح للمذابح الدينية ومرجل للضغائن الشخصية . فاستبيح فيها كل شيء (*) » بل هي حركة مأجورة : « تدفقت فيها الأموال التركية والمملوكية بل والانجليزية ايضاً » « سلمت قيادتها لأعوان الباب العالي ولاصدقائه ولعملائه » (١٥) .

وإذا كان الحديث عن الذهب الانجليزي خسة ، فإن الحديث عن الذهب التركي اكثر فضيحة ولقد كان شر ما عاناه الثوار المصريين هو نهب وسلب وابتزاز العثمانيين لعواطفهم الوطنية والشيخ السادات يكتب لقائدهم : « والزامكم الكبير والصغير والغني والفقير اطعام عسكركم (**) » .. أليس غريباً أن ينقل مؤرخ محلل هذه الفقرة ، وقبلها بصفحة واحدة يتحدث عن الذهب التركي الذي دفع رشوة للثوار !

(*) هكذا يصف لويس عوض: الثورة والثائرين!

(**) من كتاب « لويس عوض » نفسه .

نعم لا بد من تشويه صفحة الثورة المصرية لكي تنجو صفحة « يعقوب » الذي كرنك !

والجبرتي كممثل للنخبة ، لا يتقبل الثورات بنفس راضية ، ولكنه مع الجهاد ضد الفرنسيين .. وهو ضد سيطرة العامة، ضد « الفتنة » وبالأكثر ضد إثارتها والعجز عنها !..

وثورة القاهرة أحاطت بها ظروف عديدة يجب وضعها في الاعتبار عند الحديث عن الأفعال غير « النبيلة » التي وقعت أثناء الثورة :

١ ـ مدينة شرقية في نهاية القرن الثامن عشر محاصرة جائعة يهاجمها أقوى جيش في العالم ، وقتها ، وبأحدث أسلحة العصر ، وتدك بيتاً بيتاً ، وتحيط بها النيران ومناخ عاصف ممطر نادر الحدوث في مصر .

٢ ـ وجود عناصر عديدة غريبة من العثمانيين والعرب ، نقلت هذه العناصر أسلوبها في القتال ، سواء انحلال وتعفن الجند العثماني (قل أن وجد بينهم اتراك خلص فهؤلاء كانوا متفرغين لجهاد بطولي باسل ضد الزحف الروسي) أو تأثيرات الصدام الصليبي والتعصب المتبادل بين المغاربة وأوروبا .

٣ ـ انفعال الجماهير ، بالأحقاد التي نجح الاستعمار في تأجيجها خلال فترة حكمه ومن خلال الأسلوب الذي اعتمد عليه في تخير الأعوان ومحاولة تمزيق وحدة الأمة (سنعترض لذلك في فصل تمزيق الوحدة الوطنية) . وقد رأينا ان الثورة الأولى لم توجه ضرباتها إلا للعملاء الشوام والاروام .. لأن الاستعمار عند بداية عهده لم يجد إلا هذا الصنف على استعداد للتعاون . ولذلك كانوا يشكلون معظم جهازه ، بينما كان « يعقوب » في ركاب ديزيه بالصعيد ، لم يبدأ جولاته بعد في القاهرة (ويعقوب رافق ديزيه في حملته التي انطلقت يوم ٢٦/٢٥ أغسطس ١٧٩٨ .. أي بعد وصول نابليون الى القاهرة بشهر (٢٤ يوليو ١٧٩٨) مما يؤكد ان الأمر لم يكن فيه أي اختيار عقائدي !

فلم تكن قد أتيحت الفرصة للمعلم « يعقوب » جابي « محمد بك الالفي » ليتعرف على مبادىء الثورة الفرنسية) . لذلك لم تمتد يد الجماهير بسوء الى مواطن غير مسلم .. ذلك لأن الوحدة المصرية التاريخية والأصيلة كانت سليمة لم تنجح مؤامرات الاستعمار في خدشها ، وقد أدرك الاستعمار ذلك ، فحاول - كما سنرى - تمزيق هذه الوحدة باثارة النعرات الطائفية واستخدم «يعقوب» وأمثاله في اغراء عدد من الأقباط بل وحتى عدد من المسلمين تنصروا ، لنيل الحظوة عند المستعمر .. كان من الطبيعي أن تمتد يد القصاص لهؤلاء وأن يسجل المؤرخ وقوع « اعتداء » أو قصاص على بعض هؤلاء . ولكن ليس أبداً كمظهر من مظاهر حرب دينية . فضلاً عن أن تصور كحرب يشنها المسلمون ضد المسيحيين !..

٤ - انه في المرحلة الأخيرة من الثورة أصبحت الأمور تحت السيطرة الكاملة لجماهير الشارع .. بل حتى التنظيم الذي قاد الثورة وأعد لها فترة طويلة ، والذي كان بقيادة عناصر شعبية مرتبطة وموجهة من القيادات التقليدية وبالذات السيد « السادات » .. يبدو انه حتى هذا التنظيم ، اما ان الشارع تخطاه ، أو جرفه في تياره ، وليست هذه ادانة أو اعتذار ، بل تقرير لتطور طبيعي يفرضه استمرار الثورة ومرارة القتـــال الذي دار في الأيام الأخيرة . وهو أمر معروف في سائر الثورات من هذا النوع .

على ضوء هذه العوامل يمكن أن نفهم « التصرفات العنيفة » التي يركز خصوم الثورة الاضواء عليها. فجماهير ثورة القاهرة لم ترتكب من اعمال العنف والغوغائية ، ما ارتكبته جماهير باريس ، ومع ذلـــك فما من مؤرخ أدان الثورة الفرنسية ، بسبب هذه الغوغائية ، والذين أدانوها ، لم يدينوها لهذا السبب .. بل لأسباب في جوهر الثورة ذاتها .

والمدرسة الاستعمارية تعرف ان التشبث بهذه الحوادث التي استنكرها حتى الجبرتي والرافعي ، لا يفيد من تبرئة ساحة الذين قاتلوا مع الفرنسيين .. بل

لا بد من نسف القاعدة الوطنية التي تقوم عليها الثورة ، القاعدة التي تبرر الثورة وتبرر كل قصور فيها .. فاذا ما نسفت هذه القاعدة وقلب العالم رأساً على عقب .. أصبح الثوار خونة .. والخونة ثواراً .

و « لويس عوض » لم يبخل بجهد لتشويه ثورة القاهرة ، وتطاول على كفاح شعبنا وتاريخ أمتنا ، وحاول عبثاً إراقة بعض قطرات من سخام الحقد والعار على أشرف صفحات التاريخ المصري .. وهو يطلق اكذوبة أكبر من التاريخ ذاته ! بأمل انه خلف دخان هذه الاكذوبة ، يمكن إخفاء عار « يعقوب » الذي « كرنك » . بل حتى « برطمين حب الرمـــان » .. بل ويمكن أن يصبحا بطلين !

وهذه الأكذوبة هي نفي صفة الاحتلال عن الجيش المقتحم للقـاهرة ، الضارب للثورة ، بل هو جيش تحرير جاء يحررنا من الترك ، ومن المفـاهيم « القروسطية » ، ومن الانتماء الديني ، ويعلمنا ان الدين لله والوطن للجميع (الاروام والفرنسيين والمالطيين ، و « مراد » الذي تحالف وحكم الصعيد ، والسلطان الذي علينا أن نعلق بنديرته... ولا بأس من الشعب المصري ايضاً الذي يدفع لكل هؤلاء) . والدليل على العلمانية ، التي طفحت في مصر بفضل الحملة الفرنسية ، هو ان « يعقوب ابن حنا » يكرنك في حارة « النصارى » ويشكل فيلقـــاً يسميه الفيلق **القبطي** لصدّ الاعتداءات الطائفية ! ويكتب نابليون الى قائده : « ان **النصارى** معنا مهما فعلنا فلا تسرف في تدليلهم » !

وفي ظل هذه الاكذوبة ، اذا ما صُدقت ، يمكن أن يصبح يعقوب بطلاً وقائداً تحررياً .. بل ويصبح أبطال « بولاق » ، امـا « رجعيين » يقاتلون ضد مصلحة أمتهم ، وضد إرادة التاريخ .. بهدف البقاء في ظل الاستعمار التركي .. أو مأجورين صرحـاء فتحوا صدورهم للرصاص ومنازلهم للحرق والتدمير ، وعرضوا أولادهم ونساءهم لقاذفات اللهب (نابالم العصر) وقنابر

المدافع من أجل: « الذهب التركي والمملوكي والانجليزي الذي جرى أنهاراً»(*) في مدينة لم تكن تجد في الأيام الأخيرة لقمة خبز ولو بملء الدنيا ذهباً! واستمرت رغم ذلك ترفض التسليم.. فاذا لم يكن «حب الذهب» فهو التعصب الديني .. ويتحسر - لويس - على تطرف الثوار الذي ما كان لحساب مصر!

« ولو ان كل هذا التطرف والغلو كان لحساب مصر ومن أجل استقلالها لاختلف الأمر ولبدا الرؤساء المصريون في موقف الانهزاميين المهادنين حقاً للاستعمار الفرنسي، ولكنه كان لحساب الأتراك والمماليك وبقصد إعادة مصر الى حظيرة الامبراطورية العثمانية »[١٦].

هذا الافتراء، أعتقد اننا فهمنا دوافعه. ولكن لنستمع للجبرتي الذي وضحنا موقفه من « الثورات » عموماً، ومن سيطرة الغوغاء بصفة خاصة، ولكنه كمصري وطني .. ومؤرخ أمين صادق يمكن الاعتماد عليه، وهو اذا كان يفتقر للمعلومات السرية التي أحاط بها الفرنسيون، إلا أنه كان واعياً بمواقف كل القوى. وسجل للثورة ما لها وما عليها بروح الوطني المتعاطف المنتقد .. ولنرَ هل يمكن وصفه بأنه كان في الجانب المضاد ؟!

قال الجبرتي :

« وأما « مراد » بيك فانه بمجرد ما عاين هجوم الفرنسيس على الباشا والأمراء بالمطرية وكان هو بناحية الجبل ركب من ساعته هو ومن معه ومروا من سفح الجبل وذهب الى ناحية دير الطين ينتظر ما يحصل من الأمور وأقام مطمئناً على نفسه واعتزل الفريقين واستمر على صلحه مع الفرنساوية »[١٧] بل وأرسل « مراد » يغري المماليك الشرفاء الذين وقفوا الى جانب الجماهير فكتب لهم « ان الفرنساوية اذا ظفروا بالعثمانية لا يقتلونهم ولا يضربونهم وأنتم كذلك معهم. فاقبلوا نُصحي واطلبوا الصلح معهم واخرجوا سالمين.

(*) لويس عوض.

فلما بلغهم تلك الرسالة حنق حسن بك الجداوي وعثمان بيك الأشقر وغيرهم وسفهوا رأيه » . ونجح « مراد » كما يسجل الجبرتي في افساد الوفد الذي ذهب اليه : « فلما اجتمع به ورجع لم يرجع على ما كان عليه حال ذهابه وفترت همته وجنح لرأي مراد بيك » .

ورغم موقف « مراد » والمماليك هذا استمر المصريون في القتال لاعادة البلد الى « مراد » بيك — رغم انفه — !

نعود للجبرتي :

« واستمر الحال على ما هو عليه من اشتعال نيران الحرب وشدة البلاء والكرب ووقوع البنبات على الدور والمساكن من القلاع والهدم والحرق وصراخ النساء من البيوت والصغار من الخوف والجزع والهلع مع القحط وفقد المآكل والمشارب وغلق الحوانيت والطوابين والمخابز ووقف حال الناس من البيع والشراء وتفليس الناس وعدم وجدان ما ينفقونه إن وجدوا شيئاً . (رغم الذهب الانجليزي والتركي !) واستمر ضرب المدافع والقنابر والبنادق والنيران ليلاً ونهاراً حتى كان الناس لا يهنأ لهم نوم ولا راحة ولا جلوس لحظة لطيفة من الزمن . ومقامهم دائماً أبداً بالأزقة والأسواق وكأنما على رؤوس الجميع الطير . وأما النساء والصبيان فمقامهم بأسفل الحواصل والعقودات تحت طباق الأبنية الى غير ذلك . (وفي أثناء ذلك) فرضوا على الناس من أهل الأسواق وغيرهم مائة كيس فرّدوها على بعض الناس كالسادات والصاوي . وصار مؤنة غالب الناس الأرز ويطبخونه بالعسل واللبن ويبيعون ذلك في طشوت وأوان بالأسواق . وفي كل ساعة تهجم العساكر الفرنساوية على جهة من الجهات ويحاربون الذين بها ويملكون منهم بعض المتاريس فيصيحون على بعضهم بالمناداة ويتسامع الناس ويصرخون على بعضهم البعض ويقولون عليكم بالجهة الفلانية ، الحقوا اخوانكم المسلمين ،

فيرمحون الى تلك الخطة والمتاريس حتى يجلوهم عنها وينتقلون الى غيرها فيفعلون كذلك » .

« ويبدو ان « حسن بك الجداوي » الذي تمتع حقاً بسبعة أرواح ، ونجا من أهوال لا يمكن أن ينجو منها مملوك كأن الله سبحانه وتعالى كان يدخره لكي يكفر عن كل سيئات المماليك بما بذله في هذه الثورة من جهد .. فكان : « عندما يبلغه زحف الفرنساوية على جهة من الجهات يبادر هو ومن معه للذهاب لنصرة تلك الجهة ، **ورأى الناس من اقدامه وشجاعته ، وصبره على مجالدة العدو ليلاً ونهاراً ما ينبىء عن فضيلة نفس وقوة قلب وسمو همة . وقل ان وقع حرب في جهة من الجهات الا وهو مدير رحاها ورئيس كاتها** [١٨] » .

هل يمكن الشك بعد هذه العبارات في موقف الجبرتي .. والى أي جانب ينحاز بعقله وعواطفه ووطنيته .

« وكذلك المشايخ والفقهاء والسيد أحمد المحروقي والسيد عمر النقيب » يمرون كل وقت ويأمرون الناس بالقتال (*) ويحرضونهم على الجهاد وكذلك بعض العثمانية يطوفون مع اتباع الشرطة وينادون باللغة التركية مثل ذلك » .

والجبرتي لا يفوته أن يستنكر سيطرة الدهمـــاء – وهذه الظاهرة كما اشرنا – كانت النتيجة المحتومة ، فكلما طال القتال الشعبي ، ضعفت قبضة القيادات التقليدية ، وزادت سيطرة الجماهير وقطاعاتها الأشد تطرفاً بالذات – خاصة إذا كانت قطاعات واسعة في القيادة ترغب في النجاة بنفسها والتسليم .

« وجرى على الناس ما لا يسطر في كتاب ولم يكن لأحد في حساب ولا

(*) لويس عوض يقول انه لا يحس من الجبرتي ان المحروقي وعمر مكرم كانا يلعبان دوراً قيادياً حاسماً في هذه الثورة .

يمكن الوقوف على كلياته فضلاً عن جزئياته منها عدم النوم ليلاً ونهاراً وعدم الطمأنينة وغلو الاقوات وفقد الكثير منها خصوصاً الادهان وتوقع الهلاك في كل لحظة والتكليف بما لا يطاق ومغالبة الجهلاء على العقلاء . وتطاول السفهاء على الرؤساء وتهور العامة ولغط الحرافيش . وغير ذلك مما لا يمكن حصره » .

وبعد المساعي التي قام بها رسل « مراد » بيك وافق المشايخ الكبار على مشروع صلح ولكن العامة رفضته « فلما رجع المشايخ بهذا الكلام وسمعه الانكشارية والناس قاموا عليه وسبوهم وشتموهم وضربوا الشرقاوي والسرسي ورموا عمائمهم واسمعوهم قبيح الكلام وصاروا يقولون هؤلاء المشايخ ارتدوا وعملوا فرنسيس ومرادهم خذلان المسلمين. وانهم أخذوا دراهم من الفرنسيس. وتكلم السفلة والغوغاء من أمثال هذا الفضول وتشدد في ذلك الرجل المغربي الملتف عليه اخلاط العالم ونادى من عند نفسه الصلح منقوض وعليكم بالجهاد ومن تأخر عنه ضرب عنقه » .

ثم يحمل الجبرتي حملة شعواء على هـــذا « المغربي » الذي فرض ارهابه ، ويبدو انه لم يكن يفكر كثيراً في مقاتـــلة الفرنسيس قدر اهتمامه بالظهور والحصول على أطايب الطعام وإرهاق القاهريين والبولاقيين المتحمسين لكل من يقاتل المحتل أو حتى يصرخ بقتال المحتل .

بل ان نقد « الجبرتي » لهذا المغربي الدجال ، هو أقوى حجة ضد الذين يحاولون تشويه موقف الجبرتي من الثورة ، فالجبرتي في نقده للمغربي يرتفع الى الذروة من الموضوعية ، فهو ضده ، لا لأنـــه في الثورة ، بل لأنه ليس في الثورة ولا مع الثائرين ، بل مضلل يتجر بالثورة ، جبان يتهرب من القتال.. اسمع كلمات الجبرتي :

« فيكلف أهل تلك الجهة أنواع المشقات والتكلفات بتعنته في هذه الشدة بطلب أفحش المأكولات وما هو مفقود . ثم هو مع ذلك لا يغني شيئاً إذا

دهم العدو تلك الجهة التي هو فيها فارقها وانتقل لغيرها وهكذا كان ديدنه وسبحه ... وهكذا الفتن تكثر فيها الدجاجلة ولو ان نيته محضة لخصوص الجهاد لكانت شواهد علانيته أظهر من نار على علـم أو اقتحم كغيره ممن سمعنا من المخلصين في الجهـاد وفي بيـع أنفسهم في مرضاة رب العباد لظـا الهيجاء . ولم يتعنت على الفقراء ولم يجعل همتـه في السلب مصروفة وحال سلوكه عند الناس ليست معروفة » .

هذه هي الصورة التي قدمها الجبرتي ، لا التي زورها « لويس عوض » . فالجبرتي مع « المجاهدين » ، « المخلصين » الذين « اقتحموا في الجهاد » ... وهو ضد الانتهازيين الدجالين بالطبع .

ويدهش الجبرتي ويألم في نفس الوقت من تصدي هذا الرجل لتقرير رفض الصلح أو قبوله « فما قدر هذا الأهوج حتى ينقض صلحاً أو يبرمه . وأي شيء يكون هو حتى ينـادي أو ينصب نفسه بدون أن ينصبه أحد لذلك . لكنها الفتن يستنسر بهـا البغاث سيما عند هيجان العامـة وثوران الرعاع والغوغاء » .

ونلاحظ ان الجبرتي لا يعترض على رفض الصلح ولكن يعترض على « انقلاب المطبوع » بمعنى تصدي هذا المغربي الذي فرضته الأحداث ، لتقرير مثل هذه الأمور ، متخطياً القيادات الشرعية التقليدية ..

وتبلغ دقة الجبرتي الذروة عندما يفسر احتجاجه :

« على ان المشايخ لم يأمروا بشيء ولم يذكروا صلحاً ولا غيره وإنما بلغوا صورة المجلس الذي طلبوا لأجله لحضرة الكتخدا فبمجرد ذلك قامت عليهم العامة هذا المقام . وسبوهم وشتموهم بل وضربوهم وبعضهم رموا بعمامته الى الأرض . واسمعوهم قبيح الكلام . وفعلوا معهم ما فعلوا وصاروا يقولون لولا أن الكفرة الملاعين تبين لهم الغلب والعجز ما طلبوا المصالحة والموادعة . وان بارودهم وذخيرتهم فرغت » .

وما كان الجبرتي بالذي يقبل انهيار قيادة الشيوخ، ورغم ظروف الموقف، ورغم ميولنا اليوم مع العامة ، فقد كان « الجبرتي » على حق ، ففي هـذه المرحلة بالذات كان الخطر الاكبر على مستقبل الأمة هو انهيار قيادة المشايخ ، سواء تم ذلك بضربات نابليون من أعلى بإعدام الشيوخ وضم عناصر غريبة مريبة الى التشكيلات التي تضم الشيوخ .. أو جـاء هذا الانهيار من أسفل بفقدان العـامة ثقتهم في الشيوخ .. كان مستقبل مصر يرتبط الى حد كبير بتدعيم وتطور ارتباط العـامة بالشيوخ . لكن المهم في عرض « الجبرتي » ، انه ينفي كل ادعاء يحاول أن يصف ثورة القاهرة بأنها فتنة طائفية أو حرب دينية ضد الأقليات غير الاسلامية .. بل توضح عبارات الجبرتي ، انها حركة رفض جارفة كانت تحرق كل من يقف قريباً من معسكر الأعداء ، أو حتى يشتبه في وقوفه أو رغبته في الوقوف الى جانب هذا المعسكر ، أو يعترض مسيرة الثورة ، أو حتى يحاول أن ينجو بجلده !

وعلى أية حـــال فإن شهادة الجبرتي التي التزم الجميع بقبولها تنسب الى « نصوح باشا » أنه هو الذي قال: « للعامة اقتلوا النصارى وجاهدوا فيهم . فعندما سمعوا منه ذلك القول ، صاحوا وهاجوا ورفعوا اصواتهم ومرّوا مسرعين يقتلون من يصادفونه من نصارى القبط والشوام وغيرهم فذهبت طائفة الى حارات النصارى وبيوتهم التي بناحية بين الصورين وباب الشعرية وجهة الموسكي فصاروا يكبسون الدور ويقتلون من يصادفونه من الرجـال والنساء والصبيان وينهبون ويأسرون حتى اتصل ذلك بالمسلمين المجاورين لهم » . وهو أيضاً يشهد بأن النصارى: «كانوا قبل ذلك محترسين وعندهم الاسلحة والبارود والمقاتلون لظنهم وقوع هذا الامر » . فهذا الاعتداء تحكمه هذه العوامل :

١ ــ انه لم يكن هدفاً للثورة ، فكما لا يجوز القول أن معارك القناة سنة ١٩٥١ كانت تهـدف الى حرق القاهرة !.. كذلك لا يجوز القول ان ثورة القاهرة الثانية كانت تستهدف الاعتداء على الاقليات !

٢ ـ ان الاعتداءات كانت منطلقة من دافع قومي، هو اتهام ـ مهما تكن صحته ـ هــذه العناصر بموالاة المستعمر والعمل لحسابه ، فليس للعدوان في هذه الحالة صبغة طائفية أو دينية ، تماماً كما حدث في معظم البلاد العربية خلال العدوان الاسرائيلي المتكرر حدث أن انعكس العدوان الاسرائيلي في انفعالات ، ضد اليهود المحليين ، تختلف درجات التعبير عنها من بلد لبلد ، باعتبار ظروف اليهود في هذا البلد . ولكن هذه الاعتداءات لا تنطلق من نزعة عداء السامية، بل من نزعة عداء المعتدي الصهيوني، فهي حتى لو أُدينت في حد ذاتها ، إلا أن هذه الادانة لا يجوز ان تمتد لادانة الموقف العــام من أساسه .. وإن كانت نفس المحاولة « الارهابية » ما زالت تستخدم ضدنا ، فإسرائيل أو الصهيونية، تحاول شل يد المقاومين للعدوان الصهيوني بالتخويف بتهمة التعصب ضـــد اليهود ، أو عداء السامية !.. كذلك كان الاستعمار الغربي ، يلعب دائماً على تهمة « التعصب الاسلامي » لتخويف كل معارضة وطنية لوجوده .

ويؤكد تفسيرنا ان الاعتداءات شملت المسلمين، وحتى المشايخ، والأشراف.. لأن الدافع الاساسي كان دافعاً وطنياً ، ومن ثم امتد العنف للجميع ، لكل الذين ظنت الجماهير أن هواهم مع المحتل .

٣ ـ ان الانطلاق لمهاجمة بيوت غير المسلمين كان توجيهاً من خارج الثورة، وعارضاً .. ولكن ذلك لا ينفي ان الجماهير كانت مهيأة نفسياً له ، وذلك بفعل مــا أشرنا اليه من سياسة المحتل الفرنسي في إثارة الأحقاد والنعرات الطائفية ، ونجاح العناصر العميلة من أمثال « يعقوب » في استفزاز الجماهير ، والايحاء لها بأن غير المسلم له مكانة خاصة عند المستعمر ، وأن غير المسلمين ، لا يعادون هذا المستعمر ، وهو ما سنشرحه .

المهم أن سلوك المصريين في مجموعه كان سلوك مقاومين شرفاء ، وكانت مواقف المماليك الذين انضموا للثوار، تتسم أيضاً بالانضباط وسلوك المقاتلين .

بينما اندفعت عناصر غير مصرية ترتكب الجرائم تحت حماية الثورة، تماماً كما كانت عناصر غير مصرية ترتكب الجرائم تحت حماية الاحتلال . فكان ذلك المغربي الذي « التفّت عليه طائفة من المغاربة البلدية وجماعة من الحجازية ممن كان قدم صحبة الجيلاني الذي تقدم ذكره وفعل ذلك الرجل المغربي أموراً تنكر عليه لأن غالب ما وقع من النهب وقتل من لا يجوز قتله يكون صدوره عنه فكان يتجسس على البيوت التي بها الفرنسيس والنصارى فيكبس عليهم ومعه جمع من العوام والعسكر فيقتلون من يجدونه منهم وينهبون الدار ويسحبون النساء ويسلبون ما عليهن من الحلي والثياب.. وتتبع الناس عورات بعضهم البعض وما دعتهم اليه حظوظ أنفسهم وحقدهم وضغائنهم » .

ومهما تكن شخصية هذا المغربي، ومهما تكن حقيقة جنسيته ، فهذه فترة عجيبة حافلة بالعناصر المندسة . ومعظم جواسيس فرنسا في هذه الفترة كانت العامة تسميهم « مغاربة » .. على أية حال ، الثابت انه لم يكن مصرياً . والثابت ايضاً انه قد استحال فرض الطابع الطائفي تماماً على حركة الجماهير ، حتى عندما وصل الانفعال ذروته فالجبرتي يتابع: «واتهم الشيخ خليل البكري بأنه يوالي الفرنسيس ويرسل اليهم الأطعمة . فهجم عليه طائفة من العسكر مع بعض أوباش العامة . ونهبوا داره وسحبوه مع أولاده وحريمه وأحضروه الى الجمالية وهو ماشي على أقدامه ورأسه مكشوفة وحصلت له أهانة بالغة وسمع من العامة كلاماً مؤلماً وشتماً » (١٩) ... أمـا المجرى الرئيسي للثورة فقد ظلّ سليماً ، وطنياً ، مضحياً ، مجاهداً .. وكما أدان الجبرتي التطورات التي لم يقبلها من حركة الغوغاء ، وخاصة انطلاق الغرائز ، والانتقام بالفعل الخاطىء من السلوك الخاطىء ، نراه كمؤرخ صادق منصف ، يشيد بالجانب المشرق من حركة المقاومة ، أو قل جوهرها السليم النبيل : « وصار جميع أهل مصر إما بالأزقة ليلاً ونهاراً وهو من لا يمكنه القتال . وإما بالأطراف

وراء المتاريس وهو من عنده أقدام وتمكن من الحرب . ولم ينم احـد ببيته سوى الضعيف والجبان والخائف » .

وكأن الجبرتي كان يعيش محنتنا .. وكأنه يرد على من يتهم اجداده بالرشوة ، والكفاح بأجر ! مؤرخنـا يفند تهمة الذهب الانجليزي ، الذي لم يخطر ببال معاصر « للجبرتي » أن يدعيها .. فيقول الجبرتي دون قصد إلا إثبات حقائق التاريخ : « وباشر السيد احمد المحروقي وباقي التجـار ومساتير الناس الكلف والنفقات والمآكل والمشارب وكذلك جميع أهل مصر كل انسان سمح بنفسه وبجميع ما يملكه وأعان بعضهم بعضاً . وفعلوا ما في وسعهم وطاقتهم من المعونة » .

وهي صورة مناقضة تماماً لصورة الآخرين المندفعين لأعمال النهب والسلب. ولكنها هي الجوهر الحقيقي للثورة . أما الذين يريدون صورة نقية تمامـاً « فلن يعيشوا حتى يرونها » . وفي كل الحركات التي تعتمد على غضبة العامة، لا بد أن تشوبها عمليات من هذا النوع ، ولكنها لا تفسد جوهر الحركة . ولا يجوز أن ندين الجوهر بالعرض .

ولا شك انـه في ظروف عاصمة شرقية في مطلع القرن التاسع عشر . وبعد سنتين من احتلال اجنبي مزّق قيماً كثيرة، وخلق إحناً لم تكن موجودة، وأثار أحقاداً وثارات . وفتح الباب أمـام عناصر غريبة عديدة ، وعناصر مشبوهة الولاء ، مريبة التحركات . ومع وجود قوات غير مصرية، اشتهرت بانحطاطها ، يصعب تصور ثورة نظيفة مائة بالمـائة .. سديدة الخطوات حكيمة الانفعالات .. فلنعد إذن لثورتنا دون أن ترهبنا محاولات التشويش عليها : « أما الفرنساوية فانهم تحصنوا بالقلاع المحيطة بالبلد وببيت الألفي وما ولاه من البيوت الخاصة بهم وبيوت القبطية المجاورين لهم » [٢٠] .

أمـا القوات الرئيسية للمماليك والعثمانيين فهذه هي الصورة التي يقدمها المؤرخ الذي « يجب ان تقبل شهادته بدون تحفظ » فبعد هزيمة الوزير العثماني

أمام « كليبر » ، وفراره بمن بقي من جيشه . تخلف عنه ببلبيس جملة من العسكر. وأما عثمان بيك وحسن وسليم بيك أبو دياب ومن معهما فانهما تقاتلا مع الفرنساوية . ثم رجعا الى بلبيس فحاصروا من بهـا . وكان عثمان بيك وسليم بيك وعلي باشا الطرابلسي وبعض وجاقليه خرجوا منهـا وذهبوا الى ناحية العرضي فحارب الفرنساوية من ببلبيس من العسكر ولم يكن لهم بهم طاقة فطلبوا الأمان (العسكر) وأخذوا سلاحهم فأخرجوهم حيث شاءوا .. فذهبوا شتاتاً في الأرياف يتكففون الناس ويأوون الى المساجد الخربة ومات أكثرهم من العرى والجوع » .

هذا جيش العثماني !

« ثم لما لحق عثمان بيك ومن معه بالعرضي ناحية الصالحية تكلموا مع الوزير وأوجعوه بالكلام . فاعتذر اليهم بأعذار منهـا عدم الاستعداد للحرب . وتركه معظم الجبخانة والمدافع الكبار بالعريش اتكالاً على أمر الصلح الواقع بين الفريقين وظنه غفلة الفرنساوية عما دبره عليهم مع الانكليز فقـال له عثمان بيك أرسل معنا العسكر وانتظرنا هنا فخاطب العسكر وبذل لهم الرغائب فامتنعوا ولم يمتثل منهم إلا المطيع والمتطوع وهم نحو الألف وعادوا على أثرهم وجمعوا منهم من كان مشتتاً ومنتشراً في البلاد ورجعوا يريدون محاربة الفرنساوية فنزلوا بوهدة بالقرب من القرين لكونهم نظروه في قلة من عسكره وعلمهم بقرب من ذكر منهم فضاربوهم بالنبابيت والحجارة وأصيب سرج ساری عسكر بنبوت فانكسر وسقط ترجمـانه الى الأرض وتسامع المسلمون فركبوا لنجدتهم واستصرخ الفرنساوية عساكرهم فلحقوا بهم ووقع الحرب بين الفريقين حتى حال بينهما الليل فانكف الفريقان وانحاز كل فريق ناحية فلما دخل الليل واشتد الظلام أحاط العسكر الفرنساوي بعساكر المسلمين فأصبح المسلمون وقد رأوا احاطة العسكر بهم من كل جانب فركبت الخيالة وتبعتهم المشاة ، واخترقوا تلك الدائرة وسلم منهم من سلم وعطب من

عطب ورجعوا على أثرهم الى الصالحية فعند ذلك ارتحل الوزير ورجع الى الشام . أما مراد بيك فإنه بمجرد ما عاين هجوم الفرنسيين على الباشا والأمراء بالمطرية . وكان هو بناحية الجبل ركب من ساعته هو ومن معه ومروا من سفح الجبل وذهب الى ناحية دير الطين ينتظر ما يحصل من الأمور وأقام مطمئناً على نفسه واعتزل الفريقين واستمر على صلحه مع الفرنساوية هذا حاصل خبر الشرقيين » (٢١) .

أما في القاهرة ، فكان مركز الثورة في بولاق فإن حي الأزهر ، على ما يبدو ، لم يكن قد أفاق تماماً من الضربة الوحشية التي أنزلها به نابليون. ومن ثم تولت « بولاق » عبء الجولة الثانية . « والحرب سجال » كما تنبأ الجبرتي في صلح الجولة الاولى .

« وأما بولاق فانها قامت على ساق واحد وتحزم الحاج «مصطفى البشتيلي» وأمثاله وهيجوا العامة وهيئوا عصيهم وأسلحتهم ورمحوا وصفحوا وأول ما بدؤا به انهم ذهبوا الى وطاق الفرنسيس الذي تركوه بساحل البحر وعنده حرسيه منهم . فقتلوا من أدركوه منهم . ونهبوا جميع ما فيه من ضياع ومتاع وغيره ورجعوا الى البلد وفتحوا مخازن الغلال والودائع التي للفرنساوية. وأخذوا ما أحبوا منها وعملوا كرانك حوالي البلد ومتاريس واستعدوا للحرب والجهاد وقوى في رأسهم العناد . واستطالوا على من كان ساكناً ببولاق من نصارى القبط والشوام فأوقعوا بهم بعض النهب وربما قتل منهم أشخاص» .

« والبشتيلي » بالذات كان يعدّ للثورة منذ زمن بعيد، فقد قبض عليه على أثر معلومات .. ووجدوا عنده بارود كان يختزنه : « الحاج مصطفى البشتيلي الزيات من أعيان أهالي بولاق» قبضوا عليه في ٢ ربيع أول ١٢١٤ (أغسطس ١٧٩٩) « والسبب في ذلك انجماعة من جيرانه وشوا عنه بأن بداخل بعض حواصله الذي في وكالته عدة قدور مملوءة بالبارود فكبسوا على الحواصل فوجدوا بها ذلك كما أخبر الواشي » (٢٢) .

وبعكس ما يفتري كاتب المدرسة الاستعمارية فإن المصريين هم الذين انفقوا على العسكر : « وتكفل التجار ومساتير الناس والأعيان بكلف العساكر المقيمين بالمتاريس المجاورة لهم فالزموا الشيخ السادات بكلفة الذي عند قناطر السباع وهم مصطفى بيك ومن معه من العساكر وأما اكابر القبط مثل جرجس الجوهري وفلتيوس وملطي فإنهم طلبوا الأمان من المتكلمين من المسلمين لكونهم انحصروا في دورهم وهم في وسطهم وخافوا على نهب دورهم إذا خرجوا فارين فأرسلوا اليهم الأمان فحضروا وقابلوا الباشا والكتخدا والأمراء وأعانوهم بالمال واللوازم » .

هذا عن أكابر القبط .. « وأما يعقوب فإنه كرنك في داره بالدرب الواسع جهة الرويعي واستعد استعداداً كبيراً بالسلاح والعسكر المحاربين وتحصن بقلعته التي كان شيدها بعد الواقعة الاولى » (٢٣) .

ومن كلام الجبرتي يفهم أن أكابر القبط كانوا يسكنون وسط بيوت المسلمين ، وأن موقفهم — بصرف النظر عن تحليل الجبرتي للنوايا فهذه قضايا لا يعرفها إلا الله ، ولا يدان أحد بها ما دام الفعل جيداً — كان يختلف عن موقف «يعقوب» ، فهم جاءوا وأعانوا — كما فعل أغنياء أو أكابر المسلمين — بالمال واللوازم .. ولم تمتد لهم يد بسوء .. بعكس «يعقوب» الذي « كرنك» (تحصن) منذ البداية ومنذ الواقعة الأولى .

« بعد ثمانية أيام من ابتداء الحركة أتم الفرنسيون حصار القاهرة وبولاق » .

« وقطعوا الجالب عن البلدين وأحاطوا بها احاطة السوار بالمعصم » .

« فكانت جماعة من المفوضين لهم المحصورين داخل المدينة كبعض القبطة ونصارى الشوام وغيرهم يهربون اليهم ويتسلقون من الأسوار والحيطان بحريمهم وأولادهم » (٢٤) .

واعتقل الثوار مصطفى آغا مستحفظان (المحافظ) وأجريت له محاكمة

ثورية وأعـدم وهو الذي أثار حتى أعضاء الديوان بسبب سلوكه وتفانيه في تنفيذ تعاليم الفرنسيين فوق المطلوب أحياناً .

« واتهم مصطفى آغـا مستحفظان بموالاته للفرنساوية وانه عنده في بيته جماعة من الفرنسيس. فهجمت العساكر على داره بدرب الحجر فوجدوا انفاراً قليـلة من الفرنسيس فقاتلوا وحاموا عـن أنفسهم وقتل منهم البعض وهرب البعض على حمية حتى خلصوا الى الناصرية وأمـا الآغا فإنهم قبضوا عليه » . « وأقاموا عليه البينة بمـا ارتكبه من الايذاء وقتلوه » [٢٥] . وفي الجبرتي «خنقوه ليلاً بالوكالة التي عند باب النصر ورموا جيفته علىمزبلة خارج البلد».

وهو المصير الذي كان ينتظر « يعقوب » لو نالته عدالة الجماهير .. دون أن يحمل ذلك أي تفرقة طائفية فعلى المزبلة خارج البـلد يتساوى الآغا « مصطفى » والمعـلم « يعقوب » .. كلاهما عميل للاستعمار نكل بالشعب .. أي طائفية مقيتة أن نـأتي نحن اليوم فنوافق على قتل الآغا « مصطفى » ، ونستنكر الاعتداء على « يعقوب » أو العكس .. لمجرد أن « مصطفى » أو « يعقوب » من هذا الدين أو ذاك ؟!

« صار ينادي على الحمـار والبغل المعدّد الذي قيمته ثلاثون ريالاً وأكثر بمائة نصف فضة أو ريال واحد وأقـل ولا يوجد من يشتريـه وفي كل يوم يتضاعف الحال وتعظم الأهوال وزحف المسلمون على جهـة رصيف الخشاب وترامي الفريقان بالمدافع والنيران حتى احترق ما بينهم من الدور » . «وقاتل أهـل بولاق جهدهم ورموا بأنفسهم في النيران حتى غلب الفرنسيس عليهم وحصروهم من كل جهـة وقتلوا منهم بالحرق والقتل وبلوا بالنهب والسلب وملكوا بولاق وفعلوا بأهلها مـا يشيب من هوله النواصي وصارت القتلى مطروحة في الطرقات والأزقة والحارات » .

« وملكوا الدور ومـا بها من الأمتعة والأموال والنساء والخوندات والصبيان والبنات. ومخازن الغلال والسكر والكتان والقطن والأبازير والأرز

والأدهان والأصناف العطرية وما لا تسعه السطور ولا يحيط بـه كتاب ولا منشور والذي وجدوه منعكفاً في داره أو طبقته ولم يقاتل ولم يجدوا عنده سلاحاً نهبوا متاعه وعروه من ثيابـه ومضوا وتركوه حياً وأصبح من بقى من ضعفاء أهل بولاق وأهلها وأعيانها الذين لم يقاتلوا فقراء لا يملكون مـا يستر عورتهم وذلك يوم الجمعة ثالث عشرينه (رمضان ١٢١٤ – أبريل ١٨٠٠) وكان محمد الطويل(*) كاتب الفرنساوية أخذ منهم أماناً لنفسه وأوهم أصحابه أنه يحارب معهم . وفي وقت هجوم العساكر أنفصل اليهم واختفى البشتيلي فدلوا عليـه وقبضوا على وكيله وعلى الرؤساء فحبسوا البشتيلي بالقلعة والباقي ببيت ساري عسكر وضيقوا عليهم حتى منعوهم البول » [٢٦] .

« فكانت مـدة الحرب والحصر بمـا فيها من الثلاثة أيام الهدنة سبعة وثلاثين يوماً » .

« وضرب في هذه الوقعة عـدة جهات من اخطاط مصر الجليلة مثل جهة الأزبكية الشرقية من حـد جامع عثمان والفوالة وحـارة كتخدا ورصيف الخشاب وخطة الساكت الى بيت ساري عسكر بالقرب مـن قنطرة الدكة وكذلك جهة الهواء الى حارة النصارى من الجهة القبلية . وأما بركة الرطلي وما حولها من الدور والمتنزهات والبساتين فإنهـا صارت كلها تلالاً وخرائب وكيمان أتربة . وممـا تخرب أيضاً حارة المقس من قبل سوق الخشب الى باب الحديد . وجميع مـا في ضمن ذلك من الحارات والدور صارت كلها خرائب متهدمة تسكب عند مشاهدتها العبرات » [٢٧] .

ولا بـدّ أن الاتهامات كانت منتشرة في القاهرة على نطاق واسع حول « موالسه » الأمراء والعثمانلي مـع الفرنسيس .. فالشيخ « السادات » يتهمهم بأنهم فروا «فرار الفيران منالسنور وتركتم الضعفاء متوقعين أشنع الأمور».

(*) العملاء كانوا من كل لون ودين كما ترى .

والجبرتي يتهمهم بأنهم تركوا السلاح والمدافع للفرنسيس لأنهم « حاسبوهم على كلفته ومصاريفه وقبضوا ذلك من الفرنساوية » .

ونقف قليلاً مع الرافعي حيث تطالعنا عفته وثوريته الطاهرة الذيل !.. فيبدي أسفه على وقوع حوادث « اعتداءات يؤسف لها على المسيحيين في المدينة لا يسع الكاتب المنصف إلا أن يشعر بأسف عميق لوقوع هذه الحوادث».

ويقفز عبر الزمن ليتولى الأسف باعتباره الكاتب المنصف فيعظنا وكأنه يخطب في جماهير ثورة ١٩١٩ : « لأن الاعتداءات المذهبية تشوه الثورات وتلقى عليها تبعات جساماً .. ولا يخفف من هذه التبعة كون الاعتداء لم يقتصر على المسيحيين بل تناول فريقاً من المسلمين ممن اتهمهم الثوار بموالاة الفرنسيين فقد قتلوا محافظ المدينة (مصطفى آغا) بهذه الحجة كما قدمنا ، واعتدوا كذلك على السيد خليل البكري ، ولم يراعوا منزلته ولا مقام بيته، وشهر به العامة . فساقوه في الشوارع عاري الرأس تتبعه الشتائم والإهانات، وكادوا يفتكون به ، نقول ان مثل هذه الحوادث ليس من شأنها أن تخفف من تبعة الاعتداء على المسيحيين ، لأنها هي كذلك خليقة بالسخط والاستنكار » [٢٨] .

ومهما بذلنا من جهد لا نستطيع أن نفهم اصرار « الرافعي » — رغم تقديرنا لمشاعره النبيلة وأنصافه — على أن الاعتداء على المسلمين الموالين للفرنسيين لا يخفف من تبعة الاعتداء على المسيحيين المتهمين بنفس التهمة ؟!

كيف يكون « اعتداء مذهبياً » ذلك الذي يستهدف مسيحياً متعاوناً مع الفرنسيس جنباً الى جنب مع شيخ يحمل لقب نقيب الإشراف أي نقيب كل من يحمل لقب « السيد » وينتسب الى نسل رسول الله ! وآخر دوحة ابي بكر الصديق رضي الله عنه — كما يعرف نفسه ويصدقه الناس — كأن على الجماهير أن تشل يدها وتوقف عدلها الثوري ، وتكبح غضبتها ، فلا تمتد الى

المسيحي المتعاون مع الفرنسيين حتىلا تتهم أمام التاريخ بالاعتداءات المذهبية والنزعة الطائفية !

إن هذه الحساسية المفرطة من جانب بعض الكتاب ، تكشف في الحقيقة عن طائفية غير معلنة ، طائفية غير موجودة عند الجماهير .. هـــذه هي « اللاطائفية السوقية » التي يتحدث عنها ثائر جزائري ..

فالطائفية ليست فقط في التنكيل بالمخالفين في الدين « بسبب دينهم » .. بـــل ان الوجه الآخر للطائفية هو اعتبارهم فوق القانون وفوق المؤاخذة ، لمجرد أنهم أقليات .. الطائفية هي المعاملة الخاصة للمواطن بسبب دينه، سواء أكانت هذه المعاملة شراً أو خيراً .. ومن ثم فالجماهير لم تكن طائفية لأنهـا أنزلت قصاصها بـــلا تمييز .. بينما بعض المؤرخين اليوم ينطلقون من مفهوم طائفي .. عندما يواجهون هذه القضية بمثل هذه الحساسية .

أمـــا إذا كان الرافعي يستنكر الاعتداء على الأفراد ، فهذه قضية محل نقاش أبدي .. ولكن من الذي يستطيع أن يضبط حركة الجماهير وهي تخوض حربـاً دامية ضد عدو شرس ؟ من الذي يستطيع أن يضبط أعصابها وسط مدينة محاصرة مشتعلة بالنيران، من الذي يستطيع أن يمنع هذه الجماهير التي تواجـه الموت محترقة ، من انزال القصاص بيدها من المتهمين بالتعاون مع العدو المحتل الأجنبي ؟ من الذين يطلقون النار على ظهرها أثناء القتال .. بل ومن تعرف أنهم سينكلون بها فور انتصار الفرنسيين ؟

« والرافعي » غاضب — « كالجبرتي » — من « غلبة الجهـلاء على العقلاء وتطاول السفهاء على الرؤساء » فهذه الظاهرة عند «الرافعي» — الذي يحتفظ هو وحزبه « للغوغاء » بذكريات مريرة ، بسبب التفاف الغوغاء حول حزب الوفد.. لذلك يفلسف الظاهرة في شكل نظرية فيقول أن تطاول السفهاء على الرؤساء : « داء وبيل تظهر اعراضه في اوقـــات الفتن واشتداد الكروب والمحن » . « وإذا أردت أن تعرف الى أي حد جر « تغلب الجهلاء على

العقلاء وتطاول السفهاء على الرؤساء » أثناء ثورة القاهرة ، فانظر الى ما كان من أمر مساعي الصلح التي قام بها العقلاء في ذلك الحين لوضع حـــد للمأساة المروعة والمجزرة البشرية التي صبغت القاهرة دمـاء وحرائق وكيف اخفقت تلك المساعي أمام غلبة الجهلاء وتطاول السفهاء . فقد كان العلماء يسعون في حقن الدماء » (٢٩) .

فالمؤرخ البورجوازي ينتشي ببطولة اسلافه ، ولكن يفزعه منظر الدماء والتضحيات والحرائق.. كم كان يبدو له، جميلاً أن يقاتل القاهريون ويخترعون المدافع ويصنعون البارود والقنابل . فإذا مـــا بدا أن الرجحان من نصيب الفرنسيين ، بادر علماؤهم فخففوا الدماء ونجت القاهرة من الحريق والدم !

ان القيادة التقليدية التي قادت كفاحنا الوطني منذ فشل ثورة عرابي ، لم تكف أبداً عن ابداء جميل عواطفها ورغبتها في حقن الدماء وتجنيب بـلادنا ويلات الحرب .. آه وكم حقنت من دمائنا .. وفرطت في استقلالنا وحقوقنا وكرامتنا كأمة .. فتحت شعار « تجنيب بلادنا ويلات الحرب » انتقلت من التفريط الى الاستسلام ، ومن المساومة الى الخيانة . ولكن تجربـــة التاريخ أثبتت أن الدمـاء الوحيدة التي تحقنها المساومة .. هي دماء الغزاة والمحتلين والأعداء . لأن دماء الشعب المقهور تهدر بمعدل أكبر تحت وطأة الاستسلام ، منها في ساحة القتال من أجل التحرر . وان مصرنا الجميلة تذوي وتدمر إذا ما استسلمت للغزاة ، وتنمو وتزدهر خلال حربها التحررية .

فالمجاهدون في ثورة القاهرة ما كان بوسعهم أن يوقفوا الثورة في منتصف الطريق ، والرافعي نفسه وهذه هي مأساته — إذ أنــه لا ينتمي الى موقف مضاد ، يبيح له تزور التاريخ — بل يلتزم بالصدق والأمانة في إثبات وقائع التاريخ ، لذا يعترف بعد سطور ليس إلا من لعنه الذين ضيعوا فرصة الصلح، يعترف بأن كليبر : « لم يكن صادقاً في عهده » للعلماء بإنهاء القتال « دون تنكيل ولا عقوبات » فماذا كانت الجماهير ستكسب إذا مـــا خانت ثورتها

واستسلمت لرحمة الغازي المتوحش ربمـــا كسب الرأي العام العالمي .. لحسن حظنا لم تكن هذه الاكذوبة قد عرفت بعد ..

« وبذلك اخفقت المساعي وتجددت المذبحة . وتجددت معها فجائع القتل وسفك الدماء والاحراق والتدمير . ثم انتهت المأساة بالتسليم بعد أن نزل بالناس من الخطوب والأهوال مـــا لم يشهدوا مثله من قبل » هكذا يتأسف « الرافعي » .. وليكن .. فهل من سبيل آخر امام الأمم للتحرر إلا طريق الدم والخطوب والأهوال وخوض مـا لم يخرضوا مثله من قبل .. لكي يحققوا عزة ونصراً وتقدماً لم يحققوا مثله من قبله ؟!

ولكن ليس دقيقاً أن نقول ان « بولاق » استسلمت .. فالحق أن بولاق أُخذت عنوة بحد السيف ، بالحديد والنار .. سقطت شبراً شبراً وبيتاً بيتاً ، ورصيفاً رصيفاً.. ولا عار على بولاق أن تؤخذ عنوة وأن يقهرها أقوى جيش، وقتها ، فالعار لمن يستسلمون بلا قتال ..

نعم أخذت بولاق .. سحقت .. دمرت أبيدت .. فالصورة التي تمت بها تصفية الثورة ، ليست صورة تسليم واستسلام :

« ولكن نار المدفعية الفرنسية حطمت المتاريس القائمة على مدخل الحي ، فثغرت فيها ثغرة كبيرة انـدفق منها الجنود الى شوارع بولاق ، وأضرموا النار في البيوت القائمة بها ، فاشتعلت فيها واتسع مداها ، وامتدت الى مباني الحي من مخازن ووكائل ومحال تجارة فالتهمتها ومـــا كان فيها من المتاجر العظيمة ، ودمرت هــذا الحي الكبير الذي يعد ميناء القاهرة ، ومستودعاً لمتاجرها ، وهدمت الدور على سكانها ، فباد كثير من العائلات تحت الانقاض أو في لهب النار . وكانت مأساة مروعة » (٣٠) .

« وهجموا على بولاق من ناحية البحر ومن ناحية بوابة ابي العلاء ، وقاتل

أهل بولاق جهدهم ورموا بأنفسهم في النيران (*) حتى غلب الفرنسيس عليهم وحصروهم من كل جهة ، وقتلوا منهم بالحرق والقتل وبلوا بالنهب والسلب ، وملكوا بولاق . وفعلوا بأهلها ما تشيب من هوله النواصي ، وصارت القتلى مطروحة في الطرقات والأزقة ، واحترقت الابنية والدور والقصور » الخ ..

وينقل « الرافعي » عن المسيو « جالان » :

« في اليوم الحادي والعشرين من شهر جرمينال (يوافق ١٤ ابريل ١٨٠٠) انذرت بولاق بالتسليم ، فرفض أهلها كل انذار وأجابوا بإباء وكبرياء أنهم يتبعون مصير القاهرة ، وأنهم إذا هوجموا فهم مدافعون عن أنفسهم حتى الموت . فأخذ الجنرال فريان يحاصر المدينة وبدأ يصب عليها من المدافع ضرباً شديداً أملاً منه في إجبار الأهالي على التسليم ، ولكنهم أجابوا بضرب النار، فأطلقت المدافع قنابلها على المتاريس ، وهجم الجنود على الاستحكامات فاقتحموا اكثرها وظلّ بعضها يقاوم ، واستبسل الأهلون في الدفاع ولجأوا الى البيوت فاتخذوها حصوناً يمتنعون بها ، فاضطرت الجنود الى الاستيلاء على كل بيت منها ، والتغلب عليها بقوة الحديد والنار ، وبلغ القوم في شدة الدفاع حداً لا مزيد بعده ، وفي هذا البلاء عرض العفو على الثوار فأبوا واستمر القتال (**) ، فجعلنا المدينة ضراماً ، وأسلمناها للنهب ، وصار أهلها عرضة لبطش الجنود وتنكيلهم ، فجرت الدماء أنهاراً في الشوارع واشتملت النار أحياء بولاق من أقصاها الى أقصاها ، وعادت تلك المدينة العامرة الزاهرة هدفاً للخراب » ويقرر أنه قد « مضت ثمانية أيام والنار تلتهمها ولا تزال تشتعل فيها » (٣١) . « أما القاهرة فيؤرخ «جالان» أيضاً معركتها: «صبت المدافع قنابلها على المدينة الثائرة، ودوى صوت الضرب في كل مكان.

(*) من أجل الذهب الانجليزي ولإعادة حكم المماليك ! كما يدعى « لويس عوض » !

(**) رائعة يا مدينتي يا عاصمة العروبة .. خالدة يا أمتي .. وشاهت وجوه المنافقين !

وظلّ اطلاق القنابل والرصاص متواصلاً طول الليل وشبت الحرائق في جهات متعددة وأخذت النيران في كل لحظة تلتهم المنازل بعضها أثر بعض، وأحدثت النار من الخرائب والحرائق في القاهرة ، ما لم يحدث مثله منذ بدأ الحصار . وقد قتلنا عدداً كبيراً من الناس في تلك الموقعة المروعة ، ولكننا فقدنا كثيراً من الشجعان قبل أن تصبح المدينة في قبضة يدنا » .

وبعد أسبوعين من « وقوع المدينة في قبضتهم » يصف « جالان » حالة القاهرة (٥ مايو ١٨٠٠) : « عمّ الخراب أحياء بأكملها وتمثل لنا شبحه المخيف في الأزبكية ، وأثرت في نفسي صورته المفزعة ، فليس في الإمكان أن تخطوا خطوة إلا على كثبان من الخرائب والأتربة ، وكانت رائحة العفونة تنبعث من الرمم المدفونة تحت الردم ، وزاد هذا المنظر فظاعة أن الجنود مدفوعين بفكرة النهب (*) كانوا ينبشون الجثث من تحت الانقاض والخرائب فكلما أظهروا جثة زاد المنظر هولاً وفظاعة » (٣٢) .

«ودخل الفرنساوية الى المدينة يسعون وإلى الناس بعين الحقد ينظرون» (٣٣) .

ولكن قبل أن ننتقل إلى الفرنسيين وما فعلوه بعين الحقد التي نظروا بها الى المصريين الثائرين . نود أن نقف طويلاً — قدر الإمكان — على أخطر حادثة في تاريخ ثورة القاهرة، بل أخطر حادثة في تاريخ الشرق الإسلامي كله.

(*) أي صورة حضارية قدمت لأبناء القاهرة وجند الثورة الفرنسية ، ينبشون جثث الموتى للتفتيش في جيوبها وقطع الاقراط والخواتم من آذان وأصابع النساء !

الثورة الصناعية

إن الصراع الفكري الذي يـدور في الشرق وفي عالمنا العربي بالذات منذ الحملة الفرنسية الى اليوم يدور بين مدرستين أساسيتين :

● المدرسة الوطنية وهي تلك التي تقول بأن الشعوب المتخلفة لا يمكنها أن تحقق تقدمها التكنولوجي إلا من خلال رفض قيم الحضارات المتفوقة ، رفض الاندماج فيها ، رفض التبعية لها، وانه بقدر ما تتشبث الأمة بوجودها وذاتيتها وتراثها وحضارتها بقدر ما تزداد قدرتها على اكتساب عوامل التفوق الآلي عند خصمها . فقضية التقدم والتخلف بالمقاييس المادية ، هي قضية التفوّق الآلي بـين الأمم . وهي الظاهرة الأساسية الواضحة في صراع الحضارات ، وتحديد علاقة الأمم ببعضها .

وكل أمة يمسها هذا الصراع ، أو تصبح طرفاً فيه تدرك ان التفوق الآلي هو الذي يمكن خصمها منها ، أو يمكنها من خصمها ، فما من خلاف على أهمية الآلات التي تصنع الأسلحة ، وتتحول إلى أسلحة .. وليس كشفاً أن يتنبه البعض لأهمية التقدم التكنولوجي !.. لكن المشكلة هي في اكتشاف السبيل الذي يمكن أن تسلكه الأمة المتخلفة «آلياً» لكي تحقق تقدمها الآلي.

هذه هي القضية .

وكما قلنا، فإن رأي المدرسة الوطنية والذي تشهد بصحته تجارب التاريخ كله ، من العرب الى اليابان ، وتعزز صدقه تجاربنا الفاشلة ، بل وتجارب كل الشعوب التي ما زالت ترزح تحت التخلف .. هذا الرأي هو القائل بأنه ما من أمة تستطيع الخروج من دائرة التخلف « ومسايرة الزمن » إلا خلال صراعها ورفضها وكفاحها ضد الحضارات المتفوقة المتقدمة المعاصرة .

● لكن المدرسة التغريبية ، المدرسة الاستعمارية ، تقول بالعكس ، إذ تعتبر ان الحضارة كمجرى نهر ، يكفي أن تشقّ ترعة لمياهه حتى تجري في ارضك، وترتوي وترتبط بالنهر في ذات الوقت . وان كل محاولة للانفصال عن مجرى التقدم هو زيادة في الظمأ الحضاري . وأن الحضارة أو التقدم كل لا يتجزأ، فلا يسعنا أن ننقل صناعة اوروبا، دون الفلسفة الاوروبية والسلوك الاوروبي، والأخلاقيات الاوروبية .. والقيم والعقائديات الاوروبية .. وهذا يعني طبعاً الانسلاخ عن جذورنا وخصائص حضارتنا .

اذا أردنا حضارة الغرب —في هذا الرأي— فلا بد من أن نصبح غربيين.. ولأن نقل المصانع ، ودراسة الكيمياء والطبيعة أكثر صعوبة . فان هـذا الرأي يتحول في التطبيق الى القول بأن نقطة البدء هي نقل « اسلوب الحياة الغربية » فهذا يجعلنا متقدمين، وبعضهم يقول ان نقل أسلوب الحياة الغربية، والفكر الغربي، وحتى طريقة الكتابة على الطراز الغربي من الشمال الى اليمين، سيقيم في بلادنا المصانع . والبعض أكثر صراحة يقول اننا لا نحتاج لنقل الصناعة ما دمنا سنصبح جزءاً من هذه الحضارة نساهم فيها بما أتاحته لنا ظروفنا ، ونستمتع بنقل آخر كلمة فيها دون حاجة بنا الى تكرار نفس الخطوات التي سلكتها هذه الدول .

وبصرف النظر عن الحقيقة البديهية التي تقول أن «اسلوب الحياة الغربية» ليس إلا انعكاساً لطريقة انتاج وسائل الحياة الغربية . أي أن هذا الأسلوب هو نتاج الصناعة الغربية .. فلو أردنا — جدلاً — أن نقيم في بلادنا ذات

المؤسسات الثقافية ، والسياسية والاجتماعية ، واعتناق ذات القيم ، وممارسة ذات العلاقات الغربية ،فلا بد أن نبدأ بإقامة القاعدة المادية التي أفرزت ذلك كله ألا وهي : المجتمع الصناعي . لا أن نقلب الوضع رأساً على عقب !

ومع ذلك فان تجربة الشعوب أكدت ان نقل القيم ، أو اسلوب الحيـاة الغربي في مظهره هو الذي يشل القـدرة بل وحتى الرغبة الجادة في تحقيق التصنيع أو انجاز الثورة التحضيرية الحقيقية . وأن دعوة التغريب في الحقيقة لا تهدف إلا الى منعنا من تحقيق التحديث الحقيقي .. وأن الدول الغربية المتقدمة ، أو الدول الكبرى ذات مصلحة مباشرة في منعنا من تحقيق هـذا التحديث . وأن كل زعم بأن « الغرب » حاول تطويرنا وتحديثنا هو جهل بالتاريخ وتزوير فاضح لتاريخ العلاقات بين الغرب والشرق. لقد كان الاحتلال الغربي للشرق هو العقبة الوحيدة التي حالت دون تحقيق التحديث في الشرق. وبقوة الاحتلال المسلح كان الغرب يمنع إقامة الصناعة في الشرق . ولكن لأن استخدام السلاح باهظ التكاليف وليس ميسراً في كل وقت ، كما أنه يستنفر عناصر المقاومة في الأمم المضطهَدة، الأمر الذي يحمل خطر وضعها في طريق الإجابة الصحيحة على التحدي . لذلك فإن الدول الاستعمارية(رأسمالية كانت أو شيوعية) تفضل أن تعزز قهرها العسكري ، بعملية غزو فكري ، أو غسيل مخ ، تجريها للشعوب المستعمِرة وبالذات لطليعتها المنشغلة بالبحث عن جواب للتحدي .. لذلك فهي تروج فكرة التغريب أو « التحديث » في السلوك والأخلاق وأسلوب المعيشة .

التحديث من خلال التعاون مع الحضارة المتفوقة والانتساب اليها . وذلك فضلاً عن انـــه يضع الشعب بعيداً عن الطريق الصحيح لتحقيق التحديث الجدي ، فهو يسهل مهمة غزوه حضارياً ..

وقد رأينا كيف قاومت القاهرة « المتخلفة » « المغلقة » غير المغربة ، بل الاسلامية ، الشرقية ، المعتزة بحضارتها ، المتمسكة بذاتها وشخصيتها ..

كيف قاومت ببطولة نادرة جيش الاحتلال الفرنسي خمسة أسابيع ، وكيف قاتلت من بيت الى بيت بالمعنى الحرفي للكلمة . بينما لما تولى عملاء الغرب ، تغريب بلادنا كانت مدننا تسقط بسهولة وتستسلم بسهولة أشد كلما زاد حظها من التغريب !

ولكن ثورة القاهرة الثانية لا تثبت صحة نظرية المدرسة الوطنية ، من زاوية مقاومتها الفريدة في تاريخنا ، للاحتلال الفرنسي فحسب ، بل أخطر من ذلك انها تؤكد صحة الفرضية التي تقول ان الطريق الى التحديث ، أي الطريق الى تحقيق الثورة الصناعية ، يمر خلال مقاتلة الحضارة المتفوقة ويعبره الرافضون لهذه الحضارة .

ففي ثورة القاهرة الثانية ، أوشك المصريون أن يضعوا أقدامهم على بداية الطريق الى الثورة الصناعية .

وتفصيل هـــذا الحادث العجيب .. والظاهرة التي يغض جميع مؤرخي المدرسة الاستعمارية الطرف عنها ، لأهميتها البالغة ، ولأنها تنسف نظريتهم تماماً ... التفاصيل — المتاحة لنا — تقول : « وبذل الاهالي ما في طوقهم لتأييد الثورة ، وأتوا في هـــذا السبيل من الأعمال ما أدهش الفرنسيين ، **فقد أنشأوا في اربعوعشرين ساعة معملاً للبارود** في بيتقائد آغا بالخرنفش **وأنشأوا معملاً لاصلاح الاسلحة والمدافع ، ومعملاً آخر لصنع القنـــابل وصب المدافع جمعوا له الحديد والآلات والموازين وأخذوا يجمعون القنابل الـــتي تتساقط من المدافع الفرنسية في الشوارع ، ويستعملونها قذائف جديدة للضرب** ، قال الجبرتي : « وأحضروا ما يحتاجون اليه من الأخشاب وفروع الأشجار والحديد وجمعوا الى ذلك الحدادين والنجارين والسباكين وأرباب الصنائع الذين يعرفون ذلك فصار هـــذا كله يصنع ببيت القاضي والخان الذي بجانبه والرحبة التي عند بيت القاضي من جهة المشهد الحسيني» .

وقال مسيو مارتان (*) أحد مهندسي الحملة وكان شاهد عيان لتلك الثورة : **« لقد قام سكان القاهرة بما لم يستطع احد ان يقوم به من قبل، فقد صنعوا البارود ، وصنعوا القنابل من حديد المساجد وأدوات الصناع ، وفعلوا ما يصعب تصديقه – وما راء كمن سمع – ذلك انهم صنعوا المدافع »** (**).
وقال الجنرال كليبر في يومياته: «استخرج الأعداء مدافع كانت مطمورة في الأرض، **وأنشأوا معامل للبارود ومصانع لصب المدافع وعمل القنابل** ، وأبدوا في كل ناحية من النشاط ما أوحت بـه الحماسة والعصبية ، هذه هي بوجه عام حالة القاهرة عند قدومي اليها ، وإني لم أكن أتصورها في هذه الدرجة من الخطورة » « تم كل ذلك في ثلاثة ايام » (٣٤) .

وهكذا نرى ان مصر قد طرقت ابواب الصناعة من خلال قتالهـا ضد الاستعمار الغربي .. لا من خلال الرضوخ له أو التعاون معه .

وثوار القاهرة هم الذين وضعوا أقدامهم على درب التكنولوجيا، لأنهم قرروا القتال ضد الحضارة الغربية، فمن يعادي الحضارة الغربية، ويكون جاداً في قهرها، لا بد أن يكتشف وأن يمتلك وسائل تفوقها .. ومائة الف متعاون مثل « يعقوب » ، ومائة الف متردد على بيت « حسن كاشف » حيث كانت المكتبة والآلات العلمية للحملة ، لم يكن ليفيدهم تعاونهم ولا انبهارهم ، في كسب التكنولوجيا الغربية .

ولكن من يقرر الرفض . ومن يختار الانفصال بذاته والدفاع عن هــذه

(*) في كتابه : « تاريخ الحملة الفرنسية في مصر » .

(**) يلاحظ ج. هيروتز في كتابه: «الابعاد العسكرية في الشرق الاوسط» انه الى حرب القرم كانت التكنولوجيا غير مستخدمة تماماً في الصناعات الحربية مما كان يتيح للدول الشرقية فرصة التكافؤ في السلاح مع الدول الاوروبية اذا ما ارادت..ولكن الثغرة بعد ذلك اصبحت مستحيلة التخطي .. وهذا الرأي صادق الى حد ما وان كانت هناك تحفظات كثيرة حول الثغرة الحالية .

الذات سيجد نفسه أمام حتمية اكتساب كافة الوسائل المادية لحماية هذه الذات والانتصار لها . ومن ثم تغدو قضية التكنولوجيا قضية جزئية وحيوية في نفس الوقت .. هي جزئية في موقف عام هو الايمان بالذات ، وضمن إطار عام لفهم صحيح لأبعاد هذه الذات واحتياجاتها للتعبير عن نفسها ، وتحرير ارادتها .. وحيوية طبعاً لأنه بدونها لا يمكن تحقيق هـذه الذات ولا تحرير إرادتها .

وتجربة التاريخ كله لا تثبت حالة واحدة استحال فيها على شعب متخلف، اكتساب التكنولوجيا والتفوق فيها .. شرط أن يختار القتال .

ومن هنا كانت أهمية الثورة الثانية للقاهرة . فالثورة الاولى إن كانت قد أكدت رفض أمتنا للوجود الغربي على أرضنا ، فإن الثورة الثانية قد حملت الاجابة على هذا التحدي .. الاجابة على السؤال الذي ما زال بلا جواب منذ الغزو الفرنسي الى الغزو الاسرائيلي : كيف نكتسب تكنولوجيا العدو المتفوق علينا ؟ ! ثورة القاهرة أجابت : بالثورة ضده ، برفض وجوده ، برفض التعايش معه، بالاصرار على قهره .. الذين رفضوا .. اخترعوا البارود والمدافع والقنابل .. والذين واللاتي قبلن الاندماج الحضاري مع الفرنسيين المتقدمين لم يحملن إلا مرض الافرنجي !

ولعل هذا هو السبب الرئيسي لحرص المدرسة الاستعمارية ، مدرسة التغريب ، على تشويه ثورة القاهرة الثانية وإثارة الغبار حولها لكي تطمس هذه الحقائق .

هذه الجوانب البالغة الأهمية ، التي أثارت انتباه واهتمام رجال ومؤرخي الحضارة الغربية ، فسلطوا تلاميذهم يشوهون حقيقتها، ويغفلون دور الصناع المصريين الذين اخترعوا المدافع والقنـــابل والبارود . ويتحدثون عن دور المماليك والأتراك الذين ما كانوا إلا عبئاً ، وحملاً متخلفاً على الجماهير ، التي قامت بإنجازات ثورية ، وحضارية حقيقية . ينسون البطولة والتضحيات ،

والانجازات ويركزون تأريخهم على حوادث فردية ، استهدفت بعض الخونة الذين باعوا بلادهم للمستعمر .. وحتى اذا امتدت النار لبعض الأبرياء ، فلماذا ينسون ما فعله الفرنسيون في الاطفال والنساء وكبار السن الذين لم يقاتلوا .. لماذا لم يتهموا الجيش الفرنسي بالحرب الصليبية ؟!

تعمى عيونهم عن تلمس تاريخ تطورنا القومي ، حيث يجب أن يكون ، خلف المتاريس وفي الورش التي نبتت ، تصنع لأول مرة الاسلحة « الثقيلة » وتتسلح مستعينة حتى بالقنابل التي يقذفها بها عدوها.. بدلاً من ذلك يريدوننا أن نفتش عن قومية مزعومة بين مزابل سفينة بريطانية تحمل برميل خمر يضم جيفة عميل هارب ، وترجمانه المالطي المجنون ! ومشروع كتب بالفرنسية وترجم للانجليزية في تقرير مخابراتي الطابع والأسلوب ! يجعلون هذا حجر رشيد القومية المصرية .. كذبوا ... وبئس والله ما اختاروا لأمتهم .

قوميتنا هي التي صنعت المدافع والبارود ، وما كان لها أن تصنعها إلا في مدينة متحررة مجاهدة ضد الاستعمار الغربي عدو التصنيع في المستعمرات .

ولأن التاريخ لا يرحم فان تجربة الحملة الفرنسية لا تقدم لنا هذه الحادثة وحدها بل تدعمها بموقف آخر يجعل القضية أوضح من أن تحتمل النقاش .. لقد بذل رجال الحملة الفرنسية — على ما يدعي مؤرخي المدرسة الاستعمارية — بل وكل الحملات الاستعمارية التي حملت عبء رسالة الرجل الابيض ، بذلت جهوداً مضنية في حثنا على الأخذ بالحضارة الحديثة ، وإقناعنا بمسايرة الزمن في كافة الميادين إلا الميدان الوحيد الذي يُمكننا فعلاً من مسايرة الزمن ، والقاعدة الوحيدة لقيام الحضارة الحديثة .. ألا وهي تعلمنا الصناعة ! السماح لنا بإنشاء مصنع . وعندما توضع الأمور بهذا الوضوح ، ينعدم الجدل ، ولا تصدر عن السلطة الغربية إلا كلمة واحدة هي : « ممنوع » !

والقصة هي اقتراح تقدم به الجنرال « مينو » وكان « مينو » يمثل مدرسة

المعمرين التي ظهرت في «الجزائر» بعد ذلك.. لذلك : «اقترح الجنرال «مينو» انشاء مصنع للجوخ في القاهرة لسد الحاجة الماسة الى الاجواخ التي انقطع ورودها من اوروبا بسبب الحصر البحري ، لكن أعضاء اللجنة الادارية — لجنة فرنسية تشرف على أعمال الحكومة الادارية ويدخل في خصائصها الشئون المالية والزراعية والاقتصادية — عارضوا في قبول العمال المصريين في هذا المصنع بحجة الضرر الذي يلحق الصناعة الفرنسية اذا عرف المصريون اسرارها ، وكتبت اللجنة رسالة في هذا الصدد قالت فيها : « ان مقدرة المصريين في تقليد المبتكرات الصناعية من شأنها أن تضرّ بالمصانع الفرنسية » وصرح المسيو كونتي مديرالمصنع الميكانيكي الذي أنشأه الفرنسيون انه لا يقبل البتة تعليم أحد من الاهالي أساليب الصناعة . وأخيراً تم الاتفاق بين « مينو» واللجنة الادارية على انشاء مصنع للأجواخ بإدارة المسيو كونتي على ان لا يقبل فيه عامل مصري » [٣٥] .

هكذا بوضوح ، وبغير حاجة الى التلفيق والادعاء ، فبعد ثمانين عاماً كان « كرومر » مضطراً الى ادعاء تخلف المصريين العقلي ، وتنافي دينهم مع الصناعة.. لكي يبرر تحريمها علينا بقوة جيش الاحتلال .. وما زالت المكتبة الغربية حافلة بالمؤلفات التي تثبت عجز الشرقي وبالذات المسلم عن التحول الى عامل صناعي فضلاً عن عالم يفقه في التكنولوجيا . والمكتبة الشيوعية تساهم الآن في إثراء المكتبة الغربية في إثبات خطأ محاولات الأمم المتخلفة ، لإنشاء صناعاتها المستقلة ! وكلها طبعاً ، تناقش من زاوية الحرص على مصالحنا نحن ، ومن زاوية الحرص على عدم تبديد طاقاتنا فيما لا أمل فيه ! ولكن ميزة الحملة

(*) لم يقل لنا الجنرال عوض اذا كان هذا القرار قد عرض على مجلس الوزراء ، ومجلس النواب !

الفرنسية انهـا كانت مبكرة . وأن كثيراً من الحقائق كانت تسمى باسمها . أو قل انهم لم يكونوا يأبهون بمعرفـة العرب لتقاريرهم وكتاباتهم في بلادهم فوقتها كان العرب لا يقرأون وخاصة بالفرنسية (*) !.. كان الاستعمار الغربي لم يزل في مرحلة الاعتماد أكثر على القهر العسكري، منه على الغزو الفكري.. لذلك جاء اعتراض رجال الحملة الفرنسية على تعلم المصريين الصناعة ، واضحاً كأشد ما يكون الوضوح في الأسباب : ممنوع لأن المصريين قادرون على تعلم سر الصناعـة ، وليس لأنهم عاجزون ! ولا ان تقاليدهم ودينهم .. الخ .. أبـــداً أسباب الرفض هو خشية الفرنسيين من قدرة المصريين « على تقليد المبتكرات الصناعية ».. لأن تعلم المصريين الصناعة يشكل خطراً على المصالح الفرنسية . ولو استطاع خبراء مصريون أن ينشئوا مصنعاً للجوخ، ولو بمعونة خبراء أجانب غير فرنسيين ، هل كانت سلطة الاحتـلال ستقف مكتوفة الايدي أمام تهديد المصالح الفرنسية ؟! أليس هذا هو جوهر الصراع بين الغرب والشرق ؟! ومع ذلك لا يستحي مؤرخ عالم مثل« كروستوفر هيرولد» من اتهام المصريين بأنهم كانوا العقبة في طريق نوايا نابليون الطيبة نحو تطويرهم، وأن حرصهم على تقاليدهم هو الذي منع مسايرتهم الزمن ، ولا يخجل أمثـال « لويس عوض » من تصديع رؤوسنا بالحديث عن « أول برلمان » وأول « مجلس وزراء » ! وينسى أن يحدثنا عن قصة « أول مصنع للجوخ » .

لسنا ندري كيف يمكن ان يطلب منا الهبوط الى مستوى الثرثرة عن امكانية قيام الديموقراطية والبرلمانية والقومية ، أو حتى تعلمها دون ان تقام صناعة في بلادنا .. وكيف يمكن أن تمكنا من « مسايرة الزمن » قوة تحرم علينا تعلم الصناعة ولو عمالاً في مصنع يكسي جنود احتلالها !

(*) البعض يعتقد اننا ما زلنا كذلك .

أي « مسايرة للزمن » تلك التي يقرعنـــا « هيرولد » وصبيته على ان « نابليون » حاول تحقيقها لنـــا وفشل بسبب من تعصبنا وجمودنا .. هل « نساير الزمن » بدون مصنع ؟!

ولنعد الى الحملة الفرنسية بعد سحق ثورة القاهرة الثـــانية لنرى كيف جعلنا « كليبر » نساير الزمن .. وكيف امتدت يد القصاص العادل فأنزلت عقابها بكليبر .

الشربتلي والليمونة

بعد هزيمة الثورة ، أجرى « كليبر » استعراضاً عسكرياً ظهر خلفه كبار أعوان « مراد » : « البرديسي » والأشقر » « وبعـد أيام الزينة الثلاثة ، أقام لهم مراد مأدبة فاخرة ، فذهب الى مراد بيك بجزيرة الذهب باستدعاء، فمد لهم أسمطة عظيمة ، وانبسط معهم وافتخر افتخاراً زائداً وأهدى الى بعضهم هدايا جليلة وتقادم عظيمة وأعطاه ما كان أرسله درويش باشا معونة للباشا والأمراء من الأغنام وغيرهـــا وكانت نحو الأربعة آلاف رأس » (وهي الأغنام التي صادرها اثناء حصار القاهرة وكانت أهم عامل في تجويع المدينة) . « وولوه امارة الصعيد من جرجا الى أسنا ورجع عائداً (*) الى داره بالأزبكية » (٣٦) .

ثم تقرر عقد الديوان.. في جلسة موسعة على « ما يبدو» «لمجلسي الوزراء والبرلمان » !! ويرسم ابن القاهرة ، الذي تجري النكتة في دمــه ، الشيخ « عبد الرحمن الجبرتي » صورة كاريكاتورية للديوان في اجتماعــه الدرامي مع ساري عسكر كليبر أو كلهبر كما يكتبها الجبرتي ، بعد هزيمة الثورة ، وشروع المنتصرين في التنكيل.. بالمغلوبين .. ودقة « الجبرتي » وموضوعيته ومرارته

(*) أي كليبر .

لا تترك تفصيلية صغيرة دون أن تقف عليها ومن ثم فالصورة كاملة بكل أبعادها .. وهو كفنان ساخر ، وهي الحقيقة التي طغت عليها شهرته كمؤرخ ، يبدأ المسرحية بهذه المقدمة :

« فلما كان في صبحها يوم الجمعة ثامنه بكروا بالذهاب الى بيت ساري عسكر . ولبسوا أفخر ثيابهم وأحسن هيآتهم . وطمع كل واحد منهم وظن ان ساري عسكر يقلده في هذا اليوم أجل المناصب أو ربما حصل التغيير والتبديل في أهل الديوان فيكون في الديوان الخصوصي » ..

ورغم كل ما تظاهر به كليبر من عفو وسماحة ، فلا نظن أن أعضاء الديوان قد بلغت بهم السذاجة حد تصور ان المناسبة ، مناسبة تكريم ومكافأة ! ولكنها صورة فنية ضرورية لتجسيد النقيض التعس المخالف تماماً لهذه التوقعات الحقيقية أو المفترضة .. وعلى أية حال فإن سخرية الجبرتي من اطماع المصريين ، لا تزيد في تناقضها عن مهزلة مؤرخ يسمي بيانات ساري عسكر امام الديوان على أنها اعتراف بمسئولية الحكومة أمام ممثلي الشعب !! ولا شك ان صورة ما سيعقب هذا اللقاء تبدو أكثر تناقضاً وسخرية اذا ما تماشينا مع الفرض الهزلي الذي يعتبر أعضاء الديوان مجلساً نيابياً ، وساري عسكر وعصابته حكومة مسئولة أمام البرلمان ، لذلك نحن نفضل السير مع هذا الوصف المضحك .. وبذلك تصبح الصورة كالآتي :

اجتمع « ممثلو الأمة » في بيت رئيس الحكومة ...

« فلما استقر بهم الجلوس في الديوان الخارج اهملوا حصة طويلة لم يؤذن لهم ولم يخاطبهم أحد » .

وصبر النواب !

« ثم فتح باب المجلس الداخل وطلبوا الى الدخول فيه فدخلوا وجلسوا حصة مثل الاولى ثم خرج اليهم ساري عسكر وصحبته الترجمان وجماعة من

أعيانهم فوضع له كرسي في وسط المجلس وجلس عليه ووقف الترجمان وأصحابه حواليه واصطف الوجاقلية والحكام من ناحية واعيـــان النصارى والتجار من ناحية وعثمان بيك الأشقر والبرديسي أيضـاً حاضران . وكلم سارى عسكر الترجمان كلاماً طويلاً بلغتهم حتى فرغ فالتفت الترجمان الى الجماعـــة وشرع يفسر لهم مقالة سارى عسكر ويترجم عنها بالعربي والجماعة يسمعون » .

والوضع هنا ينقلب فسنرى ان الشعب هو المسئول امام الحكومة ، وان الحكومة هي التي تحاسب ممثليه :

«فكان ملخص ذلك القول ان سارى عسكر يقول لكم يطلب منكم عشرة آلاف الف الى آخر العبارة الآتية . وأما هذه العبارة فانه قالها للمهدي فقط اننا لمـا حضرنا الى بلدكم هذه نظرنا أن أهل العلم هم أعقل الناس والناس بهم يقتدون ولأمرهم يمتثلون ثم انكم اظهرتم لنا المحبة والمودة وصدقنا ظاهر حالكم فاصطفيناكم وميزناكم على غيركم واخترناكم لتدبير الأمور وصلاح الجمهور فرتبنا لكم الديوان وغمرناكم بالإحسان وخفضنا لكم جناح الطاعة وجعلناكم مسموعين القول مقبولين الشفاعـة وأوهمتمونا ان الرعية لكم ينقادون ولأمركم ونهيكم يرجعون فلمـا حضر العثملي فرحتم لقدومهم وقمتم لنصرتهم وثبت عند ذلك نفاقكم لنا » .

ورد « نواب الأمة » بالرد الممكن في مثل هذه الظروف :

« فقالوا له نحن ما قمنا مع العثملي إلا عن أمركم (!) لأنكم عرفتمونا اننا صرنا في حكم العثملي من ثاني شهر رمضان وان البـــلاد والأموال صارت له وخصوصاً وهو سلطاننا القديم وسلطان المسلمين . وما شعرنا إلا بحدوث هذا الحادث بينكم وبينهم على حين غفلة ووجدنا أنفسنا وسطهم فلم يمكننا التخلف عنهم . فرد عليهم الترجمان ذلك الجواب ثم أجابهم بقوله ولأي شيء لم تمنعوا الرعيه عما فعلوه من قيامهم ومحاربتهم لنا فقالوا لا يمكننا ذلك خصوصاً وقد تقووا علينا بغيرنا وسمعتم ما فعلوه بنا من ضربنا وبهدلتنا عندما أشرنا عليهم

بالصلح وترك القتال فقال لهـــم واذا كان الأمر كما ذكرتم ولا يخرج من يدكم تسكين الفتنة ولا غير ذلك فما فائدة رياستكم وأيش يكون نفعكم وحينئذ لا يأتينا منكم الا الضرر لأنكم اذا حضر أخصامنا قمتم معهم وكنتم وإياهم علينا واذا ذهبوا رجعتم الينا معتذرين » .

وما فهمه سارى عسكر متأخراً هو بالضبط عين مـا فهمه المشايخ منذ اللحظة الأولى، عن مهمتهم التي ابتلوا بها ، وفرضت عليهم بحكم وجودهم عند سطح المجتمع . هـــذه المهمة هي التربص بالمحتل ، وخداعه لتخفيف الضرر بالرعية ، وانتظار أي فرصة للانقضاض عليه .. ولما أصبح الفهم متبادلاً .. اتخذت لهجة الحكومة في مخاطبة المجلس أسلوباً لا نظن أن حكومة قـــد لجأت اليه :

« فكان جزاؤكم أن نفعل معكم كما فعلنا مع أهل بولاق من قتلكم عن آخركم وحرق بلدكم وسبي حريمكم وأولادكم » .

ولا شك انه بيان مختصر مفيد تقدمـــه « السلطة التنفيذية » « للسلطة التشريعية » عن منجزات «جيش مصر» في بولاق !.. كمقدمة لطلب الثقة !

ولكن «سارى عسكر» كان أشفق بالمشايخ من مؤرخي مدرسة « يعقوب ابن مارية غزال » لذلك لم يتقدم بطلب ثقة بل قال :

« ولكن حيث اننا اعطيناكم الأمان فلا ننقض اماننا ولا نقتلكم بل نأخذ منكم الأموال (وهـذا افضل بالطبـع للمحتلين ، ولكن بشهادة « هيرولد » نفسه فإن الشعوب تفضل المغامرة بقطع الاعناق عن النهب المحتوم) فالمطلوب منكم عشرة آلاف الف فرنك عن كل فرنك ثمانية وعشرون فضة يكون فيها الف فرانسة عنها خمس عشرة خزنة رومي بثلاث عشرة خزينة مصري منها خمسمائة الف فرانسة على مائتين » .

بل ويسجل هذا الاجتماع « أول » اخرى من سلسلة الأوليات التي تحصيها

المدرسة الاستعمارية ، « فلأول » مرة وآخر مرة في التاريخ تفرض السلطة التنفيذية غرامات على ذات أعضاء السلطة التشريعية مما يؤكد عدم وجود حصانة !..

« على الشيخ السادات خاصة من ذلك خمسمائة وخمسة وثلاثون الفاً . والشيخ مصطفى الصاوي خمسون الفاً والشيخ العناني مائتان وخمسون الفاً نقتطعها من ذلك نظير نهب دور الفارين مع العشملي مثل المحروقي والسيد عمر مكرم وحسين اغا شنن وما بقي تدبرون رأيكم فيه وتوزعونه على أهل البلد وتتركون عندنا منكم خمسة عشر شخصاً انظروا من يكون فيكم رهينة عندنا حتى تغلقوا ذلك المبلغ وقام من فوره ودخل مع اصحابه الى داخل . واغلق بينه وبينهم الباب ووقفت الحرسية على الباب الآخر يمنعون من يخرج » .

وهكذا أصبح « النواب » يتمنون الخروج ولو على أسنة الحراب . وهذه أول مرة أيضاً !

وينتهي الجانب الهزلي ليبدأ الجانب المأساوي :

« فبهت الجماعة وانتقعت وجوههم ونظروا الى بعضهم البعض وتحيرت أفكارهم ولم يخرج عن هذا الأمر إلا البكري والمهدي » .

أما البكري فصلته المشبوهة بل المفضوحة بالسلطة أشهر من ان تحتاج الى شرح أو تساؤل وقد وصل الأمر الى حد قيام علاقة « ما » بين ابنته ورجال الاحتلال . بصرف النظر عن مدى هذه الصلة ، وعن شخصية « الرجل » الفرنسي الذي مثل طرفها المذكر .. أهو نابليون ذاته أم غيره .. ولكن المتفق عليه بين معاصريه انه كان على علاقة غير مشرفة بالمحتلين ، وحينما طالته يد مواطنيه ، عبروا عن رأيهم فيه بعنف ، وبعد ما تم الجلاء أنزلوا عقاباً صارماً بابنته .

أما المهدي فـ « حرق بيته بمرأى منهم (على يد الثوار) وكان قبل ذلك

نقل جميع ما فيه بداره بالخرنفش ولم يترك به إلا بعض الحصر ولم يكن به غير بعض الخدم وكان يستعمل المداهنة وينافق الطرفين بصناعته وعادته»[٣٧].

ولا شك ان كفاءات المهدي كانت في ذروة تألقها في هذه الفترة . فهذا الغلام المسيحي – وفي رواية يهودي – الذي اعتنق الاسلام واستطاع ان يشق طريقه الى قلوب الحكام ببراعة نادرة ، ليصبح شيخاً للجامع الأزهر – على عهد محمد علي – كان المهدي هو النموذج الأزهري الذي سنجده بعد ذلك في عصور الانحطاط كلها ، سنجده الى جانب السلطة ، يفق لها ويبرر أفعالها ويعينها على الفتك بجيل المشايخ المقاوم ، بل وحتى المسالمين ولكن دون نفاق .

نعود الى السلطة التشريعية في موقفها الحرج : « ولم تزل الجماعة في حيرتهم وسكرتهم وتمنى كل منهم انه لم يكن شيئاً مذكوراً فلم يزالوا على ذلك الحال الى قريب العصر حتى بال اكثرهم على ثيابه وبعضهم شرشر ببوله من شباك المكان (*) » .

ثم يقدم لنا الجبرتي ، بدون تعليق ، لمحة من التمزق الخطير الذي احدثته الحملة الفرنسية في علاقات المجتمع المصري ، عندما نرى كبار المشايخ يترامون عند اقدام النصارى الذين تفوقوا عليهم في المكانة بسبب تعاونهم مع المحتل « النصراني » !

« وصاروا يدخلون على نصارى القبط ويقعون في عرضهم فالذي انحشر فيهم ولم يكن معدوداً من الرؤساء أخرجوه بحجة أو بسبب . وبعضهم ترك مداسه وخرج حافياً وما صدق بخلاص نفسه . هذا والنصارى والمهدي يتشاورون في تقسيم ذلك وتوزيعه وتدبيره وترتيبه في قوائم » . حتى الشيخ السادات توسل بالطائفية لكي ينجو من العذاب المهين :

(*) يستطيع لويس عوض ان يضيف الى قائمة الاوليات التي حققتها الحملة في مصر : وهذه « اول » مرة يبول فيها أعضاء مجلس نواب على ثيابهم .! وآخر مرة باذن الله .

« اصعدوا الشيخ السادات الى القلعة وكان أرسل الى كبار القبط بأن يسعوا في قضيته ورهن حصصه ويغلق الذي عليه . فردوا عليه بأنه لا بد من تشهيل قدر نصف الباقي أولاً . ولا يمكن غير ذلك . وأما الحصص فليست في تصرفه ولما تكرر ارساله للنصارى وغيرهم نقلوه الى القلعة ومنعوه الاجتماع بالناس وهي المرة الثالثة » . وفي نفس اليوم (٥ محرم ١٢١٥) (مايو ١٨٠٠) يسجل الجبرتي : « طلبوا عسكر من القبط فجمعوا منهم طائفة وزيوهم بزيهم وقيدوا بهم من يعلمهم كيفية حربهم ويدربهم على ذلك . وأرسلوا الى الصعيد فجمعوا من شبانهم نحو الألفين واحضروهم الى العسكر »[٣٨] ولا أظن اننا بحاجة الى التعليق على المخطط الخبيث الذي كان يحاول أن يزرع الطائفية فى أرض لم تعرفها أبداً عبر تاريخها ، ولكن المحتل الفرنسي حاول إثارتها باجبار كبار علماء الأزهر على التشفع « بالمسيحيين » عند الحاكم « المسيحي » .

ونتساءل هل يمكن ان يتعلم المصريون « القومية » ويتخلون عن التميز بالاديان على يد حكم يجعل الشفاعة اليه ، بيد المنتسبين الى دينه ؟ أم أن ذلك اللون من الحكم يمثل نكسة في جميع المفاهيم والعلاقات التي أرستها وحدة المصريين التاريخية ..؟!

ويفهم من رواية الجبرتي ان عدل « المساواة في الظلم » كان متوفراً ، فلم يتركوا فئة من الأمة المصرية الا وفرضوا عليها جانباً من الفردة : « حتى وزعوها على الملتزمين واصحاب الحرف حتى على الحواة والقردتية والمحبظين والتجار وأهل الغورية وخان الخليلي والصاغه والنحاسين والدلالين والقبانية وقضاة المحاكم وغيرهم . وكل طائفة مبلغ له صورة مثل ثلاثين الف فرانسة وأربعين الف وكذلك بياعون التنباك والدخان والصابون والخردجية والعطارون والزياتون والشواؤن والجزارون والمزينون وجميع الصنائع والحرف وعملوا على أجرة الاملاك والعقار والدور أجرة سنة كاملة ثم انهم استأذنوا للمشايخ الخالص

يتوجه حيث أرادوا والمشبوك يلزمون بـــه جماعة من العسكر حتى يغلق المطلوب منه أما الصاوي وفتوح بن الجوهري فحبسوهما ببيت قائمقام والعناني هرب فلم يجدوه وداره احترقت فأضافوا غرامته على غرامة الشيخ السادات كملت بها مائة وخمسين الف فرانسة وانفض المجلس(*) على ذلك وركب ساري عسكر من يومـــه ذلك وذهب الى الجيزة **ووكل يعقوب** القبطي يفعل في المسلمين ما يشاء(**) . وقائمقام والخازندار لرد الجوابات وقبض مـــا يتحصل وتدبير الامور والرهونات » .

أما الشيخ السادات ، أبرز المشايخ ، والرجل الثاني بعـد الشرقاوي ، و « رئيس لجنة المصادرات » !! . فقد لقي معاملة تزيل كل الأوهـام عن الديوان وطبيعته :

« ونزل الشيخ السادات وركب الى داره فذهب معه عشرة من العسكر وجلسوا على باب داره فلما مضت حصة من الليل حضر اليه مقدار عشرة من العسكر أيضاً فأركبوه وطلعوا به الى القلعة وحبسوه في مكان فأرسل الى عثمان بيك البرديسي وتداخل عليه فشفع(***) فيه فقالوا له اما القتل فلا نقتله لشفاعتك وأما المال فلا بـــد من حبسه وعقوبته حتى يدفعه . وقبضوا على فراشه ومقدمه . وحبسوهما ثم انزلوه الى بيت قائمقام فمكث به يومين ثم أصعدوه الى القلعة ثانياً وحبسوه في حاصل ينام على التراب ويتوسد بحجر

(*) لم يذكر مؤرخ « أول برلمان » اذا كان قد تلي مرسوم فض الدورة الاستثنائية !!

(**) هذه العبارة من الجبرتي ، فسرها « لويس عوض » بـــأن « كليبر » عهد « ليعقوب » « بتنظيم مالية البلاد » و « انه كان يتدخل لتخفيف اعباء الضرائب على مواطنيه » !!

(***) المماليك يتشفعون في المشايخ ويقبل الفرنسيون شفاعتهم . ولكن البعض يصر على ان الفرنسيين جـــاءوا لنقل السلطة من المماليك للمشايخ .. وان « يعقوب » شكل الفيلق القبطي لمحاربة المماليك . بينما يعمل « يعقوب » بانسجام تام مع «البرديسي» في خدمة ورعاية الفرنسيين !

وضربوه تلك الليلة فأقام كذلك يومين ثم طلب زين الفقار كتخدا فطلع اليه هو وبرطلمان فقال لهما أنزلوني الى داري حتى أسعى وأبيع متاعي وأسهل حالي فاستأذنوا له وأنزلوه الى داره فأحضر ما وجده من الدراهم فكانت تسعة آلاف ريال معاملة عنها ستة آلاف ريال فرانسة ثم قوموا ما وجدوه من المصاغ والفضيات والفراوي والملابس وغير ذلك بأبخس الثمن فبلغ ذلك خمسة عشر ألف فرانسه فبلغ المدفوع بالنقدية والمقومات أحدا وعشرين ألف فرانسه . والمحافظون عليه من العسكر ملازموه لا يتركونـــه يطلع الى حريمه ولا الى غيره وكان وزع حريمه وابنه الى مكان آخر . وبعد أن فرغوا من الموجودات جاسوا خلال الدار يفتشون ويحفرون الأرض على الخبايا حتى فتحوا الكنيفات ونزلوا فيها فلم يجدوا شيئاً ثم نقلوه الى بيت قائمقام ماشياً وصاروا يضربونـه خمسة عشر عصا في الصباح ومثلها في الليـــل . وطلبوا زوجته وابنه فلم يجدوهما فأحضروا محمد السندوبي تابعه وقرروه حتى عاين الموت حتى عرفهم بمكانها . فأحضروهما وأودعوا ابنه عند آغات الانكشارية وحبسوا زوجته معه فكانوا يضربونه بحضرتها وهي تبكي وتصيح وذلك زيادة في الانكاء » .

وكانت مناسبة نادرة للشيخ وزوجته لفهم روح الحضارة الحديثة وممارسة التحرر الشامل الذي جاءت به الحملة الفرنسية .

« ثم ان المشايخ وهم الشرقاوي والفيومي والمهدي والشيخ محمد الأمـــير وزين الفقار كتخدا تشفعوا في نقلها من عنده فنقلوها الى بيت الفيومي وبقي الشيخ على حاله . وأخـــذوا مقدمه وفراشه وحبسوهما وتغيب اكثر اتباعه واختفوا ثم وقعت المراجعة والشفاعة في غرامة الشيخ فتـــوح الجوهري والصاوي فأضعفوها وجعلوها على كل واحد منهـما خمسة عشر الف فرانسه ورد الباقي على الفردة العامة . وأما الشيخ محمد بن الجوهري فانه اختفى فلم يجدوه . فنهبوا داره ودار نسيبه المعروف بالشويخ ثم انه توسل بالست نفيسه زوجة مراد بيك فأرسلت الى مراد بيك وهو بالقرب من الفشن فأرسل من

عنده كاشفاً وتشفع فيه.فقبلوا شفاعته ورفعوها عنه وردوها أيضاً على الفردة العامـة » .

وهكذا وجد المشايخ أنفسهم بعد عامـين من الذبح والنهب والتدمير والتخريب والبيانات التي تتحدث عن تحريرهم من المماليك ، وجدوا أنفسهم يحتمون بزوجة « مراد » بيك ، ويتشفع فيهم الوغد « مراد » ، بل ويرسل كاشفاً يفرج عنهم ويسقط غرامات الفرنسيس !

« ثم انهم وكلوا بالفردة العامة وجمع المال يعقوب القبطي وتكفل بذلك وعمل له الديوان ببيت البارودي » .

وواصل « يعقوب » نشاطه في «تنظيم مالية البلاد» واعدادها للاستقلال!

« وألزموا الآغا بعدة طوائف كتبوها في قائمـة بأسماء أربابها وأعطوه عسكراً وأمروه بتحصيلها من أربابها وكذلك علي أغـا الوالي الشعراوي وحسن أغا المحتسب وعلي كتخدا سليمان بيك . فنبهوا على الناس بذلك وبثوا الأعوان بطلب الناس وحبسهم وضربهم فدهي الناس بهذه النازلة التي لم يصابوا بمثلها ولا مـا يقاربها ومضى عيد النحر ولم يلتفت اليه أحد بل ولم يشعروا به ونزل بهم من البلاء والذل ما لا يوصف . فإن أحـد الناس غنياً كان أو فقيراً لا بد وأن يكون من ذوي الصنائع أو الحرف فليزمه دفع مـا وزع عليه من حرفته أو في حرفتيه وأجرة داره أيضاً سنة كاملة فكان يأتي على الشخص غرامتان أو ثلاثـة ونحو ذلك وفرغت الدراهم من عند الناس واحتاج كل الى القرض فلم يجد الدائن من يدينه لشغل كل فرد بشأنه ومصيبته فلزمهم بيـع المتاع فلم يوجد من يشتري واذا أعطوهم ذلك لا يقبلونه فضاق خناق الناس وتمنوا الموت فلم يجدوه ثم وقع الترجي في قبول المصاغـات والفضيات فأحضر الناس ما عندهم فيقوم بأبخس الأثمان وأما أثاثات البيوت من فرش ونحاس وملبوس فلا يوجد من يأخذه وأمروا بجمع البغال ومنعوا المسلمين من ركوبها مطلقاً سوى خمسة أنفار من المسلمين وهم الشرقاوي والمهدي

والفيومي والأمير وابن محرم . والنصارى المترجمين وخلافهم لا حرج عليهم » .

ان زرع المرارة والاحقاد على هذا النحو لا يفيد الا المحتل الأجنبي . كذلك لا يمكن أن نجد مصلحة قومية في اقدام مؤرخ على اعتبار الفترة التي شهدت تحريم ركوب البغال على المسلمين ، يعتبرها بداية التحرر ، وفجر الديموقراطية ، وبداية القومية المصرية ! وما دمنا نقبل شهادة الجبرتي بدون تحفظ فلا بد من التسليم بأن محاولة خبيثة كانت تجري لاثارة الغرائز الخاطئة عند الأقليات ، وتدمير الصلات المتينة التي جمعت عناصر الأمة المصرية طوال القرون التي سبقت الغزو الصليبي الجديد :

« وتطاولت النصارى من القبط . والنصارى الشوام على المسلمين بالسب والضرب . ونالوا منهم اغراضهم واظهروا حقدهم . ولم يبقوا للصلح مكاناً وصرحوا بانقضاء ملة المسلمين وأيام الموحدين » .

وامام هذا الهول النازل بالقاهرة ، هاجر أهلها هرباً الى الريف « وكان ممن خرج من مصر صاحبنا النبيةالعلامة الشيخ حسن — المشار اليه فيما بعد — فتوجه لجهة الصعيد . وأقام باسيوط . فأقام بها نحو ثمانية عشر شهراً وكان كثيراً ما يراسلني بالمكاتبة ويبالغ في ذلك لتشوقه الى مصر » .

وهكذا نرى من كتاباته مدى تأثر الجبرتي بالدور الحضاري للحملة الفرنسية ، أما الشيخ « حسن العطار » فقد خالف قوانين الهجرة في مصر فهاجر من القاهرة الى الصعيد معانداً المثل المصري « بحر سنه ولا تقبل يوم » فقد اتجه هو الى « القبلي » ثمانية عشر شهراً هرباً من الحضارة الفرنسية : « وما كنت أوثر أن يمتد بي الزمان حتى ارى الاسفار تتلاعب بي كالكرة في ميدان البلدان . حصل لي القهر بخروجي من القاهرة » .

« ثم ان اكثر الفارين رجع الى مصر لضيق القرى وعدم ما يتعيشون به فيها وانزعاج الريف بقطاع الطريق والعرب والمناسر بالليل وبالنهار والقتل

فيما بينهم . وتعدى القوي على الضعيف وأستمرت الطرق مجفرة . والاسواق معفرة . والحوانيت مقفولة . والعقول مخبولة . والخانات والوكائل مغلوقة . والنفوس مطبوقة والغرامات نازلة . والارزاق عاطلة . والمطالب عظيمة . والمصائب عميمة . والعكوسات مقصودة . والشفاعات مردودة . واذا اراد الانسان ان يفر الى أبعد مكان وينجو بنفسه. ويرضى بغير ابناء جنسه لا يجد طريقاً للذهاب وخصوصاً من الملاعين الاعراب الذين هم أقبح الأجناس وأعظم بلاه محيط بالنـاس . وبالجملة فالأمر عظيم والخطب جسيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم . وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهي ظالمة ان اخذه اليم شديد » .

« وفي عشرينه انتقلوا بديوان الفردة من بيت البارودي (أول وزارة للماليـة !) الى بيت القيسرلي بالميدان ووقع التشديد في الطلب والانتقـام بأدنى سبب »[٣٩] .

ولنعرف أي هول نزل بالقاهريين ، يجب ان نعرف ان كليبر فرض على القاهرة غرامـة ١٢ مليون فرنك بينما بلغت كل ميزانيـة الحملة الفرنسية التي اعتمدتها الحكومة الفرنسية ٩ ملايين من الفرنكات[٤٠] .

ويقول « هيرولد » : « وكان هناك رجل يرتع في هذا الجو الذي يناسب طبيعته ، في الأيام التالية للثورة ، وذلك هو برطلمين ضابط البوليس المنتفخ الأوداج الزاهي الثيـاب » يقول الجبرتي : « وانتدب برطلمين للعسس على من حمل السلاح أو اختلس ، وبث اعوانه في الجهات ، يتجسسون في الطرقات، فيقبضون على الناس بحسب اغراضهم ، وما ينهيه النصارى من ابغاضهم فيحكم فيهم بمراده . ويعمل برأيـه واجتهاده . ويأخذ منهم الكثير ، ويركب في موكبه ويسير ، وهم موثقون بين يديه بالحبـال ، ويسحبهم الأعوان بالقهر والنكال ، فيودعونهم السجونات، ويطالبونهم بالمنهوبات، ويقررونهم بالعقاب والضرب ، ويسألونهم عن السلاح وآلات الحرب ، ويدل بعضهم على بعض ،

فيضعون على المدلول عليهم أيضاً القبض . وكذلك فعل مثل ما فعله اللعين الآغا ، وتجبر في افعاله وطغى ، وكثير من الناس ذبحوهم ، وفي بحر النيل قذفوهم . ومات في هذين اليومين وما بعدهما أمم كثيرة لا يحصي عددها الا الله »[٤١] .

والمدرسة الاستعمارية تحاول طبعاً التركيز على « برطلمين » « والآغا » « وشكر الله » .. لكي تستر عار يعقوب . ولكن يعقوب شريك كامل المسئولية في كل ما أُرتكب ضد المصريين بعد ثورة القاهرة الثانية من اعمال الابتزاز الوحشي ، او اعتصار الليمونة كما كان كليبر يتباهى[*] .

(*) تولى « كليبر » حكم مصر وقيادة قوات الاحتلال بعد عودة « نابليون » الى فرنسا. وفي عهده وقعت ثورة القاهرة الثانية .

محاولة تمزيق الوحدة الوطنية

تنفرد حضارتنا بتعدد وتنوع واستمرار الاقليات في اطارها(*) .. وحيثما تلفت في خريطة العـالم ، فستجد ان الاقليات التي عاشت عبر التاريخ ، وازدهرت، ونجت، هي تلك التي أسعدها الحظ فكانت في البلدان التي حكمها المسلمون . ففي الحضارة الاسلامية عـاشت كل الاقليات وازدهرت وتخطت كل مخاطر الفناء التي تعرضت لها الاقليات في الحضارات الأخرى . وقضية الاقليات ككل ظاهرة يمكن أن تكون عنصر قوة أو عامل ضعف تبعـاً لمنحنى الحضارة العام ، ففي فترات التألق يصبح تعدد الأقليات عاملاً من عوامل الازدهار بما يمنحه من تنوع وتنافس وتكامل فتعطي الجماعة خير مـا عندها ، وفي فترات الانهيار العام تصبح عبئاً ثقيلاً وثغرات خطيرة يمكن أن ينفذ منها الخصم ٠

وبالنسبة للأقباط المصريين ، فان وضعهم يختلف عن سائر الاقليـات في العالم كله ، وذلك يرجع بالدرجة الأولى الى تاريخ الكنيسة القبطية كأعرق

(*) قبل ظهور المجتمع الأمريكي الذي هو في الحقيقة تجمع اقليات هاجرت من أوروبا فراراً من طغيان الاغلبية .

واقدم كنائس العالم وككنيسة مستقلة ، لا تتبع اية كنيسة أوروبية، بل ان تاريخها قبل ظهور الاسلام ، هو تاريخ الصراع المرير ضد سيطرة الكنيسة الغربية الأوروبية . ولقد كان من أهم عوامل نجاح الفتح العربي ، والسرعة المدهشة التي تم بها الاندماج المصري في المتحد العربي الذي أقامه الاسلام ، هو دور المخلص الذي لعبه الفاتحون العرب بالنسبة للأقباط المصريين، ويكفي أن يذكر التاريخ أن بطريرك الاقباط الهارب فيالصحراء عشر سنوات كاملة، من تنكيل وبطش كنيسة الدولة الرومانية ، لم يعد الى كرسي البطريركية ، ويأمن على نفسه ، ويستقر إلا بعد الفتح العربي ، وبسيوف المسلمين وفي حمايتهم . بل لقد وضع هذا الفتح ، نهاية المذابح والاضطهادات التي شنتها اوروبا على اقباط مصر طوال عصر الشهداء . فالدولة الرومانية الوثنية شنقت وذبحت وأحرقت الأقباط المصريين طوال ثلاثة قرون . والدولة الرومانية المسيحية قامت بنفس الدور مع قسوة أشد وتنكيل أبشع ، ضد الأقباط المصريين نفس المدة تقريباً .. لذلك كانت الكنيسة المصرية أقوى القلاع العربية صموداً في وجه اغراءات الغرب وخداعه . والأقباط المصريون هم أكثر الأقليات اندماجاً وأخوة مع الأغلبية المسلمة .

يقول الدكتور حسين فوزي :

« والذي لا يعرفه الاقلة من المصريين–وما أقل المصريين معرفة بتاريخهم– هو أن أجدادهم القبط تعذبوا واضطهدوا على يد حكام بيزنطة المسيحيين ، أشد بكثير مما عرفوا من مهانة وتقتيل واستشهاد أيام الامبراطرة الوثنيين ساديرس ودقيوس ودقلديانوس ، لا لسبب إلا لأنهم حرصوا على عقيدتهم المسيحية[٤٢] » .

ويلاحظ – بذكاء – ان المصريين المسلمين والاقباط يجمعون على طبيعة واحدة للمسيح .. ويخالفون بذلك – معاً – الكنيسة الغربية ..

ويقول الدكتور « وليم سليمان » : « وعاشت كنيسة مصر وشعبها من

جديد – وبعد حوالي مائة عام فقط من سلام « قسطنطين » تحت وطأة اضطهاد عنيف متواصل تنظمه دولة تصف نفسها بأنها مسيحية، ويشترك فيه وينفذه الاساقفة المعينون من قبل الامبراطور البيزنطي ، ويفوق ما كان يصنعه الامبراطرة الوثنيون الذين جاءوا قبل قسطنطين واستمر الوضع على هذا النحو الى ان دخل الاسلام مصر عام ٦٤٠ [٤٣] » .

« ولم تنسَ كنيسة مصر هذه الحقيقة من تاريخها قط. وهي تذكر ابناءها اثناء اجتماعات الصلاة الدورية بما لاقاه آباؤهم على يد الملكانيين – الذين باسم المسيحية – ساموهم أشد انواع العذاب . ولا يكاد يمضي شهر الا وفيه ذكرى احد شهداء هذه الفترة » .

« ولم ينسَ أبناء مصر قط الدرس الذي تلقوه من الامبراطورية الرومانية المسيحية. وحين جاءت جحافل الغرب تحمل شعار الصليب رأى فيهم مسيحيو مصر كتائب جديدة من الجند المسيحيين الذين عرفوهم جيداً من القرن الرابع والذين خاضت خيولهم في دماء اجدادهم حتى الركب » .

« والحق ان الحروب الصليبية – بعكس ما قد يبدو – قد أكدت ارتباط المسيحيين العرب ، والأقباط بالذات ، باخوانهم المسلمين ، لأنها أعادت الى الذاكرة القبطية الموقف الظالم للكنيسة الأوروبية منهم، فقد عامل الصليبيون المسيحيين العرب كرعايا من الدرجة الثانية ، وأعتدوا على كنائسهم ورهبانهم بل « وأصدروا أمراً بمنع الاقباط من زيارة القبر المقدس »[٤٤] . وانتزعوا دير السلطان منهم ولم يعده اليهم الا صلاح الدين فسموه باسمه «دير السلطان» « يقول جاك تاجر انه « لما احتل الصليبيون القدس منعوا النصارى المصريين من الحج الى هذه المدينة بدعوى انهم ملحدون. وكتب أحد المؤرخين الاقباط يشكو من هذه المعاملة قائلاً: لم يكن حزن الأقباط بأقل من حزن المسلمين»[٤٥].

هذا بينما يقرر الرحالة « ناصر خسرو » في كتابه المشهور سفرنامه انه عندما زار مصر ١٠٣٥ قبل وصول الصليبيين الى الشام بستين عاماً يقرر أن

أغنى رجل في مصر وقتها كان نصرانياً !

ويخلص وليم سليمان من تتبع تاريخ الكنيسة القبطية الى :

« لقد أدى حرص الأقباط على عقيدتهم وايمان كنيستهم ، الى رفض كل دعوة للانضمام تحت أي لواء اجنبي ديني أو سياسي وجعلهم أحد الأركان الوطيدة في مقاومة السيطرة الاستعمارية الدخيلة »(٤٦) . « وكان المبشرون يندهشون حقاً حين يجدون أن الأقباط يفضلون عليهم مواطنيهم المسلمين وينفرون من اولئك الافرنج الغرباء الوافدين » (٤٧) .

ويفسر » جاك تاجر » كراهية الأقباط المصريين للافرنج الى « ربط الأقباط بين الافرنج ـ الأوروبيين فيما بعد ـ والملكيين .. ومن الطبيعي ان يعتبرهم الاقباط حلفاء الملكيين وبالتالي أعداءهم » .

ولعل هذه الطبيعة الخاصة للكنيسة المصرية يضاف اليها العامل الجغرافي الذي قلنا أنه فرض وحدة المصريين . وهو جغرافية مصر ، الأرض السهلة المنبسطة المرتبطة بالنيل من اسوان الى البحر ، والتي تخلو من الجيوب الجغرافية ، التي تسمح بتقوقع الاقليات فيها ، فتنعزل بنفسها عن الآخرين . بالعكس عندنا كانت قرى المسلمين والمسيحيين متجاورة ، وبيوتهم مختلطة داخل القرية الواحدة والمسجد بجوار الكنيسة ، والعمدة القبطي يحكم قرية غالبيتها من المسيحيين ، والعكس كذلك ، الزي واحد والعادات واحدة . والأقباط أخوال المسلمين منذ « هاجر »(*) و « مارية القبطية » .. الى آخر قصة حب في القرية المصرية الحديثة ..

يقول وليم سليمان : « وثمة حقيقة مؤكدة في تاريخ مصر ، هي ان الدين لم يكن مؤهلاً أو مانعاً لتولي وظيفة عامة الا بعد دخول الانجليز » ويقول :

(* هاجر أم العرب وزوجة ابراهيم ام اسماعيل ، مصرية، وكذلك مارية ام سيدنا ابراهيم من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« ويكاد الانسان يبصر تحت ثياب شيوخ الأزهر الذين تصدوا للفرنسيين رغم ادعاء نابليون باعتناق الاسلام ، شخص بنيامين البطريرك القبطي ومعاونه ثم خليفته أغاثو وهما يقفان في مواجهة « قيرش » المندوب الديني والمدني الموفد من الامبراطور البيزنطي المسيحي لاذلال الشعب المصري » .

ولا شك ان فترات عصيبة قد مرت بالمصريين مسلمين ومسيحيين . ولا شك ان اضطهادات قد انزلت بالاقباط كأي طائفة أخرى بالمجتمع . ولكن ذلك كان في عصور الانحطاط . وكانت اضطهادات ينزلها بالشعب كله أعوان الحاكم المستبد من المسيحيين والمسلمين ، ولكن التاريخ المصري نظيف تماماً من أية مذابح على مستوى الجماهير بسبب من الطائفية . وقبل الحملة الفرنسية كان الأقباط يشكلون الجهاز المالي للدولة ، ويحتل اكابرهم في القاهرة وعواصم المديريات مكانة بارزة لا ينكرها عليهم مواطنوهم (*) . يقول الرافعي « وشارك الاقباط اخوانهم المسلمين في الزراعة والصناعة والتجارة ، وتخصص الأقباط في الأعمال الحسابية والمالية فعهد اليهم البكوات المماليك والكشاف بتحصيل الضرائب وتقديرها وتوزيعها على الأطيان والحاصلات ، فكانت لهم في هذه الناحية من ادارة الحكومة سلطة مطلقة لا ينازعهم فيها منازع ، ذلك ان بأيدي الصيارفة سجلات الأطيان والضرائب في للقرى واليهم تقدير ما على كل ذي مال من الضريبة ومعرفة الأطيان المزروعة والبور أي «ما يؤخذ عنها الخراج وما لا يؤخذ» وبيان من دفع من الفلاحين ومن لم يدفع ، وكانت سلطتهم في هذا المجال مطلقة لا رقابة عليها ، وما يثبتونه في دفاترهم حجة لا جدال فيها ، ورؤساؤهم يسمون « المباشرين » وهم أصحاب النفوذ والسلطة عليهم . وكان هؤلاء المباشرون هم وكلاء المماليك وكبار الملتزمين وقواماً عليهم في ادارة املاكهم وتحصيل

(*) يوم كانت حياة الأقليات مستحيلة في أوروبا كان الوزير الاول في مصر مسيحياً .. وهو ما لم تحققه الأقليات الاوروبية الا بعد عشرة قرون تقريباً !

الضرائب من الأطيـان الداخلة في التزامهم ، فكان لهم نفوذ كبير في ادارة الحكومة وسلطة لا منازع فيها في القرى، ورئـسهم يُسمى « كبير المباشرين » وله نفوذ عظيم يستمده من اتساع أعمال وظيفته وتفرعها في الأقاليم وسلطته على من تحت يده من المباشرين والصيارفة والكتبة والمساحين ، ووصل بعضهم الى أرفع مراتب النفوذ والجاه ، كالمعلم رزق والمعلم ابراهيم الجوهري وأخيـه جرجس الجوهري (*) . فالمعلم رزق كان كاتب سر علي بك الكبير ومدير حسابات في عهده وكان بمثابة مستشاره ومرجعه في شؤون الدولة ، فكان له من النفوذ والسلطة ما لم يتوافر لأحد من رجال الحكومة . وخلفه في نفوذه المعلم ابراهيم الجوهري . ذكره الجبرتي في وفيات سنة ١٢٠٩ هجرية (١٧٩٥ ميلادية) فقال عنه إنه « رئيس الكتبة الاقباط بمصر . وانه ادرك في الدولة بمصر من العظمة ونفاذ الكلمة وعظم الصيت والشهرة .. فكان هو المشار اليه في الكليات والجزئيات حتى دفاتر الروزنامة والميرى وجميع الايراد والمنصرف. وجميع الكتبة والصيارف تحت ايده واشارته. وكان من دهاقين العالم ودهاتهم لا يغرب عن ذهنه شيء من دقائق الأمور »(٤٨) .

ثم جاء « جرجس الجوهري » الذي ظـــل في منصبه من قبيل الاحتلال الفرنسي ١٧٩٥ الى ١٨١١ أي بعد الاحتلال والجلاء حتى استقرار محمد علي في الحكم ، لم تتأثر مكانته ، ولا تغير مركزه بعودة المماليك والأتراك ، ولا بقيام سلطة محمـد علي ، بل كان كما وصفه الجبرتي « فكان رئيس الرؤساء وكذلك عند مجيء الوزير يوسف باشا والعثمانيين وقدموه وأجلسوه لما يسديه اليهم من الهدايا والرغائب حتى كانوا يسمونه جرجس أفندي ورأيته يجلس بجانب محمد باشا خسرو (والي مصر من قبل الدولة العثمانية بعد جلاء الفرنسيين)

(*) لاحظ ان أشهر قبطي يشترك في اللقب«الجوهري»مع اكبر مشايخ العصر واكثرهم احتراماً.. وهي ملاحظـة ثانوية ولكن تكشف زيف التصور الذي يرسمه البعض عن مجتمع منفصل كأنـه مجتمع هندي !

بجانب شريف أفندي الدفتردار ويشرب بحضرتهم الدخان وغيره . ويراعون جانبه ويشاورونه في الأمور . وكان عظيم النفس ويعطي العطايا ويفرق على جميع الأعيان عند قدوم شهر رمضان الشموع العسلية والسكر والأرز والكساوي والبن ويعطي ويهب ، وبنى عدة بيوت بحارة الونديك والازبكية وانشأ داراً كبيرة وهي التي يسكنها الدفتر دار الآن ويعمل فيها الباشا (محمد علي) وابنه الآن الدواوين عند قنطرة الدكة . وكان يقف على أبوابه الحجاب والخدم » .

« وفي « ريبو » ان الأقباط كانوا بوفرة في جيش مراد الذي دافع عن القاهرة » (٤٩) .

هذه هي مكانة الأقباط في المجتمع المصري ، ليست هناك حدود طائفية بالمعنى المفهوم في الحضارة الغربية . ومن ثم فباطل الزعم بأن الحملة الفرنسية ، أو ان الاستعمار الغربي قد غير من وضع طوائف مضطهدة ، أو أنه حقق مساواة ما بين هذه الطوائف . بل بالعكس قد افتعل تناقضاً غير حقيقي ، وعرض هذه الطوائف بالذات لانفعالات غاضبة من جانب الأغلبية (*) .

ومنذ لويس الرابع عشر ، والاستعمار الغربي يهتم بقضية الأقليات المسيحية

(*) هذا هو الرأي الذي وصل اليه « جاك تاجر » في كتابه الصادر عام ١٩٥١ « اقباط ومسلمون » اذ يقول : ولو ان عداء بونابرت للأقباط لم يذهب به الى حد الاضطهاد ، فانه على أي حال لم يكن رفيقاً بهم . كان يقول عن الاقباط « انهم لصوص مكروهون في البلاد غير أنه يجب مراعاتهم لأنهم يعرفون الأصول العامة لادارة البلاد » « وفي ٢٤ أغسطس عام ١٧٩٩ كتب الى كليبر « كنت مزمعاً ان سارت الامور سيرها الطبيعي ، أن أضع نظاماً للضرائب يجعلنا نستغني تقريباً عن خدمات الأقباط . » بل ويلخص « جاك تاجر » نتائج الحملة الفرنسية بقوله « وباختصار فإن الاقباط كانوا يتمنون رحيل هذا الأجنبي الذي لم يفيدهم بشيء ، بل كان وجوده بينهم يزيد كره المسلمين لهم . » « وان وجود أمة مسيحية في مصر اساء الى العلاقات بين الأقباط والمسلمين بالرغم من ان هذه الامة كانت مشبعة بروح العطف على الأغلبية » .

في الشرق ، ويحاول إستغلالها ، واشتد اهتمام أوروبا بهذه « الدولة التي يقال انها مسيحية » وتقع جنوب مصر وتسيطر على النيل ويمكن ان توجه طعنة قاتلة اليها « ويكتشف الاستعمار الغربي ان هذه الدولة تدين بالولاء لكنيسة مصر » ويحاول لويس الرابع عشر ان يجتذب عدداً من الأولاد الاقباط لتدريبهم في فرنسا ويفشل كما يؤكد « وليم سليمان » في اقناع عائلة قبطية واحدة بارسال اولادها الى باريس .. وفي تقرير كتبه ليبنتز الى لويس الرابع عشر يغريه بفتح مصر فهناك « تكسبون عطف المسيحية وتستحقون ثناءها وهنالك لا تخسرون عطف أوروبا بل تجدونها مجمعة على الإعجاب بكم » .

ورغم كل ادعاءات نابليون (الطبعة الثورية من لويس الرابع عشر) وعمامته ومسبحته فقد كان في مخططه الاعتماد على عنصر الطائفية في التمكين لاحتلاله (*) ، مستفيداً من أخطاء وفشل الحروب الصليبية في هذه النقطة بالذات .. فنابليون كان أذكى من أن يُخطىء فهم طبيعة حملته وامبراطوريته المنتظرة في الشرق .. فهذه الحملة ما كان لها أن تأمل في كسب الأغلبية ، ولا أن تعمل على دعم الوحدة الوطنية العربية ، بل إن استمرارها ونجاحها يعتمد بالدرجة الأولى على نجاحها في تمزيق هذه الوحدة ، وتقسيم الأمة الى طوائف واغراء الأقليات بالتعاون وجعلها هدفاً لسخط الأغلبية وغضبتها لأنها

(*) وهذا ما فهمه احد العملاء،فتقدم به، لتزكية طلب اللجوء الذي تقدم به رفاق يعقوب.. فقد كتب نمر افندي في١٨ صفر١٢١٦(١٨٠١) الى تالليران وزير خارجية فرنسا لكي «يتفضل ويضع هؤلاء المهاجرين في كنفه» كتب يقول له مغرياً بذلك : « كان لويس الرابع عشر يعمل في الظاهر لضم كنيسة الحبشة للكنيسة الرومانية ، ولكنه كان يسعى في الواقع لمد نفوذه السياسي نحو اقاليم افريقيا الوسطى الجذابة ، فبذل جهوداً كثيرة غير مثمرة ليعلم في فرنسا شباباً من المصريين وعلى الأخص من القبط ، فإن بطريرك هؤلاء هو في الواقع بابا الأحباش . ولم ينجح الملك في سعيه هذا، واليوم نرى الجمهورية الفرنسية تحت حكم القنصل الاول تحقق دون عناء ما عجزت عن تحقيقه — اللهم الا الجزء الضئيل منه — الملكية الفرنسية المطلقة » .

هي التي تتولى عمليات القمع والنهب. ولا شك ان نابليون قد نجح في احداث شرخ خطير ـ مؤقت ـ في الوحدة المصرية ، ولعله مع الحملة الفرنسية كانت بداية إحساس المصريين بالبعد العالمي لاختلاف أديانهم . فبعكس ما تدعي المدرسة الاستعمارية، فإن الحملة الفرنسية أوشكت أن تحطم الوحدة المصرية، لا أن تبعث « القومية » المصرية ، وذلك بادعائها احتضان المسيحيين، وإثارتها للأحقاد .. وايغار صدور المسلمين ، باستخدام أسافل غير المسلمين كأدوات للتنكيل لحساب السلطة الفرنسية. ثم التدخل إذا ما اشتكى المسلمون لانصافهم وإنزال العقاب بالموظف المسيحي ! أو « وضع حد لتبجح المسيحيين » كما كتب نابليون لكليبر .

وبعكس ادعاءات المدرسة الاستعمارية، نجد ان سنوات الحملة الفرنسية قد شهدت من عوامل تمزق الوحدة الوطنية ما لم تعرفه مصر في تاريخها قط .. الا بعد مائة عام وعلى يد استعماري قارح هو الانجليزي « غورست » .. لولا ان سحقت محاولاته الحركة الوطنية التي قادها مصطفى كامل ثم محمد فريد وبلغت ذروتها في ثورة ١٩ بصرف النظر عن قيادتها ..

وقد وصل الحال في مصر ايام الحملة الفرنسية الى ان احتاجت الدولة الى اطلاق المنادي في الشوارع : « كل من تشاجر مع نصراني أو يهودي ، يشهد أحد الخصمين على الآخر ويطلبه لبيت سارى عسكر »(٥٠) . ولعل المناداة كانت تحريضاً على التشاجر !

وقد استعان نابليون في البداية بالنصارى الأروام والنصارى الشوام .. لأن نصارى الأروام الذين كان نائب وزير خارجية تركيا (الريس افندي) منهم بصفة دائمة ، لم يتخلصوا قط من عصبيتهم وعداوتهم . وكانوا على استعداد لخدمة المستعمر والقيام له بدور السمسار ، وهم ذاتهم كانوا اداة المماليك ، ولكن ترحيبهم بالمستعمر الأجنبي كان أشد .. أو قل إن مواهبهم في التنكيل والابتزاز كانت تتألق في ظل هذا المستعمر الأجنبي .

« وأخذوا الكثير من نصارى الأروام والقلونجية الذين كانوا مع مراد بيك وبعضهم كان بمصر فأدخلوهم في عسكرهم وزيوهم بزيهم واعطوهم أسلحة وانتظموا في سلكهم » . وقوات « برطلمين يني الرومي رئيس عسكر الأروام » كانت تتكون من : « ارواm وقبط والمماليك المنضمة اليهم وبعض فرنساوية »[٥١] .

اما النصارى الشوام فبعضهم كان على علاقة بفرنسا منذ لويس الرابع عشر.. وسرعان ما التقط هؤلاء بعض « الأسافل » المصريين من الذين كانوا في خدمة المماليك والذين انفصلوا عن جذورهم المصرية ، وانفصلوا عن الشعب كله بممارستهم أعمال النهب والسلب لحساب اسيادهم المماليك ولحسابهم الخاص من الرشوة والاختلاس. حتى ان « يعقوب » لم يكن يتورع عن اقتحام الكنيسة على ظهر جواده وشاهراً سلاحه !

ومن الخطأ الفاحش ان نجعل موقف النصارى الشوام أو الأقباط المتعاونين مع الاحتلال موقفاً عاماً ، اذ ان نصارى الشام الذين كانوا في مصر أو الذين جاءوا عندما سمعوا بأنباء الحملة أو الذين أتت بهم جيوش نابليون ، والتقطهم كليبر من باريس ، هم من « فئة الدود الذي يتبع سمك القرش » ،وهم كمهاجرين لا تربطهم بالجماهير أية صلة ، يستمدون وجودهم وحمايتهم ومكاسبهم من خدمة السلطة .. أي سلطة ، وهم بارعون في كسب ود هذه السلطة من خلال أي منفذ يتاح لهم ، وهم مع الأقباط والاروام والمسلمين الذين يعيشون في العاصمة حول السلطة ويقومون لها بالأعمال القذرة ، ليسوا الا الطبقة السفلى من جهاز الدولة أو الحذاء الذي تخوض به السلطة في أوحال القمع والجباية . وهؤلاء الذين يلتفون حول السلطة لا يمثلون بأية حال مشاعر أو اتجاهات أو مصالح الشعب القبطي..لا يمثلون الفلاحين الاقباط في الريف الذين كانوا يعتصرون الى جانب اخوانهم المسلمين بلا تمييز . بل والذين يستحيل تمييزهم عن الفلاحين المسلمين .. ونفس الشيء بالنسبة لابن المدينة القبطي. وكل الأسماء القبطية التي لمعت في خدمة الفرنسيس ، وحاولت هي وحاول الفرنسيون ، كما يحاول

المؤرخون المغرضون اليوم، ان يفسروا هذا التعاون بالتقارب الديني . كل هذه الأسماء كانت تقوم بنفس العمل لحساب المماليك المسلمين ، ولو بفجور أقل ، وهو طبيعي في مجتمع مستقل مستقر. فالعامل الديني لم يكن الا وسيلة لتحقيق مكاسب مادية ، ووسيلة ارتزاق .

وتاريخ الحملة الفرنسية يؤكد ان الأقباط قاتلوا في الصعيد، معقلهم وقتها، ضد الغزو الفرنسي الى جانب اخوانهم المسلمين، وليس في تاريخ الحملة الفرنسية بالصعيد، حادثة واحدة — ولو كانت لثرثروا حولها طويلاً — لا توجد حادثة واحـــدة لاستقبال ودي من قرية قبطية ، ولا مذبحة طائفية بين الفلاحين المصريين . بل ليس مصادفة أن أعنف مقاومة لقيها الجيش الفرنسي كانت في الصعيد . فالرافعي يقرر : « ان المقاومة التي لقيها الجيش الفرنسي في الصعيد كانت أشد ما أصاب الفرنسيين في مصر .. قال القومندان«دي لاجو نكيير» في هذا الصدد : « ان المقاومة التي لقيتها الجنود الفرنسية في الوجه البحري كانت في الغالب ذات صبغة محلية ، ولكن فرقـــة الجنرال ديزيه هي التي اضطرت أن تواجه حركات حربية حقيقية » (٥٢) . « ويقول الجنرال بليار في يومياته « ان كل القرى التي نجتازها نجدها خالية من السكان لأنهم يخلون قراهم قبل أن نصل اليها » . وفي رسالة الى الجنرال ديزيه عن معركة أبنود : ان جميع القرى تقفر من السكان كلما اقتربنا منها . ولا نرى فلاحاً واحـــداً يدلنا أو يأتينا بالأخبار أو يحمل رسائلنا ، ولا أدري السبب في هـــذه الحالة (٥٣) » ! (سيادته لا يدري السبب ؟!)

فإذا عرفنا أن أكبر نسبة من الأقباط كانت في الصعيد ، استحال علينا ان نتصور وقوع هذه المقاومة العنيفة ونجاحها واستمرارها اذا ما افترضنا ان هذه النسبة الهائلة من السكان قد وقفت ولو على الحياد .. بالعكس وقائـــع التاريخ تؤكد أنهم قاتلوا جنباً الى جنب مع مواطنيهم المسلمين ، ضد جيوش الروم الجدد ، وتعرضوا معهم لكل صنوف التنكيل والابادة .

وما من منصف يستطيع اتهام الجبرتي بالتعصب ، ولكنـــه كمؤرخ أمين يتميز بتعبيره الصـــادق عن احاسيس عصره ، دون أن يفسدها أو يشوهها بموقـف فكري سابق أو لمواجهـــة موقف فكري لاحق .. لذلك يسجل « الجبرتي » الظواهر الطائفية المؤسفة التي نجح الفرنسيون في خلقها. والغريب ان الجزء الثالث من تاريخ « الجبرتي » — الذي يفترض فيه وفقـــاً لنظريات المدرسة الاستعمارية أن يكون متأثراً بالليبرالية وروح الثورة الفرنسية — هو اكثر الأجزاء حديثاً عن « النصارى » « وافعالهم » .. وذلك بتأثير المنـاخ الفاسد الذي خلقه الاحتلال الفرنسي ، في محاولته شق وحده الأمة ، وخلق طابور خامس تعتمد عليه أداة الحكم الإستعماري.. لذلك نجد «الجزء الثالث» حافلاً بحديث النصارى والاستفزازات ، سواء ما كان منها مقصوداً ، أو ما ظنه المسلمون استفزازاً بفعل الحساسية المتفاقمة عندهم.. أو حتى بفعل عناصر مندسة .. فنلاحظ مثلاً في الحادثة التالية ان الذي يثيرها هو ترجمان ضابط الخطة أي موظف لدى سلطة الاحتلال ..

« مر نصراني من الشوام على المشهد الحسيني وهو راكب على حمار . فرآه ترجمان ضابط الخطة ويسمى السيد عبد الله فأمره بالنزول اجلالاً للمشهد على العادة . فامتنع . وضربــه والقــاه على الأرض . فذهب ذلك النصراني الى الفرنسيس وشكا اليهم السيد عبدالله المذكور فأحضروه وحبسوه » ولم يطلق سراحه الا بعد ان دفع ستة آلاف درهم زعم النصراني الشامي انها كانت بجيبه وفقدت وقت الحادث ! .

ورغم ان الحادثة بين نصراني شامي وترجمان ضابط فرنسي.فلسنا بحاجة الى الحديث عن تأثيرها المحتوم على العامة ، ولا عــن التفاصيل التي يمكن أن تضاف اليها في تناقلها وروايتها .

ووقعت « جزئيات » كما يسميها الجبرتي منها :

« ان رجلا صيرفياً بجوار حارة الجوانية وقع من لفظه انه قال السيد احمد

البدوي بالشرق والسيد ابراهيم الدسوقي بالغرب يقتلان كل من يمر عليهما من النصارى . وكان هذا الكلام بحضر من النصارى الشوام . فجاوبه بعضهم وأسمعه قبيح القول . ووقع بينهما التشاجر فقـام النصراني وذهب الى دبوي وأخبره بالقصة فأرسل وقبض على ذلك الصيرفي وحبسه وسمر حانوته وختم على داره » ... واضح تحيز السلطة الفرنسية ، وتعمدها إظهار هذا التحيز، جماعة من الحمقى تبادلوا الشتائم .. فلماذا يقبض على المسلم وحده ؟!

« واتفق ان بعض النصارى الشوام نقل عن رجل شريف يسمى السيد أحمد الزرومن أعيان التجار بوكالة الصابون أنه تحدث بذلك فأمروا باحضاره وذكروا له ذلك « ورد السيد أحمد الزر الضربة بأن قال : « أنا حكيت ما سمعته من فلان النصراني فأحضروه أيضاً » .

ان الحملة الفرنسية لم تكن فقط تشكل خطراً على الوحـدة المصرية ، بل وعلى الوحدة العربيةَ ككل ، وهو الهدف الذي تابعه الانجليز بعد ذلك . ولا شك ان عاملاً من عوامل ما يسمى « بنفور المصريين من الدعوة العربيـة » يعود الى خبرتهم المريرة مع هؤلاء «الشوام» الذين كانوا اداة المستعمر الأجنبي والمستبد المصري من نابليون الى كرومر ..

وفي حملته على الشام حـرص « نابليون » على الضرب على الوتر الديني ، وأهاج ذكريات الحروب الصليبية ، ودق أول اسفين معاصر في وحـــدة الجماهير ، مؤكداً بذلك ـ كما قلنا ـ أكذوبة المزاعم الغربية والمستغربة التي تنسب له دوراً فيبعث « القومية العربية » أو الدولة العلمانية بالمعنى الليبرالي.. بل على العكس كان جيشه يهيج العامل الديني حيثما تحرك ..

و « هيرولد » شديد الاهتمام بابراز تعاون المسيحيين في الشام مع نابليون: « وفي أوائل ابريل أنهى المخبرون **المسيحيون** الى بونابرت أن نحو ٧٠٠٠ مقاتل من اقليم نابلس قد تجمعوا في الجليل[٥٤] » .

« وفي الرملة وصل اليها الفرنسيون في أول مارس ، تبين ان الأهالي **المسلمين** هربوا في اليوم السابق، وان **المسيحيين بقوا** بها ليرحبوا بالفرنسيين[٥٥]

« وقوبل الفرنسيون بفرح عظيم – من الأهالي **المسيحيين** . وأنفق الجنرال بونابرت وضباط أركانه الليل في **دير** الناصرة[٥٦] » .

« وآلاف **المسيحيين والدروز** في ارجاء فلسطين كلها أقسموا على الانضواء تحت لوائه » (نابليون) .

« ان عدداً من **المسيحيين** الفلسطينيين شاركوهم (أي الفرنسيين) تقهقرهم هرباً من انتقام الجزار »[٥٨] .

وهكذا كان جيش باعث القومية العلمانية .. يتقدم يسبقه جواسيس من دينه .. ويتراجع يتبعه طابور منهم !

« ويقول نابليون (نفسه) ان فرح **المسيحيين** لا يمكن وصفه . فقد رأوا قوماً من دينهم بعد قرون طويلة من الظلم.. وقد ظل هؤلاء **المسيحيون** ثابتين على ولائهم حتى تنكر له الحظ ، وقد أفاد منهم خلال حصار عكا كله »[٥٩].

وبعد ثورة القاهرة الأولى نلاحظ ان تشكيل الديوان أصبح من خمسة مشايخ ؛ الشرقاوي ، المهدي ، الصاوي ، البكري ، الفيومي .

ومن التجار : المحروقي وأحمد محرم .

ومن القبطة : لطف الله المصري .

ومن الشوام : يوسف فرحات ومخاييل كحيل ورواحة الانكليزي .

ومعهم وكلاء ومباشرون من الفرنسيس ومترجمين .

ونلاحظ ان الاقباط قد مثلوا بشخص واحد . ولكن هذا التمثيل المبالغ فيه للنصارى الشوام ، ينفي حكاية بعث القومية المصرية . فقد كان الاتجاه عند المستعمر ، الى اقامة شيء شبيه بالمجالس البلدية المختلطة التي سادت المستعمرات . هذه المجالس التي كانت تتكون من ثلاثة فئات: السادة البيض،

المواطنون من الدرجة الثانية ، وهم طبقة مهاجرة تتعاون مع المستعمر وتعيش في حمايته، ورغم انها ليست من الجنس الأبيض، ولا تتمتع باحترام المستعمرين البيض، إلا أنها تتمتع بقدر من الصفاقة يجعلها تحتقر السكان الأصليين، وتتصور نفسها أرقى منهم مع قدر من الذلة يجعلها تقبل العمل عند المستعمر كأداة .

ولم يكن للنصارى الشوام في مصر، لا العدد ولا المصالح التي تسمح أو توجب تمثيلهم بهذه النسبة في الديوان الدائم ، الذي بهذا التشكيل لم يكن يعبر لا عن الشعب ، ولا عن محاولة تدريب الشعب على حكم نفسه ، بل كان محاولة لتحويل مصر الى مستعمرة افريقية نموذجية وتحويل شعبها الى مواطنين من الدرجة الثالثة .

وفي احتفال أول وفاء للنيل بعد الاحتلال ، الموافق ٥ ربيع أول ١٢١٣ (أغسطس ١٧٩٨) قاطع المصريون الاحتفال ـ وفاء النيل ـ وكانت حالتهم لا تسمع بالتنزه والاحتفال كما جرت العادة . ولكن الديدان التي تحيط بجيش الاحتلال تحدت الحزن العام :

« أما أهل البلد فلم يخرج منهم أحد تلك الليلة للتنزه في المراكب على العادة سوى النصارى الشوام والقبط والاروام والافرنج البلديين ونسائهم وقليل من الناس البطالين حضروا في صبحها » (٦٠) .

وفي يوم السبت حادي عشره (ربيع الأول ١٢١٣ – أغسطس ١٧٩٨) كان يوم عيدهم الموعود به ـ الفرنسيون ـ فضربوا في صبيحته مدافع كثيرة ووضعوا على كل قائم من الخشب بنديرة من بنديراتهم الملونة وضربوا طبولهم واجتمعت عساكرهم بالبركة الخيالة والرجالة واصطفوا صفوفاً على طرائقهم المعروفة بينهم ودعوا المشايخ وأعيان المسلمين والقبطة والشوام فاجتمعوا ببيت صاري عسكر بونابرته وجلسوا حصة من النهار ولبسوا في ذلك اليوم ملابس الافتخار ولبس المعلم جرجس الجوهري كركة بطرز قصب على اكتافها الى أكمامها وعلى صدرها شمسات قصب بأزرار. وكذلك فلتيوس وتعمموا بالعمائم

الكشميري وركبوا البغال الفارهة وأظهروا البشر والسرور في ذلك اليوم الى الغاية »

« وسكن بوسليك مدبر الحدود ببيت الشيخ البكري القديم ويجتمع عنده النصارى القبط كل يوم » (٦١).

« النصارى الشوام والافرنج البلديين وغيرهم فصاروا يعملون عليهن ارهاصات وتخويفات » (٦٢) (على نساء الغائبين بعدما فرض نابليون عليهن الغرامات) .

« وفيه وقعت كائنة الحاج محمد بن قيمو المغربي التاجر الطرابلسي وهو انه كان بينه وبين بعض نصارى الشوام المترجمين منافسة فأنهى الى عظماء الفرنسيس انه ذو مال وانه شريك عبد الله المغربي تابع مراد بيك فأرسلوا بطلبه » (٦٣) .

لذلك نجد ان ثورة القاهرة الأولى لم تنهب إلا « دور النصارى الشوام والأروام وما جاورهم من بيوت المسلمين على التمام (٦٤) » .

والجبرتي حريص ، رحمه الله ، على نفي الدافع الطائفي بل وتأكيد العامل الوطني لسلوك العامة ، فهم لم يهاجموا الاروام ونصارى الشوام إلا بسبب انتسابهم للفرنسيين ، بل ويشير الى ان بيوت المسلمين نهبت أيضاً مما ينفي شبهة الطائفية . تأمل عبارة الجبرتي التي كتبت قبل أكثر من مائة وستين عاماً :

« وتحزبت نصارى الشوام وجماعة أيضاً من الأروام الذين انتهبت دورهم بالحارة الجوانية ليشكوا لكبير الفرنسيس ما لحقهم من الرزية واغتنموا الفرصة في المسلمين وأظهروا ما هو بقلوبهم كمين ، وضربوا فيهم المضارب وكأنهم شاركوا الافرنج في النوائب. وما قصدهم المسلمون ونهبوا ما لديهم إلا لكونهم منسوبين اليهم . مع ان المسلمين الذين جاوروهم نهبهم الزعر أيضاً وسلبوهم .

وكذلك خان الملايات المعلوم الذي عند باب حارة الروم وفيه بضائع المسلمين وودائع الغائبين فسكت المصاب على غصته واستعوض الله في قضيته » .

كذلك حرصت السياسة الاستعمارية على ابراز بعض « الاسافل » من « النصارى البلديين » لكي تحدث الانشقاق المطلوب . بعد أن جربت الاستعانة بكافة الاقليات سواء النصارى الشوام والاروام.. أو بعض الجاليات الاسلامية التي جرى تجنيدها والحاقها بجيش الاحتلال . وكان ان طفح عند السطح امثال « يعقوب » و « شكر الله وأضربها » وبدأت الاصطدامات مع هذه العناصر .

« وانضم اليهم الاسافل من القبط والارذال من المنافقين وتقربوا اليهم بما يستميلون قلوبهم به وما يستجلبونه لهم من المنافع والمظالم وأجهدوا أنفسهم في التشفي من بعضهم وما يوجب الحقد والتحاسد الكامن في قلوبهم الى غير ذلك مما يتعذر ضبطه . وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون » (٦٥) .

ولم يقتصر الأمر على استغلال الدين من جانب الاقليات غير المسلمة ، للتقرب الى المستعمر والحصول على مغانم العمالة . بل ان بعض المسلمين اقتنع ـ بواقع الحال ـ أن السبيل الوحيد لنيل ثقة السيد الجديد ، والحصول على فتات السلطة ، هو الخروج من الاسلام واعتناق دين الغزاة !

« ومنها ترفع أسافل النصارى من القبط والشوام والاروام واليهود وركوبهم الخيل وتقلدهم بالسيوف . **بسبب خدمتهم للفرنيس** . ومشيهم الخيلاء وتجاهرهم بفاحش القول . واستذلالهم المسلمين . كل ذلك بما كسبت أيديهم . وما ربك بظلام للعبيد . والحال الحال والمركوز في الطباع ما زال. والبعض استهوته الشياطين ومرق والعياذ بالله من الدين . ولا حول ولا قوة إلا بالله » (٦٦) .

وأصبح سكان مصر حسب المنشورات التي تصدر عن الديوان بدون مشورة

منه أو علم مسبق في كثير من الأحيان هم : « فرنساوياً أو مسلماً أو رومياً أو نصرانياً أو يهودياً » (٦٧) .

ان آخر ما يمكن نسبته للحملة الفرنسية ، هو الزعم بأنها هزت التصور الديني للوجود ، بالعكس تماماً لقد نشطت هذا التصور الى أقصى حد . لقد كان الجبرتي يقسم أهل مصر الى الأمراء واولاد البلد أو أولاد العرب .. أو المشايخ ومساتير الناس والزعران والحرافيش والفلاحين والاعراب .. ولكن حكومة الثورة الفرنسية قسمتنا الى : مسلمين ونصارى ويهود ! وتبادلت الديدان وغالبية الشعب الشماتة والكمد بانتصارات الفرنسيين وهزائمهم ..

« فلما تحققت هذه الأخبار كثر اللغط في الناس واظهروا البشر وتجاهروا بلعن النصارى واتفق ان تشاجر بعض المسلمين بحارة « البرابرة » بالقرب من « كوم الشيخ سلامه » مع بعض نصارى الشوام . فقال المسلم للنصراني إن شاء الله تعالى بعد أربعة أيام نشتفي منكم وكلام من هذا المعنى . فذهب ذلك النصراني الى الفرنسيس مع عصبة من جنسه وأخبروهم بالقصة وزادوا وحرفوا وعرفوهم أن قصد المسلمين اثارة فتنة » (٦٨) .

وبعد وصول الأنباء بسقوط « العريش » في يد نابليون :« أظهر النصارى الفرح والسرور بالأسواق والدور وأولموا في بيوتهم الولائم وغيروا الملابس والعمائم وتجمعوا للهو والخلاعة وزادوا في القبح والشناعة » (٦٩) .

« خرج النصارى البلدية من القبطة والشوام والاروام وتأهبوا للخلاعة والقصف . وخرجوا في تلك الليلة عن طورهم . ورفضوا الحشمة وسلكوا مسلك الأمراء سابقاً من النزول في المراكب الكثيرة المقاذيف. وصحبتهم نساؤهم وقحابهم(*) وشرابهم وتجاهروا بكل قبيح من الضحك والسخرية والكفريات.ومحاكاة المسلمين ، وبعضهم تزيا بزي أمراء مصر ولبس سلاحاً

(*) قحاب جمع قحبة وهي المومس .

وتشبه بهم . وحاكى ألفاظهم على سبيل الاستهزاء والسخرية وغير ذلك .. ووقع في تلك الليلة بالبحر وسواحله من الفواحش والتجاهر بالمعاصي والفسوق ما لا يكيف ولا يوصف » (٧٠) .

وانتشر الشك ، وتبادل المسلمون والنصارى الاتهامات :

« ولم يعلم من فعل هذه الفعلة واختلق هذه النكتة . ولعلها من فعل بعض النصارى البلديين ليوقعوا بها فتنة في الناس ينشأ منها القتل فيهم والأذية لهم. وسبحان الله علام الغيوب » (٧١) .

أما بعد ثورة القاهرة الثانية فقد تفاقم الأمر وأصبح الوضع خطيراً كما أشرنا (*) .. إذ ركز الفرنسيون على اختيار عناصر غـــير مسلمة ، ووكلوا اليهم مهمة التنكيل بالناس . وتألق نجم « يعقوب » في هذا المجال حتى أصبح اسمه يمثل كل الفحش الاستعماري ، والاستبداد الفرنسي والتنكيل الوحشي بالجماهير . ولا نظن ان شخصية أخرى قد تمتعت طوال القرن التاسع عشر بكراهية القاهريين ، مثل «يعقوب» الذي كان قد سبق له وفاز بتاريخ دام في الصعيد . ووصل المخطط الاستعماري ذروة نجاحه عندما أصبح المصريون يترجون السلطة أن تعاملهم مباشرة دون تدخل أحد من « القبطه » في علاقة السلطة بالمصريين !

(*) وهذا ما اشار اليه «جاك تاجر» عندما قال : « ولما آل الحكم الى الجنرال كليبر لم يتردد هذا القائد في محاباة النصارى. فيأذن للجنرال المعلم يعقوب بتكوين الفرقة القبطية . وقد فرض كليبر ضريبة على جميع السكان مـــا عدا النصارى » ويقرر «جاك تاجر» : « النصارى اعتقدوا بعد انتصار كليبر ان اركان حكم الفرنسيين قد وطد الى الأبد وانهم سيظلون اسياده دون منازع وقد استغلوا حظوة المحتل فتغطرسوا وتعجرفوا » .

ومرة اخرى لا نذهب مذهب « جاك تاجر » في التعميم ، بل نعتقد ان هـذا السلوك اقتصر على الديدان الانتهازية التي تعيش حول السلطة في القاهرة أمـــا بين المواطنين العاديين وكرام الأقباط والمسلمين فان المودة لم تنقطع والمواساة لم تنعدم .

« وفي عشرينة (محرم ١٢١٦ - يونيه ١٨٠١) توكل رجل قبطي يقال له عبد الله **من طرف يعقوب** بجمع طائفة من الناس لعمل المتاريس . فتعدى على بعض الأعيان وانزلهم من على دوابهم وعسف وضرب بعض الناس على وجهه حتى أسال دمه فتشكى الناس من ذلك القبطي وأنهوا شكواهم الى بليار قائمقام فأمر بالقبض على ذلك القبطي وحبسه بالقلعة » [٧٢] .

« وفي يوم الثلاثاء سابعه انتدب للنميمة ثلاثة من النصارى الشوام وعرفوهم ان المسلمين قاصدون الوثوب على الفرنسيس في يوم الخميس تاسعه فأرسل قائمقام خلف المهدي والآغا فأحضرهما وذكر لهما ذلك فقالا له هذا كذب لا أصل له وإنما هذه نميمة من النصارى كراهة منهم في المسلمين ففحص عمن اختلق ذلك فوجدهم ثلاثة من النصارى الشوام فقبضوا عليهم وسجنوهم بالقلعة حتى مضى يوم الخميس فلم يظهر صحة ما نقلوه فأبقاهم في الاعتقال » [٧٣] . وأصبحت السلطة تتقرب للشعب بالتشديد على النصارى(*) .. « لاستجلاب خواطر الرعية » !

بل واستطاعت السلطة ان تنقل الحقد على جرائمها في نهب وهدم بيوت المواطنين ، الى الحقد على النهازين للفرص الذين يستفيدون من هذه النكبات، وان تعطي هؤلاء النهازين صفة طائفية ، لكي تزيد اشتعال الفتنة وتعمق الانشقاق في الوحدة الوطنية :

« فأخذوا ما وجدوه للعرب من بهائم وغيرها والذي عصا عليهم ضربوه

(*) وجاء في أحد التعليمات الادارية الفرنسية «ان الاقباط ما هم في مصر الا أقلية مكروهة من المسلمين لانهم يعملون على اثارة هذا الحقد عليهم .. وليس من الحكمة بل من الخطر ان نتحالف معهم ونمنحهم الامتيازات . لذلك سيحضر رؤساؤهم ورؤساء الامتين اليونانيـة والسورية جلسات الديوان على ان يكون رأيهم استشارياً فقط(٧٤) » .. وهكذا عامل المحتل ، الاقباط أعرق لمصريين ، معاملة الأجانب !

ونهبوه أيضاً ونهبوا جمـــالاً وبهائم ممن لم يعص أيضاً ودخلوا بذلك المدينة فصاروا يبيعون البقرة بريالين وثلاثة والنعجه وابنها بريال . فاشترى غالب ذلك نصارى القبط » .

« فكانوا إذا دهموا داراً وركبوها للهدم لا يمكنون أهلها من نقل متاعهم ولا أخذ شيء من أنقاض دارهم فينهبونها ويهدمونها وينقلون الانقاض النافعة من الاخشاب والبلاط الى حيث عمارتهم وأبنيتهم وما بقي يبيعون منه ما أحبوا بأبخس الاثمان لوقود النيران وما بقي من كسارات الخشب يحزمه الفعلة حزماً ويبيعونه على الناس بأغلى الأثمان لعدم حطب الوقود ويباشر غالب هــــذه الافاعيل النصارى البلدية » [٧٥] .

وبعـد مقتل كليبر « انفلت عيار » التنكيل واستوحش الفرنسيون من المصريين وأطلقوا حشراتهم وأذنابهـم يفتكون بالمصريين ويعمقون الجرح الوطني ..

« ونزل بالرعية الذل والهوان . وتطاولت عليهم الفرنساوية وأعوانهـم وأنصارهم من نصارى البلد والاقباط والشوام والاروام بالاهانة حتى صاروا يأمرونهم بالقيام اليهم عند مرورهم » .

شهر ربيع الثاني ١٢١٥ — اغسطس ١٨٠٠ بعد مقتل « كليبر » « فيـه اشتد أمر المطالبة بالمال وعين لذلك رجل نصراني قبطي يسمى شكر الله . فنزل بالناس منه ما لا يوصف . فكان يدخل الى دار أي شخص كان لطلب المال وصحبته العسكر من الفرنساوية والفعله وبايديهم القزم فيأمرهم بهدم الدار ان لم يدفعوا له المقرر وقت تاريخـه من غير تأخير الى غير ذلك . وخصوصاً ما فعله ببولاق فانه كان يحبس الرجال مع النساء ويدخن عليها بالقطن والمشاق وينوع عليهم العذاب ثم رجع الى مصر (*) يفعل ذلك » [٧٦] .

(*) كانت بولاق تعتبر خارج القاهرة التي يذكرها الجبرتي باسم مصر .

« فدهى الناس وتحيرت افكارهم . واختلطت اذهانهم وزادت وساوسهم وأشيع أن **يعقوب** القبطي تكفل بقبض ذلك من المسلمين ويقلد في ذلـــك شكر الله واضرابه من شياطين اقباط النصارى . واختلفت الروايات فقيل ان قصده ان يجعلها على العقار والدور. وقيل بل قصده توزيعها بحسب الفردة وذلك عشرهــا لأن الفردة كانت عشرة ملايين فالذي دفع عشرة يقوم بدفع واحد على الدوام والاستمرار »[٧٧] .

هذه هي الشهور التي سبقت جـلاء الفرنسيين وفي ركابهم « يعقوب » . وواضح ان آخر ما كان يفكر فيه يعقوب في هذه الايام هو استقلال مصر ، بل كان منشغلاً في توزيـع الفردة . وان آخر ما كان يخطر ببال مواطنيه هو الظن بأنه منشغل ببحث استقلال مصر!..بل كانوا يخمنون ما الذي ينوي أن يفعله بهم لاعتصار آخر قرش بجيوبهم!.. لم يكن «يعقوب» يمثل لمعاصريه الا رمز الخراب والدمار والنهب الوحشي لحساب المستعمر ..

« وفي أول شعبـان ١٢١٥ — ديسمبر ١٨٠٠ حضر التجـار الى الديوان وذكروا أمر المليون وان قصدهم ان يجعلوه موزعاً على الرؤوس ولا يمكن غير ذلك . وطـال الكلام والبحث في شأن ذلك . ثم انحط الامر على تفويض ذلك لرأي عقلاء المسلمين وأنهم يجتمعون ويدبرون ويعملون رأيهم في ذلك **بشرط ان لا يتداخل معهم في هذا الأمر نصراني أو قبطي** »[٧٨] .

وأسكر الفرنسيون ما ظنوه النجاح الكامل في تمزيق وحدة الامة ، وما اعتقدوا انهم غرسوه من الاحقاد التي لا شفاء منها ! فمضوا خطوة أبعـد في تكريس انقسام مصر الى مسلمين وأقباط.« طلبوا عسكر من القبط فجمعوا منهم طائفـة وزيوهم بزيهم وقيدوا بهم من يعلمهم كيفية حربهـم ويدربهم على ذلك . وأرسلوا الى الصعيد فجمعوا من شبانهم نحو الالفين وأحضروهم الى مصر وأضافوهم الى العسكر[٧٩] » .

والحقائق المتاحة لنا تعزز افتراض جمعهؤلاء الشبان —كما اشرنا — قسراً،

وتؤكد انعقلاء واكابر القبط ما كانوا راضين لا عن زيهم ولا عن سلوكهم(*). ويجب ان نرفض ادانتهم بجرائم العسكر الذين « اضافتهم اليهم » لأنهم لم يكونوا اكثر من اداة مغلوبة على أمرها . بل الجرم يقع على يعقوب وامثاله الذين ساعدوا على تنفيذ هذه العملية(**) . ولكن لا جدال في خطورة الأثر الذي كان سيتركه هذا الفيلق — الذي كان سيخصص بالطبع لأعمال القمع الداخلية — على الوحدة الوطنية .

كان « كليبر » يمضي في سياسة مرسومة واضحة هي تفتيت المقاومة المصرية التي بلغت ذروتها في ثورة القاهرة الثانية، كان يعتصر الشعب بالغرامات المرعبة ، التي مـا تزال تبعث القشعريرة حتى اليوم عندما تذكر أرقامها ، وتذكر معها حالة المصريين المالية وقتها .. وفي نفس الوقت كان يتابع تمزيق وحدة الشعب .. وبذلك لم تكن مصر مهددة فقط بالافلاس والخراب المادي بل كانت مهددة اذا ما استمر حكم «كليبر» ، بفتنة طائفية . مهددة بالتحول الى « هند » أخرى ... لولا وعي الشعب .. ولولا ان المقاومة الوطنية تحركت سريعاً وضربت ضربتها في قلب « كليبر » .. وكانت طعنة سحقت المؤامرة .. وأبقت لمصر وحدتها .. بل وأهم من ذلك كانت ضربة عززت الوحدة العربية ..

(*) وهذا مـا يقرره « جاك تاجر » بقوله : « الاقباط لم يظهروا حماساً زائداً في طلب تجنيدهم ، فلم تؤلف الفرقة القبطية الا في عهد الجنرال كليبر وفي ظروف خارجة تماماً عن ارادة الاقباط » (٨٠) .

ويقرر — كما هو المفروض في أي مؤرخ يحترم نفسه — «ان الجنرال يعقوب انكر وطنه ان لم يكن قالباً فقلباً منذ اللحظة التي كون الفرقة القبطية .. وسنرى من جهة اخرى ان الامة القبطية استقبلت عمل الجنرال يعقوب بفتور » (٨١) .

(**) ونحن مع « جاك تاجر » في احتجاجه ، لأن بعض الكتاب لم يفرقوا بين موقف المعلم يعقوب وبين موقف سائر الاقباط »(٨٢) .

الفصل السابع

الليمونة سحقت الشربتلي

نادرة ولكنها غير عجيبة !

« وفي يوم السبت حـادي عشرين محرم ١٢١٥ (يونيـه ١٨٠٠) وقعت نادرة عجيبة »

وكان من المحتوم ان تقع، بل أن تاريخنا كله كان سيبقى عقيماً ان لم تقع..

فبعدمـا بطش كليبر بالمصريين « قتلا وحرقاً وسبياً للنساء والبنات والغلمان » وبعدما اعتصر البلاد « كما يعصر الشربتلي الليمونة »ـعلى حد قولهـ بأن أفلسها بالغرامة الوحشية ، وبعدما زرع الأحقاد التي تهدد وجودنا كأمة موحدة .. ظن ان الليمونة المعصورة قد فقدت قدرتها على الحياة .. وتحولت الى نفاية .. فإذا بالليمونة تعتصره هو ، وتقذفه الى الفناء ..

كان لا بد أن ترد أمتي الضربة .

كان لا بد أن يموت « سارى عسكر » كلهبر ..

وقد كان ..

قتله فتى من حلب في عمر الورود .. عمره ٢٤ عاماً .. نموذج « المجاهد » الاسلامي .. أو الثوري الشرقي ، الذي وهب نفسه للقتـال ضد الاستعمارية الغربية .. مؤكداً الوحدة العربية [١] قبل ظهور « المتهومين » بها وفيها ،

بقرن ونصف قرن .. ولم تكن حادثة فردية بأية حال من الأحوال . بل هي من اعداد وتنظيم ذلك التشكيل العجيب الذي ترد اخباره في شكل همسات متنـاثرة في كتابات المؤرخين . ذلك التنظيم الذي دبر ثورة القـاهرة الاولى وأعدم منه نابليون ثمانين من « القـادة » ! وكان من بينهم عدد من النساء . ثم استطاع أن يجدد نفسه ، ويعد السلاح ، ويدبر اتصـالات سرية ويقود « الثورة الثانية » المجيدة . ويشرف على قيادتها خمسة أسابيـع ، ينجز خلالها ما أدهش العدو .. وأذهل المؤرخين ..

هذا التنظيم استطاع أن يوجه ضربة رائعة في هدفها وأحكامها . وذلك بتنفيذ اغتيال « سارى عسكر » ، القائد العام لقوات الاحتلال في عملية هي الاولى في الشرق ، والفريدة في نوعها لقرن وربـع قرن .. والتي تتميز حتى اليوم بضخامة الهدف ، وبنجاح العملية مع ضآلة خسائرها بالنسبة للتنظيم الثوري الذي نفذها . فلم يسقط إلا الخلية التي باشرت تنفيذ العملية ولم يصل التحقيق الوحشي لأي طرف خارج هذه الخلية .

هذه العملية أعدتها احدى خلايا التنظيم في الأزهر .. وهي التي تعرضت للتحقيق الفاسد ، الذي أجرته قوات الاحتلال وانتزعت به اعترافات باطـلة قانوناً .. ومشكوك في صحتها لأنها انتزعت بالضرب والتعذيب (*) الذى يفسد شرعية أي تحقيق (حتى ولو كان الضرب وفقاً لعوائد البلاد !)

في هذه التحقيقات ان الشاب « الحلبي » ذهب الى ضابط تركي « يشكو من الضرائب المفروضة على ابيه فطلب منه هذا خدمة صغيرة(**) »(٤) !

اما ما هي هذه «الخدمة الصغيرة»؟! فهي ان يقتل «سليمان الحلبي» الموجود في غزة ، القـائد الأعلى للجيش الفرنسي الموجود في القاهرة في حماية خمسين

(*) يجب الرجوع الى التحليل الوطني الصادق لطبيعة هذا التحقيق في مسرحيـة : « سليمان الحلبي » للكاتب القبطي المبدع : « الفريد فرج » .

(**) انظر تعليقنا على الوحدة العربية في فصل الحواشي والمراجع .

الف جندي فرنسي، ولما تنقضي سوى بضعة شهور على تمزيقهم جيش الوزير ! هكذا ببساطة كأنه يطلب منه توصيل علبة معمول لخادم المشهد الحسيني!

والذي يعرف حالة الجيش التركي ونوعية اغواتــه يستبعد جداً أن يهتم « احمد آغا » و « ياسين آغا » بقتل « كليبر » !..

ان هذا التطرف وهذه الحماسة مستغربان من اغاوات العثمالي .. ولكن هذه الأسطورة تقليدية في جميع التحقيقات الاستعمارية مع الوطنيين .. فلا بد من مؤامرة أجنبية ، ويد محركة ، وتحريض من الخارج .. ومبلغ من المال يدفع أو يحسم ! والوطني لا يمكن ان يكون إلا قاتلاً مأجوراً .. تحركه دولة أجنبية لقاء مغنم شخصي .. ان هذه المقدمة التقليدية لا تستحق أن نتوقف عندها كثيراً . بل ان كبيرهم « كرستوفرهيرولد » نفسه ، رغم موافقته على حكاية الاغاويين ، نراه مضطراً الى الاعتراف بالتلفيق : « والاعترافات التي تنتزع بالتعذيب تحتمل الشك ، ولكنها ليست بالضرورة كاذبــة . وسجل محاكمة سليمان لا يترك مجالاً للشك في ذنبه واعترافه ـ بما فيه الجزء الخاص بالضابطين التركيين اللذين كلفاه بهذا المهمة ـ وهو في أغلب الظن صحيح . أما المنطق الذي الصقت به المحكمة الخاصة ـ المشكلة كلها من الفرنسيين ـ التبعة النهائية في مقتــل كليبر بالصدر الأعظم فمنطق زائف لا أساس له في اعتراف سليمان » (٥) .

وما دمنا سلمنا بتحريض الاغويين فلماذا نفترض انهما يريدان قتل« كليبر» لحسابهما الخاص ، وما المانع من قبول الرواية الفرنسية كاملة ، التي تزعم انهما حرضا سليمان الحلبي بتكليف من الصدر الأعظم(*) ؟! ولكن الرواية كلهـا متهافتة وفاسدة ، بأجماع المعلقين على ضرب المتهمين ، باستثناء لويس عوض

(*) ومـا دام « هيرولد » اعترف بالتزوير من جـانب المحققين في بعض اجزاء المحضر فكيف نميز الصحيح من المزور ؟!

المعجب بالمحاكمة كاملة والمعتذر عن ضرب المتهمين والمتطوع لاتهام سليمان بأنه قتل كليبر باغراء وتمويل الذهب التركي !

وسليمان الحلبي كان « مراده يغازي في سبيل الله » .. وهو قد اتجه الى مركز الثورة . حيث كان كل متعطش « للمغازاة » يعرف ان قيادة «المغازين» هناك .. اتجه الى الأزهر .. حيث تلقته خلية من الشوام ، لازمته ، ملازمة تامة طوال شهر كامل ، وسواء أكان قد انضم لهذه الخلية بارشاد من أعضاء التنظيم خارج الأزهر .. أو ان هـذا التنظيم كان من الدقة والحساسية بحيث التقطه فور وصوله ، وعرف حماسته، وأيضاً استفاد من كونه قادم من خارج مصر ، وبالتالي لا يتعرض للمراقبة . ولا اشترك في ثورة القاهرة ولا تعرض للملاحقة وتقارير يعقوب وشتى العملاء الذين لم تكن تفوتهـم مراقبة شيوخ الأزهر ومجاوريه (تلاميذه) ..

كان «سليمان الحلبي» خير من ينجح — بصرف النظر عن انه نجح فعلاً — في تنفيذ ذلك القرار المصري باغتيال كليبر ، انتقاماً من أسلوبه الخسيس في اخماد ثورة القاهرة الثانية ، والتنكيل والابادة اللذين مارسها جيشه فى اعقاب هزيمة الثورة ثم اعتصاره الوحشي للبلاد ..

لم يكن ثمة رد من قبل التنظيم الذي قاد الثورة الا الحكم باعدام « كليبر » (وهذا التطور من المقاومة الشعبية المفتوحة الى العمل الارهابي الفردي معروف وطبيعي في سلوك التنظيمات السرية) .

ولا يمكن وصف علاقة « سليمان الحلبي » بالخلية الأزهرية بأنهـا كانت مصادفة أو مجرد دردشة أخبرهم فيها بنيته في قتل « كليبر » . فليس هكذا يتم اغتيال قادة جيوش الاحتلال . وكل الدلائل تدل على أن الفرنسيين كانوا قد أقاموا جهاز مخابرات على درجة عالية من الكفاءة .

بل لقد تعرض «سليمان» لامتحان طويل دام شهراً كاملاً لم يقتصر بطبيعة الحال على امتحان جديته وتقوية عزيمته بـل تخللته بدون شك مراقبة دقيقة

لتصرفات وعادات المحكوم باعدامه ، واعداد لخطة التنفيذ وإجراء عـــدة تجارب تفسر هذا النجاح.. إذ يستحيل على شاب قادم من «حلب» أن يعرف طرقات القاهرة ، حتى ولو كان قد قضى بها فترة من الوقت قبل هذه المرة ، خاصة وأن خارطة القاهرة تغيرت كثيراً خلال سنوات الاحتلال وهو يـأتي في اعقاب التدمير الشامل الذي أحدثته ثورة القاهرة الثانية .. كذلك التسلل الىقصر القائد العام لقوات الاحتلال والاختباء هناك وعدم الخطأ في الشخص المفروض انه لم يره من قبل . ثم تنفيذ مهمته بنجاح ..

اهـــتم التنظيم بكل التفاصيل حتى الفتوى بشرعية الاعدام لم ينسها .. وستبقى خالدة في التاريخ تلك الخلية الفدائية الأولى المكوّنة من ثلاثـة من طلبة الأزهر .. الذين نفذوا بنجاح نادر عملية ممتازة ثم احتفظوا بسر التنظيم رغم التعذيب الوحشي .. فكانت اعترافاتهم في أضيق حدود ، بـــل تثير الدهشة إذا ما قورنت باعترافات أعضاء التنظيمات المعاصرة، (ورغم اعترافنا بتطور تكنولوجيا التعذيب ، إلا أن السبب الرئيسي هوليونة عقائـد اليوم وصلابـة عقيدة طلبة الأزهر في فجر القرن التاسع عشر) .. فصلابة خلية الأزهر تؤكد التربية التنظيمية .. ففي البداية كان الانكار التام ثم الاعتراف على النفس ، وعندما ترتفع درجة التعذيب ، وتبلغ قسوته حداً لا يستطيع الجسد أن يتحمله مهما أرادت النفس .. يكون الاعتراف في حدود مـا يعلمه المحققون فعلاً .. مـــع الحرص في نفس الوقت ، رغم بشاعة التعذيب ، على سلامة التنظيم، وسلامة القيادة، سواء السياسية أو التنظيمية، وسلامة الشرف من أن تشينه اعترافات غـير محدودة لا تهدف إلا الى إطالة التحقيق وحفظ الحياة .. والعادة في مثل هذه التشكيلات الارهابية أن تعتبر الخلية المعينة ، مهمتها منتهية بمجرد تنفيذ العملية ، فتعترف على نفسها كلون من البطولة وضرب المثل للآخرين، واعتزازاً بما حققته من ناحية ومن ناحية أخرى لحصر خسائر التشكيل الذي تتبعه ، فهي وقد سقطت فعلاً في يد السلطة قد انتهى

دورها .. وباعترافها تهدىء المحقق وتصرفه ـ الى حد ما ـ عن التنقيب .

إننا نجد هذا الفهم خلف سلوك خلية «الشوام» التي نفذت العملية بنجاح. فهم قد بادروا بالإنكار التام ، حتى « سليمان » نفسه ، الذي قبض عليه مجروحاً ملطخاً بدم « كليبر » ، ثيابه ممزقة ، مختبئاً في الحديقة .. حتى « سليمان » انكر تماماً في البداية فلما « ضرب على حسب عادات البلاد » « لحد انه طلب العفو ووعد أنه يقر بالصحيح » .. كانت اعترافاته في أضيق نطاق .. ورفاقه عندما قبض عليهم كانت اعترافاتهم بالتقسيط .. وبالضرب طبعاً . واعترفوا على سليمان « المضبوط » والذي اعترف عليهم ، ولكن عندما أراد المحققون أن يوسعوا دائرة الاتهامات ويجروا القيادات . فسألوه هل « أخبر بالذي قال له عليه سليمان لأحد من المدينة وخصوصاً الى الشيخ الشرقاوي » فجاوب الشيخ « محمد الغزي » الذي ضرب « كعادة أهل البلد. فحالاً انضرب لحد أنه طلب العفو ووعد أنه يحكي على كل شيء فارتفع عنه الضرب » (*) .. جاوب الشيخ محمد الغزي : « أنه ما اخبر أحداً بذلك وحتى اذا وضعوه تحت القتل ما يقول ذلك » (**). « سئل هل يعرف أحداً خلاف سليمان حضر لأجل غدر الفرنساوية وأين هم قاعدين فجاوب أنه ما يعرف وإن سليمان ما قال له على أحد . سئل سليمان المذكور انه يشهر رفقاءه فجاوب أنه لم يعرف أحداً في مصر وأن تخمينه ما فيه غيره الذي قاصد قتل الفرنساوية » .

والسيد « احمد الوالي » انكر في البداية طبعاً أن « سليمان » أخبره بنيته

(*) وفي ميدان التحقيقات الجنائية ، لا نجد اننا قد حققنا تقدماً كبيراً . فما زال الضرب هو الأسلوب المتبع لانتزاع الاعترافات. فقط أصبحت محاضر التحقيق اكثر تزويراً فهي لا تثبت الضرب . بل تقول ان المتهم ووجه بالحقائق فاعترف .. وبعضها يكتب « فاستيقظ ضميره » !!

(**) الشيخ محمد الغزي كان على صلة بالشيخ الشرقاوي فقد كان يبيت فترة ما في بيته .

في قتل ساري عسكر . فلما وجه باعتراف سليمان وقيل له : « انه لم يصدق في قوله لأنه ينكر أن سليمان ما أخبره بأنــه كان ناوي بقتل ساري عسكر فجاوب الآن لما فكره سليمان افتكر انه اخبره » !

« سئل هل سليمان مــا عرفه برفقائه وهل هو مــا تحدث مع أحد بذلك وخصوصاً مع شيخ الجامع الذي هو ملزوم يخبره بكل ما يجري فجاوب أن سليمان ما قال له على رفقائه وهو ما أخبر بذلك أحداً ولا أيضاً شيخ الجامع».
« سئل هل سكن سليمان بالجامع لسبب أنه قال له على مراده في قتل ساري عسكر فجاوب لا لأن كل اهل الإسلام تقدر تسكن في الجامع » .

وكان « عبد الله الغزي » وقوراً للغــاية وهو يعد المحققين أن يخبرهم في المرات القادمة عن كل الذين « يحضرون بهذه النية » أي نية قتل قائــد عام قوات الاحتلال ! معتذراً عن غلطته بعدم أخبارهم هذه المرة !

« سئل هــل يعرف ان سليمان أخبر أحداً خلافه في مصر . فجاوب أن ما عنده علم بذلك سئل هل يعرف أن موجود بمصر ناس خلاف سليمان متوكلين في قتل الفرنساوية فجاوب أن ما عنده خبر وان تخمينه لم يوجد أحد » .

اما مصطفى افندي فقيه الكتاب الذي بلغ من العمر ٨١ عاماً ، والذي واجه موقفاً حرجــاً بين أيدي المحققين الذين حاولوا اتهامــه بالفتوى بقتل ساري عسكر ، وعلى اساس ديني . وحاولوا احراجه بالسؤال التقليدي عن الجهاد في الاسلام . فقد حــاول الفقي « مصطفى » افندي ان يبرىء ساحته دون ان يلتزم بانكار مبدأ الجهاد فأجابهم : « انه يعرف ان القرآن ينبى عن المغــازاة وان كل من قتل كافراً يكسب أجراً » ! ورفض « سليمان » رغم الضرب اتهام « مصطفى » افندي « وبما أنه رجل اختيار (عجوز) وضعيف قوي ما رأى مناسب يخبره عن ضميره » .

كذلك رفض « سليمان » محاولات توسيع القضية ومحاولة التركيز على اتهام

المشايخ الكبار ، بل اخترع حجة عجيبة لنفي صلته بالشيخ الشرقاوي الذي ركز المحققون جهودهم على اتهامه : « سئل هل هو من ملة المغازين . وهل ان المشايخ سمحوا له في قتل الكفار في مصر ليكتب له أجر ويقبل عند النبي محمد. فجاوب انه ما فتح سيرة المغازاة إلا الى الأربعة مشايخ فقط الذين سماهم . سئل هل إنه ما تحدث مع الشيخ الشرقاوي . فجاوب أنه ما شاف هذا الشيخ لأنهما هو منملته بسبب أنالشيخ الشرقاوي شافعي وهو حنفي»!

ورفض « المتهمون » جميعاً الدفاع عن أنفسهم أمام المحكمة ، ولعله أول قرار مقاطعة عرفته المحاكمات السياسية في الشرق .

وفي مرافعة الاتهـام حاول « سارتلون » أن يشهر بالجهاد : « ان العته النسكي هو منصوب فيأعلى رأسه المضطرب من زيغانه وجهالاته بكالة إسلامه وباعتماده أن المسمى منه جهـاد وتهليك الغير المؤمنين » « وسكن بموجب تربياته بالجامع الكبير ويتحضر فيه للسيئة التيهو مبعوث لها ويستدعي الرب تعالى بالمناداة . وكتب المناجاة وتعليقها بالسور مكانه بالجامع المذكور أعلاه . وتأنس معالأربعة مشايخ الذين قروا القرآن مثله وهممثله مولودين ببر الشام».

نعم ! كلهم مولودون ببر الشام .. وهكذا محت ضربة سليمان ورفاقه كل العار الذي سجله « الشوام » المتعاونين مع المحتل .

واقترح ممثل العدالة الفرنسية ، وهو يستقبل قرن التحرر ، ويودع قرن الثورات من أجل حقوق الإنسان، اقترح ان « عظمة الاثم تستدعي أن يصير عذاب مهيب . فإن سألتموني. أجبت أنه يستحق الخوزقة وان قبل كل شيء تحترق يـد ذا الرجل الاثم . وانـه هو يموت بعذابه ويبقى جسده مأكول الطيور » (٦).. عبارة تذكرنا بنصوص « يهوه » أو الآلهة الشريرة في اساطير اليونان والفرس .. أو بمخلفات التتار !

وقد استجابت المحكمة ، المشكلة من زمرة أبناء فرنسا : الحرية والمساواة والاخـاء .. والمبادىء الديموقراطية والليبرالية ... الخ ، استجابت لمطالب

الادعاء كاملة. فقضت المحكمة « بعد الاطلاع على مرسوم تشكيلها »! بالآتي:
« افتوا أن سليمان الحلبي تحرق يـــده اليمين . وبعده يتخوزق ويبقى على الخازوق لحين تأكل رمته الطيور وهذا يكون فوق التل الذي برا قاسم بيك ويسمى تـل العقارب . وبعد دفن ساری عسکر العام كلهبر وقدام كامـل العسكر وأهل البلد الموجودين في المشهد » . « وأيضاً أفتوا على محمــد الغزي وعبد الله الغزي وأحمــد الوالي » أن تقطع رؤوسهم وتوضع على نبابيت وجسمهم يحرق بالنار وهذا يصير في المحل المعين أعلاه . ويكون ذلك قدام سليمان الحلبي قبل أن يجري فيه شيء . هذه الشريعة والفتوى لازم ينطبعوا باللغة التركية والعربية والفرنساوية » .

ولعل هذه العبارة الأخيرة هي التغيير الوحيد الذي يمـــيز القرن التاسع عشر عن القرن الرابـع عشر .. فخان التتار لم يكن بوسعه أن يصدر حكماً أبشع ، ولا اكثر بربرية من هذا الحكم . ولكنه لم يكن بوسعه أن يطبـع نصه بثلاث لغات . وهذا الفارق التكنولوجي ، لم يكن يهم كثيراً «سليمان الحلبي» الذي سيشاهد ثلاثة من رفاقه تُقطع رقابهم ، ثم يحرقون أمام عينيه ... أما هو فتحرق يده اليمنى وهو حي ! وتحرق وهي متصلة بجسمه ، يقيد ويوضع فوق الخازوق ، ثم توضع يده اليمنى فوق فحم ملتهب لتشوى وهو ينظر .. ثم يطلب منه أن يهتف ثلاثاً بالثورة القانونية التي أدخلها جلادوه في الشرق الإسلامي المتخلف ! يهتف بحيــاة « أول محضر تحقيق » .. « أول محكمة تشكل على الأسس القــانونية الحديثة في مصر المحروسة ... » أول مطبعة تطبـع قرار التنكيل به .. أول خازوق ترفرف عليه راية الثورة الفرنسية !

الحمــد لله .. الجلادون الفرنسيون كانوا أرحم « بسليمان الحلبي » من مؤرخي المدرسة الاستعمارية من أمثال « لويس عوض » .. فهم على الأقل لم يتوقعوا أن يغتبط « المخوزق » بتحضر مصر .. بـل توقعوا كما يقول المثل المصري ، أن « يشتم المخوزق السلطان » حتى ولو كان السلطان يمثل الثورة الفرنسية !

المحاكمة

المدرسة الاستعمارية ، تهتم اهتماماً كبيراً بمحاكمة « سليمان الحلبي » .. ولها العذر . لأن هذه المحاكمة والإجراءات التي سبقتها والأحكام التي صدرت ، والطريقة التي انتقم بهـــا من الشاب البطل ، تغطى بالخزي والعار تاريخ الحضارة الغربية كله . وتفضح كل اكاذيبها عـن وحشية الشرق ودمويته .. ففي عصور تألقنا لم نرتكب قط مثل هـذا التنكيل الوحشي .. وعندما طعن « علي بن ابي طالب » كانت آخر وصاياه « اياكم والمثلة .. » « رجـل برجل » ولم يطلب اكثر من تنفيذ حكم اعدام شرعي وقانوني بل واشترط أن يبقى القاتل مسجوناً الى أن يتوفى هو رضي الله عنه . ولو كان يعـلم أنهم يقبلون شفاعته ، لنهاهم عن إعدامه ، والدليل على ذلـك قوله « فإن عشت رأيت فيه رأي » .

وعندما اجتاح الغضب ابن عمر بن الخطاب ، لمـا سمع بمؤامرة فارسية ـ يهودية ، هي التي أدت الى مصرع والده .. فاندفع فور وقوع الحادث فقتل ثلاثة من الذين اتهمتهم المصادر التي يثق بها .. ثارت ثائرة المجتمع الإسلامي ، وسجل « الطبري » هذه الغضبة الإسلامية، لخرق العدالة ، وحرمان المتهمين من المحاكمة في كلمة خالدة وهي قوله: « وأظلمت الدنيا بالناس ثلاثة أيام » !.

أظلمت الدنيا بالمسلمين في القرن السابع الميلادي لأن ابن امير المؤمنين أذهله منظر أبيه المطعون ودمه ينزف ، فسحب سيفه وقتل من أجمعت الروايات على أنهم هم الذين دبروا الجريمة . واعتقل ابن عمر ، وطالب الرأي العام بإعدامه .. بل واعتبر المؤرخ الإسلامي ، ان تجنب عثمان القصاص من ابن عمر ابن الخطاب ، بفتوى عمرو بن العاص ، أن الجريمة وقعت في فترة لم يكن للمجتمع فيها سلطة مستقرة ، وقبل أن يتولى عثمان الخلافة ، ومن ثم فهو غير مسئول عنها .. ولذلك لجأوا الى عفو أصحاب الحق المدني، فسلموهم ابن أمير المؤمنين وسيفاً .. وسألهم ولي القصاص : هل لي الحق كل الحق في أن أقتله؟ قالوا نعم !.. قال هل يصيبني مكروه إن قتلته (وهو فارسي لم يستوعب بعد العدالة الإسلامية) قالوا : لا .. هذا حقك .. عندئذ عفى الرجل .. ومع ذلك يقول المؤرخ الإسلامي .. إن هذه كانت أول ثغرة في الاسلام .. وبداية كل النكبات التي وقعت !..

الى هذا الحد كان ضميرنا القانوني حساساً وعادلاً ومتميزاً في عصور تألقنا.. بينما رجال الثورة الفرنسية ، خرجوا غاضبين ـ كما سنرى ـ يقتلون النساء والأطفال ، ثم نكلوا بوحشية لا مثيل لها في التاريخ بالقاتل .. ولم تظلم عليهم الدنيا ، ولا اهتز ضمير فرنسي واحد ..

ولكن المدرسة الاستعمارية ، تريدنا أن نغفل عن هذه الحقيقة ، وننبهر بشكليات المحاكمة !!.

والجبرتي المنصف الدقيق لم يفته أن يسجل المحاكمة ويبدي دهشته من اجراءاتها، ولعلها أول دهشة يسجلها قلم شرقي لطقوس العدالة الغربية المتوارثة عن الفهم الروماني الذي يهتم بالشكل والإجراءات اكثر من الاهتمام بالموضوع، أو بالعدالة ذاتها .

والحق انه أمر يثير الدهشة وتعجز عقليتنا عن فهمه أن ينطلق الجنود

الفرنسيون فور سماعهم بنبأ قتل كليبر : « قتلنا بسيوفنا وخناجرنا جميع من صادفنا من الرجال والأطفال » (*) (٧) .

لا شك أن الجبرتي له عذره إذ يدهش من أولئك الجنود الذين يقتلون بلا مناقشة ولا محاكمة ، أطفالاً لا شبهة في براءتهم من مسئولية مصرع الجنرال قائد الحملة . ولكنهم يهتمون ، بإجراء محاكمة وتسجيل محضر تحقيق لمتهم أمسك وهو يحمل خنجراً تغطي ثيابه الدماء ولا شبهة في أنه هو القاتل !

الجبرتي رآها ظاهرة تستحق التسجيل ولكن تلاميذ المدرسة الاستعمارية يحاولون الاستدلال من ذلك على سمو العدالة الفرنسية ! ويؤرخون « بمحكمة التفتيش » هذه .. دخول « أول تجربة للقانون الحديث والعدالة » في الشرق المتوحش ! « وهيرولد » عميد المدرسة ، لم يستطع أن يذهب هذا المذهب ، بل يعلق على دهشة الجبرتي : « والذي أدهش الجبرتي هو أن تتاح لرجل ذنبه واضح ، محاكمة قانونية بدلاً من أن يعدم فوراً . ولكن الواقع أن الاجراء الذي اتخذ في هذه الحالة كان يختلف اختلافاً كبيراً عن الاجراءات الفرنسية العادية ـ لسبب واحد هو أن المتهمين لم يمثلهم محام ـ ولم يكن الغرض من المحاكمة انصاف المتهمين ، بل الكشف عن شركائهم في الجريمة » (٨) .. هذا هو رأي « كرستوفر هيرولد » .

فإذا تركنا جانباً هذه الإجراءات ومحاضر التحقيق فإن اسلوب التحقيق والأحكام والتنفيذ تخزى أي محكمة تترية . ولم يجد كاتب التحقيق عذراً يستر به هذا الخزي إلا قوله أنه يتفق وتقاليد البلاد ، ولو أن « هيرولد » يعلق : « أما سليمان فقد رأت المحكمة أن تطبق عليه عقوبة تسمح بها تقاليد الحكم في البلاد ، ولكنها لا تتفق مع مبادىء الجمهورية الفرنسية المستنيرة » (٩) .

(*) نقلها « هيرولد » عن يوميات الجاويش فرانسوا وعلق بأن الجاويش يذكرها « في غير حياء كما هو واضح » .

وبالنسبة للحكم على « سليمان » بالذات يصعب جداً أن نطابقه على تقاليد البلاد .. فقد جمع كل الابتكارات الوحشية التي تفتق عنها العقل الشرير للانسان .. ولم نقرأ في تاريخ «الجبرتي» كله، عقوبة نفذت بمثل هذه الوحشية قبل الحملة الفرنسية .

أمـا إجراءات التحقيق فقد سارت كلها على النحو التالي ومع جميع المتهمين : « فلما ان كان المتهوم لم يصدق في جواباته أمر سارى عسكر أنهم يضربونه حكم عوائد البلاد . فحالاً انضرب لحد أنه طلب العفو ووعد أنـه يقر بالصحيح فارتفع عنه الضرب » .

ولا شك أنها كانت فرصة نادرة « للمتهومين » وهم يضربون حسب « عوائد البلد » ولسليمان الحلبي وهو تحرق يـده حياً .. وينفذ الخازوق في أحشائه على دقات موسيقى الجيش الفرنسي .. وراية الحرية والمساواة والاخاء ترفرف فوق رأسه .. لا شك أنها كانت فرصة نادرة لكي يتعلم الازهريون أنـه « من الممكن مسايرة الزمن مع الاحتفاظ بعوائد البلاد لا تمس » ! بل وتشهد هذه العوائد بعثاً وتطويراً نادرين !

وبعد ضرب « المتهومين » وإقرارهم « قطعت رؤوس المشايخ الثلاثة » . ثم بدأت عملية التنكيل الهمجي بالفتى الحلبي الذي عرف نفسه بأنـه « ابن عرب » .. والذي كان يتمتع بحالة نادرة ـ اسطورية لم يعرفها التاريخ قط ـ من الشجاعة والسيطرة على النفس (*) ، وإخضاع الجسد لإرادة الروح .. والذي غسل عار كل ما ارتكبه العملاء « الشوام » .. وكان رداً بليغاً مفحماً على كل من تسول له نفسه استغلال موقفهم للطعن بالوحدة العربية ، بـل وهادياً مبكراً للطريق القويم الذي يجب أن تمر عبره القومية العربية .. فالذين

(*) هل ترك أثراً مذهلا حتى في نفوس الفرنسيين الى حـد ان الجنرال « مينو » سمي ابنه من زوجته المصرية « سليمان » ! أمـا ان التسمية كانت محـاولة من « مينو » للتقرب الى المصريين الذين توجوا «سليمان» بطلا قومياً.. ومجاهداً خالداً.. ونفس الشيء عن «سليمان» باشا الفرنساوي.

عبروا من الأزهر ، كانوا رمزاً لوحدة هذه الأمة وصلابتها في مواجهة الغزو الاستعماري .. والذين عملوا في خدمة المحتل ، وعادوا الأزهر ، وتنكروا لتراث هذه الأمة وتاريخها ، لم يكونوا إلا اداة تفكيك الوحدة العربية ، وعنصراً من عناصر التمكين للسيطرة الأجنبية .

ولنسمع وصف محرقة جنكيزخان الفرنسي .. كما يصفها «هيرولد» نفسه:

« ولا بدّ أن هذا اليوم كان أروع يوم في حياة الرومي برطلمين . فقد بدأ بقطع رؤوس الشيوخ الثلاثة ، وكان الفحم أثناء ذلك يحمى في مجمرة . ولم يشكُ « سليمان » ويده تشوى على الجمر ، ولكن حين انزلقت جمره الى مرفقه ، نبه « برطلمين » الى أن الحكم عليه لم يذكر المرفق ، بل اليد فقط . ورأى « برطلمين » في هذا مما حكة من سليمان . وقال سليمان أن برطلمين نصراني كلب ، وأصرّ على حقوقه حتى أزيحت عن مرفقه الجمرة . وقد سجل الجاويش « فرانسوا » (*) التفاصيل الجراحية لخوزقة « سليمان » بعد إحراق يده ، وهو يزعم أنه راقبها على بعد خمس خطوات .. ويستطيع هواة هذه الأشياء الرهيبة أن يرجعوا اليها في يومياته. ومن الطريف أن نذكر أن جميع الحاضرين ، بما فيهم « المريض » كانوا فيما يبدو ينظرون الى هذا الاجراء الوحشي على أنه إجراء عادي لا غبار عليه (**). ولما أتم « برطلمين » القسم التمهيدي من العملية ، رفع الخازوق قائماً وعليه سليمان ثم غرس في الأرض . ورجا سليمان جندياً فرنسياً واقفاً بقربه أن يعطيه شربة مـاء . وكان على وشك أن يناوله زمزميته لولا أن منعه « برطلمين » فإن أقل شربة من الماء كفيلة بقتله فوراً ، فيتعطل بذلك مجرى العدالة .. واستأنف المشهد سيرة تاركاً سليمان على خازوقه يصلي » (١٠) .

(*) وهو الذي سجل بغير رعشة ضمير أنه ورفاقه ذبحوا الاطفال والنساء بسيوفهم وخناجرهم.

(**) (!!) .

هذه هي المحاكمة التي تجعلها المدرسة الاستعمارية نموذجاً للعدالة التي بهرت المصريين ، وتستدل بهـا على الانقلاب القانوني الذي تمّ في عقول النخبة من مقارنة الجبرتي بين محاكمة الفرنسيين الذين لا يتبعون دين ، وبين أفعال الهمج المنتسبين للإسلام .

« لويس عوض » ينبهنا الى هـذه المحاكمة : « وأهم من ذلك كله الوقفة الطويلة التي وقفها الجبرتي أمام محاكمة سليمان الحلبي قاتل كليبر وأظهر فيها دهشته وإعجابه من الطريقة التي يجري بها الفرنسيون محاكمتهم »(١١) .

« وممـا أبرزه الجبرتي ان استجواب سليمان الحلبي ظلّ يأخذ الطريق القانوني (!!) رغم إصراره على الانكار فلما لم تجـد معه الوسائل القانونية جرى ضربه « على عادة أهل البلاد » ليعترف فاعترف . وواضح من السياق ان العرف في مصر ايام الترك المماليك كان يقوم على تعذيب المتهمين لاستخلاص الاعترافات منهم »(١٢) .

العبارة مصاغة بطريقة توحي كأن الجبرتي هو الذي يبرر ضرب المتهم بأنه « على عادة اهل البلاد » فوضع العبارة بين قوسين وبعد القول بـأن الجبرتي أبرز ان استجواب سليمان أخذ الطريق القانوني رغم إصراره.. الخ.. مما يوحي بأن العبارة مقتبسة من كلام الجبرتي.. وأن الجبرتي قد كتب تعليقاً. والحقيقة غـير ذلك فالجبرتي نشر محضر التحقيق ، أو ملف القضية بنصه وحرص على ألا يغير حرفاً منه رغم رأيـه السيء فيه من ناحية الصياغة . وعبارة « جرى ضربه على عـادة أهل البلاد » منقولة من محضر التحقيق بحروفها وجاءت على لسان المقرر الفرنسي . وما كان الجبرتي « ممن يغـير الكلام » ومن حقه إذن ألا يغير أحد كلامه وينسب اليه مـا لم يقله . فلا الجبرتي قال أنـه استجوب بالطرق القانونية ولا قال انه « ضرب على عادة أهل البلاد » اما اعتذار « لويس عوض » بأنه يفهم من السياق ان العرف في مصر ايام الترك المماليك كان يقوم على تعذيب المتهمين **لاستخلاص** (انتزاع

أفضل يا دكتور لويس !) الاعتراف منهم . فهو تبرير قالته قبله بمائة وسبعين عاماً المحكمة الفرنسية ، ولم يفدهـــا في التنصل من لطخة العار التي أدانت شرف الثورة الفرنسية ، وما من قانوني شريف في العالم كله يقبل هذا الدفع : « على عادة أهل البلاد » !

إذن انتهت التجربة ، وسقط النموذج ، وقفل باب النقاش .. إذا كانت العدالة الفرنسية لن تتحقق إلا باتباع « عادة اهل البـلاد » .. فما الجديد ؟ التحقيق تم على عادة « الأتراك المماليك » في انتزاع (أو استخلاص للتلطيف) الاعترافات، والعقوبة تمت على عادة خان التتار !.. فما الجديد ؟ أكل الثورة القانونية هي في فتح ملف للقضية وطبعه من عـــدة نسخ ؟ لو كان للخان التتري مطبعة لفعل .. أو ربما لاستحى أن يطبع وينشر مثل هذا الحكم الوحشي ..

ويجب أن نلاحظ ان الجبرتي قد بدأ كتابة احداث الحملة الفرنسية (بمعنى تنسيق ومراجعة مذكراته اليومية) بعد خمس سنوات من جـلاء الفرنسيين (١٢٢٠ — ١٨٠٥) وكانت مصر تعيش في ذلك الحين — وقت كتابة الجزء الثالث — أحلك سنوات مرت في تاريخها كله .. فالانهيار التركي والمملوكي كان قد تجاوز القاع . لذا فإن مؤرخاً مثل الجبرتي ، ووجهة نظره معروفة في فساد الحكم العثماني والمملوكي، ما كان بالذي تفوته هذه المناسبة لكي يصوب سهام نقده للاتراك والمماليك كتعبير عن مشاعر المصريين الذين كانوا في هذا الوقت يقاتلون الأتراك والمماليك . وكوسيلة من وسائل المعارضة للمتسلطين الاتراك والمتقاتلين المماليك . أنستكثر على الجبرتي أن يعير هؤلاء الذين يزعمون أنهم يستبدون بمصر بحجة انهم خلصوا البلاد من حكم « الكفرة » فيقول لهم ان حكم « الكفرة » كان أحسن منكم .. ولكن أيحق لنـــا أن نستنتج من ذلك أنه كان يرجح حكم الكفرة ، ويتمنى دوامه ؟!

هل من شعب عربي .. أو حتى شرقي ، استقل حديثاً ، لم يتحسر كاتب فيه ، أو حتى قطاع ضخم من مثقفيه على ايام سيادة القانون في عهد الاستعمار .. وكتب عن الضمانات التي كانت للفرد في ظل الاستعمار ؟ هل يجوز إذن أن يستنتج مستنتج من ذلك ، وجود تيار بين المثقفين يفضل الحكم الأجنبي ؟!.. المدرسة الاستعمارية تريد أن تقول ذلك ، **وهي تقوله لحساب اليوم والغد ، وليس لحساب الأمس ..** ولذلك نحن نختلف معها ، وبهذه الحدة ، فلو كان الأمر مجرد مناظرة حول الأمس ، لما طال الجدل ، ولا كان العنف فيه .. ولكن الخلاف في الحقيقة هو حول الحاضر والمستقبل .

« والرافعي » ولو ان أخلاقياته لم تسمح له بالهجوم على « سليمان الحلبي » إلا أن المناخ الذي تربى فيه وكتب فيه كتابه هذا بالذات(أواخر العشرينات) حيث كانت القيادة المثقفة للحركة الوطنية تعاني ضربات قاصمة بتأثير الاغتيالات السياسية التي سادت هذه الفترة . هذا المناخ جعل عبارات « الرافعي » تنم عن سخطه على « الجريمة » فهو لا يتحدث عن « سليمان الحلبي » إلا بألفاظ : « القاتل » « الجاني » « فطعنه القاتل » « وعاد الجاني مرة ثانية » « ولاذ الجاني » « مكان الجريمة » « مما يدل على القاتل » « القبض على القاتل » « دلائل الجريمة » « بدم الجريمة » « فلما سيق القاتل » « وفي صباح الجريمة اندس القاتل » « وأخذ في ضرب القاتل » .

كأننا نقرأ محضر ضبط حرره شرطي فرنسي وليس « الجزء الثاني من تاريخ الحركة القومية في مصر » !!

وهو وان لم يسقط الى درك « لويس عوض » فيبرر ضرب«سليمان الحلبي» بحجة « انه من عوائد البلاد » إلا أنه لم يرتفع الى مستوى « الفريد فرج » و « هيرولد » في استنكار الضرب صراحة بل اختار عبارة تقطر نفاقاً بورجوازياً : « ومع هذه البيانات القاطعة كان القاتل ينكر الجريمة ، فاتبع

معه برتلمي الرومي طريقة التعذيب لاكراهه على الاعتراف [١٣] »: « طريقة التعذيب » و « لاكراهه » عبارة ترضي جميع الأطراف . وتبقي قائلها في اطار حزام العفة .

ولا يفوت « الرافعي » ان يمتدح القضاة الفرنسيين لهدوء أعصابهم : « وقد كان في استطاعتهم أن يأخذوا كثيراً من الأبرياء بجناية القاتل ، لكنهم لم يفعلوا فكانوا نموذجاً للعدل ومدعاة للاعجاب » [١٤] .

ولا عجب وهو من الجيل الذي ما زال يحمد الله لأنه نجا الكنانة من أخطار التنكيل البريطاني ، بالقبض على قتلة اللورد موين !! والذي شاهد وزارة تسقط وسوداناً يفصل وغرامة تفرض .. ودستوراً يتحول الى قصاصة ورق وبرلماناً يحل لأن مصرياً قتل سارى عسكر الانجليز بالسودان .

ثم يصف لنا « الرافعي » جنازة كليبر في ٢٣ سطراً .. ويؤرخ « اعدام المحكوم عليهم » في ثلاثة سطور ، ويحذف منها حرق يد سليمان حياً .. مع انه لا يفوته ان يصحح للجبرتي موعد تنفيذ الحكم وانه كان بعد دفن« كليبر » وليس قبله ، كما اخطأ الجبرتي واستحق من الرافعي أن يوبخه على خطأه هذا، فيتهمه بأنه « لم يحضر الجنازة ولا تنفيذ الحكم ولم يغادر بيته في ذلك اليوم الرهيب فلم تصله حوادثه كلها على حقيقتها » [١٥] .

وبحرق الانسان الحي .. والقتل على الخازوق .. ختمت الحملة الفرنسية صفحتها الحضارية في مصر منبهة كأعنف ما يكون التنبيه، كل الذين خدعتهم الشكليات . نبهتهم الى ان الاستعمار هو الاستعمار .. وان الحكم الوحشي هو وسيلته الوحيدة في مواجهة تطلع الشعوب المشروع للتحرر ..

وصدقت على نحو مزعج نبوءة العامة المصريين عندما علقوا على النصب التذكاري الذي أقامه الفرنسيون وغطوه بعلم الثورة الفرنسية ، ليكون

رمزاً لثورة العصر .. لكن العامة في مصر ، لم تجد فيه إلا ما سجله نقولا الترك : « ان الفرنسيين كانوا يقولون ان هذه شجرة الحرية ، أما أهالي مصر فكانوا يقولون ان هذه اشارة « الخازوق » (*) الذي ادخلوه فينا واستيلاؤهم على مملكتنا . واستمر هذا العمود نحو عشرة أشهر . وحينما رفعوه استبشرت أهل مصر وابتهجت بالفرح » (١٦) .

ورغم الرمزية التي في تشبيه اولاد البلد . فقد أتيحت لهم الفرصة ليروه مجسداً .. « وبرطلمين » يرفع « سليمان الحلبي » بعد أن اجلسه على الخازوق، ويمنع عنه الماء ليبقى ينزف وتتمزق احشاؤه أطول مدة ممكنة تحت حماية جند الثورة الفرنسية ، المشبعين بمبادئها .. والراية التي كان احرار أوروبا يتخاطفونها تظلل « تل العقارب » ..

ويسدل الستار على مسرحية الآخـــاء والعدالة والمساواة .. وتطبيق الليبرالية لأول مرة في الشرق ! وتأكل الطيور جثة « سليمان الحلبي ».. ومع كل قطعة لحم من جسده الطاهر .. تتمزق كل الأساطير والأضاليل عن أي دور تحرري أو حضاري يمكن أن يقوم بـه الغرب الغـازي في الشرق المغزو ..

رضوان الله عليك يا شهيد الاسلام .. يا شهيد العروبة.. يا شهيد مصر..

(*) وكانت وجهة نظر المصريين لهـا ما يبررهـا ، فان « الجبرتي » ، ولو أنه لا يثبت هذا التعليق البارع الذي أورده « نقولا الترك » ، الا أن وصفه لقاعدة « الخازوق » يعطي المصريين الحق في اعتبـاره رمزاً لانتصـار الفرنسيين ، فالجبرتي يقول : ان قاعده النصب « بـه تصاوير بالأسود مصور فيه مثل حرب المماليك المصرية معهم وهم في شبه المنهزمين بعضهم واقع على بعض ، وبعضهم ملتفت الى خلف (١٧) .

ويستحيل طبعـاً ان يصدق المصريون ان هـذا النصب يرمز للحرية والمساواة والاخـاء او « شعارهم وإشارة الى قيام دولتهم في زعمهم » .

يا شهيد الشرق .. ولتبقَ ذكراك خــــالدة رمز الوحدة العربية الوطنية ، المعادية للاستعمار ..

واللعنة على كل الطغاة الذين انزلوا بك العقاب الوحشي .. والعار لكل الذين يتطاولون اليوم على سيرتك .. ويدافعون عن جلاديك .. اللعنة والعار على عملاء الأمس الذين كانوا الى جانب وفي خدمة جلاديـك يعدون الخازوق والجمر الملتهب .. واللعنة والعار على الذين يزورون التاريخ اليوم ليبرئوا أعوان الجلاد وعملائه ..

ولننتقل الى « تحرير المرأة » !

تحرير المرأة من تحت الزنار !

وإذا كان يمكن لتلاميذ المدرسة الاستعمارية وحتى اساتذتها ان يشقشقوا حول : « القومية » و « الليبرالية » و « التجربة البرلمانية » .. فإن منطقهم يفقد كل جدية بحكاية « تحرير المرأة » !.. فلم يوجد قلم يحترم نفسه جرؤ على الزعم بان عام ١٨٠٠ هو عام تحرير المرأة المصرية ! عام ١٨٠٠ عام هزيمة ثورة القاهرة الثانية ، عام سبي جنود الاحتلال لنساء مصر وبناتها وغلمانها .. هو عـام تحرير المرأة المصرية .. انفرد بهـذا الكشف « لويس عوض » !.. يقول :

« أما عام ١٨٠٠ فهو عام تحرير المرأة ففي الجبرتي وصف لبدايات حركة السفور ووصف لبدايات حركة تحرير المرأة ووصف لما أصاب بعض نساء القاهرة من انطلاق نتيجة لمخالطة المصريين للفرنسيين ومحاكاتهم في الزي وفي السلوك » [١٨] . ويستشهد على حركة التحرير هذه بقول الجبرتي : « ومنها تبرج النساء وخروج غالبهن عن الحشمة والحياء. وهو انه لما حضر الفرنسيس الى مصر ومع البعض منهم نساؤهم كانوا يمشون في الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه لابسات الفستانات والمناديـل الحرير الملونـة ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميري والمزركشات المصبوغة ويركبن الخيول والحمير

ويسوقونها سوقاً عنيفاً مع الضحك والقهقهة ومداعبة المكارية معهم وحرافيش العامة . فمالت اليهم نفوس أهـــل الاهواء من النساء الاسافل والفواحش فتداخلن معهم لخضوعهم للنساء وبذل الأموال لهن . وكان ذلـك التداخل أولاً مع بعض احتشام وخشية عار . ومبالغة في اخفائه . فلما وقعت الفتنة الاخيرة بمصر . **وحاربت الفرنسيس بولاق وفتكوا في أهلهـــا . وغنموا أموالها واخذوا مـــا استحسنوه من النساء والبنات . وصرن مأسورات عندهم فزيوهن بزي نسائهم وأجروهن على طريقتهن في كامل الاحوال .** فخلع اكثرهن نقاب الحياء بالكلية وتداخل مع أولئك المأسورات غيرهن من النساء الفواجر . ولما حل بأهل البـــلد من الذل والهوان وسلب الأموال . واجتماع الخيرات في حوز الفرنسيس ومن والاهم . وشدة رغبتهم في النساء وخضوعهم لهن وموافقة مرادهن وعدم مخالفة هواهن ولو شتمته أو ضربته بتاسومتها (*) فطرحن الحشمة والوقار والمبالاة والاعتبار واستملن نظراءهن واختلسن عقولهن لميل النفوس الى الشهوات وخصوصاً عقول القاصرات . وخطب الكثير منهم بنات الاعيان وتزوجوهن رغبة في سلطانهم ونوالهم . فيظهر حالة العقد الاسلام وينطق بالشهادتين لأنه ليس له عقيدة يخشى فسادها » « ومنها أنه أوفى النيل اذرعه ودخل الماء الى الخليج وجرت فيه السفن . وقع عند ذلك من تبرج النساء واختلاطهن بالفرنسيين ومصاحبتهن لهم في المراكب . والرقص والغناء والشرب في النهار والليل في الفوانيس والشموع الموقدة . وعليهن الملابس الفاخرة والحـــلى والجواهر المرصعة ، وبصحبتهم آلات الطرب وملاحـــو السفن يكثرون من الهزل والمجون ويتجاوبون برفع الصوت في تحريك المجاديف بسخف موضوعـاتهم وكثائف مطبوعاتهم . وخصوصاً اذا دبت الحشيشة في رؤوسهم وتحكمت في عقولهم .

(*) حذاءها .. ولم تكن هذه مفاجأة تامة للجبرتي ففي تأريخه لأحد شيوخـه الذي تعلم على يديهم ذكر الجبرتي أن شيخه هذا كانت امرأته تضربه (١٩) .

فيصرخون ويطبلون ويرقصون ويزمرون ويتجاوبون بمحاكاة ألفاظالفرنساوية في غنائهم وتقليد كلامهم شيء كثير » .

« وأمـا الجواري السود فانهن لمـا علمن رغبة القوم في مطلق الانثى . ذهبن اليهم افواجـاً فرادي وأزواجـاً . فنططن الحيطان وتسلقن اليهم من الطيقان ودلوهم على مخبآت اسيادهن وخبايا اموالهم ومتاعهم وغير ذلك » .

ويفهم « لويس عوض » من عبارات الجبرتي انه كانت هناك « ثورة نساء» او « ثورة حريم » في مصر او « على الاقل في القاهرة عام ١٨٠٠ » ...

ومع ان الجبرتي لم يترك فرصة لسوء الفهم هـذا ، فان تلميـذ المدرسة الاستعمارية يصر على انها كانت ظاهرة عامة تابعة عن ثورة تحررية ، وليست حالة انهيار تحدث في جميع المجتمعات التي تتعرض للاحتلال والنهب والسلب والتجويع ، وأسر بنات الأسر ، كالجواري ، ووضعهن في معسكرات الجند « مأسورات » .

مؤرخ المدرسة الاستعمارية يجعـل من انحطـاط المرأة الى حد التكسب بالجنس ــ وهذا واضح من اشارة الجبرتي الى بذل الفرنسيين الأموال للنساء ــ ثورة نساء وبداية تحرر المرأة ! وهو بذلك يعكس احتقاراً عميقاً للمرأة .. كما يعكس مفهوماً بورجوازياً وقحـاً لمعنى تحرر المرأة . ولكنه لا يكتفي بذلك بل يصر على أن يجعل هذا التحرر بعلم رجال مصر ورضاهم .. ورغم عبارة الجبرتي الواضحـة التي تصف السلوك الطبيعي للمتكسبات بأجسادهن في المجتمع المصري الذي ما زال يقتل الراقصة أو بنت الهوى ، رغم مائة وسبعين عاماً من « تحرر المرأة » !.. ولكن ضغط الحاجـة ، مع الانهيار الخلقي والشره الى المكاسب دفع بعض : « **أهل الأهواء من النساء الأسافل والفواحش** ، فتداخلن معهم لخضوعهم للنساء ، **وبذل الأموال لهن** » .

فالجبرتي دقيق واضح : الفريق الأول او « الرائدات » هن من النساء

الاسافل والفواحش .. وهن يذهبن الى هناك بسبب خضوع الفرنسيس للنساء وبذل الأموال لهن . وحتى الغوازي والراقصات ، وكانت حارات القاهرة وموالدها بل حتى في اعماق الصعيد تعج بمثلهن قبل الحملة الفرنسية .. ولكن حتى هؤلاء الفواحش يحتجن في البداية الى التكتم في اتصالهن مع « كفار ».. جنود جيش احتلال اجنبي .. وهو ما وصفه الجبرتي بدقة تغني عن كل تعليق :

« وكان ذلك التداخل أولاً مع بعض احتشام وخشية عار ومبالغة في اخفائه » .

ولو انتقلنا مائة وأربعين سنة بعد ذلك لوجدنا نفس الظاهرة مع الخادمات والساقطات اللاتي ذهبن الى الجيش الانجليزي ، ففي البداية كان الأمر يتم في تكتم وخجل فحتى المومس تخجل من مضاجعة الخواجة المحتل .. وحتى مجتمع الساقطات يرفض أن تتعهر ابنة البلد امام المحتل الكافر (*) .

بل حتى في فرنسا ذاتها ، لم تكن كل « مومس » تقبل ان تظهر علانية في شوارع باريس متأبطة ذراع جندي نازي (**) !..

(*) هذه النقطة يرسمها بوضوح جبرتي مصر الحديثة « نجيب محفوظ » في زقاق المدق .

(**) ونشرت الصحف وأنا اشرف على طبع هذه السطور نبأ العقاب الذي انزله الوطنيون والوطنيات في ايرلندا بالفتيات اللاتي يصادقن الجنود البريطانيين قالت صحف يوم ١١/١١/١٩٧١ :

« ربطت فتاة مراهقة — في التاسعة عشرة من عمرها — بعمود انارة الليلة الماضية في حي بوغسايد (لندنديري — ايرلندا الشمالية) وصب عليها القار لانها اقامت علاقات مع جندي بريطاني. ووقف جمهور ساخر يتفرج فيما اخرج رجال منظمة الجيش الجمهوري الايرلندي مرتادوهرتي ، البالغة من العمر ١٩ سنة ، بالقوة من منزلها . واخذوا يهتفن « عاشقة الجنود » وقد أمسك نحو ٨٠ امرأة بتلابيب الفتاة وشد وثاق الفتاة وحلق شعر رأسها ، وصب الاسفلت فوق رأسها وكتفيها. وقالت فتاة اخرى انها تلقت انذاراً يوم الاثنين الماضي بأنها ستقتل اذا شوهدت مرة أخرى تتحدث الى جنود بريطانيين . واضافت ان ست فتيات جئن بعد دقائق وقصصن شعرها حتى مستوى جلد الرأس. وقالت لقد ادركت انني سأعاقب وانه من الحكمة قبول هذا الوضع بدلاً من مقاومته. واكدت انها لن تقابل أي جندي بريطاني بعد الآن . (النهار — الانوار)

وهكذا فشلت حركة تحرير المرأة في ايرلندا !

وهل تقبل ـ بسهولة ـ مومس عربيـــة في العريش أو نابلس أن تسير علانية الى جانب جندي الاحتلال الاسرائيلي ؟ أم ترانا مضطرين الى افتراض تحرر اكبر في المومس المصرية منذ قرن وسبعين عاماً !.. واذا كان البعض لا يرى الاحتلال الفرنسي شبيهاً بالاحتلال النازي أو الاحتلال الاسرائيلي ، أو يعتبر الشعب المصري أقل وطنية من الشعب الفرنسي والشعب العربي اليوم. فان مومسات مصر في فجر القرن التاسع عشر ، كان رأيهن غير ذلك .

.. ففي البداية كان لا بد حتى للمومسات ، أن يلتزمن بعض الحيـاء .. تحرجاً او خوفـاً من انتقام المجتمع .. ولكن مع الانهيار الشامل وسقوط القاهرة تحت أقدام الغزاة بعد الثورة الثانية أو « الفتنة الاخيرة » ، وأسر بنات الاسر وتحويلهن في عصر تحرير المرأة الى جواري وسبايا ، واجبارهن على التحول الى غانيات .. وليس زوجات بأي حال من الاحوال ، كما يزعم مؤرخ المدرسة الاستعمارية ، عندئذ سقط الحياء .. فمـا دامت بنات الأسر « تبهدلن » فهل تتعفف المومسات والفواحش ، بالعكس لم يبق امامهن إلا ان يكشفن اكبر قدر ممكن من عوراتهن بعد أن حميت المنافسة بقيام اكبر سوق للحريم والجواري عرفه تاريخ مصر .. وبعدما انهارت قدرة المجتمع على المقاومة وهو يرى بنات وزوجات شريفات يتحولن الى رقيق في مواخير وخمامير ومعسكرات جيش الاحتلال . ومع الضربات التي نزلت بتنظيمات المقاومة بعد سحق الثورة الثانية .. يقول الجبرتي :

« وكان ذلك التداخل أولاً مع بعض احتشام وخشية عار ومبالغـة في اخفائه . فلمـا وقعت الفتنة الاخيرة بمصر . وحاربت الفرنسيس ببولاق وفتكوا في أهلها وغنموا أموالها وأخذوا ما استحسنوه من النساء والبنات صرن مأسورات عندهم فزيوهن بزي نسائهم وأجروهن على طريقتهم في كامل الأحوال فخلع اكثرهن نقاب الحياء بالكلية . وتداخل مع أولئك المأسورات غيرهن من النساء الفواجر ، ولمـا حل بأهـل البلد من الذل والهوان وسلب

الأموال واجتماع الخيرات في حوزة الفرنسيس ومن والاهم . الخ »

فالجبرتي حريص على أن يفرق بين نوعين النساء والبنات المأسورات. وهو يكرر لفظة « مأسورات » مرتين في فقرة واحـــدة . والنوع الآخر هن الأسافل والفواجر من النساء ممن يتكسبن بالجسد عادة ..

ولكن مؤرخ المدرسة الاستعمارية يصر على ان هـــذه الظاهرة هي من « مظاهر التحرر في المظهر والسلوك بين نساء مصر » و « ان هذه الظاهرة عمت نساء مصر » وبالذات الحرائر وربات البيوت !

فيقول : « فلو كان الجبرتي يتحـــدث عن مجتمع الساقطات والفواحش بالمعنى الاجتماعي ، لمـا كان هناك مجـال للكلام عن الاحتشام واتقاء العـار والحرص على التستر ، لأن بنات هـذه المهنة لسن بحاجـة الى الاحتشام ولا قادرات عليه ، ولسن مسؤولات حتى يبتغين الحرص على التستر واتقاء العار. فهو إذن يتحدث عن الحرائر من ربات البيوت وبناتها عن سيدات المجتمع . وهؤلاء ما كان يمكن ان يخالطن الفرنسيات والفرنسيين الا برضاء الأوليـاء عليهن » (٢١) .

وهكذا نجد ان المجتمع المصري في تحرره، تحولت نساؤه الى بغايا يتعلقن بسترات جيش الاحتلال ، ورجاله الى ديوثين يرضون بذلك !

ولا شك انه في مثل هذه الحالات ، حالة جيش احتلال يدمر العاصمـة ويسبي بناتها ويجوع أهلها الى حد الموت ويفرض غرامة مالية مدمرة كتلك التي فرضهـا « كليبر » .. ويضرب الشيخ « السادات » في حضور زوجته ، ويفرض الغرامات الفاحشة على نساء المماليك .. لا شك ان الانهيار يمتد الى فئات وحالات فردية في سائر الطبقات . وحتى يومنا هـذا فان التعاون مع المحتل لا يختص به الجياع للخبز وحدهم والتهتك في احضان جنود الاحتلال يجتذب الراغبات في الاموال لجوعهن ، والراغبـــات في الأموال لانهيارهن وجوعهن الطبقي .. والراغبات في الجنس . والراغبات في التهتك ذاتـه .

ولكن أحداً لا يسمي هؤلاء ثوريات ولا يجعل من انهيارهن بداية لتحرير المرأة ! لأن المرأة لا تتحرر من نصفها الأسفل ، ولا تتحرر في ذات لحظة فقدان الوطن لحريته .

والجبرتي دقيق في عبارته فهو يفرق – كما رأينا – بين البنات والسيدات المأسورات ، وواضح انه يعتذر عنهن بالأسر – والجارية غير مسئولة عما يجبرها مالكها عليه من الفحش وان كان ديننا ينهي عن اجبارهن على الفاحشة – الجبرتي يفرق بين هؤلاء وبين الأسافل والفواجر الراغبات في المال أو الجنس والمال ومعاً .. وبين فئة ثالثة ، هي التي أجبرت على ان تستر علاقاتها مع جيش الاحتلال تحت ستار الزواج ، واعتناق الجنود للاسلام !

فليس من حق أحد أن يتقول على الجبرتي، ويقول أنه منفعل بحكم موقفه الأخلاقي (متزمت يعني ! باعتباره فقي !) وليس من حق أحد أن يلوي عنق النص ، أو حق يرفضه تماماً لتستقيم النظرية التغريبية ..

ولكن « لويس عوض » يرى أن الفواجر هنا نعت أخلاقي وتعليق شخصي من عند الجبرتي .. وليس وصفاً لطبقة أو فئة أو مهنة . وهكذا اتسعت طبقات النساء اللواتي حاكين المتفرنسات والعادات الفرنسية « فطرحن الحشمة والوقار والمبالاة والاعتبار » بتأثير سبايا الفرنسيين المتحررات من بنات بولاق » .

وعبارة « **سبايا الفرنسيين المتحررات** » ليست هزلية ، ولا وضعت للتفكه ، وان كانت كذلك ، بل هي منطقية للغاية مع هذا التفسير الجنسي للتاريخ .. فكونهن « سبايا » الفرنسيين لا يتنافى أبداً – في هذا المنطق – مع كونهن « متحررات » .. فالحرية التي يدور حولها الجدل هنا هي الحرية الجنسية – بالمعنى السوقي المبتذل – ومن ثم يمكن ان تكون المرأة جارية سبية « متحررة » بل وطليعة ثورة تحررية ، لأنها تلبس الفستان وتخرج سافرة الوجه متأبطة ذراع محررها ومالكها في نفس الوقت !..

أليس هذا المحتل للوطن هو أيضاً باعث قوميته !.. أليست هذه جدلية!

ويستمر الطعن في الجبرتي الذي فسر اندفاع الفواجر بلا حياء بعد سقوط ثورة القاهرة الثانية ، بما جرى على بنات اسر بولاق من أسر دوسي واجبار على العيش كغانيات في ركاب الجيش المحتل . يرفض « لويس » هذا التفسير من الجبرتي ويصفه بأنه اجتهاد غير معقول في تفسير هذه الظاهرة لأن العقائل والحرائر وصاحبات الحشمة والوقار لا يحاكين السبايا إلا إذا كانت السبايا من العقائل والحرائر وصاحبات الحشمة والوقار ، إلا إذا كن زوجات لا سبايا أي كان لهن وضع اجتماعي شرعي معترف بشرعيته . ويستشهد بما ذكره الجبرتي عن الزيجات الفرنسية ـ المصرية . وهذه حجة للجبرتي ، فهو لم يغفل هذه الظاهرة بل عددها ضمن تصنيفه الدقيق والتطوري لظاهرة النساء في معسكر المحتلين، التي بدأت بالفواحش والفواجر ثم بالجواري والسبايا من بنات المدينة الثائرة المهزومة . ثم باندفاع الفواجر والأسافل وخلع برقع الحياء من جانبهن . ثم بأولئك الذين أرادوا الجمع بين الدين والدنيا فاشترطوا أن يتم ذلك على سنة الله ورسوله !

وحتى النصوص التي يستشهد بها « لويس » من « نقولا الترك » تؤكد صحة معلومات الجبرتي .. فـ « نقولا » عندما يتحدث عن النساء المصريات في معسكرات جيش الاحتلال يؤكد انهن : « مملوكين من الافرنج جهاراً ماشيين معهم في الطريق . نايمين قايمين في بيوتهم » .. ولو كن زوجات لما كان في « نومهن وقيامهن » في بيوت ازواجهن ظاهرة تحتاج الى تأريخ .. حتى ولو سبب هذا الزواج ألماً لبعض المواطنين . فان خير ما تفعله الزوجة هو أن تنام وتقوم في بيت زوجها، على الأقل في مطلع القرن التاسع عشر!.. وما كان نقولا الترك ليستخدم عبارة : « مملوكين من الافرنج جهاراً » .. ولا اندهش من مشيهن معهم .

وهيرولد يؤكد ذلك بقوله « واستولى الجنود على ما استطاعوا العثور

عليه ، بما في ذلك عدد كبير من النساء ظلوا يعاشرونهن معاشرة الأزواج طوال سنة الاحتلال الباقية» [٢٣] (سنة تحرير المرأة) !

ان ظاهرة الانحلال، ظاهرة عامة في المستعمرات وهي لا علاقة لها بمركز المرأة ، اذ انها ظاهرة تنشأ عند قشرة المجتمع ، عند نقطة احتكاكه بالمحتل الأجنبي .. وهي « كالحب الافرنجي » سرعان ما تضرب بجذورها وتصل الى قلب المجتمع اذا ما اتيحت لها الفرصة بالاستمرار والتحول من ظاهرة اجتماعية الى قانون اجتماعي .. وهي اذا اتيحت لها هذه الفرصة فلن تتحول أبداً الى ثورة نسائية ولا الى حركة تحرير المرأة . لأن المرأة لا تتحرر على يد جيش احتلال يهتك الأعراض ويغتصب الفتيات القاصرات بله الأطفال ! « وهن ما زلن في احضان امهاتهن المقتولات » !! ويأسر النساء والبنات ويحتفظ بهن كجواري في وقت لا يفكر فيه في أن يضع امرأة فرنسية في هذا الوضع.. «جارية» هي صفة مرفوضة بالنسبة للفرنسية حتى لو كانت واحدة من الثلاثمائة مومس التي كتب نابليون يطلب من حكومة الادارة اسعافه بهن ! ولكن استرقاق المصريات مقبول..فالمصرية أقل من أوضع امرأة فرنسية..الفرنسيون لم يعبروا عن أي احترام للمرأة المصرية ، ولا حتى اولئك الذين اجبروا على اجراء زواج شكلي لمجرد الرغبة في الحصول على جسد امرأة متمنعة — هي أو أهلها — على البغاء الصريح ، حتى هؤلاء لم يكن لديهم أية نية حقيقية في الارتباط بالزوجات الا في حالات نادرة تأثرت بما ينشأ بعد ذلك بحكم العواطف الانسانية التي لا يمكن تفادي تأثيرها ولو على التتار !

وللتدليل على ان المخالطة كانت ثورة ، واتجاهاً تحريرياً يضرب لنا مثلين:

« وليس هناك ما يدعو الى الظن بأن كل من خالط الفرنسيين أو حاكاهم او قبل وجوهاً من حضارتهم قد فعل ذلك عن مجرد افتتان بأسلوب الحكام في الحياة — وهو ظاهرة اجتماعية وانسانية — أو عن مصلحة ذاتية أو رغبة في التزلف الى الحكام . ولا شك أن تحرير المرأة على النحو العملي هذا الذي

وصفه الجبرتي ، كان « حركة » اجتماعية بالمعنى المألوف ، وتعبيراً عن رأي عام بين المثقفين وفي شرائح معينة من مختلف مستويات المجتمع المصري بضرورة الانفتاح لهذه الحضارة الحديثة والقيم الاجتماعية الحديثة التي جاء بها الفرنسيون من أوروبا . وأدركت بعض فئـات المصريين أنها السبيل الى نهضتهم والى خروجهم من ظلام العصور الوسطى . انظر مثلاً الى مأساة زينب البكرية بنت الشيخ خليل البكري نقيب الأشراف أيام الحملة الفرنسية . والى مأساة سيدة أخرى من سيدات ذلك العصر اسمها هوى » « مأساة عصر كامل سقط بين حضارتين فدفع ثمناً رهيباً لاجترائه على تحدي القديم قبـل انتصار الجديد » (٢٤) .

ولنا ان نتوقع ، طبعاً ، تتويج « زينب البكرية » و « هوى » كرائدات في حركة تحرير المرأة . ونموذج لهذا الرأي العام بين المثقفين . الذى أدرك ضرورة « الانفتاح » لهذه الحضارة الحديثة وانهـــا السبيل الى نهضتهم ، وخروجهم من ظلام العصور الوسطى ... الخ .

فلندرس — بكل اهتمام — المثلين اللذين يقدمها ..

اما زينب البكرية فكانت دون السادسة عشرة ؟.. ومن ثم فلا يمكن ان تمثل حركة ولا أن تقود ثورة .. لا شك اذن أنـه يعني ابيها الشيخ « خليل البكري » بالحديث عن قطاع المثقفين الذي ادرك اهمية « الانفتاح » ... الخ اذ لو كانت بنات مشايخنا في سنة ١٨٠٠ يدركن قبل سن السادسة عشرة ، اهمية « الانفتاح » الحضاري وظلام العصور الوسطى ، وينشغلن بنهضة مصر ، لكان كل حديث عن دور الثورة الفرنسية في تحرير المرأة ، لغو وعبث ..

المقصود اذن هو والدها الشيخ البكري الذي يصر لويس على أن ابنته كانت تخالط الرجال الفرنسيين بعلمه .

والشيخ « البكري »، لسوء حظ المدرسة الاستعمارية — اسوأ مثل يمكن ان يضرب على « الانفتاح » على الحضارة الحديثـة .. فهو الذي سأل السؤال

المضحك في بيت « حسن كاشف » وافحم « برتولية » بتحديه له ان يكون في مراكش والقاهرة في نفس الوقت . واستدل بـه « لويس » نفسه على ان حضارتين كانتا تتواجهان لأول مرة .

اما من هو « البكري » فيكفي ما يثبته « لويس » المعجب به ..

« كان محباً للحياة ، وكان شرابه المفضل مزيجـاً من الكونياك والنبيذ البورجوني المعتق يشربه حتى الغيبوبة » (*) .

وهو حب للحياة غريب .. يفضي الى الغيبوبـة عن الحياة كل الحياة ! ليس هذا شأننا فلكل وجهة نظره في التعبير عن حبه للحياة .. ولكن هذا الذي يسكر (طينه) بأشربة فرنسية الى حد الغيبوبة ، وما يسبقها بالضرورة من النشوة والعربدة . والذي أثبتت له كتب التاريخ حبه للغلمان ، واراقته ماء وجهه عند سلطات الاحتلال في النزاع على غلام يهواه . هذه الواقعة التي يطويها مؤرخ المدرسة الاستعمارية من تاريخ حياة رائده هذا !..الذي عبر عن ايمانه بالانفتاح على الحضارة الحديثة بتقديم ابنته(**) لجيش الاحتلال .. لكي تنهض مصر على أكتافها .. مع ان المدرسة الاستعمارية كلها تردد في نغمـة ببغائية ان حضارتنا كانت حضارة غلمان.وان الفرنسيين علمونا الاهتمام بالمرأة! ورغم ذلك نجد ان الرائد الوحيد الذي « انفتح » على حضارة الكونياك والنبيذ البورجوني ، هو أحد مشاهير عشاق الغلمان . والذي اكتفى الحكم

(*) وهذه الرواية اثبتها أيضاً هيرولد نقلاً عن مذكرات مملوك نابليون بونابرت .

(**) ويشير « هيرولد » الى قصة بنت البكري هذه، ويؤكد انه ليس لها سند كتابي ويقول « وليس في امكاننا ان نعرف ، على وجه التحقيق ، لم والى أي مدى أغضى أبوها الشيخ عن هذه الصلة ، ولعله كان مشغولاً عن مراقبة ابنته مراقبة مشددة بالجري وراء مملوكه المتنازع عليه، أو يشرب زجاجات البرندي والبرجندي كل ليلة » « وكانت تعرف في ايام عزهـــا بـ « فتاة القائد المصرية »(٢٥) .

الجديد بعد الجلاء ، بمعاقبته على تعاونه مع الفرنسيين ، بحرمانه من الغلام .. مملوكه !

والبكري منذ ان قبل نقابة الأشراف من السلطة الجديدة الفرنسية ، ليحل محل عمر مكرم الذي قاد الجماهير يوم غزو القاهرة ، ثم رفض البقاء في ظل الاحتلال ، وعاد ليقود ثورة القاهرة الثانية . وتوج زعيماً جماهيرياً قاد زحف المصريين ومحاولتهم لتقرير مصيرهم ، لولا أن صفاه محمد علي باشا .. البكري منذ أن قبل تولي منصبه ، ارتبط بالمحتلين على نحو لم يكن يسمه معه المقاومة .. ومثل هذا الشيخ الذي جامل ، من قبل ، الباشا التركي بالمبيت معه ، تزلفا للجيش العثماني الزاحف .. ثم هذا السكير الى حد الغيبوبة . المفضوح لدى المحتلين بشذوذه الجنسي ، لم يكن بالذي يريق الدم على جوانب الشرف الرفيع ثأراً من مداعبات قواد جيش الاحتلال لكريمته. وبنذالة نادرة سلمها للاتراك وهو يقول : « إني بريء منها » ! نفس عبارة الشيطان التي تقطر نذالة .. وتركهم يكسرون رقبتها .. ناجياً برقبته التي طالما انهالت عليها صفعات مواطنيه كلما اتيحت لهم الفرصة .

أي رائد هذا البكري ؟! وأي دور تحريري يمكن ان تلعبه ابنته ؟!

تبقى « الفتاة البائسة الأخرى » « هوى » !.. ولا بد — اذن — مهما كانت عواطفنا ان نعتبرها هي وحدها ، المقصودة بتلك المقدمة ذات الرنين العالي « كان حركة اجتماعية بالمعنى المألوف وتعبيراً عن رأي عام بين المثقفين .. الخ » .

لا بد لنا ان نستسلم للمقادير أو حكم الهوى .. ونعتبر ان السيدة «هوى» هي المقصودة شخصياً لأنه فيما اتاحه لنا التاريخ من مصادر ، لا نعرف أحداً من ذويها يصلح لتمثيل هذه النخبة المصرية المنفتحة . فـ « هوى[*] » غير

(*) لعلها هي التي خلعت اسمها على جميع « بنات الهوى » !

معروفة العائلة .. واسمها وحده يوحي بخلفية خاصة .. ولا يعرف لها اكثر من زوجين ، غير مصريين ! فزوجها الاول هو « اسماعيل كاشف » من امراء المماليك . فلما جاء الفرنسيون خرجت عن طورها وتزوجت نقولا .. ونقولا هذا الذي تحدثنا عنه كثيراً ، هو « رومي » أي يوناني ، عمل في خدمة « مراد بيك » فلما جاء الفرنسيون نقل ولاءه لهم . وسارت « هوى» على خطاه فانتقلت اليه وصعدت الى القلعة وعاشت معه . وبمجرد ان انهزم الفرنسيون أمام الانجليز .. خرجت بغير وفاء ولا حياء ولا مروءة ، تحمل متاعها على حمارين متسللة من القلعة الى أحياء القاهرة حيث اختفت . وجن جنون « نقولا » زوجها أو بالأحرى خليلها . واستنجد بالفرنسيين الذين جردوا حملات تفتيش عن الهاربة من « التحرير » والمختبئه بعيداً عن الحضارة الحديثة . والعائدة بهواها ومتاعها الى ظلام القرون الوسطى ، على ظهر حمارين !

وباسم التفتيش على « هوى » وجد « عبد العال » الآغا مناخاً رائعاً لنشاطه ، ومهاراته ..

« فكان يتنكر ويلبس زي النساء ويدخل البيوت بحجة التفتيش عليها فيزعج أرباب البيوت والنساء ويأخذ منهن مصالح ومصاغاً ويفعل ما لا خير فيه ولا يخشي خالقاً ولا مخلوقاً » (٢٦) .. وفشلت كل حيل الآغا عبد العال في العثور عليها .. ومن يغلب « هوى » ؟! ومـا أن عاد حكم المماليك حتى ظهرت « هوى » وعادت لزوجها القديم تائبة نادمة .. الذي أقامها معه مدة كافية لرد اعتباره ، ثم استأذن في قتلها ، فأذن له وقتلها ...

اهذه هي قيادة حركة تحرير المرأة !.. على أية حال هذه هي الأمثلة التي اختارها وما كان بوسعه ان يختار أفضل !..

واذا ما استثنينا الخلاعة والتبرج والسير مع « جوني(*) » وفي حمايته ما هو الجديد الذي قدمتــه الحملة ، فيما يتعلق بالنظرة الى المرأة .. ولن نقول ان أي دراسة ولو خاطفة ،تثبت ان مكانة المرأة في الحضارة الشرقية عموماً، وفي الحضارة الاسلامية بالذات ، أعز واكرم واكثر انسانية ، مما وصلت اليه الحضارة الغربية في العالم كله .. لن نقول ذلك.. بـــل سنسلم بأن التخلف العام الذي كان طابع حياتنا ، قد اصاب مكانــة المرأة ، فهل عكست الحملة الفرنسية في سلوكها أي مفهوم مثير كفيل بتفجير حركة تحرير ؟!..

سلوك الحملة لم يعبرعن نظرة للمرأة أكثر من كونها وسيلة للتفريـغ الجنسي.. والضابط الفرنسي الوحيد الذي نظر الى « الأنثى » المصرية كامرأة .. هــو « مينو » الذي تزوجها وانجب منهـا واصطحبها ، هي ومن أنجبت ، الى فرنسا ، ولو أن الزوجة المصرية تعرضت هناك لمحنة شديدة ، عندما أصر قائد الحملة الفرنسية وابن الثورة « العلمانية » على تنصير ابنه. وعارضت هي، واحتال عليها « مينو » بفتيوى مستشرق(**) زعم لها أن الأديان كلها واحد، وقرأ لابنة الحامي الرشيدي ، آية من القرآن تثبت ذلك !.. والغريب انه لم يقتنع لا هو ولا مينو بالآية وإلا لما أصر على تنصير ابنه !

أما السلوك العام لجيش الاحتلال ، فلم يعكس أكثر من بحث عن « انثى » أي انثى « مطلق الانثي » لتلبية حاجة « مطلق الذكر » المتوتر في جيش يضم زهرة شباب فرنسا .

ولا نظن ان استيلاء الجنرال « بيريه » على « بعض النسوة » و « بعض الأثاث » و « بعض المجوهرات من منازل الأمراء المماليك » يمكن أن يكون السلوك المفجر لقضية تحرير المرأة .

(*) الاسم الذي كانت تطلقه المومسات على العسكري الانجليزي في مصر اثناء الحرب العالمية الثانية .

(**) اقرأ فصل « دفاع عن الطهطاوي » في كتابنا : دراسة في فكر منحل .

وعندما قدمت لنابليون نفسه « هدية من ست نساء » لم يعترض إلا على رائحتهن وزيادة وزنهن »[٢٧] !.. وكان نابليون يعتبر ان ثياب النساء هي رمز الجبن ، وارتدائها إهانة بالغة للرجل ، فقد أصدر أمره بمعاقبة الجراح الفرنسي الذي خاف من عدوى الطاعون :« ان المواطن بوابيه جراح مستشفى الاسكندرية بلغ به الجبن أن يرفض علاج الجنود المجروحين المخالطين للمرضى الذين قيل انهم يشكون مرضاً معدياً . إنه غير جدير بأن يكون مواطناً فرنساً . **وسيلبس ملابس النساء** ، ويوضع على حمار ، ويسحب في شوارع الاسكندرية وعلى ظهره لافتة كتب عليها : « غير جدير بأن يكون مواطناً فرنسياً ، لأنه يخشى الموت »[٢٨] ..

لقد فاز بسخرية التاريخ ذلك الخليفة العاجز الذي أهان المرأة عندما كتب للمماليك في القرن الثالث عشر يقول لهم إذا لم يكن لديكم رجالاً فقولوا لنا لنرسل لكم . وذلك يوم تولت السلطة شجرة الدر ، فقهرت لويس التاسع دون معونة ذلك الخليفة الذي يشك التاريخ في زعمه توفر الرجال عنده .. ولكن لم يحدث في تاريخنا قط أن عوقب « جبان » بالباسه ثياب النساء ، فهذه مذلة للنساء وليس للرجل المعاقب.. وهو ما فهمته النساء الفرنسيات في الحملة وكان مثار احتجاجهن ..

ما الذي كان بوسع الحملة الفرنسية ان تعلمه لنساء مصر .. لنساء المماليك مثلاً عن مكانة المرأة ، وتاريخ المماليك يبدأ وينتهي بامرأة عظيمة .. يبدأ بشجرة الدر ، التي تولت الحكم ودعى لها على المنابر ، وضربت العملة باسمها، بل وأهم من ذلك أنها قهرت «لويس» التاسع ملك فرنسا ، وأسرته وحبسته وأذلته ومرغت كرامة فرنسا في تراب المنصورة ... ليس في تاريخ فرنسا امرأة مثل شجرة الدر ..

أو « نفيسة » المرادية .. زوجة « علي بك الكبير » ثم زوجة « مراد بيك » وكانت على جانب كبير من التثقيف والتهذيب ، الى روعة في الجمال

وسمو في العواطف، تعلمت العربية قراءة وكتابة (أصلها شركسي) وأقبلت على الكتب العلمية تطالعها وتدرسها ، فارتقت مداركها واكتسبت احترام العلماء والبكوات المماليك . وكذلك اجتذبت قلوب الشعب بما اشتهرت به من البر والاحسان ورفع المظالم وحماية الضعفاء ، فعظمت مكانتها بين طبقات الشعب . وسرت شهرتها الى الأوساط الأوروبية إذ عرف عنها الميل الى تنشيط التجارة والصناعة ومعارضة البكوات المماليك فيسلب أموال التجار، وقد أهدتها حكومة فرنسا قبل الحملة الفرنسية ساعة مرصعة بالماس قدمها لها القنصل « مجالون » اعترافاً لهـا بمبراتها وخدماتها للتجارة . وكانت تتبرع بإعانات شهرية لكثير من العائلات التي اخنى عليها الدهر ، واستمرت تؤدي هذه الإعانات حتى في أيام محنتها ، ولما جاءت الحملة الفرنسية وانهزم مراد بك في واقعة الاهرام بقيت هي في القاهرة فاستهدفت للأتاوات والغرامات الحربية » (٣٠) . « وبالجملة فقد كانت من الخيرات ولها على الفقراء بر وإحسان ولها من المآثر الخان الجديد والصهريج داخل باب زويله » (٣١) .

كل مـا عرفته السيدة نفيسة من الفرنسيين هو الغرامات الفادحة .. التي اضطرتها كما يقول « ريبو » الى « أن تنزل عن حليها وجواهرها ومنها ساعة مرصعة بالجواهر كان أهداها لهـا القنصل « مجالون » باسم الجمهورية الفرنسية تقديراً لخدماتها ورعايتها . فكان اضطرارها للنزول عن هذه الهدية للفرنسيين احتجاجاً شريفاً منها » (٣٢) .

لم يكن في الحملة الفرنسية كلهـا امرأة احتفظ التاريخ باسمها ، كما احتفظ باسم السيدة نفيسة . ولا كان في فرنسا ذاتهـا امرأة تتمتع بنفوذ وتجري مفاوضات وتـدير شئون السياسة ، كما كانت السيدة نفيسة التي لم ترَ من الفرنسيين إلا محصل الغرامات !

وكانت لدى زوجة « عثمان بيك الطنبرجي » فرصة نادرة للتعرف على رسالة الفرنسيين في تحرير المرأة . فقـد أرسل ديوي قائمقام الى الست نفيسة

وطلب منها احضار زوجة عثمان بيك الطنبرجي فأرسلت الى المشايخ تستغيث بهم فحضر اليها الشيخ محمد المهدي والشيخ موسى السرسي وقصدوا منعهم فلم يمكنهم فذهبوا صحبتها ونظروا في قصتها »[٣٣]. وكانت تهمتها أنها حاولت الاتصال بزوجها . وطلب المشايخ مواجهتها بالرسول المزعوم الذي اعترف عليها . ولكنه لم يحضر « الى بعد الغروب » فطلب المشايخ الافراج عن السيدة : « دعوها تذهب الى بيتها وفي غد نأتي ونحقق هذه القضية فقال دبوي نونو .. معناه بلغتهم النفي . أي لا تذهب . فقالوا له دعها تذهب هي ونحن نبيت عوضاً عنها فلم يرضَ أيضاً وعالجوا في ذلك بقدر طاقتهم فلما أيسوا تركوها ومضوا فباتت عندهم في ناحية من البيت وصحبتها جماعة من النساء المسلمات والنساء الافرنجيات . فلما أصبح النهار ركب المشايخ الى كتخدا الباشا والقاضي فركبا معه وذهبا الى بيت ساري عسكر الكبير فأحضرها وسلمها الى القاضي . ولم يثبت عليها شيء من هذه الدعوة »[٣٤] ورغم ذلك ينهي « الجبرتي » الحكاية بقوله « وقرروا عليها ثلاثة آلاف ريال فرانسه » .

أما نظرة الفرنسيين للنساء ، فهذا هو « ديزيه » فاتح الصعيد ، « الفنان الثوري » « من كان يلهب مشاعر يعقوب » يكتب لصديقته في فرنسا يحدثها عن حريمه : « أحببت استير الصغيرة ، وهي فتاة جورجية لطيفة جميلة كفينوس ، شقراء ، رقيقة . وكانت في الرابعة عشرة ، برعمتي وردة وقد آلت إليّ بحق الميراث ، لأن سيدها مات . ثم أهديت ساره ، وهي حبشية رعناء في الخامسة عشرة من عمرها، وقد رافقتني في رحلاتي . كذلك ملكت « مارا » وهي طفلة ساذجة من دجلة . وفاطمة وهي فارعة الطول ، حسناء جميلة التكوين ، ولكنها تعسة جداً .. اولئك حريمي ، وإلى هؤلاء يجب أن أضيف ثلاث زنجيات ، وغلاماً أسود صغيراً اسمه باقل ، ومملوكاً صغيراً اسمه

اسماعيل ، حلو الصورة (*) كأنه ملاك » (٣٥) .

ولم تشهد المنطقة بين القاهرة وعكا ، خلافاً فيما يتعلق بمركز المرأة في حملة يقودها « نابليون » أو الأمير « بارم ديله » او « المنفوخ بيك » أو « أبو مناخير فضة ». فقد خرج جيش الثورة الفرنسية ومعه «عدة مواهي ومحفات للنساء والجواري البيض والسود والحبوش اللآتي اخذوهن من بيوت الأمراء وتزيا اكثرهن بزي نسائهم الافرنجيات » .

ولولا أن الفرنسيين يحبون صغيرات السن ، لقلنا أن بعض هؤلاء الجواري خرجن مع « علي بيك الكبير » « ومحمد ابو الذهب » ، وتزيين وقتها بزي نسائهم « التركيات » !

بل إن هذا الاندفاع – الذي يحدثنا عنه «الدكتور لويس» – من جانب النساء الى « التحرير » لم يلق ترحيباً من كبار المسئولين عن الحملة الذين كانت لديهم وسائلهم في الحصول على « الانثى » .. وكانت لديهم ميزة الاختيار من بين « مطلق الانثى » . ولذلك فزعوا لما أصاب الجيش على يد المومسات المندفعات لتحرير المرأة . فقد كتب الجنرال ديجا حاكم القاهرة الى بونابرت : « ان البغايا وباء يتفشي في مساكن الفرنسيين ولا بدّ لإبعادهن من إغراق من يقبض عليهن في الثكنات . وكان تعقيب بونابرت في الهامش : كلف آغا – الانكشارية – بهذه المهمة ». وتنفيذاً لهذا الأمر « قطعت رؤوس اربعمائة مومس (**) وخيطن في غرائر والقين في النيل » (٣٦) .

(*) لم يخبرنا « هيرولد » المهتم بعشق الشرقيين للغلمان عن سبب احتفاظ « ديزيه » بمملوك حلو الصورة !

(**) لم يكن نابليون ضد المومسات ، بـل ضد المومسات « البلديات »، وبعض الأحيان ، وليس طول الوقت ، فإن مورهيد يقول ان « أول قائمة بالطلبات التي أرسلها بونابرت الى فرنسا فور احتلال القاهرة ولحفظ معنويات الجند تتضمن طلب « مائة مومس فرنسية » (٣٧) .

وعندما انتهت الحملة ، وتقرر جلاء الفرنسيين ، لم يسجل التاريخ للحملة الثورية حتى « تحريرها » للمرأة بالمعنى اللغوي الذي تصر المدرسة الاستعمارية على أنه المعنى الوحيد الذي عرفناه ، في حضارتنا ، للحرية .. أي تحرير العبيد والجواري ! حتى هذا لم يتكرم به جنود الثورة الفرنسية ، بل أصروا على بيع جواريهم وقبضوا الثمن نقداً .. ثمن بنات بولاق، بعد أن عاشروهن سنة كاملة معاشرة الأزواج !.. يقول هيرولد خجلا : « وفي أثناء ذلك (أثناء إتمام الجلاء) كان أهم ما يشغل الجنود الفرنسيين ، تصفية ممتلكاتهم وبيعها نقداً ، بما في ذلك خليلاتهم »(٣٨) والعبيد الذكور فقط هم الذين أسعدهم الحظ فاحتفظ بهم كبار الضباط .. فحتى نابليون أخذ معه « رستم » (*) .

على أية حال ، ليس ثمة دليل ولا في عصرنا الحاضر على أن وضع المرأة المسلمة في داخل الحريم ، ليس اكثر ارضاء للمرأة من وضعها في كباريهات الغرب . ولا نشك في أن نسبة كبيرة من الـ ٣٠٠ إمرأة اللاتي جئن مع الحملة الفرنسية للترفيه ، كن سيفضلن « الحريم » على العودة الى مواخير باريس .

(*) وكانت تجارة العبيد ستشهد ازدهاراً حقيقياً ، لو نجحت مشاريع نابليون أو لو طالت أيامه في مصر ، فقد فكر في شراء الزنوج ، وكتب لديزيه في يونيه ١٧٩٩ : « أود ايها المواطن الجنرال ان اشتري ٢٠٠٠ او ٣٠٠٠ زنجي ممن تزيد اعمارهم على السادسة عشرة » (٣٩) ثم كتب بعد ايام قليلة الى سلطان دارفور يقول : « ارجوك ان ترسل لي بالقافلة التالية ٢٠٠٠ عبد اسود تزيد اعمارهم على السادسة عشرة بشرط ان يكونوا اقوياء اشداء ، وسأشتريهم كلهم لحسابي » (٤٠) « رأي ان توفد الرسل الى سنار والحبشة ودارفور لشراء ١٠٠٠٠ عبد صغير كل سنة » (٤١) .

وكما جاء الرعي بعد الصيد فلا شك ان خطوة نابليون الثانية كانت ستكون توليد وتربية العبيد .

ولدينا حالة واحدة على الأقل تنفى هذا الزعم الذي طال ترديده عن افضلية حياة الحانات فيالغرب على حياة الحريم في الشرق. فقد اتيحت لإمرأة غربية أن تختار .. واختارت : « أصر ديزيه على أن يرد والي القدس عاملة فرنسية في أحد مطاعم الجيش ، وهي أرملة جاويش قتل في المعركة . وكان الباشا قد أخذها ليضمها الى حريمه. ووافق الصدر الأعظم. ولكن زوجة الجاويش لم توافق وأعلنت أنها في غاية السعادة حيث هي ، وقـد ظلت فعلاً تعيش في القدس سعيدة حتى عمرت » [٤٢] .

مطلق الانثى .. ومطلق التزوير !

ثم ينهار منطق المدرسة الاستعمارية تماماً، بهذه السقطة أو التزييف النادر للنصوص والألفاظ .. هذه الفقرة التي تعفي كل قلم من عبء المناقشة .. يقول لويس عوض : « وربما كان أهم ما ورد في الجبرتي عن موضوع تحرير المرأة(*) هو تلك الفقرة التي تصور هروب « الجواري السود » من بيوت أسيادهن والتجائهن الى الفرنسيين طلباً للحرية « لما علمن رغبة القوم في مطلق الانثى » اي ان تحرير المرأة كما نقول اليوم او « اطلاقها » من عقالها . ويبدو ان هذه الانطلاقة المفاجئة كانت مقترنة بألوان من المغامرة العنيفة، لأن الجواري كن يلجأن الى نط الحيطان والخروج والدخول من النوافذ شأن السجناء لكي يصلن الى منـــازل الفرنسيين . بل بلغ من بعضهن لسادتهن انهن كن يرشدن الفرنسيين الى المخـابىء التي يكنز فيها اولئك السادة أموالهم لكي يصادرهـا الفرنسيون . وواضح من كلام الجبرتي عن رغبة الفرنسيين في «مطلق الانثى» ان الحملة الفرنسية حين جاءت الى مصر جاءت ومعهـا افكار الثورة الفرنسية

(*) الجبرتي لم يكتب شيئاً عن موضوع تحرير المرأة .

عن تحرير المرأة،وانها روجت بين المصريين لهذه المبادىء ما استطاعت الى ذلك سبيلاً(*) »(٤٣) .

ان البكري ذاته ، وحتى لو وصل الى الغيبوبة عبر بحر من الكونياك ، لا يمكن أن يفسر عبارة « مطلق الانثى » هذا التفسير : « اطلاق المرأة من عقالها » أو « تحرير المرأة كما نقول اليوم » !. وعبارة الجبرتي :

« وأما الجواري السود فانهن لما علمن رغبة القوم في مطلق الانثى ذهبن اليهم أفواجاً فرادى وأزواجاً فنطن الحيطان وتسلقن اليهم من الطيقان ودلوهم على مخبآت أسيادهن وخبايا أموالهم ومتاعهم وغير ذلك »(٤٣) .

وأظن أنه من المهانة للغة العربية ان نناقش معنى « مطلق الانثى » .. التي فهمها « الخواجه » هيرولد بمجرد قراءة الجبرتي وهو متيقظ ، فيقول في معرض شرحه للوسائل التي حل بها الجيش المشكلة الجنسية لجنوده :

« أما الفرنسيون الزاهدون في الزواج ، الذين لا يصبرون على العزوبة ، فكانت أمامهم وسائل أخرى أكثرها غير واف بالغرض . فقد رافق الجيش الى مصر نحو ٣٠٠ امرأة اكثرهن تسلل على السفن ، ولكن الحسان القليلات منهن كن اما مرهقات ، واما حكراً للبعض . وكانت البغايا من السكان كثيرات ، ولكنهن ـ فيما خلا قلة من صغيرات السن ـ كن غير مغريات ، قبيحات ، مصابات بالأمراض . وقد حل كبار الضباط مشكلتهم دون ان يبذلوا جهداً يذكر ومنهم الجنرال بيريه الذي كان في وسعه ان يكتب لصديقه الكبتن لوجواي«لقد ترك لنا الأمراء المماليك بعض النسوة الأرمنيات

(*) نتهم كاتب ذلك بالتزييف لأنه لما نشره أول مرة في الصيفحة،نبهه اكثر من كاتب لبشاعة الخطأ في فهمه « لمطلق الانثى » ولو كانت مجرد غلطة لصححها عندمـــا جمع المقالات في كتاب ولكنه لم يفعل . ومن ثم فمن حقنا ان نصف موقفه هذا بتزييف النصوص واحتقار عقلية قارئيه وثقافتهم .

والكرجيات اللطيفات اللائي استولينا عليهن لصالح الأمة(*) .. ـ ترى ماذا كان رأي مدام بيريه في هذا الكلام حين قرأته في مجموعة الرسائل التي ضبطها الانجليز ونشروها (**) ـ ويقول الجبرتي ان الجواري السود كن أشد رغبة واستعداداً حتى من الأرمنيات أو الكرجيات . « وأما الجواري السود .... » (الخ) وقد لاحظ الجبرتي وغيره من الاخباريين العرب عموماً غرام الفرنسيين بالنساء ، ولعلهم ما كانوا يلحظونه لو كان الفرنسيون يؤثرون الغلمان (***) » (٤٦) (!)

هذا ما فهمه الخواجه..وهو رغم الوخزات والسموم التي يوجهها لحضارتنا ومجتمعنا في ذات العبارة .. مثل حديثه عن الغلمان .. الا انه لم يسمح لنفسه أن يسقط في التفسير المضحك عن تحرير المرأة ، أو ان يترجم « مطلق الانثى » بأنها اطلاق المرأة من عقالها !.. لا شك ان «لويس عوض» بتفسيره المضحك « لمطلق الانثى » قد وضع مدرسته ، ونظريته في موضع لا تُحسد عليه..وأعفى كل خصومه من مسئولية اخذه أو اخذ منطقه على محمل الجد !

(*) لو عاش هذا الجنرال الساخر ليقرأ « لويس عوض » لاعترف ان نكتة « لصالح تحرير المرأة » اكثر سخرية !

(**) السؤال طرحه هيرولد .. والجواب (بمنطق لويس عوض) هو ان مدام بيريه يجب ان تبتهج كثورية اصيلة لان زوجها عاكف على تحرير المرأة ما استطاع الى ذلك سبيلاً! وقدر طاقته!

(***) على اية حال لم تكن «الجواري السود» هن وحدهن الذين تتطلعن الى التحرير بالهروب الى جنود فرنسا ، الذين يرغبون في مطلق الانثى ، بل كانت هناك حركة « تحرير » في الاتجاه المضاد تماماً : « وفيه احاط الفرنسيس بمنزل حسن آغا الوكيل المتوفى قبل تاريخه وذلك بسبب انه وجد ببيته غلام فرنساوي مختف اسلم وحلق راسه وقبضوا على احد خشداشينه وحبسوه لكونه علم ذلك ولم يخبر به »(٤٧) .

الفصل الثامن :

الجنرال العميل .. والشيخ المؤرخ ..

يعقوب يبحث عن سيد

وكما كانت « هوى » و « زينب البكرية » ومن خلفهما قطيع النسوة في معسكرات جيش الاحتلال هن رائدات حركة تحرير المرأة ، كذلك تقدم لنا المدرسة الاستعمارية من داخل هذه الثكنات رائداً للقومية المصرية ، في شخص أحد المتعاونين مع الفرنسيين .

ولأن المدرسة لا تستطيع ، لأسباب «**شوفينية** »**!** ، أن تنصب **الرومي** « برطلمين » رائد للقومية المصرية التي زرعها الاحتلال الفرنسي ، لذا فقد وقع اختيارها على المعلم يعقوب ، فنسبت اليه التفكير في استقلال مصر ، ونسجت عنه الاساطير والعجائب. وهو لم يكن اكثر من عميل وضيع أو من « أسافل القبط » إذا اما استعرنا لغة عصره عمل في خدمة كل سيد، كما عمل أسافل الروم وأسافل المسلمين مصريين أو مغاربة ..

عميد المدرسة الاستعمارية « كرستوفر هيرولد » يندفع في مدح يعقوب الى حد اهانة مواطنيه : « فالمعلم يعقوب بن حنا ومارية غزال كان يتسم بصفة **نادرة بين قومه** هي الشجاعة والكفاية الحربيتان » [1] .

« اشتغل من قبل ناظراً لدائرة زميل لمراد يدعى سليمان بك.. كان خبيراً بطبيعة البلاد وبأهلها ، وله في كل مكان صلات »[2] .

هذا الجابي عند المملوك « سليمان بك » آغـا الانكشارية ، شأنه شأن كل العملاء من طرازه ، سرعان ما ينقل ولاءه أو كرباجه (ولا نقول بندقيته) من يد الى يد فور تغير السيد،فعندما جاء الفرنسيون عينوه جابياً على الصعيد الذي لم يكن قد خضع لهم بعد ، ولكي تتم الجباية والتحصيل، الحقوه مرشداً وجاسوساً وجابياً بجيش « ديزيه » الذي تولى مهمة اخضاع الصعيد المصري.. وهكذا في العقد الخامس من عمره وبعدمـا أفنى الأربعين عامـاً الأولى من حياته في خدمة الاستبداد المملوكي ، تولى خدمة المحتل الأجنبي .

عميد المدرسة الاستعمارية ، يؤكد أن هذا « المرشد » كان شريكاً لديزيه في حملته (!) ويؤكد ان أهل الصعيد كان يسمون فرقـة ديزيه « جيش المعلم يعقوب » وهكذا سمى نابليون الحملة السورية « جيش مصر » .. أما الحملة على الصعيد فها هي تُسمى «جيش المعلم يعقوب»!.. وحتى لو أخذنا هذه التسمية على محمل الجد ، فسنجد انهـا غير مستغربة اذ ان « يعقوب » هو الذي كان يتولى عمليات القمع والتحصيل المتصلة « بالأهالي » . فـ « ديزيه » الفرنسي كما أكد « هيرولد » نفسه كان « يأنف من هذه المهام القذرة » .. والضرورية في نفس الوقت لجيش احتلال . وفي مثل هذه الحالات فان الناس يهتمون بالعميل اكثر من اهتمامهم بالعدو الأجنبي الذي مهما تكن كراهيتهم له ، فانها لا تخلو من الاحترام . ومـا دام الجميـع قد أرتضوا كارهين أو راغبين « بالجبرتي » كمرجع وحيد وصادق ودقيق لهذه الفترة ، فهو وحده ، لا المؤرخ الأمريكي الذي يملك ان يحدد لنا مهمة ومكانة ودور المعلم «يعقوب» في حملة «ديزيه» : « في خامس عشره سافر عدد كبير من عسكر الفرنساوية الى جهـة الصعيد وكبيرهم ديزه وصحبته يعقوب القبطي ليعرفهم الأمور ويطلعهم على المخبآت »[٣].

مرشد .. يصاحب حملة تأديبية ، يطلعهم على المخبآت ويعرفهم الأمور ، هل يمكن أن تمتهن اللغـة على نحو يجعل هذا التعريف ينطبق على شيء اكثر من جاسوس .. مرشد ..

و « يعقوب » هذا يحمل الجرم الاكبر في كل الجرائم التي ارتكبها جيش « ديزيه » في الصعيد .. ولكنهم يريدون افتعال قضية له واختاروا هـذا المسخ بالذات ليجعلوه رائد القومية المصرية بل هو ابو استقلال مصر !

ولقد قدمنا لمحة من تاريخ المهمة القذرة التي قام بها يعقوب في صعيد مصر (فصـــل المقاومة الشعبية) ورأينا كيف كان « يجري ايقـاظ وبعث القومية المصرية » ولا شك أن عمـله لحساب الاستبداد المملوكي - ولا يمكن تبرير ماضي يعقوب هذا حتى عند المدرسة الاستعمارية - قد قتل كل إحساس فيه ان وجد أصلاً .. فجرائمه وقعت في الصعيد حيث كانت تعيش أعلى نسبة من الاقباط . وهذا يعني أنه لم يفرق في تنكيله بين مسلم وقبطي ، ولا يجوز نسبة مواقفه للأقباط ، فقد كان محتقراً من أكابر القبط المحترمين ، مطروداً ومعتدياً بوقاحة على الكنيسة ، كما سنرى ، يدخلها مقتحماً على صهوة حصانه ، وكان البابا المصري ضده ، وحتى أسرتـه تبرأت منه .. كان سبة للأقباط وللمصريين وللشرقيين عموماً .. نموذجاً للعمالة للمستعمر الغربي ، والذين يصنعون منه بطلاً اليوم ، هم في الحقيقة يدافعون ويروجون لفكرة الانفتاح على الغرب ، ويخطّئون الدعـوة الى مواجهـــة ومقاومـة سيطرة العـالم المتفـوق تكنولوجياً ..

كان « برطلمين » الرومي في القاهرة يتولى ايقاظ وتحضير القومية المصرية يعاونه « شكر الله » وهو الآخر أحد رواد القومية المصرية !.. بينما كان « يعقوب » في ركاب « ديزيـه » يتولى نفس المهمة في صعيد مصر ، مهمة إدخال الحضارة الغربية في ظلام العصور الوسطى . ولنقرأ شيئاً من تفاصيل يوميات هذه الرسالة التحضيرية :

« لقد كان « ديزيه » مضطراً لفرض ضرائب والاستيلاء على الماشية والجمـال والخيل ، وكانت توسلات القرويين أن يعفوا من الضرائب لأنهـم دفعوها فعلاً لمراد تلقى في مقر القيادة بالقاهرة الرفض بـلا استثناء . ومع

ان كثيراً من القرى المصرية دفعت الميرى المفروض عليها مرتين في تلك السنة. فإن السلطان سليم الثالث ، الذي كان الفريقـان يجمعانها باسمه ، لم ير منهـا قرشاً واحداً (*) وبعد ان لاحظ دينون هذه العمليات المالية عدة أسابيع بدأ يرثي « للأهالي » الذين أتينا الى مصر لنحقق لهم الرفاهية ، ذلك انهـم اذا أكرههم الخوف على ترك قريتهم عند اقترابنا منها ، ثم عادوا اليها ، لم يجدوا فيها سوى الطين الذي بنيت به حيطانهم فأدواتهم، ومحاريثهم، وأبوابهم، وسقوف بيوتهم ، كلها كانت تستعمل وقوداً لطهو حسائنا ، وقدروهم تكسر وقمحهم يؤكل ، ودجاجهم وحمامهم يشوى ، وأينما وقفنا بقرية أمرنا هؤلاء البؤساء بالعودة والا عوملوا معاملة العصاة أو حلفاء الاعداء، واكرهوا على دفع الضريبة مضاعفة . فاذا اذعنوا للتهديد وجاءوا ليدفعوا الميري ، كان رجالنا يخطئونهم أحياناً بسبب كثرة عددهم، وما يحملون من عصي، فيحسبونهم جماعة من الرعاع المسلحين، وفي هذه الحالة تطلق دورياتنا النار دون تردد ، قبل أن يتسع لهم الوقت لبيان غرضهم . ثم يدفن موتاهم ونظل أصدقاء حتى يجـدوا الفرصة للثأر دون أن يتعرضوا للخطر . صحيح أنهـم لو ظلوا في قريتهم ودفعوا الميري .. لوفروا على أنفسهم مشقة الرحـلة الى الصحراء ، وتمتعوا بمشاهدة طعامهم يؤكل بطريقـة منظمة ، وتلقوا نصيبهم منه ليأكلوه ، واحتفظوا بأجزاء من أبوابهم، وباعوا بيضهم للجنود ، واغتصب من زوجاتهم وبناتهم عدد أقل » (٤) .

« أما احتلال بليار لأسوان فقد بدا في الأسبوعين الأولين نزهة يتخللها الطريف القليل من القتال واغتصاب النساء » .

« وما حظ المواطنين بليار ودينون من التحضر ، اذا كان فيهما هـذه الحساسية الشديدة لروعة أطلال مضى عليها خمسة وثلاثون قرناً ، وهـذا الاغضاء عن اغتصاب الجسد الحي » (٥) .

(*) لاحظ ان الفرنسيين كانوا يجمعون الضرائب باسم السلطان تماما كالمماليك .

يشير الى اهتمامها بكشف الآثار الفرعونية ، حتى لو أدى ذلك الى قتل اطفال المصريين الأحياء واغتصاب نساءهم ..

« وبينما كان الجنرال بليار يسمح لجنوده باغتصاب النساء ليرفع معنويتهم، ويأمر باتلاف المحاصيل ليهبط بمعنوية المماليك » (٦) .

وأي أمة حية لا بد أن تهب لمقاتلة هؤلاء البرابرة المتوحشين الذين يقتلون الرجال ويغتصبون النساء ويحتطبون بأدوات الحضارة والانتاج . ويسرقون الماشية والطعام . لذلك لم يخطىء « ديزيه » وهو يكتب لبونابرت « لو أنك تركت هذا الاقليم دون جنود ولو لحظة واحدة ، لارتد فوراً الى سادته الأولين » (٧) .

ولا شك ان الجدية تفرض علينا أن نتصور اهتمام « ديزيه » بالأعمال العسكرية وتفرغ « يعقوب » لأعمال النهب والتفتيش على المخبآت أموالاً كانت، أو فتيات صعيديات مسلمات أو قبطيات ، يقدمهن الى سادته من الضباط والجنود الفرنسيين .. هكذا كانت مهمته ، وبعكس كل ما تروجه المدرسة الاستعمارية فإن « دعاية القبطي البارعة » — كما يصفها « هيرولد » — لم تجد أي صدى في نفوس الفلاحين المسلمين والأقباط ، بل لاقت نجاحاً بين صفوف المماليك رجال « مراد » : « الذين كانوا يهجرون جيشه زرافات وينضمون الى جيش ديزيه بعد أن فتنتهم ولا ريب دعاية القبطي البارعة .. ودب الشقاق بين البكوات » (٨) !

هل كان المعلم « يعقوب » يروج دعاية بين صفوف المماليك عن بعث القومية المصرية ، وضرورة أن تكون مصر للمصريين وبذلك يكسبهم ويقنعهم بالانضمام الى صفوف الفرنسيين ؟!..

ان هذا الانضمام المملوكي الى جيش الفرنسيين في الصعيد سواء أكان بسبب نشاط « يعقوب » ، وهو غير مستبعد لصلاته القديمة بأسياده المماليك ، أو كان بسبب انهيار المماليك أمـــام التفوق الفرنسي ، وكنتيجة لانتهاء دورهم

التاريخي قبل الحملة بسنوات عديدة ، فهم كطبقة خارج التاريخ ، لا يستغرب تحولها الى مرتزقة وتخليها حتى عن الدفاع عن مصالحها والوطن الذي تحكمه..

ومهما يكن السبب ، فإن الواقع يخالف تماماً الصورة التي ترسمها المدرسة الاستعمارية أو التغريبيـة ، عن الحرب التي دارت في الصعيد .. هذه الصورة التي تتحدث عن حرب بين الفرنسيين والمماليك . الفلاحون فيها خارج أرض المعركة ، ينتظرون من يفوز ليتقدموا له بالطاعة ! ومن ثم فالذين تعاونوا مع الفرنسيين ، كانوا يحاربون المماليك الفلاحين ! هذه الصورة مخالفـة للحقيقة ، فالحرب كانت تدور اساساً بين الفرنسيين الغزاة والفلاحين المنهوبـة ارزاقهم والمغزوة أرضهم.. والى جانب الفرنسيين كان قطيع العملاء من امثال يعقوب والمماليك الهاربين الى صفـوف الجيش الغازي ، والى جانب الفلاحين كان المتطوعون من الاشقاء العرب .. اما عن المماليك فكان موقفهم ما بين هارب ناهب للقرى التي لم يصل اليها النهابون الفرنسيون بعد .. أو مخـامر تجري مساومته للانضمام للجيش الفرنسي..وكان السيف من نصيب الفلاحين وحدهم: « فخف دافو الى المكان وفي أول مـايو قتل ٢٠٠٠ من الفلاحين المسلحين في بني سويف،وكانت خسائر الفرنسيين ثمانية رجال وهو عمل مجيد بلا ريب»[٩].. اذا كانت سخرية هيرولد مريرة ، فإن أمر منها أن يأخذها « لويس عوض » على محمل الجد ، وينسب لعملية تقتيل اجدادنا الفلاحين ، مهمة تحضيرية وبعث للقومية المصرية ، ولكن يبدو انـه لا حيلة له في هذا التفسير فلكي يبرىء العميل « يعقوب » من دم مواطنيه الفلاحين ، كان عليـه ان يبرىء ساحة الحملة الفرنسية كلها ، ويدين الفلاح المقتول ، ويتقدم بالشكر للغازي الفرنسي الذي كان يحضر الهندي الأحمر ! اما البدو : « فيطاردون في الصحراء اينما كانوا ، وفي كل يوم يستولى رجالنا على غنيمة منهم . فتارة يأخذون نساءهم على غرة ويحملونهن رهائن ، وتارة يستولون على ماشيتهم وخيولهم وأبلهم . أما الابل فقيمتها لا تقدر .. كان منظر هذه الفرق المغيرة وهي عـائدة من غاراتها عجيباً .. فكل فارس يحمل تحت معطفه شاة أو جديـاً يمأمىء ،

ويأخذه خفية الى زقـــاق . وقد يبيع الرجل منهم حصاناً مسروقاً ببضعة قروش ، أو يهرب آخر بحمل ويعود آخرون بنسوة غاية في القبح ملكوهن بحق الغزو »[١٠] . « ومع ان بونابرت شجع السرقة اذا حققت منفعة ، فانه كان يبدي سخطه على القتل بطريقة علنية »[١١] .

واذا كان دور « يعقوب » في الحرب هو التجسس فان مواهبه الحقيقيـة التي صقلت في ظل المماليك، هي اعتصار آخر نصف فضة مع الأهالي .. وفي معرض الدفاع المتهافت عن جرائم «يعقوب» يستعير « لويس عوض » التعبير الساخر الذي استخدمه « هيرولد » عن عمليـــات نهب المصريين ، يستعيره كحقيقة !.. فيطلق على الدور الذي قـام به يعقوب في نهب المصريين صفـة « تنظيم ماليـة البلاد » فيقول لويس عوض : « وعهد كليبر الى « يعقوب » بتنظيم ماليـــة البلاد » وقد سخرنا من هذا التعبير بقدر ما وسعنا في كتاب « الغزو الفكري » لنجد بعد صدوره ان « هيرولد » قـد سخر بدوره من هذا التعبير ، وفسر هذا « التنظيم » بأنـه النهب والسطو .. تنظيم مـارسه الفرنسيون والمماليك على السواء ..

« ووافق الجنرال بونابرت هذه المرة على أن الجنود في حاجة الى الراحـة فأجاب ديزيه بأن يدع مراد وشأنه فترة وان « ينظم » الفيوم – والتنظيم معناه جمع الضرائب ومصادرة الأغذية والخيل – (الشرح لكرستوفر هيرولد) وفي أواخر اكتوبر عاد ديزيه الى « الفيوم » التي كان مراد قد « **نظمها** » قبيل عودته ، وأحس الأهالي ان القوم أسرفوا في **تنظيمهم** ففي ٨ نوفمبر ، بينما كانت كثرة رجال فرقة « ديزيه » خارج العاصمة « **ينظمون** » الاقليم ، اضطر نحو ٥٠٠ من الجنود ثلثهم مرضى بالرمد – الى الدفاع عن العاصمة ضد آلاف من الفلاحين المسلحين . وفقد الفرنسيون أربعة رجال ، وقتلوا نحـو ٢٠٠ . ولم يحل ٢٠ نوفمبر حتى أخلى « ديزيه » الفيوم بعد أن **نظمها تنظيماً** شامـلاً ، ولم يترك بها حامية ولا ديوانا اقليمياً ، ثم استقرت فرقته في بني

سويف على النيل انتظاراً للأمداد ، أمـا هو فذهب الى القاهرة ليستوثق من الحصول على مطالبه . وكان مراد في هذه الأثناء يكتب لشتى زعماء القبائل في شبه جزيرة العرب عبر البحر الأحمر ويشرع في « تنظيم » الصعيد »[١٢].

ها هو كبيرهم يعترف انه لا فرق بين «تنظيم» الحملة الفرنسية ، و «تنظيم» المماليك .. نهب البلاد وسرقة الماشية والخيول، فهل يستغرب ان يهب الشعب لمقاومـــة هؤلاء « المنظمين » وهل يستغرب أن ينظر الى الذين « أوكل اليهم الفرنسيون مهمة تنظيم البلاد» نظرته الى العملاء المنحطين الذين يقومون بأكثر الأعمال دناءة ، التي يأنف المستعمر نفسه من ارتكابها بيديـــه ، وهل يمكن تسمية هؤلاء النهابين وادواتهم رواداً للقومية أو باعثين لها ؟!

كان « يعقوب » في خدمة جيش «ديزيه» وفي مقدمة الذين تولوا «تنظيم» مالية البلاد !

وكان هذا رأي المصريين فيه .. فهو الذي سافر مع الفرنسيين « ليعرفهم الأمور ويطلعهم على المخبآت »[١٣] . وعندما قام حكم « كليبر » الذي يصفه « هيرولد » بأنه « ارهاب مالي » . فكليبر كان مصمماً على ان « يعصر مصر كما يعصر « الشربتلي » الليمونة »[١٤] .. وكان يعقوب هو العصـــارة التي استخدمها « الشربتلي » الفرنسي ليستخرج آخر قطرة من عصير الحيـاة في مصر . ولنسمع شهادة من لا يملكون الطعن في شهادتـه : « وركب سارى عسكر (كليبر) من يومه ذلك ، وذهب الى الجيزة ، ووكل يعقوب يفعل في المسلمين مـا يشاء » . « ثم انهم وكلوا بالفردة العامة وجمع المـــال يعقوب . وتكفل بذلك . وعمل الديوان لذلك ببيت البارودي »[١٥] !

وخرجت الناس من المدينة ، وجلوا عنها ، وهربوا الى القرى والأرياف.» « وفي كل وقت وحين ، يشتد الطلب ، وتنبث العيون والعسكر في طلب الناس وهجم الدور وجرجرة الناس حتى النساء من أكابر وأصاغر وبهدلتهم وحبسهم وضربهم » « فدهى الناس ، وتحيرت أفكارهم ، واختلطت أذهانهم،

وزادت وساوسهم ، وأشيع أن يعقوب تكفل بقبض ذلك من المسلمين ، يقلد في ذلك شكر الله واضرابه » .

وقد رأينا الدور الذي لعبه «يعقوب» خلال ثورة القاهرة الثانية، وكيف كان الطابور الخامس المسلح الذي قاتل ضد مواطنيه الثائرين ، ثم تولى بعد قهر الثورة ، عملية التنكيل والاعتصار المالي . وفور توقيع وثيقة استسلام وجلاء جيش الاحتلال الفرنسي .. بادر « يعقوب » فخرج بمتاعه وعازقه وعدى الى الروضة . وكذلك جمع اليه عسكر القبط وهرب الكثير منهم واختفى. واجتمعت نساؤهم وأهلهم وذهبوا الى قائمقام وبكوا وولولوا وترجوه في ابقائهم عند عيالهم وأولادهم فانهم فقراء وأصحاب صنائع ما بين نجار وبناء وصائغ وغير ذلك فوعدهم انه يرسل الى يعقوب انه لا يقهر منهم من لا يريد الذهاب والسفر معه » (١٦) .

وهذا النص يكشف بوضوح طبيعة « الوفد » الذي سافر به يعقوب . فهم خليط من الذين ارتكبوا بأشخاصهم جرائم وعرفوا أنهم يستحيل عليهم نتيجة ذلك العيش بين مواطنيهم بعد جلاء الفرنسيين . وعلى رأس هؤلاء « يعقوب » طبعاً ، الذي كان فضلاً عن جرائمه ، له علاقة خاصة بامرأة ، رفضت اسرته والكنيسة الاعتراف بشرعيتها .. وآخرون أجبرهم «يعقوب» بطريقة أو بأخرى على الذهاب معه رغم بكاء الأهالي، ورغم محاولات الهرب والاختفاء . وحتى لو كان القائمام قد ارسل بتنبيه الى « يعقوب » داخل معسكرات الفرنسيين .. فما كان « يعقوب » بالذي يهتم بتنفيذ وصايا القائمقام واجراء استفتاء بين « الصنايعية الغلابة » الذين جمعهم .. وما كان «القائمقام» بالذي يتابع تنفيذ نصائحه وهو منشغل باجلاء جيش احتلال واستقبال جيش آخر ..

وسافر معه أيضاً بعض المغامرين الذين استطابوا الخدمة في مؤخرة جيش فرنسا ، وكانوا يطمعون في خدمات جديدة في مستعمرات جديدة ، وبعضهم

قاتل فعلاً في خدمة جيش فرنسا في الجزائر رغم تقدم السن به ... وبعضهم كان يحلم بعودة ثانيــة الى مصر مع الجيش الفرنسي الذي طالما توعد أو تهدد الفرنسيون المصريين بعودته .. « فهل بت من أن نعود مرة اخرى » .

هذا الخليط هو الذي خرج الى الروضة كما يسجل الجبرتي :

« وفي يوم الأربعاء تاسع عشر صفر الخير ١٢١٦ خرج المسافرون مـــع الفرنساوية الى الروضة والجيزة بمتاعهم وحريمهم وهم جماعة كثيرة من القبط وتجار الافرنج والمترجمين وبعض مسلمين **ممن تداخل معهم وخاف على نفسه بالتخلف** وكثير من نصارى الشوام والأروام مثل يني وبرطلمين ويوسف الحموي وعبد العال الآغا أيضاً طلق زوجته وباع متاعه وفراشه وما ثقل عليه من أطقم وسلاح وغيره . ولم يحمل معه إلا ما خف حمله وغلا ثمنه » .

إن آخر ما يمكن أن يوصف به هذا الخليط هو وصفه «بالوفد المصري». وآخر مهمة يفكر فيها هي «البحث في استقلال مصر» .. فإن أسوأ ما ينزل بمثل هذا الخليط هو استقلال مصر..وآخر جهة تصلح للمفاوضة في الاستقلال، هي الوجهة المتجهة اليها هذه القوة المهزومة الراحلة .

هذه هي مخلفات الجيوش وأوساخ الاستعمار التي تعلق بحذائه وترحـــل معه .. يوجد منها العديد في عواصم كل الدول الاستعمارية مـــع زوال عصر الاستعمار ورحيل قواته .. هي العصى التي يطالب الوطنيون الاستعمار بأن يحملها على كاهله ويرحل .. فيفعل !

يعقوب كان منشغلا بجمع متاعــه وأمواله ، وتجميــع عدد من المرتزقة .. ولكن المدرسة الاستعماريةمنشغلة بتنصيبه بطلاً وطنياً،وباعثاً للقومية المصرية، ورائــداً لاستقلال مصر ! وكل النظريات التي تدافع عن « يعقوب » هي في الحقيقة تبرر الاستعمار وتروج للتعاون مع المحتل .. فما دام المستعمر اكثر تقدمــاً — وهو لا بد ان يكون — وما دام الواقع الوطني متخلفاً .. فـــان

التعاون مع المحتل وخدمته لا يشكل خيانة ، بل على العكس ان كبير المتعاونين يصبح بطلاً تقدمياً ورائداً قومياً !!

« يعقوب » الذي عرفناه في « الجبرتي » – المصدر الوحيد المعتمد لهذه الفترة من جميع الاطراف – كان – كما رأينا – أفاقاً من اسافل القبط – كما كان الأغا عبد العال من أسافل المسلمين –.. عمل في خدمة المماليك ثم رشحه الأغا لخدمة الفرنسيس : ولأنه سبق له الخدمة في الصعيد ، على عهد المماليك، فقد الحقوه بخدمة الجنرال «ديزيه» « ليطلعه على المخبآت » وكان اداته وعميله في التنكيل الذي نزل بالصعايدة أقباطاً ومسلمين .. ثم عاد الى القاهرة حيث حول بيته الى قلعة حربية ضمن الخطة الفرنسية التي اعقبت الثورة الأولى وهي تطويق القاهرة بالقلاع المحصنة تحسباً للتحرك المقبل . وعندما وقعت الثورة الثانية أصلى مواطنيه ناراً حامية من قلعته هذه وبواسطة جنود فرنسيين كانوا بها بصفة دائمة . فلما انتهت الثورة « ظهر » وأشرف على سلخ المصريين في العملية المعروفة باسم جمع الفردة (١٢ مليون فرنك) . واستعان به الفرنسيون في تجنيد عدد من شباب القبط ، ارادوا بهذا الفيلق فصم الوحدة الأبدية بين عنصري الشعب المصري ..

وكانت علاقته سيئة بالكنيسة المصرية يتطاول على كبارها ولا يتردد في اقتحامها على ظهر حصانه شاهراً سيفه ، وكان منبوذاً من عائلته . رفض اخوته الاعتراف بشرعية زواجه من امرأة كان يعاشرها وهجرها بنذالة ، عندما فر هارباً مع جيش الاحتلال .

هذا هو يعقوب « الجبرتي » وكافة المصادر التاريخية المتاحة .

ورغم ان « لويس عوض » يتوعد بأن « شهادة الجبرتي في عجائب الآثار ينبغي ان تؤخذ بلا تحفظ على أنها تمثل وجهة نظر الطليعة المثقفة في البلاد » (١٨) .

إلا أنه يعفى نفسه من هذا الالتزام فيما يتعلق « بيعقوب » ، بل يجري

« تذويق » العبارات وحذف الفقرات ، واغفال الشهادة كلياً في كثير من الأحيان ليقدم لنا هذه الصورة عن يعقوب :

ولد المعلم « يعقوب » في « ملوى » حول عام ١٧٤٥ من حنا ومارية غزال . والتحق في عهد « علي بك الكبير » بخدمة « سليمان » اغا الانكشارية أو رئيسها ، واستطاع من خلال اشرافه على ادارة املاك رئيس الانكشارية أن ينمي ثروته (ثروة من ؟!) فلما نشب القتال بين مراد بك وجيش قبطان باشا اشترك المعلم يعقوب مع مخدومه سليمان بك في هذه الحرب ، وظهرت مواهبه في القتال كما ظهرت في الادارة . وعندما دخل بونابرت مصر التحق المعلم يعقوب بخدمة الفرنسيين في وظيفة ادارية في اعمال « الأورنص » بجيش الجنرال ديزيه وصاحب الجنرال ديزيه أثناء حملته على الصعيد ، فكان يشرف على عمليات تموين الجيش الفرنسي بالأغذية وبمختلف الاحتياجات وكان يشترك في قتال المماليك بشجاعة وضراوة جعلتا الفرنسيين يقدمون له سيفاً تذكارياً تكريماً له . »

وكما تفعل طالبة المدرسة في اخفـاء عار مهنة أمها فتختار الفاظـاً رقيقة لوصف هذه المهنـة ، نجد الدكتور يصف عمليات النهب الوحشي بانها تنظيم التموين وامداد الجيش بالأغذية ، كأي متعهد في الجيش البريطاني أو « الاورنص » كما يختار اللفظ ! وقد رأينا في الفصول الماضية واستناداً الى المصادر الفرنسية ذاتهـا كيف كان يجري « تموين » الجيش بنهب وحرق القرى المصرية . امـا الزعم بانه كان يقاتل المماليك ببسالة .. فالمصادر الجـادة كلها لا تتحدث عن قتـال « يعقوب » بل عن تجسسه ، « كرستوفر هيرولد » وهو معجـب « بيعقوب » لأسباب مفهومة طبعاً ، ولكنه يحترم قلمه وينزهه عن التزييف الرخيص لذلك فكل ما يشـير به عن يعقوب هو : « فيما نمي الى المعلم يعقوب » « وصلت الانباء للمعلم **يعقوب** » التقـارير التي وصلت الى المعلم يعقوب » .

ورأى الظليعة المثقفة في مهمة يعقوب أجملها الجبرتي في العبارة الموجزة : « ليعرفهم الأمور ويطلعهم على المخبآت » .

هذه واحدة .. والأخطر منها هي صياغة « لويس » لعبارته بما يوحي وكأن يعقوب ومعلمه كانا في الصعيد يقاتلان المماليك . وقد رأينا من وقائع التاريخ ان المماليك لم يكونوا أبداً هم العدو الذي يقاتله « ديزيه » في الصعيد، بل الشعب المصري : الصعايدة ومن انضم اليهم من الاشقاء المجاهدين العرب . بينما لم تقع الا اشتباكات محدودة جداً مع المماليك ووسط حماية الأهالي . و « الرافعي » يحمل حملة شعواء على المماليك الذين تركوا الصعايدة يقاتلون وحدهم وهربوا دائماً .. والجبرتي « يشهد » : «وفر الغز كعادتهم» «وهيرولد» يتهم المماليك بأنهم كانوا يغررون بالصعايدة أو الفلاحين — كما يقول — فيقاتل الفلاحون ويهرب المماليك ، أو ينهبون ما لم يصل اليه النهب الفرنسي ! « ومورهيد » في حديثه عن المتع التي نعم بها جيش «ديزيه» في الصعيد يقول : «ولا شك انه كانت ثمة صنوف اخرى من الملذات فالاغتصاب وهتك الاعراض لم يكونا من الجرائم الكبرى في مكان تدور فيه رحى القتال ، ويغيب رجاله وقد حملوا السلاح للمقاومة »[١٩] .

فيعقوب لم يكن يقاتل بضراوة ضد المماليك ، بل ضد أبناء الصعيد ، وهتك الأعراض لم تكن تتعرض له نساء المماليك ، فهؤلاء كن في قصورهن بالقاهرة ، بعد أن « صالحن على أنفسهن » .. بل كانت تتعرض له بنات الصعيد قبطيات ومسلمات ، في ملوى وأسيوط و « الفقاعي » وجرجا وقنا وأسوان . أم يا ترى كان « يعقوب » رائد القومية المصرية يتدخل لمنع الاغتصاب عن القبطيات وقصره على المسلمات ؟!

بل ان الدور الوحيد الذي يثبته « هيرولد » ليعقوب في ما يتعلق بالمماليك، هو نجاح دعايته في كسب عدد منهم الى العمل مع الجيش الفرنسي !!.. فأين القتال ؟!

نعود لسيرة المعلم « يعقوب » بقلم المعلم عوض : « فلما غادر بونابرت مصر عاد المعلم « يعقوب » الى القاهرة وكلفه كليبر **بتنظيم مالية البلاد** وعينه **قائداً للفيلق القبطي الذي شكل في مصر ليعاون الفرنسيين في حربهم ضد المماليك..** ثم عين المعلم يعقوب مستشاراً (*) لمسيو استين مدير الادارات العامة ورقاه القائد العام « عبد الله جاك مينو » الى رتبة جنرال وجعله مساعداً للجنرال بليار في مارس ١٨٠١ للدفاع عن القاهرة ضد هجوم الجيش التركي الانجليزي.. ومنذ ذلك التاريخ ارتبط مصيره ومصير الفيلق القبطي بمصير الجيش الفرنسي وعند تسليم القاهرة في يونيه ١٨٠١ دخل الجنرال يعقوب في اتفاقية التسليم « وهكذا غادر القاهرة ليبحر الى فرنسا مع الجيش الفرنسي بعد ثلاث سنوات قضاها في التعاون مع الفرنسيين » [٢٠] .

ما من فقرة حفلت بكل هذا القدر من التزييف .. ولا حتى منشورات نابليون بعد هزيمته أمام اسوار عكا .. « تنظيم مالية البلاد » .. التعبير الذي بينا أن « هيرولد » وضعه للسخرية من عمليات النهب الوحشي للمصريين ، يستخدمه « لويس عوض » جاداً !! « كليبر كلف يعقوب بتنظيم مالية البلاد ! » .. نسمع شهادة الجبرتي : « فلما وقعت الفتنة السابقة وظهر يعقوب القبطي وتولى أمر الفردة وجمع المال تقيد (مصطفى الطاراتي) بخدمته وتولى أمر اعتقال المسلمين وحبسهم وعقوبتهم وضربهم فكان يجلس على الكرسي وقت القائلة ويأمر أعوانه باحضار افراد المحبوسين من التجار وأولاد الناس.. فيبطحونه ويضرب بين يديه ويرده الى السجن بعد ان يأمر أعوانه ان يذهب الى داره وصحبته الجماعة من عسكر الفرنسيس ويهجمون على حريمه وأمثال ذلك » .

ولقد بقي « مصطفى الطاراتي » معاون « يعقوب » ، حتى تجرع من

(*) بابا تاجر غلال مباولة !

نفس الكأس على يد العثمانية واستخرج منه صناديق لا حصر لها من المـــال (فقد استطاع هو أيضاً أن ينمي ثروته) ثم داروا به يتسول ، وهرب منهم ليتعرف عليه أحـد ضحاياه فيقبض عليه ويسلمه : « فقبضوا عليه وقتلوه وتركوه مرمياً تحت الأرجل وسط الطريق وكثرة الازدحام ثلاث ليال»[٢١].

ولا شك ان معلمه « يعقوب » كان سيلقى ما هو أنكى لولا انه كان أحرص من « مصطفى الطاراتي » فحمل صناديقه وهرع الى المركبة الانجليزية مع فلول الجيش الفرنسي المنهزم .

تنظيم مالية البلاد ؟! فلتسمع رأي « الجبرتي » الذي اعتبرته ممثلاً لرأي الطليعة المثقفة .. لنعرف رأي هـذه الطليعة في « تنظيم مالية البلاد » التي اضطلع بمسئولياتها يعقوبك هذا .. (الذي لم يكن الجبرتي يذكره في مظهر التقديس الا : « يعقوب اللعين ») .

« فورعوها (أي الغرامة) على الملتزمين وأصحاب الحرف حتى على الحواة والقردتية والمحبظين والتجار . . . . وكل طائفة مبلغ له صورة (*) مثل ثلاثين الف فرانسة وأربعين الف وكذلك بياعون التنباك والدخان والخردجية والعطارون والزياتون والشواؤن . . . . وجميع الصنائع والحرف وعملوا على أجرة الاملاك والعقار والدور أجرة سنة كاملة .. ثم انهم استأذنوا للمشايخ الخالص يتوجه حيث أرادوا والمشبوك يلزمون به جماعة من العسكر حتى يغلق المطلوب منه أما الصاوي وفتوح بن الجوهري فحبسوهما ببيت قائمقام والعناني هرب فلم يجدوه وداره احترقت فأضافوا غرامته على غرامة الشيخ السادات كملت بها مائة وخمسين الف فرانسه وانفض المجلس على ذلك وركب ساري عسكر من يومه ذلك وذهب الى الجيزة **ووكل يعقوب القبطي يفعل في المسلمين ما يشاء »** .

(*) أي كبير .. أو كما نقول « مبلغ وقدره » .

هذه هي العبارة التي استند اليها « لويس عوض » ، ليقول ان كليبر عهد الى « يعقوب » بتنظيم مالية البلاد !!

« **ثم انهم وكلوا بالفردة العامة وجمع المال يعقوب القبطي** وتكفل بذلك وعمل له الديوان ببيت البارودي » « فدهى الناس بهذه النازلة التي لم يصابوا بمثلها ولا ما يقاربها ومضى عيد النحر ولم يلتفت اليه أحد بل ولم يشعروا به ونزل بهم من البلاء والذل ما لا يوصف . »

« والحوانيت مقفولة والعقول مخبولة والخانات والوكائل مغلوقة والنفوس مطبوقة والغرامات نازلة والأرزاق عاطلة والمطالب عظيمة والمصائب عميمة . » « **تولى رجل قبطي يقال له عبد الله من طرف يعقوب** بجمع طائفة من الناس لعمل المتاريس فتعدى على بعض الأعيان وأنزلهم من على دوابهم وعسف .. »

« فدهي الناس وتحيرت أفكارهم . واختلطت أذهانهم وزادت وساوسهم **وأشيع ان يعقوب القبطي تكفل بقبض ذلك من المسلمين ويقلد في ذلك « شكر الله » واضرابه** من شياطين أقبـــاط النصارى . واختلفت الروايات فقيل ان قصده أن يجعلها على العقار والدور وقيل بل قصده توزيعها بحسب الفردة » .

اما « شكر الله » الذي يقلده « يعقوب » فهذا هو رأي الطليعـة المثقفة فيه : « اشتد أمر المطالبة بالمـــال وعين لذلك رجل نصراني قبطي يسمى شكر الله . فنزل بالناس منه ما لا يوصف. فكان يدخل الى دار أي شخص كان لطلب المال وصحبته العسكر من الفرنساوية والفعلة وبايديهم القزم فيأمرهم بهدم الدار ان لم يدفعوا له المقرر وقت تاريخه . وخصوصاً مـا فعله ببولاق فانه كان يحبس الرجال مع النساء ويدخن عليهم بالقطن والمشاو وينوع عليهم العذاب » ...

أهذا تسميه تنظيم مالية البلاد يا دكتور ؟!!

« الفيلق القبطي الذي شكل في مصر ليعاون الفرنسيين في حربهم ضد المماليك » .

نسمع أولاً شهادة الجبرتي :

« ومنها (أي من حوادث عام ١٢١٥ (١٨٠٠ – ١٨٠١) ... ان يعقوب القبطي لما تظاهر مع الفرنساوية وجعلوه سارى عسكر القبطة جمع شبان القبط وحلق لحاهم وزياهم بزي مشابه لعسكر الفرنساوية مميزين عنهم بقبع يلبسونه على رؤسهم مشابه لشكل البرنيطة وعليها قطعة فروة سوداء من جلد الغنم في غاية البشاعة مع ما يضاف اليها من قبح صورهم وسود أجسامهم وزفارة ابدانهم(*) . وصيرهم عسكره وعزوته . وجمعهم من أقصى الصعيد . وهدم الأماكن المجاورة لحارة النصارى التي هو ساكن بها خلف الجامع الأحمر . وبنى له قلعة وسورها بسور عظيم وابراج وباب كبير يحيط به بدنات عظام . وكذلك بنى ابراجاً في ظاهر الحارة جهة بركة الأزبكية وفي جميع السور المحيط والأبراج طيقاناً للمدافع وبنادق الرصاص على هيئة سور مصر الذي رمه الفرنساوية ورتب على باب القلعة الخارج والداخل عدة من العسكر الملازمين للوقوف ليلاً ونهاراً وبأيديهم البنادق على طريقة الفرنساوية »[٢٢] .

ويقول « شفيق غربال » : « كتب الجنرال مينو الى بونابرت كتاباً في بروميير للسنة التاسعة للجمهورية ما يأتي : « اني وجدت رجلاً ذا دراية ومعرفة واسعة اسمه المعلم يعقوب . وهو الذي يؤدي لنا خدمات باهرة ومنها تعزيز قوة الجيش بجنود اضافية من القبط لمساعدتنا » .

ويعلق « شفيق غربال » بعد هذا النص الذي يورده : « ونحن نسلم بأن هذه القوة كانت من أدوات تثبيت الاحتلال وبأنه لولا هذا لما سمحت السلطات الفرنسية بانشائها »[٢٣] .

(*) الجبرتي هنا يعبر عن احتقار الأصيل ، للمسخ العميل ، الذي يقلد سيده .

هل كان يعقوب يهدف الى قتال المماليك ؟!... الفيلق القبطي تم تشكيله بعد ثورة القاهرة الثانية.. فهل كان القتال ضد المماليك هو المهمة المطروحة؟! أي مماليك ؟.. « مراد » الذي « خـــامر » واتفق « ودعى الفرنساوية في وطاقه » وأكرمهم اكرامــاً زائداً ؟! وقبض منحة منهم ، وأهداهم الغنم ، وتولى حكم الصعيد بأمرهم وتحت حمايتهم.. وبمرتب شهري له ولزوجته تقبضه في القاهرة ؟!

أم المماليك الذين أصبحوا يظهرون في الاستعراضات خلف « كليبر » ، كما رأينا في اجتماعاته واستعراضاته ، بل ويتشفع بهم المشايخ عند الفرنسيين ؟! ليخففوا عنهم اضطهادات يعقوب ومطالبه المالية ؟!.. ويسيرون في جنازة « ساري عسكر » كليبر !.. ويأسف عثمان بك البرديسي ، لأن « مينو » لا يأخذ بنصائحه ويستعد لمواجهة الزحف التركي – الانجليزي ويقول : « إن قائداً مثل الجنرال مينو سيكون سبباً في ضيـــاع الجيش الفرنسي ! » ... البرديسي بك آسف على ضياع الجيش الفرنسي ! اما مراد فهو يبلغ رسائل ابراهيم بك الى الجنرال مينو !

من حق الكاتب ان يتخذ موقفاً خاصاً من التاريخ ، ولكن ليس من حقه ان يزور هذا التاريخ . فعندما تكون « الفيلق القبطي » لم يكن ثمـة قتال مع المماليك . بـل كان في الجيش الفرنسي فيلق آخر من المماليك . وكانت قوات المماليك الرئيسية بقيادة « مراد بك » تطارد فلول العثمانيين بأمر من القيادة الفرنسية !..

فلم يكن « يعقوب » وحده الذي اكتشف وحـــدة المصالح (بدافع من عقيدته – كما يقول لويس) مع الفرنسيين ، ولا كانت الجواري السود وحدهن اللاتي اكتشفن ان الفرنسيين يحملون لقاح الثورة الفرنسية ويتفجرون بالشهوة « لاطلاق الانثى من عقالها » . بل المماليك أيضاً اكتشفوا وحدة عقائدية مع الفرنسيين . « فالرافعي » يقول ان عـــدداً منهم عرض نفسه على الفرنسيين

ليضموهم اليهم فقد ذكر « ريبو » حوادث معينة لهذا التحول ، منها أن احد مماليك «عثمان بك حسن» طلب من ضباط الجيش الفرنسي ان يأخذوه اليهم، وحجته أنه قبل أن يكون مملوكاً كان مجرياً (من سكان المجر) ومن فرسان الجيش النمساوي فأسره الاتراك في بعض حروبهم مع النمسا وصار بعد ذلك مملوكاً . فقبل الفرنسيون خدمته . وانضم الى صفوفهم ، ودخل آخرون في الجيش الفرنسي زاعمين انهم كانوا جنوداً في الجيش النمسوي وأسرهم الاتراك وارسلوا الى الآستانة . ثم نقلوا الى مصر وصاروا في عداد المماليك . ويقول « ريبو » : ان الفرنسيين قد قبلوهم في صفوفهم وصاروا من رجالهم الشجعان! ويدخل في هذا السياق ان نابليون جند في صفوف الجيش الفرنسي جميع المماليك الفتيان الذين تتراوح اعمارهم بين السادسة والثامنة عشرة ، وألحقهم بالجيش ليتدربوا على القتال » ويستخلص « الرافعي » من هـذا العرض ، النتيجة الصحيحة التالية : « فمقاومة المماليك قد تلاشت اذن امام الجيش الفرنسي »(٢٤) .

ونحن نسأل ما هو الفارق الذي يجده المؤرخ النزيه بين الفيلق الذي يقوده يعقوب ، والفيلق الآخر الذي يقوده « نقولا بابا زوغلو » !!

يقول الرافعي :

« ونظم الفرنسيون هذه الكتيبة في عهد نابليون ، وجعلوا القبطان الرومي « نيقولا بابا زوغلو » قومنداناً لها ورقوه الى رتبة جنرال بعد اخماد ثورة القاهرة الثانية (واضح انه قد جرت حركة ترقيات بين العملاء) وكان في عهد المماليك خادماً عند مراد بك ورئيساً للترسانة التي انشأها بالجيزة . ويقول المسيو مارتان في كتابه (تاريخ الحملة الفرنسية في مصر) انه خدم المماليك الى ان حلت بهم الهزيمة في معركة الأهرام فعرض خدماته على الفرنسيين ومن ذلك الحين وضع نفسه تحت تصرفهم ، ويقول الجنرال رينيه في كتابه (مصر بعد واقعة عين شمس) ان عدد جنود هذه الكتيبة بلغ في

عهد كليبر ١٥٠٠ مقاتل »[٢٥] والجبرتي يعرفنا بتاريخه مع المماليك قبل ان ينقل البارودة الى الكتف الآخر : كذلك اتخذ مراد بيك اتباعاً له من النصارى الأروام « وجعل عليهم رئيساً كبيراً رجلاً نصرانياً وهو الذي يقال له نقولا بنى له دار عظيماً بالجيزة وأخرى بمصر وله عزوة واتباع من نصارى الأروام المرتبين عسكراً وكان نقولا المذكور يركب الخيل ويلبس الملابس الفاخرة ويمشي في شوارع مصر راكباً وامامه وخلفه قواسة يوسعون له الطريق في مروره على هيئة ركوب الأمراء »[٢٦] ..

ما الفرق بين يعقوب ونقولا ؟.. كلاهما خدم المماليك ، وكلاهما انتقل لخدمة الفرنسيس فور هزيمة المماليك، وكلاهما استعان به الفرنسيون في تكوين تشكيل عسكري على اساس طائفي .. وكلاهما رقاه الفرنسيون بعد ثورة القاهرة الثانية ، أي بعد جهوده الى جانبهم ضد الثوار المصريين ، الى رتبة جنرال ..

ما الفرق ؟!.. لماذا ندين « نقولا » .. ويفلت « يعقوب » من العقاب ؟! مادام الصوت صوت يعقوب والفعل فعل يعقوب ..

بل واين هي المعركة التي خاضها فيلق يعقوب ضد المماليك ؟!

يقول لويس عوض :

« ومنذ ذلك التاريخ ارتبط مصيره ومصير الفيلق القبطي بمصير الجيش الفرنسي » .

ما المقصود بعبارة « منذ ذلك التاريخ » يريد أن يقول منذ عهد اليه الفرنسيون بالدفاع عن القاهرة ! والحقيقة ان مصيره ارتبط بالفرنسيين قبل ذلك بكثير ، منذ ان عمل في خدمتهم وقاتل ضد مواطنيه ، ونكل بهؤلاء المواطنين .

ومرة اخرى نجد عبارة منمقة :«دخل الجنرال يعقوب في اتفاقية التسليم»

كأنه وقعها .. أو كأنه أحد الاطراف أو كأن له بنداً خاصاً .. والواقع أنه اندرج هو وأمثاله تحت البند الذي يتحدث عن : « المتداخلين مع الفرنساوية »(*) وهو البند العاشر من اتفاقية العريش قبل ثورة القاهرة وقبل انشاء الفيلق .

ويحذف من التاريخ ان سليمان بك اغا الانكشارية هو الذي قدمه الى « نابليون واطرى اخلاصه، لما آنس فيه الشجاعة وظهرت له قوته واستعداده فقربه هذا اليه »(٢٨) .

نتابع سيرة يعقوب :

« ان المعلم يعقوب تشرب أفكار الثورة الفرنسية في هـذه الاجتماعات الكثيرة التي اختلط فيها الضابط بالدبلوماسي بالفنان (يقصد ديزيه) فالتهبت روحه بحب الحرية لبلاده » (٢٩) .

ولقد رأينا كيف عبر « يعقوب » عن التهابه هذا ، بالتنكيل بمواطنيه ، واشعال النار في القرى والمنازل.. وتكوين جند مأجور لم يسمه حتى «بالفيلق المصري » بل اختـار له تسمية ، الحمد لله على لطفه بمصر ، اذ عجل بنهاية الاحتلال الفرنسي قبل أن تخدش الوحدة المصرية .

اما « ديزيه » « الفنان الدبلوماسي الضابط » فيعرفنا به « هيرولد » بأنه « ليس لدينا دليل على انه كانت له أي ميول علمية متأصلة » « وكان مصاباً بالسيلان »(**) وكتب وهو بمصر الى حبيبته بفرنسا – كما رأينا – يقول انه « محاط بحريم كامل » . وليس في سلوك « يعقوب » حادثة واحدة ، تشير

(*) فلا يحصل التشويش لاحد من سكان الاقليم المصري من اي ملة كانت وذلك لا في اشخاصهم ولا في اموالهم نظراً الى ما يمكن ان يكون قد حصل من الاتحاد ما بينهم وبين الفرنساوية مدة اقامتهم بأرض مصر »(٢٧) .

(**) مرض سري ..

الى حبه للثورة الفرنسية أو تشربه لأفكارها فضلاً عن أن يكون قد سمع بها قط..وكل وقته بالصعيد كان مخصصاً لجمع الاخبار عن المقاومة الوطنية، وتسهيل النهب ومساعدة الجنود الفرنسيين في هتك اعراض الصعيديات..وتزلفه للانجليز وسبه للفرنسيين فور هزيمة الفرنسيين ينفيان عنه اي ايمان بالثورة الفرنسية.. فالجبرتي عدو الفرنسيين لا نعدم له كلمة انصاف هنا أو هناك في حق الفرنسيين.. بينما طلب الاستخدام الذي قدمه يعقوب للانجليز حافل بالسب لسادته الاقدمين!..

يواصل « لويس عوض » تجميل تاريخ يعقوب :

« والمعروف انه عندما تحالف الانجليز مع العثمانيين لاستخلاص مصر من الفرنسيين وردها للباب العالي ازدادت ضرائب الاحتلال الفرنسي الى درجة بشعة فأثقلت كاهل المصريين لمواجهة نفقات الحرب ، فكان المعلم يعقوب يتدخل لدى السلطات الفرنسية آناً لتخفيف عبء الضرائب ، وآناً لتقسيطها »[٣٠] .

نعم ! اذا كانت تبرئة ابليس تتطلب ادانة الكون كله ، فإن هذه التبرئة أيضاً تتطلب تبرير كل الجرائم .. لذلك فالعبارة مصاغة على نحو مذل حقاً لكاتبها !

« لما تحالف الانجليز مع العثمانيين لاستخلاص مصر من الفرنسيين وردها للباب العالي » .

وهكذا نرى انه ليس لمصر ولا للمصريين دخل في الأمر .. الانجليز يحاربون الفرنسيين « لأخذ مصر » منهم واعطائها للباب العالي .. وبسبب هذا « العدوان » الانجليزي — التركي . كان الفرنسيون بحاجة الى المال « لمواجهة نفقات الحرب » ! فزادت « الضرائب » وهو اسم مهذب للفردة والغرامة والاتاوة .. نعم زادت الضرائب والى درجة بشعة .. ولكن لمواجهة نفقات الحرب . وهنا يأتي دور « يعقوب » للتدخل لتخفيف الأعباء وتقسيطها ، فهو هنا لا يمثل السلطة في مواجهة الأهالي يجمع لها المال من الشعب .. أبداً..

هو يمثل الشعب في مواجهة السلطة! وطبعاً كما رأينا فإن رأي الجبرتي ووقائع التاريخ ضد ذلك تماماً « ووكل يعقوب بالمسلمين يفعل بهم ما يشاء ! » أظن ولا أعجمي يمكن أن يترجم هذه العبارة الى « ووكل يعقوب بالمسلمين **يتشفع** لهم كما يشاء ! » !!

ويصل بالتزوير الى ذروته :

« ويعقوب كان يستطيع ان يبقى في مصر والراجح انه كان مؤمناً على حياته واملاكه لحاجة الترك الى خدماته .. ولكن الجنرال يعقوب كان يحمل في جعبته مشروعاً خطيراً كان في نيته عرضه على الانجليز والفرنسيين . وهذا هو مشروع « استقلال مصر » [٣١] .

الامر يحتاج لهدوء اعصاب .. فلنبدأ بتتبع التاريخ :

« ١٤ – ٧ – ١٨٠١ جلاء الجيش الفرنسي عن القاهرة ،

٢٨ – ٧ – ١٨٠١ وصل رشيد .

١ – ٨ – ١٨٠١ ركب يعقوب « الفرقاطة » الانجليزية « بالاس » التي كان قومندانها الكابتن « جوزيف أدموندز » وأبحرت البالاس » في ١٠ – ٨ – ١٨٠١ متجهة أولاً الى « قبرص » وساحل آسيا الصغرى .

« وبعد ان ابحرت بيومين ١٢ – ٨ – ١٨٠١ اصابت « يعقوب » الحمى واشتد عليه المرض فمات بعد أربعة ايام في ١٦ – ٨ – ١٨٠١ .. ومن هذا نعرف ان «الجنرال يعقوب» أفضى بمشروعه الخاص باستغلال مصر «لادموندز» قبطان الفرقاطة « بالاس » في أول يومين من الرحلة أي قبل ان تخرج البالاس من ميناء ابو قير »[٣٢] .

« وقـــد كتب ادموندز الى اللورد « سانت فنسانت » وزير البحرية الانجليزية برسالة ينبئه فيها بما كان من حديث بينه وبين الجنرال « يعقوب »

وكان يقوم بدور المترجم بينهما رجل يدعى « لاسكاريس » (*) وكان موضوع الحديث هو مستقبل مصر » ...

ولنا أن نفترض من واقع سلوك يعقوب ومهاراته وتقلبه من خدمة المماليك والقتال معهم بضراوة ، الى خدمة الفرنسيين والقتال معهم بنفس الضراوة .. لنا ان نفترض انه قد عرض خدماته على الانجليز للقتال معهم بضراوة ضد اي عـــدو وليكن الفرنسيون بالذات ! خاصة بعد ان ابدى الكابتن له « بعض مظاهر الرعاية الخفيفة ، فدفعه ذلك الى محادثتي عن وطنه » !

أدرك يعقوب بحاسة العمالة ، وهي أنشط حواسه ، ان الانجليز هم سادة المستقبل ، وبواسطة « لاسكاريس » الآفاق شبه المجنون بدأت عملية البيع للكابتن الانجليزي . و « لاسكاريس » كأي سمسار ممتاز لا بد أن يقدم الصفقة للخواجة الانجليزي على أساس انها تحفة نادرة . وأن يعقوب هـــو « زعيم من زعماء طائفة الاقباط يدعى يعقوب وانه بحكم هذه الصفة يتمتع بمكانة عالية ونفوذ كبير في مصر » . وقد رأينا أي مكانة كان يتمتع بها هذا الذي يندرج تحت تعريف الجبرتي لامثاله « اسافل القبطة » وكان يعقوب يعرف جيداً مكانته بين مواطنيه فحول بيته الى قلعة ليأمن داخلها من مواطنيه إذا ما حاولوا التعبير له عن « تقديرهم » .. في غيبة الحماية الفرنسية !

وتقدم « يعقوب » يعرض خدماتـــه فأعلن : « ان أي حكم في مصر في نظره خير من الحكم التركي » والمعنى أوضح من ان يكون في بطن الشاعر .. انه يفضل الحكم الانجليزي(**) .. « اما التعاون مع فرنسا ثلاث سنوات »

(*) هذه الصيغة التجهيلية مقصودة لاخفاء دوره .

(**) بل ان موقف يعقوب لا يفضل بكثير ولا قليل موقف المماليك . فإن « عثمان » بك كتب الى السير « سدني سمث » شخصيـــاً « نحن على يقين من ان مراد بك كان شديد الخوف من الباب العالي ، وانه وضع نفسـه تحت حمايتكم . ولسنا أقل منه خوفاً ، وأنت تعلم انه مـا من قوة في الأرض نضع فيها ثقة أتم مما نضعه في بلاط بريطانيا العظمى. وكلنا اخوان ، نثق أولاً في =

فلا تقلق بالك — يا خواجا — فلم يكن عن ايمـــان بفرنسا ولا عن تشرب لروح الثورة الفرنسية ، ان هذا التعاون مع الفرنسيين يجب الا يعوق مستقبله في خدمة الانجليز .. فهو:« ما انضم الى الفرنسيين الابدافع الوطنية لتخفيف آلام اخوته المصريين» « وانه يعرف ان فرنسا ليست الدولة العظمى الوحيدة في اوروبا » . ورجا يعقوب (بواسطة لاسكاريس) أدموندز ان يحمل آراءه هذه الى القائد العام الاميرال اللورد كيث ليحملهـا بدوره الى مجلس الوزراء البريطاني » .

= الله العلي القدير ، ثم فيكم ، ونضع انفسنا تحت حمايتكم ، ونريدكم ان تمكثوا مع ابنائنا وأسرنا في القاهرة بأمر الباب العالي وبضمان الانجليز »(٣٣) فليس يعقوب وحده هو الذي كان يرى ان أي حكومة افضل من حكم الاتراك وليس « يعقوب » وحده الذي طلب الحماية البريطانية .

وان كان هيرولد يرى « ان المصادر الفرنسية تجمع على ان مراداً ظل وفيـــاً للفرنسيين حتى النهاية »(٣٤) .

وهذه المدرسة — مدرسة الاستقلال بالانجليز — وجدت في وقت مبكر بـــل وان صحت اتهامات « ريبو » فإن هذه المدرسة قد لعبت دوراً في تقرير مصير الحملة الفرنسية، بل وفي مصير الصراع البريطاني — الفرنسي ، أخطر مما لعبه يعقوب وامثـاله . اذ ان اسطول « نلسن » كان يتقدم بقيادة سفينة مصرية وبارشادها الى خليج « ابو قير » حيث وجـــه الضربة المعروفة جيداً للاسطول الفرنسي هناك »(٣٥) .

وفي يوميات الجنرال كليبر يفسر انشائه ديوان الاسكندرية بأنه « لمقاومة دسائس الانجليز في المدينة »(٣٦) .

مع فارق ان يعقوب والمماليك كانوا يريدون استبدال سيد منتصر بسيد منهزم ، لكي يمكنهم من الاستبداد بشعب مصر في حماية الحراب الأجنبية ، وهو موقف وصولي لا اخلاقي وعمـــالة في نفس الوقت .

اما الوطنيون المصريون الذين حاولوا الاستعانة بدولة أجنبية لضرب الاستعمار الأجنبي القائم فعلاً ، فهو وضع اضطر اليه الوطنيون اكثر من مرة ، بصرف النظر عن نتائجه .

ويأسف «لويس عوض» لأن « المنية العاجلة حالت دون ان يضع الجنرال يعقوب مشروعه في صيغة مكتوبة » .

وهو أسف في غير محله ، لأننا لا نعتقـــد أن مثل مشاريع يعقوب عن عرض الخدمات ، تكتب أو تقدم في صيغة مكتوبة .. انها اتفاق «جنتلمان» – أو نقول « آجنت مان » !. اتفـــاق يقوم على استمرار حاجة الطرفين لبعضها . ونشك ان « يعقوب » كان باستطاعته ان يكتب مشروعاً سياسياً على الاطلاق فلو كان « يخرج من يده » لكتبه خـــلال ثلاث سنوات طوال قضاها في التعاون المستقر الآمن على شخصه والتمتع بالنفوذ المطلق داخل قلعته الحصينة التي طالما كرنك فيها في درب الواسع ، كلما حاول مواطنوه ان يستقلوا .

أما التقرير الذي كتبه « لاسكاريس » عارضاً خدماته هو بدوره على من يشاء من الأوروبيين بعدما خدم مع جيش الاحتلال الفرنسي ، الذي استولى عليه في مالطة ضمن ما استولى عليه من ممتلكات فرسان القديس يوحنا !

« ولاسكاريس هذا كلفه الجنرال مينو تنظيم شبكة تجسس بالتعاون مـع يعقوب تمتد الى سوريا » (٣٧) .. وكان من الطبيعي ان يتصل بيعقوب فهـذه مهنته ولعبته ..

ولأنه لا يوجد أي دليل لا في تاريخ يعقوب في خدمة المماليك او الفرنسيس ولا في جهوده في « تنظيم مالية البلاد » ولا في سلوكه وتاريخه على ظهر الفرقاطة الانجليزية ما يثبت صلته بمشروع « لاسكاريس » لذلك لا يجد ورثة « يعقوب » من حيلة في نسبة مشروع « لاسكاريس » الى يعقوب إلا « هـذا التلازم الذي دام نحو خمسة شهور (بين لاسكاريس ويعقوب) هو ما يجعل بعض المؤرخين يرون في مذكرة لاسكاريس تعبيراً دقيقاً عن آراء الجنرال يعقوب » .. ولا شك ان هذا التلازم كانت تستغرقه مهام اخرى تماماً ، بحكم المهمة التي كلف بها الجنرال مينو ، لاسكاريس ، وهي تنظيم شبكة تجسس في

مصر .. والجنرال مينو حكم من ١٤ يونيه ١٨٠٠ (قتل كليبر) الى مارس ١٨٠١ (تاريخ رحيله للاسكندرية) فاذا كان قد كلف لاسكاريس بهذه المهمة الصعبة وهو غريب عن البلاد ، فلا شك ان اقصى ما كان يستطيع مناقشته مع يعقوب ، العديد المشاغل ، هـــو تنظيم هذه الشبكة ونشر فروعها من الاسكندرية الى اسوان .. بل والى الشام في بعض الروايات .

وهذه الشبكة كما هو ثابت من رسالة « مينو » الى « يعقوب » كانت تتولى التجسس على الأقباط كما المسلمين .. ويفهم من هذه الرسالة ان « يعقوب » اعتبر في نظر الفرنسيين مجرد عميـــل لا يدين بالولاء إلا لهم ، ولا يتردد في التجسس والوشاية بالأقباط ، « فمينو » لا يتحفظ ولا يختار عباراته وهو يكلف يعقوب بالتجسس على الأقباط ومراقبتهم بل يأمره على هذا النحو : (مع انهما برتبة واحدة .. جنرال !) :

« انت تعلم انني قليل الثقة في عدد كبير من مواطنيك الاقباط ، فراقبهم بعناية فائقة اذ انهم غير مرتاحين الى الاجراءات الادارية التي اتخذتهـــا والتي ترمي الى اعادة النظام الذي لا يحبوه »(*) .

فيعقوب لم يكن مصرياً ولا قبطيـــاً .. لا في نظر المصريين والاقبــاط فحسب ، بل ولا حتى عند الفرنسيين .. الذين عرفوا مكانته الحقيقية وكانوا سيعاملونه على اساسها في فرنسا ، مـــا جعله يبحث عن سيد جديد يتقدم بخدماته اليه ، سيد لا يعرف عنه كل ما يعرفه الفرنسيون .. فلجـأ بواسطة لاسكاريس الى البريطانيين ...

ولا شك ان المقابلة بين « يعقوب » « وادموندز » « ولاسكاريس » قد تمت . وفيها عرض « لاسكاريس » على الخواجة .. الانتيكة التي يرغب في بيعها : « يعقوب القبطي ذو النفوذ الواسع في مصر ».. اما المشروع فهو من

(*) جاك تاجر عن رسالة مينو بتاريخ ١٢ مارس ١٨٠١ .

تأليف لاسكاريس .. وبعض اللمحات من أدموندز .. اذ لا يمكن ان يكون من يعقوب الراحل الى فرنسا ، مهما قلنا في تقلبه وسوء خلقه وقلة وفائه ، لا يمكن ان يكون مشروعه ذلك الذي يصفه « لويس عوض » بـأن محور نظرية الجنرال (المعلم بقت له نظرية !) يعقوب التي يبسطها امام الانجليز هو ان استقلال مصر في مصلحة انجلترا اكثر من أي بلد آخر »(٣٨) .

فالمشروع المحفوظ في سجلات وزارة الخارجية البريطانية والذي كشفت عنه (*) في ١٩٢٤ ... ألفه لاسكاريس وتقدم به الى الحكومة البريطانية زلفي .. فهو يطلب :

- حماية بريطانية تحقق فصل مصر عن تركيا ..
- تشكيل « الفرقة الأجنبية » من قوات مرتزقة قوامها بين ١٢ الف و ١٥ الف جندي » تتولى اخضاع مصر وحماية الحكم المنشود . ولا تهدف للدفاع ضد الأوروبيين « ان هذا لا يمكن ان يحدث إلا بعد وقت طويل . » بل تكفي « لوقف الاتراك عند الصحراء وتحطيم المماليك في داخل مصر » .
- يسجل المشروع — ولو مبكراً — الأسلوب الاستعماري الخسيس في لعبة : « فرق تسد » ، واثارة الطوائف بعضها ضد بعض والحكم والاستقرار من خلال ضرب فئات الشعب الواحد بعضها ببعض . ورغم احتقارنا للمعلم « يعقوب » نرفض ان ننسب اليه كمصري مثل هذا التخطيط البشع لتمزيق وطنه :

« ويجب الا يفوتنا ان نذكر في هذا المقام ان مصر المقسمة الى طوائف متعددة ، تتوفر بها الوسائل اليسيرة لاقامة التعارض فيما بين هذه الطوائف بقصد حفظ التوازن بينها » . هذا المخطط نبرىء منه « يعقوب » .. وهو

(*) نشره لأول مرة — ولا نبرىء تاريخ نشره من الاعيب السياسة البريطانية — Georges Douin

لا يصدر عن فكر مصري بأي حال من الأحوال ، بل هو مخطط استعماري أجنبي .. وباصرار أشد نرفض محاولة الدكتور « لويس عوض » اتهام أكابر القبط بالمساهمة في مثل هذا المشروع عندما يلمح: « كذلك نعرف ان الجنرال يعقوب قبل سفره الى أوروبا اجتمع بزعماء الأقباط من زملائه القدامى مثل المعلم جرجس الجوهري والمعلم انطون ابو طاقية والمعلم فلتاؤوس والمعلم ملطي. ولا نعلم على وجه التحقيق ماذا دار في هذا الاجتماع وهل كانت له صبغة سياسية أم انه كان قاصراً على مناقشة المسائل المالية . ولعله أطلعهم على مشروعه ونواياه اما بالنسبة للمشايخ والعلماء ، الذين كانوا يمثلون الحكم الوطني في مصر يومئذ فليس في الجبرتي أية اشارة تدل على ان الجنرال يعقوب قد التقى بهم على محادثات سياسية »[٣٩] ...

ولكن يعقوب كان متسامحاً سخياً فقد « تصور نفسه ممثلاً لكل طوائف الشعب المصري » !

والتقرير المرفوع من الكابتن جوزيف ادموندز الى حكومة جلالة الملك لا يترك مجالاً لاجتهادات ولا تخمينات حول طبيعة الصفقة التي اراد «يعقوب» ان يعقدها ، او اراد « لاسكاريس » أن يعقدها لحسابه مع حكومة جلالة الملك الانجليزية ، قبل ان تعالجه الحمى فتمنعه من نقل البندقية للمرة الثالثة من خدمة المماليك الى العمالة للفرنسيس الى العمالة للانجليز .. والتقرير مكتوب بدقة الانجليز ويثبت براعة وذكاء الكابتن « ادموندز » . فرغم تهويلات السمسار « لاسكاريس » وادعاءات « يعقوب » واكاذيبه ، نجد الكابتن الانجليزي دقيق الى ابعد حد في اختيار العبارات . وهو في مجموعه لا يزيد عن تقرير يرفعه موظف مخلص الى حكومته بعد مقابلة مع جاسوس دولة معادية يعرض خدماته واستعداده لنقل الولاء الى السيد الجديد معتذراً عن اخلاصه وولائه للسيد القديم ، بجهله بامكانيات السيد الجديد ! وسب ــ لا يشرف « يعقوب » ابداً ــ في اسياده القدامى الذين حملوه معهم ، وبمجرد

ما ركب « الفرقاطة » الانجليزية نهش عرض الذين لحم اكتافه من خيرهم : « الفرنسيون خدعوهم ولهـــذا فالمصريون الآن يحتقرونهم احتقارهم للترك فيما مضى » .

يا لضياع مبادىء الثورة الفرنسية التي « أشربت بها روحه » !.. ضاعت هكذا بمجرد ان اظهر الكابتن الانجليزي : « بعض مظاهر الرعاية الخفيفة نحو هذا المنفي العاثر الحظ فدفعه ذلك الى محادثتي عن وطنه » .

ويفهم من تقرير الكابتن « ادموندز » :

١ — انه كتبه للفت انتباه السلطات البريطانية لاعتقاده « أنه قد يكون من النافع لبلادي أن بعض الاشخاص الذين يسمون انفسهم « الوفد المصري » موجودون حالياً في باريس » .

٢ — ان « لاسكاريس » « ويعقوب » لكي يقنعـا « ادموندز » بمقابلتهما والاستماع الى عروضهما وقبول استخدام يعقوب قد خلعـــا على يعقوب بعض الاهمية .. « أحد زعماء هذه الطائفة ويتمتع بحكم هذه الصفة بنفوذ عظيم وقد جعله الفرنسيون قائداً على فيلق ليحصلوا على مساعدته » .

ولا شك ان «ادموندز» قد خفف شيئاً من العبارات التي اضفاها «يعقوب» على نفسه وخلعها سمساره عليه ، والتي يرددها سماسرته اليوم ، ولكنه كان مضطراً لذكرها ، بحكم الدقة التي تتسم بها مثل هذه التقارير عادة ، وتقارير الموظفين الانجليز بصفة خاصة — في القرن التاسع عشر على الأقل — وأيضاً لتبرير ازعاجه لرؤسائه والكتابة اليهم .

٣ — وبعد ان يشير الى ما قدمه الى هذا « المنفي » العاثر الحظ مما دفع الأخير الى الحديث . (ولفظة منفي التي تكرر في التقرير تشير الى طبيعة خروج يعقوب كما كان هو ومعـاصروه يفهمون هذا الخروج . وبالطبع هو

منفي من قبل مواطنيه والسلطة الجديدة ، وليس خارجاً بهواه لاداء مهمة سياسية كما يدعي الدكتور لويس عوض) .

« وصرح لي ان من رأيه ان اية حكومة تحكم بلاده تفضل حكومة الترك » البعض يسمون ذلك دعوة للاستقلال !..

ودفعاً لمظنة ولائه للفرنسيس يؤكد : « انه انضم الى الفرنسيين بدافع من رغبته الوطنية في تخفيف آلام مواطنيه » .

والمدهش انه ما عدا حالات نادرة كان الجواسيس فيها يتمتعون بروح مرحة وعملية ، نجد ان الخونة بدأوا بنفس المقدمة .. وهي ادعاء الرغبة في تخفيف آلام المواطنين والعمل لمصلحة البلاد العليا(*) .. على اية حال شكراً لتواضع يعقوب فهو لم يبرر خدماته للفرنسيين ، بادعاء ايمانه بمبادىء الثورة !..

« وان الفرنسيين خدعوهم ، ولهذا فالمصريون الآن يحتقرونهم احتقارهم للترك فيما مضى . وانه لا يزال يأمل في خدمة بلاده بواسطة الحكومات الاوروبية » .

هذا الملعون الذي لا يستطيع خدمة بلاده الا بواسطة الحكومات الاوروبية !!

« ويعتقد ان رحلته الى فرنسا سوف تسفر عن هذ النتيجة » ..

واعتذار مرة اخرى عن ارتباطه بالفرنسيين ، مصحوب بمد اليد لبريطانيا:

« وقد جعله الفرنسيون يعتقد ان بلادهم هي اقوى بلاد اوروبا ، ولم يكن يعرف شيئاً عما لانجلترا من قوة بحرية عظيمة »(**) «ومع ذلك فقد كان يعلم

(*) حتى « منيرروفا » الذي سرق طائرة ميج ولجأ الى اسرائيل قال في بيانه انه فعل ذلك لتخفيف آلام الاكراد الذين تبيدهم حكومة بغداد !!

(**) واللي ما يعرفك يجهلك يا بيه !

انه بغير تأييد بريطانيا العظمى فان رغبته في أن يرى وطنه يتمتع بالاستقلال مقضى عليها بالفشل » . وهو يرجو رفع ذلك الى حكومة بريطانيا .. « اذ ان الجنرال كان قد اعرب لي عن رغبته في ابلاغ هذا الموضوع الى القائد العام (البريطاني طبعاً فقد انتقل الولاء الى القائد العام المنتصر) ثم إبلاغه عن طريقه الى الحكومة البريطانية » .

ثم التعهد التقليدي الذي تقدمه المخابرات لكل جاسوس أو عميل في اللقاء الأول :

« وقد تعهدت للمعلم يعقوب (لاحظ انه هنا يصفه « بالمعلم » وليس الجنرال) الا استخدم أو تستخدم الحكومة البريطانية في أي وقت من الاوقات ابلاغاتهم استخداماً يمكن ان يعود عليهم بالضرر » .

واعتذار من الكابتن البريطاني لتخطية البيروقراطية البريطانية ورفعه هذه « المعلومات بالطريق المباشر » الى وزير البحرية متخطياً رئيسه القائد العام « اللورد كيث » آملاً أن يقرني سيدي اللورد على مسلكي هذا .. لأن الجماعة ذاهبين « للاقامة في باريس » العدو القومي لبريطانيا مما يحتم المبادرة بالاستفادة من خدمات هذا الوفد .

وهكذا تكتمل صورة تقرير معلومات وعرض خدمات . فلا اظن ان المباحثة في مشروع استقلال مصر بضمانة «الدول» الاوروبية يستدعي تخوف يعقوب وتوسله الا تستخدم « ابلاغاته » هذه ضده .

اما حكاية « الوفد المصري » الذي حدث «لاسكاريس» ويعقوب ، الكابتن عنه ، فلم يكن لدى الكابتن من وسيلة للتأكد من صحته رغم وجود افراده على ظهر الباخرة ! فكل الدلائل كانت تشير الى جماعة من الهاربين من وطنهم لتعاونهم مع المحتل . لذلك نجد الكابتن الانجليزي متحفظاً للغاية في حديثه عن هذا الوفد :

« وقد أبلغني صديقه لاسكاريس ، فهكذا يسمي نفسه (!!) وقد قام له

بدور المترجم فيما جرى من محادثات بيننا ، ان الجنرال يعقوب رئيس وفد يحمل تفويضاً أو عين بمعرفة أعيـــان مصر لمفاوضة دول أوروبا في استقلال هذا البلد »(*) .

« وقد عرفني السيد « لاسكاريس » ان الوفـــد قائم وأنه مكون من المندوبين المسافرين على ظهر السفينة « بالاس » . ولم أستطع ان افهم ان كان السيد « لاسكاريس » نفسه عضواً في هذا الوفد(**) أم انه كان يتصرف بوصفه سكرتيراً مترجماً فحسب . وبما ان هـــذا الوفد – الذي ليس في استطاعتي تحديد صلاحياته قد ذهب في الغالب للاقامة في باريس » .

واضح ان الرواية كلها عن الوفد ومهماته وصلاحياته موقع شك عند الكابتن. فالمسافرون كانوا على ظهر سفينته وكان بوسع « يعقوب » ان يقدم له ولو ممثلين عن الوفد يعززون ادعاء وجود مثل هذا التشكيل ، ولكنه لم يفعل ،واكتفى بادعاء السيد « لاسكاريس » بأن الوفد قائم .. بـــل لعلها قصة اخترعها « لاسكاريس » أثناء الترجمة ولم يفهمها « يعقوب » ولا أشار اليها .. أمـــا المسافرون فهم من عرفنا نوعيتهم ، وما كانوا يفكرون أبعد من « الاقامة في باريس » ، كما قال الكابتن في تقريره .

وهذا « الوفد المصري » يعرفنا به « كرستوفر هيرولد » بعد أن استقصى امرهم: «٧٦٠ من الأقباط والروم والمماليك الذين فضلوا ان يصحبوهم الى فرنسا» « وأما المماليك والأقباط والسوريون الذين تبعوا الفرنسيين الى فرنسا وكانوا صالحين للخدمة العسكرية فتألف منهم سلاح المماليك . وعاش الباقون عيشة الضنك على رواتب ضئيلة » (٤٠) .

(*) هذه النصبة حق « لويس عوض » نفسه اضطر الى نفيها فهي اذا كانت محل شك عند الكابتن الانجليزي ، فهي مفضوحة الى حد البشاعة عند القارىء العربي !

(**) ليه لأ .. حتى يكون لمالطة دورها في استقلالنا !

هؤلاء هم طليعة القومية اليعقوبية ولحسن الحظ فهم لا يقتصرون على طائفة واحدة ، بل من اسافل المماليك والاروام ... الخ

وبعد وفاة يعقوب بالحمى ووضع جثته في برميل خمر .. كان على « لاسكاريس » ان يمضي في اللعبة وحده .. وباسم الوفد الوهمي .. فكتب تقارير سلمها للكابتن الانجليزي وهي التي وصفها مؤرخ بريطاني بعد ذلك بقرن وربع قرن.. بأنها اول مشروع لاستقلال مصر!..فتلقفت عبارته الببغاوات! ولا جدال في صحة ما ذهب اليه المؤرخ « شفيق غربال » — وهو يعطف على يعقوب — عندما قرر أن « مشروع استقلال مصر لا ينتسب الى الجنرال يعقوب بقدر ما هو من نسج خيال الفارس لاسكاريس سكرتيره (!) ومترجمه الغريب الاطوار الخصب الخيال الذي صور تاريخ هذه الفترة تصويره لشخصية دون كيشوتيه » .. ورغم كل احتجاجات المدرسة اليعقوبية فالرأي الذي وصل اليه « شفيق غربال » هو الرأي الوحيد الممكن ، والذي يصل اليه كل مؤرخ جاد . فلا صيغة المذكرة ولا أفكارها تمت الى « يعقوب » بصلة . والمحادثة التي سجلت مع الكابتن رغم ما يفترض من تلوين المترجم لها ، وإضافاته اليها لا تزيد عن عرض الخدمات والاستعداد للعمل لحساب الانجليز. أما المذكرة، فلا شخصية يعقوب ولا نشاطه في مصر، ولا معلومات معاصريه عنه توحي بمثل ما جاء فيها..بل إن بعض عباراتها واضحة النسبة الى مصدرها مثل قوله :

« ليس هناك ما هو أمجد لها وأكرم من القيام باجراء سياسي بسيط لتبديد ظلمات الجهل والهمجية التي تغشي هــذه البلاد الذائعة الصيت ، التي كانت فيما مضى مهداً لنور **عقولنا ولعلومنا ولفنوننا** . وكانت باختصار مركز الحضارة الأول الذي انتشرت منه الحضارة عن طريق الاغريق حتى **بلغتنا** . واذا كانت مصر ذات الماضي المزدهر العظيم لا تستطيع ان تحرك في دول أوروبا شعور العرفان بجميلها ، فهي تستطيع ان تثير الشفقة فيها » .

واضح ان « لاسكاريس » هو المتكلم وهو المفكر ، فبصرف النظر عن الضمير في هذه الفقرة .. فالمعلم « يعقوب » لم يكن يعرف شيئاً عن عظمة مصر ، بل كان هو ومواطنوه ، المسلمون والأقباط يسمون آثار هذه المدنية العظيمة « المساخيط » ويستخدمون مومياء مشيدي هذه المدنية كسماد فاخر لمحاصيلهم الزراعية يسمونه « الكفرية » نسبة الى الكفرة الذين حرقهم الله فتحولوا الى هذا السماد .. ويسندون أبواب بيوتهم بأحجار تحمل كتابات المساخيط وصورهم .. وأحياناً يبيعونها « لأغبياء كفرة » تدافعوا لشرائها لأكثر من قرن بعد ملاحظة « لاسكاريس » . وكل معلومات المعلم يعقوب عن « الاغريق » — ان كانت لديه — هي ان بلادهم هي مسقط رأس زميله ومنافسه « برطلمين حب الرمان » !

وسنجد في مذكرات « لاسكاريس » هذه ، عرض من الفارس لأن يكون حلقة الوصل بين الانجليز ، وهؤلاء المصريين (القادمين من مصر : الأروام والمماليك والمصريين) الذين توجهو الى باريس ، لمراقبة نشاطهم واستغلالهم لمصلحة السياسة البريطانية في الشرق .

والمذكرات تكشف سوء خلق « لاسكاريس » وعدم وفائه وسرعته في نقل ولاءه ، مما يجعله خير رفيق وخير ترجمان عن « يعقوب » .. فيعقوب الذي بكى على « ديسيه »(*) وعرض ان يتبرع بثلث نفقات اقامة نصب تذكاري له ، وترجى ان يدفنوه معه..ذلك يوم كانت الراية الفرنسية ترفرف على القاهرة ، والأموال تجمع باسم الجمهورية الفرنسية ! «يعقوب» هذا سرعان ما انهال طعناً وسباً في الفرنسيين مؤكداً احتقار المصريين لهم ! كذلك « لاسكاريس » الذي أنطلق مع قوات نابليون معلنا ايمانه بالثورة الفرنسية رافضاً القتال ضد جيشها مقاتلاً معها .. وأقترح ان يقيم في مصر مدينة باسم « مينو بوليس » تيمناً وتخليداً لاسم القائد العام الفرنسي « جاك مينو » ..

(*) « ديزيه » ..

هو نفسه « لاسكاريس » الذى يبادر فور هزيمة الهرنسيين الى الطعن فيهم ، وشجب تاريخ الحملة الفرنسية كله،في تقريره المرفوع الىالقائد العام البريطاني.. اكبر قوة كانت تعمل وقتها ضد الثورة الفرنسية !

فهو يبدأ باعلان : « ان مصلحة فرنسا في نجاح المشروع أقل من مصلحة انجلترا .. ولا سيا اذا تجددت رغبة الجمهورية الفرنسية في امتلاك مصر مرة اخرى « وهو ما ينبغي الارتياب فيه » !

«اما من جهة عواطف المصريين نحو الفرنسيين فهي مباشرة وليدة الطريقة التي حكمهم بها الفرنسيون أثناء اقامتهم في مصر.ولن اقف عند هذا الموضوع لأني اعتقد انكم سوف تتذكرون بسهولة ما دار بيننا من حديث حول هذا الموضوع وعلى هذا فكل شيء حتى العواطف التي يستشعرها سكان مصر ولا سيا بعد أن يتاح لهم فهم الانجليز ، كل شيء يثبت ان « مصر المستقلة » لا يمكن الا ان تكون قوية الميل لانجلترا » .

«اعتقد ان المهم اخفاء المفاتحات الأولى معكم أو التي يمكن ان يفسدوها».

ويقدم شفرة خاصة ليراسله بها الانجليز ، ويقترح ان ترسل المكاتبات له على عنوان: « السنيور الكونت انطوان كاسيس » في « تريستا » .. «وتحت هذا العنوان يكتب عنوان آخر هو عنواني » ثم يقوم هو بتوصيل هذه الرسائل الى المصريين : « وبهذه الطريقة يمكن لرسائل الحكومة (البريطانية) أن تصل الى يدي بسهولة ، ولكن فيما يتصل بهذه النقطة الأخيرة ، ينبغي ان يحاط الأمر بأكبر درجة من الكتمان والحيطة الممكنة حتى لا تتسرب أية شكوك للحكومة الفرنسية » .

ورغم ان مدرسة « يعقوب » تعتمد في موقفها كله على مشروع « لاسكاريس » هذا في نظريتها الوهمية عن تأثير الثورة الفرنسية في نشوء « فكرة القومية » و « الحركة القومية » و « الحكومة المصرية » فإن فارسهم

« لاسكاريس » يورد ملاحظة تنسف كل ادعـــاءات هذه المدرسة ، ببساطة وبوضوح، وبفهم رجل معاصر لتلك الفترة . فهذه الحكومة التي يريدها لمصر: « لن يكون انشاءها قط نتيجة لثورة استحدثها نور العقل أو اختمار المبادىء الفلسفية المتصارعة . ولكن تغييراً تجريه قوة قاهره على حيـاة قوم وادعين وجهلاء ، يكادون الا يعرفوا في الوقت الحاضر الا عاطفتين تحركان الاخلاق: المصلحة والخوف(*) . فقليل من مال يزاد أو شيء من رخاء يضاف الى حياة هؤلاء السكان نتيجة لقيام هذه الحكومــــة الجديدة ، وهو أمر ليس يصعب التحقيق ، يجعلهم بغير شك المدافعين الغيورين عن هذه الحكومــــة ويجعلهم يحبونها » .

هذه الأفكار وان كانت نسبتها الى « يعقوب » تثبت فشل معلمه ديزيه في تشريبه روح الثورة الفرنسية ، الا انهـــا اكبر من مستواه ، ولا تدور في خلده .. وهي تثبت ان «لاسكاريس» أقدر على فهم طبيعة اللقاء الاوروبي — المصري من الملفقين والمؤرخين الذين يكتبون بعده بمائة وسبعين سنة !

فلا ثورة ولا مبادىء ولا مفاهيم جديدة .. بل تغيير يفرض بقوة الأجنبي ولمصلحة هذا الأجنبي ..

واذا كان قد كتب علينا ان يكون « لاسكاريس » هو رائد قوميتنا .. فلنلتزم بأفكاره على أقل تقدير !

بقي أن نقول ان تاريخ رسالة « لاسكاريس » التي تضمنت هذا المشروع يقع بعد وفاة يعقوب بشهر !..

ونختتم حديث « يعقوب » برأي كل من « جـاك تاجر » والدكتور وليم سليمان ، في هذه الفرية التي اخترعها بريطاني ، وروجها « سلامه موسى » في

(*) وما الذي كان يحرك لاسكاريس، بل وما الذي يحرك الانسان الغربي الى اليوم الا المصلحة والخوف ..؟!

صحيفة « مصر » الطائفية كما وصفها أخلص تلاميذ سلامه موسى .. يقول جاك تاجر :

«في نظر بعض الكتاب الوطنيين لا تحتمل مسألة المعلم يعقوب اية مناقشة.. انه خائن تعاون مع الفرنسيين وساهم في ذل الشعب المصري ، ولم يحاول الكتاب الأقباط أنفسهم أن يفرقوا بين موقف المعلم يعقوب وبين موقف سائر الاقباط . وذهب أحدهم الى حد كتمان هذه المسألة مما ضاعف كبر ذنب الاقباط في عيون الوطنيين(*)» ثم يتقدم « جاك تاجر » بتفسيره لحادثة يعقوب فيقول :

«اعتمد المؤرخ « جورج داون » على حديث جرى بين القبطان « جوزيف ادموندس » وبين الجنرال يعقوب وصديقه « لاسكاريس » على ظهر السفينة «بلاس» وهما في طريقهما الى فرنسا . فأكد ان يعقوب كان يهدف الى تحقيق استقلال مصر .

واعتمد سلامه موسى على هذه المذكرات ليكتب في جريدة « مصر » القبطية عدة مقالات يجد فيها اعمال الجنرال يعقوب الذي اعتبره أول من رفع صوته في مصر وفي أوروبا(**) مطالباً بحرية البلاد واستقلالها» .

«على اننا نرى شخصياً (يقول جاك تاجر) ان مختلف النظريات التي قيل بها حتى الآن نظريات خاطئة ونقول ان الجنرال يعقوب انكر وطنه ان لم يكن قالباً فقلباً منذ اللحظة التي كون الفرقة القبطية . وسنرى من وجهة اخرى ان الأمة القبطية استقبلت عمل الجنرال يعقوب بفتور . ولكن هذا لا يعني ان يعقوب كان خائناً إذ لم يكن وقتئذ جنسية مصرية محدودة » .

(*) يقصد تاريخ مصر القديم والحديث لميخائيل شاروبيم القاهرة ١٨٩٨ .

(**) لم يصل المعلم يعقوب الى أوروبا قط ولكن سلامه موسى كان يعتمد على الكذب بجرأة نادرة .

الدفع مرفوض طبعاً .. اذ ان الوطنية لا تبدأ بمرسوم الجنسية .. وإذا لم تكن هناك مصر ولا جنسية مصرية ، فعن أي استقلال كان يبحث يعقوب ، ولو أن « جاك تاجر » يرفض هذه الاكذوبة وواضح من كلماته انه يرفض مزاعم « جورج داون » الذي اعتمد على «حديث» كما يرفض مقالات سلامه موسى الذي اعتمد على ما كتبه « جورج داون » لكي ينسب ليعقوب تفكيراً في الاستقلال .. «جاك تاجر» ينفي عن يعقوب كل تفكير من هذا النوع .. وهو يتهمه بانكار وطنه ، ولكن يطلب الرأفة له والبراءة من تهمة الخيانة العظمى .. لأنه لم يكن هناك وطن ولا وطنية وقتها !

على أية حال موقف جاك تاجر أشرف بكثير من مدرسة وتلاميذ سلامه موسى ..

ويفسر لنا « جاك تاجر » اسباب انحراف يعقوب فيقول :

« فإذا أردنا أن نفهم نفسية هذا الرجل ، يجب أن نلقي نظرة عن اعماله قبل الاحتلال الفرنسي . كان يعقوب ذكياً وصحيح البدن (!!) وقد اشتهر بمهارته في ركوب الخيل . كان يشغل ، كسائر ابناء طائفته، وظيفة المباشر، ولكنه لم يكن مسالماً مثلهم اذ أنه انضم ، قبل وصول الفرنسيين بزمن طويل ، الى صفوف ابراهيم بك ومراد بك في المعركة الكبرى التي دارت بين جيوش المماليك وجيوش القبطان باشا . وقد شكره البكوان لشجاعته واغدقا عليه النعم . وفي سنة ١٧٩٨ ، أصبح يعقوب وجيهاً وثرياً يحترمه ويعتبره الجميع .

ولما قدمه جرجس الجوهري الى الجنرال « بوسيليج » كتب هذا الأخير إلى بونابرات قائلاً : « يقول الجوهري انك لن تجد انساناً اكثر غيرة منه على مصالحنا وأنه يضع رأسه بين يديك راجياً أن تأمر بقطعها ان بدا من المعلم يعقوب أدنى خيانة » .

« وتشعر هنا ان يعقوب المقاتل اعجب بقوة هؤلاء الجند الشبان الذين

هزموا مماليك مراد بك وابراهيم بك الذين عرف عنهم انهم لا يكسرون . ثم ان يعقوب عرف عنه ان اخلاصه لرؤسائه يذهب به احد انكار الذات وكان المماليك هم رؤساءه بالأمس ، أما اليوم فكان الفرنسيون رؤساءه . « كان يعتبر نفسه جندياً من جنود بونابرت وأخذ ينسى شيئاً فشيئاً أصله المصري القبطي » .

« ولما سافر « ديزيه » إلى فرنسا مع بونابرت ، استقر يعقوب بالقاهرة حيث كان يحيط الفرنسيين بمعلومات مفيدة » .

« على ان الأقباط لم يكونوا أول من زود الجيش الفرنسي بالرجال فقد سبقهم إلى ذلك عمر القلقجي الذي توسط لمغاربة الفحامين وجمع منهم ومن غيرهم عدة وافرة وعرضهم على ساري عسكر ... » « ثم انضم المماليك إلى الفرنسيين بعد المغاربة، أما الأقباط فكانوا آخر من التحق بالجيوش الفرنسية. وعلى أي حال ، كان مجهودهم محدوداً جداً ، على خلاف المغاربة . فلم يشتركوا حتى في المعارك التي سبقت تسليم الجيوش الفرنسية ولكن فرقتهم بقيت معسكرة في القاهرة . وأخذ يفكر افرادها في حلها . والواقع انه بينما كان يعقوب يستعد للابحار الى فرنسا ، ركن جنده الى الفرار والاختباء منه على الرغم من ضغطه عليهم . لا يترك الانسان بلاده باحثا عن المغامرة الا بدوافع قوية . وكان الاقباط لم يدركوا السبب الذي جندوا من اجله . أما يعقوب،فكان عالماً بما فعل . انه نسى وطنه ووهب نفسه لخدمة رؤسائه الجدد منذ الأيام السعيدة التي تعاون خلالها مع « ديزيه » . ولكن كيف يكسب تقديرهم وهو مباشر (صراف) ؟ لذلك انتسب الى الجيش وساعدته أعمال البطولة التي قام بها على اكتساب عطف الفرنسيين .

« ولكن شاء القدر ان يصاب على السفينة التي كانت تقله الى فرنسا بمرض مجهول قضى نحبه على أثره . **ولم تكن آخر كلماته عن مصر ولا عن اسرته ولا عن افراد فرقته الذين ساروا في ركابه** . وبينما كان يحتضر طلب الى

الجنرال « بليار » الذي كان بجواره ، ان ينعم عليه بدفنه في قبر «ديزيه» نفسه ! »[٤١] .

واضح ان « جاك تاجر » بحرصه على تأكيد ان « يعقوب » لم يفكر في وطنه وهو يحتضر ، انه يريد ان ينفي تماماً الزعم السخيف بأنه كان يفكر في استقلال مصر . كما يكشف عن جانب من وضاعة شخصية يعقوب وانحطاطه الخلقي فمنذ ساعات ليس الا كان في غرفة الكابتن الانجليزي يبيع له الفرنسيين ويعرض خدماته، فاذا جلس الجنرال الفرنسي الى جانب فراشه بكى من شدة حب « ديزيه » الفرنسي وطلب ان يدفن الى جانبه !!

اما الدكتور «وليم سليمان» فهو يدين يعقوب ويتبرأ منه بل ويعلن ان ادانته هذه هي ذات الموقف الذي اتخذته الكنيسة من يعقوب والذي اثبته تاريخ الامة القبطية يقول : « وتسجل كتب التاريخ القبطي تبرأ الكنيسة المصرية من الشخص الذي ينحرف عن هذا التقليد العريق[*] . فمثلاً بالنسبة للجنرال يعقوب الذي عاش أيام الحملة الفرنسية . نقرأ في « كتاب تاريخ الامة القبطية» الذي طبعه عام ١٨٩٨ « نخله روفيله » ان يعقوب هـــذا سار « في خطة تخالف ما كان عليه ابناء جنسه.. فإنه فضلاً عن مخالفتهم في الزي والحركات اتخذ له امرأة من غير جنسه بطريقة غير شرعية . كما ان رجال الدين ولاسيما البطريرك لم يكونوا راضين عن تصرفاته وأحواله . وسمعت من بعض شيوخ الاقباط المسنين ان البطريرك نصحه المرات العديدة بالعدول عن هذه الخطة.. فلم يقبل .. وعاوده النصيحة مرة أخرى ، فجاوبه جواباً عنيفاً فسخط عليه . وسمعت من آخر ان ما كان بينه وبين البطريرك من المنازعة والمشاحنة دفعه الى التجرؤ على الدخول في الكنيسة مرة راكباً جواده رافعاً سلاحه » (ص٢٧٩-٢٩٠) ... « يقف البطريرك والكنيسة هذا الموقف من يعقوب في

(*) يقصد ولاء الاقباط لوطنهم مصر .

وقت لم تكن القومية بالمعنى الحديث ظهرت في مصر وفي ظل حكم المماليك ومؤامراتهم المتواصلة للتفرقة بين جماهـــير الشعب ، تمكيناً لسلطانهم ومع وجود الحملة الفرنسية في البلاد التي استمالت الكثيرين ومن بينهم بعض رجال الأزهر . وواضح ان هذا كله لا يمس القيمـــة التي اثبتها الدارسون لمشروع الاستقلال الذي تبناه يعقوب وصحبه » (٤٢) .

والدكتور « وليم سليمان » ، من أفضـــل كتابنا الاقباط وأكثرهم دقة وموضوعية وتعبيراً عن التيار الوطني الحقيقي الذي جسده تاريخ الاقباط المصريين . وموقفه عن « يعقوب » **هذا** (كما عبر ببراعة عن احتقاره بلفظة هذا) هو رأي الجماهير القبطية ، والكنيسة القبطية والشرفاء الاقباط . لا في عهد الحملة الفرنسية فحسب بل على امتداد سنوات الوعي الوطني فمهزلة « **يعقوب هذا** » التي ابتدعها الانجليز ـ لاسباب مفهومة ـ بعد سنة ١٩٢٤ لم تكن لتجد كاتباً مصرياً يقبل بعثها أو الاشادة بيعقوب **هذا** .. اما حكاية « ان هذا كله لا يمس ... الخ » فأعتقد ان د. وليم سليمان قد اضطر اليها تحت ضغط اعتبارات،منها ظروف الصراع الذي دار حول «يعقوب هذا».. بين الدكتور « لويس عوض » مكتشفه الجديد ، وبين مؤلف هذا الكتاب . ذلك الصراع المعاصر لتاريخ نشر مقال الدكتور « وليم سليمان » الذي ورد به تعليقه على يعقوب في أحد هوامشه . وكان من المستحيل أن تقف المجلة ـ التي نشر بها « د. وليم سليمان » مقاله ـ الى جانب الذين فضحوا دور يعقوب المخزي ، ولو أن مجرد نشر مثل هذا الهامش ، في تلك المجلة ، مجرد نشره يعد نموذجاً للشجاعة الأدبية والامانة العلمية التي يتحلى بها «د. وليم سليمان». ولا شك انه اذا ما اتيحت له الفرصة لإعادة نشر مقاله في مجلة أخرى ، أو كدراسة مستقلة، لاشك انه سيحذف هذا السطر الذي ينقض كل ما سبقه من تعليق . اذ كيف لا تمس قيمة مشروع ، اذا ما ثبت ان صاحبه عميل خارج عن ارادة أمته وطائفته ، سلوكه مستنكر من الجميع .. بل ان

الدكتور « وليم سليمان » لم يجد مثالاً على الشذوذ والانحراف عن « التقليد الوطني العريق للاقباط » الا **يعقوب هذا** .

واذا كان الدكتور « وليم سليمان » يعـــد من مفاخر « أمتنا المصرية » وشواهد وطنية الاقباط « انه في شهر سبتمبر ١٦٩٩ تلقى القنصل الفرنسي « دي مايبه » أمراً من ملك فرنسا باختيار ثلاثة من أولاد الاقباط لارسالهم الى فرنسا وتربيتهم هناك على النحو الذي كان يُربى عليه أولاد بعض الامم الشرقية . ولكن عائلة واحدة لم توافق على ذلك مهما كان عدد أولادها » . اذا كان ذلك من مفاخر امتنا فلا شك انه يعلم ان التاريخ لا يتكون من الاشادات وحدها بل والادانات ايضاً .. وما دمنا قد أشدنا بهذا الموقف ـ عن حق ـ فلكي يكتمل الموقف التاريخي ، لا بد من أن ندين ذلك الذي أفلحت جهوده في « تسفير » عدد من اولاد الاقباط وأولاد المسلمين الى فرنسا ..

على أية حال ان موقف « وليم سليمان » من « يعقوب هذا » واضح .. اما هذا التعليق الذي وضعه مكرها ، فيثبت أي عنت يلقاه الكاتب اذا ما حاول ان يقول الحق كل الحق فيما يتعلق بتاريخنا ...

الجبرتي ونخبة عصره

الجبرتي هو شيخنا العبقري ابن عصره.. هو ثمرة الفكر الاسلامي، والحضارة الاسلامية، في أحلك عصور تخلفهما.. ولكن مع ميزة يتفوق بها على مثقفينا اليوم، هي انه كان ابن هذه الحضارة وثمرة هذا الفكر، قبل ان يتسلل الغزو الفكري الى العقل العربي .. قبل ان تتم خطوات التغريب التي تمت.. فهو يحتفظ بنقاء الجوهر وان كان الشكل قد أصابه ما يصيب كل الظواهر في مرحلة الانحطاط والجمود والتخلف .. بل وما اصاب ـ بالضرورة ـ صفاء الجوهر ووضوحه، وقدراته، لكنه لم يكن قد تم تشويهه أو تزييفه بفعل التغريب الذي تم خلال المائة وسبعين عاماً الماضية .

هو الجبرتي .. الازهري(*) .. اسلامي، ينتسب لحضارته الاسلامية، ويعتز ويفخر بها، مؤمن بتفوقها في الجوهر والقيم وبجدارتها وبقدرتها على التفوق في الشكل والتطبيق لو وجدت العاملين لها .

عربي يصف نفسه بأنه من ابناء العرب، وعندما يثنى على مملوك يصفه

(*) كما عبره سلامه موسى .. وعبر بذلك عن الحقـــد الساذج الذي تكنه له مدرسة التغريب .. ولكن « لويس عوض » أذكى فهو يبالغ في الثناء على الجبرتي ، لتشويه سمعته !

بأن من يراه يظن انه من اولاد العرب .

مصري محب لمصر .. موله في حبها ككل المصريين رغم انه حبشي الجد ، يعتبرها عن قناعة وحب « الاقليم الحسن الأحسن » الذي تفاخر «بملكها الملوك » . « ولما صرت في سن التمييز(*) كانت مصر اذ ذاك محاسنها باهرة وفضائلها ظاهرة ولأعدائها قاهرة . يعيش رغدا بها الفقير وتتسع للجليل والحقير . وكان لأهل مصر سنن وطرائق في مكارم الأخلاق لا توجد في غيرها »[43].

عدو للاستعمار الغربي ، واع بالمواجهـــة الحضارية ، رافض للاحتلال الفرنسي، مؤمن بامكانية البعث الاسلامي .. بكل قلبه مع المجاهدين المقاتلين ضد الغزاة الغربيين .

على وعي تام بنقائص وخطايا بل وجرائم الحكم المملوكي والسلطة في الدولة العثمانية .. لم يعجبه في بيان نابليون الا عبارة واحدة هي وصفه للدولة العثمانية بأنها « المفعمة جهالة » !.. وما من وثيقة معاصرة « للجبرتي » حافلة بنقد الدولة العثمانية مثل كتابه الذي يعد المرجع العربي الأساسي لهذه الفترة. ولكنه لم يضع نفسه أبداً في موضع الإختيار التعس الذي تحاول المدرسة الاستعمارية أن تضعه فيه ، الا وهو الاختيار بين قبول التخلف والظلم التركي، أو اختيار «التقدم» في ظل الاستعمار الغربي .

ابدا .. لم يكن هذا هو قدر أمتنا ، ولا الاختيار الوحيد المتاح لها .. بل كانت لدى النخبة دائماً ، الآمال وكان لأمتنا الفرصة ، لتحقيق احتمال ثالث .. هو بناء تقدمنا الوطني .

كان «الجبرتي» واعياً بأن الطريق الثالث يقضي على التخلف ويحمي من الغزو الغربي .. ولكنه يتطلب كنقطة بدء .. صد الغزو الغـــربي ، منع

(*) ولد الجبر في سنة ١١٦٧ هـ ١٧٥٣ - ٥٤ م .

الاستعمار الغربي من الاستقرار فوق أرضنا .. وأن حريتنا فوق أرضنا هي السبيل الوحيد لعلاج مشاكل تخلفنا .. واننا اذا فقدنا هذه الحرية .. اذا سقطنا في قبضة المحتل ، فسنفقد حرية الاختيار .. ونفقد بالتالي فرصة بناء تقدمنا الوطني .

والمدرسة الاستعمارية عندما تشوه موقف « الجبرتي » ، بل وعندما تشوه موقف المثقفين العرب من عهد ابي العلاء المعري الى الجبرتي .. فهي انما تهدف في الحقيقة الى الايحاء بموقف مستقبلي ، وليس الدفاع عن موقف تاريخي .

فعندما تقول هذه المدرسة.. ان المثقفين العرب يمثلهم «ابو العلاء المعري» قد اختاروا العيش تحت حماية الحكم البيزنطي الذي كان يهدر استقلالهم القومي والديني ، ولكنه يمنحهم حرية الفكر !.. بينما رفضت هذه النخبة الاستبداد المصري الفاطمي .. الذي كان يحمي دينها وقوميتها ولكنه يضيق على حريتها الفكرية (*)!.. وعندما تلح مرة اخرى على هذه الفكرة فتزعم ان النخبة المصرية في عصر الحملة الفرنسية ، وعلى رأسها «الجبرتي» ، انتابتهم الحيرة ، أو حتى رجحوا الحكم الفرنسي في كثـــير من الاحيان . فإن هذه المدرسة في الحقيقة تريد بتدريسنا عبرة التاريخ ، أن تلقنّا كيف يجب أن يكون سلوك النخبة **المعاصرة**.. بزعم أن نفس لعنة الاختيار التعس ما زالت تواجهنا .. فلنفهم جيدا ان ما سيقال عن موقف « جبرتي » القرن التاسع عشر ، انمـا هو موجه « للجبرتيين » في النصف الثاني من القرن العشرين !..

والصورة التي يرسمها لويس عوض للجبرتي هي :

« اما تنديده بعصر الترك والمماليك فتفيض به كل صفحة من صفحات

(*) راجع « على هامش رسالة الغفران » للويس عوض . الذي نشر عام ١٩٦٦ .

تاريخه « عجائب الآثار » . وأما رأيه في الحكم الفرنسي وفي الحضارة الفرنسية ، فقد اختلط فيه السلب والايجاب بسبب موضوعيته واستقلاله في الرأي عن عواطف الغوغاء وعن ترهيب الحكام وترغيبهم .. حتى وصفه الفرنسيون بأنه شيخ متعصب ووصفه أبناء جنسه بأنه نصير الفرنسيين . واما موقفه من محمد علي باشا فقد كان واضحاً وقاطعاً . كان يعتقد ويجاهر بالقول والقلم منذ ولاية محمد علي ١٨٠٥ حتى وفاته هو في ١٨٢٥ ان محمد علي مجرد مغتصب لحكم مصر من امرائها الشرعيين وهم المماليك المصرية . وان عهده رغم كل ما كان فيه من انشاءات واصلاحات كان عهداً يقوم على الظلم والجور » .

والعبارة التي صيغت بدقة ومهارة تهدف الى القول أو تهدف الى افهام قارئها ، ان موقف الجبرتي يتسم بالوضوح الشديد ازاء عصرين :

١ — عصر الاتراك والمماليك .

٢ — حكم محمد علي .

الأول التنديد به تفيض به كل صفحة من صفحات تاريخه ، والثاني كان رفضه له واضحاً وقاطعاً ..

يبقى الثالث .. وهو مربط الفرس ، وهو موقف الجبرتي ، أو النخبة المثقفة التي يمثلها ، من الاحتلال الفرنسي .. هنا لا نجد الوضوح ولا الرفض القاطع ، بل سرعان ما نكتشف أن الاصرار على وضوح موقف الجبرتي من عصريّ المماليك ومحمد علي ،انما قصد به تشويه موقفه من الاحتلال الفرنسي !.. فهو موقف غير واضح ، موقف يختلط فيه السلب والايجاب .. وذلك لأنه مستقل في رأيه عن « عواطف الغوغاء » !

ومعروف ان « الغوغاء » كانوا ضد الحكم الفرنسي .. بل في رأي المدرسة الاستعمارية ، ان كل معارضة لحكم الاستعمار هي غوغائية !

من كل هذا يجب أن يكون موقف الجبرتي ، غير واضح ، وغير قاطع ، بل متأرجح بين السلب والايجاب !

فهل حقاً كان ذلك هو موقف الجبرتي؟!.. هل كان حقاً متحرراً من مشاعر الغوغاء ، المقصود بها هنا ، رفض الحكم الفرنسي ، والثورة عليه ؟!

ما هو موقف الجبرتي من الغزو الفرنسي ، ومن الوجود الفرنسي على أرضنا .

لعل خير ما يدلنا على هذا الموقف هو المقدمة التي كتبها للجزء الثالث ولاحظ انه كتبها سنة ١٢٢٠ هـ (١٨٠٥ م) أي بعد أربع سنوات من زوال الاحتلال الفرنسي ، وبعد أن خمدت تماماً « مشاعر الغوغاء » وبردت العواطف ـ ان كانت الوطنية انفعالاً ـ .. وبعد أن جاء العثمانيون ، وأنسى سلوكهم كل ما سبقه من جرائم .. الا انه في قضايا الوجود لا يتأثر موقف الشرفاء بالجزئيات ، وأبشع حكم محلي أشرف وأحسن من أفضل حكم أجنبي استعماري . وهذه قاعدة عامة صالحة لكل زمان ومكان ..

لذلك يؤرخ الجبرتي سنة (١٢١٣ – ١٧٩٨) قائلاً : « هي أولى سني الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة والنوازل الهائلة وتضاعف الشرور وترادف الأمور وتوالي المحن واختلال الزمن وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع . وتتابع الأهوال واختلاف الاحوال . وفساد التدبير وحصول التدمير وعموم الخراب وتواتر الاسباب وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون (٤٤)» .

ولا شك ان تتبع تاريخ الحملة الفرنسية في مصر وما انزلته من تنكيل وإبادة وحرق واعتصار حتى الموت لموارد البلاد ، يؤكد ان « الجبرتي » لم تجرفه البلاغة حين لخص هذا التاريخ في « الشرور والمحن والاهوال والتدمير والخراب » .

اما عن « اختلال الزمن وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع » .. فهذه هي الحقيقة التي أفاق عليها الشرق الاسلامي بعد غيبوبة طالت اكثر من ستة قرون منذ أن طرد آخر الفرنجة من ساحل الشام ، ومنذ أن اسر ملك الفرنجة في احدى القرى المصرية . ثم جاء الاعصار التركي يجتاح أوروبا ، ويحرر القسطنطينية ، ويدق أسوار فِينّا .. ونام الشرق على ان « المطبوع والموضوع » هو تفوق الشرق الاسلامي على الغرب المسيحي، ورغم كل النذر التي كانت تشير الى ان « الموضوع » يتعرض لتغيير عنيف ، وان « المطبوع » قد انقلبت طبيعته ، وان الغرب « المهزوم » تطور الى خطر جارف على الشرق المنتشي بسلافة اجداده ، النائم على هذه الأمجاد .. رغم كل النذر التي حملتها سفن الفرنجة ، فقد كان عطر الماضي نفاذاً قوياً أدار الرؤوس الى الحد الذي استحال عليها أن تبصر ما يطرق حواسها الخمس . بل وأن تفهم أو تفسر هذا الذي تلمسه وتراه يخترق الجسد ويقتطع منه وكأن الجسد قد فقد القدرة على الحس كما فقد القدرة على المقاومة .

فلما جاءت الحملة الفرنسية تضرب العالم الاسلامي في قلبه العربي ، وتختار من القلب العربي .. كنانة الله ومركز الثقل فيه . كان الانتباه المفاجيء العنيف الى ان « المطبوع » قد انعكس و « الموضوع » قد انقلب ..

اختلت قوانين الكون .. وانهارت صورة العالم المفترض.. ولكن الجبرتي لا يفسر ذلك الانقلاب – كما تزعم المدرسة الاستعمارية – بالكفر بالقيم الاسلامية أو التنكر لحضارتنا .. بل يفسره التفسير الحضاري السليم: « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » .

وهذه الآية التي يقتبسها الشيخ عبد الرحمن الجبرتي هي والآيات اللاتي تسبقها وتتلوها تشكل قانوناً لتفسير التطور الحضاري ، وعوامل انهيار الأمم ، قانوناً لا ترقى اليه التفسيرات المطروحة كلها .. وتجعل الجبرتي على وعي بحركة التاريخ وبمنأى عن صورة الأبله الفاغرفاه امام الأحداث كما تصوره

المدرسة الاستعمارية ، أو بالأحرى كما تصور الشيخ الأزهري في مواجهة الحملة الفرنسية ..

ابدا الشيخ يعرف :

« فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض الا قليلاً ممن انجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما اترفوا فيه وكانوا مجرمين . وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » .

وما كان الجبرتي بالذي تنطلي عليه خرافة وحدة الحضارة فدينه يعلمه « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة . ولا يزالون مختلفين » .

بل ها هو الجبرتي يحلل في مظهر التقديس — الذي كتبه اثناء الاحتلال — اسباب الهزيمة فيقول :

« وان من اعظم الدلائل على ما رميت به مصر ، وحل به لأهلها تنوع البؤس والإصر بحلول كفرة الفرنسيس .. ووقوع هذا العذاب البئيس . حصول الكسوف الكلّي في شهر ذي الحجة بطالع مشرق الجوزاء المنسوب اليه اقليم مصر . وقد كان هؤلاء الاقوام وامثالهم ممن لهم في الخروج مشارك ولروم الافساد متربص متدارك ، كل يريد الحلول بأرضها . والتفيؤ بظلال خصبها وروضها . فيرجع بخفي حنين . وتنقلب أمنيته منية وحين . ولم تزل منذ وضع أساسها وأضاء في ديجور الاقطار نبراسها . محمية عن تطرق أيدي المفسدين . مصانة عن أن يطرق حماها عصابة المعتدين . لا يطمع خارجي في الحلول بساحتها . ولا تحدثه نفسه بالتغلب على رياستها . رهبة من سطوة حماتها . وأسود غيضانها . الذين كانوا من قديم الزمان كالشجى في حلق العدو . والحسام المجرد في وجوههم بحيث سلبهم الراحة والهدوء لا يتوجهون لجيش الا هزموه . ولا يحاربهم متغلب الا غلبوه . هؤلاء التتار قد استولوا على كل أرض . وانزلوا دولة كل ملك من شامخ الى خفض . كثيراً ما قهرتهم جند

القاهرة . وباءوا عند توجههم اليها بصفة خاسرة . بحيث لم تقم لهم بعد تلك الهزيمة دولة ، ولا تحقق منهم بعد تلك الغلبة صولة . وذلك **وقت ان كان الناس ناس والزمان زمان وجند أهل هذا القطر متيقظين لسداد الثغور بأبطال الرجال وعقبان الفرسان** . وان الدولة العثمانية ابقاها الله وأشادها . ووضع على اساس العظمة والعز عمادها . كانت وسدت أمور مصر لمن بها من الحكام . اعتماداً على شهرة شجاعتهم وحماستهم السائرة بين الخاص والعام . وتلك الحكام أيضاً اعتمدوا على سابق الشهرة . وركنوا الى الدهر ولم يأمنوا غدره . فخربوا الثغور وأشادوا القصور واستبدلوا ابطال الرجال بربات الخدور .. »

« ولما لم يقتفوا آثار من مضى من الدول . واضاعوا ما تعب في تأسيس قواعده الأول . تطرق الخلل لهذا القطر العظيم من كل جهة وأضحت وجوه محاسنه بما ابتدعوه مشوهة » .

« فلما دهمت الفرنسيس ثغرها الخالي ووقفت منه على طلل بالي . سهل عليهم الحال فاقتحموه ودخلوا من باب الاقليم بدون أن يفتحوه وتقاعدت العساكر المصرية عن التسارع لاستنقاذ الثغر فعظم البلا . وأخذ العدو يطوي بساط الأرض حتى اذا التقى الجمعان لم يسع القوم الا الفرار في الفلا .. فيالله من خطب فظيع وحادث جلل شنيع اغمقت به محاسن مصر الفريدة وتخلخلت قواعد مملكتها العتيدة ، فأصبحت مقهورة بعد أن كانت هي القاهرة .

« ولقد كادت تعم الرزية ، وتصير القضية أندلسية ، لولا عناية من ايده الله بالنصر والتمكين .. وهو الملك الاعظم والسلطان الأفخم غياث المسلمين ملاذ المؤمنين . رقاب الأمم . ملجأ العرب والعجم .!!

ولقد عكس الجبرتي الاحساس العام الذي ساد الأمة مع النبأ الأول الذي أعلن وصول الأساطيل .. الا وهو بعث ذكريات المواجهة التاريخية بين

الشرق والصليبيين لذلك نراه في الصفحات الأولى يتحدث عن « الفرنج » وستتطور ملاحظاته بعد ذلك فيصبح الفرنسيون فرنسيين .. والانجليز انجليزاً .. ولكن في الصدمة الأولى .. كان الاحساس العام او النذير هو : جاء الفرنجة !.

ومصرطوال سنوات الحملة الفرنسية، كانت في نظر الجبرتي «في الأسر».. فذلك هو اللفظ الذي عبر به عن وضع مصر وشعبها ... ولم يتغير هذا الموقف بعد تجربة الحكم الفرنسي ، بالعكس كانت الفرحة بالجلاء والحمد لله والمنه بزوال حكم الفرنسيس(*) ولكن « لويس عوض » يزعم أن الرأي الذي يستخلص من تاريخ الجبرتي هو :

« ١ — ان الحكم الفرنسي رغم شروره الكثيرة وضرورة رفضه كان في كثير من وجوهه أفضل للمصريين من الحكم المملوكي ومن الارهاب التركي(**)».

« ٢ — انه بوجه عام كان يبغض الثورات التي تحكمها الغوغاء المهيجون المحترفون ويشيع فيها اعمال العنف وسفك الدماء والسلب والنهب حتي ولو كانت باسم الوطنية أو الجهاد الديني .

« ٣ — انه كما كان يقظاً الى أعمال الارهاب والاستغلال التي قام بها

(*) وفي مقدمة كتابه « مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس » الذي الفه بالاشتراك مع الشيخ حسن العطار يقول: حمداً لمن جعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا . وجعل الدولة العثمانية ، والمملكة الخاقانية ، بهجة الدين والدنيا ، وصلاة وسلاماً على من نصر بالرعب والصبا ، وأشاد هذا الدين القويم بشبا السمهرية والظبا ، وعلى آله وأصحابه الداحضين لشوكة كل قامع متمرد ، الفائزين ببذل نفيس نفوسهم بكل نصر بديع متجدد .

(**) في الطبعة السابقة كان نص العبارة « ومن الارهاب العربي » (٤٥) ولكن في الطبعة الصادرة عن دار الهلال جرى تنقيحها على ما يبدو فتحول الارهاب « العربي » الى ارهاب « تركي » (٤٦) . والطبعة الأولى هي الأصح لأن السطور التي تتلوها كلها تتحدث عن ارهاب (البدو) .. وتنكيلهم بالفلاحين المصريين ولكن وقع التغيير في الطبعة الثانية لمجاملة القراء !.. وهذا يعطينا فكرة عن مدى احترام هذا الكاتب للحقائق ولآرائه !

الفرنسيون كان أيضاً يقظاً الى اجتهادهم في اقامة العدالة تشريعاً وتنفيذاً بطريقة لم يألفها المجتمع المصري في عهد المماليك . ولعل هذا الجانب في الجبرتي من أوضح جوانبه .

٤ ـ من صفحات الجبرتي نستطيع ان نستخلص موقف الرأي العام أو شرائح كبيرة منه في نظام الحكم الذي اقامه الفرنسيون . ولا سيما التنظيمات السياسية والإدارية والقضائية .

٥ ـ من صفحات الجبرتي نستطيع ان نستخلص ما استحدثه الفرنسيون في نظام الحكم بمصر مدى السلطة التي كان يتمتع بها الوزراء والحكام المصريون وما هو صوري منها ، وما هو حقيقي ومدى مسئوليات السلطات العسكرية الفرنسية أمام المجالس النيابية المصرية التي انشأوها » (٤٧) .

ويعقب هذا العرض ملحوظة أخرى تقرر عاملاً من عوامل تفكير الجبرتي ، وبالتالي «موقف الرأي العام او شرائح كبيرة منه» .. وهو موقف الجبرتي.. وبالتالي.. الخ.. من المفاضلة بين الطبقات الحاكمة.. وبالطبع يفوز الفرنسيون بالافضلية عند « الجبرتي » والرأي العام .. الخ ..

« فهو يذكر (أي الجبرتي) ان الكشاف او السناجق أي حكام الاقاليم كانوا أشد ظلماً من سادتهم الجدد » .

ويقول ان الجبرتي شاهد حضارة الغرب والفلسفات السياسية والاجتماعية التي كانت تتصارع في عصره شاهدها : « معلنة في بيانات الحملة الفرنسية او مطبقة في التنظيمات السياسية والاجتماعية التي استحدثتها هذه الحملة » .

وينسب اليه أنـــه وقف موقف « الوزير المسئول لأنه اشترك في عضوية الديوان الذي انشأه عبد الله منو » .

ولا شك ان هـذه « الوزارة » تهمة ينفيها الجبرتي ، ووزر لا يدعيه ، فالمرء يكون وزيراً اذا ما سموه كذلك ، او اذا ما تصرف كوزير او عومل

كوزير .. وما من شيء من ذلك قــد وقع « للجبرتي » ، بل ان تاريخه الذي يعترف الجميع بأنه المصدر الوحيد لمعرفة تقدير النخبة المصرية للديوان ، قــد عكس ـ كما رأينا ـ صورة أبعد ما تكون عن الوزارة ، و ُتعفى أعضاءه من أي شبهة مسئولية . وليس في تاريخ الجبرتي كله ملاحظة واحدة عن رأي قاله الجبرتي في اجتماع للديوان، او موقف، فضلاً عن قرار أصدره كوزير !! بل ان الطريقة التي كتب بها عن الديوان، وأرخ فيها عضويته للديوان تركت المؤرخين حائرين فترة طويلة حول خلو تاريخ الجبرتي من أية اشارة الى تعيينه في الديوان ، بينما المصادر الفرنسية تشير الى ذلك ! الى ان اكتشف الأسلوب الغريب الذي سجل به الجبرتي عضويته للديوان .. إذ انه عدد اسماء المشايخ اعضاء الديوان ووصل الى الشيخ مصطفى الصاوي فأضاف بعده « وكاتبه ». وفهمت طويلاً على انــه يقصد كاتب الشيخ مصطفى الصاوي الى ان اكتشف بعد ذلك انه يقصد نفسه ، أي كاتب هذا التاريخ !.. هل كان « الجبرتي » عليك أن يعبر بأبلغ من هذه الصورة عن تقديره لهذا المنصب الوهمي !

على أية حال أن « الجبرتي » لم يترك فرصة لسوء فهم نظرة المصريين للسلطة الاسلامية (اسما بالطبع فلم تكن اسلامية السلوك) كما ان البديل كما قلنا لم يكن عودة السلطة العثمانية التي ـ كما بينا ـ لم تكن موجودة بــأي حال قبل الحملة الفرنسية ، ولم يكن هناك من يعتقد بإمكانية عودتها لحكم مصر حكماً فعلياً . بل كان الاحتمال الوارد هو عودة المماليك مع نمو الوجود المدني المصري الى جانبهم .

الجبرتي لم يترك مجالاً للشك في طبيعة اختيار المصريين ـ لو فرض ـ بين استمرار السلطة الفرنسية ، او عودة السلطة الاسلامية سواء أكانت ممثلة في المماليك او حتى في شكل فتح عثماني جديد ..

موقف الجبرتي هو :

١ ـ الاحتلال الفرنسي هو كسوف قومي وحضاري لمصر « فمــن اعظم ذلــك حصول الخسوف الكلي في منتصف شهر ذي الحجة ختام سنة اثنتي

عشرة (١٢١٢ - ١٧٩٨) بطالع الجوزاء المنسوب اليه اقليم مصر وحضر طائفة الفرنسيس أثر ذلك في أوائل السنة التالية »(*) .

فالاحتلال الفرنسي كان يمثل خسوفاً كلياً لهذا الجانب من الكون المنسوب اليه اقليم مصر ..

ومن الطبيعي ان يكون المصريون وفي مقدمتهم الجبرتي ضد الاحتلال الفرنسي ، يتعجلون زواله بين لحظة وأخرى ، ولا يضنون بأي تضحية في سبيل التعجيل بهذا الزوال . لتعود شمسهم الى الاشراق ..

٢ - وهم يعرفون سيئات الحكم العثماني ولا يتوقعون منه إلا كل شر ومفاسد ومظالم . الجبرتي يسجل في وفيات (١١٦٨ - ١٧٥٤) أي قبل الحملة بنصف قرن تقريباً . يسجل وفاة : « آخر سلاطين بني عثمان في حسن السيرة والشهامة والحرمة واستقامة الاحوال والمآثر الحسنة » (٤٩) .

من نصف قرن مات آخر السلاطين في حسن السيرة والشهامة .. الخ .. وعندما أرسل الديوان رسولاً الى الاستانة او اسطمبول يطلب النجدة لمواجهة الغزو الفرنسي .. « اتريق » (سخر) الجبرتي بأنهم بعثوه يأتي بالترياق من العراق .. وعندما أصدر نابليون بياناته لم يعجب الجبرتي منها إلا قوله عن الدولة العليه « المفعمة جهالة » !.

والمصريون هم الذين هتفوا « يا رب يا متجلي .. إهلك العثمالي » .. لكن هذا الوعي .. لا يفسد عليهم الرؤيا السليمة .. بل ان المصريين لا يترددون في قبول هذا الثمن الفادح .. أعني دخول عسكر العثمالي مصر ، اذا كان ذلك هو ثمن تحقيق جلاء الفرنسيين .. لأنهم يدركون ان استمرار الاحتلال الفرنسي يعني زوال الوجود القومي .. بينما حتى عودة العثمانيين تعني استمرار الوجود « التعس » ولكن مع إمكانية تغييره في نفس الوقت .

(*) الهجرية .

هذه القضية ما زالت غـــير واضحة في حوار العرب المعاصرين .. أيهما أفضل ان نبقى عرباً متخلفين .. أم نزول كعرب مقابل تحقيق بعض مظاهر التقدم والأمن تحت حكم عصري أجنبي ؟!

لكن يجب ان نفهم معنى « العثماني » .. انهـا لم تكن اكثر من تطلع الى قوة عسكرية تزيح الفرنسيين ، ولكن ما من أحد في مصر ، كان على استعداد لقبول ، فضلاً عن ان يتطلع الى « حكم عثمالي » فهـذه قضية كان المصريون قد حددوا موقفهم منها منذ زمن بعيد .. بـــل وحسمها التاريخ ، منذ ان حالت حروب الدولة ضد الروسيا ، وتخلفها الداخلي ، دون نجاحها في فرض سلطتها على الأطراف النائية .. وخاصة مصر .. «فعودة العثمالي» كانت ترمز الى جلاء الفرنسيس.. ومن هنا كانت أمتي صادقة الحس واعية بالمغزى التاريخي لهذا الحدث ، عندما عبرت عن فرحتها :

« فلمـــا كان بعد العشاء دخل ذلك الأغا مصر في موكب فحصل للناس ضجة عظيمة وازدحموا على مشاهدتهم له والفرجة عليه . وارتفعت أصواتهم وعــلا ضجيجهم وركبوا على مصاطب الدكاكين والسقائف وانطلقت النساء بالزغاريت من الطيقان . واختلفت آراؤهم في ذلك القادم ولم يعلموا ما هو . فدخل من باب النصر وشق القاهرة ولم يزل سائراً حتى وصل الى بيت حسن أغا بسويقة اللالا فنزل هناك. فلما استقر به الجلوس. ازدحم الناس والاعيان للسلام عليه ولمشاهدته بالمشاعل والفوانيس . فلما كان صبح تلك الليلة عمـــل ديوانـــاً وجمع العلماء والوجاقلية واعيان الناس وكبار النصارى من الاقباط والشوام فلما تكاملوا أبرز لهم فرماناً من الوزير فقرىء عليهم بالمجلس فـدلّ مضمونه على انـــه اغات الجمارك أي المكوس بمصر وبولاق ومصر القديمة . وفيه التحكير على جميع الواردات من أصناف الاقوات فيشتريها بالثمن الذي يسعره هو بمعرفة المحتسب ويودعه في المخازن وأبرز فرماناً آخر فقرىء بالمجلس مضمونه ان الوزير أقـــام مصطفى باشا الذي كان أسر بأبي قير وكيلاً عنه

وقائمقام بمصر الى حين حضوره . وان السيد احمد المحروقي كبير التجار ملزم ومقيد بتحصيل الثلاثة آلاف كيس المعينة لترحيل الفرنساوية وانفض المجلس على ذلك وأخذ السيد احمد المحروقي في تحصيل ذلك القدر من الناس وفرضوه على التجار وأهل الاسواق والحرف وشرعوا في تحكير الاقوات فغلت أسعارها وضاقت مؤن الناس ودهى الناس من أول احكامهم بهاتين الداهيتين . وكان أول قادم منهم امير المكوسات ومحكر الاقوات وأول مطلوبهم مصادرة الناس وأخذ المال منهم وتغريمهم . واجتهد السيد احمد المحروقي في توزيع ذلك وجمعه في ايام قليلة فكان كل من توجه عليه مقدار من ذلك اجتهد في تحصيله وأخرجه عن طيب قلب وانشراح خاطر وبادر بالدفع من غير تأخير لعلمه ان ذلك لترحيل الفرنساوية ويقول سنة مباركة ويوم سعيد بذهاب الكلاب الكفرة كل ذلك بمشاهدة الفرنسيس وسمعهم وهم يحقدون ذلك عليهم » (٥٠) .

لا نظن ان الجبرتي قد ترك عذراً لمن يسيء الفهم :

١ ـ ظهور الاغا التركي في شوارع القاهرة اثار موجة عارمة من الفرح وأطلق زغاريد النساء .. لأن مفهوم هذا الحضور هو زوال الفرنسيين .

٢ ـ الدولة العثمانية تستفتح وجودها بطلب المال .. وأول « قادم منهم امير المكوسات » هـذه هي الدولة العثمانية ، ومع ذلك فالمصريون الذين اشتهروا بأنهم لا يدفعون إلا بعد الضرب والتفتيش . سددوا هـذا المطلوب خلال ايام .. بل وكانوا يدفعون ـ ربما لأول وآخر مرة في تاريخ المصريين ـ « بسرور وطيب نفس » !.. لمـاذا ؟.. ليس حباً في الدولة العثمانية ولا استجابة للحق الإلهي .. **« بل لعلمهم ان ذلك لترحيل الفرنساوية »** .. ومن هنا فهي : **« سنة مباركة ويوم سعيد »** ..

فرحيل الفرنساوية هو المقصود.. وفي سبيله كل شيء يهون. حتى مظاهرات الأطفال التي يقودها فقهاء المكاتب كانت تحرص عندما تهتف : « الله ينصر

السلطان».. انتشفع ذلك بمصرع آخر: «ويهلك فرط الرمان» رمز الاحتلال.

والجبرتي ينتقد هذه الانفعالية في سلوك المصريين باعتبار ما أعقبته من نتائج. إذ لم يتم جلاء الفرنسيين ـ كما هو معروف بسبب نقض الانجليز لاتفاقية العريش ـ فلم تثمر هذه الشماتة **المعلنة** ، إلا « الحقد والعداوة التي تأسست في قلوب الفرنسيس وأوجبت ما حصل بعد ذلك من وقوع العذاب البئيس » .. ورأيه «وقد قيل قاتل بجد وإلا فدع.. وقال الشعبي من جملة كلامه.. وصادفنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء ولا فجرة اقوياء » (٥١) .

وموقف الجبرتي هنا شبيه بالتعليقات التي انطلقت بعد هزيمة ١٩٦٧ تستنكر سلوكنا الاعلامي قبل الهزيمة .

بل هو موقف كل المنتقدين لأسلوبنا في العمل .. فهم يأخذون علينا عدم الجدية ، وأن صياحنا أعلى باستمرار من افعالنا . وإن عداوتنا المعلنة اكبر من قدرتنا على تحويلها الى رد فعل.. واننا أعجل الأمم الى الفتنة وأعجزها عنها..

ولنأخذ مثالاً نتفهم به وجهة نظر الجبرتي والمصريين في عودة العثمالي .. لنرى كذب الادعاء بأن الرأي العام كان منقسماً بين عملاء تركيا وعملاء فرنسا !.. فمها تكن الاخطاء الحقيقية او المفترضة للحكم المصري والأردني في غزة والضفة الغربية ، فلا شك في الفرحة الحقيقية التي اجتاحت القطاع في عام ١٩٥٧ عند عودة الراية المصرية ، وظهور الموظفين المدنيين .. حتى ولو كان أول قادم منهم هو امير المكوسات ، ولا شك في انها ستكون فرحة حقيقية وصادقة اذا ما عادت الراية المصرية الى غزة من جديد ، وظهر **جنود البادية** في نابلس والقدس .. فرغم كل ما تعنيه كلمة « جنود البادية » للفلسطيني .. إلا انه يدرك تماماً أن عودتهم تعني استمراره عربياً ، بصرف النظر عن كل القضايا الأخرى ، بينما استمرار الاحتلال الاسرائيلي يعني زوال الأرض والوطن والكيان والقومية والحضارة والتاريخ والمستقبل وفناء الانسان العربي ذاته .. فهل يمكن أن يأتي مؤرخ بعد مائة عام ويقول ان

الفرحين بعودة الوجود العربي الى القطاع والضفة ، كانوا عملاء الاستعمار العربي؟؟!

وهل يحترم التاريخ مؤرخاً يأتي بعد مائة وسبعين عاماً فيقتطع من تاريخنا المعاصر خبراً من صحيفة عن فرار عــدد من الفدائيين من الاردن ولجوئهم الى اسرائيل ليبنى على ذلك نظرية تزعم وجود تيار او رأي عام بــين المثقفين الفدائيين كان يفضل الحكم الاسرائيلي على الحكم العربي !!

أما رأي الجبرتي والمصريين في الطبقات الحاكمة فـإن أصل العبارة التي استنتج منها «لويس عوض» ، او أرادنا ان نفهم منها ، ان الجبرتي والمصريين كانوا يفضلون الفرنسيين هي :

« ورجعوا اليهم بجمع من عسكرهم (أي الفرنسيين) ومعهم الآلات من المدافع فاحتاطوا بالبلدة وضربوا عليهم مدفعــاً ارتجوا له ، ثم هجموا عليهم ودخلوا اليهم وبأيديهم السيوف المسلولة يقدمهم طبلهم. وطلبوا خدمة الضريح الذين يقال لهم اولاد الخادم وهم ملتزموا البلدة وأكابرها .. ومتهمون بكثرة الاموال من قــديم الزمان . وكانوا قبل ذلك بنحو ثلاثة أشهر قبضوا عليهم باغراء القبط وأخــذوا منهم خمسة عشر الف ريال فرانسه . بحجة مسالمتهم للعرب فلما وصلوا الى دورهم طلبوهم فلم يمكنهم التغيب خوفاً على نهب الدور وغير ذلك فظهروا لهم فأخذوهم الى خارج البلد وقيدوهم وأقاموا نحو خمسة أيام خارجها يأخذون في كل يوم ستمائة ريال سوى الاغنام والكلف. ثم ارتحلوا وأخــذوا المذكورين صحبتهم الى منوف وحبسوهم أياماً ثم نقلوهم الى الجيزة ايام الحرابة في مصر . فلما انقضت تلك الايام وسرحوا في البلاد نزلت طائفة الى طنتداء وهم بصحبتهم وقرروا عليهم أحدا وخمسين الفـريال فرانسه وعلى أهل البلدة كذلك بل أزيد وأقاموا حول البلد محافظين عليهم وأطلقوا بعضهم وحجزوا المسمى بمصطفى الخادم وطالبوه بالمــال وفي كل وقت ينوعون عليه العقاب (الحديث لا يزال عن الفرنسيين) والعذاب والضرب حتى على كفوف يديــه ورجليه ويربطونه في الشمس في قوة الحر والوقت مصيف وهو رجل

جسيم كبير الكرش فخرجت له نفاخات في جسده (*) واستمروا على ذلك الى انقضاء العام حتى اخذوا عساكر المقام (مقام السيد البدوي) وكانت من ذهب خالص زنتها نحو خمسة آلاف مثقال . وأما المحلة الكبرى فإنهم رجعوا عليها وقرروا عليها نيفاً ومائة ألف ريال فرانسه . وأخذوا في تحصيلها وتوزيعها وهجموا دورها وتتبع المياسير من أهلها . كل ذلك مع استمرار طلب الكلف الشاقة في كل يوم منها ومن طنتداء والتعنت عليهم .. وتسلط طوائف الكشوفية التابعين لهم الذين هم أقبح في الظلم من الفرنسيس بل ومن العرب فإنهم معظم البلاء فإنهم هم الذين يعرفون دسائس أهل البلاد ويشيعون احوالهم ويتجسسون على عوراتهم ويغرون بهم. واستمروا على ذلك أيضاً . ولو أن اهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » (٥٢) .

هذا النص ، الوثيقة ، التي تدين الحكم الفرنسي ، بممارسة أبشع أساليب التنكيل والتعذيب البربرية ، هل يمكن أن يكون هو ذاته الوثيقة التي تثبت ان المصريين يفضلون حكم الفرنسيين ؟! أي مؤرخ يحترم نفسه ذلك الذي يجتزىء من هذا النص سطرين ابتداء من كلمة « وتسلط » .. الى « ويغرون بهم » .. فيغفل كل ما جاء بالنص .. ويستخلص من السطرين ان الجبرتي كان يفضل الفرنسيين على الكشاف .. مع ان الجبرتي كان حريصاً ، وكأنه كان يعلم بسوء فهم البعض لكلامه ، فأوضح سبب غضبه على الكشاف؛ وهو «علمهم بدسائس أهل البلد » . وأدبيات جميع الأمم ، حافلة بجمل مماثلة ، تدور كلها حول فكرة ان «اعوان الظالم شر من الظالم». ومعروف ان الحاكم المستبد الظالم والأجنبي بالذات يفضل ان يقوم له بالأعمال الشديدة القذارة والبشاعة ، عملاء من البلد ، بل وكثيراً ما يقوم هو بانصاف المظلومين اذا ما اشتكوا اليه ..

(*) أي تقدم او تطور او تحديث رآه المصريون !!

وهذه اللعبة كان الانجليز يمارسونها على نطاق واسع في مستعمراتهم .. وفي مصر بالذات حيث كان وصول المفتش الانجليزي يعني تحقيق العدل ! ولكن حتى هذا الفهم لم يترك الجبرتي مكاناً له . فالفرنسيون لم ينصفوا ولا تميزوا .. بل ان سب أعوانهم ومساعديهم مترتب على معاونتهم للفرنسيين في الظلم . فأصل إدانته لهم، هو خدمتهم للفرنسيين .. فهل تبلغ الغفلة بمؤرخ أن يفضل الأصل على الظل ! يدين الجـــلاد والجاسوس ويعفى الذي باسمه وبأمره وبتشريعه وأهم من ذلك بحماية سيفه يتم الاعدام واليه ترفع التقارير ... ولو انه في الحالة التي نناقشها كان الفرنسيون هم القانون والجلاد ..

وما من سجن عربي في بلد مستقل حديثـــاً .. إلا وفيه سجين تنتابه حالات يأس تجعله يتمنى عودة أيام الاستعمار .. فهل يجوز ان يستنتج مؤرخ من ذلك قانوناً بأن « الوطنيين كانوا يفضلون الاستعمار ويتمنون عودته »!

نفس الشيء بالنسبة لعبارة الجبرتي : « وايـــذاء عسكر العثمانلي للرعية وخطفهم مـــا يجدونه معهم حتى تمنوا زوالهم ورجوع الفرنسيس على حالتهـــا التي كانوا عليها » .

وهل من شك حول موقف الشيخ السادات من الوجود الفرنسي ، فهو الذي قاد المقاومة ، وتبـــادل والفرنسيون كراهة عميقة معلنة .. وناله من اضطهادهم ما هو معروف . ولكن هل كان السادات يقاوم الفرنسيين من فرط امتنانه وتحمسه للعثمانية ؟!

من يستطيع أن يكتب عريضة اتهـــام ضد الدولة العثمانية وجيشها مثل التي كتبها السادات ؟! ومتى ؟ في عنفوان ثورة القاهرة الثانية .. حيث كان للسادات دور في قيادتها عرفه الفرنسيون ، فأنزلوا به قصاصاً وحشياً رهيباً، عبر عن الحقد الذي أفقدهم حتى أبسط مظاهر التمدين . إذ القوا القبض على زوجته وكانوا يضربون الشيخ « ابو الانوار السادات » « أمامهـــا كل يوم .. وهي تبكي ! » ... هو السادات الذي يكتب الى عثمان كتخدا الدولة :

« الزامكم الكبير والصغير والغني والفقير اطعـــام عسكركم الذي أوقع بالمؤمنين الذل والمضرات وبلغ في النهب والفساد غاية الغايات فكان جهادهم في أماكن الموبقات والملاهي حتى نزل بالمسلمين أعظم المصائب والدواهي ، فاستحكم الدمـار والخراب . ومنعت الأقوات وانقطعت الأسباب . فبذلك كان عسكركم مخذولاً وبهم عم الحريق كل بيت كان بالخير مشمولاً . كيف لا وأكابركم اضمرت السوء للمرتزقة في تضييق معاشهم وأخذ مرتباتهم واتلاف ما بأيديهم من ارزاقهم وتعلقاتهم وقد اخفتم أهل البلد بعد أمنها [٥٣] » .

والجبرتي لا يكف عن انتقاد « سنن عساكرهم وطرائقهم القبيحة » وينتقد جهلهم العسكري ،وإهمالهم احتلال المواقع الاستراتيجية بعد اتفاقية العريش، مما اوقع بهم الهزيمة عندما نقضت الاتفاقية :

« فلم يطلع اليهـــا احد من العثمانيين ولم يلتفتوا لتحصينها ولا ربطها بالعساكر والجبخانة . وأعرضوا عن المحـــاذرة وركبهم الغرور لأجل نفاد المقدور [٥٤] » .

وليس أمرّ من نقد الجبرتي للمماليك ، بل ان الصورة البغيضة المتاحة عن مراد بيك ، هي من صنع الجبرتي وحده .. وأي ملامح يمكن أن تبقى لمراد بعد هـــذه الأوصاف : « وكان يغلب على طبعه الخوف والجبن مع التهور والطيش والتورط في الاقدام مع عدم الشجاعة . ولم يعهد عليه أنه انتصر في حرب باشره أبداً على ما فيه من الادعاء والغرور والكبر والخيلاء والصلف والظلم والجور كما قال القائل : أسد علي وفي الحروب نعامة .. »

وحتى عندما يعمر مراد بيك مسجد « عمرو بن العاص » يعلق الجبرتي بقسوة على مصدر هذا المال : « فيا ليتها لم تزن ولم تتصدق » !

« وبالجملة فمناقب المترجم لا تحصى وأوصافه لا تستقصى . وهو كان من أعظم الأسباب في خراب الاقليم المصري بما تجدد منه ومن مماليكه واتباعه

من الجور والتهور ومسامحته لهم فلعل الهم يزول بزواله (٥٥) » .

والجبرتي يؤرخ سنواته كالآتي : « ولم يقع بها شيء من الحوادث الخارجية سوى جور الأمراء وتتابع مظالمهم (٥٦) » .

ولكن إذا ما تقاتل المماليك مع الفرنسيين..فلا جدال أين يقف الجبرتي.. بل ان نقمته على المماليك تتزايد بقدر عجزهم عن مقاومة الفرنسيين.. عجزهم عن حماية مصر من الغزو الفرنسي ..

أما المماليك الذين يقاتلون ويستشهدون فأولئك لا يضن عليهم الجبرتي ولا معاصروه بالثناء . فالشيخ خليل المنير ينشىء قصيدة في مدح ايوب بيك الدفتردار يثبتها الجبرتي في تاريخه : « لم يبرَ منهم سوى أيوب من ألم .. » .

ويؤرخ الجبرتي للملوك الذي استشهد دفاعاً عن مصر : « ولما حصل ذلك وحضروا الى برانبابه عدى قبل بيومين وصار يقول انا بعت نفسي في سبيل الله . فلما التقى الجمعان لبس سلاحه بعد ما توضأ وصلى ركعتين وركب في مماليكه وقال اللهم اني نويت الجهاد في سبيلك . واقتحم مصاف الفرنساوية والقى نفسه في نارهم واستشهد في ذلك اليوم . وهي منقبة اختص بها دون اقرانه بل ودون غيرهم من جميع أهل مصر » (٥٧) بل ويثني على قتال « حسن بيك الجداوي » في ثورة القاهرة الثانية ، ويطمع له في المغفرة (٥٨) .

والرافعي مثل الجبرتي .. إذا ما ساءته هزيمة المماليك انهال عليهم سباً وتجريحاً وجردهم من كل صفة ايجابية ، فإذا ما أبدوا شجاعة أو صمدوا في موقعة ، طرب وأثنى عليهم :

« ولا غرو فقد كانوا احلاس الخيل وابناء الطعن والضرب . ولم ينقذ نابليون إلا وصول المدد من الجنرال لكلرك ، فاضطر المماليك الى

الانسحاب [٥٩] » . ولو ان الجبرتي يفسر افلات نابليون بسبب آخر وهو « أشرف الفرنسيون على الهزيمة لكونهم على الخيل واذا بالخبر وصل الى ابراهيم بيك بأن العرب مالوا على الحملة يقصدون نهبها فعند ذلك فر بمن معه على أثره . وترك قتـــال الفرنسيس ولحقـوا بالعرب فأجلوهم عـن متاعهم [*] ».

(*) وليس لابراهيم بك ما يأسف عليه ، فحتى لو كان قد أطلع على الغيب وعرف اي دور سيلعبه نابليون في تاريخ العالم لما كان له ان يفضل هزيمته وقتله على انقاذ المتاع ، لأنه لو فعل لما اهتم التاريخ كثيراً بانتصاره على نابليون في الصالحية . فقد كان على نابليون لـكي يصبح نابليون التاريخ ، ان ينجو أولاً من الصالحية بفضل غباء وانانية ابراهيم بك !

المشايخ والتكنولوجيا

أما عن « التكنولوجيا » والزعم بان « النخبة » عرفت « لأول مرة » ، من الفرنسيين ، بالعلوم الوضعية والتكنولوجيا وكيف استجابوا لهـا بعد أن كانوا لا يعرفون إلا الروحانيات ..

فقد أشرنا في غير هذا الموضع الى سخافة القول بأن حضارتنا قد مرت بمرحلة لم تعرف فيها الا الروحانيات ! ورأينا كيف ولد الجبرتي وعاش في بيت يأتي اليه الطلبة من أوروبا يتعلمون الكيمياء والميكانيكا ! بل وكيف كان الجبرتي فخوراً بمعرفة أبيه العلمية الى حد أنه ينسب تطور الصناعة في أوروبا الى معرفة أبيه التي نقلها تلاميذه الأوروبيون ! وحولوا معرفة الشيخ الجبرتي من القوة الى الفعل .. فكانت الثورة الصناعية في أوروبا !

كيف إذن ننسب مثل هـــذا الفخور ، الى حضارة غريبة عن العلوم الوضعية لا تعرف من العلم إلا الروحانيات !

رجـالات الاسلام ليسوا بحاجـة الى من يعلمهم ان كون الدنيا معبراً للآخرة .. لا يعني عدم الاهتمام بها.. فمنذ صدر الاسلام ، والمسلمون يدعون الى العمل لدنياهم « كأنهم يعيشون أبداً » .. ودينهم يأمرهم بأن لا ينسوا نصيبهم من الدنيا .. ويعرفون انها « خضراء حلوة » وان المال والبنون زينة

الحياة الدنيا.. وان « الخير لم يذكر في القرآن الا وهو يعني المال » ! ولكن عندما يهوي ليل التخلف وتضيع الدنيا من يد الناس ، فمن الذي يلوم الحضارة ذاتها .. لأن ابناءها العاجزين عن كسب الدنيا ، حاولوا خداع أنفسهم بالحديث عن الآخرة ؟! ولو أن سلوكهم في مجموعه لم يعكس إلا شدة التشبث بهذه « الفانية » وعلى نحو يفوق حرص اسلافهم الذين عمروا الدنيا ، لأنهم كانوا يؤمنون ان تعمير هذه الأرض هو تحقيق لارادته سبحانه وتعالى لكي تأخذ الأرض زينتها ..

ومعجزة التراث العربي ، انه باتصاله واستمراره اتاح دائماً ، حتى في أحلك عصور التخلف ، الفرصة للذين يعودون اليه لكي يتعرفوا على الموقف الأصيل من القشور الزائفة ، ولذلك يذهل المؤرخ عندما يلمس وعياً متفوقاً لأحد الشيوخ أو العلماء ، أو حتى النخبة ، متفوقاً عن المستوى العام السائد في عصره ..

وتفسير هذا التناقض بسيط للغاية ، ذلك ان عقلية الشيوخ هي امتداد للفكر الاسلامي ، الذي انفصل عن حركة التاريخ .. واحتفظ بكيانه المستقل .. بينما تخلف الجماهير هو الواقع المادي وهو ثمرة عوامل مادية اقتصادية اجتماعية وجغرافية .. الخ ، لا سبيل لتغييرها بمجرد توفر جانب من المعرفة الصحيحة عند نخبة .. بل حتى هذه النخبة نراها ترزح تحت تخلف الواقع في سلوكها الاجتماعي، ومواجهتها للكون، رغم علمية تفكيرها، فالجبرتي مثلاً يرفض الخرافات ، ويتفوق على الفرنسيين في فهم مغزى الاهتمام بالبدع والموالد عندما يعلق على حرص الفرنسيين على احياء موالد الأولياء فيقول : « ورخص الفرنساوية ذلك للناس لما رأوا فيه من الخروج عن الشرائع واجتماع النساء واتباع الشهوات والتلاهي وفعل المحرمات» فهو يفرق بين التدين الحقيقي الذي يحاربه الاستعمار ، وبين الافيون الذي يروجه المستعمر . بل يتفوق « الجبرتي » في علميته ، على « نابليون » الذي يلجأ

رغم **ثقافته** ، ورغم كل القاعدة المادية التي يقوم عليها فكر الثورة الفرنسية، يلجأ الى الدجل والخرافات لتدعيم حكمه في مصر ، ولا غرابة فالموقف السياسي لا يحدده الوعي.. بل المصالح والموقع من حركة التاريخ .. والجبرتي كممثل لحركة وطنية معادية للاستعمار ، كان يقف على الجانب الأكثر تقدماً من حركة التاريخ .

فعندما أصدر نابليون منشوره الذي يقول فيه : « الله قدر في الأزل هلاك اعداء الاسلام وتكسير الصلبان على يدي » مثيراً بذلك احقاداً غير موجودة إلا في مخيلة الصليبية الغربية ! ثم محاولاً اثبات ان غزوه لمصر واستقراره بها هو « قضاء وقدر » .. على أساس الفهم الغربي « للقضاء والقدر » عند المسلمين .. ذلك الفهم الذي روجه الجهل والتعصب اللذان يتميز بهما العقل الغربي ، في كل ما يتعلق بفهم الحضارات المخالفة .

أما كيف فهمت العقلية الشرقية المسلمة هذا المنشور الدعائي .. فهذه هي عبارات الجبرتي : « وقد اوردت ذلك (*) وان كان فيه بعض طول للاطلاع على ما فيه من التمويهات على العقول والتسلق على دعوى الخواص من البشر بفاسد التخيلات التي تنادي على بطلانها بديهية العقل فضلاً عن النظر » .

أيها أكثر علمية ، وأقدر على أن يقود مصر في طريق العقلانية .. الذي استخدم المطبعة في الزعم بأن الله « قدر في الأزل ان أجيء من المغرب الى أرض مصر .. ولا يشك العاقل ان هذا كله بتقدير الله وارادته وقضائه .. واعلموا أيضاً امتكم أن القرآن العظيم صرح في آيات كثيرة بوقوع الذي حصل . وأشار في آيات أخرى الى أمور تقع في المستقبل (**) » « ولكن

(*) يقصد نص المنشور .

(**) منشور نابليون من النص العربي .

يأتي وقت يرى فيه جميع الناس أنني أهتدي بأوامر من السماء (*) » ..

ما من حاكم شرقي كان يستطيع ادعاء ذلك .. ولكن ايهما اكثر « علمانية » الدجال « نابليون » .. ام الشيخ الأزهري ، الذي يرفض هذا الزعم ، ويعتذر عن نشره ، ويبرر هذا النشر بأنه اراد اطلاع قرائه على ما فيه « من التمويهات على العقول وفاسد التخيلات التي تنادي على بطلانها بديهية العقل فضلاً عن النظر » !!

كان الجبرتي على صلة بالعلوم الوضعية والدينية في تراثنا ، ولم يكن يجهل ان العلم لا يقوم على الروحانيات وحدها ، بل وما كان بالذي يحس بعقدة النقص ، وهو يتجول في بيت « حسن كاشف » حيث مكتبة الغزاة لأنه في هذه المكتبة وجد « كثيراً من الكتب الاسلامية مترجمة بلغتهم ورأيت عندهم كتاب الشفاء والبردة للبوصيري ويحفظون جملة من أبياتها وترجموها بلغتهم » . ولا كان تسجيله لنظام المكتبة والاستعارة منها دليل انبهار بمن يرى الصاروخ لأول مرة ، وآخر معلوماته عن وسائل المواصلات ، كانت الافيال ! بالعكس فقبل الحملة بنصف قرن يسجل الجبرتي وفاة أحد التجار فيصف مكتبته :

« ومات الخواجا الحاج احمد بن محمد الشرايبي ١١٦٨ (١٧٥٤ ـ ٥٥) وكان من أعيان المشتهرين كأسلافه . وبيتهم المشهور بالازبكية بيت المجد والفخر والعز ومماليكهم واولاد مماليكهم من أعيان مصر جربجيه وامراء ومنهم يوسف بك الشرايبي . وكانوا غاية من الغنى والرفاهية والنظام ومكارم الاخلاق والاحسان للخاص والعام ويتردد الى منزلهم العلماء والفضلاء ومجالسهم مشحونة بكتب العلم النفيسة للاعارة والتغيير وانتفاع الطلبة ولا يكتبون عليها وقفية ولا يدخلونها في مواريثهم ويرغبون فيها ويشترونها

(*) منشور نابليون من النص الفرنسي .

بأغلى ثمن ويضعونها على الرفوف والخزائن والخورنقات وفي مجالسهم جميعاً . فكل من دخل الى بيتهم من اهل العلم الى أي مكان يقصد الاعـــارة او المراجعة وجد بغيته ومطلوبه في أي علم كان من العلوم ، ولو لم يكن الطالب معروفاً . ولا يمنعون من يأخذ الكتاب بتمامه فإن رده في مكانه رده وان لم يرده واختص به أو باعه لا يسأل عنه . وربما بيع الكتاب عليهم واشتروه مراراً ويعتذرون عن الجاني بضرورة الاحتياج (٦٠) » .

ووالد الجبرتي نفسه ضاعت مكتبته من كثرة المستعيرين. وتاريخه حافل باسمـاء الذين كانوا يعيرون كتبهم ويشترون الكتب أو ينسخونهـا ويوقفونها على الطلبة .

وقد انتقد « هيرولد » ـ بحق ـ غرور الغربيين الذين ظنوا شيوخ الأزهر كالسكان الأصليين في استراليا ستبهرهم الاعيب الساحر الغربي ، وكانوا بذلك يعبرون عن جهلهم هم لا سذاجة الشيوخ .. والمؤلم ان يأتي مصريون اليوم فيتصورون شيوخنا هنوداً حمراً يتأملون « الرجل الحصان » !

يقول « كرستوفر هيرولد » : « لقد توقـع الفرنسيون بالغرور المعهود في الغربيين أن يستجيب الشيوخ لعجائب الصناعـة بدهشة صبيانية كدهشة الشعوب المتوحشة . ولعله لم يخطر لهؤلاء الصناعيين انهم هم السذج الأقل بصراً بشئون الدنيا من الشيوخ الذين لم يبد عليهم التأثر بما شهدوا . لقد تأثر الشيوخ ما في ذلك ريب ، وقد أعجبوا ، ان كان بين الجبرتي وبينهم شبه ولو قليل ، بهذا الانقطاع للعلم ، أكثر من اعجابهم بعرض الالاعيب والحيل الرخيصة . ولكنهم أبوا الخضوع لسيطرة الغريب » .

ويتساءل : « اي الرجلين كان اكثر سذاجة ! أهو الشرقي الذي لم يسمع من قبل بالكهرباء .. ام الاوروبي الذي ظن ان اكتشاف الكهرباء يعطيـه حقاً أبدياً في السيادة على غيره ؟!!

ولا شك ان « نابليون » كان اكثر الجميـع سذاجة ، أو دجالاً حقيقياً ،

كما يعتقـــد ، عندما زعم ان « الوطنيين كانوا غاية في البطء في فهم كنه هذا المجمع الذي ضم رجالاً وقورين مجتهدين (العلماء) لا يحكمون ولا يديرون، ولا يقومون بأي وظيفة دينية . وقد حسبوهم يصنعون الذهب »(*) (٦١).. على أية حال لقد شهد نابليون انه عندما اكتشف الوطنيون كنه هؤلاء الرجال « لم يحرقوهم » كما كانت العامة تفعل في أوروبا بالعلماء .. بل « تلقى العلماء الاجلال لا من الشيوخ والاعيان فحسب، بل من اقل الطبقات وادناها »(٦٢).

فأمتي لم تكن منقطعة الصلة الفكرية بالعلم .. بل كان العلم المادي في تراثها وفي روحها ، وفي تاريخها ، وان لم يكن في واقعها بحكم دورة التخلف والتقدم التي تتعرض لها كل ظواهر الكون .. لكنها كانت مهيئة لتقبل العلم، مفطورة على حب واحترام العلماء .. متعطشة للتجدد... لا بالفكر والمادة معاً كما تدعو المدرسة الاستعمارية .. وكما تزعم ان الجبرتي « قبل تجدد الكيان الاجتماعي بالمادة والفكر جميعاً .. »(٦٣).. هذا الزعم غير صحيح لا على اطلاقه ، ولا بالنسبة للجبرتي .. بل هو جوهر الخلاف بين مدرستي التغريب والتحديث ، فالمدرسة الاستعمارية تدعى ان « قبول التجـدد بالمادة ورفض التجدد بالفكر هو من مظاهر التمزق الحضـــاري الذي كثيراً ما يودي بالمجتمعات والافراد في عصور الانتقال »(**) .. وهو عرض مشوه بالطبع للقضية ..

فكما أوضحنا ان الذين يصرون على وحدة الحضارة ، هم في الحقيقة لا يهدفون الى اكثر من تحقيق انتماء النخبة الشرقية الى فكر وعقيدة وأسلوب معيشة الحضارة الغربية،دون ان يمتد هذا التغيير الى الأعماق،ودون أن يحقق

(*) وماذا كانوا يصنعون ؟ بل وخلف ماذا يلهث العلم الغربي حتى اليوم الا الذهب والبارود الذي عاناه ثوار القاهرة من مكتشفات العلماء الوقورين .

(**) لويس عوض .

هذا الانتماء تطوير المجتمع بالطبع . وقد رأينا كيف رفض الجبرتي الوجود الفرنسي ، اما الشيخ حسن العطار صديقه الذي يستشهد به « لويس عوض » عادة على « المنبهرين بالتكنولوجيا » والمتفتحين للتجدد ، فان انبهاره لم يزده الا سخرية بسلوكهم الاجتماعي ، واهم من ذلك تعجله الفناء لهم وتمنيه هزيمتهم:

« ان الفرنسيس قد ضاعت دراهمهم
في مصرنا بين خمار وخمار

وعن قريب لهم في الشام مهلكة
يضيع لهم فيها آجال أعمار(٦٤)

ولم تكن المعرفة التكنولوجية تقدم للمصريين في شكل علاقة علمية ، بتجرد العلماء من الجانب المتقدم ، وثقة وتطلع الجانب المتخلف ، حتى يمكن أن يتم التلقين الحضاري .. بل كان العلماء الفرنسيون ، يتصرفون بعقلية الأفاق الأوروبي الذي يحاول ان يخيف الزنوج في الادغال بألاعيب تجعله يبدو في صورة الساحر الذي لا يقهر ! وكان المصريون ينظرون بحذر وقلق وتوجس ، لأنهم يعرفون الهدف الحقيقي من استعراض العضلات العلمية الذي يجريه المحتلون أمامهم ، وبهذه الروح ، رأى الجبرتي محاولة اطلاق منطاد ..

« كتبوا عدة أوراق مطبوعة وألصقوها بالاسواق مضمونها انه في يوم الجمعة حادي عشرينه قصدنا ان نطير مركب ببركة الأزبكية في الهواء بحيلة فرنساوية . فكثر لغط الناس في هذا كعادتهم . فلما كان ذلك اليوم قبل العصر تجمع الناس والكثير من الافرنج ليروا تلك العجيبه وكنت بجملتهم . فرأيت قماشاً على هيئة الآوية على عمود قائم وهو ملون أحمر وأبيض وأزرق على مثل دائرة الغربال وفي وسطه مسرجة بها فتيلة مغموسة ببعض الادهان . وتلك المسرجة مصلوبة بسلوك من حديد منها الى الدائرة وهي مشدودة

ببكر وأحبال واطراف الأحبال بأيدي اناس قائمين بأسطحة البيوت القريبة منها . فلما كان بعد العصر بنحو ساعة أوقدوا تلك الفتيلة فصعد دخانها الى ذلك القماش وملأه فانتفخ وصار مثل الكرة وطلب الدخان الصعود الى مركزه فلم يجد منفذاً فجذبها معه الى العلو فجذبوها بتلك الأحبال مساعدة لها حتى ارتفعت عن الأرض فقطعوا تلك الاحبال فصعدت الى الجو مع الهواء ومشت هنيهة لطيفة ثم سقطت طارتها بالفتيلة وسقط أيضاً ذلك القماش وتناثر منها أوراق كثيرة من نسخ الاوراق المبصومة . فلما حصل لها ذلك انكسف طبعهم لسقوطها . ولم يتبين صحة ما قالوه من انها على هيئة مركب تسير في الهواء بحكمة مصنوعة ويجلس فيها أنفار من الناس ويسافرون فيها الى البلاد البعيدة لكشف الاخبار وارسال المراسلات بل ظهر انها مثل الطيارة التي يعملها الفراشون بالمواسم والافراح [٦٥]» !

أيها اكثر علمية .. الفرنسيون الذين كانوا يأملون في طيران البالونة الى ان تختفي عن الانظار فيزعمون انها طارت الى فرنسا !.. والذين اشاعوا أنها يمكن ان تستخدم في التجسس للإرهاب وخلافه ؟! أم الجبرتي الذي يفهم سبب انتفاخها وهو امتلائها بالغاز .. ثم ارتفاعها بسبب طلب الدخان الصعود .. وهو صحيح تماماً .. ثم الذي يعلق في موضوعية كاشفاً الخدعة ، وأنها لا تزيد عن تطوير في الطيارة التي اعتاد الفراشون عملها في الافراح ؟

وفي نفس الصفحة التي يسجل فيها الجبرتي أول فشل لعملية استعراض التكنولوجيا . نجده يشكر لهم نجاحهم في تسميم الكلاب « فارتاحوا هم وارتاح الناس » .

وبقدر ما كان الجبرتي متحفظاً بل معادياً للتكنولوجيا الارهابية ، كان متفتحاً للتكنولوجيا العمرانية التي يمكن أن يستفيد منها الناس وذلك واضح في أعجابه ووصفه لعربة اليد تماما كما أعجب خلفه « رفاعة الطهطاوي » بعربة الرش في باريس بعد ثلث قرن ..

ومعلومات « الجبرتي » عن العلماء ومواد ابحاثهم أفضل من معلومات « نابليون » عن معرفة الشيوخ فالجبرتي لا يحدثنا عن سحرة ولا تحضير الذهب بل يكاد يحدد كافة فروع العلم الذي كان يدرس : « وافردوا للمدبرين والفلكيين وأهل المعرفة والعلوم الرياضية كالهندسة والهيئـــة والنقوشات والرسومات والمصورين والكتبة والحساب والمنشئين . حارة الناصرية » . « كذلك أفردوا اماكن للمهندسين وصناع الدقائق وسكن الحكيم رويا ببيت ذي الفقار كتخدا بجوار ذلك ووضع آلاته ومساحقه وأهوانه في ناحية . وركب له تنانير وكوانين لتقطير المياه والادهان واستخراج الاملاح وقدورا عظيمة وبرامات وجعل له مكاناً أسفل وأعلى وبهما رفوف عليها القدر المملوءة بالتراكيب والمعاجين والزجاجات المتنوعة وبها كذلك عـــدة من الاطباء والجرائحية . وأفردوا مكاناً في بيت حسن كاشف جركس لصناعة الحكمة والطب الكيماوي وبنوا فيه تنانير مهندمة وآلات تقاطير عجيبة الوضع وآلات تصاعيد الأرواح وتقاطير المياه وخلاصات المفردات وأملاح الارمدة المستخرجة من الاعشاب والنباتات واستخراج المياه الجلاءه والحلالة وحول المكان الداخل قوارير وأوان من الزجاج البلوري المختلف الاشكال والهيئات على الرفوف والسدلات وبداخلها أنواع المستخرجات (٦٦) » ..

تأمل هذا الوصف العلمي الدقيق من متفرج «متخلف» ثم بعدها مباشرة.. تأمل كيف يقدم الفرنسي علمه كألاعيب الحواة!.. لتعرف اننا كنا متقدمين في الجوهر الحضاري متخلفين في الشكل، وانهم كانوا على العكس من ذلك..

« ومن اغرب ما رأيته في ذلك المكان ان بعض المتقيـدين لذلك اخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة فصب منها شيأ في كأس ثم صب عليها شيأ من زجاجة اخرى فعلا المآن وصعد منه دخان ملون حتى انقطع وجف ما في الكأس وصار حجراً أصفر فقلبه على البرجات حجراً يابساً أخذناه بأيدينا ونظرناه ثم فعل كذلك بمياه أخري فجمد حجراً

أزرق وبأخرى فجمد حجرا أحمر ياقوتيا . وأخذ مرة شيئاً قليلاً من غبار أبيض ووضعه على السنـدال وضربه بالمطرقة بلطف فخرج له صوت هائل كصوت القرابانه انزعجنا منه فضحكوا منا واخـــذ مرة زجاجة فارغة مستطيلة في مقدار الشبر ضيقة الفم فغمسها في ماء قراح موضوع في صندوق من الخشب مصفح الداخل بالرصاص وأدخل معها أخرى على غـير هيئتها وأنزلها في الماء وأصعدهما بحركة انحبس بها الهـواء في أحدهما وأتى آخر بفتيلة مشتعلة وأبرز ذلك فم الزجاجة من الماء وقرب الآخر الشعلة اليها في الحال فخرج ما فيها من الهواء المحبوس وفرقع بصوت هائل أيضا وغير ذلك أمور كثيرة وبراهين حكمية تتولد من اجتماع العناصر وملاقاة الطبائع(٦٧) » .

ولم تكن كل المعلومات التي نقلها الجبرتي عن العلماء الفرنسيين ذات قيمة علمية جادة ، فهو يقرر انه سمع منهم تفسيراً لمرض الطاعون « ويقولون ان العفونة تنحبس بأغوار الأرض ، فإذا دخل الشتاء وبردت الاغوار بسريان النيل والامطار والرطوبات خرج ما كان منحبسا بالأرض من الابخرة الفاسدة فيتعفن الهواء فيحصل الوباء والطاعون (٦٨)» .

ولا يجوز ان نتوقف طويلاً عند حديث التكنولوجيا ، بعد ما عرفناه عن موقف رجال الاحتلال في قصة مصنع « الجوخ » حيث رفضوا السماح للعمال المصريين بالعمل في المصنع خوفاً من تعلمهم اسرار الصناعة .

كان لابد أن تجلو قوات الاحتلال الأجنبي .. لكي يفتح الطريق أمام المصريين لدخول عصر العلم والصناعة .. وكانت الحملة الفرنسية قد سجلت فشلها المزري ، بجريمة حرق وإعدام سليمان الحلبي .. ولم يبق الا الجلاء .

الفصْل التّاسِع

وﷲ الحمــــد والمنه

زوال الفرنسيس

بمقتل كليبر بلـــغ التوتر أقصاه ، وتركزت عيون السلطة على الأزهر ، وبدأت تقوم بحملات تفتيش دورية ، بحثـاً عن خيوط التنظيم الذي اغتال قائـد الجيش ، ولم يكشف من اعضائه الا خليـة واحدة . وأراد المشايخ الكبار أن يقطعوا الطريق على المشاكل فتوجهوا : « في عصريتها عند كبير الفرنسيس « منو » واستأذنوه في قفـل الجامع وتسميره فقال بعض القبطه الحاضرين .. هـذا لا يصح ولا يتفق . فحنق عليه الشيخ الشرقاوي وقال اكفونا شر دسائسكم يا قبطـــه[1] » « واشتد الأمر بالناس وضاقت منافسهم وتابعوا نهب الدور بأدنى شبهة ولا شفيع تقبـــل شفاعته أو متكلم تسمع كلمته » «جمعوا الوجاقلية وأمروهم باحضار ما عندهم من الأسلحة . فأحضروا ما أحضروه فشددوا عليهم في ذلك فقالوا لم يكن عندنا غير الذي احضرناه فقالوا وأين الذي كنـــا نرى لمعانه عند متاريسكم » « افرجوا عن الشيخ السادات ونزل الى بيته بعد أن اغلق الذي تقرر عليه واستولوا على حصصه واقطاعه وقطعوا مرتباته وكذلك جهات حريمه والحصص الموقفه على زاوية اسلافه وشرطوا عليه عدم الاجتماع بالناس وان لا يركب بدون اذن منهم ويقتصد في أموره ومعاشه ويقلل اتباعه » .

وحاولت السلطة ان تتقرب للجماهير ، باسلوب طائفي : « فشرعوا في ترتيب الديوان على نسق غير الأول من تسعة أنفار متعممين(*) لا غير وليس فيهم قبطي ولا وجاقلي ولا شامي ولا غير ذلك وليس فيه خصوصي وعمومي على ما سبق شرحه . بل هو ديوان واحد مركب من تسعة رؤساء هم الشيخ الشرقاوي رئيس الديوان والمهدي كاتب السر والشيخ الامير والشيخ الصاوي وكاتبه (الجبرتي نفسه) والشيخ موسى السرسي والشيخ خليل البكري والسيد علي الرشيدي نسيب ساري عسكر والشيخ الفيومي والقاضي الشيخ اسماعيل الزرقاني وكاتب سلسلة التاريخ السيد اسماعيـــل الخشاب والشيخ علي كاتب عربي وقاسم افندي كاتب رومي وترجـــان كبير القس رفائيل وترجمان صغير الياس فخر الشامي[٢] » .

وبعد كليبر جاء هـذا الجنرال الذي تكن له المصادر الغربية احتقاراً متجدداً .. ولا تكف عن الانتقاص من قدره .. ولا شك ان ذلك يرجع الى « اسلامه » وتزوجه من « همجية » . ولو ان اسلامه لم يقنـع المصريين بل اعتبره الجبرتي اسلاماً سياسياً .. ويصفه بأنه « أظهر أنه أسلم » ويتهمه بأن « غرضه باطناً كان اغلاق الأزهر » .. إلا أن المؤرخين الغربيين لا يغتفرون له ذلك، تماماً كما ثاروا على « سلاتين » ، فغوردون بعد ثمانين عامـــاً يكتب منتقداً اسلام سلاتين ، ولو أنه أسلم خوفـاً من الموت : « ليس بالأمر الهين لأوروبي ان ينكر ديننا خوفاً من الموت[٣] » .

ولم يكن « مينو » اكثر من استعماري نموذجي من الرجـال المتوسطين الذين قامت على اكتافهم امبراطوريات الغرب بلا عبقرية ولا نظريات ولا تعقيدات .. بل كلما كان أفقهم محدوداً أكثر كلما كان نجاحهم أكبر !

« مينو » لم ير في مصر اكثر من امكانية هائلة : « لزراعة القطن وقصب

(*) مشايخ .

السكر والنيلة ومركزاً لتجارة الرقيق مع أواسط افريقيا والعاج والتبر والتوابل ومزرعة نموذجية للاخوة بين الفلاحين الكادحين في سعادة والمستعمرين الفرنسيين في سماحة(٤) » .

وقد سبق احفاده اعضاء المنظمة السرية باعلان « مصر قطعة من فرنسا » بل ولعله اكثر الثلاثة (نابليون – كليبر – مينو) تنفيذاً لسياسة تغريب مصر.. بل لعله تخطى في قراراته كل ما جرؤ عليه خلفاؤه من الاستعماريين . فقد استطاع « منو » في مطلع القرن التاسع عشر أن يحقق ما عجز عنه ماريشال الظهير البربري بعد مائه عام !

ومن حق استعماري القرن العشرين أن يأسفوا على فشل « الاصلاحات المحمودة(*) التي هي « لنفع الأهالي » .. ولكن ليس من حقهم ان يلوموا المصريين على عدم سرورهم لقرارات «منو» بالغاء قوانين المواريث الاسلامية، والغاء القانون الجنائي الاسلامي . خاصة وان هذه « الاصلاحات » الصادرة من حاكم شهر اسلامه ، صاحبها : « انحرفت طباعهم عن المسلمين زيادة عن أول . وأستوحشوا منهم . ونزل بالرعية الذل والهوان . وتطاولت عليهم الفرنساوية وأعوانهم وأنصارهم من نصارى البلد الأقباط والشوام والأروام بالاهانة » .

المهم كانت الحملة الفرنسية قد انتهت تاريخياً بفضل الرفض الشامل الذي واجهها به المصريون .. وأخيراً جاءت الحملة البريطانية ، التركية .. وعندما تواترت انباء وصول الجيشين الانجليزي والتركي ، توتر الجو في الديوان ووقعت يوم ٢٠ شوال ١٢١٥ (١٨٠١) محاورة أو مبارزة لفظية بين المشايخ والفرنسيين حول مدى مسئولية القيادة المصرية عن التحركات المنتظرة من

(*) كريستوفر هيرولد في كتابه : بونابرت في مصر .

جانب الجماهير عندما تشتبك القوات الفرنسية مـع « المحررين الجدد » ، هذه المحاورة يلخصها الجبرتي :

« قـال بعض الحاضرين : العقلاء لا يسعون في الفساد . واذا تحركت فتنة لزموا بيوتهم » « فقـال الوكيل (الفرنسي) ينبغي للعقلاء ولأمثالكم نصيحة المفسدين فإن البلاء يعم المفسد وغيره » .

« فقال بعضهم هذا ليس بجيد بل العقاب لا يكون إلا على المذنب . قال تعالى كل نفس بما كسبت رهينـة . وقال آخر من المجلس ولا تزروا وازرة وزر أخرى .

« فقال الوكيـل . المفسدون فيما تقدم أهاجوا الفتنة فعمت العقوبة . والمدافع والبنبات لا عقل لها حتى تميز بين المفسد والمصلح فانهـا لا تقرأ القرآن .

« وقال آخر المخلص نيته تخلصه .

« فقـال الوكيل . ان المصلح من يشمل اصلاحه الرعية فإن صلاحه في حد ذاته يخصه فقط والثاني اكثر نفعاً » « وطال البحث والمناقشة في نحو ذلك (٥) » .

وواضح ان الجهة «منفكة» كما يقول الازهريون.. أي ان الحوار لا يلتقي.. لأن الطرفين يقصدان غايتين مختلفتين .. الشيوخ يشككون في مشروعيـة اجراءات السلطة . وهم لا يريدون أن يتدخلوا لشل يد الثورة ان وقعت، بل هم يحاولون اساساً شل يد السلطة عن البطش بهم بادعاء انهم غير مسئولين عن سلوك الجماهير ، وأنه لا يجوز معاقبـة من لم تثبت ادانته ، ولا يجوز فرض العقوبات الجماعية بلا تمييز .

والوكيل كممثل للسلطة يبرر اجراءات القمع ، ويحاول أن يحمل القيادة الوطنية مسئولية ما يقع ، ولا يقبل منها التظاهر بالسلبية أو الحياد . ومن

ثم فلا عجب أن تبدو حجج الفريقين متكافئة . بل وان تكون كلها ذات موقف اخلاقي اسلامي ! فالاسلام كما يحتم على القادة نصح الرعية وارشادهم .. فهو ايضاً لا يعاقب إلا المسيء .. والحوار استمر ، لأن القيادة عجزت عن التحدث بصراحة ، واعلان ان حركة الجماهير المنتظرة ليست فتنة بل جهاد، وان مكانهم الطبيعي – لو لم يكونوا في « القبضة مأسورين » – هو على رأس هذة التي يسميها المحتل فتنة . وان الخير كل الخير والاصلاح المنشود ، في مقاتلة الوكيل وما يمثله الوكيل .. ومن ثم فالنصيحة المفترض في الشيوخ تقديمها للعامة .. هي الدعوة الى الجهاد .. ولكن الضرورات حتمت ان تدور المناقشة في هذا الاطار الذي جرت فيه وأن يكتفي المشايخ بتجريد اجراءات السلطة القمعية من شرعيتها واخلاقياتها .. مما اضطر « عبدالله جاك مينو » الى اصدار بيان « وهو مبني على جواب المناقشة المذكور » .

واذا كانت القاهرة لم تثر هذه المرة فلسرعة الزحف البريطاني من ناحية ولأن التنكيل الفرنسي الذي اعقب الثورة الثانية ومقتل « كليبر » قد اصابها بضربة قاسية يلخصها « الجبرتي » بقوله : « على انه لم يبق في الناس إلا رسوم هافتة.. » أضف الى ذلك طبيعة المصريين التي ترفض خوض معركة لا مبرر لها .. فقد كان واضحاً هذه المرة ان الجلاء محتوم .

وكاجراء وقائي ألقت السلطة القبض على السادات ولكن « من غير اهانة » فلما سأل « عن ذنبه وجرمه الموجب لحبسه » أجيب بأن ذلك « لم يكن إلا الحذر من اثارة الفتن في البلد واهاجة العامة لبغضك الفرنسيس لما سبق لك منهم من الايذاء » .

ومصادر « الجبرتي » في الدوائر الفرنسية قوية جداً .. فهو يتتبع بوضوح الخلاف بين « مينو ورينه » ويثبت فساد رأي « مينو » الذي تباطأ في التوجه الى الاسكندرية حتى ضاعت فرصته في الدفاع عنها ويثبت لرينيه انه كان يلح على مينو في التوجه للاسكندرية قبل هجوم الانجليز .

« فعند ذلك جمع رينه سواري عسكره وعرض عليهم ذلك وسفه رأيه (رأي مينو) وان هذا الخبر لا أصل له . وأنا أعلم أننا لا نصل الى الصالحية حتى يأتي الخبر بخلاف ذلك.ويأتينا الأمر بالرجوع والذهاب الى الاسكندرية فلا نستفيد إلا التعب والمشقة . وارتحل بمن معه من غير استعجال فوصلوا الى القرين في ثلاثة ايام . واذا بمراسلة ساري عسكر منو الى رينه يخبره بان الانجليز وصلوا الى «ابي قير » وطلعوا الى البر وتحاربو مع أمير الاسكندرية ومن معه من الفرنساوية وظهروا عليهم ويستعجله في الرجوع والذهاب الى الاسكندرية فقال رينه هذا ما كنت اخمنه واظنه وارتحل راجعاً[٦] » فحالة الجيش الفرنسي لم تكن خافية على المصريين ويبقى على المؤرخين ان يكتشفوا مصادر « الجبرتي » في الجيش الفرنسي ..

وعندما وصل الاتراك الى العريش بعد نزول الانجليز بالقرب من الاسكندرية «اعتقل اربعة مشايخ وضموا الى السادات وهم الشرقاوي والمهدي والصاوي والفيومي » .

ومع وضوح هزيمة الفرنسيين اتخذت اجتماعات الديوان طابعاً هزلياً . فالمصريون يريدون بمهارتهم التاريخية تفويت الفرصة على المهزوم الحانق المتوتر ، المتعطش لانزال ضربة انتقام بالأمة الشامتة فيه . والفرنسيون يريدون هدوء الوضع ولو كان على اساس التخادع المتبادل . فالاتفاق عام من الطرفين ، على كسب الوقت ، في انتظار ان يحل الآخرون المشكلة « ثم قال الخازندار ان الفرنساوية لا يحبون الكذب فلازم ان تصدقوا كل ما اخبروكم به . فقال بعض الحاضرين انما يكذب الحشاشون . والفرنساوية لا يأكلون الحشيش » . وبلعها الحشاشون والفرنسيون الكاذبون !..

وقال الخازندار : « ان الفرنساوية لا يتركون الديار المصرية ولا يخرجون منها ابداً لأنها صارت بلادهم وداخلة في حكمهم . وعلى الفرض والتقدير اذا غلبوا على مصر فانهم يخرجون منها الى الصعيد . وطال الكلام في مثل

هذه التمويهات والخرافات وأجوبة الحاضرين بحسب المقتضيات » وحتى عندما صدرت الاوامر باعادة فرش الديوان علق الجبرتي ساخراً :

« وتجلدي للشامتين أريهم
اني لريب الدهر لا اتضعضع »

وعندما وصلت مدفعية الانجليز الى ضواحي القاهرة عقد الديوان وأعلن ممثل السلطة الفرنسية « واعلموا أن أرض مصر استقر ملكها للفرنساوية فلازم من اعتقادكم ذلك واركزوه في اذهانكم كما تعتقدون وحدانية الله تعالى » . وتعليق الجبرتي حاد كالسيف : « وكلام كثير من هذا النمط في معنى ذلك من بحر الغفلة » !

واشترك البكري والسيد أحمد الزرو ، وشاهد زور من الشرقية ، والجنرال بليار،في تمثيلية ساذجة أقسم فيها رجل شرقاوي انه «سمع منرجل واصل من رشيد الى منية كنانه ان اسطولاً فرنسياً حضر الى الاسكندرية وان الانكليز رجعت اليهم وان الحرب قائمة بينهم على ظهر البحر(٧) » .

ونشطت الدعاية الفرنسية في ترويج « التمويهات » والاخبار التي « لا أصل لها » كما يصفها الجبرتي ..

وعقد الديوان آخر جلساته .. أو كما يقول الجبرتي : « آخر الدواوين » وتليت فيه « كثير من أمثال هذه الخرافات والتمويهات » « وتمويهات وهلسيات ليس في ذكرها فائدة » .

وللجبرتي الحق في تعليقه العنيف ، فالبيانات كانت تتحدث عن نية نابليون في بناء جامع وعن « المحبة والاخوة التي كانت موجودة ما بين اهل الديار المصرية . قد كان الأهل والجيش المذكورون مثل الرعية الوحدة » .. امـا الرد البليغ على ادعاء المنهزمين ان الجيش الافرنسي : « هل بت ان يصادف يوم اننا نرجع الى عندكم لاجل تمام الخير الذي يصدر من حكم الفرنساوي » فكان الرد البليغ من المشايخ :

« ان الامر لله .

« والملك لله .

« وهو الذي يمكن منه من يشاء[٨] » .

« وانفض الديوان .. وركب المشايخ وخرجوا للسلام على الوزير يوسف باشا الذي يقال له الصدر الأعظم » .

وكان السادات قد عبر عن عواطفه بالتبكير في الحضور للوزير ولكن بقية المشايخ منعوا في انتظار حضور هذا الديوان السخيف . ولم تكن المقابلة مشجعة فان « الصدر الاعظم » « لم يقم لقدومهم » .

ومع غرق سفينة الفرنسيس اشتد هرب الجرذان ، ونزلت « هوى » من القلعة بعد ان حملت متاعها على حمار وكانت « هذه المرأة زوجة لبعض الامراء الكشاف ثم انها خرجت عن طورها (تمردت) وتزوجت نقولا واقامت معه مدة فلما حدثت هذه الحوادث جمعت ثيابها واحتالت حتى نزلت من القلعة وهي على حمار ومتاعها محمول على حمار آخر فنزلت عند بعض العطف واعطت المكاريه الاجرة وصرفتهم من خارج واختفت » .

وسارع يعقوب بالفرار مع الجيش المحتل ، ولكن الذين كانوا معه اما بالاغراء أو بالاكراه أو بالترهيب مما ينتظرهم من عقاب عما ارتكبوه .. ما ان اتيحت لهم فرصة العودة الى مصر المحروسة حتى بادروا بالعودة ، تاركين يعقوب و الآغا عبد العال[*] ينصرفان مع مخلفات الحملة ..

وفي يوم الخميس ٣ ربيع الثاني ١٢١٦ (أغسطس ١٨٠١) حضرت جماعة

(*) الآغا عبد العال هاجر الى فرنسا مع جيش الحملة وكان بالطبع من ابرز وجوه « الوفد المصري » .. وفي فرنسا تنصر !! ليستطيع العيش هنـاك .. وعلى فراش الموت عاد للاسلام ليستطيع العيش في الآخرة (راجع تخليص الابريز للطهطاوي) .

من عسكر القبط الذين كانوا ذهبوا بصحبة الفرنساوية فتخلفوا عنهم ورجعوا الى مصر[٩] » .

وطويت صفحة طالت في حساب « الجبرتي » « ثلاث سنوات وواحد وعشرين يوماً » وذلك من ابتداء معركة انبابه الى نزولهم من القلعة .. ويضاف الى حساب الجبرتي مدة احتلالهم للاسكندرية قبل احتلال القاهرة ، وحصارهم فيها بعد انسحابهم من القاهرة ..

وبدأت صفحة جديدة .. بدخول القوات العثمانية .. وعودة المماليك ..

ولم يكن في تجربة المصريين ولا في سلوك الجند القادمين ما يبعث على التفاؤل . ولكن غرائز الأمم لا تخطىء .. كانت أمتنا تدرك ان زوال الحكم الفرنسي هو في حد ذاته نصر حاسم في معركة وجودها .

كذلك كانت الفرحة التي سجلها الجبرتي ، فرحة طبيعية ومقبولة ، وكان اليوم تاريخياً حقاً ، سواء بوعي المحتفين به ، أو بحكم ما ترتب عليه من نتائج وما يمكن أن يترتب عليه حتى اليوم ..

« فلما اصبح يوم الخميس خامسه اجتمع الناس من جميع الطوائف وسائر الأجناس وهرع الناس للفرجة وخرجت البنت من خدرها واكتروا الدور المطلة على الشارع بأغلى الاثمان وجلس الناس على السقائف والحوانيت صفوفاً وانجر الموكب من أول النهار الى قريب الظهر ودخل من باب النصر وشق من وسط المدينة .. فكان ذلك اليوم يوماً مشهوداً وموسماً وبهجة وعيداً . عمت المسلمين فيه المسرات ونزلت في قلوب الكافرين الحسرات . ودقت البشائر وقرت النواظر وأمروا بوقود المنارات سبع ليال متواليات فلله الحمد والمنه على هذه النعمة . ونرجو من فضله أن يصلح فساد القلوب ويوفق أولى الأمر للخير والعدل المطلوب(*)[١٠] » .

(*) لا شك ان الجبرتي وهو يعيد كتابة هذه اليوميات عام (١٢٢٠ - ١٨٠٥) كان يعرف ان دعاءه لم يستجب .

وبعكس ما كان متوقعاً من أحداث فترة الاحتلال، لم تقع أية معارك ولا مذابح طائفية . فسرعان ما تغلبت روح الحضارة الاسلامية ٠ وعاد الشعب المصري الى اخوته ووحدته الطبيعية.. ورغم الاجراءات المحتومة التي تعقب زوال كل احتلال من جلاء «منو» الى سقوط النازية.. فاننا لا نجد في «الجبرتي» الا قرارات اعدام نفذت في مسلمين : بنت البكري .. هوى .. و « قتلوا شخصاً يسمى مصطفى الصيرفي من خط الصاغة قطعوا رأسه تحت داره عند حانوته . وسبب ذلك انه كان يتداخل في نصارى القبط الذين يتعاطون الفرد (الغرامات) ويوزعونها ، وتولى فردة أهل الصاغة وسوق السلاح وتجاهر بأمور نقمت عليه وأضر أشخاصاً » . وعندما اعدم الصيرفي هرب السيد أحمد الزور ونجا بجلده .. كذلك عوقب الشيخ البكري فانتزع منه مملوكه : « وتجرع فراقه[١١] » .

اما الآخرون فسرعان ما جرى نقل البارودة من كتف الى كتف وكان نصاري الاروام ابرع المنتقلين :

« ففي يوم الاحد نودي بأن لا أحد يتعرض بالأذية لنصراني ولا يهودي سواء كان قبطياً أو رومياً أو شامياً فانهم من رعايا السلطان . والماضي لا يعاد . والعجب ان بعض نصارى الاروام الذين كانوا بعسكر الفرنسيس تزيوا بزي العثمانية وتسلحوا بالأسلحة واليقطانات ودخلوا في ضمنهم وشمخوا بآنافهم وتعرضوا بالأذية للمسلمين في الطرقات بالضرب والسب باللغة التركية ويقولون في ضمن سبهم للمسلم : « فرنسيس كافر ولا يميزهم الا الفطن الحاذق أو يكون لهم بهم معرفة سابقة[١٢] » .

وفي هذه المرة لا يجد نصارى الاروام مؤرخاً يحاول ان يخلع صفة مبدأية أو عقائدية على سلوكهم وانضمامهم للجيش العثماني !

وكان الله في عون المصريين !

ولم يكن نصارى الروم وحدهم بل أبدى الموكلون «بتنظيم مالية البلاد» في عهـــد الفرنسيس استعدادهم لمواصلة مهمتهم « التنظيمية » لحساب العثمالي والأمراء .. فلما طلب الوزير من التجار مائة كيس وعشرة اكياس. فاجتمع المستعدون لجمع الفردة في ايام الفرنساوية كالسيد أحمد الزرو (شاهد الزور) وكاتب البهار وارادوا توزيعها على المحترفين كعادتهم[١٣] » .

اما النساء المتحررات أو اللاتي ذقن طعم تحرير المرأة على أوسع نطاق وبجهـــود ثلاثين ألف شاب فرنسي . فلم يكنّ أقل استعداداً من نصارى الأروام ومنظمي الفردة في نقل الولاء .. فقد اندفعن الى التزوج من عسكر الانكشارية بعد تقمص الشكل المطلوب : « وفيه نودي على أن أهل البلدة لا يصاهرون العساكر العثمانية ولا يزوجونهم النساء وكان هذا الأمر كثر بينهم وبين اهل البلد واكثرهم النساء اللاتي درن مع الفرنساوية . ولمـــا حضر العثمانية تحجبن وتنقبن وتوسط لهن اشباههن من الرجـال والنساء وحسنوهن للطلاب ورغبوا فيهن الخطـاب فأمهروهن المهور الغالية وانزلوهن المناصب العالية[١٤] » .

وطويت صفحة تحرير المرأة بانتقال اللاتي « درن » (لا حظ دقة تعبير الجبرتي) مع الفرنساوية ، من حانات الفرنسيس ومعسكرات الحملة الى حريم العسكر العثمانية ..

وعاش الجيش !!

ولم يفت الجند العثماني ، استغلال الحزازات التي زرعها الحكم الاستعماري في ابتزاز المسيحيين . وهنا نجد أمانة الجبرتي المؤرخ المصري ، وتجرده من كل شائبة تعصب .. وهو يسجل هذا الموقف ويفضحه ويسمه بالخزى أمام التاريخ ..

« واما القلقات والينكجرية الذين تقيدوا بحارات النصارى فانهم كلفوهم

اضعاف ما كلفوا بـــه المسلمين ويطلبون منهم بعد كلف المآكل واللوازم مصروف الجيب وأجرة الحمام وغير ذلك. وتسلطت عليهم المسلمون بالدعاوى والشكاوى على أيدي اولئك القلقات فيخلصون منهم ما لزمهم بأدنى شبهة ولا يعطون المدعي إلا القليــــل من ذلك والمدعي يكتفي بما حصل له من التشفي والظفر بعدوه[١٥] » .

ان العداوات التي زرعت على يـد الحكم الفرنسي ، والسلوك المنحرف ليعقوب وشكرالله وعبدالله، وجدت من يستثمرها بعد زوال الحكم الفرنسي. ولكن سرعان ما تغلبت الحكمة المصرية ، وانتصر التسامح الذي تتميز به حضارتنا وعهد الى «صاحبنا العلامة السيد اسمعيل الوهبي المعروف بالخشاب» بترصيف « فرمانات باللغة العربية مضمونها الكف عن أذية النصارى واليهود وأهـل الذمة ، وعدم التعرض لهم وفي ضمنه ايات قرآنية وأحاديث نبوية والاعتذار عنهم بأن الحامل لهم على تداخلهم مع الفرنساوية صيانة اعراضهم وأموالهم » كذلـــك وصلت فرمانات في مطلع شهر جمادي الأولى ١٢١٦ (سبتمبر ١٨٠١) « بالتنويه بذكر اعيان الكتبة الاقباط والوصية بهم مثل جرجس الجوهري وواصف وملطي » .

وهكذا لم يبق امام الجند العثماني إلا نهب المسلمين : « لأنهم اخوانـكم المجاهدين الذين حاربو عنكم وانقذوكم من الكفار الذين كانوا يسومونكم سوء العذاب ويأخذون أموالكم ويفجرون بنسائكم وينهبون بيوتكم. وهم ضيوفكم اياماً قليلة[١٦] » .

وتعاون الجند العثماني مع المماليك على خراب مصر ، مستأنفين المهمة التي اعفوا منها ثلاث سنوات. ويصور الجبرتي بشاعة الهول الذي نزل بالفلاحين عندما يقول : « وتمنى اكثر الناس وخصوصاً الفلاحين احكام الفرنساوية » .
ووصلت الدراما الى ذروتها باستئناف القتال بين الدولة والمماليك فمـــا

كانت الدولة العثمانية بالتي تفوت الفرصة النادرة التي اتاحتها لها الاحداث ، وهي دخول قوتها مصر .. ومـا كانت بالتي تقبل ان تتركها راضية للماليك وتسحب جيشها كما سيفعل الانجليز ليندموا على قرارهم ويعودوا بعـــد سبع سنوات ليس اكثر.

وبنفس الاسلوب الذي كرره الفريقـان آلاف المرات : « عمل الوزير الديوان وحضر عنـــده الأفراد فقبض على ابراهيم بك وباقي الأمراء الصناجق وحبسهم . وأرسل طاهر باشا بطائفـة من العسكر الارنؤود الى محمد بك الالفي بالصعيد.ووقفت طائفة العسكر والأرنؤود بالاخطاط والجهات وخارج البلـد يقبضون على من يصادفونه من المماليك والاجناد . وأحاطت العسكر بالأمراء المعتقلين واختفى باقيهم ونودي عليهم وبالتوعد لمن اخفاهم أو آواهم . وباتوا بليلة كانت أسوأ عليهم من ليـــلة كسرتهم وهزيمتهم من الفرنسيس . وخاب أملهم وضاع تعبهم وطمعهم . وكان في ظنهم **ان العثملي يرجع الى بلاده** ويترك لهم مصر ويعودون الى حالتهم الأولى يتصرفون في الاقليم كيف شاءوا » .

اما المماليك الذين كانوا في الاسكندرية فقد انقذهم الانجليز بعد ان قتل وجرح نخبة منهم . واستخدم انجليز « الجيزة » الحيـلة لتحرير ابراهيم بك .. من اسر العثمانية .

كان واضحاً ان المماليك لن يتركوا مصر للاتراك..واكثر وضوحاً انهم لن يستطيعوا بعد اليوم حكم مصر لا لحسابهم ، ولا باسم السلطان كما كان الحال من قبل .. فقد انتهى دورهم في التاريخ في موقعة امبابة .. بل انتهى دورهم قبل ذلك بثلاثـــة قرون يوم دخل السلطان سليم القاهرة ، ولكن بلادنا اشتهرت بتحنيط الجثث . ولذا فهي لا تدفن الظاهرة التاريخيـة إلا بعدما تتعفن — تماماً، وحتى عندما تتعفن —احياناً— نحيطها بالمجامر والعود والبخور لنخفي رائحتها !

واذا كان المماليـك استناداً الى هذه الخاصية في مجتمعنا قد استطاعوا

خداع التاريخ وتعطيل قوانينه ثلاثة قرون فقد كان واضحاً بعد معركة انبابة ان مصر لن تكون لهم .

وكانت الدولة العثمانيـة مقفرة مفلسة بل واعجز من المماليك عن تقديم حل افضل .. فلا هي تقبـل ان تترك مصر للماليك .. ولا هي قادرة على انتزاع مصر من المماليك ..

وكانت قوى عديدة قـد ظهرت في الساحة ، واصبحت هي الاصل والعثمانيون والمماليك بمثابة الظل .. كانت الاستعمارت الغربية قـد ركزت انتباهها على مصر ، وعرفت انها المدخل الاساسي للعالم العربي والاسلامي .. ومن ثم قررت استحالة عودة الأوضاع الى ما كانت عليه ، لأن ذلك يعني سد الطريق على مصالح الغرب ، وعلى محاولات تغلغله .. حتى لو كان هـذا السد مجرد حجر متخلف .

والاستعمار الغربي لن يسمح أيضاً بان يتغير الوضع في مصر ، على نحو يحميها من اطماع الغرب، ويمكنها من مواجهة عدوانه..ذلك التغيير الذي كان يتمثل في بناء مصر الحديثة .. أو وطن عربي حديث .. أو حتى دولة عثمانية حديثة .. فلا حد لما يمكن ان تشعه تجربة ناجحة في مصر ..

وكانت هناك قوة تحمل امكانية هذا البعث .. هي القيادة المصرية التي صلب عودها خلال مقاومة الفرنسيين.. وكانت تتفق مع جميع الاطراف على استحالة عودة القديم الى ما كان عليه ،بعد ما ثبت عجزه عن حماية الوطن. ولكنها كانت تختلف – بالطبع – مع الاستعمار الغربي ، لأنها كانت تتطلع الى بناء مستقبل جديد يختلف تماماً عما كان يريده الغربيون .. كانت تتطلع الى **تحديث** مصر العربية في اطار الحضارة الاسلامية .. بينما كان الغرب الاستعماري يريد اقتطاع مصر من المحيط العربي – الاسلامي – **وتغريبها..** وبذلك تنضج للاستعمار.. وكشرط لنجاح عملية التغريب هذه، كان لا بد من تدمير القيادة الوطنية .

وهكذا أصبحت ضرورة « عالمية » أن يظهر البطل الذي يدمر القيادة الشرعية للامة العربية ويحطم محاولة البعث الاسلامي الصحيح.. ويحول دون وقوع الثورة الصناعية الحقيقية .. ويتولى إحداث « التغريب » المشوه الذي يضع مصر والوطن العربي تحت رحمة الغرب الاستعماري .

أصبح هناك دور يبحث عن بطل ..

وظهر البطل ..

رجل الغرب الذي سيحقق المخطط بنجاح .

رجل تمثل بدقة نادرة ، اتجاه الغرب ، و « الضرورة العالمية » . وحدد لنفسه مهمة واحدة هي تلبيــــة هذه الضرورة .. تنفيذ مطلب الغرب . وبعكس كل الممكن .. كان يتقدم بنجاح رائع ، وكأن يداً ساحرة تدفعه وتسدد خطاه ..

فلما انجز دوره المطلوب .. وحاول ان يتخطى حدوده ، كان انهياره السريع اكثر اثارة من نجاحه ..

ولكنه كوفىء بعرش مصر .. ولورثته من بعده .. بل ولكل من يحتذيه نموذجاً ومثالاً .. كل من يسير على درب التغريب .. لــــكي لا يكون تحديث أبداً ..

بيروت **رمضان ١٣٩١ — اكتوبر ١٩٧١**

الهوامش والمراجع

الفصل : خطبـــة الكتاب

(١) دائرة المعارف البريطانية — ولاحظ ان السيدة « أمينة السعيد » زارت اليابان سنة ١٩٧١ فاستاءت من مركز المـــرأة المتخلف وعبوديتها للرجل . وافتخرت طبعاً بمركز المرأة العربية !

ويكفي اليابان فخراً انتصار الين على الدولار ..!

(٢) تاريخ الفكر المصري الحديث — الفكر السياسي والاجتماعي للدكتور لويس عوض — وهي محاضرات القيت في معهد الدراسات العربية ، ثم نشرت في صحيفة الاهرام . والمرجع المشار اليه هنا هو المنشور عن دار الهلال في جزئين — ابريل ١٩٦٩ — ج ٢ ص ١٧ .

الفصل : مدخـــل

(١) بونابرت في مصر — تأليف كرستوفر هيرولد — ترجمة دار الكاتب العربي للطباعة والنشر — القاهرة — ص ١٢ — ١٣ .

(٢) بونابرت ص ١٧ عن : Charles-Roux, Origines P. 88

(٣ — ٤ — ٥) نفس المصدر .

(٦ — ٧) بونابرت عن La Jonquière, II. 607 - 8

الفصل : الاول

(١) الرافعي : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر مكتبة النهضة المصرية الطبعة الرابعة ج ١ ص ٢٣ — ٢٤ .

(٢) ن.م ص ٢٤
(٣ - ٤ - ٥ - ٦ - ٧ - ٨ - ٩) الجبرتي - عجائب الآثار في التراجم والاخبار لمحقق زمانه ونادرة اوانة الراقل في حلل العلوم المتوشح بنفائس منطوقها والمفهوم السابق في حلبة الرهان اللوذعي - العلامة الشيخ عبد الرحمن الجبرتي الحنفي أمطره الله تعالى بهوا مع احسانه وبره الخفي - طبعة ١٢٩٧ هـ - ١٨٨٠ - ج ١
(١٠ - ١١ - ١٢ - ١٣ - ١٤ - ١٥) الجبرتي ج ٢
(١٦) الرافعي ج ١
(١٧) آلن مورهيد - النيل الأزرق - دار المعارف .
(١٨) ن.م.
(١٩) بونابرت عن : Correspondance de l'armée francaise xxx. 84 - 93
(٢٠) مورهيد .
(٢١) الرافعي ج ٢ عن : مراسلات نابليون الجزء الخاص وثيقة رقم ٤٢٣٨
(٢٢) الرافعي ج ١ عن الجنرال رينه في كتابه : « مصر بعد واقعة عين شمس » .
(٢٣) الجبرتي ج ٣
(٢٤) بونابرت عن نقولا الترك .
(٢٥) مورهيد .
(٢٦) بونابرت .
(٢٧) الجبرتي ج ٣
(٢٨) « ج ١
(٢٩) ن.م.
(٣٠) الجبرتي ج ٢
(٣١) « ج١
(٣٢) « ج٢
(٣٣) المصريون المحدثون عاداتهم وطباعهم - لين .
(٣٤) مورهيد
(٣٥) الجبرتي ج ٢
(٣٦) ن.م.
(٣٧) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . طبعة وزارة الثقافة والارشاد القومي ج ٧.
(٣٨) الجبرتي ج ٢
(٣٩) ن.م.
(٤٠) الجبرتي ج ١
(٤١ - ٤٢) الجبرتي ج ٢

(٤٣) الجبرتي ج ١
(٤٤ – ٤٥) الجبرتي ج ٢
(٤٦) الجبرتي ج ١
(٤٧) الجبرتي ج ٢
(٤٨) الكواكبي : طبائع الاستبداد .
(٤٩) الجبرتي ج ١
(٥٠ – ٥١) الجبرتي ج ٢
(٥٢ – ٥٣ – ٥٤) الجبرتي ج ١
(٥٥ – ٥٦ – ٥٧) الجبرتي ج ٢
(٥٨ – ٥٩ – ٦٠ – ٦١) الجبرتي ج ١
(٦٢) الجبرتي ج ٢
(٦٣ – ٦٤) الجبرتي ج ١
(٦٥ – ٦٦ – ٦٧ – ٦٨ – ٦٩) الجبرتي ج ٢
(٧٠ – ٧١ – ٧٢ – ٧٣ – ٧٤ – ٧٥ – ٧٦ – ٧٧ – ٧٨ – ٧٩ – ٨٠) الجبرتي ج ١
(٨١ – ٨٢ – ٨٣ – ٨٤ – ٨٥ – ٨٦ – ٨٧–٨٨–٨٩–٩٠–٩١– ٩٢ – ٩٣) الجبرتي ج ٢

الفصل : الثـــاني

(١) بونابرت عن : Correspondance XXIX. 429 ونفس الفكرة كتبها «مونج» منظم المجمع العلمي الى زوجته : «لو استوطن مصر ٢٠٠٠٠ أسرة فرنسية ، ليشتغل افرادها بالمشروعات التجارية والمؤسسات الصناعية .. الخ لغدا هذا البلد اجمل مستعمراتنا وألمعها وافضلها موقعاً» . ويعلق هيرولد «هذه الروح هي التي مكنت الفرنسيين من استعمار الجزائر ، وما تمخض عنه هذا الاستعمار من نتائج» .

(٢) بونابرت .
(٣) ن.م.
(٤) بونابرت عن : Correspondance IV. 147.
(٥) « .
(٦) « عن : Francois I. 184.
(٧) « عن : Correspondant IV. 182 - 183
(٨) «

(٩) بونابرت عن : نقولا الترك .
(١٠) الجبرتي ج ٣
(١١) بونابرت عن: Correspondance, IV. 190
(١٢) نقولا الترك .
(١٣) الجبرتي ج ٣
(١٤) مورهيد .
(١٥) مورهيد .
(١٦) بونابرت عن : Correspondance XXIX. 460
(١٧) « عن : Desvernois P. 97.
(١٨) « عن : Correspondance IV. 216
(١٩) « .
(٢٠) « عن : Correspondance P. 158.
(٢١) « عن : Millet P. 44.
(٢٢) « .
(٢٣) « عن : Francois I 203
(٢٤) « عن : La Jonquiere II. 162.
(٢٥) « عن : Las Cases I. 504.
(٢٦) « عن : Gourgaud II. 261 - 66
(٢٧) الجبرتي ج ٣
(٢٨) مورهيد .
(٢٩) مورهيد .
(٣٠) الجبرتي ج ٣
(٣١) مورهيد .
(٣٢) الجبرتي ج ٣ ولدينا وثيقة برأي الجبرتي في هذا المنشور تغني عن كل نقاش في البحث عن تأثير هذا المنشور في « النخبة » .. وذلك في الكتاب الذي ألفه بالاشتراك مع الشيخ حسن العطار يقول الجبرتي :

« وقد كانت الفرنسيس حين حلولهم بالاسكندرية كتبوا مكتوبا وطبعوه وأرسلوا منه نسخا الى البلاد التي يقدمون عليها تطمينا لهم ومكيدة لئلا تعصى البلاد وتحاربهم . فأوهموهم فيه انهم قدموا من طرف السلطان وانهم جاءوا ليزيلوا عنهم الظلم . فكانت هذه ايضاً من المكايد الحربية !

ثم ينبري الجبرتي للرد على المنشور وتفنيد ما جاء فيه من « الكلمات المفككة والتراكيب الملعبكة فيقول :

قوله : بسم الله الرحمن الرحيم لا اله الا الله لا ولد ولا شريك في ملكه » .. في ذكر هذه الجمل الثلاث اشارة الى انهم موافقون للملل الثلاث ومخالفون لهم بل ولجميع الملل » .

قوله : « القادر على كل شيء » ومن قدرته الباهرة وآياته الظاهرة جلب هؤلاء الشياطين . الى مراتع الملوك والسلاطين . ورجوع الكرة عليهم . وقطع دابرهم ونواصيهم » .

قوله : « انني ما قدمت لكم الا لكيما أخلص حقكم من يد الظالمين » هذه اول كذبة ابتدرها وفرية ابتكرها ، ثم ترقى الى ما هو أعظم من ذلك رماه الله في المهالك .

قوله : « واحترم نبيه » معطوف على ما قبله من عطف الكذب على الكذب . لأنه لو احترمه لآمن به وصدقه واحترم أمته .

قوله : « والقرآن العظيم » معطوف على نبيه . وهذا كذب . فان احترام القرآن تعظيمه وتعظيمه بالتصديق بما فيه ... اما التعظيم الحسي .. وهؤلاء قد شوهد الكثير منهم يتغوط ويمسح بأوراق المصاحف ويرميها ملطخة في الطرقات ومحل النجاسات فانهم لا يستنجون بالماء البتة . وجليلهم وحقيرهم يستعمل ما يجده من الأوراق ..

قوله : « فليوروا الحجة التي كتبها الله لهم » هذا من الجهل والكفر بمكان فإن الله لا يملك الناس شيئا بحجة يكتبها لهم . (رائع في التعبير عن تفوق الفكر الاسلامي عن تفكير اوروبا في القرون الوسطى) .

قوله : « في المناصب السامية» اي المرتفعة ، فيه احتراز عن دفع اللوم عنهم بتقليدهم مناصب الاحكام الجليلة للأسافل والرعاع ، كجعلهم برطلين الطنجي وهو المسمى عند العامة بفرط الرمان . كتخدا مستحفظان » . (هذا هو ما فهمته النخبة من ادعاء الفرنسيين العمل على شغل المصريين للمناصب) .

ومنشئه (اي المنشور) ملعون عجل الله لهم الوبال والنكال وأخرس منهم عضو المقال . وفرق جمعهم . وشتت شملهم . وأفسد رأيهم . ولاخمد انفاسهم . وهدم اساسهم » . (من كتاب مظهر التقديس) .

(٣٣) الرافعي ج ١

(٣٤) الرافعي ج ١

(٣٥) بونابرت عن : Correspondance de l'armée francaise P. 158.

(٣٦) » عن : Correspondante IV. 217.

(٣٧) » عن : Denan I. 27.

(٣٨) » .

(٣٩) » .

(٤٠) بونابرت عن : Bourienne I. 261.
(٤١ – ٤٢) بونابرت .
(٤٣) بونابرت عن : Vertray P. 48.
(٤٤) « عن : Desvernois P. 118.
(٤٥) « عن : La Jonquière II. 170.
(٤٦) الرافعي ج ١
(٤٧) مورهيد عن مقدمة توينبي لكتاب شفيق غربال بداية المسألة المصرية .
(٤٨) مورهيد .
(٤٩) بونابرت عن : Desvernois P. 124.
(٥٠) « .
(٥١) نقولا الترك .

الفصل : الثالث

(من ١ الى ٨) الجبرتي ج ٣
(٩) الرافعي ج ١ عن مراسلات نابليون ج ٤ وثيقة رقم ٣١٤٧ .
(١٠) الجبرتي .
(١١) الرافعي ج ١ عن : تاريخ الحملة الفرنسية في مصر – الجزء الثاني – مارتان .
(١٢) « عن : كتاب التاريخ العلمي والحربي للحملة الفرنسية ج ٣ لمؤلفه « ريبو » .
(١٣) « ج ١
(١٤) « ج ١ عن تقرير وزير الخارجية تاليران الى حكومة الديركتوار في ١٤ فبراير ١٧٩٨ .
(١٥) الرافعي عن كتاب : رحلة في الوجه البحري ومصر العليا .
(١٦) بونابرت عن : La Jonquière II 468 - 69.
(١٧) الرافعي ج ١
(١٨) « ج ١
(١٩) « عن تقرير الجنرال ديموي المؤرخ ٣ ترميدور (٢١ – ٧ – ١٧٩٨) .
(٢٠) « يوميات اركان حرب الجنرال كليبر بتاريخ ٢٥ يوليو ١٧٩٨
(من ٢١ الى ٢٦) الرافعي ج ١
(٢٧) الجبرتي جـ ٣
(من ٢٨ الى ٣٣) الرافعي جـ ١
(٣٤ ، ٣٥) الرافعي جـ ٢

(٣٦) الرافعي عن التاريخ العلمي والحربي للحملة الفرنسية الجزء الخامس.
(من ٣٧ الى ٣٩) الرافعي جـ ١
(٤٠) بونابرت ٣٤٨
(٤١) الرافعي جـ ١
(٤٢) « جـ ١
(٤٣) بونابرت .
(٤٤) الرافعي جـ ١
(٤٥) بونابرت عن رسالة بليار الى ديزيه .
(٤٦) « عن : La Jonquiere III. 598.
(٤٧) الرافعي جـ ١
(٤٨) وليم سليمان – مجلة الطليعة – اكتوبر ١٩٦٩ عن : NADV. SAFRAN.
Egypt in search of political Community. London 1961 P. 150.
(٤٩) الرافعي عن : يوميات الجنرال لوجيه .
(٥٠) « عن : يوميات الكابتن سافاري الذي أصبح الدوق « روفيجو » .
(٥١) « جـ ١
(٥٢) « عن : تعليمات نابليون « لمارمون » .
(٥٣) « عن : خطاب الجنرال مورا الى نابليون ٤ ديسمبر ١٧٩٨
(٥٤) « عن : الجنرال لوجيه .
(٥٥) الجبرتي جـ ٣
(٥٦) الرافعي جـ ٢ التاريخ العلمي والحربي للحملة الفرنسية الجزء الخامس.
(٥٧) الرافعي عن : « ريبو » في التاريخ العلمي والحربي للحملة الفرنسية . الجزء الخامس.
(٥٨) الجبرتي جـ ٣
(٥٩) الرافعي عن : مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٩٧١ .

الفصل : الرابع

(من ١ الى ٣) الجبرتي جـ ٣
(٤) الرافعي عن : التاريخ العلمي والحربي للحملة الفرنسية– الجزء الرابع .
(٥) « عن : مذكرات نابليـــون التي املاها على الجنرال برتران في سانت هيلين .
(٦) « جـ ١
(٧) الجبرتي جـ ٣

(٨) بونابرت عن : Corespondance V. 89 - 90.
(٩) الجبرتي جـ ٣
(١٠) بونابرت .
(١١ ، ١٢) بونابرت .
(١٣ ، ١٤) الرافعي جـ ١
(١٥) الرافعي عن : دي لاجونكيير – الجزء الثالث .
(١٦) الجبرتي جـ ٣
(١٧) ٢٦٦ بونابرت .
(١٨) بونابرت عن المراسلات جـ ٥
(١٩) الجبرتي جـ ٣
(٢٠) الرافعي جـ ١
(٢١) » عن مذكرات نابليون .
(٢٢) » عن مراسلات نابليون الجزء الخاص وثيقة رقم ٤٠٢٨ .
(٢٣) الجبرتي جـ ٣
(٢٤) الرافعي جـ ١
(٢٥) بونابرت عن : Vertray P. 86.
(٢٦) » عن : مراسلات الخامس ٧٩ – ٩٠
(٢٧) هيرولد – بونابرت في مصر .
(٢٨) ن.م.
(٢٩) الرافعي عن جريدة كوريية دليجيبت العدد الصادر في ٢٠ بروميير (١ نوفمبر ١٧٩٨)
(٣٠) الجبرتي جـ ٣
(٣١) بونابرت عن : Denon I. 107
(٣٢) » عن مراسلات ٥
(٣٣) الرافعي جـ ١
(٣٤) الرافعي عن مذكرات بورين الجزء الأول .
(٣٥) بونابرت عن المراسلات ٣٠
(٣٦) » عن Bourrienne Vol. 11 Ch. XV.
(٣٧) » عن La Jonquière IV. 271
(٣٨–٣٩) بونابرت .
(٤٠) بونابرت عن La Janquière V. 23

الفصل : الخامس

(١) الجبرتي ج ٣
(٢) ن.م.
(٣) بونابرت .
(٤) ن.م.
(٥) بونابرت عن Correspondance. XXIX 481 - 82
(من ٦ الى ٨) لويس عوض (تاريخ الفكر) ج ٢
(من ٩ الى ١١) الرافعي ج ١
(١٢) لويس عوض ج ٢
(١٣) الجبرتي .
(١٤) لويس عوض ج ٢
(١٥) ن.م.
(١٦) الجبرتي .
(١٧) الرافعي ج ٢
(١٨) « ج ٢
(١٩) الجبرتي ج ٣
(٢٠) الرافعي ج ٢
(٢١) « عن تقرير نابليون الى حكومة الديركتوار .
(٢٢) لويس عوض ج ٢
(٢٣) الرافعي ج ٢
(٢٤ ، ٢٥) لويس عوض : المؤثرات الاجنبية .
(من ٢٦ الى ٢٨) لويس عوض: تاريخ الفكر .
(٢٩) لويس عوض
(٣٠) ل. ع. المؤثرات الأجنبية .
(٣١) ل. ع. تاريخ الفكر – الجزء الاول .
(من٣٢ الى٣٤) ل. ع. المؤثرات الأجنبية .

(٣٥) ل. ع.
(٣٦) وليم سليمان مجلة الطليعة اكتوبر ١٩٦٩
(٣٧ ، ٣٨) الرافعي جـ ٢
(من ٣٩ الى ٤١) ن.م.
(٤٢) الجبرتي جـ ٣
(٤٣) الرافعي جـ ٢
(٤٤) « جـ ١
(٤٥) لويس عوض – المؤثرات الأجنبية .
(من ٤٦ الى ٤٨) ن.م.
(٤٩) الجبرتي جـ ٣
(٥٠) الرافعي جـ ١
(٥١) بونابرت .
(٥٢) بونابرت عن : Belliard, Histoire, Cited in Ivray P. 33
(٥٣) الجبرتي جـ ٣

الفصل : السادس

(١) الرافعي جـ ١
(٢) « جـ ٢
(٣) ن.م.
(٤) الرافعي عن:التاريخ العلمي والحربي للحملة الفرنسية – الجزء السابع .
(٥) « عن : يوميات وذكريات عن حملة مصر .
(٦) الجبرتي جـ ٣
(٧) ن.م.
(من ٨ الى ١١) بونابرت .
(١٢) ن.م.
(١٣) لويس عوض – المؤثرات الاجنبية .
(١٤) الجبرتي جـ ٣
(١٥) ل. ع. تاريخ الفكر المصري .
(١٦) ل. ع. المؤثرات .
(١٧ ، ١٨) الجبرتي جـ ٣

(من ١٩ الى ٢٤) الجبرتي ج ٣
(٢٥) الرافعي - الجزء الثاني .
(٢٦ ، ٢٧) الجبرتي ج ٣
(من ٢٨ الى ٣٠) الرافعي ج ٢
(٣١) الرافعي عن : كتاب صورة مصر اثناء اقامة الجيش الفرنسي للمسيو جالان احد اعضاء بعثة العلوم والفنون في عهد الحملة الفرنسية .
(٣٢) ن.م.
(٣٣) الجبرتي ج ٣
(٣٤) الرافعي ج ٢
(٣٥) « عن كتاب : الجنرال عبد الله منو والفترة الاخيرة من الحملة الفرنسية تأليف المسو ريجو .
(٣٦) الجبرتي ج ٣
(٣٧ ، ٣٨) ن.م.
(٣٩) الجبرتي ج ٣
(٤٠) مورهيد .
(٤١) بونابرت عن الجبرتي .
(٤٢) حسين فوزي - سندباد مصري .
(٤٣) د. وليم سليمان الطليعة - ديسمبر ١٩٦٦
(٤٤) د. وليم سليمان عن تاريخ الكنيسة القبطية للشماس منسي القمص - الطبعة الأولى ١٩٢٤
(٤٥) د. وليم سليمان عن جاك تاجر .
(٤٦) د. وليم سليمان عن : In the Valley of the Nile P. 221
(٤٧) ن.م.
(٤٨ ، ٤٩) الرافعي ج ١
(٥٠ ، ٥١) الجبرتي ج ٣
(٥٢ ، ٥٣) الرافعي ج ١
(٥٤ ، ٥٥) بونابرت .
(٥٦) بونابرت عن : Lavallette I. 312
(٥٧،٥٨) »
(٥٩) » عن : Correspondance XXX 36 - 37
(من ٦٠ الى ٧٣) الجبرتي ج ٣

(٧٤) جاك تاجر : « اقباط ومسلمون » عن البند الرابع من الأمر المؤرخ ١٠ فاندميير عام ١٠ للثورة الفرنسية .
(من ٧٥ الى ٧٩) الجبرتي ج ٣
(٨٠) جاك تاجر - اقباط ومسلمون .
(٨١ ، ٨٢) ن.م.

الفصل : السابع

(١) الجبرتي ج ٣
قد كان يجدر بنا ان نخصص فصلاً كاملاً عن مظاهر الوحدة العربية في مواجهة الهجمة الاستعمارية الوحشية ، لكن رأينا أن نفرد لهذا الأمر دراسة شاملة ، واكتفينا بهذا الهامش كمجرد إشارة لطبيعة الوحدة العربية ذات الروح الاسلامية التي هبت تقاوم غزو مصر ، وتشترك مع المصريين في مجاهدة العدو ، على نحو لم يتكرر له مثيل الى العصر الحاضر ، رغم كل الصفحات التي سودناها ، والأشرطة التي سجلناها في الحديث عن الوحدة المصيرية .

يقول الجبرتي : « ان رجلاً مغربياً يقال له الشيخ الكيلاني ، كان مجاوراً بمكة والمدينة والطائف . فلما وردت اخبار الفرنسيس الى الحجاز وانهم ملكوا الديار المصرية انزعج اهل الحجاز لذلك وضجوا بالحرم وجردوا الكعبة وان هذا الشيخ صار يعظ الناس ويدعوهم الى الجهاد ويحرضهم على نصرة الحق والدين وقرأ بالحرم كتاباً مؤلفاً في معنى ذلك فاتعظ جملة من الناس وبذلوا أموالهم وأنفسهم واجتمع نحو الستمائة من المجاهدين وركبوا البحر الى القصير مع ما انضم اليهم من أهل ينبع وخلافه فورد الخبر في اواخرة (رجب ١٢١٣ - ديسمبر ١٧٩٨) انه انضم اليهم جملة من أهل الصعيد وبعض أتراك ومغاربة ممن كان خرج معهم مع ُغز مصر عند وقعة انبابه وركب الغز معهم ايضا وحاربوا الفرنسيس فلم تثبت الغز كعادتهم وانهزموا وتبعهم هوارة الصعيد والمتجمعة من القرى . وثبت الحجازيون ثم انكفوا لقلتهم وذلك بناحية جرجا وهرب الغز والمماليك الى ناحية اسنا» .

وعن هؤلاء المتطوعين من الجزيرة العربية يقول هيرولد : « كان أرهب امداد « مراد » هم المقاتلون العرب القادمون من الحجاز ، الذين عبروا البحر الأحمر بالألوف ، وقد زعموا كلهم انهم من سلالة الرسول ، وكانوا يلبسون العمائم الخضراء ، ويحملون البنادق والسيوف والرماح والخناجر ، وفي خلقهم صلابة تنطق بها وجوههم . وقد تبين ان كثيراً منهم من الحجاج المغاربة الذين التقطوا بسرعة في الطريق ، ولكن اكثرهم - وأشدهم تعصباً بالطبع - عرب خلص من شبه الجزيرة ، ومع أن شريف مكة لم يشجعهم بالضبط على الانضمام الى مراد ، فانه لم يفعل شيئاً ليثنيهم . وقد ارسل في الوقت ذاته الرسائل الودية لبونابرت لأن موارده كانت تعتمد الى حد كبير على ما يصدره من البن الى مصر . وتجمع الروايات على ان « المكيين » أو « اشراف

ينبع » كما سماهم الفرنسيون هؤلاء المقاتلين ذوي الجلود البرونزية والأجساد النحيلة ، كانوا مصداقاً لحكم بونابرت على العرب : « ان ضراوتهم لا يعدلها الا انحطاط مستوى معيشتهم ، لأنهم معرضون أبدا للرمال الساخنة والشمس المحرقة ، محرومون من الماء . لا رحمة في قلوبهم ولا عهد . فهم صورة مجسمة للرجل المتوحش كأبشع ما يتصوره العقل . وكان هؤلاء الرجال من سلالة اسلافهم الذين فتحوا نصف العالم قبل أحد عشر قرناً قد جاءوا في عام ١٧٩٨ ليقاتلوا الفرنسيين الكافرين بنفس الايمان » .

« ونزلت كل الامداد العربية في ثغر القصير الصغير . واتفق انه حين وصلت أول قوة عربية كان بونابرت قد أرسل لتوه أسطولاً صغيراً من السويس ليحتل القصير . ووصل الاسطول الفرنسي والاسطول المكي في وقت واحد ، وهو اتفاق ما كان في استطاعة بونابرت أن يتكهن به ، وضرب الاسطول الفرنسي ضرباً شديداً ، وقفل راجعاً الى السويس ، واختتم قائده تقريره راجياً الا يرسل مستقبلاً في مهام مستحيلة التنفيذ كهذه المهمة» (٢) .

ولم تقتصر المشاركة العربية على عرب المشرق الذين رأيناهم يساهمون بالجنود والمتطوعين من الحجاز ، والفدائيين من حلب ، بل امتدت لتشمل عرب المغرب ، وقد لعب المجاهدون من المغرب دوراً بارزاً في اعمال المقاومة ، بل وتحتل شخصية مغربية مكانة أسطورية في هذه الفترة فقد روى الجبرتي : « وورد عليهم رجل مغربي يدعى المهدوية ، ويدعو الناس ويحرضهم على الجهاد وصحبته نحو الثمانين نفراً فكان يكاتب أهل البلاد ويدعوهم الى الجهاد فاجتمع عليه أهل البحيرة وغيرهم وحضروا الى دمنهور وقاتلوا من بها من الفرنساوية واستمر اياماً كثيرة يجتمع عليه أهل تلك النواحي وتفترق والمغربي المذكور تارة يغرب وتارة يشرق » (٣) .

وقد مر بنا بعض من المقاومة التي استثارها هؤلاء المغاربة. وهكذا نجد ابناء الجزيرة العربية يقاتلون في أسيوط ، وابناء المغرب يحررون دمنهور ، وبطل من حلب يعدم على الخازوق في القاهرة ، لأنه نفذ أبرع عملية ارهابية ضد قوات الاحتلال .

فإذا ما تأملنا حجم المساهمة العربية في معركة ١٩٦٧ نجد اننا لم نتقدم كثيراً في ميدان الوحدة العربية ، بعد « تخليص مفهوم القومية من الترسبات الدينية » بل الأصدق ان نقول اننا قد تقهقرنا كثيرا ..!

(٢) بونابرت .
(٣) الجبرتي ج ٣
(٤) بونابرت .
(٥) ن.م.
(٦) الجبرتي عن محضر التحقيق في مصرع كليبر .
(٧) بونابرت عن : François I, 430
(٨) »
(٩) ن.م.

(١٠) ن.م.
(١١ ، ١٢) لويس عوض تاريخ الفكر – الجزء الثاني .
(١٣ ، ١٤) الرافعي جـ ٢
(١٥) ن.م.
(١٦) نقولا الترك .
(١٧) الجبرتي جـ ٣
(١٨) لويس عوض تاريخ الفكر الجزء الثاني.
(١٩) الجبرتي جـ٣
(٢٠) « جـ١
(٢١) لويس عوض تاريخ الفكر جـ ١
(٢٢) ن.م.
(٢٣) بونابرت
(٢٤) لويس عوض – تاريخ الفكر جـ ٢
(٢٥) بونابرت
(٢٦) الجبرتي جـ ٣
(٢٧) بونابرت
(٢٨) « عن : المراسلات الخامس .
(٢٩) الرافعي جـ ١
(٣٠) الجبرتي جـ ٤
(٣١) الرافعي عن التاريخ العلمي والحربي للحملة الفرنسية – الجزء الثالث .
(٣٢ ، ٣٣) الجبرتي جـ ٣
(٣٤) بونابرت عن : Sauzet P, 188
(٣٥) بونابرت عن : La Jonquière III, 136 - 165, Belliard, Histoire IV, 113 - 115
(٣٦) مورهيد
(٣٧) بونابرت
(٣٨) « عن : Correspondance V, 192
(٣٩ ، ٤٠) ن.م.
(٤١) بونابرت
(٤٢) لويس عوض – تاريخ الفكر جـ ٢
(٤٣) الجبرتي جـ ٣
(٤٤) بونابرت

(٤٥) الجبرتي ج ٣

الفصل : الثامن

(١ ، ٢) بونابرت
(٣) الجبرتي ج ٣
(٤) بونابرت La Jonquière IV, 39
(٥ ، ٦) بونابرت
(٧) بونابرت عن : La Jonquière III, 598
(٨ ، ٩) بونابرت
(١٠) بونابرت عن : La jonquiere II, 63
(١١ ، ١٢) بونابرت
(١٣) الجبرتي ج ٣
(١٤) بونابرت
(من ١٥ الى ١٧) الجبرتي ج ٣
(١٨) لويس عوض – تاريخ الفكر ج ٢
(١٩) مورهيد
(٢٠) لويس عوض : المؤثرات الأجنبية .
(٢١ ، ٢٢) الجبرتي ج ٣
(٢٣) الجنرل يعقوب لشفيق غربال .
(٢٤) الرافعي ج ١
(٢٥) « ج ٢
(٢٦) الجبرتي ج ٣
(٢٧) البند العاشر من اتفاقية العريش .
(٢٨) الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس (محمد شفيق غربال ١٩٣٢) .
(٢٩) لويس عوض : المؤثرات الأجنبية .
(من ٣٠ الى ٣٢) ن.م.
(٣٣) ولسن تاريخ الحملة البريطانية على مصر .
(٣٤) بونابرت
(٣٥) الرافعي ج ١ عن : تقرير الضابط الفرنسي شاربيه .
(٣٦) الرافعي ج ١
(من ٣٧ الى ٣٩) لويس عوض: المؤثرات الأجنبية – المبحث الثاني .

(٤٠) بونابرت
(٤١) جاك تاجر : اقباط ومسلمون .
(٤٢) مجلة الطليعة – ديسمبر ١٩٦٦
(٤٣) الجبرتي ج ١
(٤٤) « ج ٣
(٤٥) لويس عوض – المؤثرات الأجنبية – المبحث الثاني – طبعة ١٩٦٣
(٤٦ ، ٤٧) لويس عوض – تاريخ الفكر – طبعة سنة ١٩٦٩
(٤٨) الجبرتي حـ ٢
(٤٩) « حـ ١
(٥٠) « حـ ٣
(٥١) ن.م.
(من ٥٢ الى ٥٥) الجبرتي – الجزء الثالث .
(٥٦) الجبرتي حـ ٢
(٥٧ ، ٥٨) الجبرتي حـ ٣
(٥٩) الرافعي حـ ١
(٦٠) الجبرتي حـ ١
(٦١) بونابرت .
(٦٢) « عن : Correspondance XXIX 493
(٦٣) لويس – تاريخ الفكر حـ ٢
(من ٦٤ الى ٦٧) الجبرتي حـ ٣

الفصل : التاسع

(١ ، ٢) الجبرتي حـ ٣
(٣) مورهيد .
(٤) بونابرت .
(من ٥ الى ١٦) الجبرتي حـ ٣

فهرست

	صفحة
خطبة الكتاب	٧
مدخـــل	٢٣
الفصل الأول : قبل ان يختل الناموس	٣١
هل كانت مصر مستعمرة تركية ؟	٣٣
نظرة على المجتمع المصري	٥١
الصفحة الاخيرة	٥٥
المتعممون	٧٣
العـــامة	٩٨
المحاولة الاخيرة	١٠٦
المحاولة العثمانية	١١٢
الفصل الثاني : نابليون والمهمة الحضارية	١٢٣
سأستعمر مصر	١٢٥
بلاد السلطان	١٣٢
محبنا السلطان العثماني	١٤٥

صفحة

الفصل الثالث : المدفع والمنشور ١٦٣

الدجال يدخل القاهرة ١٦٥

المقاومة والتنكيل ١٨٢

الفصل الرابع : وثارت مدينتي ٢١٥

تنظيم الثورة ٢١٧

مع الثورة ٢٢٨

الفصل الخامس : المؤسسات الاستعمارية ٢٤٩

وايش يكون نفعكم ٢٥١

التفسير الاستعماري ٢٥٨

المتعاونون ٢٨٦

الفصل السادس : الثورة الخالدة ٢٩١

ثورة القاهرة الثانية ٢٩٣

الثورة الصناعية ٣٢٦

الشربتلي والليمونة ٣٣٦

محاولة تمزيق الوحدة الوطنية ٣٤٩

الفصل السابع : الليمونة سحقت الشربتلي ٣٧٣

نادرة ولكنها غير عجيبة ٣٧٥

المحاكمة ٣٨٤

تحرير المرأة من تحت الزنار ٣٩٥

مطلق الانثى .. ومطلق التزوير ٤١٥

الفصل الثامن : الجنرال العميل والشيخ المؤرخ ٤١٩

صفحة

يعقوب يبحث عن سيد	٤٢١
الجبرتي ونخبة عصره	٤٦٤
المشايخ والتكنولوجيا	٤٨٥
الفصل التاسع : ولله الحمد والمنه	٤٩٥
زوال الفرنسيس	٤٩٧
الهوامش والمراجع	٥١٣

صـــدر للمؤلف

مصريون لا طوائف		١٩٥٠
الجبهة الشعبية		١٩٥١
قانون الاحزاب		١٩٥٢
روسي وامريكي في اليمن		١٩٥٧
شرف المهنـــة		١٩٦١
الغزو الفكري	الطبعة الثالثة	١٩٦٨
الماركسية والغزو الفكري	الطبعة الثالثة	١٩٦٨
دراسة في فكر منحل	الطبعة الثانية	١٩٧٠
اخطر من النكسة	الطبعة الثانية	١٩٧٠
الحق المـــر	الطبعة الثانية	١٩٧٠
النكسة والغزو الفكري	الطبعة الثانية	١٩٦٩
طريق المسلمين الى الثورة الصناعية		١٩٦٩
الجهاد ثورتنا الدائمة		١٩٦٩
ماذا يريد الطلبة المصريون	الطبعة الثانية	١٩٦٩

ايلي كوهين من جديد		١٩٦٨
الثورة الفلسطينية		١٩٧٠
القوميه والغزو الفكري	الطبعة الثانية	١٩٧٠
من احوال المصطفى	الطبعة الثانية	١٩٧١
حكايات عن عمر	الطبعة الثانية	١٩٦٩
ابو ذر والحق المر		١٩٦٩





الثمن ٨ ليرات لبنانية